المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
1401AH - 1981AC

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

علم النفس في التراث الإسلامي

الجزء الأول

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد
د. أسامة سعد أبو سريع
د. الحسين محمد عبد المنعم
د. جمعة سيد يوسف
د. شعبان جاب الله رضوان
د. طريف شوقي محمد
د. عبد اللطيف محمد خليفة
د. عبد المنعم شحاتة محمود
د. محمد أحمد شلبي
د. محمد نجيب الصبوة
د. معتز سيد عبد الله

إشراف وتقديم
أ. د. محمد عثمان نجاتي
أ. د. عبد الحليم محمود السيد

مكتبة
مؤمن قريش

عِلْمُ النَّفْسِ

في التُّراثِ الإسلامي

مكتبة
مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

علم النفس في التراث الإسلامي / إبراهيم شوقي عبد الحميد ... [وآخ] ؛ إشراف وتقديم / محمد عثمان نجاتي ، عبد الحليم محمود السيد . ط١ . - القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨م .
٣ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٦٥٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - علم النفس الإسلامي .

٢١٠,١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

علم النفس

في التراث الإسلامي

الجزء الأول

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد — د. طريف شوقي محمد

د. أسامة سعد أبو سريع — د. عبد اللطيف محمد خليفة

د. الحسين محمد عبد المنعم — د. عبد المنعم شحاته محمود

د. جمعة سيد يوسف — د. محمد أحمد شلبي

د. شعبان جاب الله رضوان — د. محمد نجيب الصبوة

د. معتز سيد عبد الله

إشراف وتقديم

أ. د. محمد عثمان نجاتي — أ. د. عبد الحليم محمود السيد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس محتويات الجزء الأول

الموضوع [1]	الصفحة
– تصدير	١٣
– تقديم : أ . د / محمد عثمان نجاتي	١٧
– تقديم : أ . د / عبد الحليم محمود السيد	٢٥
علم النفس في التراث الإسلامي	٢٩
– ابن سيرين (ت ١١٠هـ)	
• تعبير الرؤيا	٣١
– ابن المقفع (ت ١٤٢هـ)	
• الأدب الصغير	٤٠
• كليلة ودمنة / الأدب الكبير	٤٤
• يتيمة السلطان	٤٩
• الدرة أو الأدب الكبير	٥٢
• رسالة في الصحابة	٦٠
– وكيع بن الجراح (ت ١٩٨هـ)	
• كتاب الزهد	٦٢
– أبو سعيد الهرثمي (ت ٢٣٤هـ)	
• مختصر سياسة الحروب	٧٣
– أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)	
• كتاب الورع	٨١

(١) رتبت الأسماء تبعًا لتاريخ الوفاة .

- الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)
• الرعاية لحقوق الله ٨٥
• العقل وفهم القرآن ٩٣
• شرف العقل وماهيته ٩٧
• التوبة ١٠١
• المسائل في أعمال القلوب والجوارح ١٠٦
• الوصايا : النصائح - بدء من أناب إلى الله - فهم الصلاة - التوهم ١١٣
• القصد والرجوع إلى الله ١١٧
• التوهم ١٢٤
• آداب النفوس ١٢٦
• رسالة المسترشدين ١٣١
- الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)
• البيان والتبيين : الكتاب الثاني ١٣٦
• البخلاء ١٥١
• التاج في أخلاق الملوك ١٥٨
• الحيوان ١٦٤
- الكندي (ت ٢٥٦هـ)
• رسائل الكندي ١٩٥
- ابن سحنون (ت ٢٥٦هـ)
• رسالة آداب المعلمين ٢٠٠
- ابن أبي الربيع (ت ٢٧٢هـ)
• سلوك المالك في تدبير الممالك ٢٠٥
- أبو سعيد الخراز (ت ٢٧٧هـ)
• الطريق إلى الله ، أو كتاب الصدق ٢١١

- ابن المدبر (ت ٢٧٩هـ)
- الرسالة العذراء ٢١٦
- ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)
- كتاب الشكر ٢٢٢
- محاسبة النفس والإزراء عليها ٢٢٦
- الإخوان : المتحابون في الله - بشاشة الأخ لأخيه ٢٢٩
- مجموعة الرسائل ٢٣٤
- التواضع والخمول ٢٤٠
- مكارم الأخلاق ٢٤٣
- العقل وفضله ٢٤٧
- الصمت وآداب اللسان ٢٥٠
- أبو بكر الفريابي (ت ٣٠١هـ)
- صفة النفاق وذم المنافقين ٢٥٣
- زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ)
- النفس والروح ٢٥٨
- من لا يحضره الطبيب ٢٦٥
- رسائل فلسفية مضافًا إليها قطع من كتبه المفقودة ٢٦٩
- أبو عبد الله الترمذي (ت ٣٢٠هـ)
- رسالة مكر النفس ٢٧٤
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٢٨٠
- كتاب الرياضة وأدب النفس ٢٨٥
- أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ)
- مصالح الأبدان والأنفس ٢٩٠
- أبو بكر الخرائطي (ت ٣٢٧هـ)
- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ٢٩٨

- أبو النصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ)
- آراء أهل المدينة الفاضلة ٣٠٤
- كتاب تحصيل السعادة ٣١٢
- رسالة العقل ٣١٧
- التنبيه على سبيل السعادة ٣٢٠
- ابن الأعرابي (ت ٣٤٠هـ)
- الزهد وصفة الزاهدين ٣٢٥
- ابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٣٢٩
- أبو بكر الآجري (ت ٣٦٠هـ)
- أخلاق أهل القرآن ٣٣٥
- ابن عدي (ت ٣٦٤هـ)
- تهذيب الأخلاق ٣٤٢
- أبو جعفر القيرواني (ت ٣٦٩هـ)
- سياسة الصبيان وتدبيرهم ٣٥٠
- السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)
- قرة العيون ومفرح القلب المحزون ٣٥٤
- العامري النيسابوري (ت ٣٨١هـ)
- الأمد على الأبد ٣٥٨
- التنوخي (ت ٣٨٤هـ)
- الفرج بعد الشدة ٣٦٤
- أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ٣٧١
- أبو سليمان البستي (ت ٣٨٨هـ)
- العزلة ٣٨٥

- إخوان الصفا (القرن الرابع)
- رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا ٣٩٢
- أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)
- المقابسات ٤١٥
- ثلاث رسائل ٤٢٤
- البصائر والذخائر ٤٢٩
- الصداقة والصديق ٤٣٣
- الإشارات الإلهية ٤٣٩
- الإمتاع والمؤانسة ٤٤٢
- القابسي (ت ٤٠٣هـ)
- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ٤٥٣
- النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)
- عقلاء المجانين ٤٦٠
- القرطبي (ت ٤٠٧هـ)
- الزهد ٤٦٤
- الكرماني (ت ٤١١هـ)
- مجموعة رسائل الكرماني ٤٧١
- الأقوال الذهبية ٤٧٨
- راحة العقل ٤٨٤
- أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ)
- طبقات الصوفية ٤٨٨
- ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ)
- الفوز الأصغر ٤٩٤
- السعادة في فلسفة الأخلاق ٤٩٨
- تهذيب الأخلاق المسمى « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ٥٠٢

- ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)

- كتاب النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعة الإلهية ٥٠٨
- أحوال النفس : رسالة في النفس وبقائها ومعادها ٥١٤
- القانون في الطب ٥٢٣
- الشفاء : الطبيعيات : ٦ - النفس ٥٢٩
- النجاة : مختصر الشفاء ٥٣٦
- الإشارات والتنبيهات ٥٤٠
- رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ٥٤٦
- دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير ٥٤٩
- كتاب السياسة ٥٥٢
- رسائل متفرقة ٥٥٦

* * *

تصدير

الحمد للّٰه ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللّٰه وآله وصحبه ، وبعد :

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا اكتشف الإنسان واخترع كمًّا هائلًا من المكتشفات والمخترعات التي غيَّرت تغييرًا جذريًّا حياة الإنسان ، ولم تجعله يعيش أمسه في يومه كما كان يفعل قبل ذلك ، فنشأت بذلك أحوال جديدة ، وبيئة مختلفة ، ولدت أفكارًا وسلوكًا غير الذي كان ، ووضعت الإنسان في بيئة يغلب فيها أن يسبق العمل والنشاط الفكرَ والمتأمل ، وأثر هذا في العلاقات بين الأفراد وبين الأمم ، وفي النفس البشرية وكيفية تعاملها مع الواقع وأحدث أزمات كثيرة في جوانب شتى ، فاحتاج المسلم في هذه الحالة إلى أن يحدِّد طرق التعامل مع مصدري المعرفة عنده ، وهما : الوحي والوجود تحديدًا يجعله قادرًا على التفاعل مع عصره في إطار كلمة اللّٰه للعالمين التي تبيِّن مراد اللّٰه من خلقه ، وترسم المثال الذي ينبغي أن يصل إليه الإنسان .

وهذا إنما يتم بمجموعة عمليات فكرية ومعرفية ، وأخرى بحثية وعلمية ، تستهدف إعادة تشكيل العقل المسلم ، وتبني نسقًا فكريًّا ونموذجًا معرفيًّا يستفيد من نتاج الفكر البشري ، سواء قد صدر هذا النتاج من خلال التزام منهجي بالوحي خلال القرون المتتالية وهو ما نسميه بالتراث الإسلامي ، أم صدر من نتاج فكر بشري غير ملتزم بهذا الوحي بل يهتم اهتمامًا أساسيًّا يكاد يكون وحيدًا بالواقع ؛ كالفكر الإنساني عامة ونتاج الفكر الغربي على وجه الخصوص ، خاصة ما يتعلق بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ، ومن هنا كان مشروع إسلامية المعرفة يحتاج إلى ممهدات يبيِّن فيها المفكر المسلم موقفه من كيفية التعامل مع كتاب اللّٰه باعتباره « المطلق » الذي هو خارج الزمان والمكان والأشخاص ، والذي هو كلمة اللّٰه للعالمين في كل زمان ومكان ، وأن يحدد أيضًا كيفية التعامل مع صحيح السنة المشرَّفة باعتبارها التطبيق المعصوم لكلام اللّٰه المطلق في الواقع النسبي ، ذلك التطبيق الذي أمرنا باتباعه ، والذي نستنبط منه المنهج والطريق لإيقاع المطلق على « النسبي » في كل الأحوال ، وأن يحدد أيضًا كيف يتعامل مع التراث الإسلامي ، وكيف يتعامل مع التراث الإنساني بمناهج عادلة تتأبَّى الوقوع في الرفض المطلق لهذا النتاج أو ذاك ، أو القبول المطلق كذلك ، أو الانتقاء العشوائي ؛ حيث تعد هذه المواقف ساذجة

وتؤدي إلى التقليد الأعمى ، أو إلى اتباع الهدى ، وينبغي عليه أيضًا أن يحدد للنموذج المعرفي في إطاره الإسلامي ، وأن يحدد المنهجية التي يستطيع بها التعامل مع الأفكار ، وتوليد العلوم المختلفة ؛ لإدراك الواقع ، إن هذه المحاور الستة لازمة للبَدْء في إسلامية المعرفة باعتبارها عملًا فكريًا ومعرفيًا لا نهاية له ، بل هو مستمر أبدًا .

وعلى محور كيفية التعامل مع التراث نجد أنفسنا في احتياج إلى أدوات يستطيع الباحث والمفكر بها أن يبدأ نشاطه في هذا المجال ، فطبيعة التراث الإسلامي أنه واسع في مساحته الزمانية والمكانية ، وفي مجاله ومدارسه ، فلو اعتبرنا أن التراث هو النتاج البشري المنقول شفويًا وكتابيًا للأمة الإسلامية قبل مائة عام من الآن لوجدنا أنفسنا أمام تراث كبير في مساحته الزمانية يشمل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ، ومساحة مكانية من الأندلس غربًا إلى الهند شرقًا ، ومن شمال إفريقيا إلى جنوبها ، ونجده متشعب الجوانب في فنونه المختلفة ، وعلومه المتعددة ، وفي مدارسه ومذاهبه الكثيرة ، بل وفي أنماط تفكير الناس ، ونجده أيضًا ذا نموذج معرفي متميز نحاول أن نلتمس مفاتحه ، وأن نضع أداة نستطيع بها أن نقرأ النص التراثي فنفهمه أولًا ، ونناقشه ثانيًا ، ونقبله أو نرفضه عن وعي واجتهاد ثالثًا ، لا عن مجرد الرفض أو عن الجهل بمعناه ، وذلك كله بعد أن نقوم بعملية توثيق للنص التراثي ، كل هذا يكون مقدمة للتأمل فيه ؛ لاستنباط منهاجه ، والتجاوز عن مسائله التي قد تكون زمانية مرتبطة بظرفها الذي نشأت فيه ، أو أن نضيف إلى ما استنبطناه من مناهج مناهج أخرى ، أو أن نطوِّر تلك المناهج حتى نستفيد الفائدة المرجوة من التراث ويكون دافعًا وباعثًا لمجموعة العمليات الفكرية والمعرفية المتعلقة بمجال معين .

ومن هنا ظهرت فكرة تكشيف التراث كخطوة أولى من خطوات الخدمة التي نتحدث عنها ، ونعني :

١ - توثيق التراث .

٢ - فهم التراث .

٣ - حجية التراث .

٤ - تواصل التراث .

والتكشيف نعني به الدلالة عن مواطن الأفكار المختلفة المتعلقة بموضوع واحد ، وكيف انتقلت من مدرسة إلى أخرى ، أو من شخص إلى آخر ، أو من نموذج معرفي إلى نموذج معرفي مختلف عنه ، وهذه الخطوة هي خطوة لبناء الأداة ، وليست عملية

فكرية ، ومن هنا فإن عمليات التكشيف ليست من عمليات إسلامية المعرفة بل من العمليات الأوَّلية التي توفِّر الجهد وتيسِّر المعلومة .

من خلال هذه النظرة قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي بمكتب القاهرة بتكوين فريق علمي من أساتذة علم النفس والمختصِّين فيه لتكشيف ما في التراث الإسلامي من المفاهيم النفسية حتى يكون دليلًا للباحثين في هذا المجال ، وتمَّ تتبع أكثر من مائتي كتاب لاستخراج ما فيه من مفاهيم تتعلق بموضوعات علم النفس وما يثار فيهما لتبيِّن الآراء المختلفة حول هذه الموضوعات ، وكيفية معالجتها ، فالعلوم تتكوَّن من مسائل هي عبارة عن جملة مفيدة ، والجملة المفيدة هي عبارة عن مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل بما يسميه البلاغيون المسند إليه والمسند ، فهناك ما نضعه موضوعًا نتكلم إليه ونخبر عنه ، وهو المبتدأ أو الفاعل ، وهناك ما نخبر به ، وهو الخبر والفعل ، والذي يجعلنا نسند الخبر إلى المبتدأ قد يكون هو الحس والمشاهدة ؛ مثل قولنا : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، وقد يكون هو التجربة والتكرار ؛ مثل قولنا : النار محرقة ، وقد يكون هو التفكير العقلي ؛ مثل قولنا : ١ + ١ = ٢ ، وقد يكون هو الوحي ؛ مثل قولنا : الصلاة واجبة ، وقد يكون هو العرف الذي تعارف عليه الناس ، وقد يكون هو اللغة ، أو نقل اللغة ؛ مثل قولنا : الفاعل مرفوع ، وفي كل هذا يمثل النموذج المعرفي ، والإطار الذي يحدد الباعث لإنشاء الجملة المفيدة ، والذي جعل مصدر معرفته الوجود فقط سينشئ جملًا مختلفة عن ذلك ، جعل مصدر المعرفة الوحي والوجود معًا ، ومع وجود هذا الاختلاف فإن تلك الفقرات التي تم تكشفها من هذا العدد الكبير من الكتب سيختلف حتى ولو اتفقت ظاهريًّا في نقاط تقاطع الدوائر المختلفة ، فإن هذا الاتفاق لا يعدو أن يكون اتفاقًا في الصورة ، حيث يختلف النموذج المعرفي الإسلامي عن النموذج الغربي اختلافًا بيِّنًا ومن هنا فلا ينبغي أبدًا ركوب طريق المقاربات أو المقارنات ، فالأول يحاول أن يجعل كل ما توصل إليه العلم الغربي مذكورًا في تراث المسلمين ، بل وفي كتابهم وسنة نبيهم ، والثاني يحاول أن يدعي الفرق دائمًا بينهما ، وهي مناهج غير علمية ، بل الذي ينبغي أن يكون إنما هو قضية التأصيل بأن يخبر العالم أو المفكر المسلم في جمله المفيدة بما يراه الحق في إطار مصادر معرفته التي آمن بها ، وفي إطار نموذجه المعرفي .

وكان ينبغي أن يتم هذا المشروع على المطبوع والمخطوط معًا من التراث الإسلامي ، إلا أن ذلك قد تعذر ؛ لاحتياجه إلى إمكانيات ليست في طاقتنا وإلى زمن وفرق عمل ليست في مقدورنا ، فاكتفينا بالمطبوع أو قل ما تيسَّر منه عملًا بقولهم : ما لا يدرك

كله لا يترك جله .

ولقد تمت طبعة تجريبية في مائة نسخة وُزِّعت على المختصين والعلماء ؛ لإبداء الرأي فيما ورد فيها منهجًا وتفصيلًا إلا أننا - بعد ست سنوات من تلك الطباعة التجريبية ومع المتابعة - لم نتلق من هؤلاء المائة إلا ردَّين أحدهما قاصر على المجلَّد الأول من المجلدات الثلاث ، ولا يخفى ما في ذلك من دلالة تبيِّن حالة الهمم في عصرنا الحاضر ، وهذا ما دفعنا الآن إلى أن نخرج الكتاب على ما فيه ليُستفاد منه حيث قوبلت طبعته التجريبية بترحاب كبير بين أوساط الباحثين والمثقفين .

ونأمل أن تكون هذه خطوة أولى في بناء الأدوات اللازمة لتيسير محور التراث وكيفية التعامل معه الذي هو واحد من ستة محاور يعد النشاط فيها متعلقًا بعملية إسلامية المعرفة باعتبارها عملية معرفية دائمة ومستمرة .

ونسأل الله أن ينفع به وأن يجازي من قاموا عليه خير الجزاء ، والحمد لله في المبدأ والختام ...

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مكتب القاهرة

* * *

تقديم

أ . د / محمد عثمان نجاتي

يلاحظ القارئ لكتب تاريخ علم النفس التي يؤلفها علماء النفس الغربيون أنهم يغفلون عادة الإشارة إلى إسهام العلماء المسلمين السابقين في تطور الدراسات النفسية وتقدمها ، وما وصلوا إليه من آراء ونظريات جديدة في علم النفس ، لم يسبقهم إليها أحد من العلماء قبلهم ، وما أحدثوا من تأثير كبير في تفكير العلماء الأوروبيين في العصور الوسطى ، حيث كانت مؤلفات العلماء المسلمين تترجم إلى اللغة اللاتينية ، وتدرس في الجامعات الأوروبية ، وتقوم بدور كبير في تشكيل تفكيرهم العلمي خلال عدة قرون طويلة امتدت حتى قبيل عصر النهضة الأوروبية الحديثة .

ومن الواضح أن إغفال مؤرخي علم النفس الغربيين الإشارة إلى إسهام علماء النفس المسلمين في تطور علم النفس وتقدمه إنما يرجع إلى جهلهم بتراث المسلمين العلمي ، وبما يحتوي عليه من دراسات نفسية مهمة ، ولعل مسؤولية ذلك إنما ترجع إلى عدم اهتمامنا نحن – علماء النفس المسلمين المحدثين – بدراسة تراثنا العلمي ، ونشر المباحث حوله ، والتعريف به .

ولقد قام بعض الباحثين المسلمين المحدثين في السنوات الأخيرة ببعض المباحث حول بعض الدراسات النفسية للعلماء المسلمين السابقين ، توضح آراءهم في بعض الموضوعات النفسية ، غير أن هذه المباحث لا زالت قليلة العدد ، ولا زال كثير من الآراء النفسية للعلماء المسلمين السابقين غير معروف لمعظم علماء النفس المسلمين المحدثين ، مما يشكل

فجوة كبيرة في معلوماتنا حول سير تطور الدراسات النفسية عبر عصور التاريخ المختلفة ، ونحن نشعر إزاء هذا الأمر بشيء من الالتزام بضرورة الاهتمام بدراسة تراثنا في علم النفس دراسة جادة تهدف إلى إبراز الدور المهم الذي قام به علماء النفس المسلمون السابقون في تطور علم النفس وتقدمه ، وتوضيح القيمة العلمية الكبيرة لما قدموا من آراء حول بعض موضوعات علم النفس .

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بعض الأمثلة لبعض آرائهم التي سبقوا بها علماء النفس المحدثين بعدة قرون ؛ فابن سينا مثلًا ، قد اكتشف طبيعة عملية الإشراط Conditioning منذ حوالي عشرة قرون قبل إيفان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور الذي يعتبره مؤرخو العلوم أنه أول من اكتشف ظاهرة الإشراط التي كانت لها أهمية كبيرة في علم النفس الحديث ، وعلم الفسيولوجيا ، وقد توصل ابن سينا إلى اكتشافه لطبيعة عملية الإشراط عن طريق الملاحظة الدقيقة لسلوك الحيوان والإنسان ، والتفكير بذكاء في محاولة تفسير نتائج ملاحظاته دون أن يقوم بتجارب معملية مثلما فعل بافلوف فيما بعد .

لقد لاحظ ابن سينا أن بعض المدرَكات الحسية تقترن ببعض الاستجابات عند الحيوان والإنسان . فمثلًا : « إذا كان تناول الطعام مقترنًا باللذة ، والضرب بالعصا مقترنًا بالألم ، فإن الحيوان والإنسان يحتفظان في ذاكرتهما بصورة الطعام مقترنة باللذة ، وبصورة العصا مقترنًا بالألم ، فتصبح رؤية الطعام فيما بعد مثيرة للشعور باللذة ، كما تصبح رؤية العصا مثيرة للشعور بالألم ؛ ولذلك تخاف الطلاب العصا ، وتتجنبها إذا رأتها ، وهذه هي الاستجابة الشرطية التي قال بها بافلوف فيما بعد ، والتي تبناها بعض علماء النفس المحدثين كإحدى طرق التعلم المهمة ... ، ويرى ابن سينا أن أغلب أفعال الحيوان والإنسان تقوم على هذا الأساس ، أي تقوم على أساس الاستجابات الشرطية المتعلمة من الخبرات والتجارب التي مر بها الحيوان والإنسان من قبل ، وقد سبق ابن سينا في ذلك علماء النفس المحدثين من المدرسة السلوكية التي تفسر سلوك الحيوان والإنسان على أساس تعلم أنواع معينة من الارتباطات بين بعض المنبهات (أو المثيرات) وبعض الاستجابات » [(١)] .

وفيما يلي مثال آخر : لقد كان علماء النفس المحدثون يفسرون النسيان بأنه راجع إلى زوال الآثار التي يتركها التعلم السابق نتيجة عدم الاستعمال . واستمر هذا التفسير شائعًا

(١) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مبحث في علم النفس عند العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار الشروق ، (١٩٨٠م) ، (ص ١٧٧ ، ١٧٨) .

بين علماء النفس المحدثين مدة طويلة من الزمن حتى قام جينكيز Jenkins و د/ النباخ Dollenboch في عام (١٩٢٤م) بدراسة تجريبية [١] بينت أن النسيان لا يحدث بسبب مجرد مُضِي الزمن دون استعمال المعلومات ، وإنما يحدث بسبب كثرة نشاط الإنسان وانشغاله بأمور كثيرة تؤدي إلى تداخل معلوماته الجديدة وتعارضها مع معلوماته السابقة ، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل الرجعي Retroactive Interference ، أو الكف الرجعي Retroactive Inhibition ، وقد بينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة الأخرى أن النسيان قد يحدث أيضًا نتيجة تداخل المعلومات السابقة مع المعلومات الحديثة ، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل اللاحق Proactive Interference .

والقارئ لكلام ابن سينا عن التذكر في كتاب الشفاء يلاحظ أنه سبق علماء النفس المحدثين بعشرة قرون في تفسيره للنسيان على أساس تداخل المعلومات . يقول ابن سينا في هذا الصدد : « .. وأكثر من يكون حافظًا هو الذي لا تكثر حركاته ، ولا تتفنن همه ، ومن كان كثير الحركات لم يذكر جيدًا .. ولذلك كان الصبيان مع رطوبتهم يحفظون جيدًا ؛ لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشغل به نفوس البالغين ، فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيره » [٢] .

وقد وصل كل من الفارابي وابن سينا في دراستهما للأحلام إلى آراء لا زالت صحيحة حتى الآن ، فقد ذكر كل منهما أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم ، سواء كانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أم من داخل البدن [٣] ، وقد أشارا كذلك إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات ، وهي الفكرة التي اهتم بها سيجموند فرويد والمحللون النفسيون فيما بعد في تحليلهم للأحلام وتفسيرها [٤] .

ويلاحظ كذلك أن الغزالي في أثناء تناوله لموضوع « رياضة النفوس » في الجزء الثالث من كتاب « إحياء علوم الدين » قد استخدم في علاج الأخلاق والعادات السيئة أساليب

---

(١) Jenkins , J.G Dallenenboch , K.M. Obliviscence during Sleep and Waking American Journal of Psychology , 1924 , Vol. 35 , pp. 605-612.

(٢) ابن سينا : الشفاء ، كتاب النفس ، تحقيق الأب جورج قنواتي وسعيد زايد ، ومراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٧٥م) ، (ص ١٦٥ ، ١٦٦) ، انظر أيضًا : محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، (ص ١٩١ ، ١٩٢) .

(٣) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، (ط ٢) ، القاهرة : مكتبة الحسين التجارية ، (١٩٤٨م) ، (ص ٧٣ - ٧٦) ، ابن سينا : المرجع السابق ، (ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٤) الفارابي : المرجع السابق . ابن سينا : المرجع السابق .

مبتكرة تقوم أساسًا على فكرة التخلص من الأخلاق والعادات السيئة بتعليم الفرد أخلاقًا وعادات حسنة مضادة لها ، تحل محلها بالتدريج حتى ينتهي الأمر إلى التخلص النهائي من الأخلاق والعادات السيئة واكتساب الأخلاق والعادات الحسنة المضادة [١] ، وقد سبق الغزالي بهذا الأسلوب في العلاج علماء النفس والمعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين الذين يستخدمون هذا الأسلوب في التخلص من العادات السيئة وفي علاج القلق .

إن معرفتنا لتراثنا العلمي في ميدان علم النفس لا تفيدنا فقط في اكتساب الإسهامات المهمة التي قام بها العلماء المسلمون السابقون ، والتي ذكرنا أمثلة لها سابقًا ، وإنما تفيدنا كذلك في مدِّنا بنموذج لتناول بعض موضوعات علم النفس من وجهة نظر إسلامية ، مما يمكن الباحثين المعاصرين من أن يحذوا حذوهم في التوجه الإسلامي للدراسات الحديثة في علم النفس ، وسوف أذكر مثالًا لذلك ، تناول العلماء المسلمين السابقين لموضوع الصحة النفسية ، فهم لا يرون - مثل علماء النفس الغربيين المحدثين - أن أهم مقومات الصحة النفسية هي فقط النجاح في حياة الإنسان المادية والدنيوية ، وقدرته على تحمل مسؤوليات الحياة ، ومواجهة ما يقابله من مشكلات ، وتوافقه مع نفسه ومع غيره من الناس ، وإنما هم يرون أن أهم مقومات الصحة النفسية توافق الفرد مع ربه ، والتمسك بعبادته وتقواه ، الأمر الذي يغفله علماء النفس الغربيون المحدثون إغفالًا تامًّا ؛ فنجد مثلًا أن ابن حزم قد تناول هذا الموضوع في كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » [٢] ، وبيَّن في شيء من التفصيل أن الإيمان بالله تعالى ، واتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن الكريم ، وبيَّنته سنة الرسول ﷺ هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق ، والتمتع بالصحة النفسية والشعور بالسعادة والأمان النفسي .

وقد أكَّد هذا المعنى أيضًا ابن تيمية في كلامه عن « أمراض القلوب وشفائها » [٣] ، وبيَّن أن الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بعبادته وتقواه ، واتباع المنهج الذي رسمه الله تعالى للإنسان في القرآن الكريم ، هو سبيل الشفاء من أمراض القلوب .

---

(١) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . الجزء الثالث . بيروت : دار المعرفة (د . ب) ، (ص ٤٨ - ٢٧٤) .

(٢) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب : الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، (١٩٧٩م) ، (ص ١٥ ، ١٦) .

(٣) أحمد بن تيمية : أمراض القلوب وشفاؤها . المجلد العاشر من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . السعودية : الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين ، (د . ت) ، (ص ٩١ - ١١٠) .

وقد تناول ابن قيم الجوزية هذا الموضوع أيضًا في شيء من التفصيل في كتاب « رسالة في أمراض القلوب » وأكّد فيه آراء أستاذه أحمد بن تيمية في أهمية الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بعبادته وتقواه في شفاء أمراض القلوب (١) .

وقد بدأ بعض علماء النفس الغربيين المحدثين يدركون أخيرًا أهمية الإيمان بالله تعالى في صحة الإنسان النفسية ؛ إذ إنه يمده بطاقة روحية تعينه على تحمُّل مشاق الحياة ، وتساعده على التخلص من القلق والمرض النفسي ، وقد أشرت إلى ذلك في شيء من التفصيل في موضع آخر (٢) .

ومن الأمثلة الأخرى في هذا الصدد كان - أيضًا - تناول العلماء المسلمين السابقين لموضوع الرؤيا الصادقة أو الصالحة ؛ إذ استمدوا معلوماتهم عنها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فقد ذكر القرآن الكريم رؤيا إبراهيم ﷺ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢- ١٠٥] ، ورؤيا يوسف ﷺ: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] ، ورؤيا الرسول ﷺ أنه والمؤمنين يدخلون محلِّقين ومقصِّرين ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧] ، ورؤيا ملك مصر عن البقرات السبع السمان التي تأكلن سبع بقرات عجاف ، والسنابل السبع الخضر والسنابل السبع اليابسات ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف ٤٧ - ٤٩] ، وقد أشار الرسول ﷺ أيضًا في أحاديث كثيرة عن الرؤيا الصادقة ، وقال : « **إنها بشرى من الله تعالى** » (٣) .

---

(١) ابن قيم الجوزية : رسالة في أمراض القلوب ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، (١٤٠٣هـ) .

(٢) محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس ، (ط ٣) ، القاهرة : دار الشروق (١٩٧٨م) ، (ص ٢٤٧، ٢٤٨) .

(٣) انظر بعض الأحاديث النبوية التي تناولت الرؤيا الصادقة في : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول =

وقد أخذ العلماء المسلمون السابقون من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف آراءهم عن الرؤيا الصادقة الصالحة عندما تناولوا موضوع الأحلام والرؤى وتفسيرها ، وهو أمر يغفله علماء النفس الغربيون المحدثون إغفالًا تامًّا في دراستهم لموضوع الأحلام .

وفضلًا عن ذلك ، فإن العلماء المسلمين السابقين حينما يتعرضون لتفسير رموز الأحلام فإنهم يستمدون مادة تفسيرهم مما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من أمثال وتشبيهات [1] ، يتضح لنا مما ذكرناه سابقًا أهمية معرفة تراثنا في مجال الدراسات النفسية . ومما يؤسف له أن الغالبية العظمى من علماء النفس المعاصرين في العالم العربي والإسلامي يجهّلون هذه الدراسات ؛ بسبب نوع التعليم السائد في أقسام علم النفس في الجامعات الحديثة في البلاد العربية والإسلامية ؛ حيث يهمل هذا التعليم المعرفة بالتراث إهمالًا تامًّا . ولقد قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يعنى بموضوع إسلامية المعرفة بمجهود مشكور من أجل التعريف بتراثنا الزاخر بكثير من الدراسات النفسية المهمة ؛ فقام بتكليف مجموعة من السادة الأساتذة بحصر ما في التراث من كتب ودراسات تتعلق بالنفس الإنسانية ، ثم قامت مجموعة أخرى من السادة الأساتذة الباحثين بقراءة هذه الكتب والدراسات ، وتلخيص ما جاء فيها من آراء ومفاهيم نفسية ، وقد قام مكتب القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بمجهود كبير مشكور في إنجاز هذا العمل المهم ، والإشراف على تنظيم وتبويب تقارير التعريف بكتب التراث ، وقام بنشرها في هذا المجلد القيِّم ؛ لتكون تحت يد الباحثين من علماء النفس المحدثين الذين يريدون الرجوع إلى التراث لمعرفة ما جاء فيه حول بعض موضوعات علم النفس ، ولا يسعني أمام إنجاز هذا العمل الضخم المهم إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكل من ساهم في إنجازه ، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، والأستاذ الدكتور جمال عطية رئيس مكتب القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، وجميع السادة الأساتذة الأفاضل الذين قاموا بقراءة كتب التراث ، وتلخيص ما جاء فيها من آراء ومفاهيم نفسية في هذه التقارير التي يتضمنها هذا المجلد ، كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير أيضًا لجميع السادة الأساتذة الأفاضل من المشرفين والإداريين الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الكبير .

= في أحاديث الرسول ﷺ ، القاهرة : دار الفكر ، (١٩٥٧م) ، (٣٠٤/٤) ، ومصطفى سعيد الخن وآخرون : نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين للإمام أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي ، (ط ٧) . بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٩٨٥م) ، (٦٥٥/١) .

(١) محمد بن سيرين : كتاب تفسير الأحلام الكبير . القاهرة : مطبعة محمد صبيح وأولاده ، (١٩٦٣م) ، (ص ٤- ١٩) .

ولا شك في أن هذا العمل سوف يكون مفيدًا لعلماء النفس العرب المعاصرين الذين ليس لديهم إلمام كاف بكتب التراث ؛ حيث إنه سيرشدهم إلى أهم الكتب التي يمكن الرجوع إليها لدراسة ما ورد في التراث حول الموضوعات العلمية التي يدرسونها ، وسوف يكون هذا العمل مفيدًا أيضًا لمن يهتم بإعادة كتابة تاريخ علم النفس ، بحيث يبرز دور العلماء المسلمين السابقين في تطور دراسات علم النفس وتقدمها ، كما أنه سيكون مفيدًا للباحثين الذين يهتمون بالتوجه الإسلامي لعلم النفس .

والله ولي التوفيق ...

* * *

تقديم

أ . د/ عبد الحليم محمود السيد

يسعدني أن أقدّم هذا العمل العلمي الضخم - الذي أنجزه عدد كبير من الباحثين المحققين تحت الرعاية المادية والأدبية والفنية للمعهد العالمي للفكر الإسلامي - إلى الباحثين المهتمين بالدراسات النفسية الحديثة .

ويخدم هذا الدليل - الذي بين أيدينا - المهتمين بالثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، والباحثين في مجال الدراسات النفسية بوجه خاص .

ويتضمن هذا العمل تلخيصًا لموضوعات الاهتمام التي وردت في حوالي ثلاثمائة كتاب ومقال من أمهات التراث العربي والإسلامي ، مما أسهم في إنجازه ١١٤ مفكرًا إسلاميًا على امتداد العصور .

وتمتد الفترة التاريخية التي تنتمي إليها هذه الكتب والمقالات من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر من الهجرة ، كما يمتد اهتمام الموضوعات التي تتناولها هذه المؤلفات التي تم عرضها وتلخيصها ، على مساحة عريضة من الموضوعات التي تشتمل على مختلف جوانب الثقافة العربية الإسلامية من الآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والتصوف ، والأخلاق ، والفقه ... إلخ . حيث كانت موضوعات علم النفس تتداخل مع هذه المجالات .

وتبرز قيمة هذا العمل بالنسبة للمشتغلين بعلم النفس على مستوى العالم العربي والإسلامي المعاصر ، في كل من :

١ - الإلمام في سفر واحد - يضم ثلاثة مجلدات ، وفهارسها - بمضمون الموضوعات

ذات الطابع النفسي التي وردت في الكتب والمقالات المنشورة والمخطوطة في التراث العربي ، التي تمتد تاريخيًا عبر قرون ، وموضوعيًا عبر عدد كبير من موضوعات الاهتمام ، وهو أمر لم يكن متاحًا قبل الآن .

٢ - يلخص هذا الدليل الذي بين أيدينا أغلب مصادر التراث العربي والإسلامي المتاحة ، مع عناية خاصة بالمضمون النفسي من خلال قراءة متأنية قام بها باحثون نفسيون حاولوا خلالها إبراز :

أ - أهم موضوعات الاهتمام العام والخاص في هذه المصادر .

ب - أهم المفاهيم ذات الطابع النفسي ، كما وردت في التراث ، مما يزودنا بالمفاهيم التراثية المتصلة بموضوعات علم النفس .

ج - أهم مفاهيم علم النفس الحديث ، أو موضوعات اهتمامه التي تتصل بها موضوعات التناول في كل كتاب أو مصدر من مصادر التراث .

٣ - يمكن فهرس الموضوعات والمفاهيم ، الذي أعد لهذا العمل الباحثين المحدثين من حصر مواضع الفصول والفقرات والمفاهيم التي يحتاجون إلى الرجوع إليها (ملخصة أو في مصادرها الأصلية إن أمكن) .

وهذا يعني تيسير عملية التكشيف التراثي للمصطلحات النفسية في مختلف فروع الاهتمام في علم النفس . ولم يكن هذا الأمر ميسرًا قبل إعداد هذا الدليل ، حيث كان مجرد حصر ما يتضمنه التراث العربي والإسلامي من موضوعات ومفاهيم ذات طابع نفسي ، يعد أمرًا شديد الصعوبة ؛ لاعتماد معظم التصنيفات على مجرد الصدفة ، أو جمع المتوفر من المراجع ، أو الرجوع إلى أكثر المراجع شهرة ، دون الإحاطة بهذا التراث ؛ لأن الإحاطة بمضمون ومفاهيم الكتب التراثية - رغم حيويتها - تخرج عن وسع الباحثين الأفراد ، وهذا العمل خطوة بارزة في هذا الطريق (انظر أهم عقبات الإحاطة بكتب التراث في محاولة تكشيف مصطلحات علم نفس النمو والارتقاء لغويًا وتراثيًا ، التي قامت تحت رعاية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٩م .

٤ - علم النفس بوصفه علمًا ناميًا متجددًا ، في حاجة شديدة إلى التكشيف التراثي عن المصطلحات النفسية ؛ لأن من شأن هذا التكشيف أن يُسدي خدمة عظيمة للمشتغلين بعلم النفس في البلاد العربية ويساعد على حل مشكلات المصطلح في علم النفس المعاصر ، التي قد تبدو في عدة أشكال منها :

أ - استخدام أكثر من كلمة عربية - من مؤلفين مختلفين - للإشارة إلى مصطلح أجنبي واحد ، دون التنبيه لاختلاف ظلال المعنى بين كل منها ، كما ورد في التراث .

ب - تداخل معاني بعض المصطلحات ، والحاجة إلى استخدام المصطلح الواحد بمعنى واحد ، أو تمييز الفروق الدقيقة في معاني بعض المصطلحات .

ج - صعوبة التوصل لمقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، مع إمكان التوصل لهذا المقابل ، بل ودرجات منه ، عند الرجوع إلى التراث .

د - اكتشاف مفاهيم التراث لم ترد في المراجع الأجنبية ، مما يثري وسائل التعبير العلمي عن الظواهر النفسية في اللغة العربية .

٥ - من شأن تمكين الباحثين العرب المحدثين من الإحاطة بموضوعات التراث العربي والإسلامي ، أن يشجع على تنمية اهتمام الباحثين المعاصرين بموضوعات للبحث ، نابعة من صميم الثقافة العربية الإسلامية ، في تفاعلها مع موضوعات الاهتمام الحديثة من ناحية ، ومحاولة إخضاعها لأساليب ومناهج حديثة من ناحية أخرى ، مما يجعل الباحث العربي يواصل طريق العلم ، من خلال الجمع بين التراث العربي - الذي يجهله الغرب - والتراث الغربي والعالمي الحديث ، كخطوة لتنمية هوية عربية في علم النفس المعاصر .

٦ - لهذا الدليل أهمية خاصة ، بالنسبة لعملية التأريخ لعلم النفس ؛ إذ إنه يساعد على ملء ثغرة كبيرة ، افتقدها التاريخ الموضوعي لعلم النفس على مستوى العالم ، حيث كان المؤرخون الغربيون يتجاهلون أو يجهلون - غالبًا - الإسهام العلمي للعلماء والمفكرين العرب والمسلمين في مجال الدراسات النفسية ، فهم يبدؤون التاريخ باليونان ، ثم العصور الوسطى المسيحية ، ثم عصر النهضة الأوروبية ، ثم يؤرخون للفكر النفسي في العصر الحديث مع عدم ذكر إسهام المفكرين والعلماء العرب والمسلمين ، رغم ما كان لهم من فضل في تنمية وتطوير موضوعات الاهتمام والدراسة النفسية .

٧ - كما يمكن لهذا الدليل أن يسهم إسهامًا فعالًا في تتبع الباحثين لنمو الاهتمام ببعض الموضوعات أو نمو بعض المصطلحات ، مما يسد ثغرة في كل البحوث والدراسات وخاصة رسائل الماجستير والدكتوراه التي يقتصر أصحابها في التأريخ لموضوعاتها ومفاهيمها على الاعتماد على المصادر الغربية ، مما يفقد معظم البحوث صلتها بالتراث العربي ، ويقلِّل من إمكان تنمية هذا التراث .

ولا يسعني إلا أن أقدِّم التحية والتقدير للمعهد العالمي للفكر الإسلامي والسادة الباحثين المحققين الذين قاموا بإنجاز هذا الدليل تلخيصًا لأعماله وفهرسة لها ، مما جعل التراث ميسرًا للمثقفين عامة وللباحثين النفسيين خاصة .

ونأمل أن يضاف في الطبعات التالية المزيد من الكتب والمقالات التراثية المرتبطة بعلم النفس من المطبوعات أو المخطوطات التي لم يتيسر جمعها في هذا السفر ، بحيث يصبح أكثر تمثيلًا للتراث النفسي العربي الإسلامي .

كما نأمل أن نرى مثل هذا العمل في تلخيص قراءات للتراث المتصل بكل من : الفلسفة ، علم الاجتماع ، والتربية ، والاقتصاد ، والتشريع ، والفقه .. مما يمكّن الباحثين من الإحاطة بالجوانب الأساسية للثقافة الإسلامية تيسيرًا للباحثين المحققين ، ووصلًا لحلقات الثقافة الإسلامية على امتداد العصور ، بجوانب الاهتمام العلمي الجاد لدى العلماء والمفكرين المعاصرين .

* * *

علم النفس

في التراث الإسلامي

ابن سيرين (ت ١١٠هـ)
تعبير الرؤيا [1]

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

التعريف بالمؤلف [2] :

محمد بن سيرين البصري ، ، الأنصاري بالولاء ، أبو بكر : إمام وقته في علوم الدين بالبصرة ، تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ووفاته بالبصرة ، نشأ بزازًا ، في أذنه صمم ، وتفقه وروى الحديث ، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، واستكتبه أنس بن مالك بفارس ، وكان أبوه مولى لأنس بن مالك ، ينسب له كتاب « تعبير الرؤيا - ط » ذكر ابن النديم ، وهو غير « منتخب الكلام في تفسير الأحلام » المطبوع ، المنسوب إليه أيضًا وليس له .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب تعبير الرؤيا ، لابن سيرين ، من القطع الصغير ، ويقع في أربع وستين صفحة ، ومكتوب على مسافة واحدة بين كل سطرين ، وهو مطبوع وليس مخطوطًا ، وكشأن كل الكتب ، هناك اختلاف وتباين واضح في عدد الصفحات التي يستغرقها تفسير الرؤيا في كل باب من أبوابه الخمسة والعشرين ، وهذا أمر مشروع تقتضيه الضرورة العلمية ، وتقتضيه طبيعة الموضوعات التي يتم التعرض لها .

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (د . ت) ، (٦٤ ص) .

(٢) مصدر الترجمة : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، (١٩٨٦م) .

وكعادة كل كتب التراث التي كتبها مؤلفون مسلمون ، بدأ الكتاب بابه الأول بخطبة تبيِّن أهمية الموضوع وحدوده والمعايير التي سيلتزم بها المؤلف عند تعرضه لتعبير الرؤى ، والغالب على هذا الكتاب أنه لا يشتمل على كثير من المفاهيم التي يمكن معاملتها من المنظور السيكولوجي ، اللّهم إلا الحديث عن تفسير الأحلام من المنظور الفرويدي ، ولكن شتان بين ما ورد لدى سيجموند فرويد ، وربما ألجأنا ذلك إلى عرض وتلخيص الكتاب كله أولًا ، ثم يلي ذلك التحدث عن المفاهيم السيكولوجية ، على غير عادتنا في عرض الكتب الأخرى ، لإتاحة الفرصة للقارئ إذا أراد أن يعقد مقارنة بين تعبير ابن سيرين للرؤيا وتفسير فرويد للأحلام .

وفيما يلي عرض مختصر لأبواب الكتاب الخمسة والعشرين :

الباب الأول : استغرق هذا الباب الصفحات من ص : ٣ إلى : ٦ ، وجاء بعنوان : في آداب المعبر وتمييز الرؤيا ومعرفة أصولها ، وتحدث فيه المؤلف عن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها الشخص الذي يقوم بتأويل أو تعبير الرؤيا ، فقال إنه لابد إنه يكون حافظًا وعالمًا بكتاب اللَّه ، حافظًا لحديث رسول اللَّه ﷺ ، خبيرًا بلسان العرب ، واشتقاق الألفاظ ، عارفًا بهيئات الناس ، ضابطًا لأصول التعبير ، عفيف اللسان ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان .

أما الرؤيا ومعرفة أصولها ، فهي تختلف من وجهة نظر ابن سيرين باختلاف أحوال الأزمنة والأوقات ، وقد يتم التعبير عنها من كتاب اللَّه ، أو من أحاديث رسول اللَّه ﷺ ، أو من الأمثال السائرة الشائعة بين الناس الآن أو قديمًا ، أو من لفظ الاسم أو من معناه ، أو من ضده ، أو من اشتقاقه ، أو من الزيادة فيه أو من نقصانه ، وضرب لكل مصدر من هذه المصادر أمثلة عديدة توضح كيفية التأويل انطلاقًا منها .

وذكر المؤلف أن أصدق أوقات الرؤيا أواخر الليل ، أو في القيلولة ، أو عند إدراك الثمرة وبيعها ، وأضعف الرؤيا ما وقع منها في زمان الشتاء ، ومجيء المطر .

أما الباب الثاني فقد جاء بعنوان : في تأويل رؤية اللَّه تبارك وتعالى ، وفيه يعرض المؤلف لحال الشخص الذي يرى اللَّه في المنام ، حيث تختلف هذه الأحوال باختلاف حال الرؤيا ، وحاول المؤلف أن يضع وصفًا لأحوال الرائي أو صاحب الرؤيا ، وهي من قبيل الحديث عن حال القبول بالبشرى والسرور والإقبال على اللَّه (ص ٦ ، ٧) .

وفي الباب الثالث الذي جاء بعنوان : في رؤية الملائكة والأنبياء والصالحين والعلماء

والكعبة والأذان والصلاة والحج (ص ٧ - ٩) ، تحدث المؤلف هنا أيضًا عن كيفية تأويل رؤيا الملائكة والأنبياء والصالحين والعلماء والكعبة والأذان والصلاة والحج ، فقال مثلًا : من رأى ملكًا من الملائكة ؛ فإنه ينال شرفًا في دنياه وفرحًا ونصرًا لأهل تلك البلد ، ورؤية أشرف الملائكة ؛ تدل على البشارة بالخير والشهادة والخصب وكثرة الأمطار وسعة الأرزاق ورخص الأسعار ، ومن رأى النبي ﷺ (ص ٧) في منامه فإنه بشارة بالخير ، أما رؤية باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في النوم فإنهم مثل الملائكة في حالتهم من كثرة الخصب والأمطار ورخص الأسعار ، ورؤية الكعبة تعني أن الرائي إمام المسلمين ، أو نوع من الأمن والأمان له ولأهل بلدته ، وعلى هذا النحو وردت تعبيرات عديدة لرؤيا القبلة والصلاة فيها ، وكذلك الأذان في وقت أشهر الحج .

وفي الباب الرابع (ص ٩ - ١٣) تحدث المؤلف عن تأويل الرؤى الخاصة بالسماء والشمس والقمر والنجوم والقيامة والجنة والنار وغير ذلك من نيران الدنيا ، فصعود السماء رمز يدل على الشهادة والكرامة ، وجواز الصراط والشمس رمز للملك والسلطان ، أما القمر فهو رمز لوزير الملك أو زوجة أو ولدًا حسنًا ، أما النجوم فهي تأويل لشرف الناس أو أشرافهم أو رمزًا للعلم والعلماء ، وأما النار فهي رمز لكل الشرور والآثام والمصائب والرزايا والمنايا وكل ما لا ينتفع به ، علمًا بأن البرد فقر ، والحر غنم ، ولكن الحر غير النار .

وتحدث المؤلف في الباب الخامس (ص ١٣ - ١٧) عن تأويل رؤيا الأمطار والرعد والبرق ومياه الآبار والبحار والسواقي والأنهار والسفن والطواحين والحمامات والرياح وغيرها ، فعنده المطر غيث ورحمة ، أما الرعد مع الريح سلطان جائر ، والبرق للمسافر خوف وللمقيم طمع ، والسحاب حكمة وعلم ورحمة وهو دين الإسلام ، أما البرد والثلج والجليد فهو غم وعذاب ، أما البئر فهي رأس مال الإنسان ومعيشته .. ، أما النهر فهو وجل على قدر حال النهر من الصغر والكبر . أما الحمام فهو رمز للغم والهم بقدر شدة الحرارة وقوتها ، والرَّحى رمز للدنيا وهمومها وللعيشة والرزق ، أما الرياح فهي رمز للبشرى إن كانت طيبة ، ورمز للغم إن كانت مظلمة سوداء .

وفي الباب السادس الذي كان بعنوان : في رؤية الأرض والجبال والمفاوز والتلال والأبنية والحصون والحوانيت والدور والهدم والزلزال وما شابه ذلك (ص ١٧ - ٢٠) : يرى المؤلف أن الأرض تنصرف إلى المرأة إذا كانت حدودها مدركة ، وكذلك المفازة التي تدل على الهداية والخير ، وترمز الجبال إلى الرجال . وترمز الدار إلى الآخرة إن كانت

غير واضحة المعالم . هذا على سبيل المثال لا الحصر .

أما الباب السابع (ص ٢٠ - ٢٢) فقد تحدث فيه المؤلف عن تعبير رؤية الأشجار والثمار والحبوب والزروع والخضرة والبقول والبساتين ، فالأشجار ترمز للرجال الذين تكون أحوالهم على أحوال جوهر هذه الأشجار ، أما الرمان في وقته فيرمز للمال المجموع ، والتفاح يرمز لرؤيا صفة الرجل وهمته ومكسبه ، أما الزرع فهو عمدة الإنسان في دينه ودنياه إذا كان له ... أما الرياحين فهي الدنيا حين تقبل على المرء ، والبستان امرأة جميلة يتزوجها الرائي والعكس بالعكس .

دار الحديث في الباب الثامن (ص ٢٢ ، ٢٣) حول تأويل رؤيا الأشربة والألبان ، فاللبن عمومًا يشير إلى فطرة الإسلام وسنة النبي ﷺ ، وإن كان حامضًا أشار إلى الغم والهم والضرر والحزن ، أما الخمر فيشير إلى المال الحرام والنبيذ مال مكروه ، أما العسل والشهد فهو مال ورزق طيب وشفاء من الأمراض .

ودار الحديث في الباب التاسع (من ص ٢٣ إلى ص ٣٠) حول تأويل رؤية النساء والرجال وأعضاء جسم الإنسان وأرواث الحيوان ؛ فالرجل رمز للرزق ، والمرأة العجوز هي السنة الحالية على قدر حال المرأة ، والجارية سرور وفرح ، والغلام هو غم وحزن ومؤنة .

وفي الباب العاشر (من ص ٣٠ إلى ص ٣٢) قام المؤلف بتأويل رؤية التزويج والنكاح وخروج النساء والحمل والولادة والرضاع وشبهه ؛ فالنكاح والزواج رمز للفخر والنيل والشرف والسلطان والدنيا ، وكل ذلك الشرف والفخر يكون على قدر تلك المرأة التي تزوج بها أو نسبت إليه ، كذلك الذي يتزوج بامرأة ميتة يظفر بأمر ميئوس منه . ومن رأى لامرأة ذكرًا فإن كانت حاملًا رزقت بغلام .

دار الحديث في الفصل الحادي عشر (من ص٣٢ إلى ص٣٤) حول تأويل رؤية الموت والموتى وأخبارهم وغيرهم ، فالموت في النوم فساد في الدين وعلو شرف في الدنيا ، أما الموت دون دفن وصراخ وعويل ولا هيئة الأموات فيرمز إلى هدم جزء من داره أو حائط ، ورؤية الميت مستبشرًا فرحًا فهذا يدل على صلاح حاله في الآخرة .

وفي الباب الثاني عشر (من ص ٣٤ إلى ص ٣٦) دار الحديث حول تأويل رؤية الكسوة واللباس والبسط وغيرها من الملبوس ؛ فالكسوة في التأويل تختلف باختلاف جوهرها وأجناسها وقماشها فما كان فيها من حرير وديباج فهو سلطان يناله ومال

حرام ، ومن رأى أنه يلبس الصوف ينال مالًا كثيرًا ودنيا صالحة ، أما الشعر والوبر والقطن فهو دون الصوف والكتان ، والبياض والنقاء في الثوب يدلان على حسن حال صاحبهما ، ووصل الثوب بعضه في بعض أشد الفقر والحاجة ... ، وهكذا عبَّر المؤلف عن كل الرؤى الأخرى .

وفي الباب الثالث عشر دار الحديث حول تأويل رؤية الجواهر والحلي والذهب والفضة والدنانير والدراهم والفلوس وغيرها (من ص ٣٦ إلى ص ٣٨) ، وهي أيضًا أي الجواهر تختلف باختلاف أجناسها وأقرانها في الرؤيا ، وبالجملة إن عرف عددها فهي نساء وأولاد وخدم ، وإن كانت مجهولة وكثيرة العدد فهي قرآن وعلم وتسبيح وذكر .

ودار الحديث في الباب الرابع عشر (من ص ٣٨ إلى ص ٣٩) حول تأويل رؤية الأواني والمواعين وغيرها ؛ فالأواني في التأويل خدم وغلمان إلا الكانون والقدر والسفرة المسرجة والسراج ؛ فإن ذلك في التأويل رؤيا هم وغم لصاحب البيت .

وفي الباب الخامس عشر (من ص ٣٩ إلى ص ٤١) دار الحديث حول تأويل رؤية السلاح وأنواعه ، فالسلاح كله في التأويل عز وسلطان وشرف يناله صاحبه على قدر مبلغه في الجودة والاشتهار فمهما حدث فيه من إصلاح فهو سلطان يناله ، ومن رأى أن سلاحه قد انتزع منه أو قهر عليه أو أرمى به أو وهبه أو باعه أو سرق منه أو انكسر أو ضيَّعه أو أعاره فإن ذلك نقصان في سلطانه ... إلخ .

وفي الباب السادس عشر (من ص ٤٢ إلى ص ٤٤) دار الحديث حول تأويل رؤيا الخيل والبغل والحمير وألوانها ، وفيه بيَّن المؤلف أن الفرس عمومًا في التأويل هي جاه الرجل وعزه وسلطانه وشرفه ، فإن رأى فيها زيادة فهي زيادة فيما ذكرناه ، ومن رأى أنه ركبه وهو يسير به رويدًا وذات الفرس كاملة ؛ فإنه يصيب سلطانًا وعزًا وشرفًا .

ودار الحديث في الباب السابع عشر (من ص ٤٤ إلى ص ٤٧) حول تأويل رؤيا الإبل والبقر والغنم والمعز ولحومها وألوانها ، وأشار المؤلف إلى أن الإبل في التأويل قد يكون سفرًا وقد يكون حزنًا وقد يكون رجلًا ضخمًا عربيًا وعجميًا ، والناقة امرأة إذا كان الرائي لها عزبًا ؛ ومن رأى أن له إبلًا كثيرة يسوقها أو يملكها ؛ فإنه يلي على قوم ولاية ... ، وعلى نفس الغرار أوَّل باقي الحيوانات الأخرى ولحومها .

ودار الحديث في الباب الثامن عشر (من ص ٤٦ إلى ص ٤٧) حول رؤية الوحوش

المأكولة من الحمر والبقر والوعول والظباء ولحومها وألبانها ، وانتهى إلى أن الوحوش كلها رجال لا دين لهم قد فارقوا جماعة المسلمين وارتكبوا أهواءهم ، هذا إن لم يكن قصده منها الصيد ، وإناث الوحوش إن كان يقصد صيدها فهي نساء ورجال وزواج ، ومن رأى أنه يصيد ظبيًا ؛ فجارية حسناء أو يتزوج امرأة جميلة ... إلخ .

ودار الحديث في الباب التاسع عشر (من ص ٤٧ إلى ص ٥٠) حول تأويل رؤيا الفيل والسباع الضارية وفروعها ، وانتهى المؤلف إلى أن الفيل في التأويل رجل مسلط عظيم ذو قهر وهيبة وهو عجمي ، فمن رأى أنه راكبه أو مالكه أو حائزه أو متصرف فيه من غير الحرث ؛ فإنه يصيب سلطانًا وقهرًا وغلبة أو يتمكن من سلطان أعجمي ، ومن رأى أنه يأكل لحم فيل ؛ فإنه يصيب مالًا من سلطان بقدر ما أكل منه ، أما الذئب فهو سلطان ظلوم أو رجل لص ، والضبع امرأة سوء قبيحة ، والقرد عدو مغلوب قد تغيرت نعمة اللَّه عليه ؛ لأجل معصيته ، والخنزير رجل شديد الشوكة خبيث الطبيعة والدين ، والكلب عدو غير بالغ في عداوته وينقلب صديقًا ويكون دنيء النفس قليل المروءة ... إلخ .

وفي الباب العشرين (من ص ٥٠ إلى ص ٥٢) دار الحديث حول تأويل رؤيا الحيات والعقارب وهوام الأرض وما ينسب إليها ؛ فالحية في التأويل عدو كاتم العداوة مبالغ فيها بقدر عظمها وهيئتها في المنظر ، فمن رأى أنه يقاتل حية ؛ فإنه يعالج عدوًّا ، فإن رأى أنه ظفر بالحية ؛ ظفر بالعدو والعكس صحيح ، أما العقرب فهو عدو مكايد لا يجارى بلسانه وهو يلسع عدوه وصديقه بلسانه وليس له دين ولا قول ، والزنبور كلام يسمعه من غوغاء الناس ، والنمل رؤيا تدل على رجل كسوب كثير البركة نفاع لمن صحبه ... إلخ .

وفي الباب الحادي والعشرين (من ص ٥٢ إلى ص ٥٥) انتهى المؤلف إلى تأويل رؤيا حيوان الماء والسمك الطري وغيره ؛ فالسمك الطري الكبار إذا كان كثيرًا فهو غنيمة وأموال لمن أصابها أو شيئًا منها ، أما الصغار فهو هموم وأحزان ، أما إذا كانت سمكة أو سمكتان ؛ فامرأة أو امرأتان ، ولحوم السمك أموال وغنيمة لمن أكلها أو ملكها ... إلخ .

وحاول المؤلف في الباب الثاني والعشرين (في نفس الصفحات) تأويل رؤية السباع من الطيور ؛ كالنسر ، والعقاب ، والشاهين ، والباشق وغير ذلك من طيور ، وانتهى إلى أن سباع الطير هي شرف ورفعة السلطان ، والعقاب سلطان ظلوم صاحب حرب وبأس شديد وكذا الباز والشاهين ، أما الحدأة فهي ملك خامل الذكر ومتواضع ، والبومة إنسان لص ضعيف ، والغراب إنسان فاسق كذاب ليس له دين ، أما النعامة فهي امرأة غريبة بدوية ، والديك رجل عجمي أو مملوك أو منادي أو مؤذن ، والدجاجة امرأة مباركة ،

الدراجة امرأة غدارة ليس لها عقيدة ولا خير فيها ، والورشان امرأة ذات لهو وطرب وفرح ، والبغبغان جارية أو غلام يتيم ، والطاووس الذكر أعجمي أو مال أو جماع أو جمال أو أتباع ، والحمامة امرأة زوجة أو ابنة ، والفاختة امرأة قليلة الحياء والدين ... إلخ .

وانتهى المؤلف في الفصل الثالث والعشرين إلى أن تأويل رؤيا الحرف والصناعات والملاهي تختلف باختلاف الأحوال والظروف (ص ٥٥ إلى ص ٥٦) ، فالوزان والكيال في التأويل يعني القاضي إذا كانا مجهولين ، فإن رآهما يصفقان ؛ فالقاضي جائر في حكمه ، وإن كانا يرقصان ؛ فالقاضي عدل في حكمه وقضائه ، والخطيب فقيه في الدين ، وكذلك الصيرفي رجل عالم ، والبزاز رجل صاحب خطر عظيم في دنياه شاعر أو حكيم ، والخزان رجل عظيم شاعر يمزق أعراض الناس ، والخياط رجل بائع دينه بدنياه ، والإسكافي رجل يؤلف بين الناس وبين النساء والرجال ، والنحاس صاحب أخبار السلطان ، والنجار رجل يقهر الرجال ، والحداد رجل صاحب ملك وسلطنة ... وهكذا أورد تأويلات لمعظم الحرف والصناعات .

ودار الحديث في الباب الرابع والعشرين (من ص ٥٦ إلى ص ٥٨) حول تأويل أشياء متفرقة ؛ مثال ذلك : النور تأويل للهداية ، والظلمة ضلال ، والطريق طريق الحق ، والميل عنها ميل إلى الباطل والضلال ، الخراب من الأرض ضلال لمن رأى أنه فيها ، والحصن صيانة في الدين لمن رأى أنه داخلها ، والكتب المطوية خبر مسطور ، والكتاب المنشور خبر ظاهر ، والختم تحقيق الأمر ، وكتب العلوم والفقه علوم وحكمة ، وكتب الشعر غواية ومكر وكذب ، والمصحف حكمة ينالها الرجل ... إلخ .

ومسك الختام الباب الخامس والعشرون حيث دار فيه الحديث عن تأويل قراءة سور القرآن الكريم (من ص ٥٨ إلى ص ٦٤) ، وانتهى فيه الشيخ رحمه الله تعالى ونفعنا به إلى أن الفاتحة الكريمة من قرأها ؛ فإنه يدعو بدعوات يجاب فيه ، وينال فائدة يسر بها ، وقيل : يتزوج تسع نسوة متفرقات ويكون مستجاب الدعوة ، والبقرة من تلاها من نومه أو شيئًا منها أو تليت عليه ؛ فإنه يرزق طول العمر ، وصلاح الدين ، أما آل عمران من تلاها في نومه يكون منحوس الحظ بين أهله ، ويرزق في كبره ، ويكون كثير الأسفار ، أما النساء من تلاها يكون معه في آخر عمره امرأة جميلة لا تحسن العشرة معه ، ويكون قوي الاحتجاج قوي الكلام والفصاحة ، ومن تلا سورة المائدة ؛ يكون كريم النفس بالإطعام غير أنه يبلى بقوة جفاة ، ومن تلا الأنعام في منامه ؛ يكون متوجهًا لحفظ الدين وحسن الرزق ، أما الأعراف ؛ فينال تاليها من كل علم حظًا ، وربما يموت في أرض

الغربة ، واستمر المؤلف في تتبع سور القرآن الكريم جميعًا مؤولًا إياها حتى وصل إلى آخر سور القرآن وهي سورة الناس ، فإن تاليها في منامه أعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

وهذا آخر ما يسَّره الله من جمع واختصار المنقول من الروايات الصحيحة عن سيدنا محمد ابن سيرين وغيره رحمهم الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بخصوص ربط ما ورد في هذا الكتاب بالتخصصات الدقيقة في علم النفس ، فما ورد من حديث في ص ٤ ، ٥ عن التفكر الحدسي Intuitive Thinking بمعنى الإلهام والوصول إلى الحقيقة فجأة دون مقدمات ، فهذا مما يدخل ضمن موضوعات التفكير الإنساني وعلم النفس المعرفي Cognitive Psychology ، كذلك الحديث عن خصال المعبر ، في نفس الصفحات وما بعدها ، هو حديث مرادف تمامًا للحديث عن سمات الشخصية الإنسانية الخاصة بالمعبرين للرؤى ، كذلك مفاهيم مثل الفهم والتأويل والإدراك ، كلها مما يدخل ضمن موضوعات علم النفس العام General Psychology الخاصة بالإدراك الحسي Sensory Perception وغير الحسي (وهو الفهم) ، فهناك الإدراك (أو الفهم) ، ثم يأتي التأويل بعد ذلك .

ورد في الباب الثاني حديث يصف المؤلف فيه أحوال الرائي ، وهي مما يندرج تحت دراسات علم النفس العام ، وبصفة خاصة موضوع الانفعالات Emotions والمشاعر الوجدانية Feelings من قبيل السرور والفرح والغضب والحب والكراهية والإقبال على الله وتقبل البشر ... إلخ .

أما ما يمكن أن يرجى من فائدة لهذا الكتاب ، فهو محاولة وضع معايير عملية قاسية لكيفية تفسير الأحلام في علم النفس ، فلا تظل هذه المسألة أمرًا خاضعًا للأهواء كما هو الحال لدى سيجموند فرويد وتابعيه ، كذلك يعد هذا الكتاب درسًا عظيمًا في كيفية تربية التفكير الإنساني القائم على أساس الاستقراء ، فالتأويل نوع من الاستقراء العلمي القائم على أساس من قواعد وأصول لتأويل الرؤى (انظر الصفحات : ٢ ، ٤ ، ٥ من أول هذا الكتاب) .

ولا حاجة بنا أن نشير إلى أن هذا الأمر - تأويل الرؤى وتعبيرها - شاق على غير أهله ولا يستطيعه كل الناس حتى ولو كانوا علماء ؛ لأن متطلبات القيام به كثيرة وصعبة . وميزة هذا الكتاب أنه لم يخلط بين الأحلام ، وأضغاثها ، والرؤى وميز فيما بينها تمييزًا سليمًا ، على عكس الحال لدى صاحب تفسير الأحلام في مجال المرض النفسي وتحليل الصراعات ، وهو سيجموند فرويد ، الذي لم يميز بين أنواع الأحلام ،

واعتبرها كلها نوعًا واحدًا ، ومال عند تفسيره لها جميعًا بالشهوات التي تريدها النفس ولا تستطيع الحصول عليها ، وخاصةً الرغبات الجنسية المكبوتة منها على وجه الخصوص ، ولم ينته إلى قواعد ثابتة يمكن الانطلاق منها في التفسير ، كما هو الحال عند شيخنا الجليل ابن سيرين ؛ ولذا جاءت كل تفسيراته متعارضة . هذا وباللّٰه التوفيق

* * *

ابن المقفع (ت ١٤٢هـ)

الأدب الصغير [١]

عرض : د . محمد شلبي

التعريف بالمؤلف [٢] :

عبد اللّه بن المقفع : من أئمة الكتاب ، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، أصله من الفرس . وُلِد في العراق مجوسيًا (مزدكيًا) ، وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) ، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي . وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق ، وكتاب « المدخل إلى علم المنطق » المعروف بإيساغوجي ، وترجم عن الفارسية كتاب « كليلة ودمنة » وهو أشهر كتبه ، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع منها : « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « الصحابة » و « اليتيمة » .

عرض الرسائل :

تقع رسالة ابن المقفع ضمن عدد من رسائل أخرى لمؤلفين آخرين في كتاب واحد يقع في ٥٣٠ صفحة ، ومن بين هذه الرسائل ما تم عرضه من قبل في كتب أخرى كتهذيب الأخلاق ليحيى بن عدي ، على سبيل المثال . ولذلك سوف نركز في عرضنا هنا على رسائل ابن المقفع فقط .

الأدب الصغير :

تقع رسالة الأدب الصغير في ٣٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويعتني فيها ابن المقفع :

---

(١) بيروت : دار صادر (١٩٨٩م) ، (١٣٩ص) .

(٢) المصدر : الأعلام - للزركلي .

أولا : بتنمية العقول :

« فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح ، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم ، وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب ، وبالأدب تنمو العقول وتزكو » (ص ٤) .

ويذكر ابن المقفع أن « إحياء العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست (ص ٦ - ٨) : وهنا إشارة إلى وسائل تنمية الذكاء المعرفي والذكاء الاجتماعي .

١ - **الإيثار بالمحبة** : فإنما يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة ، حين يؤثر بمحبته ، فلا يكون شيء أمرأ ولا أحلى عنده منه .

٢ - **المبالغة في الطلب** : فإن الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون ، وهو أهم ما يهوون ، عن طلبه وابتغائه ، ولا يدرك لهم بغيتهم نفاستها في أنفسهم دون الجد والعمل .

٣ - **التثبت والتخير** : فإن الطلب لا ينفع إلا معه وبه . فكم من طالب رشد وجده والغي معًا ، فاصطفى منهما الذي منه هرب والغي الذي إليه سعى ، فإذا كان الطالب يحوي غير ما يريد ، وهو لا يشك بالظفر ، فما أحق بشدة التبين ، وحسن الابتغاء .

٤ - **الاعتقاد للخير** : اعتقاد الشيء بعد استبانته ، فهو ما يطلب من إحراز الفضل بعد معرفته .

٥ - **حسن الوعي** : أما الحفظ والتعهد ، فهو تام الدرك ؛ لأن الإنسان موكل به النسيان والغفلة ، فلابد له إذا اجتبى صوابه قول أو فعل من أن يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته .

٦ - **التعهد لما اختير واعتقد** : البصر بالموضع ؛ فإنها تصير المنافع كلها إلى وضع الأشياء مواضعها . وبنا في هذا كله حاجة شديدة ؛ فإننا لم نوضع في الدنيا موضع غناء وخفض ، لكن موضع فاقه وكد ، على العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون ، مستوون في الحب لما يوافق ، والبغض لما يؤذي ، وأن هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والأكياس ، ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال ، هي جماع الصواب وجماع الخطأ ، وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة (ص ٩ - ١١) .

أ - فضل الرأي الجامع الذي تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلًا ثم يضمحل ، وأن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيعلم أن أحق

ذلك بالطلب ، إن كان ما يحب ، وأحقه بالاتقاء ، إن كان مما يُكره ، أطوله وأدومه وأبقاه .

ب - أن ينظر فيما يؤثر من ذلك ، فيضع الرجاء ولا خوف فيه موضعه ، فلا يجعل اتقاءه لغير المخوف ، ولا رجاءه في غير المدرك ، فيترك عاجل اللذات طلبًا لآجلها ، ويتحمل قريب الأذى توقيًا لبعيده ، فإذا صار إلى العاقبة بدا له أن فراره كان تورطًا ، وأن طلبه كان تنكبًا .

ج - تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة الذي هو أدوم ، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف ، فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ، ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانه محروم .

وعلى العاقل مخاصمة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والإثابة لها والتنكيل بها (ص ١٠ ، ١١) ، ونجد هنا إشارات عن مفهوم الذات Self concept وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين ، وفي الرأي وفي الأخلاق وتعديل السلوك والمنهج العلمي والموضوعية . وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف من إصلاح الخلة أو الخلال (الخصال) (ص ١١) .

على العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره (ص ١٤) .

ثانيًا : الولاية (ص ١٤ - ١٦) :

ولاية الناس بلاء عظيم ، وعلى الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت :

١ - **الاجتهاد في التخير للعمال والوزراء** : فإن نظام الأمر ووضع مؤونة البعيد المنتشر فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلًا واحدًا قد اختار ألفًا ؛ لأنه من كان في العمال خيار فسيختار كما اختير .

٢ - **التقديم والتوكيل** : فإنه ليس كل ذي لب أو ذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال ، ولو كان بذلك عرفًا لم يكن صاحبه حقيقًا أن يكلل ذلك إلى علمه دون توقيفه عليه ، وتبيينه له ، والاحتجاج به عليه .

٣ - **التعهد** : فإن الوالي إذا تفقد وتحفظ كان سميعًا بصيرًا ، وإن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصنًا حريزًا .

٤ - **الجزاء** : فإن تثبيت المحسن والراحة من المسيء .

ويورد ابن المقفع بعد ذلك نصائح وأبواب حكمة في مواضيع شتى نختار منها ما يلي :

- أشد الفاقة عدم العقل ، وأشد الوحدة اللجوج (شدة المخاصمة) ، ولا مال أفضل من العقل ، ولا أنس آنس من الاستشارة (ص ١٧) .

- أحق الناس بالسلطان أهل الرأفة ، وأحقهم بالتدبير العلماء ، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله ، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديبًا ، وأحقهم بالغنى أهل الجود ، وأقربهم من اللّٰه أنفذهم في الحق علمًا ، وأكملهم به عملًا (ص ٢٠) .

- فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان ، وأن الرأي يسلم بالخصومة ، فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأيًا ،ومن جعل الرأي دينًا فقد صار شارعًا ومن كان هو يشرع لنفسه فلا دين له (ص ٢١) .

- من حاول الأمور احتاج إلى ست وهن أزواج ، فالرأي والأدب زوج ، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الأدب ، والأعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة ، ولا تنفع الفرصة إلا بحضور الأعوان ، والتوفيق والاجتهاد زوج ، فالاجتهاد سبب التوفيق ، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد (ص ٢٩) .

- الرجال أربعة : جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد (ص ٣٠) .

- الحازم لا يأمن عدوه على كل حال : إن كان بعيدًا لم يأمن من معاودته ، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته ، وإن رآه متكشفًا لم يأمن استطراده وكمينه ، وإن رآه وحيدًا لم يأمن مكره (ص ٣٣) .

* * *

كليلة ودمنة
الأدب الكبير [١]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٨٤ صفحة من القطع الكبير ، ويهدف إلى تناول آثار ابن المقفع ذات القيمة الأدبية الرفيعة باعتبارها نثرًا عربيًا وأدبيًا جيدًا ، يضاف إلى ذلك قيمتها السياسية والأخلاقية ، حيث تقدم صورة دقيقة تصف الفساد الذي استشرى في أواخر الدولة الأموية والذي امتد لأول العصر العباسي .

وعن آثار ابن المقفع فهي : كليلة ودمنة ، والأدب الكبير والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، ورسالته في الصحابة ، وآثار أخرى ، وهي تمثل أعمالًا أدبية لها قيمتها الفنية في تراثنا العربي . وفيما يلي نعرض لتفاصيلها :

١ - كتاب كليلة ودمنة :

ألفه الفيلسوف الهندي بيدبا لحاكم هندي عرف بالظلم يسمى دبشليم ، وترجمه ابن المقفع ، وهناك من يقول إنه اقتبس بعضه وترجم البعض الآخر ، ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من القصص الأخلاقية وضعت على ألسنة الحيوانات والطيور تتناول بالنقد الصريح سياسة الضغوط والإرهاب والفساد السائد وقت ذلك ، وهي في ظاهرها هزل وفي باطنها دعوة إلى الإصلاح والإعمار .

---

(١) بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة (١٩٧٨م) ، ٣٨٤ ص - (من التراث العربي) .

ورد بالكتاب أن من الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء ، وهي :

- جماع ما في العالم ، الحكمة والعفة والعقل والعدل .
- فالعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة .
- والحلم والوقار داخلة في باب العقل .
- والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة .
- والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل .

وهذه هي المحاسن وأضدادها هي المساوئ .

ونذكر أن هذا القول يشير إلى القيم الأخلاقية Moral Values والمزاج Temperament (ص ٤٤) .

كما يورد أقوالًا للملوك تحثهم على التروي وعدم الاندفاع ، ويتصل هذا بمفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٤٥) .

ثم يعرض لخصال لا ينبغي توفرها في الملوك ، وهي : الغضب ، والبخل ، والكذب ، والعنف ، وهو ما يتصل بخصال القادة Leaders Characteristics مجال علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس المهني (ص ٤٨) .

كما يعرض لمظاهر السلوك الأخلاقي Moral Behavior Mainifestation كالرفق والتلطف والطاعة للملوك ، حفظ السر ... إلخ (في ص ٦١) .

ويدعو أيضًا إلى التحلي بالأخلاق ، والموضوعية ، والتروي ، والإيمان بالقضاء والقدر وحب الناس (في ص ٧٥) ، وهي أيضًا من مظاهر السلوك الأخلاقي وخصائص واجب توفرها لدى القادة .

وفي فصل عن برزويه الطبيب الفارسي الزاهد - (الذي كلفه ملك الفرس بأن يأتي بكتاب كليلة ودمنة سرًا من الهند ويترجمه وقد وفّق في هذه المهمة رغم العقبات التي صادفته) - في هذا الفصل يعرض لزهده وهو ما يشير إلى قمع أو كف الدوافع الفطرية Innate Motives Suppression (ص٨١ - ٨٤) .

ويتحدث أيضًا عن المروءة وعلاقتها بمنزلة الفرد ، فيذكر أنها ترفع منزلة الفرد في حين أن عدم المروءة يحط منها ، وإن لكل إنسان منزلة وقدرًا .

ويتصل هذا الموضوع بمفهوم المكانة Status وكذلك مفهوم سمات الشخصية Personality Traits (ص ٩٩ - ١٠٢) .

ويشير أيضًا إلى أسلوب للتوافق الاجتماعي والشخصي Social & Personal Adjustment وهو النظر فيما مضى من الضر والنفع ، والنظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار ، ثم النظر في المستقبل لما يرجو من نفع أو يخافه من ضر (ص ١١٣) .

وعن أسباب فشل القائد Leaders Failure يذكر أن ما يؤخذ على القائد ويفسد أمره ستة أشياء هي : الحرمان ، والفتنة ، والهوى ، والفظاظة ، والزمان (الكوارث والأزمات) ، والخرق (أعمال الشدة في موضع اللين والعكس) ، (ص ١١٤) .

وتشير قصة القرد والغيلم (ذكر السلحفاة) إلى أن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ، ويتصل موضوعها بمفهوم الحاجة Need (ص ٢١٠ - ٢١٦) .

أما في قصة الناسك وابن عرس ، فهي تحث على التروي وعدم الاندفاع في السلوك ؛ لذا فهي تتصل بمفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٢١٧ - ٢٢٠) .

وفي مجال العدوان Aggression والعداوة Hostility تشير قصة الجرذ والسنور (الهر) إلى أن العداوة قد تصير مودة ، وأن المودة قد تصير عداوة (ص ٢٢١ - ٢٢٦) ، ويشير ذلك إلى مفهوم ثنائية المشاعر أو التناقض الوجداني Ambivalence .

كما تعرض لمعنى الصداقة Friendship ومتطلباتها وواجباتها (ص ٢٤) .

وعن الصفات اللازمة للتوافق الاجتماعي Social Adjustment يذكر أنها كف الأذى ، وحسن الأدب ، ومجانبة الريب ، وكرم الخلق ، والنبل في العمل ، (ص ٢٣٢) .

وتشير قصة (الأسد وابن آوى الناسك) إلى ضرورة مراجعة الحاكم لمن عاقبه بدون ذنب ، ويذكر الآتي : « يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة والتثبت ، والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة بسبب ضعف الرأي .

يتصل هذا بمفهوم الشعور بالذنب Feeling of Guilt ، وكذلك مفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٢٤٠ ، ٢٤١) .

ثم يحث على عقاب المخطئ وعدم التساهل معه حتى لا يتجرأ على ما هو أعظم مما ارتكبه ، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العقاب Punishment (ص ٢٤٢) .

وفي قصة (اللبؤة والأسوار والشعهر) ، يحث الإنسان على عدم إيذاء الآخرين ،

وفي ذلك دعوة إلى عدم ممارسة العدوان Aggression (ص ٢٤٤ - ٢٤٦) .

وفي فصل (إيلاذ وبلاذ وإيراخت) يحث الكتاب على التحكم في انفعالات الغضب Anger Control أو Emotions Control . وعدم التعجل بالعقوبة ، أي عدم الاندفاع Impulsivity ، وضرورة مشاورة أهل المودة والرأي ، Consultation . وذلك عند اتخاذ القرار Decision Making Process (ص ٢٤٧ - ٢٦٠) .

٢ - الأدب الكبير :

يعرض هذا الكتاب لعلاقة الراعي بالرعية ، وعلاقة الرعية بعضها ببعض من منظور أخلاقي ، أي أنه كتاب في السلوك الأخلاقي Moral Behavior (ص ٢٧٩ - ٣١٤) .

يحث الكاتب على إرضاء الخالق ﷻ ، وإرضاء السلطان وإرضاء التابعين الصالحين ، ويتصل هذا الكلام بمفهوم الإرضاء Satisfaction (ص ٢٨٢) .

كما يحث على انتقاء الصحبة ، ويقدم نصائح للتعامل معهم ، وهو ما يتصل بمفهوم الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠١) .

وفي دعوته إلى الحلم وكف الغضب إشارة إلى مفهوم ضبط الانفعال Emotional Control (ص ٢٨٥ ، ٢٩١) .

وهو ما يتصل أيضًا بالدعوة إلى الحلم والصبر على جار وعشيرة السوء (ص ٣٠٢) ، وضبط مشاعر العداوة (ص ٣٠٣ ، ٣٠٤) ، وضبط الشهوة الجنسية (ص ٣٠٦) وتجنب معارضة السفهاء بالسفه (ص ٣٠٩) .

وفي الحث على مجالسة الأفراد وفقًا لطرائقهم يذكر : (إذا أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه ، والعيي بالبيان لم يزد على أن تضيع عقلك ، وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه) ، كما يذكر أيضًا : (اتق الفرح عند المحزون) .

ويتصل هذا بمفهوم المرونة التكيفية Adaptive Flexibility والتوافق الاجتماعي Social Adjustment وكذلك مفهوم التعاطف sympathy (ص ٣١٠ ، ٣١١) ، وفي مجال آداب الاستماع يقول ابن المقفع : (تعلم الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول) .

كما يحث على عدم التطاول بالبلاغة أو الفصاحة لمن هم ليسوا بلغاء ... ، ويتصل هذا الجانب بمفهوم التواصل Communication ، والتواصل اللفظي Verbal Communication والكلام Speech (ص ٣١٢ ، ٣١٣) .

الأدب الصغير :

يتعرض هذا الجزء إلى حاجة العقل إلى الأخلاق وتأثير الأخلاق في تنمية العقل Moral & Mind (ص ٣١٦ - ٣٤٣) .

وعلى وجه الخصوص ، يحث على ترك عاجل اللذات طلبًا لآجلها ، وتحمل قريب الأذى توقيًا لبعيده ؛ ولذا يختص الجزء الأول بالتحكم في إشباع الحاجة Need Satisfaction ، بينما يتصل الجزء الثاني بالمثابرة Persistance وكلاهما يتصلان بمفهوم النضج النفسي Psyco - Maturity (ص ٣٢١) .

ويذكر الكاتب حاجة العقل إلى محاسبة نفسه ، والقضاء عليها إذا ساءت ، والإثابة لها إذا أحسنت ، أي يحتاج العاقل إلى الضمير Conscience والموضوعية Objectivity (ص ٣٢٢ ، ٣٣٦) .

كما يتصل أيضًا الحث على عدم اتباع الآراء التي تلائم الهوى بمفهوم الموضوعية (ص ٣٢٤) ، حيث يتصل بعلاقة الرأي بالوجدان Opinion, Affection (ص ٣٢٤) .

وعن دور العقل وأهميته في توجيه السلوك يذكر أن : (أشد الفاقة عدم العقل ، وأشد الوحدة وحدة اللجوج ، ولا مال أفضل من العقل) ، وهو ما يتصل بمفهوم الذكاء Intelligence (ص ٣٢٦) .

ثم يتحدث عن أهمية ودور العلم والمعرفة في تهذيب عقل وأخلاق الإنسان ، وهو ما يتصل بمفهوم المعرفة Coqnition وكذلك يشير إلى دور التربية Education وأهميتها في هذا التهذيب (ص ٣٢٨ ، ٣٢٩) .

كما يعرض لأخلاق وآداب المتعلمين والعلماء (ص ٣٣١ ، ٣٣٢) وفضل العلم والتعليم (ص ٣٣٠) وهو ما يتصل بعملية التربية التي سبق لنا الإشارة إليها Education والقيم الأخلاقية Moral Values .

ثم يعرض لمختلف النصائح والحكم حول المال والعقل والحاجة والفقر ... إلخ (ص ٣٣٨ - ٣٤٣) .

يتيمة السلطان [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الرسالة :

تقع في ٢٦ صفحة في كتاب محمد علي كرد ، رسائل البلغاء من (ص ١٤٦ – ١٧٢) ، وتجمع جوامع الحكم والبيان .

وسنعرض لمختارات ، منها : « من زرع الخير حصد الغبطة » ، « لذة الدنيا في أربعة أشياء : البناء والنساء والطلاء والغناء » ، « أربعة من جهد البلاء : كثرة العيال ، وقلة المال ، وجار السوء ، والزوجة الجائرة » ، « شدائد الدنيا أربعة : الشيخوخة مع الوحدة ، والمرض في الغربة ، وكثرة الدين مع القلة ، وبعد المسافة مع الرحلة » ، « المرأة الصالحة عماد الدين ، وعمارة البيت ، وعون على الطاعة » ، « ثلاث ليس للعاقل أن يتشاءم منهن : فناء الدنيا ، وتصرف أحوالها ، والآفات التي لا أمان منها » ، « ثلاث لا تدرك بثلاث : الغنى بالمنى ، والشباب بالخضاب ، والصحة بالأدوية » (ص ١٤٨) .

« ثمان خصال من طبائع الجهال : الغضب في غير شيء ، والعطاء في غير حق ، وإتعاب البدن في الباطل ، وقلة معرفة الرجل بصديقه من عدوه ، ووضعه السر في غير أهله ، وثقته بمن لم يجربه ، وحسن ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء ، وكثرة الكلام من غير نفع » (ص ١٤٩) .

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي – (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في : رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

« على الملك أن يعمل بخصال ثلاث : تأخير العقوبة عند سلطان الغضب ، وتعجيل **مكافأة المحسن** ، والأناة فيما لا يخاف فوته ؛ فإن له في تأخير العقوبة إمكان العفو ، وفي **تعجيل** المكافأة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعية ، وفي الأناة انفساح الرأي وإيضاح الصواب » (ص ١٥٠) .

« من جهل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل - من أنف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره - من استنكف من أبويه انتفى من الرشد - من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره » (ص ١٥١) .

« إذا صلح صنفان صلح الناس كلهم : العالم والسلطان ، والعلم أجل الأشياء ، تدرك به وهو لا يدرك بالأشياء » (ص ١٥٣) .

« ينبغي أن يكثر الإنسان المقابسة وينتفع بالتجارب ، فإذا أصابه شيء يكرهه حذره وأشباهه وقاس بعضه على بعض » ، « إن الأعمال لا يستعان عليها إلا بالصبر ، ولا يتم الصبر إلا بالعقل ، وإنما يتم العقل مع التجربة ، ويحفظه ويجمعه الاجتهاد والتقدم » ، « وعقل الرجل يستبين في ثماني خصال : **الأولى** : الرفق واللين ، **والثانية** : حفظ الرجل لنفسه ومعرفته بها ، **والثالثة** : طاعة الملوك والتحري لمرضاتهم ، **والرابعة** : معرفة الرجل موضع سره وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه ، **والخامسة** : أن يكون على أبواب الملوك أديبًا حمولًا ملقًا ، **والسادسة** : أن يكون لسره وسر غيره حافظًا ، **والسابعة** : أن يكون على لسانه قادرًا محتاطًا مقسطًا ، **والثامنة** : أن يكون إذا كان في محفل لا يجيب عما لا يسأل عنه ولا يقول ما لا يستيقن ، ولا يظهر ما يندم عليه » (ص ١٥٤، ١٥٥) .

وقال : « إنما يؤتى السلطان من قبل ست خلال (خصال) : الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخزق : فأما الحرمان ، أن يحرم الإخوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة فيفقد بعض من هو كذلك ، أما الفتنة ، فوقوع الحرب ، وأما الهوى ، فالغرام بالنساء والحديث والشراب والصيد ، وما أشبه ذلك ، وأما الفظاظة ، فإفراط الشدة حتى يجمع اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعه ، وأما الزمان ، فهو ما يصيب الناس من السنين والموتان ونقص الثمرات والغرق ، وما أشبه ذلك ، وأما الخرق ، فإعمال الشدة في موضع اللين ، واللين في موضع الشدة » (ص ١٥٧) .

وقال : « لا شيء أشد من الفقر ، وهو رأس كل بلاء ، وداع لصاحبه إلى مقت الناس، وهو مسبلة للعقل ، ومدهشة للفطنة ، ومنقصة للمروءة ، ومذهبة للعلم

والأدب ، ومظنة للتهمة ، ومقطعة للحياء ، ومجمعة للبلاء » . « والرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا ، وأساء به الظن من كان ظنه به حسنًا ، فإن أذنب غيره ظنوه به وصار للتهمة موضعًا » (ص ١٥٩) .

وقال : « إن العلم وحسن التدبير أبلغ في هلاك العدو من النجدة والمحاربة ؛ لأن الرجل النجد إذا اجتهد قتل عشرة من أعدائه ، والرجل العالم الحسن التدبير مهلك بحيلته وتدبيره أهل العسكر الكبير الشديد الشوكة » (ص ١٦٤) .

وقال : « ثلاثة يزداد بها الإخاء : الزيادة في الرجال ، والمواكلة والمشاربة ، ومعونة الأهل والحشم » .

وقال : « يستدل على جودة الذهب بالنار ، وعلى قوة الدواب بالأحمال ، وعلى أهل الأمانة بالأخذ والعطاء ، ولا يستدل على أقصى علم النساء بشيء من الأشياء » (ص ١٦٥) .

الحكم والتجارب والبيان الذي عرضه ابن المقفع يتناول فيه كثيرًا من أحوال الدنيا ، منها : الحياة الخاصة ، والحياة العائلية ، والصداقة ، والولاية ، والعقل وهي ما تدخل في نطاق علم النفس الاجتماعي Social Psychology ، والشخصية Personality ، والذكاء Intelligence .

* * *

الدرة أو الأدب الكبير [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

كتب عبد اللّٰه بن المقفع درته هذه ؛ لكي يفتح بابًا من العلم ، مماثل لمن سبقوه من أهل الفضل من العلماء : « فمنتهى علم علمائنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع » ، « ذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم ، والكلمة من الصواب ، وهو بالبلد غير المأهول ، فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل ، وكراهية لأن يسقط ذلك من بعده ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده ، الرحيم بهم » ، « فلم يبق في جليل الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ، ومن هذا بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » .

يقسم ابن المقفع كتابه إلى أبواب ، تبدأ بباب في وصف أصول الأدب في الدين وغير ذلك : « يا طالب الأدب اعرف الأصول ، ثم اطلب الفصول (الفروع) ، فإن كثيرًا من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول ، فلا يكون دركهم ، ومن أحرز

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي - (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

الأصول اكتفى بها عن الفصول ، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل ، فهو أفضل » . فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة » ، « وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافًا » ، « وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ » (ص ٤٠ - ٤٣) .

باب (في وصف الحذر إذا تقلدت شيئًا من أمر السلطان وغيره) :

يورد ابن المقفع عددًا كبيرًا من النصائح لمن يتولى الإمارة : « إن ابتليت بالسلطان فتعوذ بالعلماء » ، « إياك إذا كنت واليًا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتكون ثلمة من الثلم (خلل) » (ص ٤٤ ، ٤٥) .

« لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال : رضا ربك ، ورضا سلطان إن كان فوقك ، ورضا صالح من تلي عليه » .

باب (في المشورة) :

« لا تقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك الحاجة إلى رأي غيرك » ، والأفضل أن يقال : « لا ينفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي » (ص ٤٦) .

باب (في التماس رضا الناس) :

« إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك » ، « لا تمكن أهل البلاء (الحسن عندك) من التذلل ، ولا تمكن من رعيتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها - احرص الحرص كله على أن تكون خبيرًا بأمور عمالك ، فإن المسيء يفرّق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن تأتيه معروفك » ، « ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب ، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ، ورجا الراجي » (ص ٤٦ ، ٤٧) .

باب (موعظة جامعة) :

« عوِّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة ، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن ، والمروءة ؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه ، أو يستخف به شانئ » .

« لا تتركن مباشرة جسيم أمرك ، فيعود شأنك صغيرًا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعًا » .

« اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرغه للمهم ، وأن مالك لا يغني الناس كلهم ، فاختص به ذوي الحقوق » .

« واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم » .

« اعلم أن من الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضب أن يحمله ذلك على الكلوح (العبوس) والتقطيب في غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضا إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن يريد إعطاءه ، ويكرم من لا حق له ولا مودة » (ص ٤٧ ، ٤٨) .

باب (في أصناف الملوك) :

الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى (ص ٤٩) .

باب (في التحذير عند جدة دولة بغير حزم) :

« إذا كان سلطانك عند جدة دولة ، فرأيت أمرًا استقام بغير رأي ، وأوانًا جزوًا بغير نيل ، وعملًا أنجح بغير حزم فلا يغرنك ذلك » ، « ولا تطمئن إليه ؛ لأن أمور الدولة ستظهر حقائقها وأصولها بعد ذلك » فما كان من الأمر بني على غير أركان وثيقة ، ولا عماد محكم ، أوشك أن يتداعى أو يتصدع (ص ٥٠) .

باب (في النهي عن الأصحاب غير الثقات) :

« إذا لم تثق في أعوانك ، فعليك أن تصلح من شأنهم ، أو أن تستبدلهم » ثم يعرض ابن المقفع نصائح لمن صارت له الإمارة :

- « ليس للملك أن يغضب ؛ لأن القدر من وراء حاجته » .
- « وليس له أن يكذب ؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد » .
- « لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه ، إذا تعهد الجسيم من أمره ، وفوض من دون ذلك إلى الكفاة » .
- « ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم ، فليعمل في سدها ، وطغيان السفلة منهم ، فليقمعه ، وليستوحش من الكريم الجائع ، واللئيم الشبعان ، فإنما

يصول الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع » .

● « لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبًا موفورًا يروح به عن قلبه ، ويصدر به أعماله » .

● « جماع ما يحتاج إليه الوالي (من أمر الدنيا) رأيان : رأي يقوي سلطانه ، ورأي يزينه في الناس ، ورأي القوة أحقهما بالبداءة وأولاهما بالأثرة ، ورأي التزيين أحضرهما حلاوة ، وأكثرهما أعوانًا ، مع أن القوة من الزينة ، والزينة من القوة لكن الأمر ينسب إلى أعظمه » (ص ٥٠ - ٥٤) ، (ولعل الكلام في الجزء السابق يمكن أن يقابل موضوع القيادة Leadership في علم النفس الحديث .

باب (صحبة السلطان) :

« إن شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول المرابطة في غير معاتبة ، ولا يحدثن لك الاستئناس غفلة ولا تهاونًا » .

« لا يعرفنك الولاة بالهوى في بلدة من البلدان ، ولا قبيلة من القبائل ، فيوشك أن تحتاج فيهما إلى حكاية أو مشاهدة ، فتتهم في ذلك » .

« وأحق من احترست منه ، من أن يظن بك خلط الرأي بالهوى ، الولاة ؛ فإنها خديعة وخيانة وكفر عندهم » .

« إن ابتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته ، فاعلم أنك قد خيرت بين خليتين (خصلتين) ، ليس منهما خيار : إما ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين ، وإما الميل مع الرعية على الوالي ، وهذا هلاك الدنيا ، ولا حيلة لك إلا الموت أو الهرب » (ص ٥٤ ، ٥٦) .

« ولا يكونن طلبك ما عند الوالي بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ » .

« لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقًّا ، وأنك تعتد عليه ببلاء » .

« اعلم أن أكثر الناس عدوًّا مجاهرًا حاضرًا جريئًا واشيًا ، وزير السلطان ذو المكانة عنده » ، « فاعرف هذا الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم أعداؤك سلاح الصحة والاستقامة ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن ، ثم روح من قلبك ؛ كأنك لا عدو لك ولا حاسد » ، « وإن ذكرك ذاكر عند ولي الأمر بسوء في وجهك أو في غيبك ، فلا يرين منك الوالي ولا غيره اختلاطًا لذلك ولا اغتياظًا » (ص ٥٧ ، ٦٠) .

« جانب المسخوط عليه والظنيين (المشكوك والمتهم) به عند الولاة ، ولا تظهرن له عذرًا ، ولا تثني عليه خيرًا عند أحد من الناس » .

« ليعلم الوالي أنك لا تستنكف عن شيء من خدمته ، ولا تدع مع ذلك أن تقدم إليه القول ، عند بعض حالات رضاه وطيب نفسه » .

« إذا أحببت الجاه والخاصة عند الملك ، فلا يحدثن لك ذلك تغيرًا على أحد من أهله وأعوانه ، ولا استغناء عنهم ؛ فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة أو تغير فتذل لهم فيها » .

« ليكن مما تحكم من أمرك أن لا تسار (تناجي) أحدًا من الناس ، ولا تهمس إليه بشيء عند السلطان ، فإن السرار يخيل إلى كل من رآه (من ذي سلطان أو غيره) ، أنه المراد به ، فيكون ذلك في نفسه حيلة ووغرًا » .

« إن سأل الوالي غيرك فلا تكونن أنت المجيب عنه ، فإن استلابك (أخذ) الكلام خفة بك ، واستخفاف منك بالمسؤول والسائل » ، « لا تسابق الجلساء تواثب الكلام مواثبة ؛ فإنك إذا سبقت القوم إلى الكلام ، صاروا لكلامك خصماء ؛ فيتعقبونه بالعيب والطعن » ، « وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته (تركته) للقوم اعترضت أقاويلهم على عينك ، ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جوابًا راضيًا » .

« إن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مائة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضعها ، مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير ، وإن ظن صاحبه أنه قد أتقن وأحكم » .

« إن كلمك الوالي فاصغ إلى كلامه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظر (إلى غيره) ، ولا أطرافك بعمل ، ولا قلبك بحديث نفسك » (ص ٦١-٦٣) . ونجد هنا مقدمات تنتمي لموضوعي التخاطب Communication والصداقة Fiendship في علم النفس الحديث .

« أرفق بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه واتخذهم إخوانًا ، ولا تتخذهم أعداء ، ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها » .

« إذا أصبت عند الوالي لطف منزله لغناء (كفاية) يجده عندك ... فلا تزين لك نفسك المزايلة (مفارقة ، مباعدة) له عن أليفه وموضع ثقته وسره قبلك ، تريد أن تقلعه

وتدخل دونه ؛ فإن هذه خلة من خلال السفه » (ص ٦٤ ، ٦٥) .

« اعلم أنه يكاد يكون لك رجل غالبه حديث (ما يغلب على حديثه) ، أما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأي ، وعندما يغرم به الرجل من ذلك يبدو من السخف ويعرف منه الهوى ، فاجتنب ذلك في كل مواطن ، ثم عند أولي الأمر خاصة » .

« لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة (تعويد) منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك » (ص ٦٩) .

باب (في معاملة الصديق) :

« لا تخلطن بالجد هزلًا ولا بالهزل جدًّا ؛ فإنك إن خلطت بالجد هزلًا هجنته ، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدرته » .

« تحفظ في مجلسك ولكلامك من التطاول على الأصحاب » .

« لا تكثرن ادعاء العلم في كل ما يعرض بينك وبين أصحابك ... ؛ لأنهم إما ينازعونك فيما ادعيت .. أو ينكشف منك التصنع » .

« استحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل ، مصرحًا أو معرضًا » .

« إذا رأيت رجلًا يحدث حديثًا قد علمته ، أو يخبر خبرًا قد سمعته ، فلا تشاركه فيه ، ولا تتعقبه عليه ، حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته ؛ فإن في ذلك خفة وشحًا وسوء أدب وسخفًا » .

« اجعل غاية نيتك في مؤاخاة من تؤاخي ، ومواصلة من تواصله ، توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ما تكره » .

« إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراء ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير » (ص ٧٧) .

« اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة ، وأن تفرشك لهم يكسبك صديق السوء » (ص ٧٨) .

« احترس من سورة الغضب ، وسورة الحمية ، وسورة الحقد ، وسورة الجهل ، واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها ، من الحلم والرويَّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة » (ص ٨١) .

« ذلِّل نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ؛ فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك » (ص ٨٢) .

« ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودًا ، فإن الحسد خلق لئيم » (ص ٨٤) .

« إن كنت مكافئًا بالعداوة والضرر ، فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة ؛ فإن ذلك هو الظلم والعار » (ص ٨٥) .

« من الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقاءه ، وتؤاخي إخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق ولا تجافي ؛ فإنه ليس رجل ذو طرق يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه ، وإن كان إخوان عدوك غير ذوي طرق عدو لك » ، « أحصِ معايب ومثالب عدوك من غير أن تشيع ذلك عليه فيتقيك به ، ويستعد له » .

« إن أردت أن تكون داهيًا فلا تحب أن تسمى داهيًا ؛ فإنه من عرف بالدهاء خاتل (خادع) علانية وحذره الناس ، حتى يمتنع منه الضعيف » (ص ٨٦) .

« فإن من أرب (دهاء) الأريب دفن ما استطاع ، حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة » (ص ٨٦) .

« أحصِ عيوبك وعوراتك كما تحصي عيوب عدوك ، وبادر بإصلاح عيوبك ، وتحصين عوراتك قدر استطاعتك ، فإن لم تستطع فاعلم أنك سهل المنال من عدوك » .

وهو كلام مباشر لموضوع الصداقة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي الحديث .

باب (غير مبين ...) :

« اعلم أن من أوقع الأمور في الدين ، وأنهكها للجسد ، وأتلفها للمال ... الغرام بالنساء » (ص ٨٩) .

« إنما النساء أشباه ... بل كثير مما يرغب عنه الراغب أفضل عنده مما تتوق إليه نفسه منهن » (ص ٩٠) .

« إذا تراكمت الأعمال عليك ؛ فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها ؛ فإنه

لا راحة لك إلا في إصدارها ، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك ، وإن الضجر منها هو الذي يراكمها عليك » (ص ٩٢) .

« فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال ، وذلك أن الرجل يكون في أمر من أمره فيرد عليه شغل آخر ، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره ، فيكدر ذلك بنفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه ، وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحدًا منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك (وعقلك) اللذان تختار بهما الأمور ، ثم اختر أولى الأمرين يشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ، ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر ، إذا أعملت الرأي معمله ، وجعلت شغلك في حقه » (ص ٩٢ ، ٩٣) .

« انظر الأخبار الرائعة وتحفظ منها » ... « فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ، ومزارة بالرأي » (ص ٩٤) .

« إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب ، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن الصواب في خلاف الهوى » (ص ٩٨) .

« لا تجالس امرءًا بغير طريقته ؛ فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم ، والجافي بالفقه ، والعيي بالبيان ، لم تزد على أن تضيع عقلك ، وتؤذي جليسك » (ص ٩٩) .

« اتق الفرح عند المحزون » ، « ولا تستخف شيئًا مما يأتي به جليسك » (ص ١٠٠) .

« تعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن إمهال المتكلم ، والوعي لما يقول » (ص ١٠١) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي (خاصة موضوع الصداقة) .

* * *

رسالة في الصحابة [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الرسالة :

رسالة ابن المقفع في الصحابة تقع في ١٧ صفحة من ص١١٧ إلى ص١٣٤ من كتاب محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، وهي مقال سياسي ناصح لأمير المؤمنين ، ولا ينطبق عليها اسمها ، وإنما هي مقال سياسي مماثل لما نقرأه اليوم في الجرائد والمجلات السيارة .

ونعرض فيما يلي لمقتطفات تمثل الإطار العام للمقالة : « وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على مبادرته بالخير فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى إليه ، ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبرًا أو مذكرًا ، وكلٌّ عن أمير المؤمنين مقبول إن شاء اللَّه » (ص ١١٨) .

« والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو أقوى للأمر ، وأعز للسلطان ، وأقمع للمخالف ، وأوصى للموافق ، وأثبت للعذر عند اللَّه ﷻ » (ص ١٢٠) .

« فإنا قد سمعنا فريقًا من الناس يقولون : لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، بنوا قولهم هذا بناءً معوجًا ، فقالوا : إن أمرنا الإمام بمعصية اللَّه فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا الإمام بطاعة اللَّه فهو أهل أن يطاع ... وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة والذي فيه أمنيته ؛ لكي يكون الناس نظائر ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي - (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

يكون على عدوهم منهم ثقل » (ص ١٢٠) .

ويقرر إنه الإمام لا يطاع في معصية الله (ص ١٢١) .

وينصح ابن المقفع أمير المؤمنين بشأن الجند : « مما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحدٌ منهم شيئًا من الخراج ؛ فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » (ص ١٢٢) ، « ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب ، والتفقه في السنة ، والأمانة والعصمة ، والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب رأي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين وقتًا يعرفونه في كل ثلاثة أو أربعة أو ما بدا له ، وأن يعلم عامتهم العذر في ذلك ... ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ؛ فإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم ، وإن باب ذلك جدير أن يحسم ، مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم ، وكثرة المال الذي يخرج لهم » (ص ١٢٣) .

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار اختلاف الأحكام التي قد بلغ اختلافها أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى » (ص ١٢٦) .

« فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس » (ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

وينتقد ابن المقفع صحابة أمير المؤمنين : « وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيه مظالم ... ، فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره » (ص ١٣٠) .

ويقدم النصح لأمير المؤمنين فيمن ينبغي أن يضمه لصحبته : « هي مكرمة سنية ، حرية أن تكون شرفًا لأهلها ، له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء » (ص ١٣١) .

تدخل هذه الرسالة في نطاق علم النفس الاجتماعي Social Psychology ، باب الصداقة Friendship .

أوجه الاستفادة من هذه الرسالة في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجال علم النفس الاجتماعي .

وكيع بن الجراح (ت ١٩٨هـ)
كتاب الزهد (١)

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس بن جمجمة ، قيل : إن أصله من قرية من قرى نيسابور ، وقيل : بل أصله من السُّغد ، وفي تاريخ ولادته على أقوال : منها أنه ولد سنة تسع وعشرين ومائة ، وأنه ولد سنة ثمانٍ وعشرين ومائة ، وأنه ولد سنة تسع وعشرة ومائة .

نشأ الإمام وكيع بن الجراح وتربى في أسرة عريقة في العلم والدين ؛ حيث كان والده الجراح بن مليح من رواة الحديث ، وأمه : أم وكيع هي بنت عمارة بن شداد بن ثور بن رؤاس ، كانت ثرية حيث تركت لابنها مائة ألف درهم ، وأولاده هم : سفيان ومليح وأحمد ويحيى وعبيد وإبراهيم ، وروى منهم عن أبيه : عبيد ، ومليح ، وسفيان .

ولد الإمام وكيع بن الجراح (١٢٩هـ - ١٩٧هـ) في أواخر العهد الأموي حينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وقضت عليه الحركات السياسية المعارضة ، وانتهى الأمر إلى الإطاحة بالدولة الأموية على أيدي دعاة الدولة العباسية بخراسان والعراق .

وقد برز في عصره عدد كبير من العلماء الأجلاء الذين ساهموا في حركة التدوين حفظًا للسنة ومنعًا للتلاعب فيها ؛ منهم الإمام وكيع بن الجراح الذي نحن بصدد

---

(١) حققه وقدَّم له وخرَّج أحاديثه وآثاره عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي (ط ١) . المدينة المنورة : مكتبة الدار (١٩٨٤م) . ٣ مج في (٩٤٣ ص) .

التعريف به، والزهري ، والأعمش ، وابن جريج ، وابن إسحاق ، ومعمر بن راشد .

وقد توجه وكيع إلى تحصيل العلم مبكرًا ، وكان له نشاط ملموس في الرحلات العلمية حيث رحل إلى مدن كثيرة ، وأخذ العلم من علمائها ، كما روى لهم ما تجمع لديه من أحاديث وآثار ، ونشر عقيدة السلف ، ورد على أصحاب الزيغ والضلال .

ولقي وكيع بن الجراح من أهل العلم حفاوة وتكريمًا بالغين ، فكانوا يهتمون بالأخذ عنه . ومن تلاميذه : شيخه الثوري ، وابن المبارك ، صاحب « الزهد » ، و « البر والصلة » ، وابن معين ، صاحب « التاريخ » ، والحميدي ، صاحب « المسند » ، وابن أبي شيبة ، صاحب « المصنف » و « الأدب » و « الإيمان » .

ومن مؤلفاته : المصنف ، والسنن ، والمسند ، والتفسير ، والمعرفة والتأريخ ، وكتاب الهبة ، وكتاب الأشربة ، وكتاب الزهد (الذي نعرض له) .

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء ، نعرض لها على النحو التالي :

الجزء الأول : من كتاب الزهد :

ويستهله المؤلف ببيان أهمية الزهد ، فإذا أراد اللَّه بعبد خيرًا زهده في الدنيا ، وفقهه في الدين ، وبصره عيوبه ، ومن أوتيهن ، أوتي خير الدنيا والآخرة ، ثم عرض بعد ذلك لعدد من الموضوعات أو الأبواب ، على النحو التالي :

١ - **باب موعظة النبي ﷺ في الزهد** ، ويشير مضمونه إلى أن الزهد ليس معناه الفراغ والانقطاع للعبادة فقط ، ولكن لابد أن يشغل الإنسان وقته في العمل والعبادة معًا .

٢ - **باب من قال : عد نفسك في الموتى** : حيث يجب على الإنسان أن يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ، وأن يعد نفسه مع الموتى .

٣ - **باب الاستعداد للموت** : فمن شرح اللَّه صدره للإسلام ، تجافى عن دار الغرور واستعد للموت قبل نزول الموت .

٤ - **باب قلة الضحك** : وفيه إشادة واضحة لأن يقلل المرء قدر الإمكان من الضحك .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا** » .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions ، (ص ٢٤٢ - ٢٤٨) .

٥ - **باب في البكاء** : وفيه إشارة واضحة إلى البكاء ، البكاء مع ذكر الخطيئة ،

البكاء خشية لله ﷻ . سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ ما نجاة المؤمن قال : « **احفظ لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك** » .

٦ - **باب الضحك** : فبعد نزول الآية الكريمة : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] لم يضحك الرسول ﷺ إلا تبسمًا ، ولا يلفت إلا جميعًا (ص ٢٦٧) .

● ويرتبط ما ورد في البابين السابقين (٥ ، ٦) - أيضًا بموضوع سيكولوجية الانفعالات ، فالبكاء يعكس الشعور بالندم والحزن ، أما الضحك فيعكس غالبًا الشعور بالسعادة (ص ٢٦٦ ، ٢٦٨) .

٧ - **باب الموت وصفته** : يتضمن مجموعة من الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة عن طبيعة الموت وصفته ، قال رسول الله ﷺ : « **جاءت الراجعة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه** » ، ففي الموت كما قال الله ﷻ : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ [القيامة: ٢٩] أي : الدنيا بالآخرة .

٨ - **باب الحديث عن بني إسرائيل** : والأحاديث والآثار الواردة تحت هذا الباب غالبها تتعلق بالموت وصفته كالباب السابق .

٩ - **باب الدنيا ومثلها** : وفيه إشارة إلى أن الدنيا زائلة ومتاعها زائل ، فهي كما قال رسول الله ﷺ : « **ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب** » .

١٠ - **باب هوان الدنيا** : فقد قال أحد الصحابة : من أراد الدنيا أضر بالآخرة ، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا يا قوم ، فأضروا بالفاني للباقي .

١١ - **باب رد النفس وقلة الأكل** : ويتضمن مجموعة من الأقوال والأحاديث التي تحث على ضبط رغبات وحاجات المرء ، كالحاجة للطعام .

● ويرتبط هذا الباب بحديث علماء النفس عن مفهوم ضبط النفس Self - Control والدافع إلى الطعام أو الجوع ، وضرورة تحكم الفرد فيه (ص ٣٠١ - ٣٠٨) .

١٢ - **باب فضل المؤمن** : وفيه بيان بفضل المؤمن عند الله ﷻ .

١٣ - **باب راحة المؤمن** : حيث ترتبط راحة المؤمن بلقاء الله ﷻ ، فكما قال سفيان عن أبيه : ما من غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت ، وكما قال رسول الله ﷺ : « **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه** » والموت قبل لقاء الله يعني قدَّر الله عليه الموت قبل لقائه .

١٤ - **باب ما يجزى به المؤمن** : ومنه الدعوة إلى تقوى الله ﷻ ، ومعاملة حسنة ، وشكر الله في كل الأحوال .

١٥ - **باب معيشة آل محمد ﷺ** : وفيها التقشف والاعتدال في المأكل والملبس وغير ذلك من الأمور .

١٦ - **باب ذكر معيشة رسول الله ﷺ** : وفيه إشارة لحياة رسول الله ﷺ ، التي اتسمت بضبط النفس وقمع الشهوات والدوافع الفطرية .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives ، وخاصة قمع الدوافع الأولية أو الفطرية (كالطعام والشراب ... إلخ) (ص ٣٤٤ - ٣٥٠) .

١٧ - **باب التواضع ولبس الصوف** : وفيه إشارة واضحة إلى التواضع وأهميته في حياة الإنسان ، التواضع في اللبس مثلًا ، حيث كان الأنبياء لا يستحون من أن يلبسوا الصوف ويركبوا الحمير ، ويحلبوا الغنم . ويجب أن نقتدي بهؤلاء الأنبياء ونجعلهم مثلنا الأعلى في تصرفاتنا .

١٨ - **باب ذكر الفقر** : ويشير مضمونه إلى تفضيل حالة الفقر وعدم الشهرة ، وقل الأهل والمال . وأوضح دليل على ذلك قول رسول الله ﷺ : **« إن أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ذو حفا من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وكان غامضًا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، تعجلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه »** .

١٩ - **باب ذكر منزلة الفقر** : وتكشف مجموعة الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة تحت هذا الباب أن للفقر منزلة كبيرة عند الله ﷻ ، ورسوله محمد ﷺ ، وقال الرسول ﷺ في ذلك : **« انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله »** .

٢٠ - **باب الاجتهاد في العمل** : وفيه إشارة واضحة إلى الجدية في العمل وتحمل المسؤولية ، والعمل هنا ليس المقصود به العمل الدنيوي الزائل ، ولكن العمل من أجل الآخرة ، الصلاة ، الصوم ، العبادات بكل فروعها وأقسامها .

٢١ - **باب من قال : « ليتني لم أخلق »** : ويتضمن دعوة من بعض الصحابة ﷺ ، بقولهم : « ليتنا لم نخلق » ؛ مثلًا : قالت عائشة : « وددت أني كنت نسيًا منسيًا » ، وقال البعض الآخر : « وددت أني كنت طيرًا في منكبي ريش » .

الجزء الثاني : من كتاب الزهد

٢٢ **باب من كره المال والولد** : حيث قال البعض في دعائه : اللَّهم ارزقني الإيمان والعمل ، وامنعني المال والولد . ودعى البعض الآخر بكثرة الأولاد . فهم كما قال عنهم رسول اللَّه ﷺ : « **ثمرة القلوب ، وقرة الأعين** » ، وأنهم مع ذلك لمجبنة ، مبخلة محزنة .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives سواء الاجتماعية المكتسبة (كالدافع إلى التملك) والدوافع الفطرية الأولية (كدافع الأمومة) (ص ٤١٥ - ٤٢٤) .

٢٣ - **باب ذكر الغنى** : فليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى المقصود هو غنى النفس ؛ فكما قال رسول اللَّه ﷺ : « **اللَّهم اجعل غنانا في أنفسنا** » .

٢٤ - **باب ذكر الحرص على المال** : وهو من الأشياء التي يسعى الإنسان إليها مهما طال عمره ؛ فكما قال رسول اللَّه ﷺ : « **يهرم ابن آدم ، ويبقى منه اثنتان : الحرص والأمل** » ، فالمرء حريص على جمع المال وطول الحياة .

● يرتبط هذا الباب بالدوافع المكتسبة كحب المال (ص ٤٣٠ - ٤٣٦) .

٢٥ - **باب الأمل والأجل** : فهناك خوف على الإنسان من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، ويجب على الإنسان أن يكون من أبناء الآخرة ، لا من أبناء الدنيا .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع وتأثيرها في التفكير ، حيث تؤثر دوافعنا وميولنا في تفكيرنا ، وتعطل وصول التفكير إلى الحق (ص ٤٣٦ - ٤٤١) .

٢٦ - **باب الأثر الحسن** : فاللَّه ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده حسنًا ، ويكره البؤس والتباؤس .

٢٧ - **باب فضل الصبر** : فالصبر كما قال علي ﷺ : من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فالصبر مطلوب عند كل بلاء ، وكل لقاء ، من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، فالصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله .

٢٨ - **باب الحزن وفضله** : فالسكوت والحزن مطلوب في بعض المواقف ؛ كالجنازة مثلًا ؛ فالرسول ﷺ إذا كان في جنازة أكثر السُّكات وحدث نفسه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الحزن) والقدرة على الضبط والتحكم في انفعالاتنا (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

٢٩ - **باب التواضع** : وهو كما قال الصحابة من أفضل العبادات ، قال رسول الله ﷺ : « **إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد** » .

٣٠ - **باب الاجتهاد والورع** : وفيه إشارة واضحة إلى فضل الاجتهاد والورع ، فكما قال رسول الله ﷺ : « **فضل العلم خير من فضل العبادة ، وملاك دينكم الورع** » .

٣١ - **باب التفكر** : وفيه دعوة إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وذلك لما فيه من ذكر الحق وقوة الإيمان والعقيدة .

٣٢ - **باب فضل الفقه** : فمن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، ويلهمه رشده فيه .

٣٣ - **باب الاقتصاد في العمل** : فيجب على المرء أن يعمل حسب مقدرته واستطاعته ، فكما قال رسول الله ﷺ : « **ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق ؛ فإن أحدكم لا يدري ما قدر أجله** » ، فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ الدائم وإن قل .

٣٤ - **باب محاسبة الرجل نفسه والإنصاف من نفسه** : فلا يكون الرجل تقيًا حتى يحاسب نفسه محاسبة شريكه ، وحتى يعلم من أين ملبسه ، ومطعمه ومشربه .

٣٥ - **باب فضل عمل السر** : فهناك أجر لمن يعمل في سر وصمت ؛ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : إني أعمل العمل فأستره ، فيطلع عليه فيعجبني ؟ قال : « **لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية** » .

٣٦ - **باب من كان يحب الخلوة** : ففي الخلوة والعزلة راحة من خلاط السوء .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الصداقة Friendship وهو ما يقع في مجال بحوث ديناميات الجماعة أو بحوث الجماعات الصغيرة Group Dynamics (ص ٥١٤- ٥٢١) .

٣٧ - **باب من كره التسويف في العمل** : فالتؤدة في كل شيء خير ، إلا ما كان في أمر الآخرة ، قال رسول الله ﷺ : « **بادروا بالأعمال سِتًّا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وخويصة أحدكم** » .

٣٨ - **باب من يخالف قوله عمله** : فمن وافق قوله فعله فذلك أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله ، فإنما يوبخ نفسه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع العلاقة بين الاتجاه والسلوك The Relation between

Attitudes and Behaviour وهو أحد الجوانب المهمة في مجال سيكولوجية الاتجاهات ، وتغيير الاتجاهات ، فأحيانًا يعبر الفرد عن اتجاهه لفظيًا ، بشكل يخالف الواقع أو السلوك الفعلي (ص ٥٢٧ - ٥٣٣) .

٣٩ - **باب قلة الذنوب** : فيجب على الإنسان أن يقلّل ذنوبه كلما أمكنه ذلك ، فكما قالت عائشة رضي الله عنها : « أقلوا الذنوب ، فإنكم لن تلقوا اللّٰه بشيء أفضل من قلة الذنوب » .

٤٠ - **باب التوبة وحفظ اللسان** : فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ويجب على الإنسان أن يحفظ لسانه ويعفه عن كل معصية ، وأن لا يتحدث إلا في الخير لنفسه والآخرين .

● ويرتبط هذا الباب بضبط النفس Self Control وبالشعور بالذنب وعلاجه عن طريق التوبة (ص ٥٤٢ ، ٥٦٠) .

٤١ - **باب التنظف** : وفيه دعوة إلى ضرورة النظافة وأهميتها في حياة الفرد ، وقال رسول اللّٰه ﷺ : « **نظّفوا أفنيتكم ، فإن اليهود أنتن الناس** » .

٤٢ - **باب الترتيل في الخطبة : قال الصحابة** رضي الله عنهم : كان كلام رسول اللّٰه ﷺ : ترتيلًا وترسيلًا ؛ أي ضرورة الحديث بشكل منتظم في الإلقاء حتى يسهل التخاطب والتواصل والفهم بين الأفراد .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية التخاطب Communication وكيف يكون المرسل أو المصدر Source مؤثرًا وقادرًا على إقناع الآخرين وتقديم رسالته بشكل يضمن وصولها إلى جمهور المستقبلين أو المستمعين بشكل أفضل (ص٥٦٧ - ٥٧٦) .

٤٣ - **باب الرياء** : وهو من الأشياء المكروهة ؛ فاللّٰه لا يسمع من مسمع ولا مراءٍ ولا داعٍ إلا داعٍ ثبتًا من قلبه ، ولا يقبل إلا الناخلة من الدعاء ، أي المنخول الخالص .

٤٤ - **باب السمعة** : فمن يسمع الناس بعمله ، سمع اللّٰه به سامع خلقه ، وحقره .

٤٥ - **باب من قال البلاء موكل بالقول** : وتسير مجموعة الأحاديث التي يشتمل عليها هذا الباب إلى أن البلاء موكل بالقول ، وما قال عبد لشيء : لا ، واللّٰه لا أفعله أبدًا إلا ترك الشيطان من كل عمله ، وولع بذلك حتى يؤثمه .

٤٦ - **باب السمت الحسن والخشوع** : وهي من الأمور المفضلة التي يجب أن

يتصف بها المرء . قال أحد الصحابة : الهدي الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة ، وقوله ﷻ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، أي الخشوع والتواضع .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص ٥٩٥ - ٥٩٩) .

٤٧ - **باب الحب في الله** : فمن أوثق روابط الإيمان الحب في الله والبغض فيه ، قال رسول الله ﷺ : « **إن المتحابين في الله على منابر من نور يوم القيامة** » .

٤٨ - **باب إخفاء الدعاء** : قال رسول الله ﷺ : « **خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي** » ، فالدعاء مطلوب ومستحب ولكن في همس وبشكل ضمني أو خفي .

٤٩ - **باب من يحبب الرب إلى خلقه** : فمن أحب عباد الله إلى الله ، الذين يحبون الله ، ويحببون الله إلى خلقه ، فكما قال أبو الدرداء : لئن سألتم لأقسمن لكم إن أحب عباد الله إلى الله رعاة الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله .

٥٠ - **باب النية** : فالأعمال كما قال الرسول ﷺ بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

• ويرتبط هذا الباب بمفهوم النية أو المقصد Intention أحد المفاهيم الأساسية في مجال سيكولوجية الاتجاهات ، والعلاقة بين الاتجاهات والسلوك ؛ فقد استعان به المختصون في علم النفس الاجتماعي لتفسير التناقض في تفسير العلاقة بين اتجاه الفرد وسلوكه الفعلي .

٥١ - **باب من ترك الشيء لله تعالى** : فما من عبد ترك شيئًا لله إلا أبدله الله به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب ، ولا تهاون به عبد فأخذ به من حيث لا يصلح إلا أتاه الله بما هو أشد عليه .

٥٢ - **باب البراءة من الكبر والهم في الدنيا** : فمن وضع جبينه لله ساجدًا ، فليس بمتكبر ، وقد برئ من الكبر ، قال رسول الله ﷺ : « **براء من الكبر ركوب الحمار ولبس الصوف واعتقال العنز ، ومجالسة فقراء المسلمين المساكين ، أما الهم في الدنيا فهو مكروه وفي الآخرة مطلوب ومحبوب** » ، وذلك كما يشير حديث الرسول ﷺ : « **من كانت الآخرة همه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله الفقر بين عينيه ، وفرق عليه شمله ولم يأته منها إلا ما قدر له** » .

٥٣ - **باب الحساب** : وفيها حديث عن مشاهد يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ

إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] ، وقال الرسول ﷺ : « **يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان : فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله** » .

٥٤ - **باب السخاء والبخل** : فالبخل من الأشياء الكريهة في حياة وتصرفات الفرد ، ذكر لرسول اللَّه ﷺ امرأة متعبدة ، وقيل : إنها بخيلة ، قال : فما خيرها إذًا ؟ فلا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا .

٥٥ - **باب الحياء** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الحياء خير كله** » ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « **لكل دين خلقًا ، وإن خلق الإسلام الحياء** » .

الجزء الثالث : من كتاب الزهد

٥٦ - **باب من أتى مسجد قباء** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أتى مسجد قباء ، فصلى فيه ركعتين أو أربعًا كانت له كعمرة** » ، وكان رسول اللَّه ﷺ يأتي مسجد قباء راكبًا وماشيًا .

٥٧ - **باب الكذب والصدق** : فالكذب من الصفات المذمومة والكريهة ، ولا يصلح في هزل ولا جد ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] ، فيجب على المسلم أن يتحرى الصدق في كل شيء ، حتى لا يكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقر فيه .

● ويرتبط هذا الباب بالقيم الأخلاقية Moral Values (كالصدق والأمانة) التي يكتسبها الطفل من البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه ، وتنعكس هذه القيم في أفكاره أو تصوراته وأفعاله أثناء تفاعله مع الآخرين (ص ٦٩٥ - ٧٠٢) .

٥٨ - **باب صلة الرحم** : فالرحم معلقة في العرش تنادي : اللَّهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني . قال الرسول ﷺ : « **الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله اللَّه ، ومن قطعني قطعه اللَّه** » ، وقال اللَّه ﷻ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] .

● ويرتبط هذا الباب بالتفاعل الاجتماعي Social Interaction بين الأفراد ، (ص ٧٠٢ - ٧٢٥) .

٥٩ - **باب الحلم** : قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ، أي حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا ، فالحلم من أكثر الأشياء نفعًا .

٦٠ - **باب الخلق الحسن** : وهو من الصفات الإيجابية والمفضلة التي يجب أن يتصف بها الفرد ، قال الرسول ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » .

٦١ - **باب البغي** : وهو من الأشياء المذمومة ، والذنوب التي يحاسب عليها الفرد ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **ذنبان معجلان لا يؤخران : البغي وقطيعة الرحم** » ، كما قال : « **لو أن جبلًا بغى على جبل لدك الباغي منهما** » .

● وترتبط هذه الأبواب الثلاثة السابقة بالتفاعل الاجتماعي بين الأفراد (ص ٧٢٥ - ٧٤٦) .

٦٢ - **باب الغيبة** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الغيبة أن يذكر الرجل بما فيه من خلْقه أو خُلقه** » أما ما ليس فيه من خلقه فذلك هو البهتان ، وهذا من الأشياء المذمومة ، قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] .

٦٣ - **باب الحسد** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه اللَّه مالًا ، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه اللَّه حكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها** » ، وهو من الشيطان .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع ؛ كالانفعالات وبخاصة انفعال الحسد (ص ٧٥٣ - ٧٥٦) .

٦٤ - **باب النميمة** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يدخل الجنة قتات** » ، أي : النمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة ، فمن الخيانة أن يحدث الرجل بسر أخيه .

٦٥ - **باب الستر** : فمن سمع بفاحشة ، فأفشاها ؛ كان فيها كالذي بدأها ، وقد أمر الرسول ﷺ بستر العيوب والمساوئ التي يظهرها الآخرون .

٦٦ - **باب الرفق** : فالرفق رأس الحكمة . وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه رفيق يحب الرفق ، ويعطي ما لا يعطي على العنف** » ، ومن يعطى الرفق في الدنيا نفعه في الآخرة .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم الشدة – اللين Toughmindedness - Tendermindedness كأحد الأبعاد الأساسية في تفسير الاتجاهات الاجتماعية (ص ٧٧٦ - ٧٨٥) .

● كما ترتبط الأبواب الثلاثة السابقة بسمات الشخصية ، وبالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد (ص ٧٥٦ - ٧٨٥) .

٦٧ - **باب صفة النفاق** : من تعريفات المنافق أنه : هو الذي يصف الإسلام ولا

يعمل به ؛ وقد اعتبروا المنافق منافقًا بثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وقال رسول الله ﷺ : « **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، وإن كانت فيه خصلة منهن لم تزل فيه خصلة من نفاق ، حتى يدعها : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر** » .

٦٨ - **باب النظرة** : فكل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها ، وقال رسول الله ﷺ : « **لا تتبع النظرة بعد النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة** » .

● ويرتبط هذا الباب بالتخاطب غير اللفظي Non - Verbal Communication وذلك من خلال نظرة العين Eye Contact ، والإشارات ، والرموز Symbols ... إلخ (ص ٧٩٣ - ٨٠١) .

٦٩ - **باب الخدمة والتواضع** : وفيه إشارة واضحة إلى أن يكون المرء خدومًا لنفسه وللآخرين متواضعًا في كل أعماله وتصرفاته .

٧٠ - **باب الرحمة** : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يرحم عبده المؤمن يوم القيامة برحمته العصفور** » فالرحمة من الأمور المطلوبة في تعاملنا مع الآخرين لما فيها من خير وتواد بين الأفراد ، ورحمة الأفراد بعضهم لبعض مرتبطة برحمة الله لعباده .

٧١ - **باب الخرب** : وهو من الأشياء التي تؤدي إلى هلاك وفساد الأفراد .

● والخَرِب : واحدتها الخَرِبة موضع الخراب (المعجم الوسيط) .

٧٢ - **باب الإنصات** : قال أحد الفقهاء : اغد عالمًا أو متعلمًا أو منصتًا أو محبًا لذلك ، ولا تكن الخامس فتهلك ، فالإنصات واجب في اثنتين : الصلاة والإمام يقرأ ، وفي الجمعة والإمام يخطب .

● وفيه إشارة واضحة لمفهوم التعلم Learning وأهميته في اكتساب المرء للمعرفة وتحصيل العلم (ص ٨٢٥ - ٨٤٣) .

٧٣ - **باب كتاب أهل الخير بعضهم إلى بعض** : فالعبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ، وإذا أحبه الله حَببهُ إلى خلقه ، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله ، وإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه ، فمن أصلح بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح الله سريرته ، أصلح الله علانيته .

* * *

الهرثمي (ت ٢٣٤هـ)
مختصر سياسة الحروب [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أبو سعيد الشعراني الهرثمي كما في فهرست (ابن النديم) ويبدو أنه منسوب بالولاء إلى هرثمة بن أعين الجيلي (الذي كان من أبرز قادة الرشيد العباسي) فاستعان به على إخضاع الثائرين ببلاد المغرب ، فلما ظهر نجاحه بها ولاه عليها ، ثم ولاه بعدها على خرسان ، فأقام بها حتى كانت الفتنة بين الأخوين (المأمون والأمين) فكان قائد جيوش الأول ، ثم عاش إلى ما بعد سنة (٢٣٤هـ) في خلال حكم الخليفة (المتوكل) فقد ذكر الكندي في كتابه (الولاة والقضاة) ، (ص ١٣٤) - طبعة لندن سنة (١٩١٢م) - أن المتوكل كتب إلى هرثمة في جمادى الآخرة من تلك السنة ، يأمره بترك الجدول في القرآن .

وقد كانت عادة كبار القادة أن يتخذوا لهم غلمانًا من غير العرب ، ينشئونهم على الفروسية وأعمال القتال ، فيحملون لهم اللواء في معاركهم ، ويقومون فيها على خدمتهم ، وذكر الكندي من هؤلاء الأتباع (منصور بن زياد) كما ذكر رجلًا آخر يسمى (محمد بن سويد) فمن الجائز أن يكون الهرثمي أحد أبناء هرثمة ، أو أحد هؤلاء الأتباع من الموالي الذي نسب إليه بالولاء .

« **المصدر** : الكتاب الذي نعرض له : مختصر سياسة الحروب للهرثمي صاحب

---

(١) القاهرة : وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، [د . ت] ، (٧١ ص) .

المأمون (ص ٨ ، ٩) » .

عرض الكتاب :

يشتمل كتاب (سياسة الحروب) على أربعين بابًا نعرض لها على النحو التالي :

الباب الأول : في أن نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته ؛ فيجب على من يحارب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره ، والاستعانة به ، والتوكل عليه .

الباب الثاني : في حسن سياسة الرئيس أصحابه . فالغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال : المحبة ، والهيبة منهم له ، والمحبة من بعضهم لبعض .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership وكيف يتعامل القائد مع أتباعه (ص ١٦ - ١٧) .

الباب الثالث : في ذكر فضائل الرئيس وأصحابه . فأفضل الرؤساء في الحرب أكملهم عقلًا ، وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتًا ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه ، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وأن يكون حسن السيرة ، عفيفًا ، صارمًا ، حذرًا ، شجاعًا ، متيقظًا ، سخيًا .

● ويرتبط هذا الباب من حديث علماء النفس في مجال القيادة عن الصفات أو الخصال التي يجب أن يتسم بها القائد ، وتلك التي يتصف بها المرؤسين أو التابعين ، (ص ١٧ ، ١٨) .

الباب الرابع : في ذكر الحذر ، فأول العمل في الحرب ورأس التدبير فيها ألا يظهر عدوك على عوراتك ولا تستر عنك عوراته ، ولن تحكم ذلك في نفسك إلا مع شدة الحذر ، وكتمان السر ، ولن تعرفه مع عدوك إلا مع التيقظ والتلطف وإذكاء العيون والجواسيس .

الباب الخامس : في ذكر الأناة والرفق ، وتتطلب ظروف الحرب الصبر وعدم العجلة ، حتى تحين الفرصة الملائمة للحرب ومعرفة مواطن ضعف العدو .

الباب السادس : في الاستشارة وترك الاستبداد بالرأي . وفيه حث على وجوب وأهمية الاستشارة من ذوي الرأي والمعرفة والثقة ؛ وذاك لما فيها من منافع .

● ويرتبط هذا الباب - خاصة (الاستبداد بالرأي) - من حديث علم النفس

الاجتماعي عن مفهوم الجمود Dogmatism (ص ٢١) ، والتسلط Authoritarianism .

الباب السابع : في حفظ السر وصيانته ، فيجب كتمان السر في الحروب ، ففي ذلك حسن التدبير وقطع مكيدة العدو .

الباب الثامن : في ذكر النصحاء والمنتصحين ، ويشير المؤلف إلى ضرورة الاستعانة بتوجيهات ونصائح الآخرين – أثناء الحرب – خاصة من أولئك الذين يمثلون مصدر ثقة ونواياهم طيبة .

الباب التاسع : في العيون والجواسيس ، حيث يجب أن يحكم القائد أمر جواسيسه ؛ لأن ذلك رأس أمر الحرب ، وتدبير مكايدة العدو ، ويجب أن يكون هؤلاء الجواسيس ممن يثق فيهم القائد ، فيتوفر فيهم الصدق والأمانة .

الباب العاشر : في الأمر بتعجيل الأهبة والتعبئة ، قالوا : إذا كان العدو منك على خمس مراحل أو نحوها ، فلا يكونن مسيرك ونزولك إلا على تعبئة .

الباب الحادي عشر : في تسمية أصول أجزاء التعبئة : أصول أجزاء التعبئة ثلاثة : القلب ويسمونه الجهود ، والميمنة والميسرة ويسمونها الجنين ، وطرفا كل جزء من هذه الأجزاء جناح وقد يجزأ من كل جزء منها ثلاثة أجزاء : قلبًا وميمنة وميسرة .

الباب الثاني عشر : في تسمية الجيوش ، وما دونهم ومبلغ عددهم ؛ فالسرايا هي ما بين الثلاثمائة نفر إلى الخمسمائة ، وهي التي تخرج بالليل ، وأما التي تخرج بالنهار فتسمى السوارب ، وما زاد عن الخمسمائة فهو جيش ، وما زاد عن الثمانمائة إلى الألف فهو الحسحاس (أي الجيش المبيد المهلك) ، وما بلغ الألف فهو الجيش الأذلم (الذي يقطع أعداءه) ، وما بلغ أربعة آلاف فهو الجيش الجحفل وما بلغ اثنا عشر ألفًا فهو الجيش الجرار .

الباب الثالث عشر : في التحرر عند الترحل وفي المسير ؛ فإذا أردت الرحيل من منزل إلى منزل ، فقدم بعض طلائعك وصاحب مقدمتك ، ومُر بعض من توجه من الطلائع أن ينصرف إليك من المنزل يتلقاك بنزول صاحب مقدمتك ، ولا تقترب من المنزل حتى يتلقاك بذلك .

الباب الرابع عشر : في التعبئة عند وقوع الخوف في المسير ، فإذا كان الخوف في المسير أمام المعسكر ، فليسر نصف الميسرة أمام الصفوف ، ونصف الميمنة بالأثر ، ثم القلب بالأثر ، ثم نصف الميسرة بالأثر ، ثم نصف الميمنة بالأثر .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٣٠) .

الباب الخامس عشر : في التحرز عند النزول والمقام ؛ فلا تنزل من عدوك منزلًا حتى تعرفه ، وأن تكون هناك مسافة بين جيوشك وجيوش عدوك ، وأن تسند ظهور أصحابك إلى الجبال والتلول والأنهار وما أشبهها ، تأمن من الكمين والبيات .

الباب السادس عشر : في اختيار مواضع المصاف للقاء الزحف ؛ قالوا : احرص على أن تسند ظهور أصحابك في مصاف اللقاء إلى الموضع الذي تأمن أخذ العدو منه ، وخروج الكمين عليه ، وأن يكون موضع القلب على جبل أشرف وما أشبه ذلك من أرض صلبة ، وأن تكون الريح والشمس من وراء ظهرك .

الباب السابع عشر : في ذكر أشكال الصفوف للقاء ؛ ومنها الصف المستوي ، وهو الصف المستحب والصف الهلالي وهو الخارج الجناحين الداخل الصدر ، والصف المعطوف - وهو الداخل الجناحين ، الخارج الصدر - مكروه ولا يكون إلا عن ضرورة .

الباب الثامن عشر : في تعبئة العدد القليل للحرب ؛ فأقل ما ينبغي أن يلقى الحرب تسعة نفر ، ليكون للقلب قلب وميمنة وميسرة ، وكذلك يكون للميمنة ويكون للميسرة ، ويجوز أن يلقى الحرب سبعة نفر ، أو خمسة نفر ، أو ثلاثة نفر ، وإن لم يلق الحرب إلا اثنان فليصر أحدهما في ظهر الآخر ردءًا له .

الباب التاسع عشر : في تسمية الأحيان الخمسة ؛ والحين هو الخط الحربي المؤلف من قلب وميمنة وميسرة ، والهدف منه تعبئة الزحف الأعظم ، وهناك خمسة أنواع من هذه الأحيان أو الخطوط : الحين الأول مثلًا هو القلب والميمنة والميسرة ، ويسمى ردء القلب ...

الباب العشرون : فيمن يوضع من الفرسان في كل حين من الأحيان الخمسة ؛ فمثلًا : يوضع أهل التجارب والبأس والنجدة في القلب ، أما الصفوف وأهل التجارب وأصحاب الرمي والمشاركة والمبارزة في الميمنة أمام الصفوف ، أهل التجارب والمعرفة بموضع المعركة والكمين .

الباب الحادي والعشرون : فيمن يوضع من الأصناف في مواضعهم من الأحيان الخمسة ، حيث يتم وضع كل رجل من الرجال في مكانه الخاص به والملائم لتأدية واجبه ، فصاحب الجيش في حماته وثقافته المنتخبة أمام فرسان القلب ، وصاحب القلب مع من يليه من وراء صاحب الجيش ردءًا له في القلب ... وهكذا .

الباب الثاني والعشرون : في وضع الخيل المعدة مواضعها من الأحيان الخمسة ، فيقف كردوس من الخيل المانعة في طرفي جناحي الميمنة والميسرة الخارجية ، يمنعان من أراد أن يجور من العدو إلى ناحية الأثقال ، لنقض الصفوف أو الحيلة على أحد منهم .

الباب الثالث والعشرون : في الحركة عند ترائي العدو في الزحف للقاء ، فإذا زحف العدو وتراءى ، وأتت عيون الطلائع بخبرهم ، فلتضرع خيل القلب والروابط ورجالتها إلى مضرب وإلى الجيش ، وسائر الناس إلى مراكزهم ، إلى أن يتحرك وإلى الجيش فيتحركوا معه على تعبئتهم .

الباب الرابع والعشرون : في العمل عند التقاء الزحفين ؛ قالوا : إن لم يكن من اللقاء بد فأخره ما استطعت إلى آخر النهار ، إلا أن ترى فرصة قبل ذلك فتنتهزها ، واعلم أنك تملك أمرك وأصحابك ما لم تلتف الخيل بالخيل .

الباب الخامس والعشرون : في العمل عند استعلاء العدو في الزحف : ويتضمن الحديث عن الظروف المختلفة التي يجب اتخاذها في حالة وصول العدو ، ومجيء الليل ، وتقدم العدو بالهجوم ، وغير ذلك .

الباب السادس والعشرون : في العمل عند انهزام العدو ؛ فإن استحكمت الهزيمة على العدو فالميمنة والميسرة هما الحاملتان والطالبتان ، ويتقدم صاحب القلب شاهرًا للوائه ، وعلمه يسير على رسله فإذا انتهى إلى الموضع الذي ينبغي أن يقف فيه وقف وركز لواءه وعلمه واقف فيمن معه من القلب .

الباب السابع والعشرون : في ذكر الطلائع وتجبيرهم ؛ فينبغي لصاحب الطلائع أن يكون رجلًا مذكورًا ، بعيد الصوت ثقة ناصحًا عاقلًا مدبرًا ، نجدت جسورًا حاضر الحذر وينبغي لجميع الطلائع أن يكونوا من أهل النصيحة والتجربة للحرب .

الباب الثامن والعشرون : في ذكر الكمناء وتدبيرهم ؛ فيجب ألا يكون بأحد من الكمناء ولا بدابته علة ولا لدابته خلق يستدل به العدو على مكانهم في المكمن وأن يكون موضعهم خفيًا مستورًا ، ولا يؤذن الطير والوحش فيما حولهم ، ولتكن ساعة ظهورهم من المكمن بالغدوات في حالة الغفلة من عدوهم .

الباب التاسع والعشرون : في ذكر البيات وتدبيره ؛ ففي الحرب يختار من الوقت للبيات الليلة الظلماء ، وليلة الريح ، يتحرى أن يكون بجنب نهر له دوي وخرير .

الباب الثلاثون : ويتناول فيه المؤلف الحديث عن التأهب لخوف البيات ، والدفع له .

الباب الحادي والثلاثون : في معرفة الرئيس مقادير أصحابه في الحرب ؛ فكان أهل المعرفة يحبون أن يعرف الرئيس من استطاع معرفته من أصحابه وجنده ، رجلًا رجلًا بخاصته في الشجاعة والجبن مع سائر أحواله ؛ ليضع كل رجل منهم موضعه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives ، حيث يتضمن الإشارة إلى دوافع الحرب أو القتال (ص ٥٣ ، ٥٤) يقاتل الرجل إذا : غضب ، طمع ، يقاتل للشهوة ، للحياء ، للكرم ، للتدين ... إلخ .

● كما يرتبط هذا الباب بسمات القائد وما يتميز به من خصائص ؛ ومنها معرفته بكل مرؤوسيه شخصيًا وبسمات شخصياتهم المختلفة حتى يستطيع أن يضع كل فرد منهم في موضعه . ويرتبط هذا بموضوع اختيار الأفراد في علم النفس المهني .

الباب الثاني والثلاثون : فيما يحتاج الرئيس إلى معرفته من مذاهب أصحابه قالوا احفظ العارف للسر ، المساعد على الأمر ، ذا الرأي الأصيل ، الناصح ، السامع ، المطيع ، المحب ، الذكي الوفي ، الصدوق اللهجة ، الصبور على الشدة .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع القيادة والصداقة ؛ حيث الإشارة إلى الصفات أو الخصال التي يجب توفرها في الآخرين من المرؤوسين (ص ٥٤ ، ٥٥) .

الباب الثالث والثلاثون : في الذنوب والجرائم التي يستوجب بها الأدب والعقوبة ، وهي المبكر بغير إذن ، والمطبل بغير إذن ، المتقاعس عن الخروج إلى الحرب ، السالك في غير طريقه ، النازل في غير موضعه ، التارك لما يوكل به ، الناقم على رئيسه ظالمًا ، الطاعن على رئيسه كاذبًا ، الواصف لأصحابه بالضعف ، الواصف للعدو بالقوة ... إلخ .

الباب الرابع والثلاثون : في ممارسة الحصون ؛ والحصون هي القلاع والمطامير (وهي الحفيرة تحت الأرض) ، والجبال ، والمدن ، والخنادق ، والرمال ، والبحار ، كل هذه وما أشبهها حصون ومعاقل ، فإن أمكنك ستر قصدك للحصن ، والحيلة لأن تفجأه خيلك على غرة ، فهو أكبر التدبير فيه ، وإن أمكنك المكيدة لأن تخرج مقاتلة الحصن منه وتفجأه وهو خلو فهو الظفر بإذن الله . وأول عمل الحصار أن تحصر أهله من ساعة تنزل عليهم ، حصرًا لا يقدرون معه على أن يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليه أحد .

الباب الخامس والثلاثون : في المدافعة عن الحصون ؛ فأول ما يحتاج إليه صاحب الجيش هو أن يكون في حال الأمن – وقبل أن يفجأه عدوه – قد حصن نفسه ، وأحكم مواضع المقاتلة فيه والمدافعة عنه .

الباب السادس والثلاثون : في أمور شتى من الحرب ؛ فمثلًا إن سبقك عدوك إلى الماء وأصبحت إلى قتالهم عليه ، فاعرف الساعة التي يكونون فيها قد سقوا دوابهم وأخذوا حاجتهم منه ، فواقعهم فيها ودافعهم عنه ، وإن أمرح العدو دوابهم فلا تعبأ بذلك ، ولا تعجلوا إليهم حتى تستبينوا حالهم وتراجعوا الظفر بهم أو النيل منهم ، وإن اشتد غضب الجند فدس لهم رجلًا من كبار قرابتك وأصحابك ، تثق بنصيحته ورأيه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال الغضب Anger وكيفية التحكم أو السيطرة عليه من خلال أسلوب التوجيه والإرشاد Counseling وتقديم النصائح (ص ٦٦ ، ٦٧) .

الباب السابع والثلاثون : في مذاهب الناس وشيمهم في الحرب ؛ فيختلف المحاربون في بلدانهم وأصنافهم ومذاهبهم في الحرب ، فيختلف التدبير والعمل في المحاربة على حسب اختلافهم في ذلك ، وقد تختلف غايات أهل الحرب وهممهم : فتكون همة بعضهم المغورة بياتًا ، أو صباحًا ، واستلاب ما أمكنه والفوز به ، وقد يكون همة بعضهم أن يدين له العالم ... إلخ . ويكون اختلاف التدبير والعمل والمكايدة فيه على حسب ذلك .

الباب الثامن والثلاثون : في التنبيه على المعاني التي يختلف فيها التدبير في الحرب ؛ وتتضمن هذه المعاني : الشجاعة والجبن ، الحذق وعدمه ، والبصيرة والعمى ، والمعرفة وعدمها ، والعقل والجهل ؛ فالعقل هو المسيطر على سائر أمور الحرب ، والمدبر لها بعون اللّٰه .

● ويرتبط هذا الفصل بسمات الشخصية Personality Traits وخاصة الخصال أو الصفات التي يجب توفرها في الجنود المحاربين (ص ٦٨) .

الباب التاسع والثلاثون : في التنبيه على اشتباه الخطأ والصواب وخلافها ؛ فعلى صاحب الحرب الاجتهاد في اجتناب الخطأ الذي يقع منه الذم ، والتعمد للصواب الذي يقع منه الحمد ، وأن يلجأ في ذلك كله وفي جميع أموره إلى اللّٰه والتوكل عليه ، ومسألته التوفيق والنصر والتأييد بمنته وقدرته .

الباب الأربعون : في الاعتذار من التقصير في بلوغ موافقة الجميع ؛ فيحتاج الرئيس في الحرب خصلتين هما : حسن السياسة لأصحابه ، والتدبير للحرب ، أي حسن المعرفة والدراية بشؤون الحرب ، وأن تتوفر الخبرة والتجربة الفعلية ، وهذه أمور عامة ، ذكرها المؤلف ، موجهًا اعتذاره عن عدم موافقة جميع الآراء عليها ، وعن عدم ذكره

لبعض الأشياء والأمور المهمة في هذا الصدد .

● ويرتبط هذا الباب الأخير من الكتاب - بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership خاصة الصفات التي يجب توفرها في القائد (ص ٧٠ ، ٧١) .

* * *

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)
كتاب الورع [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف [2] :

أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد اللّٰه الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة ، أصله من مرو ، وكان أبوه والي سرخس ، وولد ببغداد فنشأ منكبًا على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفارًا كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف .

وصنف المسند ستة مجلدات يحتوي على ثلاثين ألف حديث ، وله كتب في التاريخ والناسخ والمنسوخ والرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن ، والتفسير ، وفضائل الصحابة ، والمناسك ، والزهد ، والأشربة ، والمسائل ، والعلل والرجال .

وكان أسمر اللون حسن الوجه طويل القامة يلبس الأبيض ويخضب رأسه ولحيته بالحناء ، وفي أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل .

وتوفي المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهرًا لامتناعه عن القول بخلق القرآن ، وأطلق (٢٢٠هـ) . ولم يصبه شر في زمن الواثق باللّٰه - بعد المعتصم - ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل بن المعتصم أكرم الإمام بن حنبل وقومه ومكث مدة لا يوالي أحدًا إلَّا بمشورته .

---

(١) ط ١ - القاهرة : محيي الدين صبري الكردي (١٩٢٢م) ، (١٢٦ ص) . يتضمن : عقيدة الإمام الطحاوي ، نسخة مصورة .

(٢) الأعلام للزركلي (٢٠٣/١) .

وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل ومما صنف في سيرته « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي و « ابن حنبل » لمحمد أبي زهرة من معاصرينا .

عرض الكتاب :

ويشتمل الكتاب على جزأين نعرض لهما على النحو التالي :

الجزء الأول : يتضمن الأبواب التالية :

باب ما يكره من ترك السوق والعمل ، وباب ما يستحب من الكسب ، وباب ما يستحب من عمل اليدين ، وباب ما يكره العزلة عن الناس إلا بيقين ويرتبط الباب الأخير بموضوع العزلة Isolation (ص ١٤ ، ١٥) .

باب ترك الكبر ولزوم العمل (ويرتبط بسمات الشخصية Personality Traits ص ١٥) ، وباب في الشراء من الموضع الذي يكره ، والتنزه عن معاملة من يكره ، ومعاملة من يكره ناحيته وأهل البدع ، وباب في من يكره من المساجد في الطريق والصلاة فيها ، وما يكره من الحدث في طريق المسلمين ، وما يكره من الشرب من الآبار التي في الطريق ، أو التي احتفرها من يكره ، وباب من المشي على العبادة ، وباب ما كره من القعود على بارية المسجد خارج المسجد ، وما يصنع بما فضل من لواري المسجد ، وباب الصلاة داخل المسجد الجامع وفضل الاتباع ، والتنزه عن أمر المقسم والفضل منه ، وما يفسد الطيب من الخبيث ، وما يكره من أمر الربا ، وترك الشبهات ، وباب في الورع ، وباب في الوالدة والمواراة لها في الشبهة ، وباب ما كره من عون القرابة إذا كان ممن يكره ، وباب من كره مبايعة نساء من تكره ناحيته .

وباب الرجل يحجر على والده ، والرجل يريد الصيد ، وباب ما يكره من التجارة في الأرض التي تكره ، وباب تعظيم المساجد وما كره من عمل الدنيا فيها ، وباب ما كره من عمل الدنيا في المقابر ، وباب علم البايع والمشتري في البيع ، وباب كسب الحجام ، وباب الرجل يتخذ الغلة في السواد ، وباب الرجل يعطي الشيء فيتبين أنه يكره .

باب ما يكره من الصدقة لبني هاشم ، وباب في الصبر وخراب الدنيا ، ويرتبط بسمات الشخصية (ص ٤٠) ، وباب من كره طعامًا من شبهة فاستقاءه .

• وترتبط معظم الأبواب السابقة بالقيم الدينية والخلقية والعلاقات الاجتماعية والأسرية .

الجزء الثاني : ويشتمل على ما يأتي :

باب التقلل وترك الشهوات ، ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية الدوافع Motives (خاصة ما يتعلق بقمع الدوافع والشهوات) (ص ٦٠ ، ٦٣) .

ثم تحدث بعد ذلك عن الورع ، وباب السراج والنار والحطب ، وباب الرجل يأمره والده أن يشتري له الثوب أو الحاجة بدراهم يكرهها وما للرجل من مال ابنه ، وباب رجل وهب لابنته جارية وأراد شراءها ، وباب الهبة ، وباب الرجل يتزوج أو يشتري الجارية من مال والده ، وباب ما يحل للرجل من مال أبيه وللمرأة من مال زوجها ، وباب نظر الفجأة وما كره من النظر .

● ويرتبط بموضوع التخاطب غير اللفظي Non-Verbal Communication (ص ٦٨- ٧٠) ، وباب المرأة المريضة يعالجها الرجل والخادم ، والأمر بالتزويج وما فيه من الفضل ، وباب ذكر بعض العلماء الورعين .

باب الغزو في شدة البرد أو الحر ، وباب الوالي يحرَّج من ذبح أو حلب ، وباب القاتل إذا تاب ، وأجور بيوت مكة ، وترك بعض الحلال مخافة الحرام ، وباب من ورث مالًا فيه شبهة ، وباب من أي شيء يخرج من الوليمة ، وباب كراهة شراء اللعب وما في الصور ، وباب ما جاء في قبلة اليد ، باب اللصوص متى يتقاتلون ، وباب الذرية يسبون إذا نقضوا العهد ، وباب المريض من المسلمين يجدوه في الغزو ، وباب الأسير في أيدي العدو وباب تواضع الرجل وذم نفسه إذا مدح (ويرتبط بسمات الشخصية) (ص ٩١) .

باب كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وباب تحريم السكر ، ويرتبط بتعاطي المسكرات أو الكحوليات Alcoholism (٩٣ - ٩٥) ، باب من أوجب الحد في الربح والعقوبة ، وما كره من بيع العصير وما أشبهه وباب من كره أن يحضر وليمة فيها مسكر ، وباب من كره الصدقة على من يشرب المسكر .

● وترتبط الأبواب السابقة جميعها بموضوع تعاطي المسكرات أو الكحوليات والتفاعل أو علاقة الأفراد بهذه الفئة من الأشخاص (ص٩٣ - ١٠٠) ، وكذلك بالقيم الدينية والخلقية والعلاقات الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها .

باب في الخياطة ، وفي لبس النعال السندية ، وكراهة صبغ الحمرة ، وخضاب النساء وما يكره في ذلك ، وما يكره من التحذيف وحلق القفا ، وحلق الرأس ، وما كره من الجص ، وزخرفة المساجد، وما كره من التزاويق في السقف ، وما كره من الغيبة ،

وباب ذكر النعيم .

اوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي الشخصية وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)
الرعاية لحقوق الله (١)

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ، البصري المولد ، البغدادي المنزل والوفاة ، الإمام العارف ، أحد الزهاد والمتكلمين في العبادة والزهد والوعظ ، عرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ، من أوائل مفكري الإسلام ومن أبعدهم شُحقًا وغورًا في عالم المعرفة والخبرة بالنفس البشرية ، ومن أصدقهم مسلكًا ، وأنقاهم طوية ، وأخلصهم سبيلًا ، وأخفاهم عن الشهرة على هذا المدى الطويل من الزمن .

لقد عاش المحاسبي بين مغريات عصره ، بل ومغريات بيته غريبًا ، لا تستهويه نزوة ولا تقهره شهوة ، ولا يتجاوب في أرجاء قلبه شيء غير الحق والعدل مع نفسه ومع غيره ، والبحث عنه بين مناهج العلم وقواعد السلوك ، فهو غني الباطن ، متين الذات ، ليس بمحتاج إلى ما يحتاج إليه فارغ الباطن المهتز الذات من وسائل التكميل لشخصية ممزقة ، بل هو سعيد بالفقر ، شديد الحبور بالجوع ، عظيم الثقة بالله .

لم يرض المحاسبي في شبابه عن مناهج التعليم التقليدية التي كانت سائدة في عصره وبدأ يزنها بميزان الحق ؛ ليدرك مدى صلاحيتها ، دون أن يمضي فيما مضى فيه الناس وهو مغمض البصيرة والبصر ، وكانت أولى دراساته لمناهج التعليم في عصره مقرونة بحالة من الانطواء والضيق والحيرة تشبه أن تكون أزمة نفسية ، أو شخصية جديدة

---

(١) تحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ٤) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٥م) . (٥٥٠ص) .

لا تمارس شيئًا ، ولا تسلم بمقولة إلا بعد الفحص التدقيق .

ومن أقوال العلماء في المحاسبي ، ما قاله السبكي في طبقات الشافعية : « كان إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام ، وكتبه في هذه العلوم أصول لمن يصنف فيها » . ومن أقوال المحاسبي : خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم .

ومن مؤلفات المحاسبي : أحكام التوبة ، ورسالة التصوف ، والتنبيه على أعمال القلوب والجوارح ، والخصال العشرة التي جربها أهل المحاسبة ، وشرح المعرفة وبذل النصيحة ، ومختصر المعاني ، المراقبة والمحاسبة ، وهي كلها من المخطوطات ؛ أما المطبوعات فمنها : بدء من أناب إلى اللَّه ، والتوبة ، والتوهم ، ومعاتبة النفس ، وآداب النفوس ، والرعاية لحقوق اللَّه ، والوصايا ، وفهم القرآن ، وكتاب العلم ، وتوفي سنة (٢٤٣هـ) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصنف إلى مجموعة من الكتب النوعية هي : كتاب الرعاية لحقوق اللَّه والقيام بها ، وكتاب الرياء ، وكتاب الأخوان ومعرفة النفس ، وكتاب التنبيه ، وكتاب العجب ، وكتاب الكبر ، وكتاب الغرة ، وكتاب الحسد ، وكتاب تأديب المريد وسيرته تحذيره الفتنة بعد هدايته ؛ وجميعها يدور حول كيفية رعاية الإنسان لحقوق اللَّه تعالى والعمل بها ، وينهي المحقق الكتاب بعرض فهرس مفصل للموضوعات وآخر للأحاديث وثالث للآثار ، وهو ما نعرض لتفصيله على النحو التالي :

كتاب الرعاية لحقوق الله :

قال الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ : وأما ما سألت عنه من الرعاية لحقوق اللَّه عَزَّ وَجَلَّ والقيام بها ، فإنك سألت عن أمر عظيم أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين ، وهو الأمر الذي تولى اللَّه عليه أنبياءه وأحباءه ؛ لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** » ؛ فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب اللَّه عليهم في أنفسهم ، وفيمن استرعوه ، ولقد ذم اللَّه تعالى بني إسرائيل ، ابتدعوا رهبانية لم يؤمروا بها ، فلم يرعوها حق رعايتها ؛ فذمهم اللَّه تعالى بترك رعاية ما لم يَفرض ، ولم يوجب عليهم ، فكيف بمن ضيع رعاية حقوقه الواجبة التي أوجب في تضييعها غضبه

وعقابه ! وجعل القيام بها مفتاحًا لكل خير في الدنيا والآخرة ، وهي التقوى ، ولأهلها أعد الجنة ، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة ، وإياهم وعد قبول الأعمال ، وإياهم سمى بالولاية ، وإياهم رفع عنهم الخوف والحزن في يوم المخافة والأحزان ، وقد ركزت أبواب الكتاب في هذا الاتجاه الذي يوفي بحقوق الله ﷻ وهي : اتقاء الشرك فما دونه من كل ذنب نهى الله عنه أو تضييع واجب مما افترض الله ، ومعرفة الحذر ، ومما تخوف النفوس حتى تحذر وتجانب وتباين الهلكات ، ومعرفة ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين يدي الله تعالى ، وشرح التقوى ، ومعرفة الورع ، وتعريف المغتر بنفسه وطول غرته ، وما يجب على العبد معرفته والفكر فيه ، ومحاسبة العبد نفسه في أعماله ، واختلاف الناس في طلب التقوى وفي رعاية الأعمال لله تعالى ، وما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار ، وما ينال به خوف وعيد الله تعالى ، وما يحل به المصر إصراره ، ووصف ثقل الفكر على القلب ، وما تخف به الفكرة على القلب ، وما ينال به اجتماع الهم ، ووصف منازل المصرين وبِمَ يقوى العزم على التوبة وترك الإصرار ، ومعرفة التذكر بمعرفة أحواله ، ومعرفة متى يفرغ العبد إلى الله تعالى فيفتقر إليه ، ومعرفة الرجوع إلى الله والتوكل عليه ، وما يعرض من العجب من الشيطان والنفس باستعظام المقامات ، ومعرفة التنبيه والتيقظ ومن مَنَّ الله عليه باليقظة ونبهه للخطر العظيم ، وما يجب أن يلزم القلب من معرفة النفس ومعرفة الخلال التي يكون عنها نقص العزم عن الطاعة ، والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة ، ومعرفة هل يعطى الحذر والاهتمام فيما يستقبل والدليل على ذلك ، ومعرفة التثبت وعند ماذا يثبت ، ومعرفة حقوق الله بأسبابها (وأوقاتها) وإرادتها وترتيبها في القيام بها ، والرعاية لها ، ورعاية حقوق الله تعالى عند الخطرات في اعتقاد القلوب (والمعرفة بحركات الجوارح) ، والتثبت وحبس النفس عند الفعل ، وصفة الراغبين لحقوق الله تعالى في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف ، وما يبدأ به من الفرائض ، وشرح ما يبتدأ به من أداء الفرائض ، ومعرفة من يطلب النوافل بالاستعانة بما يفسد عمله وما يلحقه من الآفات ، وما يخاف على المريد من النوافل من غير تضييع الواجب ، ومعرفة ما يعرض للعبد من الآفات وتركه طلب العلم الذي هو به جاهل ، وما يعرض للنفس من الآفات في الصوم ، ومعرفة التمييز بين الفضلين وكيف تدعوه نفسه إلى ذلك ، ومعرفة ترك الأعمال للآفة وكيف يقطع به ويخدعه ، وما يعرض للعبد في صلاته من حديث النفس وغيره ، وأي الأمرين من أمور الله تعالى التي تعرض يجب البدء به

ومنازل أهل الرعاية لحقوق الله تعالى ، وبيان منازل المصرين المقيمين على الذنوب وذكر ما يبعثهم على التوبة ، وقطع التسويف ، والاستعداد للموت وقصر الأمل ، وما يهيج على معرفة كراهية الموت وكربه .

• أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي :

الخوف Fear (ص ٣٤ - ٣٦ ، ٧٢ - ٧٤ ، ١١٤- ١١٦) ، والحذر (ص ٤٢، ٨٠ - ٨٣) ، والغرور (ص ٤٢ ، ٤٣) ، والتفكير Thinking (ص ٤٤ ، ٤٥) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٥٥ - ٦٠) ، وتعديل السلوك Behaviour Modification (ص ٦٠ - ٦٣) ، والحزن (ص ٦٩ - ٧١) ، والتذكر Memory (ص ٤٧ - ٧٦) ، والاعتماد Dependence (ص ٧٨) ، والوساوس Obsession (ص ٧٩) ، والتنبيه Stimulation (ص ٧٩) ، والتيقظ Vigilance (ص ٧٩ ، ٨٠) ، والمثابرة Persistences (ص ٨٤ ، ٩٠ - ٩٤) ، والانفعالات Emotions (ص ٩٢ - ١٠١) ، والصفات Characteristics (ص ٨٠ - ٨٢) ، والتميز Discrimination (ص ١١٨) ، والكراهية Hate (ص ١٣٨ - ١٥١) ، والقيم الدينية Religious Values ، وضبط النفس Self - Control .

كتاب الرياء :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لصفة الرياء وذكره ، وحض العاصي على الإخلاص في عمله ، وشرح الرياء : ماهيته والدليل عليه ، ومعرفة أن الرياء على وجهين : أحدهما أعظم والآخر أهون وكلاهما رياء ، وهيجان الرياء والدواعي إليه ، ووصف خوف المذمة والطمع في أيدي الناس ، وما يكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع ، وشرح ما يراءى به من العمل واللباس وغير ذلك ، وما ينفى به الرياء ، وما ينال به الحذر من الرياء ، ومعرفة قوة الإخلاص على منازعة النفس عند العارض ، والنفي له ، والحذر له ، ووصف الحذر من العدو إبليس ، والغلط في الحذر من العدو إبليس ، ومنازل الرياء وأوقاته ، ووصف أعظم الرياء وأدناه ، وما يورث من الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها ، وعلامة المرائي في نفسه ، وما يجب أن يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية ، وسرور العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه ، وذم الرياء والعجب ، وما يجزئ من النية عند ابتداء العلم ، والنية في العمل ، وما يجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص فيه لله وما لا يجوز له منه ، وكيفية أن العبد يدخل العمل يريد الله ﷻ

وحده ، ثم يجد من نفسه نشاطًا للزيادة وما يجزئه من النية في ذلك ، ووصف النية وماهيتها ، ومعنى قوله : لا تحضرني النية في العمل ، ومن يدخل في العلم لا يريد إلا الله بذلك ثم يندم ، كيف يكون عمله بعد الندامة ، وباب في الرجل يدع بعض النوافل إشفاقًا على الناس أو يعصوا الله ﷻ فيه ، وإظهار العمل ليقتدي به ، وباب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ؛ ليحضهم على ذلك ، وعمل السر والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة ، وهل يجوز ترك العلم من أجل الرياء ، وما يجوز للعبد من حبه لمحبة الناس له ، وما يصح للعبد من غمه عندما يظهر للخلق من ذنوبه ، وباب في ستر المعاصي عن العباد وإن اطلع الله عليها ، وما يستحب فيه الحياء ، وما يكره فيه ، ومن أين ينبغي للعبد أن يكره ذم المسلمين له ، ومن أن لا يكرهه ، وكيف يكون قلب العبد والفرق بين حبه لنفسه ولربه ﷻ ، وباب في الرياء للوالدين ؛ ليرضيا وللعلماء ؛ ليستفيد به علمًا ، وباب الرجل يحضر القوم يصلون فتحضره نية للعمل وإن لم يكن يفعل ذلك في خلوة أو يكون فلا يجد البكاء ، وفصل فيما ينفي به التصنع للمخلوقين في التصنع والحزن ، وما قالوا في علاقة صدق الخاشع لله ﷻ إذا رمقته أبصار العباد ، وباب الرجل يكون له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير ، فيكثر زيارة الغني وبره دون الفقير ، كيف السلامة من ذلك كله ، ومن أين فساده ؟

● **أما المفاهيم السيكلوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : سمات الشخصية Personality Traits (ص ١٥٣ ، ١٥٦) ، وقيمة الإخلاص (ص ١٥٦ - ١٥٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٢) ، والخوف Fear (ص ١٦٩ - ١٧٣) ، وبنية الجسم Constitution (ص ١٧٩) ، والحذر (ص ١٩٠ ، ١٩٣) ، والصراع Conflict (ص ١٩٣ ، ٢٠٢) ، والوساوس Obsessions (ص ٢٠٢ ، ٢٠٨) ، وسوء الخلق (ص ٢٢٣ ، ٢٢٨) ، والسيطرة Dominance (ص ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، والسرور Happiness (ص ٢٣١ ، ٢٣٧) ، والنية أو المقصد Intention (ص ٢٤١ - ٢٥٢ ، ٢٩٤ - ٣٠٠) ، والقدوة Modelling (ص ٢٥٨ ، ٢٦١) ، والصداقة Friendship (ص ٢٦١ - ٢٦٦ ، ٣٠٥ - ٣٠٦) ، والمحبة Liking (ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٢٨٨ - ٢٩٠) ، والحزن Sadness (ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٣٠١ - ٣٠٣) ، والحياء Shame (ص ٢٨٨ ، ٢٩٠) . وحب الذات (ص ٢٩٠ - ٢٩٢) ، والخضوع Submission (ص ٣٠٣ - ٣٠٤) .

كتاب الإخوان ومعرفة النفس :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لعزم العبد على التوبة ، ثم تراجعه ، وخروج الرجل في الحاجة أو مجالسة بعض إخوانه ممن يدعي إخوتهم في الله ﷻ وهو يعلم أنه لا يسلم له دينه معهم ، وما يستعان به على ترك لقاء الإخوان الذين يتخوف من لقائهم قلة السلامة في الدين .

- **أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها الكتاب فهي** : اللذات والشهوات (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، والمقصد أو النية Intention (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، واختيار الأصدقاء (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، والصداقة Friendship (ص ٣١١ - ٣٢٤) ، والقيم الدينية .

كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ودعائها إلى هواها :

ويتكون من بابين اثنين يعرض المؤلف فيهما للتحذير من هوى النفس ، وبم يعرف سوء رغبة النفس .

- **أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب** : معرفة الإنسان لنفسه (ص ٣٢٥ - ٣٣٤) ، والرغبة Desire (ص ٣٢٧ ، ٣٣٤) ، وسوء السلوك (ص ٣٢٥ ، ٣٣٤) .

كتاب العجب :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لما يؤدي إليه معرفة النفس وشرح العجب والإدلال بالعمل ، والعجب بالدين ، وإضافة العمل إلى النفس ، والإدلال بالعمل ، وباب العجب بالرأي الخطأ ، وما ينفي به العجب بأعمال الطاعة ، وما ينفي به العجب بالرأي الخطأ ، والعجب بالدنيا والنفس ، والعجب بالحسد ، والعجب بكثرة العدد ، والعجب بالمال .

- **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : العجب بالنفس والتفاخر (ص ٣٢٥ - ٣٧٢) ، والطاعة Obedience (ص ٣٤٨ - ٣٥٤) .

كتاب الكبر :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لوصف الكبر وشعبه وشرح جوهره ،

وباب الكبر (يكون) عند العجب وتفسير الكبر بالعلم ، وما يكون من الكبرياء عن الرياء وما يورث من الأعمال المذمومة ، والكبر بالدنيا ونفي الكبر وتعريف العبد قدره ، والتكبر بالعلم والعمل خاصة ، وبم يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصدق والخدعة منها ، وما يجب من التواضع للمطيعين والعاصين لينفي به العجب والكبر ، وفي بيان الكبر على أهل البدع وغيرهم من أهل الكفر والشرك .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : الكبرياء والتواضع (ص ٣٧٣ - ٤٢٦) ، والتفسير (كأحد أهداف العلم) (ص ٣٨٣ - ٣٩٠) .

كتاب الغرة :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها للغرة بالله ﷻ ، والغرة من عوام المسلمين وعصاتهم ، والتمييز بين الرجاء والغرة ، والغرة من أهل النسك وأصنافهم واختلافهم وغرة أهل العلم ، والغرة بالفقه ، والغرة بعلم العمال لله تعالى من علم الصدق والإخلاص ونفي الرياء والأخلاق المذمومة ووصف الخوف والرجاء والحب ، والغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد ، والغرة بالجدل وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان ، والغرة بالعبادة والعمل ، والغرة بالورع في المطعم والملبس دون سائر الأشياء في أعماله الباطنة والظاهرة ، والغرة بالعزلة والفرار من الناس ، والغرة بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار والغرة ممن أمَّ التقوى وأحسن التفقد لظاهره وداخله ، والغرة بتقديم العزوم بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دناءة الأخلاق ، والغرة بطول ستر الله تعالى وإمهاله للعبد .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : الرجاء (ص٤٣٣ - ٤٤١ ، ٤٢٩ - ٤٥٥) ، والغرور (ص ٤٢٧ - ٤٧٢) ، والالتزام Commitment (ص ٤٦٥) ، والعزلة Isolation (ص ٤٦٥ - ٤٦٨) ، والفرق بين الرجاء والغرور (ص ٤٣٣ - ٤٤١) ، والقيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص ٤٧١ - ٤٧٢) ، والمقصد والنية (ص ٤٧١ ، ٤٧٢) ، وقيمة الإخلاص (ص ٤٧١ - ٤٧٢) ، والخوف Fear (ص ٤٤٥ - ٤٤٩) ، والمحبة (ص ٤٤٩ - ٤٥٥) .

كتاب الحسد :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها للحسد ووصفه وتفسير محرمه من مباحه ، وباب من الحسد وليس بالحسد بعينه ، وما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة ، وما يكون من الحسد عن الحقد والعداوة والبغضاء وما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا ، وما يكون من الحسد عن العجب ، ومتى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد ، والرد على من قال إن الحسد بالجوارح وإنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم يده بفعل جارحه وبيان خلافه للعلم ، وهل على الحسد مظلمة كالمحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه ؟ وهو ذنب بينه وبين الله ﷻ .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : الحقد والحسد (ص ٤٧٥ – ٥٠٢) ، والسيطرة Dominance (ص ٤٨٤ – ٤٨٥) ، والعداوة Hostility (ص ٤٨٥ – ٤٨٦) ، والكراهية Hate (ص ٤٨٥ – ٤٨٦) ، وضبط النفس Self - Control .

كتاب تأديب المريد وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته :

ويتكون من بابين اثنين يعرض المؤلف فيهما لسيرة المريد في الليل والنهار ، وما يخاف العبد على نفسه بعد قيامه لله بحسن الرعاية ظاهرًا وباطنًا ، أما المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الكتاب فهي : القيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص٥٠٣ – ٥١٩) ، والخوف Fear (ص٥١٥ – ٥١٩) ، والتحذير (ص٥٠٣ – ٥١٩) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يستفاد من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

العقل وفهم القرآن (١)

عرض : د . طريف شوقي

عرض الكتاب :

يحوي هذا المجلد كتابين للمحاسبي هما : ماهية العقل ومعناه ، وفهم القرآن ومعانيه ، ويقع هذا المجلد في ٥٣١ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم بالإضافة إلى الكتابين توثيق نسبة فهم القرآن إلى المحاسبي ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الأعلام ، ثم فهرس الموضوعات ، وفيما يلي عرض الكتاب الأول .

كتاب ماهية العقل ومعناه :

صيغ الكتاب في شكل سؤال يطرحه المريد (الجنيد) ويتولى الإمام المحاسبي الإجابة عنه ، ويبدأ الكتاب بسؤال يوجهه المريد عن حقيقة العقل ومعناه ، ويفصل المحاسبي القول في هذه المسألة مشيرًا إلى أن للعقل ثلاثة معانٍ أحدها هو معناه ، لا معنى له غيره في الحقيقة ، والآخران اسمان جوزتهما العرب ، لا يكونان إلا به ومنه ، وقد سماهما اللّٰه تعالى في كتابه وسمتهما العلماء عقلًا ، وفيما يلي نعرض للمعاني الثلاثة كما يقدمها المحاسبي على نحو أكثر تفصيلًا .

١ - **المعنى الحقيقي للعقل** : إنه غريزة وضعها اللّٰه سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا بحس ،

---

(١) قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي - (ط ٣) [د . ت] : دار الفكر ، دار الكندي (١٩٨٢م) . (٥٣١ ص) .

ولا ذوق ، ولا طعم ، وإنما عرفهم اللّٰه إياها بالعقل منه (ص ٢٠١ - ٢٠٢) ، والعقل هو الوسيلة التي يُعرف بها اللّٰه ، ويُسلك بها في طريقه ، فهو يعقل النفس عن الهوى (وتقترب هذه الوظيفة من التعريف اللغوي للعقل حيث قال تغلب : أصله الامتناع ، يقال : عَلقت الناقة ، إذا منعتها من السير) ، المحقق (ص ١٤٠) ؛ ويتحدث عما يُلم بالعقل من المرض العقلي The Nature of Mental Illness وكيف أنه مرض مؤقت يشبه النوبات الدورية حيث يقول : « فإن كان له وقت تزول أفعال العقل عنه بصعق ، أو تقلب للأمور في القول والفعل سموه مجنونًا في ذلك الوقت ، عاقلًا إذا أفاق ، وتجلى ذلك عنه وعاد لهيئته الأولى » (ص ٢٠٣) ، ويشير إلى دور البيئة والمران في تنمية العقل بقوله : « فالعقل غريزة يولد العبد بها (القدر الوراثي) ، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول » (ص ٢٠٥) .

٢ - **الفهم لإصابة المعنى** : « وهو البيان لكل ما سمع من الدنيا والدين أو مس أو ذاق ، أو شم ، فسماه الخلق عقلًا ، وسموا فاعله عاقلًا ، والفهم والبيان سمي ؛ لأنه عن العقل كان ، والعرب إنما سمت الفهم عقلًا ؛ لأن ما فهمته فقد قيدته (سجلته) بعقلك » (ص ٢٠٨ - ٢٠٩) ، وقريب من هذا الحديث من التصور المعاصر لوظائف المخ Brain Functions والتي يُسأل عنها الجهاز العصبي المركزي (الشم ، التذوق ، اللمس) والقشرة المخية (التذكر والتفكر) .

٣ - **البصيرة والمعرفة** : « تعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة ، ومنه العقل عن اللّٰه تعالى » . وقد يستخدم العقل في معرفة اللّٰه وقد يسخر لعلم الدنيا فكما قال الحسن البصري في تفسيره لقول اللّٰه ﷻ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، قال : لا جرم واللّٰه لقد بلغ من علم أحدهم بدنياه أنه يَقلب الدرهم على ظفره ويخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلي (ص ٢١٤) ، ويشير في معرض حديثه عن مسألة إقرار العقل وعدم تصديق الجوارح إلى فرقة من الناس « عقلت قدر اللّٰه في تدبيره وتفرده بالصنع فأقرت وآمنت ، ولم تعقل عظيم قدر اللّٰه في هيبته ، فعصت وغفلت » (ص ٢١٦) ، ونخاله بهذه المقولة يقترب من مشكلة سيكولوجية مهمة وهي التناقض بين الاعتقاد والسلوك - تلك التي حاول الإمام الغزالي فيما بعد معالجتها في رسائله - ويتحدث في هذا الصدد أيضًا عن الذي « بعد عَقله قدر الإيمان يزداد معرفة بقدر الغضب والوعيد والوعد ، فإذا ازداد طائفة قام بطائفة من الفروض ، وترك بعض المعاصي من أجل الهوى ، ومعه عقل البيان والإقرار ، فعقل أنه سيىء ، ولم

يرجع عن إساءته لغلبة الهوى » (ص ٢١٦ - ٢١٧) .

ويرى أن كمال العقل يحدث حين يجتمع للعبد ثلاث خصال هي : « فإذا اجتمع الخوف منه (اللَّه) ، وقوة اليقين به وبما قال ووعد وتوعد ، وحُسن البصر بدين اللَّه والفقه في الدين فقد كَمل قوة عقله » (ص ٢٢٠) ، ويفسر ضرورة الجمع بين الخصال الثلاث معًا ؛ « لأنه قد يكون قوي اليقين وليس يُحسن البصر بالدين ، ويكون بصيرًا بالدين لا خائفًا ولا قوي اليقين » (ص ٢٢١) .

وينتقل إلى لطيفة أخرى من لطائف الأمور حين يتناول التوحيد من المنظور الصوفي ذي المذاق الخاص ؛ لأنه إذا كان الفقهاء يشيرون إلى مكانة التوحيد في العقيدة وضرورته ، ويعني المتكلمون بصياغة أدلته العقلية وإجلائها ، فإن المتصوفة - والمحاسبي منهم - يصفون الباب الذي يلج منه العبد إلى حقيقة التوحيد وكيف يجد حلاوته في نفسه ، وكيف يتحول إلى طاقة فعالة تُغير من سلوك الفرد في حياته اليومية بحيث يصبح اعتقادًا مرتبطًا بالعمل ، ويبينٌ ذلك بقوله : « إذا تم عقل المؤمن من ربه أفرده ﷻ بالتوحيد له في كل المعاني ، فعلم أنه مالك له لا غيره ، وأنه عتيق ممن سواه ، فتواضع لعظمته ، واستعبد ، وخضع لجلاله ، ولم يذل لمن سواه ، وعقل عنه أنه الكامن بأحسن الصفات ، المتنزه من كل الآفات ، المنعم بكل الأيادي والإحسان فاشتد حبه له ، لما يستأهل لعظيم قدره وكريم فعاله ، وحسن أياديه ، وعقل عنه أنه لا يملك نفعه ولا ضره في دنياه وآخرته إلا هو ، فأفرده بالخوف ، والرجاء وحده وآمن به ، وآيس من جميع خلقه ، فإذا كان كذلك زايل الكِبر على العباد لخضوعه لجلالة اللَّه مولاه فتواضع للحق ولم يحقر مسلمًا لشدة معرفته ، وصغر قدر نفسه ، ولما جنى من الذنوب على نفسه » (ص ٢٢١ ، ٢٢٢) ، ويربط بين التصوف والعلم ، وكيف أن المضي في طريق اللَّه يقتضي من السالك الاستزادة الدائمة من العلم ؛ فالعبد يجب أن يكون « غير تارك ولا منقطع عن طلب الازدياد من العلم بربه ، والتزيد من الفقه عنه أعلى في قلبه ، وأعظم عنده قدرًا من الازدياد في كثير من أعمال النوافل ؛ إذ عقل عن ربه أن أقل قليل المعرفة يورث التعظيم والهيبة ، ويبعث على الاجتهاد ، ويورث الطاعات ، والشغل عن جميع العباد » (ص ٢٢٦) ، ويشير إلى أهمية صفة الرحمة للداعية وضرورة اتسامه بها ويضرب بعض الأمثال من سير حياة الأنبياء مثل سيدنا نوح الذي كان قومه يُخبتونه حتى يُغشى عليه فإذا أفاق قال : « رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون » (ص ٢٢٧) . ويطالب الداعية أن يعتبر من يؤذونه « أن يعدهم جميعًا كأقرب الخلق منه ، كبيرهم مثل

أبيه ، وصغيرهم كولده ، وقرينُه كأخيه ، فكل هؤلاء يُحب الإحسان إليهم ، وأن لا يفارق قلبه الشفقة عليهم » (ص ٢٢٨) .

ثم ينتقل إلى الحديث في بعض المسائل التطبيقية المتصلة بالعقل في فصل عنوانه « مسألة في العقل » حيث يتحدث عن الاستدلال ، والعقل كالمستدل ، ويشير إلى الموضوعية وعوامل التحيز التي تعوق الاستدلال الصحيح بقوله : « والحب والبغض إذا أفرطا أنقصا الاعتدال ، وأفسدا العقل ، وصورا الباطل في صورة الحق » (ص ٢٣٣) ، وعن موانع الفهم والتي تجعل من الصعب إقناع الفرد بتغيير اتجاهه حول موضوع معين حيث يقول : « والذي يمنع من الفهم الأنفة التي تمنع من الخضوع للحق ، وحب الغلبة الذي يبعث على الجدل ، والجزع من التخطئة التي تمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب » (ص ٢٣٤) .

ويشير إلى أهمية التفكير ، والنظر ، والاعتبار ، والعلم ، والمعرفة كوسائل تعمل مجتمعة على تصحيح الإيمان وآرائه مما يشوبه من شوائب مرجعها الجهل والغفلة .

* * *

شرف العقل وماهيته [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشمل الكتاب على جزأين نعرض لهما على النحو التالي :

الجزء الأول : شرف العقل وماهيته للمحاسبي :

باب : ماهية العقل وحقيقة معناه ؛ للعقل أكثر من معنى منها أن العقل « غريزة » وضعها اللّٰه ﷻ في أكثر خلقه ، فالعاقل هو الذي يعرف ما ينفعه وما يضره في أمر دنياه ؛ أما الأحمق أو المجنون فهو شخص لا يستطيع أن يبين الضار والنافع من الأشياء والأمور ، كما يتميز الشخص العاقل بمعرفة إدراك العواقب ، فالعقل غريزة وضعها اللّٰه سبحانه في الممتحنين من عباده ، أقام به على البالغين للحلم الحجة ، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح ، لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله ، ولا يقدر أن يصفه لا بطول ولا بعرض ولا لون ولا يعرف إلا بأفعاله .

وهناك من قال بأن العقل هو صفوة الروح ، أو هو معرفة خلقها الإله ووضعها في العبد ، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار .

ويرى الإمام المحاسبي أن العقل غريزة ، والمعرفة عنه تكون ، وكذلك الحمق والجنون لا يسمى نكرة ، إلا أنه لو كان العقل هو المعرفة ، لسمي الجنون نكرة ، والحمق نكرة ،

---

(١) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا – (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (٧١ص) .

فرأى **المحاسبي** أن المعرفة نتيجة للعقل وليست هي العقل كما زعم البعض .

ويرى **المحاسبي** أن الدليل على أن العقل هو الغريزة ، معرفة الرجل أباه وأمه ونفسه ، والسماء والأرض ، وكافة الأشياء التي يعرفها برؤيته ، ولم يعرفها باسم ولا تفاصيل تبين معانيها ، وتحدث عن معاني العقل على النحو الآتي :

المعنى الأول : العقل هو الفهم والبيان ؛ فكل بالغ من الجن والإنس من الذكور والإناث حجة العقل لازمة به ، ومن الآيات القرآنية قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧] ، يعني بيانًا لهم ما يعقلونه بعقولهم ، إن تدبروا ذلك ، ولولا البيان لكان الإنسان مثل الحيوان والجماد ، وقد سمى العرف الفهم عقلًا ؛ لأن ما نهمته فقد قيدته بعقلك وضبطه .

المعنى الثاني : هو البصيرة ، والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة . ومن ذلك تعظيم قدر اللّه تعالى ، وتقدير نعمه ، وإحسانه ، وقدر ثوابه وعقابه . وقد وصف اللّه ﷻ في كتابه رجالًا وسمى لهم عقلًا ، فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ [الأحقاف : ٢٦] يعني عقولًا .

وعن العقل وطاعة الله تحدث المؤلف عن أربع فرق هي :

١ - فرقة عرفت عن اللّه تعالى عظيم قدره وقدرته ، فأطاعت وخشعت .

٢ - فرقة عرفت البيان ، ثم جحدت كبرًا وعنادًا لطلب الدنيا .

٣ - فرقة طغت وقلدت ، فعميت عن الحق أن تبينه .

٤ - فرقة عرفت اللّه ﷻ في تدبيره وتفرده بالصنع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره بمجانبة الإيمان ، فلم يجحدوا كبرًا ولا طلب دنيا ، فعاجل الدنيا يفنى ، وعذاب الآخرة لا يفنى ، فأقرت وآمنت .

العقل عند اللّه تعالى : يسمى المرء عاقلًا عند اللّه تعالى ، إذا توفرت مجموعة من الخصال هي : الخوف من اللّه ، البصر بالدين ، وقوة اليقين ، ولهذه الخصال حقائق من الفعل بالقلب والجوارح ؛ لأنه إذا تم عقل المؤمن عند ربه أفرده ﷻ بالتوحيد له في كل المعاني ، فعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات ، وأنه وحده الذي يملك ضره ونفعه في دنياه وآخرته .

مسائل في العقل : يتحدث المحاسبي عن الحجة بأنها نوعان : عيان ظاهر أو خبر قاهر ، وأن العقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله وذكر أن الإفراط في الحب والبغض يفسد العقل ، وأنه لا غنى للفرد من أن ينظر ويتذكر ويتفكر ؛ ليكثر اعتباره ويزيد علمه ويعلو في الفضل ، فمن قل تفكيره قل اعتباره ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه كثر جهله .

أما عن علاقة هذا الجزء من الكتاب بعلم النفس فيتمثل في الآتي : يشير مضمون هذا الجزء صراحة إلى ارتباطه بأحد الموضوعات الأساسية في علم النفس وهو موضوع « الذكاء الإنساني » Human Intelligence والقدرات العقلية Mental Abilities مثل الفهم Understanding والمعرفة Knowledge والاستدلال Reasoning ، والاستبصار Insight ، كما أن هناك إشارة لما يطلق عليه علماء النفس السلوك الذكي Intelligent Behaviour ، كما يرتبط هذا الجزء بمجال التأخر العقلي Mental Retardation والمرض العقلي Mental Illness (ص ١٧ - ٤٧) .

الجزء الثاني : شرف العقل وماهيته للغزالي :

في العقل وشرفه : فالعقل منبع العلم ، وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والرؤية من العين ، وشرف العقل ما يدرك بالضرورة ، وقد سماه اللَّه نورًا في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ [النور : ٣٥] ، وسمى العلم المستفاد روحًا ووحيًا وحياة وعرض المؤلف لعدد من الآيات والأحاديث النبوية التي تشير إلى حسن الأخلاق لا يتم حتى يكتمل نضج العقل ، وأن العقل هو المرشد لطاعة اللَّه ، حيث اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

بيان حقيقة العقل وأقسامه : **الأول** : الوصف الذي يختلف فيه الإنسان عن سائر الكائنات ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية ، وهذا ما أراده المحاسبي حين قال عن العقل : « إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية » .

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز ، بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ؛ كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فمن حنكته التجارب وهذبته المذاهب ، يقال عنه : عاقل في العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة ، فيقال عنه : غبي جاهل .

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلًا ، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب ، لا بحكم الشهوة العاجلة .

بيان تفاوت النفوس في العقل : وفيه ذكر أن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة السابقة ، سوى القسم الثاني ، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ، أما الأقسام الثلاثة الأخرى ، فالتفاوت يتطرق إليها ، فالقسم الرابع مثلًا لا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل تفاوت الشخص الواحد فيه ، ويرجع هذا إلى التفاوت أحيانًا لتفاوت الشهوة ، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، فقد يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل ، وذلك لقوة علمه بضرر المعاصي ، أما القسم الثالث ، وهو علوم التجارب ، فتفاوت الناس فيه واضح لا ينكره أحد ، وسببه إما تفاوتًا في الغريزة - فالتفاوت فيه واضح إلى أن يتكامل قرب سن الأربعين .

ويرتبط الجزء الثاني من الكتاب بالموضوعات والمفاهيم السيكولوجية التالية :

القدرات العقلية Mental Abilities ، والفروق الفردية والعوامل المؤثرة في ذلك كالعوامل البيئية والوراثية (ص ٥٨ ، ٦٥) .

ارتقاء القدرات العقلية وربطها بالارتقاء الأخلاقي Moral Development ، فهناك إشارة واضحة إلى أن النضج المعرفي يصاحبه النضج والارتقاء الأخلاقي ، وهذا ما تشير إليه بعض النظريات الارتقائية مثل نظرية جان بياجه J.Piaget والذي ربط بين ارتقاء معارف وأفكار الفرد ، وارتقاء مفاهيمه وتصوراته الأخلاقية (ص ٥٣ - ٥٥) .

هناك أيضًا إشارة لمفهوم الإدراك Perception ، ومفهوم الانفعالات Emotions ، فقد أوضح المؤلف - في هذا الجزء الثاني من الكتاب - أن الشخص العاقل هو الذي يمكنه التحكم في انفعالاته وقمع شهواته (ص ٦٦) .

هناك أيضًا إشارة - بشكل غير مباشر - لمبدأ التكامل والتمايز في الارتقاء Integration - Differentiation حيث تكون خصال وقدرات الفرد في البداية عامة وغير مميزة ، ثم تتجه مع نمو الفرد نحو المزيد من التحديات والتمييز (ص ٦٧ - ٦٨) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ،

التوبة [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

وصف الكتاب :

يقع الكتاب في ٨٦ صفحة من القطع الصغيرة ، ويشتمل على مقدمة المحقق التي كتبها عن المحاسبي ؛ نشأته ، وشخصيته وأزمته النفسية ، وعلاقته بالعلماء وأهل الأهواء ، ومؤلفاته ، وبعد ذلك يقدم موضوعات الكتاب وهي : بداية العودة إلى اللّه ، والعزم على تأديب النفس ، وبداية الهداية وصراع النفس ، ودلائل الصدق في التوبة ، وعزة مقام التائبين ، ودلائل صدق الشاكرين ، ثم ملحقين أولهما خاص بأحكام التوبة ، والثاني في بعض الأحاديث الواردة في التوبة ، ثم فهرس الكتاب .

عرض الكتاب :

يبدأ المحاسبي حديثه بعنوان بداية العودة إلى اللّه ، فيحدد هذه البداية بأنها لمن أقبل على ربه وعمل لطلب مرضاته ، وكذلك معرفة اللّه وما أوعد ، ومما توعد ، ومعرفته بنفسه ، كما يحدد معرفة اللّه بأنها من اللّه ﷻ الذي يخطر بقلب عبده العارف ذكره ، وذكر آخرته ، وحرَّكه للفكر والتذكر لعظيم قدر مولاه ، وقدر رضاه وسخطه ، وما وعد وتوعد فاستنار قلبه بذلك (ونجد هنا يمر مرورًا عابرًا على بعض المفاهيم السيكولوجية ؛ مثل : الفكر والتذكر ص ١٨) .

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . القاهرة : دار الاعتصام ؛ (١٩٧٧م) . (٨٤ ص) .

وفي إطار الموضوع الأول ينتقل ليتحدث عن أخلاق النفس الأمارة بالسوء ، وما تجره على صاحبها من البلاء والذنوب التي تسجل في صحيفة العبد ، ولذا من الواجب عليه دائمًا أن يتذكر ما سلف منه ، وعليه أن يتذكر أن نفسه كانت في جميع ما جنت عليه من سالف عمره تأتيه بسرور ونشاط ، لم تزل مترددة بين الشهوات ، راغبة ، متيقظة فطنة متلحظة إلى ما يهلكها في آخرتها ، مسرورة متنعمة بما يسخط مولاها (ونجده أيضًا يذكر بشكل غير مباشر مفاهيم سيكولوجية كالدوافع ، والذكاء أو التفكير والانتباه ص ١٨ ، ١٩) .

وبعد أن يتبين العبد أن طاعة نفسه فيها هلاكه ، وسوء عاقبته في المعاد ، وأن في عصيانها نجاته في آخرته ، وأنها قد اعتادت سلوك طريق هلكته ، وأنه لا شك ميت ، والموت يأتي بغتة ، ألزم قلبه العزم على تأديب نفسه الأمارة بالسوء ، والمواظبة على توقيفها والإلحاح على معاقبتها والدوام على موعظتها وتذكيرها بربها ، وأول الطرق التي يسلكها في ذلك عزل النفس عن مواطن المعصية ؛ لتفهم وتعقل ما ألقي إليها ، ثم أدمن معاتبتها وتخويفها (ومن هذا الحديث نستنتج بعض مبادىء تعديل السلوك وهو الأخذ بمبدأ الثواب والعقاب ، كما أنه يلحق - في ثنايا الحديث - الفهم والتعقل بوظائف النفس ، وهو موضوع يدرس في علم النفس الحديث ، أعني الجانب العقلي للإنسان (ص ٢١ ، ٢٣) .

وبرغم ذلك فإن النفس تأبى مفارقة الشهوات التي كانت تنال بها معاصيها من الأصحاب ومن الأهل ، ومن القرابة والخلطاء الذين كانوا يعاونونها على الشهوات (وهذا الحديث يذكرنا ببعض نتائج ودراسات علم النفس الحديث خاصة في مجال الاعتماد على المخدرات على اختلاف أنواعها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ينبهنا إلى ضرورة التدقيق في اختيار الأصدقاء والخلطاء وهو ما يدرس في إطار موضوع الصداقة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٢٣) ، وأمام هذا العصيان وهذا النشوز ، يأخذ العبد نفسه بالشدة فيعالجها بالصوم والجوع والتذكير (ويشير هنا إلى ضبط النفس والسيطرة على الدوافع ص ٢٤) ، ومن الملاحظ مع كل ذلك أن النفس تحن - بعد الشدة معها - إلى بعض الشهوات دون بعض ، لذلك تقطع أسباب بعض المعاصي ، وتأبى أن تقطع باقي أسباب معاصيها - ولما قطعت بعض أسبابها واستبدلت بها أضدادها ؛ من صاحب مرشد بدلًا من الصاحب المغوي ، ومن تيقظ وتذكر بعد سهر وغفلة ، ومن تثبت وفكر بعد طيش وعجلة ، والإدمان على مناجاة

الرب جل ذكره (تلاحظ هنا استخدامه لكلمة الإدمان استخدامًا حسنًا) ، والنظر في العلم من آثار نبيه ﷺ وآداب الصالحين بعده ، بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين واستبدال بعد كثرة الكلام صمتًا ، وبكثرة اللحظ إلى ما لا يحبه مولاه غضًّا ، وبادر إلى ترك الكثير من شهواته التي تباعده من ربه ، وتوقى كثيرًا مما خبث من مكاسبه وما لا يطيب من غذائه . فلما بلغ هذا اجتمعت أنوار ذلك في قلبه ، واستنارت مواريث الطاعة في عقله ، وأيده اللّٰه تعالى بمعونته ، وهو الذي ابتدأ تنبيهه ، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه وعرفه سوء رغبتها ، وقلة مبالاتها بآخرتها ، فلما استقر في قلب ما وهبه اللّٰه سبحانه من نور طاعته ، والسرور بما هم به ، حيا قلبه ، وقوى عزمه ، وقهرت أنوار الطاعة هواه (ونجد المحاسبي هنا يمر مرورًا رقيقًا على بعض موضوعات علم النفس مثل الصداقة والأصدقاء ، والنصيحة والإرشاد ، والانتباه (التيقظ) والتذكر ، والتروي والاندفاعية Reflectivity ، Impulsivity والانفعالات والدوافع وضبط النفس وتعديل السلوك (ص ٢٥ - ٢٦) .

ثم ينتقل المحاسبي بعد ذلك ليحدثنا عن موضوع بعنوان « بداية الهداية » ، ويرى أن النفس عندما تنظر إلى لذة المعصية التي نالتها وتجدها قد ذهبت ، وإلى العقوبة التي حلت بها وإلى ما أصابه من نور في قلبه من جراء هذه العقوبة ، وما أدت إليه من نشاط التقرب إلى ربه ، ولذلك يقوى على نفسه ويتمكن من زجرها ووعظها ، وبعد أن تؤتي هذه المحاولات نتائجها ، ويبدو على النفس الاستقامة في طاعة اللّٰه ، يخفف عنها العقوبة ، كأن يخفف عنها بعض ما يقوي طبعها الذي يهيج منه هواها ، ويمنعها من بعض لذاتها مثل كثرة الطعام الذي ألفته (وهو هنا يدعونا إلى ضبط النفس Self-Control وهي إحدى سمات الشخصية ، كما ينطوي هذا الحديث على ضرورة الاعتدال في إشباع الدوافع ، ص ٢٨ - ٢٩) .

ويطرق المحاسبي موضوعًا آخر هو خداع النفس ، يتناول فيه بعض العناوين الفرعية يلفت فيها النظر إلى بعض نقاط الضعف في النفس البشرية كالحنين إلى الشرف بين الناس ، وحب الثناء والتبجيل على ما ظهر من طاعتها ، وكذلك العجب والمن ، وتوهم فضلها على سائر الناس ، واعتقادها بأنها مصطفاة وصادقة (وهي كلها يمكن أن تمثل بعض سمات الشخصية غير المقبولة ، وهي على وجه عام ، تعتبر أعراضًا لسوء التوافق (ص ٣١ ، ٣٣) .

ويتجه المحاسبي بعد ذلك ليحدد دلائل الصدق في التوبة ويرى أنها الجد في الطاعة

(من تعظيم اللّٰه في قلبه ، وإطالة المناجاة ، وشدة الشوق إلى مولاه) .

والحزن والخوف (وهما نوعان من الانفعالات التي تحظى بعناية علماء النفس العام ص ٣٤ - ٣٥) .

وسقوط الكلفة في الطاعة حيث ترتفع عن السآمة ، وتزيل عنه الملالة ، وتصبح عبادته خالصة لوجه اللّٰه (ص ٣٦ ، ٣٨) ، ومن هذه الدلائل العلم بطريق التوبة واتباعه ، وعلم الرجاء والشكر والخوف - وبهذه الدلائل كلها تتحقق التوبة وتكتمل - لذلك كان للتائبين عزة عند ربهم ، فنراهم يتقللون من الدنيا ويظهرون الخشوع والذلة للّٰه ، ينفضون عن أبناء الدنيا ومحبيها ؛ فيعطيهم اللّٰه من فضله ويعفو عنهم ويغفر لهم .

ويشير المحاسبي بذلك إلى أسلوب خاص في تعديل السلوك على أساس تقوية إيمان الفرد وتقواه وزيادة تقربه إلى اللّٰه تعالى بالتوبة والعبادات .

ويزيد المحاسبي على دلائل صدق التوبة ، دلائل صدق الشاكرين ؛ لأن الشكر على نعمة التوبة واجب ، وعلامة الشاكر هم القيام بالشكر وسؤال اللّٰه الشكر ، والرضا بالقليل من الدنيا والقناعة بما يؤتيه ، ويصبر على هذا القليل حتى يكتب من الصابرين .

وأضيف إلى هذا الكتاب ملحقين الأول منهما في أحكام التوبة ويبدأ بتحديد معناها وحدودها ، ويرى أن العلماء اختلفوا في تحديد معنى التوبة ؛ فمنهم من قال : إنها الندم ، ومنهم من قال : إنها العزم على عدم العودة للمعصية ، وآخرون قالوا : إنها الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من جمع المعاني الثلاثة ، وهو أكمل المعاني وأصحها فهي الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب ، ومن شروط التوبة الصحيحة أن يهجر التائب الذنوب ؛ لأنها معاصي يغضب منها اللّٰه ورسوله ، فإن أقلع عن الذنب ؛ لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، ومن الغريب أن كثيرًا من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الإنسان عند اللّٰه وليس الأمر كذلك ، وقد عنى المحاسبي بهذه القضية عناية شديدة في كتابه آداب النفوس ، وخلاصة ما قاله : إن تطهر النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل ، وأعمال البر الأخرى ، مع الإصرار على المعصية ؛ لأن الإصرار على عمل الذنوب استهزاء باللّٰه وبرسوله . ويرى أن التوبة ينبغي أن تكون عامة من الذنوب الصغيرة والكبيرة .

ويحدد المحاسبي الحكم لمن تاب وعاد للذنوب ويقسم الناس في ذلك إلى قسمين :

١ - قسم صادق في توبته الأولى ولم يصر على ذنبه ، وليس في نيته العودة إليه عند إعلان التوبة ، فإذا عرض له ذنب وعمله ، وجب عليه المسارعة بالتوبة بشروطها وصحت توبته الأولى والثانية .

٢ - قسم تاب من ذنبه الأول مع حب له ، ثم عرض له الذنب وهذا مستهزئ بربه وتسمى توبته توبة الكذابين .

واختتم بالملحق الثاني وهو في بعض الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ بشأن التوبة .

* * *

المسائل في أعمال القلوب والجوارح [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٤٣ صفحة من القطع الصغير ويهدف إلى بيان كيف يكون التوازن بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح (الأعضاء) في إطار الدين الإسلامي ، فالإسلام هو النطق بالشهادتين ويصبح الإنسان مسلمًا بمجرد النطق باللسان ولو لم يتخذ طريقه إلى القلب رغم أنه لا يخلو من عمل قلبي ، أما الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وكلها قمة الإيمان ومعناه أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وكانت دعوة الرسول ﷺ قائمة على التوازن بين القلب والجوارح حتى تستمر حركة العمران دون إفراط في عمل الجوارح حتى لا تفسد القلوب ويضيع الإسلام ، وقد أوصى بترويح النفوس قليلًا ثم العودة مرة أخرى إلى التفكير في متعة الآخرة .

واستمر التوازن بين القلب والجوارح في عهد أبي بكر ثم عمر ﷺ ، ثم بدأت الفتنة وشهوة الرئاسة وحب الدنيا وتطلع الأمويين إلى الثروات وإلى الحكم وضعفت رقابة القلب على الجوارح وغلبت الشهوة وشاع الشذوذ بكل أشكاله .

وفي هذا الجو برز المحاسبي على رأس مدرسة تهتم بالعمل القلبي إلى جانب عمل الجوارح وسميت بمدرسة « الزهاد » ، ثم « الصوفية » ، وقد تبنى المحاسبي موقف أهل

---

(١) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا . القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي (١٩٨٦م) . (١٤٣ ص) .

السنة مراعيًا التوازن بين القلب والجوارح دون تطرف إلى روحانية مفرطة وتكاسل عن الدنيا أو استغراق في الشهوات ، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب وفيه يحاول المحاسبي إبراز سيرة الصحابة ومدى حرصهم على أعمال القلب والوجدان محذرًا من خطر المال على الدين إذا سيطر على القلب وأصبح المرء عبدًا له .

ويتضمن الكتاب إجابة الحارث المحاسبي عن خمسة عشر سؤالًا تتناول موضوعات مختلفة تتعلق بفقه القلوب والجوارح نوجزها فيما يلي :

١ - **الحسبة في إدخال السرور على المؤمن** : يجيب المحاسبي على عدة أسئلة حول بر المؤمن بغيره وكيف تكون النية فيه صحيحة ويكشف وجوه البر المختلفة ويفاضل بينها من حيث درجة الوجوب ، وهنا يذكر المحاسبي أن إدخال السرور أوجب على المؤمن التقي ، أما بر المسلم العاصي فقد يشجعه على التمادي في المعصية ، ويمكن مع ذلك وعند شدة الحاجة إعطائه من الزكاة أو التصدق عليه ؛ لأن الصدقة جائزة لأهل الحاجة ، ولكن منع البر أولى عن الظالمين والمعتدين على أمة الإسلام ، ويشير المحاسبي إلى أن الأقربين أولى بالمعروف في معظم الأحيان ويحذر المحاسبي من بر غير المحتاج خاصة إذا ترتب على ذلك الضرر بعيال المتصدق ، ويجيز البر على العالم ؛ إعظامًا لعلمه وعلى المتعلم ؛ لتشجيعه على طلب العلم ، ويحذرنا المحاسبي من بر الأعداء ؛ خوفًا من ضياع المنزلة والمهانة أمام الناس وإنما يكون البر عليهم حماية للدين ، كما يجيز البر على من يُخشى عليه من الارتداد عن دين الحق أو الخروج عن جماعة المسلمين .

● ومن هنا نرى أن في هذا القسم دلالات ترتبط بمفاهيم نفسية منها التدعيم المادي Financial Reinforcement (ص ٣٤ - ٤٤) ، والإثابة Reward (ص ٣٤ - ٤٤) ، والمكانة Status (ص ٤٠) ، وتماسك الجماعة Group Cohesiveness (ص ٤٢) .

٢ - **الإسرار بالعمل** : يجيب المحاسبي هنا عن أسئلة حول كيفية إخفاء العمل عن العباد حتى يكون للخالق وحده ، ويرى أن لهذا الإخفاء سبيلين : أولهما : إخفاء عمل الجوارح عن عيون وأسماع الخلائق ، وثانيهما : إخفاء مشاعر القلب عن العباد وأبصارهم ، ويرى أن بعض الأعمال يمكن عملها سرًا ولكن إظهارها أدعى إلى حث الآخرين وإظهار القدوة الحسنة حتى يقتدوا بها ، ويضيف المحاسبي أنه ليس كل شخص يصلح لأن يكون قدوة وتقتصر القدوة على الجدير بها وعلى مقاومة التصنع والتظاهر في نفسه ، ولكن لا يجوز أن يبالغ الشخص في إظهار عمل الجوارح بما يزيد عما يخفى

ويستر تصنعًا للعباد ورغبة في الشهرة والمنزلة عندهم .

● وفي هذا القسم أفكار تقترب من مفاهيم نفسية منها الصدق Truth (ص ٤٥)، والمكانة الاجتماعية Status (ص ٤٦) ، والسلوك الصريح Overt - Behaviour (ص ٤٥ – ٤٨) ، والسلوك الضمني Explicit Behaviour (ص ٤٥ – ٤٨) ، والقدوة Model (ص ٤٥) ، والتعلم بالعبرة Vicarious Learning (ص ٤٥) .

٣ – **الشهرة** : يعرف المحاسبي الشهرة بأنها أي فعل ، أو زي يميز فاعله أو مرتديه عن عامة الناس في فعلهم أو زيهم ، ومنها أيضًا حلق الشعر أو تطويله وجهر الصوت بالذكر . ويبين المحاسبي المنهي عنه من الشهرة والمكروه منها ، فيقول : إن الشهرة المحرمة هي الشهرة التي تتأتى من خلال أداء ما حرم اللَّه من زي أو غيره كلبس الذهب ، أو تطويل الشارب وكل ما يخالف الكتاب والسنة ومنها تشبه الرجال بالنساء أو النساء بالرجال ، ويحذر المحاسبي المؤمن من الانسياق ومجاراة ما يستحسنه الناس ولكن على المؤمن أن يلتزم بما فيه صالح قلبه وعيشه قاصدًا وجه اللَّه تعالى ، ويرى المحاسبي أن الشهرة محرمة عمومًا إذا كان فيها مصلحة للقلب أو عظة للعامة أو تميزًا عن الفاسقين أو السلطان أو الفقراء المخادعين مع ضرورة تجنب التصنع والرغبة في الشهرة عند العباد .

● ونجد في قسم الشهرة مفاهيم نفسية من بينها الشعبية Popularity (ص ٤٩ – ٥٩) ، والمجاراة Conformity (ص ٤٥) مع إيماءات عن تأثير المظهر الخارجي في الآخرين وهو ما يسمى بالتخاطب غير اللفظي Non - Verbal Communication (ص ٤٩) .

٤ – **من أم قومًا فألزم قلبه الحذر** : يعرض المحاسبي رأيه في الشخص الذي يؤم غيره في الصلاة فيراعي الحذر الشديد حتى لا يخطئ في القراءة ، ويرى المحاسبي أن على الإمام أن يسعى إلى أداء الصلاة على الوجه الأكمل إذا كان هدفه هو محبة الرب وخشيته ، والأعظم من ذلك أن يعي كل حرف يقرأه بلسانه وقلبه وبفهم وتعقل ، ويحذر من أن يكون هدف الإمام من إحسان القراءة هو الخوف من مذمة من خلفه أو الرغبة في الشهرة عند العباد بحسن تلاوة القرآن حتى يصل به الأمر إلى التصنع والتظاهر وتمثيل الخوف والتضرع في الصلاة .

● ويتضمن هذا القسم مفاهيم نفسية منها الدقة Accuracy (ص ٦٠) ، والعائد Feedback (ص ٦٢) . والصدق Truth .

٥ - **إزالة الخوف** : يتحدث المحاسبي هنا عن الخوف والقنوط أو العزة والعجب باليسير من العمل واستكثار القليل منه ثم التكاسل بعد ذلك ، وقد نهى اللَّه عن القنوط الذي يشعر به العبد بعد ارتكاب ذنب عظيم فيمسك عن عمل البر في سبيل اللَّه ، ويضيف المحاسبي أن الرجاء أولى في مواضع ثلاثة هي ارتكاب الذنوب أو تذكر الذنوب ، أو التكاسل عن عمل صالح ، وهنا يشجع الرجاء وانتظار الثواب على العمل .

● ويتضمن هذا القسم مفاهيم نفسية منها الإثابة Reward (ص٧٠) ، والانفعالات Emotions (ص ٦٩ - ٧٣) خاصة الخوف Fear (ص ٦٩ - ٧٣) .

٦ - **النوافل** : يشرح المحاسبي خصال ومزايا تطوع العبد بالنوافل غير المفروضة وهي ست خصال :

١ - تكفير الذنوب وتكميل الفرائض .

٢ - شكر النعم .

٣ - تجديد القلوب وإحيائها بذكر اللَّه .

٤ - الحرص على ألا تمضي ساعة من العمر دون ذكر اللَّه .

٥ - الاشتغال بذكر اللَّه ودوام الصلة به كما يرتبط الحبيب بمحبوبه .

٦ - الرغبة في تخفيف الحساب وعلو الدرجات .

● ويتضمن هذا القسم علاقة غير مباشرة بمفاهيم نفسية منها انفعال الحب Liking (ص ٨٠) ، وقضاء وقت الفراغ Leisure Time (ص ٨٠) .

٧ - **من أعمال القلوب** : يوضح المحاسبي أن الحقوق التي أوجبها اللَّه على القلب دون الجوارح هي :

١ - الاعتقاد في الإيمان والبعد عن الكفر .

٢ - اعتقاد السنة ونبذ البدعة .

٣ - اعتقاد الطاعة والبُعد عن المكروهات .

ومن أعمال القلوب أيضًا التواضع والنصح للعباد وحب الخير والصبر والرضا والزهد ونبذ الخوف والرجاء من المخلوقين .

● **ويكشف هذا القسم عن علاقة بالمفاهيم النفسية الآتية : الإرشاد النفسي Counseling** (ص ٨٨) ، والقيم Values (ص ٨٤) ، ومنها الحب Liking (ص ٨٧) ، والصداقة

Friendship (ص ٩١) ، والرضا Satisfaction (ص ٨٧) ، والتواضع Modesty (ص ٨٤) ، وسمات الشخصية Personality Traits (ص ٨٤) .

٨ - **الصمت والكلام في الوعظ والبلاغة** : يتناول المحاسبي موضوع الصمت والكلام ويوضح متى يكون الصمت أو الكلام أفضل فيذكر أن الصمت أسلم وإن كان أفضل إذا أريد به وجه الله دون إفراط في الصمت أو الكلام ، فالإفراط في الصمت يؤدي إلى الضجر ، والبلادة ، واختلال العقل ، ولكن يحسن الصمت عن المحرمات أو ما لا يعرفه العبد ، وينبغي أن يكون الكلام في موضعه وأوانه ولمن ينتفع به دون ثرثرة أو إطناب .

• وفي هذا القسم إشارات واضحة إلى مفاهيم نفسية منها التفاعل الاجتماعي - Social Interaction (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والتخاطب اللفظي Verbal Communication (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والإفصاح عن الذات Self - Discolsure (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والملل Boredom (ص ٩٢) ، والاضطراب العقلي Mental Disorder (ص ٩٢) .

٩ - **الجدال في أسباب الدنيا** : يبين المحاسبي أن الجدال الممدوح هو الجدال عن المظلوم عند الحاكم ، وكذلك الجدال عن المكذوب عليه والمظنون فيه السوء دون حق ، وأيضًا الجدال عن النفس في كل المواضع السابقة ، أما الجدال المذموم فهو الادعاء فوق الحق المعلوم أو شتم الظالم بما لا يجوز أو الاستعانة بشهود الزور وكذلك الجدال عن الظالم أو الكاذب أو المغتاب ، أما عندما لا يتضح الظالم من المظلوم فينبغي أن يكون الجدال محايدًا بلا ميل إلى قرابة أو صحبة أو هوى .

• ويرتبط هذا القسم بالمفاهيم النفسية الآتية : التفاعل الاجتماعي Social Interaction ، والدفاع عن الذات Self - Defense (ص ١٠٣) ، والعدالة Justice (ص ١٠٣) ، والموضوعية Objectivity (ص ١٠٣) .

١٠ - **التفويض** : يشرح المحاسبي معنى التفويض إلى الله ﷻ ، ويؤكد أن التفويض يؤدي إلى زوال الهموم وإبعاد الخوف والطمع مع راحة القلب والبدن . التفويض هو الإلجاء من قلب المؤمن إلى الله تعالى في الأمور كلها مع تسليم القلب بقدرة الله .

• ويتضمن هذا القسم علاقة بمفهومي التأييد Support (ص ١٠٧ - ١١٣) والتخفيف النفسي Psychological Relief (ص ١٠٧ - ١١٣) .

١١ - **معرفة النفس** : هنا يعرف المحاسبي الازدراء على النفس بأنه معرفة قدرها وسوء رغبتها وأفعالها وإبعادها عن ملذات الدنيا وترغيبها في ثواب الآخرة ، وأن يضع المؤمن نصب عينيه دائمًا القول التالي : « حُفت الجنة بالمكارم وحُفت النار بالشهوات » ، ثم الحذر من الله طول الوقت .

● ويرتبط هذا القسم بمفاهيم مثل الذات Self (ص ١١٤) ، وضبط الذات Self - Control (ص ١١٥) ، والدوافع Drives (ص ١١٤) ، وطلب اللذة Sensation Seeking (ص ١١٤) .

١٢ - **الغفلة والنسيان** : يذكر المحاسبي أن الغفلة أو النسيان تنقسم إلى قسمين : أولهما : غفلة غير معتمدة يصحبها النسيان وسببها قلة العناية ، وثانيها : غفلة المجترئ على الله دون نسيان وهي غفلة من تعظيم قدر الله وشدة عقوبته .

● ويرتبط هذا القسم بمفهوم النسيان Forgetting (ص ١٢٣ - ١٢٧) .

١٣ - **ما يُحل من النظر** : يذكر المحاسبي أنه يحل النظر إلى ما يحل للحرة أن تبديه وهما الوجه والكفان ولكن لغير شهوة ولا يحل النظر إلى ما عليها أن تخفيه ؛ لأنه عورة ومنهي عن النظر إلى ما عليها أن تبديه أو تخفيه لشهوة ، وقد فرق المحاسبي بين النظر لما يجوز نكاحه وما لا يجوز نكاحه مبينًا حرمة النظر إلى ما يصلح للنكاح ومنها ملابس النساء التي تغري بالنكاح .

١٤ - **نظر الفجأة** : يقصد المحاسبي بنظر الفجأة النظرة التي لم يقصدها القلب أو النظرة غير التعمدة ولا يحاسب عليها الشخص وعليه أن يصرف البصر بعدها ، إما بسرعة تغميض العينين أو بشغل البصر حتى وإن كانت العين مفتوحة ، ويحذرنا المحاسبي من النظر إلى ما نهى الله عنه بحجة الاعتبار والتفكير في حسن خلق الله .

● ومن القسم السابق « ما يحل من النظر » والقسم الحالي « نظر الفجأة » يتبين أن لهما صلة بالمفاهيم الآتية : الدوافع خاصة الدافع الجنسي Sexual Drive (ص ١٢٨ - ١٣٦) أو الغرائز Instincts (ص ١٢٨ - ١٣٦) ، وكذلك القيم وحسن الخلق Morals (ص ١٣٠ - ١٣٦) .

١٥ - **النذور** : في النهاية يحدثنا المحاسبي عن أنواع النذور ويحددها فيم يلي :

١ - نذر لا يُسمى وفيه لا يذكر المرء طبيعة النذر الذي ينبغي عليه الوفاء به كأن يقول : عَليَّ نذر إن شفيت وهنا ينبغي عليه كفارة يمين .

٢ - النذر الذي لا يُطاق مثل نذر الشخص أن يمشي إلى البيت الحرام حافيًا راجلًا وعليه كفارة يمين .

٣ - النذر في معصية ؛ مثل : ذبح الابن وعليه كفارة يمين دون عصيان .

٤ - نذر مُسمى ويفوت وقت الوفاء به ، كنذر صوم يوم معين ويمرض فيه الشخص وعليه أيضًا كفارة يمين .

٥ - نذر مُسمى ويُطاق ولا معصية فيه كنذر صلاة أو صوم ويجب الوفاء به .

● ويتضمن هذا القسم علاقة بمفهوم الالتزام Commitment (ص ١٣٧ - ١٤١) ، وكبح انفعال الغضب Anger وما يسببه من اندفاع إلى قسم أو نذر لا يُطاق . (ص ١٣٧ - ١٤١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الوصايا :
النصائح - بدء من أناب إلى الله - فهم الصلاة - التوهم [1]

عرض : د . معتز السيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٤٨ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصنف إلى مجموعة من الكتب النوعية هي : كتاب النصائح ، وكتاب القصد والرجوع إلى الله ، وكتاب بدء من أناب إلى الله ، وكتاب فهم الصلاة ، وكتاب التوهم ، وجميعها يدور حول تقديم العديد من الوصايا والنصائح الدينية والنفحات القدسية التي من شأنها أن تجنب الإنسان البُعد عن الصراط المستقيم وعوامل الانحراف النفسي ، وينتهي الكتاب بعرض فهرس مفصل للموضوعات التي يشمل عليها كل كتاب من الكتب النوعية ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

كتاب النصائح :

ويتكون من واحد وأربعين بابًا يعرض المؤلف خلالها للعديد من النصائح التي تُعرف الإنسان حدوده وأين هو وما يجب عليه وجوانب تقصيره في دينه .

فيعرض لدلائل التقوى ، وفساد الدين ، وأن أهم هذه الدلائل هي الورع عن محارم الله والقيام بحدوده وتصفية القلوب من مكارهه ، وأنه من الضروري على الإنسان إحراز ما يستطيعه من الخير ، والاعتراف بأن المال أصل عظيم من أصول الفساد يؤدي

---

(١) تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (٤٤٨ ص) .

بأصحابه إلى المهالك ، وضرورة وجوب القناعة وترك الفضول ، ووجوب الورع في اكتساب القوت ، والاقتصاد في الرزق من غير إقتار ولا إسراف ، والتحذير من البخل ، والتحذير من مخالطة الناس ؛ لأنها أجزل ثوابًا ، والرضا بقضاء اللّٰه والصبر على بلائه ، والحذر من مكائد الشيطان في الطاعة ، والحذر من الإعجاب بالأعمال ، والحذر من الكبر ، وأهمية تفقد سرائر الأنفس وخفايا الصدور ، وضروة أن نطهرها من الغل والحسد والحقد والشماتة وسوء الظن والعداوة والبغضاء ، والحذر من الخلاف ووجوب الاشتغال بما أجمع عليه الأئمة ؛ لأن الدخول في الخلاف فتنة ، والعمل على رعاية الجوارح والقلوب والتشبث بذلك في الأحوال كلها ، ومعرفة أن النفس الأمارة مجمعة عل تضييع أمر اللّٰه ﷻ ؛ لذا يجب أن نراقب اللّٰه ولا نهملها ، وإن أفضل العلم هو ما عُمِل به لوجه اللّٰه تعالى وهو العلم النافع ، وأن العقل هو طريق الصلاح والرشاد ، فإن أفضل ما نستفيده من العقل أن نطيع اللّٰه فيما افترض علينا ، ونتجنب ما حرم اللّٰه تعالى ، فالعاقل من أطاع اللّٰه ولا عقل لمن عصاه .

وإن علينا أن نراقب اللّٰه تعالى ونكون على خلاف الناس الذين يبغضون ما يحب اللّٰه ويكرهون منافعهم في الآخرة ، أي أنه يجب أن نعلم أصناف الناس في محاب اللّٰه تعالى ، وكذلك أصناف الناس في حب ما يبغضه اللّٰه تعالى ، فإنهم يفرحون بما أضر بدينهم ، ومن ثم يجب أن نكون بخلافهم وإنه يجب أن نقوم للّٰه مقام العبيد بين يدي أربابه بخشوع وهيبة واستكانة وتعظيم أثناء الصلاة ، أي ضرورة أن يكون خشوع القلوب مع الأبدان ، وأنه يجب على الصائم أن يقوم بالابتعاد عن الآثام المضرة بالصيام حتى يصح صومه ، والإشارة إلى وجوب نية النوافل لإتمام نقص الفرائض ، ووجوب نية العمل لمحو السيئات ، ووجوب الإنابة من الآثام ، ووجوب الإسرار بالدعاء ، ووجوب الدعاء بالقلب واللسان ، وأهمية النية الصحيحة لبذل المال ، ووجوب شكر العبد لربه في كل نعمة على حالها ، فإذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرَّطوا في آداب الشكر ، فذلك مذموم ، وأهمية تصحيح السلوك العلمي ، فإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم وفي ذلك يزدري بعضهم على بعض وقلوبهم متنافرة والنفوس متباينة فأسروا أموركم بمجهودكم وكونوا للشهرة والجدال مبغضين والخمول للذكر محبين ، وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين الملأ مستوحشين ، وفي الخلوة والصمت راغبين فليس من أحد بخطيئته إلا واللّٰه يسأل عنها ما أراد بها ، ووجوب الإسرار بأعمال البر ، والتنبيه إلى أخطار المدح فالشيطان يذيق الممدوح حلاوة المدح

وأن الرضا إن شاء الله تعالى ، ووجوب تفقد القلوب ، والتقرب إلى الله بمحاب الله وبغض مكارهه والرضى والغضب له وفيه ، وأخيرًا عرض المؤلف لبعض النصائح في آفات العلم وخمول الذكر وإخفاء أعمال البر .

• أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي :

الإرشاد والتوجيه النفسي Counseling (ص ٥٩ - ٢١٥) ، والرغبة Desire (ص ٦٦ - ٦٧) ، والقيم العلمية Scientific Values (ص ٧١ - ٧٦ ، ١٦٨ - ١٧٠ ، ٢٠٥ - ٢١٠) ، والقيم المادية (ص ٧٦ - ٩٣) ، والرضا النفسي (الإشباع Satisfaction) (ص ٩٤ - ٩٧) والعزلة Isolation (ص ١٠٤) ، والسرور (ص ١٠٥- ١٠٦) ، والوسواس Obsession (ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ١٣٧ ، ١٧٣ - ١٧٤، ٢٠٨) ، والإعجاب بالذات Self-Admiration (ص ١٠٩ - ١١٠) ، والغرور (ص ١١١ - ١١٢) ، والتحذير (ص ١١٥ - ١١٧ ، ١٧٨ - ١٧٩) والصراع Conflict (ص ١١٥ - ١١٧) ، الانفعالات Emotions (ص ١٢٠ ، ١٩٧ - ٢٠٤) ، والفروق الفردية (ص ١٢٤ ، ١٣٢ - ١٣٥) ، والنية أو المقصد Intention (ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٤٤ - ١٤٩ ، ١٥٩ - ١٦٢) ، والتفكير Thinking (ص ١٢٩ ، ١٣١) ، والخضوع Submission (ص ١٣٦) ، والنسيان Forgetting (ص ١٣٨ - ١٤٠) ، والرجاء (ص ١٥٠ - ١٥١) ، والخوف Fear (ص ١٧٨ - ١٧٩) والحذر (ص ١٧٨ - ١٧٩) ، وضبط النفس Self - Control، والقيم الدينية والخلقية .

كتاب بدء من أناب إلى الله :

وفيه يعرض المؤلف لمجموعة من الموضوعات تدور حول بداية العودة إلى الله ومعرفة الله وخلائق النفس الأمارة بالسوء ، والعزم على تأديب النفس ، وكيفية عزل النفس عن مواطن المعصية ، وإدمان معاتبتها وتخويفها ، والعقوبات المشروعة للنفس ، وبداية الهداية : بين عقوبتها والتخفيف عنها ، وخداع النفس ، وتوهم فضلها على غيرها من الناس ، ودلائل الصدق في التوبة ، وعزة مقام التائبين ، ودلائل صدق الشاكرين .

• أما المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الكتاب : فهي مفهوم الدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٣٣٦ - ٣٣٧) ، والاعتقاد Belief (ص ٣٤٣)، وقيمة الصدق (ص ٣٤٤ - ٣٤٨) ، والطاعة Obedience

(ص ٣٤٤ - ٣٤٧) ، والحزن Sadness (ص ٣٤٤ - ٣٤٥) ، والخوف Fear (ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٨)، الرجاء (ص ٣٤٧ - ٣٤٨) ، وضبط النفس والشعور بالذنب والعزم على عدم العودة إلى ارتكاب الذنوب (التوبة) ، وتهذيب وتأديب النفس Self Disciplinc .

كتاب فهم الصلاة :

وفيه يعرض المؤلف لكل الجوانب الخاصة بالصلاة والتي تعين الإنسان على أدائها بأفضل صورة يرتضيها اللّٰه تعالى ، وأول مراحل الصلاة هو الوضوء ، ثم المشي للصلاة بالخشوع والإجلال للّٰه تعالى ، ثم الدخول في الصلاة ، وأخيرًا الفراغ منها .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب** : فهو مفهوم الخضوع Submission (ص ٣٦٤ - ٦٧٨) ، والطاعة ، والقيم الدينية .

كتاب التوهم :

وفيه يعرض المؤلف لآلام الموت ولقاء ملك الموت وسؤال الملكين ورؤية الجنة والنار ، والنداء للعرض وما يكتنفه من زحام مريع ، وأهوال القيامة ، والشفاعة ، والفرار من جهنم وسؤال الرسل ، وتطاير الكتب ونصب الموازين ، ويوم العرض والوقوف أمام اللّٰه تعالى ، وعذاب الكافرين ، وكيف أن عذاب جهنم كرب لا يهدأ ، وتجاوز الصراط ، ونعيم الجنة وموكب الصالحين إلى الجنة وفتح باب الجنة ، ولقاء الرحمن ، وإكرام ضيوف الرحمن ، ورفع الحجاب .

● **أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : التخيل Imagination (ص ٣٨٩ - ٤٤٣) ، والانفعالات Emotions (ص ٣٨٩ ، ٤٤٣) .

أما بالنسبة لكتاب القصد والرجوع إلى اللّٰه ، فسوف نعرض له تفصيلًا في الجزء التالي .

* * *

القصد والرجوع إلى الله [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على مقدمة و ٣٤ مسألة ، نعرض لها على النحو الآتي :

مسألة (١) : في شرح بيان ابتداء التوبة والقصد إلى الله ﷻ بالإنابة ، ويتحدث فيه عن أن التوبة هي بداية الرجوع إلى الله ﷻ ، وتعني التوبة الندم على ما كان من الفعل القبيح والعزم على ألا تعود إلى ما كانت عليه ، وطلب التوبة يرتبط بثلاث خصال : **أولها** : ذكر الذنوب السالفة ، وقلة المطعم والمشرب مع ترك الكثير من الشهوات ، **والثانية** : جمع الهم لما تطلب مع دوام ذكر الموت ، **والثالثة** : لزوم العلم بذكر ما قدمت ، وهو الذي يطوي عليك ذكر ما ذكرت ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن علامات الصادق في توبته ، ومنها دوام الأسى على العمر الذي انقضى منه في البطالة واللعب ... إلخ .

مسألة (٢) : في صفة الفترة وشرحها وبيان معانيها ، فالرجوع الفترة مرحلة تالية للتوبة ، وهي أن تعرض دواعي الهوى فتستجيب له النفس فتستريح إلى الفترة ، بروح ترك الكد والاجتهاد .

مسألة (٣) : في محاسبة النفس أو دفع الهوى من ضمائر القلوب ، وتعني المحاسبة

---

(١) تحقيق ودراسة عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . القاهرة : دار التراث العربي (١٩٨٠م) . (١١٨ص) .

قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها ، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها ، ويقوى العبد على محاسبة النفس بثلاث خصال هي : قطع العلائق التي تشغله عن جمع الهم على المحاسبة ، والتفرد لها من غيرها والخوف من الله ﷻ أن يسأله عما فرط فيما بلغه على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام .

● ويرتبط هذا الجزء من موضوع الدوافع الأولية Primary Motives (ص ٤٠ - ٤٢) . وضبط النفس Self-Control والتحكم في الدوافع والشهوات .

مسألة (٤) : في مخالفة العدو ، ودفع نزعاته ، وتحدث فيه عن أسباب مخالفة العدو إبليس ومنها فرض الله اللازم الذي أمر بمحاربته ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] ، وهذا دليل على أن الله ﷻ فرض عداوته وأمر بمحاربته وهو الذي يقويك على مخالفته ، لخوف التخلف عما أمرك به .

مسألة (٥) : في بيان الورع ومعناه ، والورع يعني وقوف القلب عند هجومه للفعل ، حتى يفرق بين الحق والباطل ، وأن جميع الورع في ترك ما يريبك إلى ما لا يريبك ، والورع مشتق من الخوف كما تقول العرب ، وعلامة الورع ترك عداوة القلوب وأحقادها ويزيد من قدر الورع : علم مشاهدة القلب لسطوات الله ﷻ ونقمته .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions خاصة انفعال الورع والخوف (معناه وطبيعته) ، (ص ٤٦ - ٤٧) . والسيطرة على الدوافع والانفعالات .

مسألة (٦) : في بيان الزهد ومعناه ، ويعني الزهد العزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها ، ويقوي على ترك الدنيا معرفة القلب بسوء عواقبها وكثرة الوقوف للحساب على ما أخذ منها ، مع دوام الاشتغال بها عن خالقها ، وخوف العقاب على مثاقيل الذر منها .

● ويرتبط ذلك بموضوع الدوافع Motives خاصة قمع الدوافع والرغبات أو الشهوات (ص ٤٨ - ٥٠) .

مسألة (٧) : في بيان ما يفسد الزهد وفرض الزهد ، وتحدث المؤلف عن أن ما يفسد الزهد هو استرواح النفس وميلها لرخص التأويل من سماع العلم والأقاويل في أخذ ما لا يضر فقده ، ودوام السعي في فضول المباح ، ويبين المؤلف أن الزهد على وجهين : فرض وفضيلة . فالفرض منك ترك الحرام ورفضه ، وأما الفضيلة فهو الزهد في الحلال .

مسألة (٨) : في بيان الزهد في الحياة تبرمًا بالدنيا ، وبالبقاء فيه ، والنظر إلى أهلها وأبنائها في دار العاصين ، وحب القدوم إلى الله ﷻ ورغبة في جواره مع المقربين .

مسألة (٩) : في الزهد في الناس وحب المنزلة والرئاسة والشرف وبيان تفاوت الناس في الزهد ، فإذا استوطنت المعرفة في قلوب العارفين بترك الدنيا ؛ فإنهم يزهدون في الناس والمنزلة والرئاسة ، وفي إقامة الجاه والشرف ، ويختارون التواضع ، والفرار من حب الدنيا ، وذكر المؤلف بعد ذلك أن الناس يتفاوتون في الزهد على قدر صحة العقول ، وقوة العلم الذي يبعث على الهجوم على العزوف عن الدنيا ، وعلى قدر معرفتهم بسوء عواقبها ، وسرعة فنائها وكثرة ضررها .

● ويرتبط هذا الجزء بالسيطرة على دوافع الإنسان وأهوائه الدنيوية مثل دوافع السيطرة وحب الرياسة والسلطة (ص ٥٤ - ٥٥) .

مسألة (١٠) : في معنى الدنيا ، وشرح بيان المحمود منها والمذموم ، فالدنيا منها ظاهر وباطن ، ومنها عرض وجسم ، ولها أول وآخر ، ولها شاهد وغائب وذكر الصفات المصاحبة لكل جانب من هذه الجوانب : فالباطن منها مثلًا اتباع الهوى الذي بطن في النفوس واتبعته القلوب مثل الكبر والغل والحسد والرياء وسوء الظن ، وحب جمع المال ، والتفاخر ، وحب الشرف ، والظاهر منها : الدينار والدرهم والثوب والدابة والخادم والمركب ، كما تحدث عن المحمود والمذموم في الدنيا .

● ويرتبط هذا الجزء بدوافع الإنسان التي تتعلق بإشباع حاجاته الدنيوية ، وبدوافعه التي تتعلق بإشباع حاجاته الأخروية (ص ٥٦ - ٥٨) .

مسألة (١١) : في بيان العقل وصفته ، فللعقول أنوار بصيرة أسكنها الله ﷻ القلوب ، يفرق بها العبد بين الحق والباطل في جميع ما يرد عليه من خطرات قلبه ، ونزعات عدوه ، ووساوس نفسه ، وما تعهد برعايته .

● ويرتبط هذا الجزء بكل من موضوع القدرات العقلية Mental Abilities ومعنى العقل ، وكذلك بكل من أثر الوراثة والبيئة ودورهما في تشكيل واكتساب القدرات العقلية (ص ٥٨ - ٥٩) .

مسألة (١٢) : في الصدق وبيانه ، فالصدق قول باللسان مع اختيار القلب حالة واحدة ، لا يخالف أحدهما صاحبه ، وهناك صدق النية وصدق اللسان وصدق العمل ، وذكر المؤلف أن المعرفة أصل الصدق والصدق أصل لسائر أعمال البر وعلى قدر

قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions ، وكذلك من معنى الصدق كإحدى القيم الأخلاقية Moral Values (ص ٦٠ - ٦٢) .

مسألة (١٣) : في صفة الصادق وسيرته بين الخلق ، فالصادق لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله .

● ويرتبط هذا الجزء بسمات الشخصية .

مسألة (١٤) : في الإخلاص وبيانه ، فالإخلاص هو خروج الخلق عن معاملة الرب ﷻ ، والنظر إلى ثواب الله تعالى ، لا يريد بذلك حب محمدة ، ولا كراهية مذمة ، والإخلاص سمي هكذا ؛ لأنه خلص العمل من الآفات كما تقول العرب .

● ويرتبط هذا الجزء بالقيم الأخلاقية Moral Values حيث به بيان لمعنى الصدق ومظاهره (ص ٦٤ - ٦٥) .

مسألة (١٥) : في الرياء وبيانه ، ويعني حب المحمدة من الناس على الفعل الحسن ، وعلامات المرائي ثلاث : أن ينشط في الملأ ، ويكسل في الخلاء ، ويحب أن يحمد على جميع أموره .

● يرتبط ذلك بما يسمىْ بالحاجة إلى الظهور أو الحصول على الاعتراف والتقدير الاجتماعي من قبل الآخرين Social Recognition ، (ص ٦٦) .

مسألة (١٦) : في صفة الإعجاب وبيانه ، فالإعجاب الذي يجب الخوف والحذر منه هو النظر إلى نفسك بالعمل ، واستكثاره عند نفسك مع نسيان النعم من الله ﷻ . واستكثار الشيء هو الإعجاب ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥] .

مسألة (١٧) : في صفة الفرح بالعمل .

● ويرتبط ذلك بانفعال الفرح والسرور (ص ٦٩) .

مسألة (١٨) : في صفة الشكر لله ﷻ ، وأوضح فيه المؤلف أهمية شكر العبد لربه ﷻ .

مسألة (١٩) : في صفة الصبر وبيانه ، فالصبر يعني : المقام على ما يرضي

المولى ﷻ بترك الجزع ، فالصبر هو حبس النفس في موضع العبودية من الصبر ، مع نفي الجزع ؛ لأنه ضد الصبر .

مسألة (٢٠) : في صفة الرضا وبيانه ، فالسبيل إلى مقام الرضا علم القلب بأن الله ﷻ عدل في قضائه ، أما مخرج الرضا فهو من حسن الظن بالله وأنه غير جائر في حكمه ، ويسهل الرضا في حالة معرفة عواقب الأمور .

- ويرتبط هذا الجزء بموضوع الرضا Satisfaction عن الحالة أو الظروف التي يعيشها الإنسان (ص ٧٥ - ٧٧) .

مسألة (٢١) : في صفة ورود المعرفة إلى قلوب العارفين ، وعرض فيه المؤلف لورود المعرفة إلى القلوب ساكنة أو متحركة .

- ويرتبط هذا الجزء بسمات الشخصية Personality Traits والحالة الانفعالية وعلاقتها بتحصيل المعارف (ص ٧٨ - ٨٢) ، ويتكلم المؤلف هنا عن نوع خاص من المعرفة التي لا تكسب عن طريق الحواس والفكر ، وهي التي يدرسها علماء النفس المحدثون ، وإنما هي معرفة تحصل للإنسان عن طريق الإلهام الإلهي .

مسألة (٢٢) : ويتحدث فيه عن معنى المعرفة وبيانها ، فالمعرفة أن تعرف الله ﷻ بما عرفك به نفسه ﷻ ، وأن تعلم أن الله عفو قدير ، عظيم حليم ، الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء وغير ذلك من الصفات .

مسألة (٢٣) : في بيان معنى الاعتبار ، وهو الاستدلال بالشيء على الشيء وهو أن تنظر بقلبك إلى الشيء المتقن ، فليحق قلبك التعجب من نفاذ القدرة ، وإتقان الصنع ، وحسن التدبير فيه ، ثم لم تقع عينك على شيء إلا ذلك الشيء على غيره ، والناس متفاوتون في الاعتياد على قدر صحة العقول واتساع المعرفة ومهارة القلوب .

- ويرتبط ذلك بمعنى الاستدلال Reasoning كأحد القدرات العقلية الأولية Primary Mental Abilities والفروق الفردية في هذه القدرة حسب القدرات العقلية والمستوى المعرفي للفرد (ص ٨٥ - ٨٦) .

مسألة (٢٤) : في طهارة القلب ، وذلك من خلال قطع الشهوة وعدم الميل إلى الرخصة ، والفرار من تأويل الغرة ، مع التقلل من المطعم والمشرب ، وإصلاح القوت أي : تحري الحلال الخالص منه .

مسألة (٢٥) : في شرح الحكمة وبيانها ، وفيه بيان لمعنى الحكمة والحث على

مصاحبة الحكماء لما يترتب على ذلك من فوائد .

مسألة (٢٦) : في اعتقاد القلوب وبيانه .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم النية أو القصد Intention (ص ٩٣) ، ومفهوم الاعتقاد Belief (ص ٩٢) .

مسألة (٢٧) : في حديث النفس وبيانه .

● ويرتبط بهذه المسألة خواطر النفس ، وأحلام اليقظة والوساوس .

مسألة (٢٨) : في صفة الحزن وبيانه ، وذكر فيه أن السبيل إلى مقام الحزن ثلاث خصال : الفكر في الذنوب السالفة ، وأخذ القلوب بحقوق اللّٰه ﷻ الواجبة ، والفرائض اللازمة ، ومعرفة الخلاف على اللّٰه ﷻ .

● ويرتبط ذلك بانفعال الحزن ومعناه ومظاهره (ص ٩٦ - ٩٧) .

مسألة (٢٩) : في شرح محبة اللّٰه ﷻ للعبيد ، فمن علامة محبة اللّٰه ﷻ للعبد : أن يتولى سياسة همومه ، فتكون جميع همومه هو ﷻ المسيِّر لها ، فهي الهموم التي لا تعترض عليها حوادث القواطع ولا سبيل لها إلى التوقف .

مسألة (٣٠) : في خوف المحبين للّٰه ﷻ .

● ويرتبط ما ورد في هذه المسألة بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١٠١ - ١٠٤) ، وبخاصة انفعال الخوف .

مسألة (٣١) : في شرح المراقبة وبيانها ، وتعني دوام علم القلب بعلم اللّٰه ﷻ في وَجَلٍ في سكونك وحركتك علمًا لازمًا للقلب بصفاء اليقين وكشف غطاء حجب الظلم غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب .

مسألة (٣٢) : في معنى الحياء وبيانه ، ويعني حظر القلب وقصره وحصره عن الانبساط ، والامتناع من كل خلق رديء لا يرضاه اللّٰه ﷻ .

● ويرتبط ذلك بصفة الحياء كسمة للشخصية (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

مسألة (٣٣) : ويتحدث فيها عن معنى الظرف ، وهو ترك أخلاق الريب مع دوام السخاء والكرم طاهر الأخلاق ، صافي الهم ، حسن اللفظ ، كثير الصمت ، دائم الفكر ، الغالب عليه الخوف والحياء .

مسألة (٣٤) : في صفة الخوف ، ومعناه ومظاهره .

● ويرتبط ما ورد في ذلك بموضوع انفعال الخوف ، مظاهره وأسبابه (ص ١١٠ - ١١٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

التوهم [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

هذا الكتاب يقع ضمن كتاب آخر هو آداب النفوس ، ويمثل كتاب التوهم حوالي ٥٤ صفحة من بين ٢١٦ صفحة هي إجمالي الكتابين معًا .

كتاب التوهم - كما ورد في مقدمته - كتاب نفيس ليس له نظير ، والتوهم كما قصده المحاسبي وفهمناه عنه ، أن « يتخيل » الإنسان عددًا من المواقف والصور وكلها مرتبطة بالآخرة ، وهو بالطبع يختلف عن مفهوم التوهم بمعنى الاعتقاد بوجود شيء غير موجود ، وقد استخدم المحاسبي لفظ « توهم » كفعل أمر ، في بداية فقرات تدل على مواقف متعددة حوالي ٢٦ مرة على وجه التقريب .

وهو يبدأ بوصف نزع الموت وكربه وسكراته ، ومعاينة وجه ملك الموت وما يحمله من بشرى بالثواب والعقاب ، ثم يصف لنا الجلوس لسؤال الملكين وانفراج القبر عن الجنة أو النار ليعلم كل فرد مكانه في الآخرة ، وبعد ذلك يأخذ وصف الحشر ، ونداء المنادى للعرض على الله ﷻ ، وانشقاق السماء واجتماع حر الشمس ، وفيضان العرق ، وانشغال الفرد بنفسه وفرار الإنسان من أهله الذين كانوا يؤنسونه في دنياه ، وفراره من أولاده الذين كانوا قرة عينه في الدنيا ، وذلك لما يحمله هذا اليوم من أهوال عظيمة

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية (١٩٨٨م) . (٢١٦ ص) .

يشيب لهولها الولدان .

ثم يحدثنا عن توجه الخلائق لسيد الخلق أجمعين ، سيدنا محمد ﷺ وتعلقهم به ليشفع لهم عند بارئهم ، بعد أن لم يجدوا ضالتهم عند بقية الأنبياء ، ويصف لنا وقوف العبد بقلب مرعوب خائف وجوارح مرتعدة بين يدي رب رحيم عظيم .

وينتقل بعد ذلك إلى وصف المرور على الصراط ، وعذاب جهنم ، واستغاثة أهل جهنم (وأنى لهم من مغيث) ، ويصف لنا في مقابل ذلك ما أعده اللّٰه لعباده المؤمنين من الجنات والمساكن الطيبة ، واجتماع الأهل والولدان ومواكب الحور العين ، والخيام وفرشها وزرابيها ، والأرائك ، والإستبرق والديباج ، واكتمال المسرات ، والاشتغال بالنعيم والتمتع به ، وما أعد اللّٰه لأهل عباده ، وأحبائه من خلقه ، ووصف مائدة الرحمن ، ورفع الحجاب ، وظهور المولى ﷻ بكماله على صفوته وخاصته ، وأثر ذلك في مضاعفة حسن وإشراف من اختصهم اللّٰه بحبه وقربه .

وهو في ذلك يصف وصفًا ترغيبيًا وترهيبيًا ، مصورًا هذه المشاهد تصويرًا دقيقًا يفزع منها الكافرون والعاصون ، ويشتاق لها المؤمنون الصالحون الذين وثقوا بربهم واشتاقوا للقائه . (جعلنا اللّٰه منهم) .

وللمحاسبي كتاب آخر باسم « التوهم » ، تحدث فيه عن شعور أهل النار وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من أهوال وعذاب (نسأله السلامة والعافية) ، كما تحدث فيه عن شعور أهل الجنة وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من تكريم وجزيل الثواب .

* * *

آداب النفوس [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

الكتاب – في الواقع – عبارة عن كتابين ، يقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط يضم بين دفتيه مقدمة الطبعة الثانية لفقه أعمال القلوب ، ثم مقدمة الطبعة الأولى وهي عن الإمام المحاسبي ومدرسته ، وهي دراسة وافية عن نشأته وعصره ، ثم تحليل لملامح شخصيته ومحاولات تشويهه ، ومقامه في العلم والمعرفة بالإضافة إلى نبذة عن كتاب آداب النفوس وتشمل أهميته ومنهج التحقيق ، وبعد ذلك الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب وتحتل ١٤٦ صفحة ، ثم يلي ذلك كتاب التوهم للمحاسبي من صفحة ١٤٧ وحتى صفحة ٢٠١ وبقية الكتاب تحوي فهرسًا تحليلًا لكتاب التوهم ، ثم مجموعة فهارس ، منها فهارس للآيات القرآنية وفهرس للأحاديث النبوية والآثار وفهرس للأعلام ومراجع التحقيق ، وأخيرًا فهرس لمحتوى الكتاب .

الموضوع الرئيسي في الكتاب كما ورد في المقدمة التي كتبها المحقق ، هو الإحسان ومناهجه ، حيث تعرض فيه المحاسبي لبعض القضايا الخافية على العلماء والطلاب ومنها :

١ – علاج المشكلات من أصولها ؛ لأن الأصل يأتي على الفرع .

٢ – وجوب تطهير النفس من خلائق السوء .

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية (١٩٨٨م) . (٢١٦ ص) .

٣ - وجوب التفرقة بين العدل والفضل .

٤ - أن أكثر ما في الحياة بلاء واختبار للإنسان .

٥ - الكشف عن عقد النفس ، وقوامها حب الدنيا وعشقها واتخاذها غاية .

٦ - جماع الإيمان كله في ذكر الآخرة والميعاد والموت وما بعده .

فإذا نظرنا إلى الموضوعات بشيء من التفصيل وجدنا أن هذا الكتاب يضم ٢٨ موضوعًا رئيسيًّا بخلاف بعض الموضوعات الفرعية التفصيلية .

وفي بداية الموضوعات يحدثنا المحاسبي في موضوع معاملة اللّٰه عن أعمدة هذه المعاملة فيرى أنها تركز على تقوى اللّٰه ، والإيمان به ، والشكر له ، والصدق في القول والفعل والتوكل على اللّٰه ، والخوف منه ، والقيام بفرائضه ، واتباع سنة نبيه ، وكذلك يحدثنا عن حقيقة التوسل بالصالحين ، وهو موضوع يطرقه أكثر من مرة ، ثم يرسم لنا استراتيجية لسياسة النفس ، وسياسة القلب ، فسياسة النفس تكون بتصحيح السرائر ، واستقامة الإرادة ، وصدق النية ، ومفاتشة الهمة ، ونقاء الضمير ؛ وسياسة القلب تكون بالقناعة والرضا ، والزهد ، والبُعد عن الطمع ، ومراقبة اللّٰه تعالى ؛ لأنها الأعمال التي يزكو بها القلب ولا يستغني عنها وكذلك الإخلاص ، والثقة ، والتواضع ، والاستسلام ، والحب في اللّٰه ، والبغض فيه ، والصبر ؛ ويحثنا المحاسبي على معرفة النفس وتفقد أحوالها باستمرار ، وقهرها على طلب الآخرة ، وتحصيل الخوف من اللّٰه تعالى ، ثم يقارن بين عمل اللسان والقلب ويحذرنا من خطر اللسان ، وينبهنا إلى وجوب الخوف منه .

● وهو في حديثه هذا يطرق بشكل غير مباشر كثيرًا من الصفات والخصال الإيجابية والسلبية ، والتي تشكل في جملتها ما يمكن أن نسميه إطارًا عامًّا للشخصية Personality (أحد الفروع التي تدرس في علم النفس الحديث) فهو يحدثنا بشكل غير مباشر عن سمات كالمثابرة ، والرضا ، والثقة بالنفس (وباللّٰه) ، وضبط النفس بالتحكم في اللسان ، ويحدثنا عن الانفعالات كالخوف ، والحزن والغضب ، وهي أيضًا موضوع من موضوعات علم النفس العام (ص ٣٤ - ٤٤) .

كما يحدثنا المحاسبي أيضًا عن العدل والفرق بينهما ، وصفات أهل العدل هي العلم ، والفعل ، والصبر ، ويربط بين التطهير والعمل ، وأهمية التطهر من الآفات قبل العمل ... ، ويرى أن التطهير هو الانتقال من الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير ، ولذا ينبغي أن يسبق العمل ، ويحذرنا كذلك من الشيطان الذي يضل الناس بالشر

والخير ، ويحدد الخصال التي يطلب منها الخير ، كالصواب والصدق ، والشكر ، والرجاء بأنواعه الثلاثة ، ويشير إلى مبدأ التفاوت في الشكر (وهو بذلك يقر مبدءًا مهمًا هو مبدأ الفروق الفردية ، وهو أحد المبادىء المبكرة التي التفت إليها علماء النفس في دراساتهم) (ص ٤٥ - ٥٣) .

وينتقل بنا المحاسبي بعد ذلك إلى الحديث عن البلوى والاختبار ، ويركز الحديث على شهوات المطعم والملبس ، وأشكال الفتن الأخرى ، سواء كانت في الناس أو في العمل ، ويحذرنا من فتنة البر والإثم جميعًا . وهو مع ذلك لا يزهد الناس في طلب أعمال البر ، وإنما يريد التحذير من خداع الشيطان ، وهوى النفس الأمارة بالسوء ، ويستعين في ذلك بعدد غير قليل من الآيات القرآنية ، ولعل حديثه عن الشهوات كالمطعم والمشرب والنكاح يمثل مقدمات مبكرة وغير مباشرة لما يدرس في علم النفس الحديث تحت موضوع الدوافع Motives أو الدافعية Motivation خاصة الدوافع الفطرية أو الأولية (ص ٥٤ - ٥٦) ؛ كما أن حديثه عن أشكال الابتلاء والاختبار من الفتن المختلفة يقابل - بشكل غير مباشر - ما يدرس الآن في علم النفس ، تحت موضوع المشقة Stress ، ومثيراتها Stressors وما تسببه للإنسان من سوء التوافق (ص ٥٥ - ٥٩) .

ويعود بنا مرة أخرى للحديث عن مراجعة النفس ، فيرى أن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وذلك عكسه عند معرفة عيوب الناس (ولعل لفظ أبله هو أحد المفاهيم التي كانت تطلق على فئات التأخر العقلي Mental Retardation ، وتصنيف المتأخرين عقليًا ، وإن كانت هذه المفاهيم قد اختفت تدريجيًا ، وأصبح المفضل الآن استخدام أوصاف كمية - لا كيفية - على أساس درجات الذكاء Intelligence) (ص ٦٠) .

ويؤكد المحاسبي في توجيهاته القيمة سلوك المراجعة والتفتيش للوقاية من الزلل ؛ ولأنها أساس السلوك الصحيح ، ويرى أن من لوازمها الانتباه وعدم الغفلة ، وحديثه هنا يلقى ظلالًا مبكرة على أحد الموضوعات النفسية - ولو بشكل غير مباشر - ألا وهو موضوع التروي والتأمل Reflectiveness كمقابل للصفة الاندفاعية Impulsivity والذي يدرس ضمن سمات الشخصية ، ويدرس أيضًا في الجانب المعرفي (كما أن موضوع الانتباه Attention يدرس في علم النفس العام) ويعود مرة أخرى وفي موضع آخر للحديث عن كظم الغيظ وهو ترجمة سلوكية واضحة للتروي أو عدم الاندفاع (ص ٦٠ - ٦٤ ، ٨٣ - ٨٤) .

وفي موضوع آخر يحدثنا المحاسبي عن اليقين والعز ، ويرى أن العز في النفس أصل مرض القلوب من قبيل الكبر ، والفخر ، والغضب ، والحسد ، والحقد ، والحمية ، والعصبية ، وهي صفات إن زادت عن حدود معينة عُدت اضطرابات نفسية وجب علاجها ، ولذلك يقدم المحاسبي من جانبه وسائل علاج العز ، وهي وسائل أخروية في مجملها ، ويقول تحت عنوان فقه التجارب والعناية بالنفس : « إن من أهمل العناية بنفسه ، ورزق فهم التجربة ، بلغ معرفة الخير والشر ، وفهم ، وفطن ، ونطق بالحكمة ، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ، ودقائق مظنته ، وسر حاجته » ، وهي كلها صفات حسنة ، وفوائد جمة ، وجب اكتسابها والتحلي بها .

وينتقل بنا المحاسبي بين عدد من الموضوعات فيحدثنا عن الغفلة واليقظة ويرى أن الغفلة من أكثر الخصال ضررًا ، أما التيقظ فهو أصل كل خير ، ويزلف بنا كذلك إلى الإخلاص والرياء ، وعلوم النجاة ، والإرادة والصدق والهوى ، ودلائل وعلامات ، وعلم الخوف والشوق ، ومراتب العمل لله ، وفي كثير من هذه الموضوعات نرى إرهاصات مبكرة لمفاهيم تمثل الآن موضوعات تدرس في علم النفس الحديث مثل : حديثه عن التيقظ (ص ٨٥ - ٨٨) وكذلك حديثه عن الصداقة والأصدقاء وهو ما يدرس في علم النفس الاجتماعي **Social Psychology** تحت المهارات الاجتماعية Social Skills (ص ٩٢) ، أو الدوافع ، والانفعالات (ص ٩٣ - ٩٤) ، (وقد سبقت الإشارة إليها) وكذلك موضوع التذكر والنسيان (ص ٩٣) ، ثم النصح وهو يقترب إلى حد كبير من أحد موضوعات علم النفس الحديث وهو الإرشاد Counseling (ص ٩٣ - ٩٤) .

ومن الموضوعات المهمة التي يتطرق إليها المحاسبي ، موضوع محاسبة النفس ويركز فيه على اختبار النفس في المعرفة والسلوك ، وهو هنا يحدد موضوع علم النفس كما يعرف الآن ، بأنه علم السلوك ، بل إنه يشير إلى أحد أهم الموضوعات التي يشملها وهو موضوع المعرفة Cognition (ص ٩٥ - ١٠٢) ، والذي أصبح أكثر تبلورًا الآن فيما يسمى بعلم النفس الحديث خاصة فيما يتصل بمناهج البحث فيه **Methodology** ألا وهو « الاختبار » والاختبارات **Testing & Tests** والقياس **Measurement** بصفة عامة ، فهو يقول : « اختبر نفسك حتى تعلم ما فيها ، وإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها ، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة ... » (ص ٩٥ - ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٣٦) .

ويختتم كتابه هذا بموضوعين في غاية الأهمية ، هما السلوك السلفي ، وفرائد

الحكمة ، وفيهما يقدم عددًا من الهوايات وأشكال السلوك ، والتوجيهات الغالية ، التي تدل على قدر علمه ومعرفته وتمثل خلاصة لفكره ورؤيته وبصيرته النافذة .

* * *

رسالة المسترشدين (١)

عرض : د . طريف شوقي

عرض الكتاب :

تقع الرسالة في ٢١٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويشمل تقدمة الطبعة الثانية ، ثم تقريظ الكتاب للطبعة الأولى من الشيخ حسنين مخلوف ، وتقدمة الطبعة الأولى ، وترجمة المؤلف ، ومؤلفاته ثم الرسالة ، ويليها مجموعة من الفهارس .

يبدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، ثم ينتقل ليصف عباد الله أولي الألباب العالمين به ، وأن من رغب الوسيلة إليه عليه بالتزام منهجهم القائم على اتباع حدود الشريعة والسنة والإجماع ، ويفيد هذا الكلام في أن المحاسبي يرى أن أمر الاهتداء إلى الله تعالى وصلاح النفس لا يتوقف على التزام شيخ وبيعة ، وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذي أمر الله به وتضمنه الكتاب والسنة وسلوك سلف الأمة ، وأهمية هذه المقولة في أنها تضع المحاسبي في موقعه الصحيح وينفي ما يشاع عن الصوفية من ضرورة اشتراط أن يتخذ السالك إلى الله تعالى شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه (٢) .

---

(١) حققه وخرج أحاديثه عبد الفتاح أبو غدة . (ط ٦) . مزيدة . حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية (١٩٨٥م) . (٢١٩ ص) .

(٢) يذكر المحقق أن ابن عباد النفري خطيب جامع القرويين بفاس في القرن السابع الهجري قدم توضيحًا لهذه المسألة ردًا على سؤال موجه من الفقيه أبي إسحاق الغرناطي حول ضرورة وجود شيخ يرشد السالك ، حيث أجاب عليه بأن الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين :

شيخ تربية : وهو ليس بضروري لكل سالك ، وإنما يحتاج إليه من فيهم استعصاء نفسي ، فحجب أنفسهم =

ويمضي المحاسبي في موعظته البليغة تلك فيتحدث عن النية وضرورة فحصها ، والخطرة ومحاسبة النفس عليها ، ويسوق المحقق كلامًا في غاية الدقة والنفاسة للإمام ابن القيم في كتابه « الفوائد » حول الخطرة والفكرة هذا نصه « دافع الخطر ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدافعها صارت فعلًا ، فإن لم تتداركه بضده صار عادة ، فيصعب عليك الانتقال عنها ، واعلم أن مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار ؛ فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تعطي العادة » (ص ٤٧) .

نلمس في هذه السلسلة المتعاقبة من المفاهيم التي تبدأ بالخطرة ، ثم الشهوة ، فالفعل فالعادة ، ذلك التصور المعاصر لمكونات السلوك وتفسير نشأة العادات ، حيث يبدأ بالإدراك ، فالوجدان ، فالنزوع ، فالعادة ، وتتوالى نصائح الإمام المحاسبي لما يجب على المسترشد أن يتحلى به من مناقب فيذكر نقلًا عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « لا يستحي الذي لا يعلم أن يسأل حتى يعلم ، ولا يستحي من يُسأل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم » (ص ٤٩) .

ويمثل لب هذه الحكمة ما يطلق عليه في بحوث السلوك التوكيدي : معرفة قدر النفس والتي تتضمن : الاعتراف بعدم المعرفة ، والقدرة على طلب استفسارات من الآخر ، وتعد من بين المهارات الأساسية في السلوك التوكيدي .

ويوجه كلامه للسالك قائلًا : « اشتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك » (ص٥٠) وفي هذا الصدد يذكر عبد الله بن وهب القرشي المهري في كتابه ترتيب المدارك للقاضي عياض : « جعلت على نفسي كلما اغتبت إنسانًا صيام يوم ، فهان عليَّ ، فجعلت عليها كلما اغتبت إنسانًا صدقة درهم فثقل عليَّ وتركت الغيبة » (ص ٥١) .

ونلمس في هذا الأسلوب ملامح عملية التصحيح الذاتي والتي تقع فيها مسؤولية تعديل السلوك على الفرد نفسه من خلال فرض غرامات تحثه على الكف عن سلوك معين .

= كثيفة ، وهم بمنزلة من به علل مزمنة ، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة .

شيخ تعليم : وهو لازم لكل سالك ، ومنه يقتبس العلم ، ويصلح الحال بطريقة الصحبة والمؤاخاة (الاقتداء) (المحقق ص ٤٠) . حين تنظر إلى مصطلح التربية عند النفري نخاله ينطوي على عملية تعديل سلوك مستمرة يقوم بها الشيخ ليضع مريده في الاتجاه المطلوب ، وهذا مما يتسق مع التعريف المعاصر لعملية التربية حيث تعني : « التغيرات التي تطرأ على معارف الشخص واتجاهاته وسلوكه كنتيجة لتعرضه لخبرات منتظمة » .

ومن بين نصائح المحاسبي : « جُل في الحشر بقلبك » ، (ص٧٣) أي استحضر ما خفي من أحوال يوم القيامة ، حتى يكون لك في ذلك عظة ودافعًا على الصلاح ومخافة الله واتقاء معاصيه ، وجدير بالذكر أن للمؤلف كتابًا كاملًا في هذا المعنى سماه « التوهم » تحدث فيه عن شعور أهل النار وأهل الجنة ، حتى كأنك تراهما رأي العين (ص ٧٣) .

حين ندقق النظر في مفهوم الاستحضار من منظور الدراسات النفسية يبرز إلى الأذهان مفهوم التخيل Imagination الذي يُعرف بأنه « معالجة الأفكار أو الصور ذهنيًا دون أن يكون الأصل الواقعي للموضوع ماثلًا في دائرة إحساس التخيل » .

وينادي المحاسبي بضرورة « أن يحذر الفرد ضراوة الشهوة وأن ينظر في عاقبتها » .

ويُفصِّل ابن القيم في كتابه « الفوائد » ذلك التوجيه بقوله : « اعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإن الشهوة : إما أن توجب ألمًا وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تُطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك ، وإما أن تشمت عدوًّا ، وتحزن وليًا ، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة » (ص ٨١) .

وهذا الكلام قريب الشبه بمفهوم توقع عواقب السلوك Anticipation of Consequencc ، والذي يعرف بأنه « القدرة على الاستبصار بما سيحدث كنتيجة مباشرة لتنفيذ فعل معين » ويفترض أن الفرد يزن العواقب التي يتوقع أن تنتج عن سلوكه ، وأنه يزن في الوقت نفسه آثار الأفعال البديلة ، قبل أن يقرر كيف سيتصرف . ويوصي المسترشد قائلًا : « خذ بحظك من العفو والتجاوز » أي إذا وقعت خصومة مع إنسان فالعفو والتجاوز خير من الاستمرار واللدد في الخصومة ، فالخصومة تمحق الدين ، وتشغل العقل ، وتقتل طمأنينة القلب والخاطر ، وتقض المضاجع » (ص ٩٠) .

وتذكرنا هذه المقولة بأساليب تخفيض التوتر والقلق النفسي التي يصطنعها الباحثون في الإرشاد النفسي لخفض التوتر .

ويدعو إلى « غض البصر عن المحارم ، وترك التطلع فيما حجب وستر » وينادي بضرورة لزوم الجماعة ، ويقدم أبو شامة في كتاب « الحوادث والبدع » تفصيلًا لطيفًا لمفهوم الجماعة حيث ينقل قول عبد الله بن مسعود إلى عمرو بن ميمون أتدري ما الجماعة يا عمرو ؟

قلت : لا ، قال : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وقال نعيم بن حماد : إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ ، وكذلك قال ابن القيم في إعلام الموقعين إن كان الناس كلهم إلا واحدًا خالفوا الحق فهم الشاذون ، وذلك الواحد هو الجماعة (ص ١٢٦ - ١٣٠) .

حين نفحص هذه التصورات في ضوء المفاهيم النفسية الحديثة في مجال بحوث ديناميات الجماعة نجدها على صلة وثيقة بمفهوم الجماعة السيكولوجية Psychological Group ، وهي التي تلتزم بالمعايير والأهداف التي يرغبها الفرد والتي يتمنى إليها حتى وإن لم يكن لها وجود فعلي في ذلك الوقت ، أو لم تتح له فرصة الانضمام إليها بعد ، وكذلك يشير إلى مفهوم مواجهة ضغوط الجماعة Group Pressure ويتطرق إلى بيان قيمة الوقت حين يقول : « حصل الأوقات ، واعرف ما يذهب به ليلك ونهارك » .

فالوقت رأس مال الفرد وعليه أن يكسبه ولا يضيعه من غير استفادة أو إفادة ، ويذكر المحقق بعض الوقائع التراثية التي تفصح عن مدى إدراك الأولين لقيمة لا وقت وتبينهم لها كقيمة جوهرية ، فيذكر أن المؤرخ الخطيب البغدادي كان يمشي وفي يده جزء يطالعه ، كسبًا للوقت حتى في أثناء المشي ، وإن ابن عقيل الحنبلي كان يقول : إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي ، وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى اختار صنف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توافرًا على مطالعة ، أو تسطيرًا لفائدة لم أدركها فيها (أي أنه لا يريد أن يطيل مدة طعامه حتى يوفر الوقت لأداء شيء آخر) .

ويقول ابن الجوزى في كتابه « صيد الخاطر » : « أعددت أعمالًا لا تمنع من المحادثة ، لأوقات لقائهم (الثقلاء الذين يطلبون الزيارة ويكثرون منها) ؛ لئلا يمضي الزمان فارغًا فجعلت للاستعداد للقائهم قطع الكاغد (الورق) وبري الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ؛ لئلا يضيع من وقتي شيء » ، (ص ١٤٤ - ١٤٦) ، ثم يتحدث عن الذنوب « وكيف تورث الغفلة » ، ويذكر المحقق أقوالًا طيبة لابن الجوزي في كتابه « صيد الخاطر » في الدعوة إلى ترك الذنوب حيث يقول : « لا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة ، فأما المؤمن

اليقظان فإنه لا يلتذ بها ؛ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علمه بتحريمها ، وحذره من عقوبتها ، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي - وهو الله - فيتنغص عيشه في حال التذاذه ، فإن غالبه سكر الهوى كان القلب متنغصًا بهذه المراقبات ، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ، ثم خزي دائم ، وندم ملازم ، وبكاء متواصل ، أسف على ما كان ، ومع طول الزمان ، حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العقاب » (ص ١٥٩ - ١٦٠) .

تشير عبارات ابن الجوزي إلى ما يطلع عليه في بحوث تعديل الاتجاه عدم الاتساق بين المكون المعرفي والسلوك ، وكيف أن إثارة مثل هذا التناقض بين ما يعتقد الفرد ويعرفه ، وبين سلوكه الحالي الذي يتعارض مع مقتضيات هذه المعرفة من شأنه أن يسهم في إثارة حالة من عدم الارتياح والقلق تعمل على كف الاستجابة ، ويستفاد بهذه العملية - الحد من عدم الاتساق أو تعميقه - في تعديل السلوك في الوجهة المرغوبة .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم قول المحاسبي : « من ألف هواه قل أدبه » ، (ص ١٦٠) حيث إن هذا الإحساس بالتناقض يتناقص مما يجعله يستمرئ ما يفعل من سلوك غير مرغوب ويقيم عليه .

* * *

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)
البيان والتبيين : الكتاب الثاني [1]

عرض : د . طريف شوقي

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، وسمي بالجاحظ لجحوظ عينه ، وهو ينسب إلى كنانة ، وكان جده « محبوب » يعمل حمالاً لأحد سادات بني كنانة من أهل البصرة .

ولد الجاحظ سنة (١٦٠هـ ، ٧٧٧م) وتوفي سنة (٢٥٥هـ ، ٨٦٨م) ، وكانت مدة حياته قرابة قرن من الزمان ، وهو أزهى عصور اللغة العربية ، حيث نضجت فيه العلوم العربية والإسلامية ، وتمت ترجمة العلوم .

وقد نشأ الجاحظ بالبصرة ، وكان يتكسب بيده ، وأقبل على العلم واللغة والأدب بأخذها عن أئمة البصريين ، وبلغ في سعة ثقافته ، وعمقها حدًّا لم يبلغه أحد في عصره ، فقد شملت أكثر معارف زمانه على اختلاف ألوانها وتعدد منابعها .

وتميز الجاحظ بذكاء نافذ وصبر غريب وذهن لاقط وحافظة أمينة ، فأخذ عن علماء عصره كل في فنه ، أخذ اللغة والأدب عن الأصمعي ، وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، والنحو على الأخفش ، والحديث عن حجاج بن محمد وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة .

وتثقف الجاحظ ثقافة الاعتزال وكان أهم أستاذ له في ذلك إبراهيم بن سيار النظام ،

---

(١) تحقيق عبد السلام محمد هارون – (ط ٥) . القاهرة : مكتبة الخانجي (١٩٨٥م) .

وكان الاعتزال يتطلب من رجاله علمًا واسعًا بالديانات الأخرى ؛ لأن المعتزلة نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الإسلام .

كما اندمج الجاحظ في الحياة الواقعية واستفاد من كل شيء يقع تحت حسه موضعًا للدراسة ، فالحيوانات والنباتات والصناع والفكاهات والرحلات والكرماء والبخلاء والأذكياء والأغبياء – كذلك كله كان موضعًا لدرسه وكتابته ، ثم تنقل في أوساط اجتماعية مختلفة نمت معارفه وزادت تجاربه فقد خالط الباعة والمجانين وجالس الشعراء والأدباء ونادم الملوك والوزراء وغيرهم .

وتميز الجاحظ بسهولة العبارة وتقطيعها جملًا قصارًا متعادلة ، وكان يستطرد إلى ما له صلة بالموضوع من لذيذ الأخبار وطريف الأحاديث وممتع النوادر تنشيطًا للقارئ وترفيهًا عن نفسه ، وبدأ ذلك موضحًا في كتبه المطولة كالحيوان ، كما كان يميل إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والاستشهاد بالشعر والأخبار ، وتميز كذلك بدقة الاستقصاء في وصف ما يريد .

وفيما يتعلق بمؤلفات الجاحظ ، فليس هناك اتفاق على عددها ، فالبعض يذهب إلى أنها تصل إلى مائتين وخمسين كتابًا ، ويرى البعض الآخر أنها تصل إلى مائة وسبعين مؤلفًا ، ومن أشهر هذه المؤلفات : « الفرق بين النبي والمتنبي » ، « دلائل النبوة » ، « البيان والتبيين » ، « البخلاء » ، « كتاب الطفيليين » ، « الحيوان » .

ترجمة الجاحظ في : كتاب الحيوان للجاحظ – تحقيق : عبد السلام محمد هارون .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء يضمها مجلدان إجمالي صفحاته ١٤٩٦ صفحة ولكل جزء فهرس مستقل ، كما يضم في نهاية الجزء الرابع عدة فهارس منها فهرس البيان والبلاغة ، وفهرس الخطب ، وفهرس الرسائل ، وفهرس الوصايا ، وفهرس الأشعار ، وفهرس الأرجاز ، وفهرس الأمثال ، وفهرس اللغة وهو ينقسم إلى قسمين ، وفهرس الأعلام ، وفهرس القبائل والأمم والطوائف ، وفهرس البلدان والمواضع والمياه ، وفهرس أيام العرب ، وفهرس الحضارة ، وفهرس الكتب ، وفهرس مراجع الشرح والتحقيق وأخيرًا فهرس عام .

الجزء الأول :

يركز في هذا الجزء على تعريف البيان والبلاغة وأبرز من نبغ فيهما ، ويقدم نماذج

لأقوالهم بالإضافة إلى مجموعة من خطب السلف ، ومواعظ النساك .

ويبدأ الجاحظ كتابه بالحديث عن البيان :

١ - **البيان** : في مقدمة هذا الجزء يعرف الجاحظ البيان بأنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وإن البيان ترجمان العلم ، ومن شأن البيان والمبالغة في وضوح الدلالة أن يجعل الأعناق للمتكلم أميل ، والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع ، ويقدم لنا نموذجًا من المبرزين من أهل البيان ، وهو العالم واصل بن عطاء ، « والذي كان يعاني من لثغة في الراء » (ينطق الراء غينًا) ، وحيث إنه كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة (المعتزلة) ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل الأخرى ، حيث إن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإبانة الوزن ، ولذا فإنه من أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، حتى انتظم له ما حاول ، واستحق له ما أمل (ص ١٣) حتى صار لغرابته مثلًا ، ولطرافته معلمًا ، فقد كان يطيل خطبه ويتجنب الراء فيها على كثرة ترددها في الكلام ، حتى إن له خطبًا يطلق عليها الخطب الرائية (أي التي تخلو من حرف الراء) .

وأفرد الجاحظ فصلًا للحديث عن الحروف التي تدخلها اللثغة : وهي القاف (تنطق طاء) ، والسين (تصبح ثاء) ، واللام (فتكون ياء) ، والراء (وتنطق ياءً أو غينًا أو ذالًا) ، وذكر طائفة من الشعراء والأدباء الذين عانوا من نماذج من تلك اللثغات ، وساق أمثلة من أقوالهم الدالة على ما بهم من لثغة (ص ٣٤ - ٤٠) ، ويندرج حديث الجاحظ في هذا السياق تحت الموضوعات المهمة في مجال العلاج السلوكي ألا وهو عيوب الكلام ، وما ذكره عن محاولات واصل بن عطاء للتغلب على ما فيه من لثغة يشير إلى أحد الأساليب التي يمكن استخدامها في التعامل مع تلك العيوب .

ويمضي في الحديث عن الخطباء والشعراء البارزين في عصره سواء كانوا عربًا أو مولدين (ليسوا ذوي أصول عربية صرفة) ويقدم نماذج من خطبهم وأشعارهم ، ويتحدث عن خصال بعض من عرفوا بالنبوغ في البيان ومنهم الأحنف بن قيس وكيف أنه كما قال عبد الله بن عمير : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة ، فما رأيت خصلة تذم في رجل إلا وقد رأيتها منه : كان أصلع الرأس ، أحجن الأنف ، أغطف (مسترخ) الأذن ، متراكب الأسنان ، ناتئ الوجنة ، باحق (إن تخسف العين بعد العور) العين ،

ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه ، ويعقب الجاحظ بقوله : على أن عبد الملك لو استطاع أن يمنعه البيان أيضًا لمنعه ، ويردف متعجبًا : أمثل الأحنف يقال : « إلا أنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه » ، (كناية عن شدة مهارته وذيوع شهرته كخطيب بارع) (ص ٥٦) . ونشير - في هذا الصدد - إلى ملاحظة واجبة ، حيث إنه من بحوث الاتصال يشار إلى أن الجاذبية البدنية للمصدر Source Physical Attractiveness والمظهر العام للمصدر ذات أهمية في زيادة التأثير على المتلقي ، وخاصة حين يكون المصدر ذا هيئة جذابة ومهندمًا .

إلا أن ما نلمسه من عمليات الاتصال في مجتمعاتنا - الشرقية - يشير إلى أن المظهر العام للمصدر لا يشكل هذا الثقل من الأهمية ، فرب متحدث ذي هيئة غير مألوفة وغير مهندمة ، (أصحاب الدعوات الدينية) يكون أكثر تأثيرًا في المتلقين من ذوي الهيئة الجذابة ، حيث يفترض أن هذا التأثير يتوقف على متغيرات أخرى كثيرة مثل مضمون الرسالة ، وأهمية موضوعها ، والخصال العقلية للمصدر ، وثمة صدى لهذا التصور لدى الجاحظ الذي يقول رأيًا ذا وجاهة لسهل بن هارون في مسألة خصال المصدر حيث يقول : « لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا وكان أحدهما جميلًا جليلًا بهيًا ولباسًا نبيلًا ذا حسبًا شريفًا ، وكان الآخر قليلًا قميئًا ، وباذ الهيئة دميمًا ، وخامل الذكر مجهولًا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة (سوى بين المتغيرات الداخلية) وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهم الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به ، ولصار التعجب منه سببًا للعجب به ؛ لأن النفوس كان له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، فإذ هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه في صورهم ، وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع (ص ٨٩) .

ويطرح الجاحظ جانبًا آخر للموضوع وهو متغيرات المتلقي التي تؤثر في استقبال كلام المصدر حين يقول : « إذا كان الخليفة بليغًا والسيد خطيبًا ؛ فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهم على أمرين : إما رجلًا يعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل على قدر حالهما في نفسه ، وإما رجلًا تعرض له التهمة لنفسه فيهما ، والخوف من أن يكون تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ، ما ليس عندهما ، حتى يفرط

في الاتفاق ، ويسرف في التهمة ، فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته في نفسه ولإشفاقه أن يكون مخدوعًا في أمره ، فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ فالبعض أيضًا يعمي عن المحاسن (ص ٩٠) .

ويتحدث عن الإشارة وأهميتها بقوله : الإشارة واللفظ ، وعن الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضره ، في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ، يخفونها عن الجليس ، وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب ألبتة (ص ٧٩) .

والحديث عن الإشارات الاجتماعية Social Signs وأهميتها يندرج في أحد المباحث التي تكتسب أهمية خاصة في علم النفس الاجتماعي ألا وهو : أساليب التخاطب غير اللفظي ، وكيف أن تدريب الفرد وتنمية مهاراته في استخدامها تجعله يمارس عملية التخاطب على نحو أكثر كفاءة أو على حد قول الجاحظ : « وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان واللسان (ص ٧٩) ، ثم ينتقل إلى مجال آخر شديد الصلة بالأول وهو :

٢ - **باب البلاغة والبلغاء** : يُفرد الجاحظ فصلًا للحديث عن البلاغة ويقدم تعريفات متنوعة لها كل منها يحوي أحد عناصرها ، بيد أنه بالإمكان أن تتكامل تلك التعريفات معًا لتقدم تعريفًا شاملًا للبلاغة ، ويعرض أيضًا سيرة مجموعة من الفصحاء والبلغاء الذين شاع ذكرهم في التراث الإسلامي ويقدم نماذج من أعجب أقوالهم مثل : القاضي إياس بن معاوية وربيعة الرأي ، والحسن بن سهل ، ويتحدث عن بعض الظروف والشروط التي يجب أن يراعيها المتحدث (المصدر) حتى يكمل تأثيره ، ومنها :

١ - مراعاة حالة المتلقين ، حيث يقول مطرف بن عبد اللّه : « لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه » وقال عبد اللّه بن مسعود : « حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم ، وأذنوا لك بأسماعهم ، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك » (ص ١٠٤) .

٢ - أن يصيب عين المعنى بالكلام الموجز : وفي هذا الصدد يقول جعفر بن يحيى لكتابه : « إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (ص ١١٤) أي كالبرقيات في الاختصار في توصيل المعنى .

٣ - اختيار الألفاظ الملائمة ، فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا ، وكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا ووحشيًا ، فالاستعانة بالغريب - كما قال أبو داود -

عجز (ص ٤٤) .

٤ - عدم التكرار : ويسوق في هذا المقام الحديث التالي : « جعل ابن السمال يومًا يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه ، لولا أنك تكثر ترداده . فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهمه » (ص ١٠٤) .

وقيل للعتابي : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة ، ولا استعانة فهو بليغ ، فقيل له : قد عُرفت الإعادة ، والحسبة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ويا هذا ، واسمع مني ، واستمع إليَّ ، وافهم عني ، وألست تعقل . فهذا كله وما أشبهه عي وحصار (ص ١١٣) ، ويعن لنا أن نشير إلى أن التكرار سلاح ذو حدين فإن أكثر منه المتحدث ليُفهم الجمهور غير المتجانس في مستوى الذكاء والقدرة على الاستيعاب ، ومدى الاهتمام ، والانتباه ؛ فإنه - على سبيل المثال - سيجعل الأكثر ذكاء أسرع مللًا والأقل ذكاء أكثر فهمًا ، أي أن التكرار ليس مشكلة في حد ذاته ، ولكن تأثيره يتوقف على طبيعة الجمهور .

ويبدو أن الجاحظ يتبنى موقفًا يقترب من هذا التصور الذي تطرحه الدراسات النفسية الحديثة حيث يقول : « وجملة القول في الترداد ، أنه حد ينتهي إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص » (ص ١٠٥) ، ويذكر كلامًا مفيدًا لبشر بن المعتمر في تعليم فنون الخطابة (ص ١٣٥ ، ١٣٩) ، ويسوق نماذج سلبية لمن لا يحسنوا الخطابة ويلحنون في القول والناشئ عن غلبة الأجناس غير العربية الذين دخلوا الإسلام ولم يفقهوا لغته وأثر ذلك على صعوبة الفهم والإفهام ، ويذكر بعض المفردات غير العربية التي تسللت إلى اللغة .

٣ - باب ذكر ما قالوا في مديح اللسان : وفيه يتحدثَ عن أهمية الاختصار في الكلام ، والبعد عن الفضول ، وفي فوائد الصمت وكلام الحكماء ، والأخبار المروية في هذا الشأن مثل قول أبي العتاهية :

والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

ويحض على تنمية القدرة على البيان والخطابة بقوله :

« أنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في تعلم المشاكلة : ولا تهمل طبيعتك فيستولي

الإهمال على قوة القريحة ، ويستبد بهما سوء العادة ، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل ، فلا تقصر في التماس أعلاها سورة (المنزلة الرفيعة) وأرفعها في البيان منزلة ، ولا يقطعنك تهيب الجهلاء ، وتخويف الجبناء » (ص ٢٠٠) .

ويعرج إلى سيكولوجية الإبداع الفني لدى الشعراء حيث يقول : « فالشاعر قد تختلف حالاته ، وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت عليَّ ساعة ونزع ضرس أهون عليَّ من أن أقول بيتًا واحدًا ، ويقول العجاج : لقد قلت أرجوزتي وأنا بالرمل في ليلة واحدة ، فانثالت عليَّ قوافيها انثيالاً ، وإني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة ، فما أقدر عليه » (ص ٢٠٩) .

٤ - باب في الخطب القصار من خطب السلف ، وتأديب من أدب العلماء : حيث يسوق بعض الكلمات المأثورة عن العلماء والحكماء التي تعكس وعيًا دقيقًا ، مثل قول الخليل : « تَكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » (ص ٢٥٨) وكيف أنه يميز بين التعرف والتذكر وكيف أن الأول أيسر وأكثر سعة ومجالاً من الثاني وقول بعضهم - بكر ابن عبد الله المزني - : « لا تكدوا هذه القلوب ولا تهملوها فخير الفكر ما كان عقب الجمام أي الراحة (فالاستيعاب والتذكر يكونان أفضل عقب فترات الراحة حيث يكون تأثير الكف السابق Retroactive Inhibition الناتج عن تعلم أو التعرض لمواد سابقة محدودًا) ، ومن أكره بصره عشى ، وعاودوا الفكر عند نبوات القلوب ، وأشحذوها بالمذاكرة (المراجعة الدورية) ، ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتحنتم ببعض الاستغلاق ، فإن من أدام قرع الباب ولج » (المثابرة) Persistence (ص ٢٧٤) . ومثل قول أسلم بن الأحنف للوليد بن عبد الله قبل أن يستخلف : « أصلح الله الأمير ، إذا ظننت ظنًّا فلا تحققه ، وإذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم فإذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا ذلك بك فيما لا تعلم ، ودُس من يسأل لك عما لا تعلم » (ص ٣٩٦) .

الجزء الثاني :

يورد الجاحظ في هذا الجزء مجموعة من خطب الصحابة والتابعين ورسالاتهم ، وبعض خطب للخوارج ، ويفرد أبوابًا للحديث عن الحمقى ، وأخطاء العلماء ، ونوادر المتكلمين ، ويبدأ ببيان فضل خطباء العرب وملوكهم ، ومدى جودة مقالاتهم ، وما تتصف به من محاسن الخصال ، ودقيق المعنى ، ويفصل القول في مراتب الشعراء

وطبقاتهم ، ومدى ما يعانوه من الكد لنظم أشعارهم ، ويذكر بعض أمثال العرب ويسوق بذكر طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ وما جرى منه مجرى الأمثال ، ويسرد بعض كلام سيدنا أبي بكر الصديق ، ورسائل سيدنا عمر سواء في الحكم أو القضاء لولاته وقضاته ، وسيدنا علي كرم الله وجهه ، وبعض الصحابة ، والتابعين ، ويورد الجاحظ في هذا السياق حديث عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده وهو ذو قيمة خاصة للمهتمين بمجال التعلم الاجتماعي حيث يقول : « ليكن ما تبدأ به إصلاحك بني إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك (التعلم بالاقتداء) Modeling . فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، علمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم » (ص ٧٣) .

ويسوق أحاديث متنوعة نرى فيها منظومة من القيم التي تبنتها الحضارة الإسلامية والتي كانت سببًا مباشرًا في بلوغ تلك الحضارة ما بلغته من مجد ، ونذكر فيما يلي طائفة من تلك القيم كما تعبر عنها أقوال أبناء تلك الحضارة .

١ - تحصيل العلم واحترام العلماء كان العرب يقولون أربع لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن وإن كان شريفًا أو أميرًا : ومنها خدمته للعالم (ص ٧٤) ، وقول الحسن : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول (ص ٢٩٠) .

٢ - قيمة تقدير العمل : يقول زياد : لو أن لي ألف ألف درهم ولي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يمتلك غيره ، وقال علي بن أبي طالب : قيمة كل امرئ ما يحسن ، وقال عمر بن الخطاب : حرفة يعاش بها خير من مسألة الناس (ص ٧٧ - ٨١) .

٣ - الاجتهاد والتفتح العقلي : قيل لعثمان البري : دلني على باب الفقه ، قال : اسمع الاختلاف ، ويقول أيوب السختياني : لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (ص ٩٨) .

ثم يدلج إلى السياسة وينقل بعض خطب أهل المعارضة من الخوارج مثل خطب قطري بن الفجاءة ، وأبي حمزة الخارجي ، واتهامهم فيها لخلفاء بني أمية بالاستبداد السياسي والفساد ، ويبدي الجاحظ تعجبه من موقف الناس من هؤلاء المعارضين وطعنهم فيهم رغمًا من حسن فعلهم وشدة تقواهم وينقل خطب من الجانب الآخر ؛

مثل : خطب للحجاج بن يوسف الثقفي والتي تعد نموذجًا لأدب الديكتاتورية أو أدب الطواغيت إذا جاز لنا أن نقول ذلك (انظر ص ١٣٧ - ٢٤٠ ، ٣٠٧ - ٣١٠) ، وتعكس هذه الخطب المناخ السياسي المتلاطم بالفتن في تلك العصور ، والذي شهد تدهورًا لقيم كثيرة حض عليها الإسلام وبعد عن عهد الإصلاح والاستقرار السياسي النابع من اتباع أصول الإسلام الرشيدة .

ولا ينسى الجاحظ أن يحدثنا عن دار الاستخراج أساسًا (التعذيب) وكيف كانت تستخدم في تعذيب المعارضين ، على الرغم من أنها كانت معدة لجباة الخراج لاستخلاص أموال الدولة من المتهمين باختلاسها من بين الوزراء والولاة .

باب أن يقول كل إنسان على قدر طبعه : ويقدم فيه تعريفات متعددة لبعض المفاهيم مثل : السرور ، والمروءة ، والزهد ، وبعض الأخبار الطريفة والملح التي كانت شائعة حينذاك (يلاحظ أننا نسمعها الآن ولكن بألفاظ مختلفة) .

باب النوكى (الحمقى) : وفيه يورد بعض أخبار الحمقى ونماذج من سلوكهم ، ويذكر أسماء أشهرهم ، وبعضًا من أخطاء العلماء سواء في الكلام أو الفتيا ، ونماذج من الكلام الغامض ، والعجز عن التعبير عن المراد ، ويقدم نماذج لما يحب أن يكون عليه الحديث من آداب تتناسب مع مكانة الموجه إليه .

وبالباب قصة طريفة عن العجز في اتخاذ القرار الناتج عن اللوائحية ، كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد عامله على المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : « إنه يخيل إليَّ أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلًا شاة لكتبت إليَّ : أضان أم ماعز ؟ وإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إليَّ : أذكر أم أنثى ؟ وإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إليَّ : أصغير أم كبير ؟ فإذا أتاك كتابي في مظلمة فلا تراجعني والسلام » (ص ٢٨٠) .

وما هو السبيل الذي سلكه سيدنا عمر بن عبد العزيز في محاربة هذه البيروقراطية وهي الداء الذي تعاني منه الإدارة الحديثة .

الجزء الثالث :

يبدأ الجاحظ الجزء الثالث بقوله : « هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث ، وشاكله من عيون الخطب ، ومن الفقر المستحسنة ، والنتف المستخرجة ، والمقطعات المتميزة » ويفرد في هذا الجزء بابًا للحديث عن العصا ، وآخر عن الزهد والزهاد ، وثالث عن خطباء الخوارج .

١ - **باب العصا** : ويخصص الفصل الأول للحديث عن الشعوبية [١] ، ويذكر مطاعنها على خطباء العرب والتي تتمثل في : أخذ المخصرة (العصى) عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، واستعمال المنثور في مقامات الصلح وسل السخيمة (الأحقاد) ، والإشارة بالعصى ، والتماسح بالأكف ، وأن العرب حديثي عهد بالتحضر ؛ لذا فإنهم يستخدمون العصى لقرب عهدهم باستعمالها مع الإبل في البادية وأنهم يجهلون فنون الحرب وأدواتها الحديثة .

ويرد الجاحظ عليهم داحضًا حججهم بالاستعانة بالشعر ، وبالتحليل المنطقي من خلال الاستعانة بشواهد وأحداث تنفي عن العرب ذلك ، كان يرد على كل مأخذ على حدة ويفند حججهم حجة بعد أخرى .

وفي ثنايا ذلك نجده يمارس النقد الذاتي ويتحدث بموضوعية عن بعض مواطن قوة الفرس والعجم ، ويتجلى ذلك في معرض حديثه عن مفهوم تراكمية العلم ، حيث يقول : « إن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد في الرأي ، وعن مشاورة ، ومعاونة ، وعن طول التفكير ، ودراسة الكتب ، وحكاية (محاكاة) الثاني في علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكرة عند آخرهم وفي المقابل ، وككل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إحالة فكر ، ولا استعانة » (ص ٢٨) (الاقتصار على الجهود الفردية المتفرقة) ، ثم يمضي في المناقشة ، والرد على المطعن الأول للشعوبية على العرب ، وهو اعتمادهم على العصى فيفرد بابًا كاملًا عن الحديث عن العصا ويسميه « كتاب العصا » .

يتحدث فيه عن العصا ، واستخداماتها ، وفوائدها ، ونوادر من استعملوها في تلك الاستخدامات ، وما ورد فيها من أمثال ، لبيان أهميتها ، ولا علة في تمسك العرب بها ، وأشكال العصى ، والمواد المصنوعة منها ، وأنواعها .

حين نقرأ مع الجاحظ هذا الفصل عن العصا تبرز إلى الذاكرة تلك الآية من القرآن التي يسأل الله فيها موسى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧] ، فيجيب :

---

(١) هم فريق من الناس لا يرون للعرب فضلًا على غيرهم ، بل يبالغون في ذلك فيذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم ، حتى ألفوا في ذلك الكتب ، وهم فئة من أبناء الطوائف غير العربية في الدولة الإسلامية ، وكان لهم من وراء ذلك مآرب سياسية .

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ١٨] ، ونخال الجاحظ يفصل القول في هذا الفصل في هذه المآرب ، فيذكر مقتطفات من أقوال العرب في فوائد العصا مثل قول عمر بن سعد « ومعي عصاي إن لقيت عدوًّا قاتلته ، وإن لقيت حية قتلتها » ويسرد قصة طريفة لأحد الأعراب عن استخدامات العصا والذي يلخصها فيما يلي : يساق بها الدابة ، يتوكأ عليها في المسير ، يقتل بها هوام الأرض ، يستعان بها في صيد الحيوانات البحرية ، تستخدم في إشعال النار ، وفي التنظيف ، وفي تعليق الثياب ، والطرق على الأبواب (ص ٤٣ - ٤٨) ، وحين تبلى يستفاد بها مقطعة فيصنع من أجزائها أوتارًا ومغازل ، وتنوب العصا للأعمى عن قائده ، ويستعين بها الدباغ ، والحراث والمحراك للتنور (الفرن) ، ويتخذها كل راكب لمركبه ، وتكون إن شئت وتدًا في الحائط ، وإن شئت جعلتها مظلة ، وتكون سوطًا وسلاحًا ، (ص ٦٧ - ٦٩) .

٢ - **باب الزهد** : يورد الجاحظ في الكتاب شيئًا من كلام النساك في الزهد ، وشيئًا من ذكر أخلاقهم ومواعظهم ، والذي يشكل ملامح البرنامج الإسلامي في صياغة الرجال مثل مورق العجلي « لقد سألت اللّٰه حاجة منذ أربعين سنة ، ما قضاها ولا يئست منها فقيل لمورق : ما هي ؟ قال : ترك ما لا يعنيني » (ص ١٢٦) .

ويذكر بعض خطب الحسن البصري في الزهد ، والحث على التقوى ، والتحلي بالإيمان ، والتخفي عن شواغل الدنيا ، وعن أبرز ما فيها قوله : كان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم اليوم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم (ص ١٣١ - ١٣٧) ، وقول مطرف بن عبد اللّٰه : ولا تنظروا إلى خفض عيشتهم ، ولين لباسهم (أهل الجاه والسلطان) ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم (ص ١٥٣) .

وقول الحسن البصري : ما أعطي رجل من الدنيا شيئًا إلا قيل له خذه ومثله من الحرص ، والحرص كما يقول عنه أبو بكر الصديق أذل أعناق الرجال .

دخل علي بن أبي طالب ﷺ المقابر فقال : « أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذي نفسي بيده لو أذن لهم في الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى » (ص ١٥٥) .

من القيم التي يشجعها الإسلام عدم الانشغال الزائد بجمع المال وتكثيره ، ويسوق البيان هذه القيمة قول عيسى ﷺ : « في المال ثلاث خصال أو بعضها ، قالوا : وما هي يا روح الله ؟ قال : يكسبه من غير حله ، قالوا : فإن كسبه من حله ؟ قال : يمنعه من حقه ، قالوا : فإن وضعه في حقه ؟ قال : يشغله إصلاحه عن عبادة ربه » (ص ١٩١) .

ويقدم قائمة لأشهر نساك العصر وزهاده ، أعلام التقى ، ويسوق نماذج من أشعارهم ، وينتقل إلى ذكر حروف من الأدب من حديث بني مروان وغيرهم ، وأخلاط من نوادر وأحاديث لأناس آخرين في مجالات متعددة : مثل قول شيخ الأطباء في السخرية من المنافس غير المتكافئ : الحمد لله ، فلان يزاحمنا في الطب ولم يختلف إلى البيمارستانات (المستشفيات) تمام خمسين سنة (ص ٢٥٢) .

وقول يونس بن عبد الأعلى في أهمية الأصدقاء ، والأخلاء كأحد عناصر الصحة النفسية ، وقيامهم بالدور الذي يقول به المرشد النفسي في الحضارة الغربية حاليًا حيث يقول : لا يزال الناس بخير ما داموا إذا تخلج (اضطرب) في صدر الرجل شيء وجد من فرج عنه (ص ٢٥٣) .

٣ - **باب خطباء الخوارج** ويذكر فيه أشهر خطبائهم ، وأئمتهم ، ثم يعرض لمفهوم شائع لديهم ، هو الاستعراض : « حيث إنهم كانوا يتعرضون للناس ، ولا يبالون من يقتلون ، فالدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز » . ما أشبه هذا المفهوم بمفاهيم سائدة حاليًا في هذا المجال . ثم يتطرق إلى ذكر نماذج من دعاء الصالحين ، والسلف المتقدمين ، ومن دعاء الأعراب ، وبعض دعاء الملهوفين ، والنساك المتبتلين .

وجريًا على عادة الجاحظ في التنقل بين موضوعات شتى في الفصل الواحد ، قد لا يربطها رابط ، فإنه ينتقل للحديث عما يسمى حاليًا علم النفس البيئي ، وكيف أن البيئة تؤثر في السلوك حين يقول : « العرب كلهم شيء ؛ لأن الدار والجزيرة واحدة ، واللغة واحدة ، وما بينهم من التصاهر والتشابك ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء ، والماء فهم بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة ، والهمة والشمائل ، والمرعي والراية ، والصناعة والشهوة (ص ٢١٩) .

وكذلك قوله : « قالوا الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وقد رأينا اختلاف الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن ، وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات » (ص ٢٩٤) ، ويدلي برأي حول العلاقة بين الوراثة والبيئة ودورها في تحديد السلوك حيث يقول : والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة ، ربما كانت

أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم (ص ٢٩٢) .

وينتقل للحديث عن معوقات فيقول : « إنما يمتنع البالغ من المعارف (معوقات التعلم) من قبل أمور تعرض من الحوادث (عوامل خارجية) ، وأمور في أصل تركيب الغريزة (عوامل داخلية) ، ومن الموانع ما يكون من جهة سوء العادة ، وإهمال النفس ، فعندها سيتوحش من الفكرة ، ويستثقل النظر ، ومن ذلك ما يكون من الشواغل العارضة ، ومن ذلك ما يكون من خُرْق المعلم ، وقلة رفق المؤدب ، وسوء صبر المُثقف ، فإذا صفى اللّه ذهنه ونقحه ، وهذبه وثقفه ، وفرغ باله ، وكفاه انتظار الخواطر ، لم يلبث أن يعلم » (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) .

ويسوق الجاحظ محاجة مهمة بين المأمون وأحد المرتدين نستشف من خلالها فقه الاختلاف ، حيث قال المأمون للمرتد الخراساني : قد كنت مسلمًا بعد أن كنت نصرانيًا ، فاستوحشت عما كنت به آنفًا ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرًا ، فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من إلفك القديم ، وأنسك الأول . قال المرتد : أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم !

قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز ووجوه القراءات ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف وإنما هو تخيير وتوسعة ، فمن أذن مثنى وأقام لم يؤثم ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات (وهو ما لم يحدث) وينبغي لك (في هذه الحالة) أن لا ترجع إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها (ص ٣٧٥ - ٣٧٦) فاقتنع الرجل .

وفي ظل هذا الفهم الواعي للخليفة المأمون لطبيعة الفتن يبرز تساؤل تعجبي مفاده : كيف انبعثت الفتن العاتية وانساق إليها الخلفاء ، ومن بينهم المأمون ، وهي في الأساس خلافات في تأويل بعض معاني وألفاظ القرآن مثل : فتنة خلق القرآن ؟!

الجزء الرابع :

ويذكر في هذا الجزء ، وهو أصغر أجزاء الكتب الأربعة ، بقية كلام النوكى (الحمقى) والموسوسين ، والحفاة ، والأغبياء ، وما ضارع ذلك .

ويسوق في ثنايا ذلك بعض الرويات عن الأذكياء ، كذلك الرجل الذي أتاه قوم ، فقالوا له : « تحب أن تسلف فلانًا ألف درهم وتؤخره سنة ؟ فقال : هاتان حاجتان ، وسأقضي لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك أنصفت ، أما الدراهم فلا تسهل عليَّ ، ولكني أؤخره سنتين » (ص ٦) .

وسئل بعض الأعراب : ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظنون ، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان (ص ٦٥) ، ويضرب نموذجًا لسرعة البديهة بذلك الحوار : قال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

فقال : بل قومك أجهل ! قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الحق وأراهم البينات : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ألا قالوا : اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له (ص ٧١) .

وفي تحليل بعض آفات النفس ، وهو الكبر والغرور ، قال سيدنا عمر بن الخطاب ما وجد أحد في نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه (ص ٧٥) وقال معاوية : « ما رأيت أحدًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها » (ص ٧٠) .

وفي التعليم السلبي والإيجابي بالاقتداء قالت أعرابية لابنها : « مثل لنفسك مثالًا (قدوة) فما استحسنته من غيرك فاعمل به (التعلم الإيجابي) ، وما كرهته منه فدعه واجتنبه » (التعليم بالنفور أي أن يتعلم الابتعاد عن سلوك معين لقبحه) (ص ٧٢) . وينتقل للحديث عن كلام من عزى بعض الملوك في فقد عزيز لديهم ، ويسوق بعض المواقف والعبارات التي تفيد في تقليل حجم الأسى والحزن الذي يلم بأهل المصاب ، ويمكن من خلال تحليل المضمون الذي يُعمد عليه في تعزية أهل المصاب تصميم أساليب لمواجهة الحزن ، وتقليل الأسى والذي يعد من بين المشكلات التي يعاني منها الأفراد ، ويعني بها في مجال العلاج السلوكي ، ونذكر فيما يلي بعضًا من هذه العبارات : «اعلم إنما ابتلاك المنعم ، وأخذ منك المعطي وما ترك أكثر ، وأفضل الأشياء عند المصائب الصبر ، واعلم أن من المصيبة سوء الخلف منها ، قد جاء ما لا يرد ، فما الجزع مما لا بد منه ، وما الطمع فيما لا يرجى » (ص ٧٤) .

مات ابن سليمان بن علي فجزع عليه جزعًا شديدًا ، وامتنع عن الطعام والشراب ، وجعل الناس يعزونه فلا يحفل بذلك ، فدخل عليه يحيى بن منصور ، فقال : عليكم

نزل كتاب الله فأنتم أعلم بفرائضه ومنكم كان رسول الله فأنتم أعرف بسنته ، ولست ممن يعلم من جهل ، ولا يقوم من عوج ، ولكني أعزيك ببيت من الشعر ، قال هاته قال :

وهون ما ألقى من الوجد أنني ··· أساكنه في داره اليوم أو غدا

قال : أعد . فأعاد ، فقال : يا غلام ، الغذاء (ص ٩٧) ، ويتحول إلى الكلام عن الهجائين من الشعراء ، وأشهرهم في الجاهلية والإسلام ، ويقدم نماذج من الرسائل المتبادلة بين الملوك ، ومن خرجوا عليهم .

* * *

البخلاء [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من جزأين ، ويقع الجزء الأول في ١٩١ صفحة من القطع الكبير ، بينما يقع الجزء الثاني في ٢٥٩ صفحة من نفس القطع ، وفيما يلي نعرض لجزئي الكتاب :

الجزء الأول :

يذكر الجاحظ في مستهل كتابه أنه سيعرض نوادر البخلاء والقصص والتي حُكيت عنهم وما يدخل من ذلك في باب الهزل ؛ وذلك لأن قسطًا من الهزل يريح العقل حتى يسترد نشاطه عندما يعود للجد مرة أخرى ، ويضيف أنه سيتناول سفسطة البخلاء ، وكيف يحولون الأمور عن معناها الصحيح فيسمون البخل صلاحًا والشح اقتصادًا ، ويصفون المنع بالحزم ، والمواساة بالتصنع ، والجود بالإسراف ، والإيثار بالجهل ، وينسبون القوة إلى من لا يميل إلى الثناء على الآخرين ، وكيف أنهم يرغبون في الكسب ويزهدون عن الإنفاق ويخشون زوال النعمة في كل وقت ، ثم يبدي الجاحظ تعجبه ممن يتمسك بالبخل رغم تقبيح المجتمع له كما يعبر عن تعجبه ممن يعرف عيوبه وما به من شح ، ثم يعجز عن معالجة نفسه وإصلاح مزاجه وتغيير عاداته .

وفي بداية الرسالة يقرر الجاحظ أن البكاء مفيد ومحمود إذا كان في موضعه الصحيح

(١) ضبطه أحمد العوامري ، علي الجارم . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٣م) . ٢ ح في ١ مج .

وبالمقدار المعتدل ؛ وذلك لأنه دليل على رقة الطبع وشدة الوفاء ، أما دوام البكاء فهو بلاء يسبب فقدان البصر وأوجاع الدماغ ، أما الضحك فهو غير مذموم ؛ لأنه من أصل الطباع وعلامة على السواء ، فهو أول خير يظهر من الصبي وبالضحك يُمدح الإنسان ويذم من لا يضحك بأنه عبوس وكالح وقطوب ومكفهر وكريه ومقبض الوجه وحامض الوجه ، ولكن للضحك موضعًا ومقدارًا لا يجوز أن يزيد أو ينقص عنه ، ثم إن المزاح الذي يحقق الفائدة ويلائم الموقف لا يقل عن الجد والوقار .

ويبدأ الجاحظ بعد ذلك في استعراض نوادر البخلاء مستفتحًا برسالة سهل بن هارون إلى بني عمه من آل هارون ردًا على اتهاماتهم له بالبخل ، وفيها يفند سهل تلك الاتهامات ، فعندما اتهموه على سبيل المثال بأنه سد بالطين على الفاكهة والرطب حتى لا تنال منه زوجته أو خدمه أو أولاده أخبرهم بأنه ليس من الأدب أن يتساوى السيد والمسود في نفس المأكل أو المشرب أو الملبس تمامًا كما لا ينبغي أن يستوي التابع والمتبوع أو القائد والمقود في مواضعهم من المجلس وترتيب ذكر أسمائهم وما يستقبلونه من تحيات ، وعندما عابوا عليه ترقيع حذاءه رد عليهم بأن إصلاح النعل بالخياطة والترقيع دليل على التواضع وعدم الإسراف وفيه تشبه بالنساك ، كما أن النعل المرقع أريح للقدم ويغني عن شراء الجديد ، كما عابوا عليه قوله بأنه لا يحب أن يغتر أحد بطول عمره وبشيخوخته فيظهر الكرم ويخرج ماله من يده فرد عليهم بأنه قد يكون هذا الشخص معمرًا وهو لا يدري وقد يُرزق بالولد بعد اليأس أو تحدث له نكبات لم تخطر على باله مما يضطره إلى الشكوى وسؤال الناس .

وعابوا عليه أيضًا تفضيله للمال على العلم وهنا يرد عليهم بأن المال في رأيه يُغاث به العالم وبه تحيا النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم والأصل أفضل من الفرع ، كما أن العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ، ويحتاج الجميع إلى المال ، أما العلم فيغني البعض فيه عن الكل ، ويذكر سهل بن هارون أن كثرة الأموال مرغوبة حتى ولو لم ينفق منها ويشبه الأموال بالآلة التي تستعمل إذا كانت هناك حاجة إليها أو تحفظ كعدة إذا استغني عنها وكثرة المال عز في قلب من يملكه وذل في قلوب من يحتاجون إليه .

ويعرض الجاحظ بعد ذلك قصصًا ونوادر تبين مبلغ بخل أهل خراسان خاصة بلدة هناك تسمى « مرو » ومن تلك النوادر أنهم إذا أتاهم ضيف وطال الجلوس سألوه هل تغذيت فإن أجاب بنعم قالوا : « لولا إنك تغذيت لغديتك بغذاء طيب » ، وإن أجاب

بالنفي قال صاحب الدار : « لو كنت تغذيت لسقيتك خمسة أقداح » حتى الديكة أصابها بالبخل فيروي الجاحظ أن الديكة في كل بلد يأخذ الحب بمنقاره ويلقيه للدجاج أما في « مرو » فإن الديك يسلب الحب من مناقير الدجاج وهو يريد بذلك أن البخل طبع عم الإنسان والحيوان ، حتى الأطفال يتطبعون بالبخل فقد حكى بعضهم قصة تبين ذلك فعندما نزل رجل في ضيافة شيخ من شيوخ « مرو » وجد لدى الشيخ صبيًّا فأراد أن يعبث معه أو يختبره فطلب منه أن يطعمه من خبزهم ، فقال له الصبي : « لا تريده إنه مر » فطلب منه أن يسقيه من مائهم ، فقال له : « لا تريده إنه مالح » وهكذا كلما سأل الضيف شيئًا أبغضه الصبي حتى قال الشيخ صاحب الدار : إن البخل طبع فيه وفي أعراقهم .

ومن القصص التي تكشف بخل أهل خراسان ، أن مجموعة منهم ترافقوا في منزل فأرادوا أن يستغنوا عن المصباح ما أمكن فلما عجزوا عن الإقامة اتفقوا على المشاركة في ثمن المصباح إلا واحدًا منهم فكانوا إذا أحضروا المصباح شدوا المنديل على عينيه حتى لا ينتفع به فإذا ناموا وأطفأوا المصباح رفعوا المنديل عن عينيه .

كما أنهم لا يردون الجميل فقد اعتاد رجل منهم النزول عند رجل عراقي كلما سافر إلى العراق فيكرمه العراقي ويتحمل عنه كل نفقاته فيعبر الخرساني عن تمنيه أن يرى العراقي في خرسان حتى يكافئ العراقي على جميله وتمر الأيام وتشاء الظروف أن يسافر العراقي إلى مرو فأخذ يسأل عن الرجل الخرساني حتى عثر عليه ، فإذا الخرساني ينكر سابق معرفته به فظن العراقي أن الخرساني لم يتعرف عليه في ملابس السفر ، فأخذ يتخفف منها شيئًا فشيئًا والخرساني مصرّ على ادعاء عدم معرفته به حتى قال له في النهاية : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » .

أما حالهم في الأكل فهو أعجب ؛ فإنهم إذا أرادوا شراء اللحم اشتركوا فيه ، ثم قسموه قبل الطبخ ويأخذ كل منهم نصيبه ويشبكه بخيط ويُعلم خيطه بعلامة ، ثم يرسل كل منهم خيطه في الخل والتوابل فإذا نضج شد كل منهم خيطه وقسموا المرق بينهم ويأخذون في سل اللحم من الحبل القطعة بعد الأخرى حتى يفرغ الحبل عندئذ يجمعون الخيوط فإذا اشتركوا في اللحم مرة أخرى أعادوها ؛ لأنها قد تشبعت بالدسم .

وهم لا ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فإذا أنفقوا انتظروا الثواب العاجل ، فقد سمع أحدهم الحسن وهو ينصح الناس بقوله : « ما نقص مال قط من زكاة » ويعدهم

سرعة الخلف ، فتصدق الخرساني بماله كله فافتقر وانتظر سنة فلم ينل خلفًا أي عوضًا عن ماله فأسرع إلى الحسن البصري واشتكى له أنه أنفق ماله ولم ينل الثواب الذي وعد به الحسن قائلًا له : إن اللص ما كان ليفعل بي أكثر مما فعلت . ويعلق الجاحظ أن الخلف يكون معجلًا ومؤجلًا وأنه لا يجوز للمتصدق أن يشترط الشروط لو كان الخلف كله معجلًا لترك الناس التجارة واشتغلوا بالصدقة .

وفي قصة أهل البصرة من المسجديين يذكر نوادر مجموعة من الرفقاء اشتهروا بالبخل وكونوا جماعة مقرها أحد المساجد كانوا يجتمعون فيه لتبادل الآراء والخبرات في الاقتصاد والشح وتنمية الأموال ومن القصص التي طرحوها في اجتماعاتهم للاعتبار نذكر قصة شيخ منهم كان له بئر ماؤها ملحي لا يشرب منه الحمار وكان النهر عنهم بعيد فكانوا يسقون الحمار من ماء عذب ممزوج بماء البئر فاعتل الحمار مما اضطرهم إلى سقيه بالماء العذب ، وكان الشيخ يغتسل هو وزوجته بالماء العذب خشية أن يصابوا بما أصيب به الحمار فعز عليه أن يضيع هذا الماء بدون الانتفاع منه فلجأ الشيخ إلى حيلة وهي عمل حفرة ملساء يصوب إليها ماء الاغتسال حتى يشرب منه الحمار .

وقال شيخ آخر : إنه اشتكى من سعال فنصحه البعض بنوع من الحلوى يصنع من النشا والسكر ودهن اللوز فاستكثر ثمنها ، وفضل أن يعاني من السعال دون تكلفة فلما ثقل عليه المرض نصحه آخرون باحتساء ماء نخالة الدقيق فلما احتساه وجده طيب الطعم علاوة على أنه يمنع الشعور بالجوع ، فخطر بباله أن يأمر زوجته أن تطبخ النخالة لعياله لما فيها من جلاء الصدور وقتل الشعور بالجوع ، كما أن النخالة بعد أن تجف تعود كما كانت فتباع كما يباع الدقيق بعد الانتفاع من النخالة فسعدت زوجته بأفكاره وبسعاله الذي جعل الله فيه مصالح جمة .

ويمضي الجاحظ ليقدم قصصًا أخرى منها قصة زبيدة بن حميد وهو يماطل في سداد ديونه ، وقصة ليلى الناعطية التي كانت ترقع قميصها حتى يذهب أثر القميص ، وقصة الكندي الذي كان يستجدي جيرانه وسكانه بحجة أن في البيت امرأة حاملًا تشتهي طيب الطعام ويجب إشباع شهوتها وإلا فإن الوحمى ربما تؤدي إلى الإجهاض ، وكان ينذر من لا يستجيب له بدفع دية للجنين الميت ، وكان يردد أن حفظ المال أشد من جمعه وأن المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ، أما محمد بن المؤمل فكان يزعم أن الناس يزهدون في الماء ويتكالبون على الخبز لرخص الماء وغلاء الخبز أي أن الناس لا يشتهون إلا ما ارتفع ثمنه وندر وجوده وإن معظم الناس يفعلون ذلك على سبيل التقليد أو العادة .

• يتضح من الجزء السابق إلمام الجاحظ وتبصره بعدد من المفاهيم والمبادئ السيكولوجية نذكر منها :

١ - أهمية الموازنة بين الجد والهزل من أجل صحة نفسية Psychological Health تقوم على الجدية في إنجاز الأعمال ، ثم الترويح Recreation لتنشيط Activation القدرة العقلية Mental Ability (الجزء الأول ص ١٦) ويبين الجاحظ أيضًا أهمية أن يكون الضحك بالقدر المعتدل وفي الموقف Situation المناسب ، وهو يدرك أن دوام البكاء والاكتئاب Depression يسبب أضرارًا جسيمة ونفسية منها فقدان البصر والشعور بالصداع (الجزء الأول ص ٢٩ - ٣٠) .

٢ - تمايز الأشخاص في مراكزهم الاجتماعية أو ما يطلع عليه المكانة الاجتماعية Social Status وتتمثل في مقدار التقدير والاحترام والتقويم الإيجابي من جانب الآخرين ، فبعض الأفراد يتمتعون بمكانة مرتفعة بحكم أعمالهم أو طبقتهم الاجتماعية Social Class أو القرابة أو النسب مع أشخاص مرموقين في المجتمع ، ويحقق البعض الآخر مكانة محترمة اعتمادًا على دافعيتهم Motivation العالية وذكائهم Intelligence . ويختلف أسلوب التعامل مع الأشخاص باختلاف مكانتهم وقد تبين من الكتاب أن أصحاب المكانة المرتفعة والقادة Leaders يحظون بقدر أكبر من الاحترام Respect والتواصل Communication ذي المضمون الإيجابي Positive Content من قبيل المجاملة والثناء ، كما يحتلون مواضع متميزة في البيئة الفيزيقية Physical Environment إذ يجلسون في مواقع تبرز علو شأنهم (الجزء الأول ص ٣٦) .

٣ - اتجاه الأشخاص إلى تفضيل الأشياء النادرة أو مرتفعة الثمن ، والسبب وراء ذلك - كما يظهر من الكتاب - هو الميل إلى مجاراة Conformity الآخرين والرغبة في التقليد Imitation (الجزء الأول ص١٨٠ - ١٨١) .

وعلاوة على هذا يكشف الجاحظ سمات شخصية Personality Traits البخلاء والقيم Values التي تحرك سلوكهم Behavior ومن تلك السمات التي يمكن أن نستشفها من القصص التي عرضناها تبرز السمات الآتية :

١ - المغالطة وخداع النفس Self - Deception والتبرير (ص ١٧ - ١٩) .

٢ - الخوف Fear والتوتر Tension والقلق Anxiety من المستقبل فهم يرغبون في الكسب ويزهدون عن الإنفاق ويخشون زوال النعمة في كل وقت كما أنهم يحسبون

في كل وقت حساب الكوارث ويسيئون الظن بالله ، وبكل ما هو آت مما يزيدهم حرصًا (الجزء الأول ص ٣٩) .

الجزء الثاني :

وتتولى نوادر البخلاء في الجزء الثاني من الكتاب فيضيف الجاحظ قصصًا أخرى منها قصة عبد الرحمن الثوري الذي كان يحث أولاده على ابتلاع نوى الرطب ويدعي أنه يدفئ الكليتين وعلى أكل الشحم ويزعم أنه يفرح القلب وينبض الوجد وعلى أكل الفول بقشوره وكان يردد أن الفول يقول : « من أكلني بقشوري أكلني ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعامًا لطعامكم وأكلًا لما جعل أكلًا لكم ؟! ومن أقواله : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » وقصة أبي المدائني إمام البخلاء في البصرة وكان له مال عند أحد الناس فكان عندما يذهب إليه ليطالبه بماله يجلس بالساعات يتناول الطعام والشراب في بيته ؛ ثم يروي الجاحظ قصة أخرى تكشف سوء ظن البخيل ، فعندما أتى غلام إلى خالد بن صفوان بطبق خوخ كهدية فيما وضعه بين يديه قال له ابن صفوان : « لولا أني أعلم أنك أكلت منه لأطعمتك واحدة » ، وبعض البخلاء يحب أن يتفاخر بما ليس عنده كما يتضح محبًا للافتخار رد عليه قائلًا : « والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم ، يا هؤلاء فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟! ويتهرب البخلاء عمومًا من نجدة الملهوف فقد قال أحدهم عندما أتاه رسول يخبره بأن صديقًا له قد قُطع عليه الطريق وسرق ماله يطلب منه المعاونة ببعض المال : « ليس عليه قُطع الطريق بل عليَّ قُطع » .

● ومن المفاهيم السيكولوجية التي ترتبط بالجزء الثاني : الاستبصار بخطورة التعود Habituation أو إدمان Addiction أو الاعتماد Dependence على الخمور أو الكحوليات Alcholism فقد شبه أحد البخلاء مدمن اللحم كمدمن الخمر ، مما ينم عن إدراك لخطورة الخمور طبعًا مع ما في التشبيه من فكاهة ومبالغة (الجزء الثاني ، ص ١٨) .

كما أنه يمكن الكشف عن بعض سمات شخصية البخلاء في الآتي :

١ - يتميز بعضهم بخفة الظل وتفسير ذلك أن اتجاههم للمداعبة والفكاهة إنما هو لتقليل ردود الأفعال السلبية الناتجة عن تجاهلهم للآخرين ومنعهم المساعدة ولتخفيف مشاعر العداوة Hostility والكراهية Hate كما يتضح من قصة الأخ البخيل الذي وعد أخاه بخمسمائة ألف درهم إذا رزق بألف ألف درهم (الجزء الثاني ص ١٧٣) .

٢ - يحرص أغلب البخلاء على إنكار ثرواتهم والتقليل من شأنها حتى يصرفوا الآخرين عن السؤال وطلب المساعدة منهم ويميل القليل منهم إلى الافتخار بما ليس لديهم (الجزء الثاني ، ص١٧٣) .

* * *

التاج في أخلاق الملوك (١)

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٩١ صفحة من القطع المتوسط ويتكون من مجموعة من الأبواب ، بالإضافة إلى المقدمة يتناول المؤلف فيها آداب التعامل مع الملوك وتفصيل ذلك هو :

المقدمة :

يشرح فيها الجاحظ دواعي تأليفه لهذا الكتاب ، فيذكر منها أن الملوك يحظون بمكانة متميزة نظرًا لتمتعهم بالسلطان وتوليهم أمر العباد ؛ ولذا وجب تقديرهم واحترامهم ، ورغم هذا يجهل كثير من العامة آداب التعامل مع الملوك ، ولهذا يقدم الجاحظ كتابه لتوضيح تلك الآداب ، والاقتداء بها حتى يستقيم الأمر ويستقر المجتمع عندما يدرك العامة حق الملوك ويقومون بواجبات الطاعة كما ينبغي .

باب الدخول على الملوك : يستعرض الجاحظ آداب الدخول على الملوك فيميز بين دخول الأشراف ودخول الأوساط ودخول الملوك ، فالأشراف ينبغي أن يقفوا أمام الملك في موضع وسط بين القرب والبُعد ، أما إذا كان الداخل من الطبقة الوسطى فعليه أن يقف إذا رأى الملك فإذا دعاه الملك للدخول اقترب خطوتين أو ثلاثًا ولا يزيد عنها ، أما إذا استقبل الملك ملكًا آخر يساويه في السلطان فعلى الملك المضيف أن يقوم للضيف ويعانقه ويأخذ بيده ويجلسه ، وعند وداعه يقوم الملك المضيف ، ويأمر بإحضار دابة

---

(١) حققه وقدم له فوزي عطوة . بيروت : الشركة اللبنانية للكتاب [١٩٧٠ مقدمة] . (١٩١ ص) .

الضيف ، ثم يشيعه ماشيًا قبل ركوبه بخطوات قليلة ويأمر بالسعي أمامه .

● وتقترب أفكار الجاحظ هنا من مفهوم المسافة الاجتماعية Social Distance وهي المسافة المكانية Spatial Distance التي ينبغي على الأفراد ألا يتعدوها وهم يتكلمون ويتفاعلون مع بعضهم البعض وهي تختلف باختلاف الموقف والمكانة والدور والجنس ، فعلى سبيل المثال كلما اتسعت الفروق بين مكانة الأفراد اتسعت المسافة بينهم عند التخاطب ، فإذا تجاوز الشخص الأقل مكانة تلك الحدود فيعد ذلك اعتداء على الحيز الشخصي Personal Space للأعلى مكانة وعلى خصوصيته Privacy ويترتب على ذلك التعدي ردود أفعال سلبية صريحة Explicit أو ضمنية Implicit وقد بيَّنَ الجاحظ أهمية أن يقف ندماء الملك على مسافة وسط بين القرب والبعد ولا يتعدونها (ص ١٥، ١٦) وكذلك مفهوم المكانة Status (ص ١٥ - ١٨) .

باب في مطاعمة الملوك : إذا بسط الملك مع واحد من رعيته حتى دعاه إلى تناول الطعام معه فيجب على الضيف ألا ينبسط في مطعمه فيكثر الأكل ومن مد اليد والحركة أمام الملك مما يدل على الشراهة وسوء الأدب والجرأة ، فتناول الطعام مع الملوك تعظيم « لشأن المرء ، وهو أيضًا اختبار » لقدرته على ضبط نفسه عما لذ وطاب ومن لا يراعي ذلك فيفرط في الطعام يتحول في نظر الملك وحاشيته من التعظيم إلى التصغير ومن الجد إلى الهزل حتى إن أحد الملوك طرد أحد رعيته لما رأى نهمه في الطعام قائلًا له : « من شره بين يدي الملك إلى الطعام ، كان إلى أموال الرعية والسوقة والوضعاء أشد شرهًا » .

ومن حق الملك أيضًا ألا ينظر إليه أحد وهو يأكل ، ولا يتناول معه أحد الطعام في صفحة واحدة ، ولا يغسل مع يديه أي من خاصته إلا من يساويه في الجاه والسلطان ، ومن حق الملك ألا يتحدث الحضور على مائدته بحديث جد أو هزل ، فإذا تكلم هو وجب على الآخرين الإنصات إليه ولا يتكلمون إلا بإيماءة .

● ويرتبط الباب السابق بمفهومي المعايير Norms والمجاراة Conformity (ص ١٩- ٢٤) وكذلك بمفهوم بناء الاتصال Communication Structure (ص ٢٦) ، والبناء الهرمي للجماعة (ص ٣١ ، ٣٢) .

باب في المنادمة : يبيِّنُ الجاحظ أولًا طبقات الندماء ، فيشيرِ إلى أن من أخلاق الملوك أن يشمل مجلسهم كل الطبقات ، فهم يحتاجون الوضيع لِلهْوِهِ ، والشجاع لبأسه ، والمضحك لحكايته ، والواعظ لعظته ، وكذلك الزامر المطرب ، والعالم المتقن . هكذا يتحول مجلس الملك بين الجد والهزل .

وينقسم ندماء الملك إلى ثلاث مراتب وهي :

١ - طبقة أبناء الملوك ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الستارة التي تحجب الملك عن الرعية .

٢ - بطانة الملك وندماؤه وأهل الشرف والعلم ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى .

٣ - أهل الهزل والطرب والمضحكون ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الطبقة الثانية ، وينبغي أن يخلو أفراد الطبقة الثالثة من العيوب الخلقية وخسة الأصل وسوء السمعة .

ومن حق الملك وحده أن يأمر لجلسائه بكمية وكيفية ما يُشرب مع مراعاة الاعتدال في الشرب (ويقصد شرب الخمور) ، ومن حقه ألا يخرج أحد من مجلسه أو يعود إليه إلا بإذنه .

ثم يستعرض الجاحظ بعضًا من أخلاق الملك السعيد فيذكر أن خلقه العفو عن ندمائه لا سيما إذا غلب أحدهم السكر حتى لا يستطيع أن يعقل ما يقول ولا ما يقال له ، وقد يضر نفسه إذا تُرك وحده ، وإذا أخذ أحد ثيابه لم يمنعه أو لا يغضب إذا شُتم ، وتكثر أخطاؤه في الكلام ، ومن واجب الملك أن يعاقب من يرتكب ذنبًا بالعقوبة المناسبة كما جاءت في الشرع أو الإجماع ، ومن حق الملك أن ينفرد بمس الطيب وبارتداء الزي والتاج أو العمامة ، ومن أخلاق الملوك ألا يمن الملك على الرعية بعطية إلا إذا خرج المُنعَم عليه من الطاعة إلى المعصية ، حتى يكشف له عدم وفائه واستحقاقه للعقوبة ، ومن أخلاق الملك ألا يعاقب وهو غضبان خشية التجاوز ، ومن حقه أن تنصت الرعية لحديثه وتظهر السرور وتجاهد في فهمه ويجب على الرعية أيضًا مراعاة حرمة الملك في حضوره وغيابه مع إدراك أن أخلاق الملوك ليست على نظام ؛ ولذا ينبغي إظهار الإجلال والتعظيم للملك حتى وإن سبق معه هزل أو مضاحكة اتقاء لغضبه وسخطه .

● ومن المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الباب السابق الدور Role (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والمسؤولية (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والقوة الاجتماعية Social Power (ص ٥٩ ، ٦٠) .

باب في صفة ندماء الملك : يذكر الجاحظ أن من الخصال الواجب توافرها في ندماء الملك ما يلي : سلامة الجوارح والبدن والأخلاق الحسنة ، والاستقامة ، والنصح للملك ، واعتدال المزاج ، والبُعد عن الاكتئاب والسأم ، والعلم بالنادر من الشعر والحديث ، وقلة

التثاؤب والنعاس والسعال ، وإجادة الألعاب الرياضية والذهنية ، ومنها الكرة والصيد والرمي والشطرنج ، ومن حق المُلاعب أن يقوم بكل دواعي المنافسة في تلك الألعاب دون قذف أو صياح أو خروج عن الآداب .

ثم يعود الجاحظ إلى تناول حقوق الملك فيذكر أحقيته بإمامة الصلاة ولو حضرها أعلم الخلق وأكثرهم زهدًا ؛ وذلك لأنه المولى والإمام ، ثم يوضح آداب الركوب وحقوق الملك إذا مشى الناس في ركبه ، ومنها حق في ألا تسبق دابته دابة أخرى ، ومن حق الملك ألا يُسمى أو يُكنى في جد أو هزل وإنما ينبغي مخاطبته بصفة ومنها : « يا خليفة اللّٰه ، ويا أمين المؤمنين ، ويا أمير المؤمنين » ومن حق الملك أن ينفرد بالحجامة والفصد وشرب الدواء ، فإذا أتى فعلًا من تلك الأفعال لا ينبغي أن يأتيها أحد من رعيته في هذا اليوم ، بل الأولى - في رأي الجاحظ - أن ينشغل الناس بأمر الملك وطلب السلامة له ، ولا يجب التأمين على دعاء الملك أو تشميته إذا عطس ؛ لأن دعاء الملك الصالح أقرب إلى اللّٰه من دعاء الرعية ، ومن حقه ألا يعزيه أحدًا من حاشيته أو أهل بيته وإنما يعزيه من لم يحضر المصيبة أو من يوازيه في الجاه والسلطان ، ومن أخلاق الملوك سرعة الغضب ؛ نظرًا لاعتيادهم على الطاعة ؛ ولأنهم لا يسمعون ما يكرهون ؛ ولذا فإن أقل لفظ غير مستحب يؤذي نفوسهم ؛ لأنهم ألفوا العز ، ومن أخلاقهم أيضًا بطء الرضا لما فيه من استخذاء يجعله ثقيلًا على نفوسهم ، علاوة على هذا فإن غضب الملوك يترك أثرًا لا يمحوه الدهر ، ومن أخلاق الملك ألا يلقي بأسراره إلا إذا أيقن - وبعد تحقق - أن جليسه أمين وحافظ للسر .

ويمضي الجاحظ في تفصيل أخلاق الملك فيضيف إليها إكرام أهل الوفاء ، والوفاء هو أن يذكر الرجل من أنعم عليه من الخلق في حضرة الملك حتى ولو كان الملك لا يرضى عن هذا المُنعَم وإلا سكت عن ذكره بخير أو سوء إذا خاف غضب الملك عليه ، المهم أن الشخص المتصف بالوفاء لا يعزز الرأي السيء للملك فيمن سبق أنْ أنعم عليه إرضاء الملك ، والوفاء أيضًا إرضاء الصاحب بالمال والملبس والحافظ على عياله في حياته ومماته وهو أيضًا الشكر باللسان وبالجوارح .

ومن أخلاق الملك الاحتياط وعدم إطلاع الآخرين على مكان نومه ، ومن الواجب على أبنائه أن يعاملوه كما تعامله رعيته وألا يدخلوا عليه إلا بإذنه ، ومن خصال الملوك أن يصيبهم الملل وتسيطر عليهم شهوة الاستبدال ؛ ولذا تتفنن الرعية في أساليب معالجة الملل والحفاظ على المنزلة عند الملك ، ويرى الجاحظ أن المواضع المتوسطة بين الرضا والسخط والأخذ والمنع أقرب إلى الاستقرار وقلة التنافس ودوام النعمة .

ويجب على الملك أن يقسّم يومه بين العبادة ورعاية مصالح العباد واللهو ، وعليه أن يحدِّد مواعيد ثابتة للهوه وشربه ، ثم يبيِّنُ حال الشرب ، وموعده عند كثير من الملوك ، ورأيهم في شرب الخمر ؛ إذ ينسبون إليه مزايا ، منها : خفة البدن ، وذكاء العقل ، وقوة الذاكرة .

ومن أخلاق الملوك استقصاء أحوال الرعية ، وهي خصلة من أربع خصال يدوم بها الملك ، والخصال الأخرى هي :

١ - ألا يرضى الملك لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه .

٢ - الحذر من الأفعال التي يخاف عقابها .

٣ - أن يولي على رعيته من يرضونه .

وأخيرًا يذكر أن من أخلاق الملوك الانشغال بالأمور الجلية إذا طرأت ، والمكايدة والخداع قبل الحرب حفظًا للأموال والأنفس ، أو اللجوء إلى الحرب إذا لم تنجح محاولات المكايدة والخداع .

● ومن المفاهيم النفسية الاجتماعية الواردة هنا بخلاف البناء الاجتماعي بكل عناصره ، وأنماطه ، ترد مفاهيم أخرى منها تأثير الصراع Conflict على السلطة والمنافسة Competition للحفاظ على المكانة المحترمة والقرب من الملك ، وقد بين الجاحظ الحيل النفسية والتصرفات التي يلجأ إليها الأفراد لتحقيق ذلك الهدف باختلاف مراتبهم (ص ١٣١ - ١٣٩) وقد أشار الجاحظ إلى أن المواضع المتوسطة بين القُرب أو البعد من الملك هي أفضل من حيث الاستقرار Stability والبُعد عن المنافسة (ص١٤١) .

● ومن المفاهيم النفسية الاجتماعية كذلك : بين الجاحظ أهمية القيم الخلقية Moral Values التي ينبغي أن يتصف بها ندماء الملك ومنها الصدق والوفاء والإخلاص Loyalty (ص ١١١ - ١١٧) .

وكذلك تأثيرات المكانة المرتفعة Effects of High Status في سلوك أعضاء الجماعة (ص ٩١ - ٩٢ ، ١١٧ - ١١٩) .

كما تقترب أفكار الجاحظ من مفاهيم متصلة بدراسة الشخصية Personality في تحليليه لشخصية الملك عندما بين أن الملك يكون سريع الغضب بطيء الرضا نظرًا للتعود Habituation على المعاملة الحسنة والاستخذاء من ضعف الاعتذار (ص ٩٥ - ٩٨) ، ومن سماته Traits أيضًا الجاذبية Attraction وحسن المظهر والنظافة ، والكرم Generosity

والتوازن Balance بين الجد والهزل (ص ١٥٣) ، بالإضافة إلى الذكاء Intelligence والقدرة على اتخاذ القرار Decision - Making (ص ١٧٣ - ١٧٥) . وعلى جانب آخر يبين أن المزاج السوداوي يرتبط بالحزن ويفسد المزاج ، والبلغي يطيل النوم والتثاؤب ، وأمَّا الصفراوي فهو سريع القلق كثير الحركة ، أما المزاج الدموي فهو أنسبها لمنادمة الملك ؛ نظرًا لأن من يتسمون به يتمتعون بالطاقة والنشاط والمرح والانطلاق (ص ٧٩) وهي أفكار وثيقة الصلة بمفاهيم أبعاد الشخصية Dimension of Personality خاصة الانبساط / الانطواء Extraversion / Introversion وفي مجال الشخصية أيضًا عرض الجاحظ لخطورة الانفعال على الأحكام ؛ ولذا يحذر الملك من تقرير عقوبة وهو غضبان خشية الإفراط والتجاوز .

بالإضافة إلى المفاهيم النفسية الاجتماعية والشخصية تقترب أفكار الجاحظ من مفاهيم إكلينيكية ، منها الإدمان Addiction والإفراط في شرب الكحوليات ويطلق عليها الاعتماد الكحولي Alchoholic Dependance ، وقد تفاوت رأي الجاحظ في تأثير الخمر ففي أحد المواضع يدعو الملك إلى الاعتدال في الشرب وطلب الشراب لندمائه تفاديًا لضرره على البدن (ص ٣٠) ، وفي موضع آخر يبيِّن أن شرب الكحوليات له مزايا منها صحة البدن ويقظة الفكر وقوة الذاكرة (ص ١٥٤) ، ولا مجال هنا لاستعراض الأضرار الجسمية والنفسية للخمور ويكفي أن نذكر أن أضرارها أكيدة فضلًا عن أنها محرمة .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الاجتماعي .

* * *

الحيوان [1]

عرض : د . شعبان جاب اللّه رضوان

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في سبعة أجزاء من القطع المتوسط صفحاتها ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٤٨ ، ٦١١ على التوالي ، هذا بالإضافة إلى جزء ثامن مخصص للفهارس وفيما يلي عرض لكل جزءٍ من هذه الأجزاء :

الجزء الأول :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بتقسيم الكائنات إلى ثلاثة أقسام : مختلف ومتفق ومتضاد ، وهي إما جماد أو نامي ، وينقسم النامي بدوره إلى حيوان ونبات ، والحيوان على أربعة أقسام : يمشي ويطير ، يسبح ، ينساح أي يمشي على بطنه ، فما يمشي منه ينقسم إلى أربعة أقسام كذلك : الناس والبهائم والسباع والحشرات ، ومن حيث البيان ينقسم الحيوان إلى فصيح وهو الإنسان ، وأعجم وهو كل ذي صوت لا يفهم إرادته أو معناه إلا من كان من نفس جنسه .

وبعد أن يضرب الجاحظ أمثلة لما يطير ويسبح وينساح من الحيوان ، يعقد مقارنة بين الإنسان والحيوان حيث إن الأخير قد فطر على أشياء يعجز عنها الحذاق من البشر . ولكن الإنسان متى أحسن شيئًا ، كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل . أما سائر الحيوان - وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس - متى أحسن

---

(١) حققه عبد السلام محمد هارون . بيروت : دار الجيل ، القاهرة : دار الفكر (١٩٨٨م) . ٨ مج .

شيئًا عجيبًا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن وأسهل منه في الرأي ، بل ولا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث للجاحظ بموضوع انتقال أثر التدريب أو التعليم لدى كل من الإنسان والحيوان ، وذلك في إطار سيكولوجية التعلم Learning (ص ٣٦) .

ويتطرق الجاحظ إلى توضيح أهمية خلط الجد بالهزل ، وأن المزاح إذا جاء علة للجد فهو جد ، ثم يعرض للكتاب وصفًا بمعناه العام ، مشيرًا إلى كونه وعاء مليئًا بالعلم ، ينطق عن الموتى ويترجم كلام الأحياء .

ويذكر أن حاجة الناس بعضهم إلى بعض أمر ضروري ، فحاجتهم إلى ما غاب عنهم كحاجتهم إلى التعاون على ما لا يضرهم ، فلم يخلق اللّه أحدًا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له ، فأدناهم مسخر لأقصاهم ، وأجلهم ميسر لأدقهم ، ثم يشير إلى ضرورة البيان وأهميته لاجتماع الناس ، ويقسم البيان إلى اللفظ ، والخط ، والإشارة ، والعقد ؛ ويتناول فضل الخط ونفع الحساب وفضل الكتابة والقلم واليد والكتاب وحرص الزنادقة على تحسين كتبهم ، وفضل التعلم والتخصص لضروب العلم وجمع الكتب ، وأنواع الخطوط ، والكتابات القديمة ، وأهمية الكتابة في حفظ وتسجيل المعاهدات والمخالفات ، مشيرًا إلى أن الأرقام لا تقل أهمية عن الخطوط ، وكذلك اللسان وما يصدر عنه من أصوات ذات معان ، ويوضح الجاحظ علاقة الخط بالحضارة ، وأن لكل أمة نمطًا معينًا في تخليد مآثارها ، حيث كانت العرب في الجاهلية تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام والمقفى .

ويتناول بعد ذلك عددًا من الموضوعات المتفرقة منها تاريخ الشعر العربي ، وقيمة الترجمة وخصائص الترجمان وما تتعرض له الكتب المترجمة من إفساد أثناء عملية الترجمة ، والكتب المنسوخة أثناء عملية النسخ ؛ وفي ترغيب الجاحظ لتأليف الكتب يشير إلى أنها أفضل في إرشاد الناس من تلاقيهم حيث يشتد مع التلاقي التصنع والتظالم والعصبية والحمية وحب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والأنفة من الخضوع ، وبذلك تمتنع القلوب من التعرف وتعمى عن مواضع الدلالة ، أما الكتب فيها علة تمنع من درك البغية .

ويتضمن هذا المعنى إشارة غير مباشرة لسيكولوجية الجماعات الصغيرة (جماعات المواجهة) ، وذلك عند الحديث عن تلاقي الأفراد وما يحدث من تصنع وتظالم وعصبية

أثناء تفاعلهم ، كما ينطوي هذا المعنى أيضًا على مفهوم تأكيد الذات Self-Assertiveness عند الحديث عن حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة والأنفة من الخضوع ، ويتصل موضوع الجماعات الصغيرة ودينامياتها وتأكيد الذات بعلم النفس الاجتماعي (ص ٨٤) .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن « الكتاب » إلى أنه قد يفضل صاحبه ، وإلى وجوب مواصلة السير في خدمة العلم والعناية بتنقيح المؤلفات ، كما تناول أيضًا عملية تداعي المعاني والأفكار أثناء التأليف ، فقد يبدأ المؤلف وهو يريد سطرين فيكتب عشرة وتتصل هذه الإشارة الأخيرة « عملية تداعي المعاني والأفكار » بموضوع سيكولوجية التفكير Thinking في علم النفس العام (ص ٨٨ ، ٨٩) .

ويتعرض المؤلف بعد ذلك للمقايسة بين الولد والكتاب ، وما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب من حيث الإيجاز والإسهاب ، ونفع الكتب في نشر الأخبار وروايتها . وينتقل إلى الحديث عن الكلب وأنه بين البهيمة والسبع ، وأن شر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة مثل الراعبي من الحمام ، والبغل ، وابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال ، كما أن الشيات في الحيوان ضعف ونقص (والشية : كل لون دخل على لون ص ١٠٤) .

ويبدأ الجاحظ بعد هذه المقدمة المطولة عرضه لأبواب هذا الجزء بباب حول ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبله ، فمما يطرأ عليه بعد الخصاء أن يصبح ريحه ذا رائحة نتنة أكثر من ذي قبل ، وصنانه أحد ، ويدق عظمه ، ويترخى لحمه ، ويحدث له طول في الأقدام واعوجاج في الأصبع ، كما أن الخصي تصير طباعة مقسومة على طباع الذكر والأنثى .

ويتضمن هذا الحديث إشارة للفروق بين الجنسين (الذكور والإناث) في سمات الشخصية Personality Traits (سيكولوجية الشخصية) (ص ١٠٦ - ١٠٨) .

ويتناول كذلك طلب النسل باعتباره من حاجات النفوس وشهواتها ، وأن الأفراد يختلفون في ذلك من حيث الهدف فمنهم من يطلبه للكثرة أو بقاء الذكر أو المباهاة ، أما الحيوان فغايته قضاء الشهوة فقط ولا يطلب الولد .

ويتصل هذا الحديث عن طلب النسل بموضوع الدوافع Motives وبخاصة البيولوجية أو الأولية (دافع الجنس) في إطار علم النفس العام (ص ١٠٨ - ١١٠) .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الخصي ، حيث يذكر أنه لا يفقد القوى الجنسية ولكنها تتحول إلى قوة المطعم وبذلك تجتمع له قوتان في المطعم فيصير شرهًا ، ويشبه في شرهه

هذا النساء ، فهن آكل من الرجال ، كما يعرض للخصي أيضًا تغير واضح في الصوت ، وإذا حدث الخصاء قبل إنبات الشعر في الأماكن المعروفة لدى الرجال فإنه لا ينبت .

وعن أثر الخصاء في الذكاء يذكر أن الخصي يكون أذكى عقلًا ، ولكن مع جودة آلاتهم ووفرة طباعهم لم تر أحدًا منهم قط فذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة مما يعرف ببعد الرؤية والغوص بإدامة الفكر .

ويشير المؤلف هنا إلى أن ذلك يتعلق بخصيان الصقالبة ، أما خصيان الحبشة والنوبة والسودان فإن الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم .

وعلى الرغم من افتقاد الحديث - عن الذكاء وعلاقته بالخصاء - للبرهان العلمي ، إلا أنه يندرج تحت موضوع الذكاء Intelligence في علم النفس العام (ص ١١٦ - ١١٨) .

وينتقل الجاحظ إلى الحديث عن عدد من الموضوعات المتفرقة منها خصاء البهائم والديكة والإبل وأخلاق الخصي والنتاج المركب من الحيوان ، والحكمة في اختلاف النزعات والميول ، وزواج الأجناس المتباينة من الناس ، وكذلك خصاء الإنسان من حيث المنع والإباحة ، ومحاسن الخصي ومساوئه ، وبعض ميول الخصيان من التلوط وإتيان البهائم وهذه الإشارة تتصل بموضوع اضطراب السلوك الجنسي Sexual Behavior ، (ص ١٧٢ ، ١٧٣) .

ثم يتناول صفات كل من الديك والكلب ، وأكل الهرة لأولادها ، وكذلك أكل الضب لأولاده ، واختلاف دلالة ذلك لدى كل منهما ، حيث يدل لدى الهرة على الحب ، ويشير لدى الضب إلى البغض .

ويختتم الجاحظ هذا الباب بإشارة حول إمكانية تنوع الملكات وقوتها لدى الإنسان ، حيث يوجد لدى كل إنسان استعداد فطري لإتقان صنعة بعينها .

وهذا الحديث يتضمن إشارة لمفهوم الاستعدادات الفطرية Initial Aptitudes في علم النفس العام (ص ٢٠١ ، ٢٠٢) .

ويتحدث الجاحظ في باب آخر عن ذم صاحب الديك للكلب ، والرد عليه ، ويورد في هذا الصدد الأشعار والآراء وأشار الجاحظ إلى الفروق الفردية في الاستعدادات والمواهب (ص ٢٠١) ، ثم يذكر أطيب الأشياء وأخبثها رائحة ، وعما قيل من الضربان من شعر وآراء ، كذلك أشعار العرب بشأن هجاء الكلب ، وما ورد في

الكلاب من أمثال ، ثم يختتم هذا الباب بذكر من قتل بواسطة الكبش والعنز وما قيل في ذلك من أشعار .

ويفرد الجاحظ بعد ذلك بابًا يدور حول من هُجي بأكل لحوم الكلاب والناس ويورد في هذا عددًا من أقوال الشعراء ، وكما يورد بعض الأمثال التي قيلت في شأن الكلب ، وتأويل رؤيا الكلب ، ثم يتحدث عن لؤم وجبن الكلب ، حيث يدلل على لؤمه بأنه إذا أسمنه الإنسان أكله ، وإذا أجاعه أنكره ، وأنه يتبع من أهانه ويألف من أجاعه ، ويتسم بالجبن والجراءة معًا ، وأنه ينام بالنهار ويصخب بالليل .

ويتصل هذا الحديث عن سلوك الكلب بفرع سيكولوجية الحيوان Animal Psychology أو دراسات سلوك الحيوان Animal Behavior (ص ٢٨٠ - ٢٨٦) .

ويتطرق المؤلف للحديث عن نوم الملوك ، وسبب اختيارهم الليل للسهر ، والنهار للنوم ، وعما ينبغي للأم في سياسة رضيعها عند بكائه ، فيجب عليها ألا تتركه ينام على فزع وقلق ، ولكن عليها أن تسري عنه وتجعله مسرورًا قبل نومه .

ويتصل هذا الحديث بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٢٨٧) .

ثم يذكر ما ورد من الحديث والخبر في قتل الكلاب ، وبعض شؤونها الأخرى وأشار إلى المسخ في الحيوان ، وعمن خنقته الجن ، وفائدة الكلب في الحراسة والإنذار بالمخاطر ، وقتل الحيوانات الضارة مقارنًا تلك بالقصاص وإقامة الحدود على الإنسان الفاسق ، كما يتناول أصناف الكلاب ، وما قيل من الشعر فيه ، وهجاء ضروب من الحيوان ، مشيرًا إلى قول صاحب الكلب بأن الهجاء لم يقتصر على الكلب فقط وإنما عم الأصناف كلها ، وأن الهجاء بين الناس يكون لمن كثر خيره وكثر شره ، أما من ليس له فضل لا يثير الشعراء بالهجاء أو المدح .

ويتحدث الجاحظ هنا أيضًا عن الحلف (التحالف) عن العرب ، وأثر الهجاء في القبائل ، وبكاء العرب منه ، وما قيل من شعر في النباح والاستنباح ، وهنا يورد بعض القصص التي تتعلق بالأشخاص الذين يجامعون الكلاب ، وأغلبهم من الحراس ، ويشير إلى أنهم يجدون في جماعها لذة ومتعة أكثر من جماع النساء ، كما يحنون إلى هذا السلوك بعد تركه .

وفي نهاية هذا الجزء يعرض الجاحظ لبعض المسائل المتفرقة ، منها الحديث عن

جنايات الديك مثل نقره لأعين بعض الأطفال ، ويدلل بهذه الإشارة على أن الكلب ليس هو الوحيد الجاني من الحيوانات ، ثم يذكر عواء الكلب وما قيل فيه من الشعر ، وأن هجاء الكلب قد يكون مقصودًا به هجاء صاحبه وليس هو ، ويستشهد على ذلك بكثير من الأشعار .

الجزء الثاني :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بحديث طويل حول الكلب ، حيث يورد احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة ، وما أجد العيان فيها ، وما استخرجت التجارب منها من أصناف المنافع والمرافق وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة ، فيبدأ بقول العرب : « إن دماء الملوك شفاء من داء الكلاب » ، ويسوق بعض الأشعار الواردة في هذا المعنى ، والذي يدل على أن العرب يزعمون أن دماء الأشراف والملوك تشفي من عضة الكَلب ، ومن الجنون أيضًا ، ويستشهد بقول الفرزدق في هذا المعنى وهو :

ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا . شفتها وذو الخبل الذي هو أدنف

ثم يوضح الجاحظ أن بعض هؤلاء العشراء يزعم أن قولهم دماء الملوك شفاء من الكلب على معنى أن الدم الكريم هو الثأر المنيم ، وأن داء الكلب على معنى قول الشاعر :

كَلِب من حس ما قد مسه وأفانين فؤاد مختبل

وعلى معنى قوله : كلِب بضرب جماجم ورقاب .

فإذا كلب من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب ، وليس أن هناك دمًا في الحقيقة يشرب . ومع ذلك ، يسوق الجاحظ من الأشعار ما يدحض هذا التأويل ، ويمكن أن يتصل هذا الحديث ، وما يتضمنه من معاني تتصل بالثأر والغيظ والغضب ، بموضوعي العدوان Aggression ، والانفعالات Emotions (ص ٥ - ٩) .

ويتحدث الجاحظ أيضًا عن طباع الديك مقارنة بطباع الكلب ، ويورد قول صاحب الكلب بأن الكلب أعجب إلقاحًا وأثقب وأقوى وأبعد بالمقارنة بالديك ، كما أن الكلب إذا عض إنسانًا ، فأول ذلك أن يحيله نباحًا مثله وينقله إلى طباعه ، وهنا يشير إلى أسرة الأسود بن أوس بن الحمرة وابنه قدامة بن الأسود ، والتي توارثت دواء الكَلِب عبر أجيالها ، وعن أعراض الكلب يورد قول أبي الصهباء بأن من يعضه الكلب يعطش ويطلب الماء أشد الطلب فإذا أتوه به هرب منه أشد الهرب ، ويرد الجاحظ على ما

زعموا من أعراض الكلب بذكر واقعة رآها بنفسه حيث رأى كلبًا يعض صبيًا في وجهه وقد خرق اللحم وخرج منه الدم ، ثم رآه بعد ذلك بشهر وليس في وجهه من الشتر (القطع) إلا موضع الخيط فلم ينبح إلى أن برئ ، ولا هر ، ولا دعا بماء ثم يرده ، ولا أصاب مما يقولون قليل أو كثير ، ثم يورد الجاحظ مجموعة من الأشعار التي تتضمن بعض أسماء الكلاب ومنها ضبار ، ودرواس ، والأحدل ، ووثاب وغيرها .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الكلب ، فيتحدث عن حرصه ، وتخريقه أذنيه حتى يدميها عندما يضبع وهو أن يمد ضبعه كله فيفترش ذراعيه ويبسط رجليه حتى يصيب قَصُّهُ الأرض أكثر من الفرس (ص ٢٦) كما يشير إلى معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره ، ويذكر أن من تعترض عليه العصبية ؛ فإنه لا يبصر الحق من الباطل ، ويستشهد بالأشعار الواردة في هذا المعنى (ص ٢٧) .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث بمفهوم التعصب Prejudice أو الاتجاهات التعصبية في إطار علم النفس الاجتماعي .

وينتقل إلى الحديث عن أمارات البلوغ في الغلمان والجواري ، فيقول : إن احتلام الغلمان يعرف بأمور منها انفراق طرف الأرنبة ، وتغير ريح الإبط ، وغلظ الصوت ، ومنهم من لا يحتلم . كما أن في الجواري جوارٍ لا يحضن وذلك عيب في النساء وليس مثله في الرجال عيبًا (ص ٣٢) .

ويتضمن هذا الحديث بعض المفاهيم ذات الصلة بعلم النفس الارتقائي Developmental Psychology أو علم نفس النمو ، وهي البلوغ والاحتلام Puberty والحيض Menarche .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن الكلب ، مشيرًا إلى بعض صفاته ؛ ومنها سرعة عدوه وجودة سيره ، مستشهدًا ببعض الأشعار الواردة في هذا الصدد ، وكذلك صفاته الجسمية التي تشير إلى فراهيته أي حذقه وجودة سيره ، ويتحدث أيضًا عن غذائه وشرابه ، وعلاجه إذا مرض .

وينتقل إلى الحديث عن عداوة بعض الحيوان لبعض ، حيث تأكل العُقاب الحيات لما بينهما من العداوة ، كما أن الغداف يقاتل البومة والحدأة ، وبين العنكبوت والعظاية عداوة ، وعصفور الشوك يعبث بالحمار ؛ وعبثه ذلك قتال له ، وهناك مظاهر أخرى لعداوة بعض الحيوان لبعض .

ويتصل هذا الحديث بموضوع سيكولوجية العدوان Aggression (ص ٥٠ ، ٥٤) .

ويتناول أيضًا أنواع الأطعمة التي يأباها بعض الحيوان ، ويقارب الكلب بالأسد في النهم ، والرجيع ، ويشير إلى كونهما متشابهين في ذلك .

ثم يتحدث عن عظال الكلاب (التلقيح) ، مشيرًا إلى أنه ليس هناك في الأرض شيئان متشابكان من فرط إرادة كل واحد منهما لطباع صاحبه ، حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى ، وحتى يصير التحامها التحام الخلقة والبنية لا كالتحام الملامسة والملازمة - إلا كما يوجد من التحام قضيب الكلب بثغر الكلبة ، ويزعم البعض أن الذباب في ذلك كالكلب .

ومن أعاجيب الكلاب أنه إذا سفد الكلبة كلب أبقع ، وكلب أسود ، وكلب أبيض وكلب أصفر ، فتؤدي إلى كل سافد شكله وشبهه في أكثر ما يكون ذلك .

ويتصل ذلك بموضوع السلوك الجنسي Sexual Behavior أو الغرائز Instincts وموضوع الوراثة Heredity (ص ٥٧ ، ٥٨) .

وقد زعم فهد الأحزم أن الكلب إنما عرف مخرج ذلك الشيء المؤذي له حتى نبحه بالقياس ؛ لأنه إنما نبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجبهة ، ويتضمن هذا المعنى إشارة لمفهوم التشريط Conditioning في موضوع التعلم Learning (علم النفس العام) (ص ٧٤ ، ٧٥) .

ولكن يشير الجاحظ هنا إلى أن « فهد » كان يتعصب للكلب ، ويمكن أن توحي هذه الإشارة بإمكانية وجود نوع من التعصب يمكن تسميته : « التعصب للحيوان » ، بما يمكن أن يندرج تحت موضوع التعصب Prejudice في إطار سيكولوجية الاتجاهات (علم النفس الاجتماعي) (ص ٧٤) .

وعن خير الكلاب والسنانير ، يذكر أن خير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى ألوان الأسد من الصفرة ، والحمرة والتبقيع هجنة ، وأن خير السنانير الخلنجية ، كما أن خير كلاب الصيد البيض .

ويستطرد مشيرًا إلى أن كل شيء من الحيوان إذا أسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه ، وأن الحمام الهداء (الزاجل) إنما هو الخضر والنمر ، ويراد بالنمر ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء ، فإذا أسود الحمام صار مثل الزنجي الشديد البطش والقليل المعرفة .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن الكلب ، ويورد الدليل الذي يسوقه صاحب الكلب على قدره ، وهو ذكره في القرآن بالمدح والذم ، وكذلك في الحديث والأشعار

والأمثال ، وأن ما قيل فيه من الخير أكثر ومن الخصال المحمودة أشهر .

ثم ينتقل إلى الحديث عن سياسة الحزم قائلًا : إن أي رئيس كان خيره محضًا عدم الهيبة ، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، فإنه يكون قد خالف في تدبيره ، كما أن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب (ص ٨٧ ، ٨٨) .

وهذا الحديث عن سياسة الحزم تصل بموضع القيادة Leadership في علم النفس الاجتماعي ، ويتضمن إشارة لمفهوم الثواب Reward والعقاب Punishment .

ويتناول الجاحظ أيضًا موضوع السعادة حيث يذكر أنه ليس هناك شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة ؛ لأن هذه الأمور هي نصيب الروح ، وحظ الذهن ، وقسم النفس . فأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمة ، وكل ما كان من نصيب الحواس ، فقد علمنا أن كل ما كان أشد نهمًا وأرغب كان الطعم أتم للوجدان ، وذلك قياس على مواقع الطُعم من الجائع ، والشراب من العطشان (ص ٩٨) .

ويتضمن هذا الحديث عن السعادة إشارة لمفهوم الانفعالات Emotions ومفهوم الدوافع Motives في إطار علم النفس العام .

ويشير هنا إلى تشابه طباع العامة في كل بلدة وفي كل عصر ، وهذه الإشارة منه تتصل بما يسمى حاليًا « الشخصية القومية » National Character (ص ١٠٥ ، ١٠٦) .

ويتطرق الجاحظ بعد ذلك لعدد من الموضوعات المتفرقة منها حديثه عن مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه ، ودلالة الخلق على الخالق ، وتفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] ، ثم يورد النماذج من الحيوان والحشرات والتي تدعو إلى التفكر وشحذ الأذهان لما فيها من الغرابة ، والعجب ومن ذلك ديدان الخل والملح وفأرة البيش والسمندل (طائر يسقط في النار فلا يحترق ريشه) .

ويتحدث عن الفروق بين الحيوان في الطباع ، وما يحسن الكلب مما لايحسنه الإنسان ومن ذلك خبرة الكلب في الصيد ، وكذلك ما يعتري الحيوان عند الفزع مثل : سلس البول والتقطير أو احتباسه .

ويواصل الجاحظ حديثه عن الكلب ، حيث يتناول ذكاءه ومهارته في الاحتيال للصيد ، وانتباهه الغريزي ووفاءه ، ومعرفته صاحبه وفرحه به حيث يفرق بين وجه صاحبه ووجه الزائر ، ويتحدث أيضًا عن أدب الكلب ، فعندما يعاقب على فعل معين مرات متعددة تتكون لديه عادة جديدة وهي عدم إصدار هذا الفعل .

هذا الحديث عن الكلب يتضمن إشارات لبعض المفاهيم النفسية وهي مفهوم الذكاء Intelligence والانتباه Attention ، والغريزة Instinct (ص ١٢٠) والعادة Habit وكذلك مفهوم التعلم Learning (ص ١٣٠) ، وذلك على الرغم من عدم الدقة في استخدام بعض هذه المفاهيم في سياق الحديث عن الحيوان مثل الذكاء والانتباه ، ولكن من الممكن أن يستفاد بهذه الإشارات عند محاولة تتبع تطور استخدام هذه المفاهيم .

وينتقل إلى الحديث عن بعض الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن العين والحسد (ص ١٣٣) واختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العارفين الذين متى أحيت أبدانهم بأصناف المكروه والمحبوب وازنوا وقابلوا وعايروا وميّزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين (ص ١٤٥) .

ثم يتطرق للحديث عن الإلهام لدى الحيوان ، ويتصل بمفهومي الغريزة والتعلم (ص ١٤٧) .

ويتناول أيضًا إطعام الفراخ الصغيرة لدى كل من الحمام والطائر المسمى بكاسر العظام وهو من سباع الطير بين النسر والعقاب .

ويعود للحديث عن الكلب ، فيتحدث عن أنفته ، ومن مظاهرها أنه يرضى بالنوم على عفر التراب وهو يرى ظهر البساط ، ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة ، كما أنه يتخير أنبل موضع في المجلس ، كما يتناول هراش الكلاب ، حيث يذكر أنه من بين أنواع الهراش التي يقع فيها القمار وينفق عليها ، هنا يشير أيضًا إلى التحريش بين الجرذان ؛ حيث إن الجرذ لا يقاتل الجرذ حتى يشد رجل أحدهما في طرف خيط ويشد الجرذ الآخر بالطرف الآخر ويكون بينهما من المساواة والالتقاء والعض والخمش إراقة الدم وفري الجلود ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يهارش بها .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر حول ما يُشبه بالكلب وليس هو منه ، فيذكر أنه إذا جرى الفرس المحجل شبهوا قوائمه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه ، فيصير تحجيلها كأنه أكلب صغار تعدو .

كما يتحدث عن بعض خصال الكلاب ؛ ومنها الكرم والصبر ، والنوم نهارًا ، وإلفها للإنسان ، ويتناول كذلك تعليم الكلب والقرد ، ويتضمن ذلك إشارة لمفهوم التعلم Lcarning لدى الحيوان ، ويورد بعض الأحاديث والآيات القرآنية التي ذكر فيها اسم الكلب (ص ١٤٧ ، ١٤٨) .

ثم ينتقل إلى الحديث عما يحلم من الحيوان وما يحتلم ، ومن ذلك الكلب والفرس والحمار فهي تحلم وتحتلم ، أما الصبي فيحلم ولا يحتلم ، والثور في هذا كله كالصبي (ص ٢١٦) .

ويتناول أيضًا الحديث عن الغريزة الجنسية والحمل ومدته والحيض والوضع لدى الحيوان ، والحديث عن الصرع عند كل من الحيوان والإنسان ، وكذلك تباين درجات السُكر لدى كل منهما ، ثم يشير إلى سرعة التعلم لدى بعض الحيوان (ص ٢١٦ - ٢٣٣) .

ويتضمن هذا الحديث إشارات لمفهوم الغريزة Instinct ، ومرض الصرع Epilepsy ومفهوم الإدمان Addiction ، ومفهوم التعلم Learning .

ويشير الجاحظ في هذا الباب أيضًا إلى صفات الديك ومنها الشجاعة ، والصبر والجولان وهو ضرب من الروغان ، والانتصاب إذا قام ، ومعرفة ساعات الليل ، ومقادير الأوقات ، ويورد الأحاديث النبوية التي قيلت في شأن الديك ، ومنها أن رسول الله ﷺ نهى عن سب الديك وقال : « **إنه يؤذن للصلاة** » (ص ٢٣٣) .

ثم يتحدث عن كيفية معرفة الديك من الدجاجة إذا كان صغيرًا ، وما قيل من الشعر في حسن الدجاجة ونبل الديك ، وطعن صاحب الكلب في الديك مشيرًا إلى قوله : بأن الأشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور ، وأن الديك مما يتخذه الناس وليس مما يحن إليهم فيقطع البلاد نزعًا ويكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف ، وليس هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم ، كما أن الديك لا يحن إلى دجاجة ولا يألف منزله ولا يشتاق إلى ولده .

كما يسوق المؤلف قول صاحب الكلب في السنور والهرة بأن السنور يعرف ربة المنزل ويألف فرخ الحمام ، ويعابث فراريج الدار ، وأنه إذا سرق وربط شهرًا عاد عند انفلاته وانحلال رباطه ، وأما الهرة فهي تعرف ولدها وإن صار مثلها ، وإن أطعمت شيئًا حملته إليه وآثرته به .

وينطوي هذا القول على مفهومي التعلم والدوافع (دافع الأمومة) .

ويختتم هذا الباب بالحديث عن استخدام الخناقين - وهم من المنصورية أصحاب أبي منصور الكسف - للكلب ، ويورد بعض الخبر والشعر بشأنهم ، وكذلك بشأن رثاء بعض الحيوان .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر يدور حول بعض المسائل اللغوية المتفرقة كالمؤنث والمذكر من الحيوان (ص ٢٨٤ - ٢٨٨) .

ثم يتحدث عن بدء الإبصار لدى أولاد السباع وبخاصة جرو الكلب الذي يظل أعمى عشرة أيام وأكثر بعد ولادته .

ويتعلق ذلك بموضوع النمو الحسي عقب الولادة عند الكلاب .

كما يتناول أيضًا عدد من الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن خبث الثعلب وحيله ، والتقامر بالبيض ، وقتل الحيات والكلاب ، وهديل الحمام ، وعما يصيح من الطير مع الفجر والصبح كالبوم والضوع والعصافير ، ويتحدث كذلك عن صوت الديك وما قيل فيه من الشعر ، وعن الطيور التي تخرج من وكرها بالليل كالخفافيش والوطواط ، ثم يسوق مجموعة من الأشعار التي وردت في الهامة والصدى والدجاج وهجائها .

ومن هذه الموضوعات أيضًا حديثه عن لؤم الغراب وضعفه وألوان الغربان وأنواعها والتشاؤم بالغراب والتعاير بأكل لحمه ، ويورد هنا روايات من أحاديث العرب وأشعار لأمية بن أبي الصلت عن الغراب والديك والحمامة .

وكذلك الحديث عن العصافير وتحننها وتعطفها على أولادها ، ووفائها وحذرها ، وهدايتها إلى الطريق الذي تريده ، وسفادها وأثره في عمرها ، فليس في الطير أكثر سفادًا من العصافير ، ولذلك يقال إنها أقصر الطير أعمارًا .

ويتصل هذا الحديث عن العصافير وتحننها على أولادها ، وسفادها بموضوع الدوافع Motives وبخاصة الدوافع الأولية (ص ٢٦٢ ، ٢٦٣) .

ويشير في حديثه عن العصافير إلى ما يطلق عليه نقزان العصفور أي (الوثب) ؛ إذ إنه لا يقدر على المشي وليس عنده إلا النقزان ، وليس يسمى النقاز ، فهو يجمع رجليه ، ثم يثب في جميع حركاته .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن الديك وسماجة صوته ، وصغر قدر الدجاج ، ويورد بعض الأشعار في هذا المعنى .

ويتحدث عن حضن الدجاج بيض الطاووس ، وحضن الحمام بيض الدجاج ، ويذكر صفات بيض كل من الدجاج والطاووس .

ثم يذكر بعد ما ورد من الحديث والخبر في الديك ، وبعض الموضوعات الأخرى ، ومنها الحديث عن الكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع ، وأسنان الإنسان ، والتفاؤل بالدجاجة .

ويورد هنا أيضًا جزءًا من وصية عثمان الخياط للشطار ، وجزءًا من قصيدة أحمد بن زيادة بن أبي كريمة في الكلب والفهد .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بحكاية طريفة رواها دعبل الشاعر عندما أقام سهل بن هارون وذلك بهدف استنشاط القارئ ودفعًا لسآمته .

الجزء الثالث :

يتضمن هذا الجزء عددًا من الأبواب المختلفة ، يبدأها الجاحظ بباب ذكر الحمام ، حيث يتناول فيه الحمامة وما أودعها الله ﷻ من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة حتى يدري القارئ حكمة الصانع وإتقان صنع المدبر .

ويبدأ بسرد مجموعة من الأخبار والروايات والمواقف الهزلية التي تتضمن حججًا وعللًا طريفة بهدف استنشاط القارئ وإدخال السرور في نفسه ، ويورد أيضًا مقتبسات من نوادر الشعر ومن شعر الغزل والحكم والزهد والتشبيه .

ثم ينتقل إلى باب آخر يدور حول صدق الظن وجودة الفراسة ، ويسوق بعض الأشعار التي تتحدث عن جودة الظن وصدق الفطنة ، ومن ذلك قول أوس بن حجر :

الألمعي الذي يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

وأشعار أخرى حول الاتعاظ والزهد والغزو والسيادة والمجد وهجاء السادة والرثاء .

وفي باب آخر حول المديح بالجمال وغيره ، ويورد مجموعة من الأشعار التي قيلت في مدح الجمل والأشخاص والقبائل والكرم وتمجيد الأقارب (ص ٩١) ، ثم يتحدث في باب آخر عن الغضب والجنون في المواضع التي يكون فيها محمودًا ، فيورد أيضًا مجموعة من الأشعار في هذا المعنى (ص ١٠٥ - ١٠٩) ؛ ويتصل الحديث عن الغضب بموضوع الانفعالات Emotions ، كما يرتبط مفهوم (الجنون) بمصطلح المرض العقلي أو الذهان Psychosis ، ثم يورد مقتطفات متفرقة من الشعر والأقوال المأثورة ، منها ما جاء - على سبيل المثال - في الخصب والجدب (ص ١١٤) .

وينتقل إلى باب آخر يدور حول الفطن الرطانات والكنايات والفهم والإفهام عمومًا ، ويورد في هذا الصدد أخبارًا وروايات تتضمن معنى الفهم .

ويتصل الحديث عن الفهم بموضوع الذكاء **Intelligence** في علم النفس العام (ص ١٢٢ - ١٢٥) .

ويورد بعد ذلك أشعارًا متفرقة في صفة الخيل والجيش وتعظيم الأشراف ، والحلف والعقد (ص ١٢٦ - ١٣٤) .

ثم ينتقل إلى باب آخر حول خصال الحرم والمدينة ، فمن خصال الحرم أن الذئب يصيد الظبي ويريغه ويعارضه فإذا دخل الحرم كف عنه ، كما لا يسقط على الكعبة حمام ما دام غير عليل ، ومن ذلك أيضًا أنه إذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق العراق ، وإذا أصاب الذي من شق الشام كان الخصب والمطر في ذلك السنة في شق الشام ، وإذا عم جوانب البيت كان المطر والخصب عامًّا في سائر البلدان ، أما المدينة فمن خصالها أنها تتميز برائحة طيبة عطرة تعادل أضعاف ما يوجد في غيرها من البلدان .

وفي باب آخر ، يعود الجاحظ للحديث عن الحمام ، الذي أشار إليه في بداية هذا الجزء ولم يتناوله ، فيتحدث عن أجناس الحمام ؛ ومنها الوحش ، والأهلي ، والبيوتي والطوراني ، ويشير إلى مناقبه ومنها حبه للناس ، وأنس الناس به ، وصدق رغبته في النسل ، فإذا علم الذكر أنه قد أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد تقدمًا في إعداد العش في الموضع الذي قد رضياه واتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ، كما يعتني الذكر والأنثى بالبيض والفراخ ، فالحمام : يخرج الحب من حوصلته إلى حوصلة ولده وهو ما يعرف بزق الحمام ، ويتحدث عن القوة التناسلية لدى الحمام ، مشيرًا إلى أنه يفوق في ذلك جميع الحيوان (ص ١٤٩ - ١٥٩) .

ويتصل الحديث عن رعاية الحمام ؛ لولده ، وعن القوة التناسلية لديه بموضوع الدوافع Motives في علم النفس العام .

ويذكر بعض عجائب الحمام ؛ ومنها أنه يقلب بيضه حتى يصير الذي كان منه يلي الأرض يلي بدن الحمام من بطنه وباطن جناحه حتى يعطي جميع البيض نصيبها من الحضن ، ومن مس الأرض ؛ لمعرفته أن خلاف ذلك يفسده ، ويتناول بعض أوجه الشبه بين الحمام والناس ، ومن ذلك أن ساعات الحضن أكثرها على الأنثى ، والأنثى كالمرأة

التي تكفل الصبي فتفطمه وتمرضه وتتعهده بالرعاية ، وهنا يشير إلى قول مثنى بن زهير بأنه لم ير شيئًا قط في رجل وامرأة إلا وقد رأى مثله في الذكر والأنثى من الحمام ، ومن ذلك أن أي حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها .

ويتحدث أيضًا عن المدة التي يبيض فيها كل من الحمام والدجاج ، وهي عشرة أشهر في العام ، ويسوق المعارف والمعلومات المتعلقة بالبيض لدى الطيور عمومًا ، وبتربية الطيور فراخها واختلافها في ذلك .

وينتقل إلى الحديث عن إحساس الحيوان بعدوه ، فيذكر أن النعجة ترى الفيل والجاموس فلا يهزها ذلك ، ولكنها ترى الأسد فتخافه ، وليس عن تجربة وإنما نتيجة لما طبعت عليه من تمييز الحيوان ، ويتصل هذا الحديث عن الخوف لدى الحيوان بموضوع الانفعالات Emotions والغرائز Instincts (ص ١٨٧) .

ويشير الجاحظ إلى اختلاف الناس في الحكم على بلاهة الحمام أو خرقه ، فمنهم من يذكر : (كونوا بلهًا كالحمام) ، ومنهم من يقول : (أخرق من حمامة) ، ويتصل هذا الحديث عن بلاهة الحمام بموضوع الذكاء Intelligence ، كما يشير إلى ما وصف به الحمام من الإسعاد ، وحسن الغناء والنوح ، وهو ما يتصل بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١٨٩ - ٢٠٩) .

ويذكر بعض خصائص الحمام ، ومنها : حسن الاهتداء ، وجودة الاستدلال ، وثبات الحفظ والذكر ، وقوة النزاع إلى أربابه والإلف لوطنه ما ليس لشيء غيره .

ويتضمن هذا الحديث عن خصائص الحمام إشارات لبعض المفاهيم هي : الاستدلال Reasoning والحفظ أو الذاكرة Memory لدى الحمام (ص ٢١٤) ، ثم يتحدث عن سرعة طيران الحمام ، والوقت الملائم لتمرين فراخها وهو وقت جوعها ، وقبل المغرب ، وانتصاف النهار ، ويمكن أن تتصل هذه الإشارة عن تمرين فراخ الحمام بموضوع التعلم (ص ٢٢٠ - ٢٢٥) .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر حول كرم الحمام ، مشيرًا إلى أن من علامات ومظاهر هذا الكرم لدى الحمام الألف والأنس والنزاع والشوق ، وأن ذلك يدل على ثبات العهد وحفظ ما ينبغي أن يحفظ وهو خلق صدق في بني آدم فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير ! (ص ٢٢٧ - ٢٢٩) .

وينطوي هذا المعنى على مفهوم العادة Habit ، ويتحدث في هذا الباب أيضًا عن

بعض الموضوعات المتفرقة منها قص جناح الحمام وأثر ذلك على طيرانه ، وأجنحة الملائكة ، وأعضاء المشي لدى كل من الحيوان والإنسان ، واستعمال الإنسان رجليه فيما يعمله في العادة بيديه ، وقيام بعض الناس بأعمال دقيقة في الظلام ، واختلاف أحوال الناس عند سماع الغرائب ، ثم يورد بعض ما قيل من الشعر في نوح الحمام وفي بيوتها .

وفي باب آخر حول الحمام أيضًا ، يتحدث الجاحظ عن لؤم الحمام وقسوته ، والتي من مظاهرها أنه إذا رأى في البيت طائرًا ذكرًا ضعيفًا ، فإن الذكر الأشد ينقر رأسه ، ثم يافوخه حتى ينقب عنه ويظل ينقر هذا المكان بعد النقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه ، ويتضمن هذا المعنى إشارة لمفهوم العدوان Aggression (ص ٢٥٥ ، ٢٥٦) .

كما يتطرق للحديث عن تلهي الناس بالحمام ، واتخاذه وسيلة للهو واللعب ، والحديث عن قواطع السمك ومجيئها إلى البصرة ، ومعرفة العرب والأعراب بالحيوان ، وانتخاب الحمام أو الخصائص والعلامات التي يجب أن تتوفر فيه ، والحديث أيضًا عن أمراض الحمام وعلاجها ، ثم يتحدث عن تعليم الحمام ، وتدريبه على الطيران ، وورود الماء ، وترتيب الزجل .

ويتصل ذلك بموضوع التعلم Learning لدى الحيوان ، ويشير كذلك إلى كيفية علاج الحمام الفزع أي المصاب بالخوف والذعر والفزع .

ويتصل هذا الحديث عن فزع الحمام وخوفه بموضوع الانفعالات Emotions ، ويختتم هذا الباب ببعض الروايات والأخبار والنوادر التي وردت بشأن الحمام .

وينتقل إلى باب آخر يدور حول الذبان (جمع كلمة ذباب) حيث يذكر أن هناك من الخلق ما هو دقيق وصغير ، ويدل على الله تعالى دلالة العظيم والجليل ، ويتناول أيضًا عددًا من الموضوعات المتفرقة ذات الصلة بالذبان ، ومن ذلك الحديث عن نفوره من بعض الأشياء ، والخوف على من عضه الكلب الكَلِب من الذبان ، والحديث عن سفاد الذباب وأعمارها ، وبعض خصالها ومنها قرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها ، وأكل الذبابة للبعوضة (ص ٢٩٨ - ٣٠٤) .

ويسوق بعض المعارف المتفرقة عن الذباب ، ومنها : أن سكان بلاد الهند لا يطبخون قدرًا ولا يعملون حلوى ولا يكادون يأكلون إلا ليلًا لما يتهافت على طعامهم من الذباب ، كما أن الذبان ليس له قائد ولا أمير ، ويتحدث عن الأصوات المكروهة ، ومنها غطيط النائم ، وعما يقتات بالذباب كالخفافيش والعنكبوت .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن تقليد الحيوان للحيوان وتعلمه منه ، ويتصل مفهوم التقليد بموضوع التعلم لدى الحيوان (ص ٣٣٩) ، كما يشير إلى خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى (ص ٣٦١) ، ثم يذكر أن هناك بعض أجناس من الحيوان توصف بالغناء ؛ ومنها الحمام والبعوض ، ويعود للحديث عن الذبان ، فيذكر بعض الأمور العجيبة فيه ، وأذاه للدواب ، وألوانه ، وجهله حيث يغشى النار من تلقاء نفسه حتى يحترق ، ويختتم القول في هذا الباب بالحديث عن النوم وعجائبه لدى الحيوان مشيرًا إلى أن هناك بعض الحيوان لا ينام .

وينتقل بعد ذلك إلى القول في الغربان ، فيشير إلى ذكر الغراب في القرآن الكريم ، وأن له فضيلة وأمرًا محمودًا ليس لغيره من جميع الطير ؛ لما وضعه اللّٰه تعالى في موضع تأديب الناس ، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة : ٣١] (ص ٤٠٩ - ٤١٤) .

ويسوق مجموعة من الأشعار والأمثال تدور حول موضوعات مختلفة تتعلق بالغربان ، ومنها تعرض الغربان للإبل ، ونقر الغراب للعيون ، ويتحدث بعد ذلك عما يسمى بغراب البين ؛ حيث إن كل غراب يقال له غراب البين إذا أرادوا به المشؤم ، ولكن غراب البين نفسه هو غراب صغير .

ويمكن أن يتصل الحديث عن التشاؤم بالغراب بموضوع المعتقدات Beliefs ، ثم يذكر الدليل على أن الغراب من شرار الطير ، ويتحدث عن صوت الغراب ، وأسمائه ، وشدة نقره وما يتفاءل به من الطير والنبات ، وعداوة الحمار للغراب ، والأنواع الغريبة من الغربان وكيفية تسافدها .

ويتضمن هذا الحديث عن التفاؤل والتشاؤم إشارة لمفهوم المعتقدات ، كما يتضمن الحديث عن عداوة الحمار مفهوم العدوان لدى الحيوان .

ويختتم هذا الباب بمجموعة من الأشعار المستحسنة في موضوعات متفرقة كالزهد والحكمة (ص ٤٧٣) .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر فيمن يُهجى ويُذكر بالشؤم من الأشخاص ، ومنهم - على سبيل المثال - صالح الأفقم ، الذي قال فيه دعب بن علي إنه كان لا يصحب رجلًا إلا مات أو قتل أو سقطت منزلته ، ويسوق أشعارًا متفرقة في المديح والهجاء ،

وفي عين الرضا وعين السخط (ص ٤٨١) .

ومن الممكن أن يتصل هذا الحديث عن المدح والهجاء ، والرضا والسخط بموضوع الانفعالات Emotions ، نظرًا لما يعكسه ذلك من حالات شعورية تتسم بالسرور في حالة المدح والرضا ، وتتسم بالحزن في حالة الهجاء والسخط .

وفي باب آخر ، يتحدث الجاحظ عن مديح الصالحين والفقهاء ، فيسوق بعض الأشعار الواردة في هذا الصدد ، ومن ذلك قول ابن الخياط في مدح مالك بن أنس ، وقول الحسن ابن مالك الشامي في رثاء الأصمعي (ص ٤٩١) .

ثم ينتقل إلى باب آخر عن الجعلان والخنافس ، حيث يشير إلى أعاجيبها ، وأن الأعراب تزعم أن هناك تسافدًا بين ذكور الخنافس وإناث الجعلان ، ويؤدي هذا إلى خلق ينزع إليها جميعًا ، وأن من عادات الجعل حرسه للنيام (ص ٤٩٦) .

وفي باب آخر يتحدث الجاحظ عن الهدهد مشيرًا إلى أنه طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته ، ومن غير عرض يعرض له ، ولكن الأعراب يجعلون ذلك النتن شيئًا خامره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه ، كما يشير الجاحظ إلى زعمهم بأن الهدهد هو الذي كان يدل سليمان ﷺ على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها ، ثم يذكر أن الهدهد لا يتخذ عشه إلا من الزَبل (ص٥١٠ - ٥١٤) .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن الرخَم والخفاش ، فيقارن بين الغراب والرخمة من حيث القوة ، ويذكر أن الرخمة تلتمس لبيضها المواضع البعيدة ، والأماكن الوحشية ، والجبال الشامخة ، وصدوع الصخر .

أما الخفاش فهو طائر شديد الطيران ، كثير التكفي في الهواء ، سريع التقلب فيه ، ولا يجوز أن يكون طعمه إلا من البعوض ، وقوته إلا من الفراش ، وهو مع ذلك ليس بذي ريش ، وإنما هو لحم وجلد ؛ ولذلك فإن طيرانه بلا ريش عجب ، وكلما كان أشد كان أعجب ، ومن أعاجيب الخفاش أيضًا أنه لا يطير في ضوء النهار ، ولا في ظلمة الليل ، ولذلك يلتمس وقت الغروب للبحث عن رزقه وقوته ، ويتسم الخفاش بأنه طائر ضعيف وقوي البصر ، وليس له منقار مخروط ، وله فم فيما بين مناسر السباع وأفواه البوم ، وأسنانه حادة وصلبة ، وفي هذا الباب أيضًا يتحدث الجاحظ عن علاقة الأذن بنتاج الحيوان ، وعما يحيض من الحيوان كالأرانب والضباع .

ويعود الجاحظ للحديث عن أعاجيب الخفافيش مشيرًا إلى أنها تترك ذرى الجبال ، وبسيط الفيافي ، وأقلاب النخل ، وأعالي الأغصان ، ودغل الغياض ، والرياض وصدوع الصخر ، وجزائر البحر ، ومجيئها تطلب مساكن الناس وقُربهم ، ثم تقصد أرفع مكان وأحصنه .

وأخيرًا يشير إلى أن الخفاش موصوف بطول العمر ، وأن بصره يصلح على طول عمره ، كما أن له صبرًا على فقد الطُّعم .

الجزء الرابع :

يتضمن هذا الجزء عدة أبواب ، ويبدأها الجاحظ بباب حول النمل ، فيتناول خصائص النملة ، ومنها أنها تدخر للشتاء في الصيف ، وتخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف أن تعفن أو تسوس ، كما تتميز النملة بصدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ، وبعد الهمة والجراءة على محالة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة ، ويستشهد على كلام النمل من القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

ويورد بعض الأمثال والأشعار والأحاديث ، والآثار الواردة في النمل ، ثم ينتقل للحديث من أجناس الحيوان التي تدخر قوتها ومنها الذر والنمل والفأر والجرذان والعنكبوت والنحل وفي نهاية هذا الباب يتحدث عن أجنحة النمل حيث يذكر أنها من أسباب هلاكه .

وفي باب آخر ، يتحدث الجاحظ عن القرد والخنزير ، فيبدأ بسرد ما ذكر في القرآن عن الحيوان ، ثم يتحدث عما ذكر منها بالذم والنقص والهوان ، وما ذكر منها بأمور محمودة ، وهنا يشير إلى بعض مساوئ الخنزير ، ومنها قبح المنظر والصوت واللواط المفرط ، وأنه يشترك مع القرد في المسخ .

ويذكر بعض الأنواع التي تؤكل من الحيوان ، والأقوام التي اعتادت ذلك ، ويشير إلى ما يقبل الأدب من الحيوان مثل الفهود والبوازي والشواهين والصقورة والعقاب ، وتتصل هذه الإشارة عن قابلية بعض الحيوان للأدب بموضوع التعلم Learning .

ومن طباع الخنزير أن الذكر يقاتل في زمن الهيج فلا يدع خنزيرًا إلا قتله ، وتتصل هذه الخاصية عند الخنزير بموضوع العدوان ، كما أن من خصائص الخنزير أنه إذا قلعت عين واحدة منه هلك ، ويصل عمره إلى حوالي خمسة عشر عامًا .

ويعود الجاحظ للحديث عن الهدهد ، مشيرًا إلى مسألته مع سليمان عليه السلام ، وأن هذا الهدهد ليس كغيره من الهدهد ، وإنما كان مسخرًا وميسرًا من اللّه تعالى .

ثم يكمل القول في الخنزير ، مشيرًا إلى تحريم لحمه ، وإلى قوته وشدة احتماله ، وأنه من أقوى الفحول على السفاد ، وشبه صوته عندما يضرب بصوت الصبي المضروب .

وبعد ذلك يتحدث عن القرد وطباعه ، ومنها أن يضحك ويطرب ، ويتناول الطعام بيديه ويضعه في فيه ، ويأنس الأنس الشديد ، وإذا سقط في الماء غرق ولم يسبح ، كما يحكى عنه من شدة الزواج ، والغيرة على الأزواج مالا يحكى مثله إلا عن الإنسان .

ويتصل هذا الحديث عن ضرب القرد وضحكه وغيرته على الأزواج بموضوع الانفعالات ويختتم الجاحظ هذا الباب بالحديث عن هجرة السمك .

وينتقل إلى باب آخر حول الحيات ، فيتحدث عن احتيالها لصيد صغار الطير ، وإعجابها باللبن والبطيخ ، وعن قوة بدنها ، ويتناول أيضًا خصائص الأفعى وعجائبها وسمومها ، وعداوة الورل للحيات حيث إنه يأكلها ، وكذلك شراهة الحية والأسد ، وأنواع الحيات وعمرها وفزع الناس منها وعُتله ، ويتصل هذا الحديث عن فزع الناس من الحيات بموضوع الانفعالات .

ويتناول الجاحظ في هذا الباب أيضًا عددًا من الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن جسم الحية وبيضها وسفادها ، وآثارها في الرمال ، وروعة جلدها ، وأنواعها ، ثم يورد بعض أقوال الشعراء ، والمتكلمين في رق الحيات .

كما يشير إلى التأثيرات المختلفة للأصوات في السلوك لدى كل من الإنسان والحيوان ، ويختتم هذا الباب بالحديث عن العقرب وسمها ، وسلخ الحيوان ، وأنواع العيون ، وألوانها لدى الإنسان والحيوان .

وفي باب آخر عن الحيات أيضًا ، يورد الجاحظ بعض الأمثال والأشعار والروايات والأخبار الواردة في الحيات والأفاعي والأوزاغ ، ويسوق بعض المعلومات عن جلد الحية ، ونفعها وسلخها ، وأكل الأعراب لها .

ثم يتحدث في باب آخر عن عدد من الموضوعات المتفرقة ، منها شبه النعامة بالبعير والطائر ، وتقليد الغراب للعصفور .

كما يتحدث عن عظام النعامة وبيضها ، وما قيل فيها من الشعر ، وضررها حيث إنها إذا رأت في الجارية قرط خطفته لتأكله ، ويتناول أيضًا مسكن النعامة ، فهي تسكن

السهل ولا ترقى الجبال ، ثم يورد أشعارًا في النعام .

وينتقل الجاحظ بعد ذلك للحديث عن الصم من الحيوان ، مشيرًا إلى قول العرب بأن هناك ضربين من الحيوان لا يسمعان الأصوات هما الأفاعي والنعام ، ولكن الناس انقسموا في شأن صمم النعام إلى فريقين يذهب أحدهما إلى القول بالصمم ، ويذهب الآخر إلى القول بالسماع ، ويورد الأشعار التي يحتج بها كل فريق منهما ، كما يسوق الآيات والأخبار والأمثال التي وردت في الصمم ومعناه ، كما تحدث عن الشم لدى بعض الحيوانات ، ومن ذلك النعامة والفرس والذئب والذر .

ويتحدث كذلك عن الإنسان الأخرس ، وقول المتكلمين في صممه ، فالأخرس أصم وأنه لم يؤت من العجز عن النطق لشيء في لسانه ولكنه إنما أبى في ذلك ؛ لأنه حين لم يسمع صوتًا قط مؤلفًا أو غير مؤلفٍ لم يعرف كيفيته فيقصد إليه ، والصم يتفاوتون في مقدار الصمم فهم ليسوا بدرجة واحدة ، كما يشير الجاحظ إلى الأعمى من ولد الحيوان مثل الجرو (ولد الكلب) الذي لا يفتح عينيه إلا بعد عشرة أيام أو أكثر ، وأنه قد يعرض شبيه بذلك لكثير من السباع .

ثم يتحدث عن الشم ودرجاته لدى بعض الناس والحيوان كالنعام والسباع والفأر والذر ، ويتطرق إلى مسألة من يرون أن صيد الحيوان وذبحه وقتله يعد قسوة ، وأنه يؤدي إلى التهاون بدماء الناس ؛ لأن الرحمة شكل واحد ، فمن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبي ، ثم يرد على هذا الزعم بالحجج والبراهين التي تدحضه وتدل على تناقض أصحابه في القول والسلوك ، وفي نهاية هذا الباب يورد أشعارًا متفرقة .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن النيران وأجناسها ومواضعها ، ومن ذلك : نار القربان ، ونار الاستمطار ، ونار التحالف والحلف ، ونار المسافر ، والزائر الذي لا يحبون رجوعه ، ونار الحرب ، ونار الصيد والبيض وهي التي توقد للظباء وصيدها ، والتي يطلب بها بيض النعام ، وغير ذلك من أنواع النيران .

كما يتحدث عن نيران الديانات ، وعمن عظم النار ، وعمن استهان بها ، وعمن أفرط في تعظيمها حتى عبدها كالمجوس ، والمواضع التي عظم فيها شأن النار ، وتنويه القرآن الكريم بشأنها .

الجزء الخامس :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بتمام القول في النيران ، والذي قد بدأه في الجزء الرابع ،

فيتحدث عن نيران العرب والعجم ، ونيران الديانة ، ومبلغ أقدارها عند كل ملة ، وما يكون منها مفخرًا ، وما يكون منها مذمومًا ، وما يكون صاحبها بذلك مهجورًا .

ثم ينتقل إلى الحديث عن المجاز والتشبيه بالأكل ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] ، وكذلك الحديث عن مجاز الذوق ؛ كقول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده : ذق ، وكيف ذقته ؟ وكيف وجدت طعمه ؟ .

وهنا يتطرق الجاحظ إلى قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس ، بأن الأمة التي لم تنضجها الأرحام ، ويخالفون في ألوان أبدانهم ، وأحداق عيونهم ، وألوان شعورهم سبيل الأعتدال ، لا تكون عقولهم وقرائحهم إلَّا على حسب ذلك كون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم (ص ٣٥ ، ٣٦) .

وتجدر الإشارة إلى أن النظام يقصد بالأمة التي لم تنضجها الأرحام الجنس الأبيض وهم سكان الإقليم السادس والسابع في التقسيم البلداني القديم .

ويتصل قول النظام هذا عن علاقة الذكاء بالجنس ، بموضوع الفروق الحضارية في الذكاء والأخلاق ، وينطوي تحت ما يسمى بالدراسات الحضارية المقارنة Cross - Cultural Studies .

ويتحدث الجاحظ بعد ذلك عن أركان العالم ، فيورد قول الدهرية في ذلك ، حيث إن منهم من قال بأن العالم يتكون من أربعة أركان هي : حر وبرد ويُبس وبلةَ ، كما أن منهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان هي : أرض وهواء وماء ونار ، ويورد أيضًا قول الديصانية بأن العالم من ضياء وظلام ، وأن الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها ، ثم يورد رد النظام على هذا الزعم ، ونقده لبعض مذاهب الفلاسفة (ص ٤٠ - ٥٢) .

ويشير الجاحظ في باب آخر إلى أن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ، ومتى اشتدت الحمرة صارت سوادًا ، وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سوادًا (ص ٥٨ - ٥٩) .

ويعود للحديث عن النار وألوانها ؛ حيث يذكر أن النار تتغير في ألوانها في العين على قدر جفوف الحطب ورطوبته ، وعلى قدر أجناس العيدان والأوهان ، فنجدها شقراء وخضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر ، ويسوق من الأشعار ما قيل في ألوان النار وعلة اختلافها .

ويذكر الجاحظ هنا أيضًا تعظيم المجوس للنار ، ويورد بعض الأخبار والأشعار التي

قيلت في البرودة والثلج وصفة الحر والصواعق ، ويتناول ما قيل في النار وحسنها وتعظيم الله لشأنها .

ثم يتحدث عن الماء ، وما قيل فيه ، وزعم أصحاب الأعراض بأن الهواء سريع الاستحالة إلى الماء ، والعكس ، ويشير إلى قول أحد المتكلمين في النفس بأنها من جنس النسيم الذي بفساده تفسد الأبدان ، وبصلاحه تصلح ، كما أنها - أي النفس - القائمة في الهواء المحصور عرضة لهذه النفس المتفرقة في أجرام جميع الحيوان (ص ١١٢ - ١١٣) .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن النار وما لها من الخصال المحمودة ، مشيرًا إلى أن الطفل لا يناغي شيئًا كما يناغي المصباح ، وأن تلك المناغاة له في تحريك النفس وتهييج الهمة والبعث على الخواطر وفي فتق اللهاة وتسديد اللسان وفي السرور الذي له في النفس أكرم أثر (ص ١١٩) .

ويمكن أن يعكس هذا الحديث بعض المفاهيم ذات الصبغة النفسية ، حيث يتضمن إشارة للغة عند الطفل (المناغاة) ، ومفهوم الانعكاس Reflex عند نظر الطفل للمصباح ، ومفهوم الانفعال Emotion والذي يبدو في سرور الطفل عند نظره للمصباح .

كما يتطرق للحديث عن قول الأديان في النار ، وكذلك ما قيل من الآيات والأخبار والأشعار في الماء وصفته وفضله .

ثم يستأنف الجاحظ حديثه عن الحيوان والطير بالقول في العصافير ، حيث يجمع ما ذكر فيها في مواضع متفرقة في هذا الباب ، فيذكر أن العصافير من بين أجناس الطير التي تألف دور الناس فهي لا تفارقهم ، وإن وجدت دار مبنية لا تسكنها حتى يسكنها إنسان ، ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان ، فبمفارقته تفارق وبسكناه تسكن ، وقد يدرب العصفور ويثبت فيستجيب من المكان البعيد ، أي أنه يعود منه مع التدريب ، وهذه فضيلة للعصفور ، حيث نجد أن الحمام مثلًا لا يقيم معهم في دورهم إلَّا بعد أن يعلموه ويرتبوا حاله ويدرجوه .

ويتصل هذا الحديث عن تدريب كل من العصفور والحمام بموضوع التعلم Learning في إطار علم النفس العام (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) .

ويذكر ضروب الطير والفراخ والأجناس التي تعايش الناس كالكلب والنسور والفرس والبعير ، والحمار ، والبغل ، والحمام ، والخطاف ، والزرزور ، والخفاش ، والعصفور ، ثم

يذكر الأجناس الفاضلة من الحيوان ، وهي التي تتميز فيها الذكورة من الأنوثة في الشكل ، كالرجل والمرأة ، والديك والدجاجة ، والعصفور والعصفورة ؛ لأن العصفور الذكر له لحية سوداء .

ويتناول بعد ذلك حب العصافير لفراخها مشيرًا إلى أنه ليس في الأرض طائر وسبع ولا بهيمة أحنى على ولده ولا أشد به شغفًا وعليه إشفاقًا من العصافير (ص ٢١٠ - ٢١٢) .

ويتضمن هذا الحديث إشارة لمفهوم الدوافع Motives وبخاصة دافع الأمومة ، كما يتناول أجناس الحيوان التي لا يستطيع أن يُسمح له بالمشي ومنها الضبع ؛ لأنها خلقت عرجاء ، وكذلك الذئب والظبي . وأما ما يجيد المشي من الحيوان والطير فمنه الذباب والقطاة ، ويتحدث الجاحظ هنا أيضًا عن بعض الخصال في العصافير ، ومنها كثرة عدد السفاد ، وأن العصفور لا يستقر ما كان خارجًا من وكره ، ويصبح مع الصبح ، كما أن الناس يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السخفاء ، وتلجأ العصافير إلى حجرة الضباب عند شدة الحر .

وعند صيد العصافير يشير إلى أنها تصاد بأهون حيلة ، فيصيد الرجل منها في اليوم الواحد المائتين وهو وادع .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن العقارب والفأر والسنانير مشيرًا إلى وجود عداوة بين الفأر والعقارب ، وكذلك بين السنانير والفأر ، وهنا يتطرق للحديث عن مظاهر العدوان لدى بعض الحيوان كالديكة والكلاب والكباش والجرذان (ص ٢٤٥ - ٢٤٨) .

ثم ينتقل للحديث عن السنور وما له فيه فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان ، حيث يزعم الجاحظ هنا أن السنور يستطيع نطق عدد من الحروف ، ويدلل على ذلك بسماع تجاوب السنانير وتوعد بعضها لبعض في جوف الليل ؛ ومع ذلك فإن الدراسات الحديثة تنفي وجود اللغة لدى الحيوان ، كما يوضح العلة في صعوبة بعض اللغات ، منتهيًا إلى أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك ، وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها .

وتتصل هذه الإشارة عن تعلم اللغات بموضوع سيكولوجية التعلم ، كما تتضمن مفهوم « الدافع للإنجاز » ويتصل بموضوع الدافعية .

وفي باب آخر يفصل القول في الفأر ، فيتحدث عن فأر المسك ، وفأر البيش ،

والسمندل ، وبيت الفأر ، كما يتحدث عن هيج الحيوان ، مشيرًا إلى أن كل أنثى من جميع الحيوان – ما خلا المرأة – فلابد لها من هيج في زمان معلوم ، ثم لا يعرف ذلك منها وفيه إلا بالدلائل والآثار أو ببعض المعاينة .

ويتصل هذا الحديث عن هيج الحيوان بموضوع الدوافع وبخاصة الدافع الجنسي (ص ٣١٢) .

ثم ينتقل إلى الحديث عن أثر البيئة في العقيدة ، مشيرًا إلى دور عملية التنشئة والتقليد في اكتساب العقيدة وانتقالها عبر الأجيال (ص ٣٢٦ – ٣٢٨) .

وتتضمن هذه الإشارة عن كيفية اكتساب العقيدة مفهوم التعلم الاجتماعي Social Learning في موضوع التعلم ، ومفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization ومفهوم التقليد Imitation .

ويتحدث أيضًا عن الهرة وحملها وإيثارها على نفسها ونقلها لأولادها في المواضع من الخوف عليها (ص ٣٤٥ ، ٣٤٦) .

ويتضمن هذا الحديث عن الهرة مفهومي الدوافع (دافع الأمومة) ، والانفعالات وبخاصة انفعال الخوف .

ثم يعود للحديث عن العقرب ، مشيرًا إلى نفعها وأعاجيبها ومنها أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت في الماء سواء كان الماء ساكنًا أو جاريًا ، كما أنها تطلب الإنسان وتقصده نحوه ، فإذا قصد نحوها فرت وهربت ، كما يذكر أن هناك اختلافًا بين سموم العقارب ، واختلاف علاجها ؛ ثم ينتقل الجاحظ إلى عدة أبواب أخرى يتحدث فيها عن القمل والصؤاب والبراغيث والبعوض ، والبق والجرجس والشران ، والعنكبوت ونسجها ، والقراد ، والحبارى ، ويورد أشعارًا في ذلك كله ، كما يتناول أيضًا الحديث عن النحل ونظامه في تقسيم العمل في الخلية ، وعن نفع العسل مستشهدًا بما ورد فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، ويتحدث كذلك عن الضأن والماعز مشيرًا إلى ما يفضل به منهما الآخر من حيث الصفات والخصال والمنافع .

ويورد خلال هذا الحديث ما ذكره له المكي من أن زوجته كانت ذات صُنان وأنه – أي المكي – كان معجبًا بذلك منها ، ونهاها عن إزالة هذه الرائحة لارتباطها بشهوته الجنسية ، وتتضمن هذه الحكاية عن المكي وزوجته إشارة لموضوع الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders (ص ٤٦٧ ، ٤٦٨) .

كما يسوق الجاحظ هنا بعض الأحاديث والأخبار الواردة في الغنم ويورد مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز .

وينتقل الجاحظ بعد ذلك إلى القول في الضفادع ، فيذكر بعض الأعاجيب والمعارف عنها ، ومن ذلك أن الضفدع لا يصيح ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكه الأسفل في الماء فإذا صار في فمه بع الماء صاح ، كما أن الضفادع تعيش في الماء وتبيض في الشط ، وليس لها عظام وهي من أجحظ الخلق عينًا .

ويختتم باب الضفادع بذكر بعض الأشعار والآثار الواردة فيها .

ويتحدث بعد ذلك عن الجراد مشيرًا إلى بعض المعارف عنه ، ويذكر بعض المعتقدات عما يضر من الأشياء ، كالقول بأن شرب الماء في الليل يورث الخبل ، وأن النظر إلى المحتضر يورث ضعف القلب ، ويمكن أن يتصل هذا الحديث عما يضر من الأشياء بموضوع المعتقدات Beliefs .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن القطا ، حيث يذكر أعجوبة لها ، وهي أنها لا تضع بيضها إلا أفرادًا ، ويورد بعض الأشعار فيها ، وفي تشبيه مشي المرأة بمشيها .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بذكر نوادر وأشعار وأحاديث حول موضوعات ومواقف متفرقة كالمدح والهجاء .

الجزء السادس :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بمقدمة عامة يتناول فيها الخطوط ومنافعها وضرورة وضعها ، والحاجة إلى المنطق ، ثم يسرد الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب ، ويذكر علة عدم إفراد باب للسمك ، وهي عدم وجود شعر يستشهد به على ما قيل فيه ، والشك في أخبار البحريين والسماكين ، ويتحدث كذلك عن معرفة العرب للآثار الأنواء والنجوم ، والشك واليقين .

ويبدأ أبواب هذا الجزء بالقول في الضب وجحره وما قيل فيه من الشعر ، والموضع الذي يختاره الضب لعمل جحره فيه ، حيث يتخذه عند أكمة أو صخرة أو شجرة ؛ لأنه يتسم بالنسيان ، ومن ثم فهو يتخذ من هذه الأشياء علامة ترشده إلى موضع جحره وتسهل عليه العودة إليه عندما يخرج للطعم (ص ٤٢) .

وتتصل هذه الإشارة عن موضوع جحر الضب بمفهوم الذاكرة Memory .

ويتحدث عن أكل الضب ولده ، ويورد الأشعار التي قيلت في هذا الصدد ، وقول

من ينكره ، ويسوق بعض الأعاجيب والغرائب عن الضباب ؛ ومنها طول الذماء وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس ، ومنها أيضًا طول العمر واتخاذه الجحر في الصلابة والارتفاع .

وعن صفات بعض الحيوان يشير الجاحظ إلى أن الضب يتصف بالخبث والمكر كما أن الثور والجمل الفحل والناقة تتصف بالكبر ، وهنا يذكر أسماء بعض القبائل العربية التي تتصف بالكبر ، كما يشير إلى أن الكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم .

وهذه الإشارة عن الكبر لدى الناس يمكن أن تتصل بسيكولوجية الأخلاق Morality (ص ٧٠ - ٧٢) .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الضب فيورد بعض أقوال العلماء في تناسلها ، وقول العوام وأهل الكتاب في المسخ ، والقول فيمن استطاب أكل لحم الضباب ومن عافه ، كما يتحدث عن بيض الضبة وعدده ، وعداوتها للحية ، ثم يورد أشعارًا وأمثالاً وردت في الضب .

وينتقل بعض ذلك للحديث عن الجن ، وتزاوجه من الأنس ، وما قيل في الجن من الآيات القرآنية والأخبار والأشعار ، كما يتحدث حول من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون غزيف الجان ، وحول ما يشبهون بالجن والشياطين وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم .

ويتطرق الجاحظ هنا لعدة موضوعات حول الجن منها الحديث عن مواضع الجن ومراتبه ، وزواج الأعراب له ، ورؤيته ، وطعام الجن وشرابهم ورؤوس الشياطين .

وينتقل إلى الحديث عن تعليل ما يتخيله الأعراب من عزيف الجان ، وتغول الغيلان حيث يذكر أن الوحدة والخلوة والبُعد عن الناس يؤدي إلى الخوف والهم ، وأن الفكر ربما كان من أسباب الوسوسة ، وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع .

وينطوي هذا الحديث عن تعليل الجاحظ لما يتخيله الأعراب من عزيف الجان ، على بعض المفاهيم ذات الصلة بالمرض النفسي وهي مفهوم الوسوسة Obsession ومفهوم الهلاوس Hallucination (البصرية والسمعية) ، ومفهوم الانفعال Emotion (وبخاصة انفعال الخوف) ومفهوم اضطراب التفكير Thought disorder وذلك من خلال إشارة

الجاحظ عن تفرق الذهن وحدوث الهلاوس البصرية والسمعية (ص ٢٤٨- ٢٥٢).

ويتحدث الجاحظ بعد ذلك عن نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع مستشهدًا بالأشعار الواردة في هذا المعنى ، ثم يتطرق للجد من أمر الجن فيشير إلى مسألة استراق الشياطين السمع ، والقائلين بهذا والرد عليهم بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن ؛ والتي تشير إلى أن من يحاول استراق السمع فإنه سيتعرض للإحراق بالنار والقذف بالشهب ، ومن ذلك الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

ويورد الجاحظ بعد ذلك أشعارًا متفرقة ، منها قصيدتان مطولتان لأبي سهل بشر بن المعتمر وردتا في شأن أصناف بعض الحيوان والطير والحشرات ، كما يورد تفسيرًا لهما ، وهما قد جمعتا كثيرًا من الغرائب والفرائد ، ونبه من خلالهما على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة المستخلصة من ذكر هذه الأصناف وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأصناف من الحيوان والطير والحشرات قد ورد الحديث عنها عبر أبواب الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

وخلال ذلك يتطرق الجاحظ إلى الحديث عن الأرانب وصفاتها وبعض أعاجيبها ومن ذلك أنها تحيض ، وتنام مفتوحة العين ، كما يتحدث عن منافعها من جلد ووبر ولحم وطيب ، وفي باب آخر يتحدث عن الجبن ووهل الجبان ، ويورد أشعار متفرقة في هذا المعنى ، ويتصل الحديث بمفهوم الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الخوف (ص ٢٤٨ - ٢٥٢) . ويعود للحديث عن أصناف من الحيوان كالضبع والقنفذ والحرقوص والورل وما قيل فيها من الشعر ، وكذلك خصال الذئب والفهد ومنها أن الذئب ينام بإحدى عينيه كما تزعم الأعراب ، وأن الفهد أنوم الخلق ، ونومه مصمت أي خالص ، ثم يورد بعض الأشعار التي قيلت في الذئب والفهد ، كما يشير الجاحظ هنا إلى أن من الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس وينصح العقعق ، وأنه إذا زجر عرف ما يراد منه ، وتتصل هذه الإشارة بموضوع التعلم لدى الحيوان .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بذكر بعض المتفرقات من النوادر والأشعار والأحاديث ، ومن ذلك أحاديث عن أعاجيب المماليك ، وأشعار في إنقاص الصحة والحياة ، وفي المرض والموت والرثاء ، ومقتطفات شعرية متفرقة .

الجزء السابع :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء باستعراض ما قد فصله في الأجزاء الستة السابقة فيما يتعلق بأحاسيس أجناس الحيوان المختلفة ، ثم ينتقل إلى إجمال ما سوف يفصله في هذا الجزء

من موضوعات ، ويلي ذلك حديثه عن اتباع الرخم والنسور والعقبان للجيوش ، وتوقعها القتال وحصولها على الجيف ، وكذلك تتبعها للحجاج للحصول على كسير الدواب ، ويشير الجاحظ هنا إلى أن هذا السلوك يدل على ذكاء هذه الطيور .

وعلى الرغم من عدم استخدام مفهوم الذكاء في دراسات علم النفس الحيواني المعاصرة ، إلا أن هذه الإشارة منه يمكن أن تصنف في إطار تاريخ تطور مفهوم الذكاء Intelligence (ص ٢٢) في علم النفس الحيواني ، وينتقل بعد ذلك للحديث عن عدد من الموضوعات المتفرقة منها حديثه عن قتل المكاء للثعبان ، وحزم فرخ العقاب ، واختلاف عادات صغار الحيوان ، وكذلك حديثه عن الختان لدى الرجال والنساء ، وظمأ الإبل إذا أكلت الحيات ، وتعلق رؤوس الحيات في بدن الإبل ، ونصول قرن الوعل ، وبيوت الزنابير ، وصيد الظربان للضب ، وبعض خصائص الدب والعقاب ، وما قيل حول حمق الأجناس المائية وفطنتها ، وحيلة الضب واليربوع ، وبعض خصائص الإبل ومنها أن الناقة تعرف الكلمات المراد بها الزجر ، ويتصل هذا الحديث عن معرفة الناقة لكلمات الزجر بموضوع التشريط Conditioning في إطار سيكولوجية التعلم Learning ضمن موضوعات علم النفس العام (ص ٤٤ - ٥٨) .

كما يتحدث الجاحظ عن قدرة الحيوان على رفع اللبن والتحكم في عدم إنزاله ، وعن حشر الحيوان في اليوم الآخر ، وما جاء من القرآن الكريم في ذكر الطير ، وأسماء ما في النجوم والبروج والناس وغير ذلك - من أسماء الطير - كما يشير هنا إلى أن الطير لها منطق تتفاهم به فيما بينها ، وأنها تعقل في حدود حاجاتها ، وربما يتعلق ذلك بمفهوم الذكاء Intelligence وتطوره كما سبق أن أشرنا (ص ٥٦ - ٥٨) .

ويتناول أيضًا ما جاء في الشعر من إحساس الحيوان والطير ، وهنا يشير إلى أن الحيوان لديه ما يمكن أن نطلق عليه الانفعالات Emotions ، حيث يضرب مثلًا بالحباري وأنها إذا تحسرت فأبطأ نبت ريشها نبت ولم تتزامن مع صويحباتها في الطيران تموت كمدًا من الحزن (ص ٦٠) .

وفي باب حول اختلاف طبائع الحيوان وما يعتريها من الأخلاق يذكر المؤلف أن الذئب لا يطمع في صاحبه ولكنه إذا دمي وثب عليه فأكله ، وأن الغنم تتسم بالعجز والجبن أمام الذئاب ، والحمار إذا دمى ألقى نفسه على الأرض لا يبرحها ، ولكنه يمتنع عمن يريده بالعض وكل ما يقدر عليه ، وتلخيص ذلك أن الحيوانات تختلف في ردود أفعالها عندما تصاب بأذى .

ويمكن أن يندرج هذا الحديث عن طبائع الحيوان تحت موضوع سيكولوجية السلوك العدواني Aggressive Behavior لدى الحيوان (ص ٦٣ - ٦٥) .

وينتقل إلى باب آخر حول ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع اللّه ﷻ ، ويتطرق هنا إلى ذكر أنواع الحيوان والطير التي تبيض وتلك التي تلد وترضع ، وكيفية حدوث ذلك لدى كل نوع منها على حدة ، ويشير إلى أسماء مواضع الفراخ والبيض ، وأكثر الحيوان بيضًا مثل السمك والجراد والعقارب ، وأن الحمام من أقل الحيوان بيضًا ويشير إلى حكمة ذلك ؛ كما يذكر أثر الإلقام والزق في الحيوان ، فالذي يلقم فرخة يكون أقوى من الطائر الزاق ، وكذلك ما يتزاوج من الحيوان ؛ كالعصافير والحمام والنعام .

ويتناول بعد ذلك بعض صفات الفيل ومنها شدة قلبه وأسراره وجرأته على ما هو أعظم بدنًا ، وأشد قلبًا ، وهربه ممن هو أصغر جرمًا ، ويذكر هنا أن الفيلة تطيع سواسها وتفهم ما يطلب منها كأن يطلب منها ضرب إنسان باستخدام ضروب معينة من الكلام .

ويتصل ذلك بموضوع سيكولوجية التعلم Learning في علم النفس العام (ص ٧٥ - ٨٧) .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن الفيل مشيرًا إلى أن الفيلة تضع لسبع سنين ولدًا مستوي الأسنان ، وأن الموت للذكور أسرع ، ويذكر ما جاء في الفيلة من الشعر ، وما ورد في كليلة ودمنة من الأمثال في شأنها ، ويتحدث عن قوة الفيلة وسباحتها وأعضائها التناسلية .

ثم ينتقل الحديث عن أنواع العداوات لدى كل من الإنسان والحيوان ، فمن عدوات الإنسان ما هو بسبب المشاكلة في الصناعة أو التقارب في الجوار أو النسب ، أما عدوات الحيوان فمنها عداوة الغراب للحمار وعداوة البوم للغراب .

ويتصل هذا الحديث عن العدوات بسيكولوجية العدوان Aggression .

كما يعرض الجاحظ في هذا الجزء أيضًا لبعض الموضوعات المتناثرة منها مبارزة الجاموس للأسد ، وخوف الفيل من السنور ، وتداوي أهل الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعجافها ، وقتال الفرس للفرس ، ومصاولة الجمل للجمل ، وهياج الفيل وقتاله في الحرب ووصف خرطومه ، ويشير إلى مثالب الفيل ومنها عدم الانتفاع بلحمه ولبنه ، وسمنه ، على الرغم من أنه عظيم المؤنة ومرتفع الثمن ، وإلى بعض صفاته ومنها أنه

أفقم ، قصير العنق ، مقلوب اللسان ، ضئيل الصوت .

ويعرض الكتاب كذلك لتدريب الفيل على السجود للملوك ، وفهمه للغة الهندية ، ومحاكاة الببغاء لكلام الناس ، وفهم بعض الحيوان له ، ويتصل هذا الحديث عن تدريب الفيل بموضوع التعلم Learning لدى الحيوان (ص ٢١٨) .

ويواصل الجاحظ حديثه عن الفيل ، حيث يذكر أن الفيلة لا تلد التوائم ، وأن أمراضها أقل من أمراض غيرها من الحيوانات ، كما أنها تأنس وتلقن سريعًا ، وأن الفيل لا يعاود الأنثى للضراب إذا لقحت ، وهو في ذلك سواء مع الجمل .

ثم ينتقل إلى باب آخر حلو « الظلف » وهي الظباء وهي ماعز ، والماعز أجناس ، كما أن البقر الوحشي ذات أظلاف ، وهي بالماعز أشبه منها بالبقر الوحشي ، وهي في ذلك تسمى نعاجًا ؛ ومن الظلف كذلك الوعل والثيتل والتامور والإبل والخنازير والجواميس ، وفي هذا الباب يتحدث عن الزرافة ، وما قيل من أنها نتاج مشترك من النمرة والجمل ، وعن تسافد الأجناس المختلفة ، وما ينتج عنها من نسل مشترك منها ، وأنواع القرون ، وأنها لدى الفيلة تكون من الذكور فقط دون الإناث ، وكذلك السفاد لدى الخنازير ، ويلي هذا حديثه عن تعليم الذئب وتأليفه ، وأنه قد يعلم ويدرب بحيث يكون صيادًا ، وأورد في هذا حكاية من فعل ذلك ودرب الأسد أيضًا .

ويدخل هذا الحديث عن التعليم والتدريب في إطار سيكولوجية التعلم .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن بعض الأمور المتفرقة منها حديثه عن الضب والأرضة والورل ، ويورد بعض النوادر من الشعر والخبر .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الكندي (ت ٢٥٦هـ)
رسائل الكندي [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود .

التعريف بالمؤلف [2] :

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، من قبيلة كندة ، إحدى قبائل الحجاز وكان أبوه واليًا على الكوفة في خلافة المهدي والرشيد العباسيين ، وقد ولد عام (١٨٥هـ ، ٨٠١م) وتوفي عام (٢٥٦هـ ، ٨٧٠م) ، ونشأ بالبصرة وتعلم في بغداد ، وكان مترجمًا ومتبحرًا في علوم الطب والفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والكيمياء والموسيقى والفلك (علم النجوم) ، ويعد أول من نقل فلسفة اليونان إلى الثقافة العربية ، وقد فقدت معظم رسائله الفلسفية ، ونشر ما بقي منها في مجلدين بعنوان : « رسائل الكندي الفلسفية » يتضمن أولها اثني عشرة رسالة ، وثانيهما إحدى عشرة رسالة .

عرض رسالة (الحيلة لدفع الأحزان) :

يتناول الكندي في هذه الرسالة أسباب الحزن وكيفية التغلب عليه ، معتبرًا أن الحزن ألم نفسي (نفساني) ناتج عن فقد المحبوب وفوت المطلوب ، وحتى لا نحزن علينا ألَّا

---

(١) تحقيق عبد الرحمن بدوي - (ط٣) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . المحتويات : في العقل - الحيلة لدافع الأحزان في : رسائل فلسفية للكندي والفارابي ... تحقيق عبد الرحمن بدوي .

(٢) المصدر : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، د. محمد علي أبو ريان ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية (١٩٨٠م) . (ص ٣٣٩ - ٣٤٢) .

نرغب فيما هو حسي ، ونكتفي منه بالمشاهدة ، والتخيل العقلي ؛ لأن كل محسوس معدوم بطبعه ، وحتى لا نعدم ما نحب نكتفي برسم صورته في الذهن ، فهذه الصورة غير موقوتة ، بعكس أصلها ، ولا تنالها الآفات أو الفوات ، وعلينا ألَّا نطلب ما ليس في طبعه الدوام ؛ لأنه ليس موجودًا ، ومن أراد ما ليس موجودًا شقي ، ويجب ألا نكون أشقياء بأن نطلب ما تهيأ لنا فقط من المحسوسات ، ونكتفي من ما لا يتهيأ لنا ويتمتع به الناس ، بتثبيت صورته في العقل بالقدر الذي يمتعنا ، ونعوِّد أنفسنا على الاستغناء عنه ، فالاستغناء من أخلاق الملوك ، أما الشره فمن أخلاق صغار العامة ، وحري بذوي العقول أن يختاروا أخلاق الملوك وأن يريدوا ما هو كائن ، فمن أراد ما لا يكون دام حزنه ، والحزن والسرور ضدان لا يثبتان معًا في النفس ، فمن كان محزونًا لم يكن مسرورًا ، وينبغي ألا نحزن على ما فات حتى نظل مسرورين .

ويؤكد الكندي أن المحبوب الحسي ليس محبوبًا بذاته ، وإنما بالعادة وكثرة الاستعمال ، ويضرب الأمثلة على استمتاع الناس بأمور منفرة ؛ فالمقامر يحزن إذا لم يقامر مع أن المقامرة تفقده الأموال ، والمبارز يحزنه عدم المبارزة التي تؤدي إلى القتل ... إلخ ؛ لأن كلًّا منهما تعود الاستمتاع بهذا الفعل ، أي أننا يمكننا تعود السرور بالمشاهدة دون التملك ، والسلوة عما فات ، وإذا كنا نهتم بعلاج الجسد ، فالأجدر أن نفضل علاج النفس ، فالنفس سائس وباق ، والجسد مسوس ودائر ، والحزن من آلام النفس ، فعلاجه أفضل وأوجب ، ويكون بتعود طلب ما تهيأ لنا فقط وعدم الأسف على ما فات ، أي أنه عزم على المصلح لنا والتزام النفس العادة المحمودة ، مع مراعاة التدرج من الأصغر إلى ما هو أكبر منه ، فإذا اعتادت ذلك ، ترقى إلى ما هو أكبر منه ، بذلك تسهل العادة ، ويسهل الصبر على الفائتات .

ويقدم الكندي نصائحه (حيله) حتى لا نحزن وهي :

أولًا : نحدِّد أسباب الحزن ، فإذا كانت نتيجة فعل نصدره بإرادتنا ، فنحن إذًا نريد (الفعل المسبب للحزن) ما لا نريد (الحزن) وليس عاقلًا من يريد ما لايريد ، وينبغي ألَّا نكون كذلك ؛ أما إذا كان الحزن نتيجة فعل آخرين فهذا الفعل إما باستطاعتنا دفعه عنا فندفعه ولا نحزن ، وأما لا نستطيع دفعه ، حينئذ علينا بالصبر فقد يدفعه عنَّا من سببه ، فإذا لم يحدث ذلك ، ينبغي أن نجتهد في تقصير مدته وتلطيفه .

ثانيًا : ومن أفضل الحيل لذلك ، أن نتذكر محزوناتنا التي سلونا عنها قديمًا ومحزونات

غيرنا وسلوتهم عنها ، والمقارنة بينهما وبين محزناتنا الآن ، سنجد أن المحزنات القديمة كانت أكبر ، ومع ذلك سلونا عنها ، ومن هذا يكتسب قوة عظيمة على السلو .

ثالثًا : وأن نتذكر أن كل ما فاتنا وفقدناه قد فات آخرين وفقده الكثيرون ، وكلهم قنع بقوته ولم يحزن ، فالحزن وضع لا طبع ، وينبغي ألا نضع لأنفسنا شيئًا رديئًا ، فمن فعل ذلك غير عاقل .

رابعًا : ونذكر أنفسنا أن الكون لن يخلو من المصائب ؛ لأنها ناتجة عن الفساد ، والفساد من طبائع الأشياء جميعها ، ولن يسلم منها شيء أو فرد ، ولا يعقل أن نطلب شيئًا خارج الطبع ، فلن تناله ، وشقي من يطلب ما لا يناله .

خامسًا : وكل ما هو محسوس ملك الناس جميعًا ، ولا نحصل عليه إلا بالتغلب ، ويجب ألا نحزن إذا فشلنا في الحصول عليه ، وألا نحسد من حصل عليه ؛ لأن من حقه الحصول عليه مثلنا تمامًا .

سادسًا : وكل ما هو محسوس مشترك بين الناس ، وهو معنا بالإعارة ، يعود إلى طالبه متى شاء وعلى يد من أحب ، وعلينا رده عن طيب خاطر ، وقليل الشكر من يحزن على رد ما استعار ، وعلينا ألا نكون كذلك .

سابعًا : ولكي نقلِّل مصائبنا علينا بالتقليل مما نمتلك من قنيات ؛ لأن فقدانها يسبِّب الحزن ، ووجودها يضَيِّق المحل ويتطلب الحرص والحراسة والحفظ ويزيد من القلق والمخاوف عليها والتعلق بها ، والحزن إذا أصابها العطب .

ثامنًا : ينبغي أن نكره ما هو رديء ، ويعتقد أن ليس هناك بد من الموت ، والموت من تمام طباعنا ، وليس برديء أن نكون ما نحن ، فالموت إذًا ليس برديء ، وإذا كان مايظنه الناس أردأ الأشياء ليس برديء ، فما هو دونه من المفقودات الحسية ليس برديء .

تاسعًا : وعلينا أن نتشاغل عند فقد شيء ما ، بتذكر ما بقي لنا من قنياتنا الحسية والعقلية وتعدادها ، ففي ذلك سلوى عن فقد الشيء المفقود .

عاشرًا : وعلينا أن نتذكر أن فقد الشيء ليس مصيبة وإنما نعمة ؛ لأن من لم يقتن الخارجات عنه مَلَكَ مسترقى الملوك أي الغضب والشهوة .

هذه وصايا التخلص من الحزن .

يقدم الكندي في هذه الرسالة إرهاصات جيدة لأساليب العلاج السلوكي المعاصرة ، فهو يكرس رسالته لعلاج الحزن الناتج عن الفشل في الحصول على المرغوبات أو فقدها ،

أي طبقًا لمصطلحات علم النفس لعلاج الإحباط Frustration ، ويوظف في ذلك عددًا من المبادئ التي لا تختلف عما هو منشور حديثًا ، مثال ذلك :

أولًا : يشير الكندي إلى أن السعادة والحزن مكتسبان ؛ إذ يقول : « إن المكروه والمحبوب الحسي ليس شيئًا في الطبع لازمًا ، بل بالعادات وكثرة الاستعمال » (ص ١٠) ، متفقًا بذلك مع نظرة « سيكنر » في التعلم الشرطي الأدائي Operant التي تعتبر أن السلوك يكتسب إذا تكررت نتائجه الإيجابية أو أوصل إلى تحقيق مرغوب ، وينطفئ إذا ترتب عليه عقاب أو مكروه .

ثانيًا : يقول الكندي إن علاج الحزن يتم بـ « التزام النفس العادة المحمودة في الأمر الأصغر الذي لزومه سهل علينا ، ثم نرتفع من ذلك إلى لزوم ما هو أكبر منه ، فإذا اعتادت ذلك ترقى بها إلى ما هو أكبر في ذلك في درج متصلة حتى تلزمها العادة » (ص ١٢) . أي أن تعلم العادات يجب أن يتم على خطوات متصلة ولا يكون الانتقال من خطوة إلى أخرى إلا بعد تعلمها جيدًا ، وهذا التدرج لا يختلف كثيرًا عن مبدأ التشكيل Shaping ، حيث يقسم السلوك المراد أن يكتسبه الفرد إلى خطوات متتابعة ، ويدرب الفرد على اكتساب كل خطوة منها ، حتى يكتسبها ، فيتم الانتقال إلى الخطوة التالية ، وهكذا يتم اكتساب السلوك .

ثالثًا : يبدأ الكندي علاجه للحزن بتحديد أسبابه ؛ إذ يقول : « فينبغي أن نبين ما الحزن وأسبابه ، لتكون أشفيته ظاهرة الوجود ، سهلة الاستعمال » (ص ٦) ، « ومن أدويته السهلة : أن نفكّر في الحزن ونقسّمه إلى أقسامه » (ص ١٢) متفقًا في ذلك مع المبدأ الأول والأساسي للعلاج النفسي الحديث وهو : « فهم دقيق ونوعي لأسباب السلوك المرضي » .

رابعًا : يعتبر الكندي أن تخيل ما لا نناله وسيلتنا للتغلب على الحزن الناتج عن بُعد مناله ؛ إذ يقول : « بل تكون إذا شاهدنا الأشياء التي يتمتع بها الناس من المحبوبات في العقل أعني قدر ما بالنفس إليه في متناول يديه ، ويستمتع بهذا التخيل أكثر من الاستمتاع بالشيء الأصلي ؛ لأن الشيء الأصلي معدوم بطبعه ، أما الصورة الذهنية فهي في العقل دائمًا لا تنتزع ، وقد استخدم التخيل في أكثر من أسلوب للعلاج النفسي منها : التسكين المنظم .

خامسًا : تماثل الوصايا العشر التي ذكرها الكندي لعلاج الحزن الأسلوب الذي اتبعه

أليس Ellis في العلاج النفسي مستندًا إلى أن كثيرًا من الاضطرابات ناتجة عن معتقدات فكرية خاطئة ، لذا يعلم مرضاه طرق جديدة للتفكير وإدراك المواقف ولا تختلف هذه الطريقة عن الأسلوب الذي اتبعه الكندي .

* * *

ابن سحنون (ت ٢٥٦هـ)
رسالة آداب المعلمين [1]

عرض : د . الحسين عبد المنعم

التعريف بالمؤلف [2] :

هو محمد بن عبد الإسلام بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي أبو عبد اللّٰه - فقيه مالكي مناظر ، كثير التصانيف من أهل القيروان ، لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ، رحل إلى المشرق سنة (٢٣٥هـ) ، وتوفي بالساحل سنة (٢٥٦هـ) ، ونقل إلى القيروان فدفن فيها ، ورُثِيَ بثلثمائة مرثية ، كان كريم اليد وجيهًا عند الملوك عالي الهمة .

ومن مؤلفاته : « آداب المعلمين » صدرت بترجمة حسنة له من إنشاء حسن حسني عبد الوهاب ، « أجوبة محمد بن سحنون في الفقه » ، « الرسالة السحنونية » ، « رسالة في فقه المالكية » ، « الجامع في فنون العلم والفقه » ، « السير » عشرون جزءًا ، « التاريخ » ستة أجزاء ، « آداب المتناظرين » جزآن ، « الحجة على القدرية » .

عرض الرسالة :

تقع الرسالة في سبع عشرة صفحة من القطع المتوسط ، وهي ملحقة بكتاب التربية

---

(١) القاهرة : دار المعارف ، (١٩٦٨م) . (١٦ص) . (دراسات في التربية) . ضمن : التربية في الإسلام / أحمد فؤاد الأهواني .

(٢) المصدر : معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، بيروت ، مكتبة المثني (١٠/١٦٩) ، الأعلام : للزركلي (٦/٢٠٤ ، ٢٠٥) ، دار العلم للملايين ، (١٩٨٦م) .

في الإسلام أو التعليم عند القابسي ، تأليف الدكتور / أحمد فؤاد الأهواني ، الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة (ص٣٥١ - ٣٦٧) - القاهرة (١٩٥٥م) .

١ - تبدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، ثم يورد لنا أحاديث نبوية شريفة في فضل ما جاء في تعليم القرآن الكريم لحديث : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » (ص ٣٥١، ٣٥٢) .

٢ - ثم يؤكد بالأدلة الشريفة على ضرورة العدل بين الصبيان .

٣ - كما قدم لنا بابًا فيما يكره محوه من ذكر الله تعالى ، وما ينبغي أن يفعل من ذلك - ونهى عن مسح الألواح بالأرجل ، وقدم لنا نماذج من عهد الأئمة لصبيان كانوا يمحون كلام الألواح بالماء ، ثم يحفرون حفرة في الأرض ، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف .

٤ - ثم قدم لنا بابًا آخر في الأدب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز - وخلاصته أنه لابد من الرفق بالصبيان ؛ وخاصة اليتامى والمساكين - وأن لا يَضرب المعلم الصبيان وهو في حالة غضب - وأن يؤدبهم على اللعب والبطالة ، كما يؤدبهم على تصبرهم في قراءة القرآن وحفظه - وأن أدب الرجل لولده خير من التصدق - وأن يكون الأدب على قدر الذنب .

● ويرتبط الحديث هنا بأساليب الثواب والعقاب ، وإن كانت هناك إشارة إلى موضوع السيطرة على الانفعال (ص ٣٥٤) .

٥ - وبعدها حدثنا ابن سحنون عن ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم : وتلزم بعد الانتهاء من حفظ القرآن ، أو قراءته وتجويده ، وهي على قدر يسر الرجل وعسره ، وله أن يعطي المعلم إن شاء ، وإن شاء لم يعطه .

٦ - وعطية العيد لا يقضي بها ، وإنما هي على سبيل التطوع ، ولا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئًا من هدية وغير ذلك .

٧ - وعما ينبغي أن يخلي الصبيان فيه ، قال ابن سحنون : يؤذن للصبيان في الأعياد الفطر يومًا واحدًا ولا بأس أن يأذن لهم ثلاثة أيام ، والأضحى ثلاثة أيام ، ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام .

● ولا يجوز للصبيان أن يرسل بعضهم في طلب بعض إلا بإذن من آبائهم أو أوليائهم .

● وأحب للمعلم ألا يولي أحدًا من الصبيان الضرب ، ولا يجعل لهم عريفًا منهم إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم وعرف القرآن ، وهو مستغن عن التعليم .

٨ - ثم يقدّم لنا ابن سحنون بابًا آخر فيما يجب على المعلم من لزوم الصبيان .

● لا يحل للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكون في وقت لا يعرضهم فيه . فلا بأس أن يتحدث وهو في ذلك ينظر إليهم ويتفقدهم .

● وليلزم الاجتهاد ويتفرغ لهم .

● ولا يجوز له ضرب الصبي على رأسه ، ولا أن يمنعه طعامه وشرابه .

● ولا بأس من أن يعلمهم كتابة الرسائل .

● وينبغي أن يعلمهم الحساب ، وليس ذلك بلازم له إلا أن يُشترط ذلك عليه ، وكذلك الشِّعر ، والغريب ، والعربية ، والخط وجميع النحو ، وهو في ذلك متطوع .

● وينبغي أن يعلِّمهم إعراب القرآن – وذلك لازم له – والشكل والهجاء ، والخط الحسن ، والقراءة الحسنة ، والتوقيف والترتيل ، يلزمه ذلك ، ولا بأس أن يعلِّمهم الشعر الحسن من كلام العرب وأخبارها ، وليس ذلك بواجب عليه .

● على المعلم أن يكسب الدرة والفلقة وليس على الصبيان ، وعليه كراء الحانوت وليس على الصبيان ، ويجعل لعرض القرآن وقتًا معلومًا .

● ولا بأس أن يعلمهم الخُطب ، والأدب فإنه من الواجب للَّه عليه النصيحة وحفظهم ورعايتهم .

● ولا بأس أن يجعلهم يملي بعضهم على بعض ؛ لأن ذلك منفعة لهم . ولا ينقلهم من سورة إلى أخرى حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها .

● ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه ، ويلزمه أن يعلِّمهم الوضوء والصلاة ؛ لأن ذلك دينهم ، وليتعاهدهم بتعليم الدعاء ليرغبوا إلى اللَّه ، ويعرفهم عظمته وجلاله ، كما يعلمهم سنن الصلاة ، ولا يمس الصبي المصحف إلا على وضوء .

● ويساوي بين الصبيان في التعليم ، ولا يعلِّم الصبيان في المسجد ؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ، ولم يُنصب المسجد للتعليم .

● ولا يستحب قراءة القرآن للماشي إلا أن يكون متعلمًا ، ولا في الحمام .

● ولا يسجد الرجل إذا مر بصبي يقرأ سجدة ، وكذلك المرأة إذا قرأت السجدة على الرجل ، لم يسجد معها ؛ لأنها ليست بإمام .

● ويرى ابن سحنون ضرورة الفصل بين الجواري والغلمان في التعليم ، وعلى المؤدِّب أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضًا ، وهنا يتحدث عن شخصية القائم بالاتصال

Communication وأثرها في نفوس التلاميذ ، كما يؤكد على أسس ومبادئ عملية التطبيع الاجتماعي Socialization وهي من أهم مفاهيم التربية الحديثة في إطار علم التربية وعلم النفس التربوي (ص٣٥٧ - ٣٦٢) .

٩ - وبعد ذلك يقدِّم لنا ابن سحنون بابًا فيما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب :

- إذا مرض أحد الصبيان أو خرج إلى سفر لزمت آباءهم الإجارة للمعلم .
- كذلك إذا مات الأب انتقض ما بقي من الإجارة وكان ما بقي في مال الصبي .
- وإن مات الصبي أخذ الأب باقي الإجارة .
- ولا بأس للمعلم أن يشتري لنفسه ما يصلحه من حوائجه إذا لم يجد من يكفيه .
- ولا بأس أن ينظر في العلم في الأوقات التي يستغني الصبيان عنه .
- ويجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره ، يجتهد في ذلك ولي النظر للمسلمين .
- وإذا مات المعلم انفسخت الإجارة ، وكذلك إذا مات أحد الصبيان انفسخ من الإجارة بقدر ما بقي من إجارة مثل الصبي .
- وقالوا إذا استظهر الصبي القرآن كله كان له أكثر في العطية للمعلم ممن إذا قرأه نظرًا ، وإذا لم يتهجَّ الصبي ما يملى عليه ، ولا يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئًا ، وأُدِّب المعلم ومُنع من التعليم إذا عُرِف بهذا ، وظهر تفريطه ، ونلمح هنا إشارة إلى عملية الإشراف والمتابعة التي يقوم بها الموجهون في المدرسة (ص ٣٦٤) .
- وأخيرًا قدَّم لنا ابن سحنون بابًا فيما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها . وقد أجاز الفقهاء بيع المصحف لأن ما يباع هو الحبر والورق والعمل .
- وكذلك أجاز ابن سحنون بيع كتب الفقه ، وقال أيضًا : لا بأس أن يستأجر الرجل المعلم على أن يعلم أولاده القرآن بأجرة إلى أجل معلوم أو كل شهر .
- وإذا أدب المعلم الصبي - الذي يجوز له - فأخطأ ، ففقأ عينه ، أو أصابه فقتله كانت على المعلم الكفارة في القتل ، والدية على العاقلة إذا جاوز الأدب ، وإذا لم يتجاوز الأدب وفعل ما يجوز له ، قال : دية عليه .
- ولا بأس بالرجل يستأجر الرجل أن يعلم ولده الخط والهجاء .
- ويرى بعض أهل الأندلس أنه لا بأس بالإجارة على تعليم الفقه والفرائض والشعر

والنحو وهو مثل القرآن ، إلا أن مالكًا كره ذلك ، وقال : كيف يشبه القرآن والقرآن له غاية ينتهي إليها ، وما ذكر ليس له غاية ينتهي إليها . فهذا مجهول ، والفقه والعلم أمر قد اختلف فيه ، والقرآن هو الحق الذي لا شك فيه ، والفقه ليس مثل القرآن فهو لا يشبهه ، ولا غاية له ، ولا أمد ينتهي إليه .

أوجه الاستفادة من الرسالة في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجالي علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي والتعليمي .

* * *

ابن أبي الربيع (ت ٢٧٢هـ)
سلوك المالك في تدبير الممالك [١]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أحمد بن محمد بن أبي الربيع ، شهاب الدين ، أديب ، كان من رجال المعتصم العباسي .

له تصانيف منها « رسالة سلوك المالك في تدبير الممالك » [٢] . وهو الكتاب الذي نعرض له الآن .

عرض الكتاب :

ويتضمن ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : وهو تمهيد أولي في دراسة الكتاب ، ويعرض فيه المحقق باختصار ما تشير إليه فصول كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك ، موضحًا الفلسفة السياسية لابن أبي الربيع من خلال كتابه هذا .

الجانب الثاني : وهو دراسة تحليلية مقارنة في إعادة تقويم الكتاب ، وفيه إشارة لوضع ومكانة الفلاسفة الأخلاقيين في الإسلام « مثل الكندي ، وأبي بكر الرازي ، والفارابي ، وابن مسكويه ، وابن سينا ، وابن أبي الربيع) .

---

(١) تحقيق ناجي التكريتي . (ط ٣) منقحة ومزيدة . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة (١٩٨٧م) . (٢٤٨ ص) .

(٢) المصدر : الأعلام قاموس تراجم لخير الدين الزركلي المجلد الأول (ص ٢٠٥) .

الجانب الثالث : ويشتمل على فصول الكتاب الأربعة :

الفَصْلُ الأول : في مقدمة الكتاب :

وبدأ فيه بتذكير الإنسان أن يعلم ويعتقد أن لهذا العالم صانعًا ، وأن أفضل جزء من العالم من هو ذو نفس ، وأن أفضل ذوي الأنفس الذي له الاختيار والإرادة والحركة عن روية ، وأفضل ذوي الإرادة والحركة عن روية ، الذي له النظر البديع في العواقب ، وهو الإنسان الفاضل ، وأن هناك تفاضلًا بين الناس في عقولهم وقوى نفوسهم ؛ حيث إن الواحد منهم يفوق بالفن الواحد جميع ذوي جنسه ويعجز الباقون عنه ؛ ولذا فعلى الإنسان أن يهتدي بنور اللَّه وهديه الذي اهتدى بمعرفته رسول اللَّه ﷺ وعليه أن يقدم على سياسة أحواله بقلب قوي ونية صادقة وصدر واسع ، ويثق بأن ما يأتيه - وإن قل - يجدي عليه نفعًا كبيرًا .

ويختتم ابن الربيع الفصل الأول ناصحًا بسياسة الناس بالدين القيم والسنة العادلة ، وتوجيه رئيس واحد تكون له أكمل المراتب الإنسانية ، ويعدد له ثلاث عشرة فضيلة يجب أن تتوفر فيه : وهي :

الأولى : أن يكون له قدرة على جودة التخيل .

الثانية : أن يكون صحيح الأعضاء .

الثالثة : أن يكون جيد الفهم .

الرابعة : أن يكون جيد الحفظ .

الخامسة : أن يكون جيد الفطنة ذكيًا .

السادسة : أن يكون حسن العبادة .

السابعة : أن يكون محبًا للعلم .

الثامنة : أن يكون محبًا للصدق .

التاسعة : أن لا يكون شرهًا على الشهوات .

العاشرة : أن يكون كبير النفس .

الحادية عشرة : أن يكون محبًا للعدل .

الثانية عشرة : أن يكون قوي العزيمة .

الثالثة عشرة : أن يهون عنده المال وسائر الأعراض الدنيوية الفانية .

ويمزج ابن أبي الربيع الأخلاق بالسياسة ، كمزجه للدين بالفلسفة ، فبعد أن ينصح باتباع الفضائل ، واجتناب الرذائل ، واتباع السنة العادلة ، تراه يذكر صفات رئيس المدينة .

● ويرتبط هذا الفصل بموضوعين رئيسين في مجال الدراسات النفسية وهما :

الأول : سيكولوجية الفروق الفردية (في القدرات العقلية ، وسمات الشخصية) Individual Differences (ص ٨٩ - ٩٣) .

الثاني : سيكولوجية القيادة Leadership ، وأهم ما يتصف به القائد والسمات أو الخصال التي تميزه من غيره من الأفراد ، بشكل يجعله شخصية مؤثرة وفعالة في مجال قيادة الأفراد (ص ٩٣ - ٩٨) .

الفَصِلُ الثَّانِيْ :

وبدأه المؤلف بتذكير الإنسان أنه من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز ؛ ولهذا يجب أن يروِّض نفسه على مكارم الأخلاق ، ويتحلى بالصفات الحسنة ، ويجتنب الصفات القبيحة ، وأن على الإنسان أن ينمي الأخلاق الجميلة حتى نعَود أنفسنا على الوسط ؛ لأن الخلق عند ابن أبي الربيع لا يخلو من ثلاثة أحوال : الوسط والمائل عنه والمائل إليه ، ولما كان الغرض هو السعادة الخلقية فعلينا أن نوازن أفعالنا فكلما وجدنا أنفسنا مالت إلى جانب عودناها الجانب الآخر ، ولا نزال نفعل ذلك حتى نبلغ الوسط أو نقاربه ، ويعرف ابن أبي الربيع الخلق فيقول : « إن الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من فكر وروية » ، ثم يقول بعدها : إن الخلق إما أن يكون طبيعيًا من أصل الخلقة أو مستفادًا بالعادة ، ثم ينصح بعدها بأن يتبع الإنسان قواه العقلية ويضعف من قواه البهيمية حتى تصلح نفسه ، ثم يقول : إن الفلاسفة قد اجتمعت على أن جميع أجناس الفضائل التي لا تحتاج في اقتناء كمال النفس إلى غيرها هي أربعة : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

ويفصل ابن أبي الربيع قوى النفس ويعرفها ، فالقوة الفكرية عنده هي العاقلة ومسكنها الدماغ ، وبها يكون الفكر ويختص بها الإنسان ، والقوة الغضبية هي الحيوانية ، ويشارك الإنسان بها الحيوان ومن قواها حب الغلبة والرياسة ، والقوة الشهوية وهي المغذية النباتية ومسكنها الكبد ، ويشارك بها الحيوان والنبات ، وبها يبقى التناسل ، وبها يطلب الموافق من الأغذية .

ويشير ابن أبي الربيع إلى أن الحكماء قد اختلفوا في فضائل الأخلاق هل ترد لذواتها أو للسعادة الحادثة عنها على نوعين ، فذهب بعضهم إلى أن المراد بفضائل ذواتها

لا لكونها المكتسبة للسعادة ، وذهب آخرون إلى أن المراد بها السعادة الحادثة عنها ؛ لأنها الغاية المقصودة بها .

● **ويرتبط الفصل الثاني بالموضوعات والمفاهيم التالية :**

١ - موضوع القيم الأخلاقية Moral Values تعريفها وأنواعها وكيفية تعديلها نحو الأفضل (ص ٩٩ - ١٧٦) .

٢ - موضوع الدوافع Motives سواء الفطرية الأولية ، كالدافع الجنسي ، أو الدوافع المكتسبة ، كالدافع إلى السيطرة والتملك (ص ٩٩ - ١٣٦) .

٣ - موضوع الانفعالات Emotions (كالغضب والسعادة ... إلخ) وكيفية التحكم فيها (ص ٩٩ - ١٣٦) .

٤ - القدرات العقلية Mental Abilities (ص ١٠٩ - ١١١) .

٥ - سمات الشخصية Personality Traits (ص ٩٩ - ١٣٦) .

الفَصْلُ الثَّالِثُ : في أصناف السيرة العقلية الواجب على الإنسان اتباعها والعمل بها :

وفيه نجد تكرارًا للكثير من النصائح التي أوردها ابن أبي الربيع في الفصلين السابقين - في اتباع طريق الفضيلة التي يحث عليها العقل ، وبدأ هذا الفصل بالاتجاه إلى اللَّه تعالى داعيًا منه التوفيق في الأعمال مشيرًا بعدها إلى أن بعض العلماء ذكر أن المخلوقات بأسرها على أربعة أقسام : الأول : الذي له عقل وحكمة وليس له طبيعة وشهوة وهم الملائكة . الثاني : الذي له طبيعة وشهوة وليس له عقل ولا حكمة وهو الحيوان غير الإنسان . القسم الثالث : الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة وهو الجماد والنبات . أما الرابع : فهو الذي يكون له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وذلك هو الإنسان.

وسياسة الإنسان لنفسه عند ابن أبي الربيع هي أن يأتي الأعمال الصالحة من ناحية سيرته ، مع أهله وماله وولده وبني جنسه من بني الإنسان ، فسيرته مع نفسه بأن يجتهد في بلوغ الكمال ، أما سيرته مع بدنه فهو أن يلزم الاعتدال في الطعام والشراب وباقي الشهوات ، فأما مع ماله فإنه بالمال يتمكن من التوصل إلى مآربه ، وأما زوجته فهي ربة المنزل وشريكته فيه ، وأما الولد فهم الخلف وهم قوام الإنس ، أما تدبيره للأمور فهو إجراء أموره على الصواب ، ويرى ابن أبي الربيع أننا لا يمكن أن نجد إنسانًا كاملًا من جميع الجهات ، فكل إنسان إذا لاحظ الآخرين وجد نفسه في حالة يشركه فيها .

وكذلك وجد طائفة منهم أعلى بجهة أو جهات ، ووجد دونها طائفة هم أوضع منه . ولهذا إذا تأمل الإنسان أخلاق الأخرين توجب عليه أن ينتفع بالسيرة الصالحة لمن هو أعلى منه فيرتفع إلى مرتبتهم ، كما يجب على الإنسان في ماله أن يعرف أبواب الجميل ولا يقصد الإنفاق على شهواته ولذاته ، وأن يحسن التعامل مع الزوجة ، والأبناء والأصدقاء ، وأن يحترس من أعدائه .

● **ويرتبط الفصل الثالث بالموضوعات النفسية التالية :**

١ - الاقتداء Modeling ، أو التعلم من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الآخرين (ص ١٣٧ - ١٧٢) .

٢ - التفاعل الاجتماعي Social Interaction : مع الزوجة (ص ١٥٣ - ١٥٥) ، مع الأبناء (ص ١٥٥ - ١٥٨) ، مع الأصدقاء (ص ١٦٦ - ١٦٨) ، مع الأعداء (ص ١٦٨ - ١٦٩) ، مع الرؤساء (ص ١٦٤ ، ١٦٥) .

٣ - التنشئة الاجتماعية وأساليب تربية الأبناء (ص ١٥٥ - ١٥٨) .

٤ - كما أن به إشارة لمفهوم الصداقة (ص ١٦٦) ، والعدوان (ص ١٦٨) وهي من المفاهيم السيكولوجية التي تقع في مجال علم النفس الاجتماعي .

الفَصْلُ الرَّابِعُ : في أقسام السياسات :

وذكر فيه السبب الموجب لاتخاذ المدن والداعي إلى إقامة السياسة في العالم ، ثم أشار إلى التعاون بين الناس ؛ لأن الإنسان الواحد - في رأيه - لا يمكنه أن يعمل الصنائع كلها ؛ ولهذا افتقر بعض الناس إلى بعضهم لاسيما وأن الإنسان محتاج إلى الغذاء واللباس والمسكن والجماع والعلاج ، ولهذا السبب اجتمع كثير من الناس في موضع واحد فاتخذوا المدن لينالوا الملك والرعية والعدل والتدبير ، فرئيس المدينة عنده الذي يصلح لرئاسة المدينة هو المالك الفاضل ، أما الرعية فمنهم الزهاد الذين انقطعوا للعبادة ، والحكماء الذين اتجهوا للعلوم كالطب والحساب والهندسة ، ويجب على الرعية تجاه الملك أن يجتهدوا في تحسين العدل عند الملك وتزيينه وتقبيح الجوار وتهجينه ، وأن يظهروا سرورهم بسرور الملك ، ويشاركوه حزنه ولا يخالفوا له أمرًا ، أما العدل فيعرفه ابن أبي الربيع أنه حكم اللّٰه تعالى في أرضه ، ويستدل المؤلف على شرف العدل إجماع الأمم عليه مع اختلاف مذاهبهم ، أما التدبير فيعني عنده عمارة البلدان ، وبناء المدن ، وحراسة الرعية بواسطة تدبير الجند وتقويتهم ، وتقدير الأموال

ليكون معينًا في النوائب .

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى أركان الدولة أو ما يخص الملك من الأتباع ، والأنواع الذين لا يستغني عنهم ، ويسميهم ابن أبي الربيع : وزير عالم ، وكاتب عارف ، وحاجب عاقل ، وقاضي ورع ، وحاكم عادل ، وعامل جلد ، ومال متوفر ، ورب شرطة ، وجند أقوياء ، وحكيم مجرب ، وجليس صالح ، صاحب الطعام والشراب .

ويعطي ابن أبي الربيع أهمية كبيرة للوزير ، فهو - في رأيه - الشريك في الملك ، المدبر فيه يحفظ أركانه ، المدبر بالقول والفعل ، وأنه لابد لمن تقلد الخلافة والملك من وزير منظم للأمور ، ومعين على حوادث الدهر ، ويكشف له صواب التدبير .

● ويرتبط هذا الفصل بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership والصفات أو الخصائص التي يجب توفرها في القائد أو الرئيس ، وكذلك في المرؤوسين وهو ما يدخل ضمن سيكولوجية السياسة Psychology of Politics أحد المجالات الأساسية في علم النفس الاجتماعي (ص ١٧٣ - ٢٠٥) .

* * *

أبو سعيد الخراز (ت ٢٧٧هـ)
الطريق إلى الله ، أو كتاب الصدق [١]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

التعريف بالمؤلف :

هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، ولقب بأبي سعيد الخراز وقد ولِد في بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري تقريبًا ، ويقول عنه صاحب طبقات الصوفية : إنه من أئمة القوم وجلة مشايخهم ، وهو أول من تكلم في علم الفناء ، وقد صاحب ذا النون المصري وسريا السقطي ، وبشر بن الحارث ؛ وبالنسبة لتاريخ وفاته فقد اختلف المؤرخون فيه فيذكر صاحب الرسالة القشيرية أنه سنة سبع وسبعين ومائتين هجرية .

وفيما يتعلق بمؤلفاته فيذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن كتاب الصدق هو الوحيد الذي بقي من آثاره ، وكان من الكتب التي يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٦٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل مقدمة المحقق ، ومقدمة المؤلف ، وموضوعات الكتاب ، ثم فهرس الموضوعات .

يتناول هذا الكتاب عددًا من الموضوعات التي تدور حول الصدق والتي ترسم الطريق إلى الله في دقة ووضوح .

فيعرض المؤلف في بداية هذا الكتاب للصدق في الإخلاص ، والذي يعني به أنه

---

(١) حققه وقدم له وعلق عليه عبد الحليم محمود . القاهرة : دار الكتاب الحديثة (١٩٧٥م) . (٩٤ص) .

يكون العبد يريد الله ﷻ بجميع أعماله وأفعاله ، قائمًا بعقله وعلمه على نفسه وقلبه قاصدًا إلى الله تعالى بجميع أمره .

ثم يتحدث عن الصدق في الصبر ، ويشير هنا إلى عدة معاني للصبر ، ومنها الصبر على أداء الفرائض في الشدة والرخاء ، والصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، والصبر على النوافل ، والصبر على قبول الحق ممن جاء به من الناس ، وأما حقيقة الصبر في احتمال مكروه النفس ويتناول بعد ذلك معاني الصدق منها الصدق في الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، وصدق التوبة ومنه ترك الأصحاب الذين أعانوا على تضييع أمر الله ، وخروج المآثم من القلب ، والصدق في معرفة النفس والقيام عليها ، حيث إن من صفة الصادق في القصد إلى الله أن يدعو نفسه إلى طاعته وطلب مرضاته .

وكذلك الصدق في معرفة إبليس وهو عدو الإنسان ؛ إذ يجب مخالفة هوى النفس بالعزيمة ، والحذر من إبليس عند الغضب والحدة . وينتقل المؤلف إلى الحديث عن الصدق في الورع واستعمال التقية ، ويذكر أن الصدق في الورع هو الخروج من كل شبهة والترك لكل ما اشتبه على الإنسان من الأمور ، والصدق في الحلال الصافي ، وهو أن يأخذ الإنسان منه ما لابد منه على قدر المعرفة بنفسه وما يقيم ميلها بالتقتير أو إسراف في الطعام والملبس والمسكن ، والصدق في الزهد ؛ لأن الحياة الدنيا هي النفس وما هويت ؛ وإذا ترك العبد ما تهواه النفس ترك الدنيا ، فأول درجات الزهد هو الزهد في اتباع هوى النفس ، ثم يتوهم العبد فناء الدنيا ويقصر فيها أمله ويتوقع الموت ويتطلع إلى الآخرة ، ويتشوق إلى النزول في دار البقاء ، ولذلك قالت طائفة من الناس : أن الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة التي قد جعلها نصب عينه كأنه يرى عقابها وثوابها فهو عازف عن الدنيا .

ثم يلي ذلك الصدق في التوكل على الله ﷻ ، ويقصد بالتوكل التصديق لله ، والاعتماد عليه والسكون إليه والطمأنينة إليه في كل ما ضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة فالله مالكه والقائم به ، واليقين الثابت أن يد الله المبسوطة إليه الموفية له من كل ما طلب فلا يصل إليه معروف إلّا من بعد أمره ولا يناله مكروه إلّا من بعد إذنه ، والصادق واثق ، متوكل على ربه ، حين علم أنه حسبه من جميع خلقه .

ويتطرق المؤلف بعد هذا إلى الصدق في الخوف من الله ﷻ ، وهنا يستشهد بعدد

من الآيات القرآنية التي تدعو إلى الخوف والرهبة من الله ، ويشير إلى أن ما يهيج الخوف حتى يسكن القلب وهو دوام المراقبة لله ﷻ في السر والعلانية ؛ وذلك من خلال العلم بأن الله يرى العبد ولا يخفى عليه شيء من حركاته الظاهرة والباطنة .

ويتصل الجزء السابق بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الخوف وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٥٤) .

ثم يتناول الصدق في الحياء من الله ، ويسترشد بأحاديث الرسول ﷺ في هذا الصدد ، ومن قوله ﷺ : « **إن الحياء من الإيمان** » ، وقوله ﷺ : « **استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا** » .

وهناك ثلاثة خصال تهيج الحياء هي :

الأولى : التفكير في دوام إحسان الله تعالى مع تضييع الشرك ودوام التفريط .

الثانية : أن يعلم المرء أنه بعين الله من منقلبه ومثواه .

الثالثة : ذكر العبد لوقوفه بين يدى الله ﷻ ومساءلته إياه عن الصغير والكبير .

ويزداد الحياء ويقوى بالخوف لله عند الهوى الخاطر الواقع في القلب ، فيفزع القلب ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى يرى ما فيه ، فيثبت الحياء من الله ، كذلك فإن ما يضعف الحياء هو ترك المحاسبة وترك الورع .

ويمكن أن يتصل مفهوم الحياء بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality ، كما يشير أبو سعيد الخراز إلى أن الناس يتفاوتون في الحياء على قدر قُرب الله تعالى منهم وقُربهم منه ، وتتصل هذه الإشارة بمصطلح الفروق الفردية Individual Differences في علم النفس (ص ٥٥ - ٥٧) .

وينتقل المؤلف بعد هذا إلى الحديث عن الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له ، وهنا يشير إلى أن نعم الله كثيرة ولا تحصى ويجب على الإنسان أن يفكّر وينظر إليها وإلى تكاملها قديمًا وحديثًا ، فمن نعمه القديمة ذكره للإنسان قبل أن يك شيئًا وما خصه به من التوحيد والإيمان به والمعرفة له .

وهذه النعم توجب شكر الله عليه بالقلب واللسان والبدن .

ثم يتناول الصدق في المحبة ، ويذكر أن من مظاهر صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ في

هديه وزهده وأخلاته والتأسي به في الأمور والإعراض عن الدنيا وبهجتها ؛ لأن اللّه تعالى جعل محمدًا ﷺ علمًا ودليلًا وحجة على أمته ، كذلك فإن من صدق المحبة للّه تعالى إيثار محبة اللّه ﷻ في جميع الأمور على النفس والهوى ، والبدء في الأمور كلها بأمره قبل أمر النفس ، فالمحب للّه قد جعل ذكر اللّه تعالى بقلبه ولسانه فرضًا على نفسه .

كما أن علاقة المحب الموافقة للمحبوب ، ومتابعة طرقاته في كل الأمور والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه .

ويتصل الحديث عن المحبة بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال الحب في إطار علم النفس العام (ص ٦٠ - ٦٣) .

ويتناول أيضًا الصدق في الرضا عن اللّه ﷻ ، ذلك أن الرضا بحكم اللّه ورسوله ﷺ يعد أحد الركائز الرئيسية للإيمان ، من علامات الرضا في القلب سروره بمر القضاء ، حيث يذهب البعض إلى أن الرضا هو تلقي المصائب بالرجاء والبشر ، ويتصل مفهوم الرضا Satisfaction ومظاهره من فرح وسرور بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الفرح في علم النفس العام (ص ٦٤ - ٦٦) ؛ ويلي ذلك حديث عن الصدق في الشوق إلى اللّه ﷻ ، فالمشتاق إلى اللّه تعالى هو المتبرم بالدنيا والبقاء فيها وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل ؛ ومن علامته النفور من الخلق ولزوم العزلة والانفراد بالوَحدة ، ومن شأنه : القلب والحنين والحزن والنحيب (البكاء) والكمد (الحزن المكتوم) والغصة المنكرة في الصدر بشدة الشغف والكلف والهذيان بذكر المحبوب والارتياح إليه ، وطوفان الروح في الغيوب لطلب اللقاء ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة إلا رؤية من هو إليه مشتاق والخوف ألا يصل إلى محبوبه .

ويتصل هذا الحديث عن صفات المشتاقين بموضوع الانفعالات أيضًا ، وبخاصة انفعال الحب وانفعال الحزن ومظهرهما وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٦٧ ، ٦٨) .

وينتهي المؤلف من هذه الموضوعات التي تدور جميعها حول الصدق ، وذلك بتناول الصدق في الأنس باللّه تعالى وبذكره وقُربه ، حيث يشير إلى أن من علامة المستأنس باللّه تعالى وبقربه أن يكون واجدًا لذكر اللّه ﷻ في قلبه ، واجدًا لقربه منه ، لا يفقده على كل حال وفي كل وقت وكل موطن ويكون اللّه وقربه قبل الأشياء ؛ وذلك إذا سكن قلبه نور قرّب اللّه تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء وبه يستدل على الأشياء .

ومن صفات المستأنس أن يكون متبرمًا بالأهل والخليقة كلهم ، مستعذبًا للخلوة والوَحدة تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفزع فيها الناس ، فيستوي عنده العمران والخراب والقفار ، والجماعة والوحدة ، وذلك للذي استولى عليه من قرب الله وعذوبة ذكره ، ويغلب ما سواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

* * *

ابن المدبر (ت ٢٧٩هـ)
الرسالة العذراء [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويعرض فيه المؤلف لما يأتي :

١ - ضمير الكاتب وحرصه على الحكمة : فيجب أن يتسم الكاتب بالنزاهة وعدم التحيز فإن تقاضتك نفسك علمها ، ونازعتك همتك إلى طلبها فاتخذ البرهان دليلًا شاهدًا والحق إمامًا قائدًا يسهل عليك سبل مطالبها ، واستعن بالله ﷻ ، وتأمل الصواب في قولك وفعلك ، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع سيكولوجية التخاطب Communication وأحد الخصائص التي يجب أن يتسم بها المرسل أو المصدر Source سواء كان كاتبًا أو مخاطبًا وهي خاصية الموضوعية Objectivity (ص ٦) .

٢ - ثقافة الكاتب وما يجب تحصيله : فالاكتساب يتم بالتعلم والتكلف ، والاطلاع على رسائل المتقدمين والمتأخرين ، فيساعد ذلك على تنمية المعلومات . والخبرة هي تقديم أفكار الكاتب بشكل دقيق .

● ويرتبط ذلك بمبادئ التعلم الأساسية ، فالاكتساب يتم من خلال عدة وسائل أهمها التعلم Learning ، وتكوين الخبرات لدى الفرد (ص ٧) .

---

(١) مصحح وشارح ومقدم زكي مبارك - (ط ٢) القاهرة : دار الكتاب المصرية (١٩٣١م) ، (٥٢ ، ٣٢ ص) . يحتوي على : نص بالفرنسية .

٣ – وعن تضمين الشعر والأمثال في الكتابة : يشير المؤلف إلى وجوب ذكر الأمثال في أماكنها ، وانتقاء الألفاظ الجزلة ، والشعر الجيد وعلم العروض ، وذلك ما لم تخاطب خليفة أو ملكًا جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتاب الخلفاء والرؤساء عيب واستهجان للكتب ، إلَّا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ؛ فإن ذلك يزيد في أبهته ويدل على براعته .

● ويرتبط هذا الجزء من حديث علماء النفس الاجتماعي عن الخصائص أو الشروط التي يجب أن تتصف بها الرسالة Message حسب نوع الجمهور الموجهة إليه (ص ٧) .

٤ – ومن الصفات التي يجب أن يتصف بها الكاتب ، أن يكون صحيح القريحة (في الكلام التفات من المخاطب إلى الغائب) حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدًا من الفدامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكًا بالتجربة ، عالمًا بحلال الكتاب والسنة وحرامها ، حسن الإشادة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، وقد اشترط الحكماء في صفات الكاتب : طول القامة ، صغر الهامة ، خفة اللهازم ، كثافة اللحية ، صدق الحس ، لطف المذهب ، حلاوة الشمائل ، وملاحة الزي ، فمن كمال آلة الكاتب أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، طاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفره المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة .

● ويرتبط هذا الموضوع بالخصائص التي يجب أن يتصف بها المرسل أو المصدر Source كأحد العناصر الأساسية في عملية التخاطب أو التواصل (ص ٩) .

٥ – وعن طبقات الكلام ، يشير المؤلف إلى ضرورة مخاطبة كل فئة أو فرد على قدر منزلته وتفطنه وانتباهه ، فهناك ثماني طبقات للكلام : أربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعة دونها .

فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا ، والطبقة الثانية الوزراء والكُتَّاب الذين يخاطبون الخلفاء ، الثالثة الأمراء وقواد الجيوش ، الرابعة القضاة .

وأما الطبقات الأربع الأخرى فهي : الملوك ، ووزراؤهم ، وكتابهم ، والعلماء أهل

القدر والجلالة .

• ويرتبط هذا الموضوع بسيكولوجية اللغة والتخاطب (ص ١٠ ، ١١) ، وبالفروق الفردية بين الناس في القدرات العقلية والذكاء وسمات الشخصية .

٦ - ولكل طبقة من الطبقات السابق ذكرها معانٍ ومذاهب يجب مراعاتها عند التخاطب معها ، فيجب أن تزن كلامك عند مخاطبة كل فئة من الأشخاص ، وأن تنظم جوهر كلامك ، فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تسلبه لفظًا جزلًا لائقًا بمن كاتبته ، ومشابهًا لمن راسلته .

• ويرتبط ذلك أيضًا بموضوع سيكولوجية التخاطب ، وخاصة الرسالة Message ، والأسلوب أو الكلمات التي تكتب بها - وفقًا لخصائص الجمهور أو المتلقين لهذه الرسالة (ص ١١ - ١٤) .

٧ - وأما عن صدور السلف : فكانت عن فلان بن فلان ، كذلك جرت كتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي والي اليمن ، وإلى كسرى وقيصر ، وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام .

٨ - بعض التعبيرات والكلمات المنتقدة ، فلكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي الكاتب ألّا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه - فما يُمدح به العامة لا يُمدح به الخاصة من الملوك والرؤساء ، فالعامة من الناس لا يلتفتون إلى معنى الكلمة إلّا إلى حيثُ جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر .

• ويرتبط هذا بموضوع سيكولوجية التخاطب - فالمستقبِل أو المتلقي أحد العناصر التي يجب مراعاتها عند توجيه الرسالة إليه - من حيث اللغة التي تكتب بها وفقًا لخصائصه ، وسمات شخصيته ، ومستوى ذكائه .. إلخ (ص ١٥ - ١٧) .

٩ - تفقد الألفاظ والمعاني ، فيجب على الكاتب أن يحرص على اختيار الألفاظ والكلمات في صدور كتبه وفصولها أو افتتاحها ، وختامها ، وأن يضع كل معنى في موضع يليق به .

١٠ - هل تجوز محاكاة القرآن في الحذف والإيصال ،م‌والإجابة بالنفي ؛ وذلك لأن الله ﷻ إنما خاطب بالقرآن أقوامًا فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه - أمره ونهيه ومراده ، والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب .

١١ - ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ؛ لأن الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الأغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير .

١٢ - وفيما يتعلق بصدور الرسائل وخواتيمها ، يشير المؤلف إلى أنه يجب أن يكون في صدر الكتاب دليل واضح على المراد والهدف ، وأن لا تكون المقدمة طويلة .

١٣ - ثم يعرض المؤلف بعد ذلك لإصلاح الدواه ، وهنا يتحدث عن أدوات الكتابة وكيفية إعدادها ، فيختار الكاتب أدوات الكتابة وأنابيب القلم الذي يصلح لكتابة القراطيس ، أقله عقدًا وأكنفه لحمًا ، وأصلبه قشرًا ، وأعدله استواء .

١٤ - ثم يشير إلى ضرورة أن يجعل الكاتب لقلمه براية حادة ، سكينًا طواويسيًّا ، مذلق الحد ، وميض الطرف ، فأهمية القلم للكاتب كأهمية الرمح من الفارس .

١٥ - كما يجب أن يلتزم الكاتب في كتابه بوضع النقط والشكل (أي يُشكل الحرف) .

١٦ - ولا تغفل الصلاة على النبي ﷺ أثناء الكتابة ، فيجب الإشارة إلى ذلك صراحة .

١٧ - كما يجب توثيق المعلومات بالتاريخ ؛ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقُربها وبُعدها .

١٨ - ولا تجعل سحاة الكتب (ما شد به الكتاب من خيط) غليظة إلا في العهود والسجلات التي تحتاج إلى خواتمها وطوابعها .

١٩ - وعن تضمين الأسرار يشير المؤلف إلى أن تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب .

• ومن ذلك مثلًا أن تبدل الحروف تبديلًا يخفى ، أو أن تأخذ لبنًا حليبًا فتكتب به في قرطاس فيذر على المكتوب عليه رمادًا حارًّا من رماد القراطيس فإنه يظهر ، وإن أحببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة .

٢٠ - اختيار الألفاظ : فيجب عند كتابة الرسالة انتقاء اللفظة بميزان دقيق ووضعها في مكانها الملائم .

• ويرتبط ذلك بأسلوب الرسالة Style of Message كأحد الجوانب المهمة في موضوع سيكولوجية التخاطب (ص ٢٩ ، ٣٠) .

٢١ - ويجب أن تتوفر عدة ظروف لدى الكاتب ، منها : فراغ القلب ، والنشاط ، وسماحة النفس ، جود الأذهان بمخزونها ، وغير ذلك .

● ويرتبط بالحالة المزاجية أو الانفعالية Emotional والعقلية Mental التي يجب توافرها لدى الكاتب ، وتتيح له مناخًا ملائمًا لذلك (ص ٣٠) .

٢٢ - ويتحدث المؤلف عن صعوبة اختيار الألفاظ - نظرًا للتشابه فيما بينها ، وأن الأسلوب الكتابي يعكس شخصية الكاتب ومستواه العقلي .

ويقترب ذلك مما يتبعه بعض علماء النفس ، حيث الاستعانة بتحليل سمات شخصية الكاتب ، وحالته الانفعالية من خلال تحليل مضمون كتابات ورسائل هؤلاء الكتاب (ص ٣١ - ٣٢) .

٢٣ - المعاني والألفاظ : شبهت الحكماء المعاني بالغواني ، والألفاظ بالمعارض ؛ فإذا كسا الكاتب المعنى الجزل لفظًا رائقًا ، وأعاده مخرجًا سهلًا ، كان للقلب أحلى وللصدر أملى .

٢٤ - عرض الكتابة على العلماء : فإذا منيت بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، أو الشعر ، أو النثر ... إلخ ؛ فلا تدعونك الثقة بنفسك ، والعجب بتأليفك ولكن يجب أن تعرض ذلك على البلغاء والشعراء والخطباء لمعرفة رأيهم ؛ حيث يؤدي ذلك إلى تقييم العمل وإبراز إيجابياته وسلبياته ، وتحسين مستوى الكتابة .

٢٥ - اختيار الألفاظ والكلمات الملائمة لنوع الجمهور أو المتلقين والمراد مخاطبتهم فلا تخاطب خاصًّا بكلام عام ، ولا عامًّا بكلام خاص .

● ويرتبط ذلك بأسلوب الرسالة Style of Message (ص ٣٥ - ٣٦) .

٢٦ - الرقة والجزالة : وكلما اتسم الكلام بالرقة والعذوبة ، وسهولة المخارج ، كان أسهل ولوجًا في الأسماع ، وأشد اتصالًا بالقلوب ، وأخف على الأفواه .

● ويرتبط هذا الموضوع بالأسلوب الذي يجب أن تكتب به الرسالة Message وعلاقته بتقبل هذه الرسالة أو الإقناع بتغيير الاتجاه Atttitude Change (ص ٣٧ - ٣٩) .

٢٧ - المعاني والألفاظ : فالكلام سياسته صعبة ، وتأليفه شديد إلَّا على جهابذته وفرسانه أمراء الكلام ، والكلام منه ما هو واضح المعاني ، وما هو كامن المعنى أو الدلالة .

● ويرتبط ذلك بموضوع اللغة . خاصة مفهوم المعنى الإشاري Denotative Meaning

والمعنى الدلالي Connotative Meaning (ص ٣٩ ، ٤٠) .

٢٨ - الدال على المعنى أربعة أصناف هي : اللفظ ، والإشارة ، والعقد ، والخط .

● ويرتبط هذا الكلام بموضوع التخاطب - سواء اللفظي أو غير اللفظي Verbal & Non Verbal Communication (ص ٤٠ ، ٤١) .

٢٩ - بقاء الكتابة على الزمان : وللخط صورة معروفة ، وحيلة موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ؛ لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ، ويفضلها في المغيب ، وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٤ ، ٥] ، ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحي الفكر ، وسلامة المعرفة ، والمعبِّر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، والمفصح عن الأبكم ، والمتكلم عن الأخرس .

٣٠ - فضل البلاغة : فقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وباذخ العز ، كأبي مسلم صاحب الدولة ، فرقت شمله ، وبددت جمعه ، ونقصت برمه ، وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه ، وشدة شكيمته ، واقتناعه على أبي جعفر ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح ابن عبد القدوس وجبل بن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم حتى وقع الشَّرَكُ المصوب له ، فتفرق جمعه ، وانطفأ نوره .

٣١ - ماهية البلاغة : هناك تعريفات عديدة لمعنى البلاغة ، منها تعريف الرومي بأنها : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وتعريف الفارسي بأنها هي : معرفة الفصل من الوصل - تعريف آخر بأنها : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ؛ فالبليغ هو رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللَّحْظ ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، كما يُعرف البعض البلاغة بأنها : التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

ويمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس الاجتماعي ، وسيكولوجية الشخصية .

* * *

ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)
كتاب الشكر [١]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر القرشي الأموي مولاهم البغدادي الحنبلي ، المشهور بابن أبي الدنيا ، ولد ببغداد سنة (٢٠٨هـ = ٨٢٣م) ، في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) آخر العصر العباسي الأول ، في عهد الحضارة الإسلامية الذهبية ، في هذه المدينة العامرة الزاخرة (بغداد) نشأ ابن أبي الدنيا ، حيث المحدث والفقيه والمؤدب والزاهد هم أبناء هذا المجتمع ومادته ، وكان لظاهرة العلم والزهد أبلغ الأثر في بناء شخصية ابن أبي الدنيا وتكوينه العلمي .

وكانت أسرة ابن أبي الدنيا أسرة خير وفضل ، وبيت علم وصلاح ؛ فأبوه من العلماء المهتمين بالحديث وروايته ، مما ساهم في نشأته العلمية ، وتكوينه في وقت مبكر ، فحببته أسرته في العلم والعلماء ، ودفعت به إلى حلقة العلم ، فأقرأته القرآن والفقه ، وحببته في سماع الحديث وكتابته ، وبحكم أن والده كان أحد العلماء فقد مكّنه ذلك من السماع من أعلام العصر وحفاظه ، وسنه دون البلوغ ، ومن هؤلاء الحُفاظ سعيد بن سليمان الواسطي – سعدويه – (ت ٢٢٩هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) وخالد بن خداش البصري (ت٢٢٣هـ) فأدرك بهؤلاء وطبقتهم إسنادًا عاليًا ، وشارك أصحاب الكتب الستة في كثير من شيوخهم ، وقد دلت بعض الروايات على أنه استقل

---

(١) ط ١ . القاهرة : محمد أحمد رمضان الكتبي [١٩٣٠م] . (٤٢ ص) . نسخة مصورة .

وأخذ يطوف على المشايخ بنفسه ، وسنه دون العاشرة .

وبهذه العناية المركزة والمبكرة من أسرة ابن أبي الدنيا ، وبما كان له من الهمة والإقبال الكبير استطاع أن يجمع علمًا غزيرًا ، ويتتلمذ على مئات المشايخ من أئمة العصر وحفاظه . قال الذهبي : « وقد جمع شيخنا أبو الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم ، وهم خلق كثير » ، ثم ذكر الذهبي جزءًا منهم فبلغ عددهم أربعة وتسعين شيخًا ، وبلغ عدد شيوخه في كتاب الصمت وحده أكثر من مائتي شيخ .

وبهذا تكوَّنت شخصية ابن أبي الدنيا العلمية ، فهو حنبلي المذهب ، سلفي العقيدة ، زهدي المشرب ، وعمل على بث هذه الروح الأخلاقية الإيمانية ، ورصد نفسه لها ، وأنشأ في تقعيدها وإذاعتها ما يزيد على مائة مصنف . وقد توفي ابن أبي الدنيا يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة (٢٨١هـ = ٨٩٤م) .

ومن مؤلفاته ما يلي :

في القراءات : « حروف خلف » ، « المصاحف » ، « الوصل والفصل » ، « الوقف والابتداء » .

في الحديث : « تخريجات أهل الحديث » ، « السنة » .

في العقائد : « البعث والنشور » ، « دلائل النبوة » ، « صفة الصراط » ، « صفة الميزان » ، « صفة النار » ، « صفة النبي ﷺ » .

في أصول الفقه : « الفتوى » .

في الفقه : « الأضاحي » ، « ذم الربا » ، « ذم السكر » ، « الرخصة في السماع » .

في الزهد والرقائق : « الآيات ومن تكلم بعد الموت » ، « الأحزان » ، « أخبار القبور » ، « الإخلاص » ، « اصطناع المعروف » ، « إصلاح المال » ، « ذم الغضب » .

عرض الكتاب :

ويبدأ المؤلف في كتابه « الشكر » بذكر من الأحاديث النبوية الشريفة التي تبيِّن أهمية الشكر . ومنها قول رسول الله ﷺ : « **لا يرزق الله ﷻ عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة** » ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، ومن دعاء

رسول الله ﷺ : « **اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** » ، فالله ﷻ أنعم على عباده بالكثير من النعم والخيرات ، وكلفهم الشكر على قدرها ، فقد سمى نوح عليه السلام عبدًا شكورًا والشكر معلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد ، والشكر يعني ترك المعاصي ، والشكر والصبر على ترك المعاصي من السمات التي يجب أن يتصف بها المسلم .

وعن بيان أهمية الشكر يرد المؤلف قول رسول الله ﷺ : « **أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا ماله** » ، كما قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه** » ، فمن عرف نعم الله بقلبه ، وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله ﷻ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، والشكر كما ورد : نصف الإيمان ، والصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله .

ثم عرض المؤلف بعد ذلك لأقوال الرسول ﷺ فيما يتعلق بالشكر في بعض المواقف ، كالشكر عند الشراب مثلًا ، بقوله : « **الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا** » .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أفضل الدعاء لا إله إلا الله ، وأفضل الذكر الحمد لله** » .

ويرتبط ما سبق ذكره بأحد موضوعات علم النفس الأساسية وهو : موضوع سيكولوجية الشخصية : سمات الشخصية الإنسانية Traits of Human Personality ومنها : « الصبر والشكر » على نعم الله ﷻ (ص ٣ - ٢٣) .

وينبغي للعَالِم أن يحمد الله ﷻ على ما زوى عنه من شهوات الدنيا ، كما يحمده على ما أعطاه وأين يقع ما أعطاه ، والحسنات تأتي عليه إلى ما عافاه ، فلم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه فيشكر الله على سكون قلبه وجمع بدنه .

ويقترب - ذلك بشكر غير مباشر - من موضوع ارتقاء الحاجات والدوافع Development of Needs & Motives ، فالعَالِمُ مشغول - بحكم عمله أو تخصصه - بالحاجة إلى المعرفة والفهم ، وتحقيق الذات وهي مرحلة من أرقى مراحل الارتقاء وأسماها ، في حين تقع الحاجات البيولوجية الأولية في أدنى مدرج ارتقاء الحاجات (ص ٢٣) .

ثم أورد المؤلف بعد ذلك حديثًا عن أبي الحواري في موضوع الشكر على نعم الله ﷻ ، وتضمن ذلك ذكرًا لبعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول موضوع الشكر . قال رسول الله ﷺ : « **إن نوحًا** ﷺ **لم يقم عن خلاء قط إلا قال : الحمد الله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه** » . وكان الرسول ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر ساجدًا ، شكرًا لله ، كما كان رسول الله ﷺ إذا رأى صاحب بلاء قال : « **الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضّلني عليك وعلى جميع من خلق تفضيلًا** » فقد أدى شكر تلك النعمة .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي علم النفس العام وسيكولوجية الشخصية .

* * *

محاسبة النفس والإزراء عليها [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من عدة أبواب تدور في مجموعها حول كيفية محاسبة الإنسان لنفسه والإزراء عليها .

فلما كانت الدنيا الغرورة تحاول إغراء المؤمنين بربهم الكريم ؛ ولما كثرت الفتن وأشرفت إلى القلوب ، ولما ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولما ابتلي بالدنيا الناس ؛ فمنهم من صبر ، ومنهم من تحطم ، وجد (المؤلف) أنه لِزامًا على النفس أن تقف وتتأمل إلى أين المسِير ؟ ولم تسير ؟ وكيف إذا لقت ما لابد أن تلاقيه إن عاجلًا أو آجلًا ؟ كيف برز إليها الموت بغتة ؟ ووضعت في قبرها ؟ وتولى عنها كل ما لها إلَّا عملها ؟ كيف بها إذا تسألها الملائكة وهي في القبر ؛ كيف بها إذا وقفت يوم الحشر؟ كيف وهي تساق إلى مآلها ؟ كيف بها إذا لم يرحمها ربها ؟ فرب نفس تذكرها الذكرى ؛ فيتغير حالها إلى اليقظة بعد الخمود فتهب مستجيبة لأمر اللَّه تعالى ناصرة لدينه فتفوز بالسعادتين بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ذلك أنه يجب علينا أن نقف جميعًا ونحاسب أنفسنا ليؤول أمرنا إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ، وهذا ما نعرض له على النحو التالي :

باب ذم النفس : وهو بمثابة دعوة لذم الإنسان لنفسه ، ومقتها مرضاة اللَّه تعالى ، وتجنبًا

---

(١) تحقيق أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض - (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (١٣٩ ص) .

لعقابه وعذابه ، وهناك أقوال مأثورة عديدة تقر ذلك وتدعو له وتحث عليه ، فقد قال أبو بكر الصديق ﷺ : « من مقت نفسه في ذات الله أمنه الله من مقته » ، وعن أحمد ابن عاشم العباداني عن سعيد بن عامر عن وهيب بن خالد قال : قال أيوب السختياني : (إذا ذكر الصالحون كنت منهم بمعزل) .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب مفهوم الكراهية (المقت) Hate (ص ٧٢) ، والعقاب Punishment (ص ٧٧ ، ٨١) ، والتسامح Tolerance (ص ٨١) ، والرجاء أو التوقع (ص ٨٧) ، والشك Supiciousness (ص٧٦) ، والحزن Sadness (ص ٧٦) .

باب معاقبة النفس : وهو بمثابة دعوة لكيفية محاسبة الإنسان لنفسه على أخطائها أولًا بأول حتى لا تتمادى في ذلك ، خشية أن ينال عقاب الله تعالى ، فقد حدثنا المثني بن معاذ العنبري ثنا أبي عن شعبة عن منصور عن إبراهيم أن رجلًا من العُبّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، فوضع يده في النار حتى نشت ، وعن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن النضر السلمي قال : مر حيان بن أبي سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : النفس (ص ٩٠ - ٩٥) ، والعقاب الذاتي Self - Punishment (ص ٩٠ - ٩٥) .

باب جهاد النفس ومنعها من شهواتها : وهو بمثابة دعوة لكيفية جهاد الإنسان لنفسه ومنعها من شهواتها ، والتحكم فيها ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشديد ليس الذي يغلب الناس ولكن الشديد من غلب نفسه** » ، كما قال فضالة بن عبيد إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **المجاهد من جاهد نفسه في الله** ﷻ » .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب : ضبط النفس Self - Control (ص ٩٦ - ١٠٩) ، والرغبة Desire (ص ٩٦) ، والتروي في مقابل الاندفاعية Reflectivity - Impulsivity (ص ٩٦ - ١٠٩) ، والدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٩٦ - ١٠٩) .

باب الحذر على النفس مخافة سوء المنقلب والمقت : وهو بمثابة دعوة لكيفية حذر الإنسان على نفسه مخافة سوء المنقلب والمقت ، فعن محمد بن عباد المكي أبو عبد الله ثنا

سفيان عن مالك بن مغول قال : كان رجل يبكي فتقول له أهله : لو قتلت قتيلًا ثم جئت لأهله لعفوا عنك فيقول : إنما قتلت نفسي - وعن محمد بن كثير أنه كان يقول : اللّهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملك فأعطنا من أنفسنا ما يرضيك عنَّا حتى تأخذ رضى نفسك من أنفسنا إنك على كل شيء قدير .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الخوف Fear (ص ١١٠ - ١١٧) ، الكراهية (المقت) Hate (ص ١١٠ - ١١٧) ، والحزن Sadness (ص ١١٠ - ١١٧) .

باب إجهاد النفس في الأعمال طلبًا للراحة يوم المعاد : وهو بمثابة دعوة لإجهاد الإنسان لنفسه في الأعمال التي يقوم بها طلبًا للراحة يوم المعاد ، فعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتكلف هذا ؟ وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ وعن عبد الرحمن القرشي عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن موسى الجهني قال : قال عون بن عبد اللّه ويحيى : كيف لا أفتك نفسي من قبل أن يعلق بي رهني .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب : الحزن (البكاء) Sadeness (ص ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٧) ، والخوف Fear (ص ١٢١) ، والسرور والفرح (ص ١٢٧) ، والرغبة Desire (ص ١٢٦) ، والوساوس Obsessions (ص ١٢٦) .

* * *

الإخوان : المتحابون في الله ، بشاشة الأخ لأخيه [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب الأول الأبواب التالية :

باب ذكر المتحابين في الله ﷻ وفضل منزلتهم عند الله ﷻ :

ويتضمن مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول المتحابين في اللّه ، وأن ذلك دليل على قوة الإيمان ، فقد قال رسول اللّه ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان أن تحب في اللّه ، وتبغض في اللّه ﷻ** » ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « **يقول اللّه تبارك وتعالى – أين المتحابين بجلالي ؟ اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلّا ظلي** » . فالمتحابون في اللّه بصدق هم قوم تحابوا بروح اللّه على غير أموال ولا أنساب ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، هذا كما أوضح الرسول ﷺ ، وهؤلاء المتحابون في اللّه لهم منزلة عظيمة فهم – كما روى رسول اللّه ﷺ عن ربه تبارك وتعالى قال : « **حقت محبتي على المتحابين ، هم في ظل العرش يوم القيامة لا ظل إلّا ظلي** » . كما أن لهم منزلة كبيرة في الجنة حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **إن للّه ﷻ عبادًا على منابر من نور في ظل العرش يوم القيامة ، يغبطهم النبيون والشهداء ، هم المتحابون في اللّه ﷻ** » . كما يتضمن هذا الباب الإشارة إلى أن حب العبد للعبد من علامات الإيمان ، وقوة العلاقات بين الأفراد .

---

(١) تحقيق وتعليق محمد عبد الرحمن طوالبه ، إشراف ومراجعة نجم عبد الرحمن خلف . القاهرة : دار الاعتصام (١٩٨٨م) . (٣٠١ ص) .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع العلاقات ، والتفاعل الاجتماعي Social Interaction السوي أو الصحي بين الأفراد ، حيث حبهم لبعضهم البعض ، وحبهم لله ﷻ ، وهو ما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بحالة الرضا Statisfaction والاتزان الوجداني Emotional Stability (ص ٨٥ - ١٠٧) .

باب الرغبة في الإخوان ، والحث عليهم : وتشير مجموعة الأحاديث المتضمنة فيه إلى ضرورة تكوين العلاقات ، وإقامة الصداقات بين الأفراد ، فقد قال لقمان لابنه : يا بني لا تعد بعد تقوى الله من أن تتخذ صاحبًا صالحًا . كما قال رسول الله ﷺ : « **ما أحب رجل أخًا في الله ﷻ إلَّا بنى الله له بيتًا في الجنة** » . كما قال - سليمان بن داود عليه السلام لابنه : يا بني لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق ، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد .

● ويرتبط ما جاء في هذا الباب بموضوع الصداقة Friendship وسيكولوجية العلاقات الوثيقة بين الأفراد ، وهو موضوع يقع في دائرة ديناميات الجماعة أو بحوث الجماعات الصغيرة Small Groups كأحد أقسام علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ١٠٩ - ١١٧) .

باب من أمر بصحبته ورغب في اعتقاد مودته : وتشير مجموعة الأحاديث التي يشتمل عليها إلى ضرورة النظر بدقة إلى من نتخذه صديقًا ، ونجالسه ، ونتحدث معه ، ونأكل معه ... إلخ ذلك من الأمور ، فقال رسول الله ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » ، كما قال أيضًا : « **لا تصحب إلَّا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلَّا تقي** » ، وعن شروط الصداقة يقول رسول الله ﷺ إجابة على سؤال أي الأصحاب خير ؟ فقال : « **صاحب إذا ذكرت الله - تبارك وتعالى - أعانك ، وإذا نسيته ذكرك** » . كما قال عثمان بن حكيم الأودي : « أصحب من هو فوقك في الدين ودونك في الدنيا » . كما قال البعض : أصحب من ينسى معروفه عندك .

● ويرتبط هذا الباب أيضًا - كما سبق القول - بموضوع سيكولوجية الصداقة Psychology of Friendship ، وشروط اختيار الأصدقاء وكيفية التفاعل معهم (ص ١١٩ - ١٣٤) .

باب إعلام الرجل أخاه بشدة مودته إياه : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه فيخبره أنه يحبه** » . كما قال أيضًا : « **إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ، ليقل : إني**

أحبك في الله إني أودك في الله » . وتشير الأحاديث إلى أن من كان يحب أخاه ولا يخبره بذلك فهو في حكم الخائن له .

• ويرتبط ذلك أيضًا بموضوع الصداقة ، وكيفية تقوية الصداقة بين الإخوة ، أو الأفراد ، وذلك من خلال ما يسمى بالإفصاح عن الحب للآخرين ، وهذا ما يطلق عليه علماء النفس بالمهارات الاجتماعية Social Skills وعمليات التخاطب Communication والتفاعل بين الأفراد (ص ١٣٥ - ١٤٢) .

باب اتفاق القلوب على المودة : قال رسول الله ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** » . فهناك شعور متبادل بين الأرواح .

باب في شدة الشوق إلى لقاء الإخوان والتسلي بمحادثتهم عن الهموم والأحزان : ويتضمن مجموعة من الأحاديث والجوانب التي تشير إلى أن لقاء الإخوة معًا يؤدي إلى تقوية الروابط والعلاقات بينهم ، كما يساعدهم على حل المشاكل والهموم التي يعانون منها ، وكأنهم وسيلة لعلاج هذه المشاكل والتخفيف من حدتها .

• ويرتبط ذلك الباب بأحد أساليب العلاج النفسي ، وهو أسلوب العلاج الجمعي Group Psychotherapy ، حيث يلتقي مجموعة من الأفراد وفق خطة معينة وبرنامج معين ، ويتحدثون أو يتناقشون معًا حول المشاكل التي تواجههم في حياتهم (ص ١٤٩- ١٥٦) .

باب في زيارة الإخوان : وتدور الأحاديث التي اشتمل عليها حول ضرورة زيارة الإخوان لبعضهم البعض ، بحيث يكون ذلك لا لشيء إلّا حبًا في الله ﷻ . قال رسول الله ﷺ : « **إن المسلم إذا عاد أخاه أو زاره في الله يقول الله ﷻ طبت وطاب ممشاك وبوأت في الجنة منزلًا** » .

باب في إغباب الزيارة [1] : ويدور حول تنظيم العلاقات بين الأفراد من حيث ترتيب أو تنظيم عمليات الزيارة بين الأفراد ، فتكون على فترات متقطعة ، كأن تكون كل أسبوع مثلًا ، فالغياب والبُعد يؤدي غالبًا إلى حسن اللقاء وجودة العلاقات .

باب في ذكر مصافحة أهل المودة : ويشير إلى ضرورة المصافحة بين المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما من مسلم يلقى أخاه فيصافح أحدهما صاحبه إلّا غفر لهما قبل أن يتفرقا** » .

---

(١) الإغباب في الزيارة أن تكون كل أسبوع - وقيل : أن تزور يومًا وتدع الزيارة يومًا آخر .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع التواصل أو التخاطب Communication بين الأفراد - سواء اللفظي منه Verbal (بالكلام) أو غير اللفظي Non - Verbal (من خلال الإشارات والعلامات - كالابتسامة مثلًا) ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ فقال : « **إن المسلمين إذا التقيا وتبسمًا بلطف وتؤده تناثرت خطاياهما بين أيديهما** » (ص ١٧١- ١٧٦) .

باب مصافحة أهل المودة : فمن تمام التحية - كما ورد في هذا الباب - المصافحة ، فكان أصحاب النبي ﷺ إذا التقوا تصافحوا ، فالمصافحة تزيد المودة .

باب في معانقة الإخوان : وهو أمر مرغوب فيه ، فسئل النبي ﷺ عن معانقة الرجل الرجل إذا هو لقيه ؟ فقال : « **كانت تحية الأمم وخالص ودهم ، وأول من عانق إبراهيم** عليه السلام » . فكان أصحاب الرسول ﷺ إذا تقدموا من سفر تعانقوا .

● ويرتبط ذلك الباب أيضًا بموضوع التفاعل بين الأفراد ، وخاصة مجال الإشارات الاجتماعية والتخاطب غير اللفظي ، والذي يختلف من مجتمع لآخر حسب الإطار الحضاري والثقافي ، فقد تبين اختلاف طريقة التحية والسلام من مجتمع لآخر (ص ١٨٣ - ١٨٨) .

باب في بشاشة الرجل لأخيه ، وطلاقة وجهه إليه إذا لقيه : فمن الأمور المفضلة عند لقاء المرء لأخيه أن يكون بشوش الوجه ، فمن الصداقة أن يلقي المرء أخاه ووجه منطلق منبسط . وكان النبي ﷺ إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البِشْر صافحه ، وقال أبو جعفر : أول المودة طلاقة الوجه ، والثانية التودد ، والثالثة قضاء حوائج الناس .

● ويرتبط ماورد في هذا الباب بموضوع الانفعالات ، والمظاهر الخارجية للانفعالات Emotions ، كالتعبيرات الوجهية من الحزن أو الفرح ، من السرور أو الكآبة ، وهي مظاهر تساعد على التخاطب والتفاعل ، وتعكس المشاعر والاتجاهات بين الأفراد (ص ١٨٩ - ١٩٦) .

باب في تقبيل الإخوان : ويشير إلى أن هناك من الصحابة من كان يُقبل يد الآخر ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يقبلون يده .

باب في سخاء النفس بالبذل للإخوان : وتوصي مجموعة الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة الواردة في هذا الباب بالحث على البذل بين الإخوان ، بشرط أن يكون ذلك لله ﷻ - قال رسول الله ﷺ : « **إن الله** ﷿ **يقول : حقت محبتي للذين يتباذلون من**

أجلي » فمن حسن خلق المرء أن يكون كريمًا سخيًا على إخوانه بما هو متاح له من مال أو طعام أو ملبس ... إلخ ، فقضاء حوائج الآخرين له ثواب كبير عند الله ﷻ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « **لأن أعطي أخًا لي في الله درهمًا أحب إليَّ من أن أتصدق بعشرة ، ولئن أعطي أخًا لي في الله عشرة أحب إليَّ من عتق رقبة** » .

باب في إطعام الطعام ، وفضل ذلك والحث على الرغبة فيه : وفيه دعوة وحث على دعوة الإخوان لتقديم الطعام للأتقياء ، والمعروف للمؤمنين . وقال رسول الله ﷺ : « **أضف بطعامك من تحب في الله** ﷻ » . فلذلك ثواب كبير عند الله ، فكما قال الرسول ﷺ : « **إن أسرع صدقة تصل إلى السماء ، أن يصنع الرجل طعامًا طيبًا ، ثم يدعو إليه إناسًا من إخوانه** » . ويتضمن هذا الباب أيضًا الإشارة إلى أن الحديث الحسن والطعام الطيب من الفضائل التي يجب أن يتسم بها المسلم ، وقال رسول الله ﷺ : « **لأن أطعم أخًا في الله** ﷻ (**لقمة**) **أحب إليَّ من أن أتصدق بدرهم** » .

● ويرتبط هذا الباب بما يسمى بسلوك المساعدة Helping Behaviour وتقديم العون للآخرين ، وهو ما يدخل في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص٢٢٥ - ٢٣٦) .

باب في تعاهد الإخوان بالكسوة : وفيه حث ودعوة إلى تقديم العون للإخوان عن طريق الملبس أو الكسوة ، قال رسول الله ﷺ : « **من كسا مؤمنًا على عرى كساه الله من إستبرق الجنة** » .

● ويرتبط هذا الباب أيضًا - بما سبق ذكره في الباب السابق - بسلوك المساعدة Helping Behaviour (ص ٢٣٧ - ٢٤١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

مجموعة الرسائل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الرسائل :

مجموعة الرسائل لابن أبي الدنيا تقع في ١٤٩ صفحة من القطع المتوسط يضم بين دفتيه كلمة لجمعية النشر والتأليف الأزهرية ، ثم تعريفًا مختصرًا بصاحب الرسائل ، كتبه أحد طلاب العلم بالأزهر الشريف ، ثم الرسائل ذاتها وهي : كتاب التوكل على اللّه ، وكتاب الحلم ، وكتاب حسن الظن باللّه تعالى ، وكتاب قضاء الحوائج ، وكتاب الأولياء ، وأخيرًا فهرسًا لهذا الجزء من الرسائل .

بالنسبة للكتاب الأول ، فهو مخصص للحديث عن التوكل على اللّه تعالى : وفيه يركز ابن أبي الدنيا على فوائد التوكل ، فيرى أنه مصدر القوة للمتوكل على اللّه ، كما أنه يزيل الهم والحزن والاكتئاب (ص١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١) وهو هنا يقدّم لنا أسلوبًا لعلاج أحد الأمراض النفسية والعقلية التي شاعت وانتشرت وهو الاكتئاب Depression وهو موضوع عناية وبحث من علماء النفس الإكلينيكيين والأطباء النفسيين ، ويلفت الأنظار إلى أحد أنواع العلاج التي لا غنى عنها ، خاصة أن الكثيرين يهملون هذا الأسلوب ويركِّزون على الأساليب الأخرى ، وكذلك من فوائد التوكل على اللّه ، أنه يكفي المتوكل ويحفظه ، ويجعل الشيطان يتنحى عن طريقه ، ومما لا شك فيه أن فوائد التوكل على اللّه كثيرة ولا تحصى سواء في الدنيا أو في الآخرة .

---

(١) ط جديدة - بيروت دار الندوة الإسلامية . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية (١٩٨٨م) . (١٤٩ص) .

وبعد ذلك يحدِّد مكان التوكل على اللَّه بين أبعاد العبادة ، فيرى أن الصمت أول العبادة ، ثم التوكل على اللَّه ، والتواضع ، والزهد في الدنيا ، والملاحظ أن التوكل يحتل مرتبة متقدمة ، كما يفرِّق كذلك بين التوكل والاتكال ، حتى لا يحدث الخلط بينهما ، ويذكر من معاني التوكل : حسن الظن باللَّه ، والرضا عن اللَّه ، والثقة باللَّه ، والرضا بحكمه في الخير والشر ، ثم يقسم التوكل إلى ثلاث درجات ، أولها ترك الشكاية ، والثانية الرضا ، والثالثة المحبة ، فترك الشكاية درجة الصبر ، والرضا سكون القلب بما قسم اللَّه له وهي أرفع من الأولى ، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع اللَّه به ، فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين .

وفي حديثه عن كل هذه الجوانب يستعين بعدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية الكريمة ، وبعض أقوال العارفين وأشعارهم ، وذلك ليدلل على فائدة التوكل ومعانيه ودرجاته .

ومن هذا الحديث نجد مقدمات مبكِّرة للحديث عن أحد الموضوعات التي تدرس الآن - مباشرة - في علم النفس ، ونقصد بذلك حديثه عن المحبة ، التي تدرس تحت موضوع الانفعالات Emotions في علم النفس العام (ص ١٤) . أما حديثه في التوكل بصفة عامة (ص ١١ - ٢٢) ، فيمكن أن نجد له صدى غير مباشر ، فيما يدرس الآن في علم النفس الاجتماعي أو الشخصية أو حتى في علم النفس الإكلينيكي ونقصد بذلك دراسة بعض خصال الشخصية ؛ مثل : « الاعتماد - في مقابل - الاستقلال » Dependence - Independece ، وإذا كان علماء النفس يرون أن الاعتمادية صفة تدل على قدر من عدم النضج في الشخصية ، ومن ثم يشجعون الاستقلال ؛ فذلك لأنهم يركِّزون على الاعتماد على البشر أو الجمادات ؛ ولأن الاعتمادية في هذه الحالة تحد من الإبداعية والمسؤولية واتخاذ القرار ؛ أما إذا كان الاعتماد على اللَّه ، فهو شيء واجب ومستحب ، وآثاره كلها إيجابية ونافعة بشرط أن يكون توكلًا حقًّا ، ومن المفاهيم التي وردت أيضًا الرضا Satisfaction (ص ١٤ - ٢٠) والتحمل Tolerance (ص١٤ - ٢٠) .

وفي كتابه الثاني بعنوان « **الحِلْمُ** » يحدثنا ابن أبي الدنيا - من خلال الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبعض أشعار العرب وأقوالهم الحكيمة - حديثًا قيمًا عن الحلم وفضله وفائدته - فالحلم من الخلال التي ترضي اللَّه ﷻ ، وهو يجمع لصاحبه شرف الدنيا والآخرة ، ومن اتصف بالحلم وجد له أعوانًا يعينونه على الجاهل ، وساعده حلمه

على التغلب على شهوته - والحِلْم قرين كل خِصال الخير ، فدائمًا يقرن الحلم بالعلم وفي حديث نبوي شريف : « **إن العلم بالتعلم ، والحِلْم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه** » ؛ وذلك رفعًا لشأن العلماء ومنزلتهم . وقد ورد في حديث رسولنا الكريم ﷺ أحد المفاهيم التي تمثل الآن فرعًا مهمًا في دراسات علم النفس وهو موضوع التعلم Learning وما قدم فيه من نظريات وأساليب وبحوث (ص ٢٥) .

كذلك فإن اقتران العلم بالحلم يدلنا على أحد الخصائص المهمة للدراسات العلمية الحديثة وهي الموضوعية Objectivity بمعنى التخلص من التحيزات الشخصية ، والعالم الحليم لا يسارع إلى استنتاجات قد يثبت خطأها فيما بعد لمجرد تحمسه لها أو رغبته فيها (ص ٢٥ - ٣٤) ، ومن الخصال الطيبة التي تقترن بالحلم كذلك الحكمة ، والتقوى والعافية ، وصلة الرحم ، وإعطاء المحروم ، والصبر على الجاهل ، والحلم خصلة من خصال العقل ، لكنه أرفع من العقل ؛ لأن اللَّه ﷻ تسمى به .

ومن أهم الخصال التي تلتصق بالحلم الأناة ، ومن العجيب ألَّا يلتفت العرب والمسلمون لمثل هذا السبق العلمي ، ثم ينبهرون بما يقدمه الغرب في الوقت الحاضر ، فمن محددات السلوك التي حظيت باهتمام بالغ في هذا الوقت ، ما يسمى ببعد الاندفاعية - التروي - (ص ٢٧ ، ٢٨) Impulsivity - Reflectiveness . « ويعني ميلًا متسقًا لدى الفرد في إصدار استجابة سريعة أو بطيئة عند حل المشكلات » ، وما نراه إلَّا صدى لحديث ابن أبي الدنيا المستفيض في الحلم ، وما استشهد به من آيات وأحاديث وأشعار ، كما نجد أيضًا في هذا الكتاب إشارات عن العقل والتفكر والتدبر وهي تمثل موضوعات جوهرية في علم النفس الحديث ، وقد جمع بعض الحكماء ذلك في قول بليغ نورده لعظمته : « زين المرء الإسلام ، وزين الإسلام العقل ، وزين العقل الحلم ، وزين الحلم الكظم ، وزين الكظم التدبر والتفكر ، وزين التدبر والتفكر التصبر ، وزين التصبر الوقوف عند الطاعة والمعصية » .

وأخيرًا ، ومن الأقوال التي يذكرها ابن أبي الدنيا على لسان لقمان الحكيم في تحذيره من مجالسة السفهاء ، وحفظ اللسان ، يعطينا دروسًا مبكرة في بعض الموضوعات التي تدرس الآن في علم النفس الحديث وهي الصداقة Friendship وكيفية اختيار الأصدقاء ، ويدرس في علم النفس الاجتماعي تحت عنوان المهارات الاجتماعية Social skills ، وكذلك التخاطب وحسن المخاطبة وترويض اللسان مما يمكن أن يدخل في الدراسات النفسية للغة ، أو يمكن أن يدخل في مجال الشخصية تحت سمات الشخصية « كضبط النفس » Self control أو

أبعادها العامة كالاتزان الوجداني Emotional Stability (ص ٤) .

والكتاب الثالث هو كتاب حسن الظن بالله تعالى : وفيه يفتح الأمل والرجاء أمام المؤمنين ، ويرغبهم في اللجوء إليه والاحتماء به ، ويؤكد ذلك من خلال الآيات القرآنية الدالة على رحمة الله ومغفرته لكل الذنوب التي يرتكبها العبد ما عدا الشرك بالله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وأن رحمة الله واسعة لا حدود لها ، ادخرها الله لمن يشاء من عباده : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه ، وينبغي علينا أن نظن بالله الخير ، فحسن الظن من العبادة . ويسرد لنا ابن أبي الدنيا عددًا من أحاديث الرسول الكريم ﷺ التي تؤكد كل هذه المعاني ، كما توضح فضل الرسول ﷺ وشفاعته لأمته يوم القيامة ، ويدعم كلامه عن حسن الظن بالله بعدد من الروايات والقصص التي وردت على ألسنة الصحابة والصالحين ، وكلها تمد المؤمن شعور بالتفاؤل والأمل ، وتحثه في نفس الوقت على العمل والاجتهاد ؛ لأن من يحسن الظن بالله تعالى ينبغي أن يحسن العمل ، ومن تلك القصص ؛ قصص تحدثنا عن مدى رحمة الأمهات بأبنائهن ، وكيف أن رحمة الله بعباده أكبر من رحمة الأم بوليدها ، ونجد في هذه القصص حديثًا عن عاطفة الأمومة أو دافع الأمومة ، وهو من الموضوعات التي لقيت عناية في علم النفس العام تحت موضوع الدوافع Motives والتمييز بين الدوافع الأولية ، والدوافع الثانوية ، والجدل الذي أثير حول دافع الأمومة (سواء لدى الإنسان أو الحيوان) وهل هو أولي (فطري) أم ثانوي (مكتسب) ؟ (ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩) .

• ومن المفاهيم النفسية أيضًا السعادة Happiness والآمن Safety والتفاؤل Optimism والانفعالات Emotions والمشاعر الطيبة التي تترتب على حسن الظن بالله في مقابل الاكتئاب Depression والخوف Fear والتشاؤم Pessimism والشعور بالعجز Helplesness والتي تنجم عن سوء الظن .

ويجد ابن أبي الدنيا - كما وجد ويجد غيره - في السنة النبوية المطهرة نبعًا لا يغيض من العلم والمعرفة والحكمة - ومن السنة المطهرة يستقي مادة كتابه الرابع « قضاء الحوائج » وقد قسم هذا الكتاب إلى أبواب ؛ وهو ما لم يفعله في الكتب الثلاثة السابقة ، ويبدأه بما يمكن أن نعتبره مقدمة ، يحدثنا فيها عن المعروف وقيمته ، فكل معروف صدقة ، والمعروف يقي سبعين نوعًا من البلاء ، ويقي ميتة السوء ، والمعروف

والمنكر خلقان منصوبان للناس يوم القيامة ، فالمعروف لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى الجنة ، والمنكر لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار ، والمعروف - أيضًا - خُلُق من أخلاق الله وعليه جزاؤه .

والباب الأول في قضاء الحوائج : ويذكر فيه أن رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس ، ثم يعدد بعد ذلك أنواع الصدقات التي يمكن أن يتصدق بها الإنسان سواء أكانت مادية (طعام ، ثياب ... إلخ) أم معنوية (الكلمة الطيبة) ، ثم يدلنا على فائدة صدقة السر فإنها تطفئ غضب الله ، وبعد ذلك يؤكد فضل قضاء حوائج المسلمين والتفريج عن كربهم ، وما يعود على المفرج في الدنيا والآخرة ، ويذكر بعض الأحاديث التي تحث على إغاثة الملهوف وفضل ذلك كله ، وفي هذا الجزء نجد سبقًا لأحد أنواع السلوك التي تدرس الآن في علم النفس الحديث ، خاصة في الثمانينيات ، وفي علم النفس الاجتماعي على وجه الخصوص ، وهو ما يسمى سلوك المساعدة Helping Behavior سواء طلب المساعدة ، أو تقديمها (ص ٨٨ - ٩٢) .

والباب الثاني من الكتاب في طلب الحوائج إلى حسان الوجوه : حيث حثنا الرسول ﷺ على أن نطلب حوائجنا من حسان الوجوه ؛ لأنهم يعطون ما يُطلب منهم ، وإن لم يعطوا ردوا بوجه طليق لا يسبب أذى ولا حرجًا للطالب .

والباب الثالث والأخير من هذا الكتاب في « شكر الصنيعة » : حيث يجب على من أديت له خدمة أو قضيت له حاجة أن يشكر من أداها أو قضاها له ؛ لأن من لا يشكر الناس لا يشكر الله ، وعدم شكر الله جحود لنعمه وعطاياه ، كما ينبهنا إلى أن يكون الشكر على القليل والكثير ، وأن حدوث الشكر قد يكون بمجرد ذكر النعمة أو قضاء الحاجة .

وآخر الكتب في هذه المجموعة من الرسائل هو كتاب « الأولياء » : ويبدؤه بعدد من آيات القرآن الكريم ، والأحاديث القدسية التي تؤكد ولاية الله لبعض عباده المؤمنين ، حيث ورد عن الرسول الكريم محمد ﷺ ، أن لله خواصَّ من خلقه يحييهم في عافية ، ويميتهم في عافية ، ويدخلهم الجنة في عافية ، واختصاص الله لهؤلاء العباد إنما يقوم على علمه سبحانه بأحوال عباده ؛ ولذا فهو يعطيهم على أساس هذا العلم ، ثم يحدد بعد ذلك بعض خصائص أولياء الله ؛ فهم الذين يتقربون إلى الله بالنوافل حتى يحبهم ، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم وأيديهم فلا يفعلون إلا خيرًا . والولي هو الذي يتمتع

بحلم أصيل يدفع سفه السفيه عن نفسه ، وورع صادق يحجزه عن معصية الله ، وخلق حسن يداري به الناس ؛ كما أن أولياء الله هم الذين يحبون في الله ، ويبغضون في الله ، والحامدون له على كل حال ، والمكثرون من ذكره وشكره ، ويتميزون أيضًا بأيدي تربة ، وقلوب طاهرة ، ويسبغون الوضوء على المكاره ، مشغولون بحب الله ، ويغضبون لمحارمه إذا استحلت ، ولهذا كله وغيره من الخصائص الكثيرة فضلهم الله ، واختصهم برحمته ومغفرته وكثير من نعمه في الدنيا والآخرة ، وهم بالطبع نماذج طيبة ، وأسوة حسنة (كما أن رسولنا أسوة حسنة) لكل راغب في رضا الله والقرب منه والفوز بنعيمه .

ولعل الحديث عن القدوة أو النموذج Model يذكرنا بأحد الأساليب المهمة التي درست في علم النفس الحديث ، في إطار نظريات التعلم Learning Theories ، فيما يسمى التعلم بالنمذجة أو الاقتداء أو المحاكاة ؛ حيث يؤكد أصحاب هذا الاتجاه ضرورة وجود نموذج أو قدوة ينبغي على المتعلم الاقتداء بها أو محاكاتها حتى يكتسب نوع السلوك المرغوب تعلمه (ص ١١٤ - ١٤٦) .

وبهذا ينتهي الجزء الأول من مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا .

أوجه الاستفادة من هذه الرسائل في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسائل في مجالات علم النفس الاجتماعي ، والشخصية ، وعلم النفس العام .

* * *

التواضع والخمول [1]

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في حوالي سبعين ومائتي صفحة ، تغطي سبعة أبواب في الخمول والشهرة والتواضع وحسن الخلق والكبر والاختيال تضم ٢٥١ نصًّا للرسول ﷺ وللصحابة والتابعين من أئمة وشيوخ وشعراء .

وفيما يلي نعرض لتفصيل ذلك :

الباب الأول : باب ما جاء في الخمول Obscurity . بدأ المصنف بهذا الباب لأهمية اتصاف المؤمن المخلص بهذا الخلق الكريم ، وهو ليس الخمول الذي يعني الكسل أو إهمال المواهب ، وإنما هو خمول الذكر والعمل والعبادة بصمت ، أي كراهية الشهرة ، ويعرض لأحاديث وأقوال تبين أهمية الخمول وفضله .

الباب الثاني : باب ما جاء في الشهرة Reputation, Fame ، والشهرة نقيض الخمول تُذهِب الدين وتسبب الفسق في الدنيا والحسرة في الآخرة ، ويعرض أحاديث للرسول ﷺ وللصحابة والتابعين تعرض كراهيتهم للشهرة وكل ما يسببها (من فعل أو قول أو زي) .

- ويرتبط هذا الباب بمفهوم الشخصية غير الناضجة (ص ١١٦ - ١٣١) .

الباب الثالث : باب التواضع Humility, Modesty ، ويعرض فيه لأحاديث وأقوال

---

(١) تحقيق وتعليق لطفي محمد الصغير ، إشراف نجم عبد الرحمن خلف . القاهرة : دار الاعتصام (١٩٨٨م) . (٢٨٩ ص) .

تحث على التواضع وتذم الكبر بذكر ثواب المتواضعين وجزاء المتكبرين .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم تقدير الذات Self - Estimation (ص ١٣٣ - ١٥٩) ، وبمفهوم صورة الذات Self - Image (ص ١٣٣ - ١٥٩) .

الباب الرابع : باب التواضع في اللباس . وهو يتبع الباب السابق في مضمونه ، وإن كان أقرب إلى الخاص منه إلى العام ، حيث يدعو فيه إلى التواضع في الزي والاقتصاد منه ، وعدم الإفراط في زينة مؤقتة زائلة .

● ويرتبط الجزء السابق باثنين من القيم الأخلاقية للإنسان Ethical, Moral Values وهما التواضع والخمول ، ونقصد بالقيم مجموعة معتقدات الإنسان عما يراه غايات أو أشكالًا مفضلة من السلوك ؛ ولذلك نرى أن هذا الكتاب قريب الصلة بالتربية Education لاهتمامه ببيان فضل قيمتي التواضع والخمول والحث على تبني كل منهما في القول والفعل (ص ٩٧ - ١١٥ ، ١٣٣ - ١٥٩) .

الباب الخامس : باب حسن الخلق Good Temper, Good Nature ، ويعرض لأحاديث وروايات عن فضل حسن الخلق ووجوب التحلي به ، ويحث على ذلك بذكر مترتباته في الدنيا والآخرة .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم القيم الأخلاقية (ص ١٧٩ - ١٩٣) .

الباب السادس : باب في الكبر Arrogance, Insolence ، ويضم عددًا من النصوص لذم الكبر والغرور ؛ لأن المتكبرين هم معتدون على مقام الألوهية ، فالكبر والعظمة للّه وحده ، ولا يجوز لعبد أن يتصف بهما أو بأحدهما .

● وهنا يشر المؤلف إلى دوافع التكبز - وهي مسألة تمس الدوافع الإنسانية Human Motives ويرجع لأسباب ، ومن أهمها الحسب والنسب والقوة والسطوة لمال أو جاه أو جمال أو علم .

كما يشير ابن أبي الدنيا أن من أهم أسباب الكبر ضعف العقل ونقص الإيمان وهو تحليل سيكولوجي لشخصية المتكبر وسلوك الكبر ، حيث يقترب هذا التحليل من أحد ميكانزمات التوافق النفسي Mechanisms of Psychological Adjustment الذي كشفت عنه نظرية التحليل النفسي وهو التعويض والإحلال Compensation & Replacement ووفقًا لذلك فإن الكبر أسلوب تعويضي للتوافق مع شعور بالنقص Feeling of Inferiority أو شعور بالعجز .

وبذلك يقترب هذا الجزء من مجال اضطرابات الشخصية والطباع ؛ فالكبر وحب الشهرة بعض خصال الشخصيات غير الناضجة Immatured Personality ، فالشخصية الهستيرية Hysterical personality مثلًا تتسم بالمبالغة في القول والفعل والميل إلى حب الظهور ، ولفت الانتباه ؛ كذلك الشخصية البانويدية Paranoid التي تميل إلى تقدير مفرط للذات Self Estimation والميل إلى لوم الآخرين وقد يفضي الأمر في بعض الحالات إلى مرض يسمى داء العظمة Paranoia وهو أحد الأمراض العقلية التي يصحبها تكبر مع الشعور بالاضطهاد ؛ نظرًا لأهمية الشخصية (وهو يتوهم ذلك) ، وكذلك يرتبط مفهوم الكبر بمفهوم نفسي وهو صورة الذات Self Concept ، أو الاتجاه نحو الذات Attitudes Toward the Self ، أو تقدير الذات Self - Estimation .

الباب السابع والأخير : باب الاختيال Swagger strut . ورد فيه أحاديث ونصوص في ذم المختال سواء بنفسه أو بمظهره وملبسه .

- ويرتبط هذا الباب ببعض المفاهيم النفسية وهي الشخصية غير الناضجة Immature Personality واضطرابات الشخصية والطباع (ص ٢١٣ - ٢٢١) .

* * *

مكارم الأخلاق (1)

عرض : د . معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٠٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من مجموعة من الأبواب التي يدور مضمونها حول مجموعة من القيم الخُلقية التي يحث عليها القرآن الكريم والسنة ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

باب ما جاء في مكارم الأخلاق : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على مكارم الأخلاق منها على سبيل المثال الآتي : عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه كريم يحب الكرم ، ومعالي الأخلاق ، ويبغض سفسافها** » . وعن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول اللّه ﷺ كان يقول في دعائه : « **اللّهم اهدني لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلّا أنت ، واصرف عني سيئها ،لا يصرف عني سيئها إلّا أنت** » ، وعن أبي هريرة ، قال رسول اللّه ﷺ : « **بُعثت لأُتمم صالح الأخلاق** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم الأخلاقية Moral Values (مثل الكرم والمروءة) (ص ٣ - ٦١) ، والتسامح Tolerance (ص ٢٧ - ٣٥) ، والتعاون Cooperation (ص ٢٧ - ٣٥) .

---

(١) تحقيق محمد عبد القادر أحمد - (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٩م) . (٣٩٩ ص) . مع مكارم الأخلاق / الطبراني .

باب ذكر الحياء وما جاء فيه : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض الأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل الحياء وقيمته ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن سالم بن عبد اللّه بن عمر ، عن أبيه ، قال : سمع النبي ﷺ رجل يعظ أخاه في الحياء يقول : إنك لتستحي حتى كأنه يقول : قد أضرَّ بك ، فقال النبي ﷺ : « **دعه فإن الحياء من الإيمان** » ، كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها : « رأس مكارم الأخلاق الحياء » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الانفعالات ، وبخاصة انفعالي الخوف والخجل من فعل ما هو مذموم ومستقبح (ص ٦٢ - ٩٥) .

باب في الصدق وما جاء في فضله ، وذم الكذب : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة وبعض الأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل الصدق ، وذم الكذب ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند اللّه صديقًا** ، **وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللّه كذابًا** » ؛ كما قال علي رضي الله عنه : « زين الحديث الصدق ، وأعظم الخطايا عند اللّه عز وجل اللسان الكذوب ، وشر العذيلة عذيلة أحدكم نفسه عند الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة » .

● ويرتبط مضمون هذا الكتاب بمفهوم قيمة الصدق (ص ٩٦ - ١٠٣) ، ومفهوم الكذب Lie (ص ٩٦ - ١٠٣) .

باب في صدق البأس وما جاء فيه : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت قيمة الشجاعة وصدق البأس ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال علي رضي الله عنه للمقداد : أعطني فرسك أركبه ، فقال له النبي ﷺ : « **أنت راجلًا خير منك فارسًا** » . كما قال خالد بن الوليد : « ما ليلة أبشر فيها بغلام أو تهدى إليَّ فيها عروس أحب إليَّ من ليلة قرة باردة في سبيل اللّه » .

باب ما جاء في صلة الرحم : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة ، والأشعار التي أكدت فضل ودلالة وأهمية صلة الرحم ، ومنها على سبيل المثال الآتي : قال عبد الرحمن بن عوف : سمعت رسول اللّه ﷺ

يقول : « **إن اللَّه تبارك وتعالى يقول : أنا اللَّه ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم فشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته** » . وعن يحيى بن سعيد قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **البر والصلة وحسن الجوار عمارة في الدنيا وزيادة في الأعمار** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم المودة Intimacy (ص ١٥٥ - ١٨٩) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relations وبخاصة العلاقات الأسرية (ص ١٥٥ - ١٨٩) .

باب ما جاء في الأمانة : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة ، والأشعار التي أكدت فضل الأمانة ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللَّه بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « **ثلاث إذا كن فيك لم يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ أمانة ، عفة في طعمة** » . كما قال ابن مسعود : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تبقى الصلاة ، وليصلين قوم لا دين لهم » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة الأمانة (ص ١٩٠ - ١٩٨) .

باب ما جاء في التذمم للصاحب : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل التذمم للصاحب ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللَّه بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « **إن خير الأصحاب عند اللَّه ﷻ خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند اللَّه خيرهم لجاره** » ، عن أبي إياس قال : إذا اصطحب الرجلان فتقدم أحدهما صاحبه فقد أساء الصحبة .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الصداقة Friendship (ص ١٩٩ - ٢١٤) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ١٩٩ - ٢١٤) .

باب ما جاء في التذمم للجار : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة التي أكدت فضل التذمم للجار ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عائشة ﵂ قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » ، وعن أبي شُريح قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم جاره** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ٢١٥ - ٢٢٢) ، ومفهوم المودة (ص ٢١٥ - ٢٢٢) .

باب ما جاء في المكافأة بالصنائع : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية

الشريفة ، والأقوال المأثورة التي أكدت أهمية المكافأة بالصنائع ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **تهادوا فإن الهدية تذهب وَحَرَ الصدر ، ولا تحقرن جارة لجارتها وإن كان شق فرسن شاة** » ، وعن عائشة قالت : « كان رسول اللّٰه ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم المحبة Liking (ص ٢٣٣ - ٢٤٣) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ٢٣٣ - ٢٤٣) .

باب الجود وإعطاء السائل : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة التي أكدت أهمية الجود وإعطاء السائل ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن أنس قال : « كان رسول اللّٰه ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة فانطلقوا قبل الصوت ، فتلقاهم رسول اللّٰه ﷺ قد سبقهم وهو على فرس لأبي طلحة عُرى ما عليه سرج ، وفي عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ! لم تراعوا ثم قال : وجدناه بحرًا - أو إنه لبحر - وكان يُبَطأ وما سُبق بعد يومئذ » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة الغيرية Altruism ومساعدة الآخرين (ص ٢٣٣ - ٢٤٤) .

* * *

العقل وفضله [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط ، يدور مضمونها حول أهمية العقل وفضله على الإنسان ، وينهي المحقق الكتاب بعرض مجموعة من الفهارس العامة للآيات ، وللأحاديث المرفوعة ، وللآثار ، وللأعلام ، وللأشعار ، وللفرق والمذاهب ، وأخيرًا فهرس للمصادر والمراجع .

وبوجه عام يعرض هذا الكتاب كما يقول المحقق صورًا مشرقة لتوجيهات الأئمة من السلف الصالح في القرون الثلاثة الأولى الفاضلة ، والتي تمثل انطباعاتهم وتأثرهم بالجو الإسلامي العام الذي كان يدور مع الكتاب والسنة حيث دارا ، وبالتالي فهذه النصوص المحفوظة في هذا السفر التراثي تعالج قضية خطيرة وهي قضية « العقل » في الرؤية الإسلامية ، وقد استغل الكثير من أصحاب الأهواء والفرق الضالة هذه القضية ، واعتمدوا عليها في تنفير المسلمين من جماعة السنة والحديث ، وشنوا عليهم ، وأشاعوا حولهم بأنهم « حشوية » وأنهم زوامل أخبار « وبأنهم قوم قد ألغوا عقولهم ، وعطلوا طاقاتهم الفكرية الإبداعية » .

وكانت هذه المذاهب والأهواء ، وعلى رأسها المعتزلة وفي جملتها الخوارج ، والمرجئة ، والإسماعيلية ، وغيرهم قد تضع العقل - في بعض الأحيان - في مرتبة الوحي ، والعياذ

---

(١) حققه وعلق عليه لطفي محمد الصغير ، أشرف عليه وترجم لمؤلفه نجم عبد الرحمن خلف - (ط ١) . الرياض : دار الراية للنشر والتوزيع (١٩٨٩م) . (٩٦ ص) .

بالله ، فجاءت محاولة الحافظ ابن أبي الدنيا في تسجيل مواقف أهل السنة من العقل واعتنائهم به ، وتركيزهم عليه ، صفعة قوية في وجوه أهل الأهواء والبدع كما حاول أن يعالج الإفراط والتفريط في هذا الجانب المهم من تركيبة المسلم ، فنراه يضع العقل في الذروة من الملكات والطاقات بعد معرفة الله ﷻ فيروي بسنده المتصل إلى عبيد الله قوله : « ما أوتي رجل – بعد الإيمان بالله ﷻ – خيرًا من العقل » ، كما يروى عن عروة أنه قال : « أفضل ما أعطي العباد في الدنيا العقل ، وأفضل ما أعطوه في الآخرة رضوان الله ﷻ » ، وعن الحسن : « ما تم دين الرجل حتى يتم عقله » .

وأكد أن العقل عقلان : عقل طبيعة ، وعقل تجارب ، ثم راح يحشد النصوص التربوية التي تعالج قدح زناد الفكر ، وتعمل على نضوج العقل وتطويره وإثرائه ، كالحرص على مجالسة العقلاء وأهل الفضل من العلماء والنبلاء ، وحفظ التجارب وتخزينها ، والاتعاظ بتجارب الغير ، واستعمال المجاهدة لعقل النفس وضبطها على الأهواء ، والعناية بالعلم والتعلم فهو دليل العقل ومرشده ، والحرص على استشارة أهل الرأي والفطنة ، فهو بذلك يجمع عقلين في شخصه ، وكذا يضع رأيه مع رأي الجماعة ولا يشذ عنها ، فرأي الجماعة باجتماع عقولهم مبرمة لصعاب الأمور .

أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء السابق فهي : العقل Mind (ص ٢٩– ٥٣) ، والتفكير Thinking (ص ٢٩ – ٥٣) ، والقيم الدينية والخلقية Moral and Religious Values (ص ٣١) ، وجماعات الأقران Peers (ص ٥٤ – ٥٥) .

ولم يغفل ابن أبي الدنيا الوسائل السلبية التي تشوش العقل وترديه ، وتهبط به ، فانبرى للتنبيه عليها ، وحذر من أصحابها ، وساق العديد من النصوص الموضحة لذلك ، وبهذه النصوص ونظائرها حاول المؤلف أن يعالج – بتوجيهاتها ودلالتها – جانب التفريط في طاقة العقل ، وأعمال الفكر ، وهي نصوص جليلة في بابها تكشف عن الفكر المنهجي عند المحدثين ، وتميط اللثام عن عنايتهم الوافرة بهذا الجانب الحيوي من تركيبة المسلم ، فالإسلام قد عني بالعقل والفكر عنايته بالروح والجسد ، والمحدثون هم أول الناس انطباعًا وتأثرًا بالتوجيهات الإسلامية ، لما عُلم من حرصهم وتجاوبهم مع نصوص الكتاب والسنة ، وآيات التفكر والتدبر وأعمال العقل تمتلئ بها آيات القرآن الكريم وكذا بالنسبة للسنة المبينة المفصلة لهذه التوجيهات الكريمة .

وهو ما عرض له المؤلف باستفاضة ، فعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الناس يعملون بالخير على قدر عقولهم** » ، وعن سعيد بن المسيب قال : قال

رسول الله ﷺ : « **رأس العقل بعد الإيمان بالله ﷻ مُداراة الناس** » ، (ص ٣٧) .

وحدثنا ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] قال : أولى العقل والفقه في دين الله ﷻ ، أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء السابق فهي العقل Mind (ص ٥٦ - ٧٦) ، والتفكير (ص ٥٦- ٧٦) ، والتخلف العقلي (ص ٦٩ ، ٧٠) ، والذكاء Intelligence (ص ٦٩ ، ٧٠) .

* * *

كتاب الصمت وآداب اللسان [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ٧٥٩ نصًا (منها ٢٥٣ حديثًا ، والبقية إما آثار الصحابة والتابعين أو آيات وقطع من شعر قاله السلف الصالح) مسندًا إلى قائليها إسنادًا حسنًا يدل على سعة علم المصنف (أي ابن أبي الدنيا) وتمكُّنه من علم الحديث ، وتتناول جميعها موضوعًا واحدًا هو « آداب اللسان » (أي ما يجب على المسلم أن يقوله ، وما يجب عليه ألَّا يقوله) ، وقد أحسن ترتيبها وتصنيفها إلى ستة وعشرين بابًا يتناول بعضها فضل الصمت ، فالكلام لا يكون إلَّا بذكر أو بخير ، والأمر بالقول الحسن ، وحفظ السر ، وفضل التحفظ في الكلام ، وفضل الصدق فيه ، وفضل الوفاء بالوعد ، وينهى بعضها الآخر عن الكلام فيما لا يعني المرء ، وعن الجدال والتقعر في الكلام ، وعن الخوض في الباطل وعن الذم وعن الكذب وعن المدح وعن السخرية وعن البذاء وعن اللعان وعن المزاح أو المخاصمة أو النفاق أو النميمة ونقل الكلام بين الأطراف المتخاصمة ، كما ينهى عن الغيبة موضحًا ما هي وما يحل منها وما يحرم وكفارة الغيبة المحرمة ، ثم اختتم الكتاب بباب يجمع كل ما سبق .

يدور الكتاب حول عدد من الأبعاد القيمة الأخلاقية مثل : الصدق - الكذب ، الوفاء - الغدر ، الأمانة - الخيانة ، فيأمر المسلمين بالقطب الإيجابي للقيمة كالصدق ،

---

(١) دراسة وتحقيق نجم عبد الرحمن خلف - (ط ١) . بيروت : دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م) . (٧٥٤ص) .

وينهاهم عن القطب السلبي كالكذب ، وللقيم دور بارز في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة ؛ إذ توجه السلوك بالتفضيل بين البدائل المتاحة . من هنا يكتسب كتاب « الصمت وآداب اللسان » أهميته التربوية .

ورد في كتاب « الصمت وآداب اللسان » حديثان شريفان في النصين (٩ ص ١٨٣، ١٢ ص ١٨٥) والقولان مؤثران في النصين (٥٨ ، ٥٩ص ٢٢٤) وتشير جميعها إلى « أن اللسان قوام البدن وأميره ، فإذا استقام استقامت الجوارح كلها وإذا عف عفت ، وإن اعوج واضطرب اعوجت ، ولا يستقيم الإيمان حتى يستقيم قلب المرء ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

والمقصود باللسان هو أقوال الفرد التي تعبر عن حقيقة مشاعره ومعتقداته ، ولهذه الأقوال دورها الحيوي في سلوك الإنسان ، ويمكن من خلال تعبيرات معينة التأثير في سلوك الأفراد والشعوب ، فعمليات مثل : الدعاية Propaganda والإقناع Persuasion والحرب النفسية Psychological Warefare وغسيل المخ Brain Washing تعتمد جميعها على أقوال ، وتترتب عليها أفعال شديدة الأهمية ، وقد وضع علماء النفس نظرية تصف المسار الذي يترجم به الفرد أقواله إلى أفعال وخطوات أو عمليات هذه الترجمة ، وهي نظرية « الفعل المتعقل » Reasoned Action التي وضعها « فيشباين » Fishbein وأجزن Ajzen (١٩٧٥ ، ١٩٨٠) وطورها « أجزن » (١٩٨٥) و« باجوزي » Bogozzi (١٩٨٦) ، ومجملها أن معلومات الفرد (صحيحة أو خاطئة) - وهي معلومات يحصل عليها من أقوال مسموعة أو مقروءة - عن موضوع ما تحدد معتقدات الفرد عنه وعن مترتبات أداء فعل معين وعن توقعات الآخرين لهذا الأداء ، وتحدد هذه المعتقدات - بدورها - اتجاه الفرد نحو الموضوع والمعايير التي توجه أفعاله نحو هذا الموضوع ، واللذان يحددان - بدورهما - نية الفرد لأداء هذه الأفعال ، تلك النية التي تعد محددًا مباشرًا للفعل ، بمعنى آخر ، فإن الفرد يتبنى - من خلال تلقيه معلومات معينة وتقويمها - حكمًا عن موضع ما هو عبارة عن معتقداته ومعارفه وتقويمته الانفعالية لهذا الموضوع ، والتي تؤدي بالتفاعل مع خصال الشخصية والمعايير الأخلاقية وبواسطة عمليات تعلم شرطي أيضًا إلى تكوين استجابات إقدام / إحجام عن فعل معين .

وهكذا تصبح الكلمة يطلقها اللسان مؤثرًا في اليد أو القدم ، فتحركها حيث تشير الكلمة ، ويصبح اللسان أميرًا على الجوارح كلها .

ويقول النص (٨٤ ص ٢٤٤) إن الله تعالى يوحي إلى الحافظين مع ابن آدم ألَّا تكتبا على عبدي في ضجره شيئًا مشيرًا إلى أن العبد يخطئ عند الضجر ، أو بتعبير أمير الشعراء :

مالي غضبت فضاع أمري من يدي والأمر يخرج من يد الغضبان

فالغضب أو الضجر انفعال Emotion والانفعال يشير إلى اضطراب حاد يفقد المرء القدرة على حسن مواجهة الموقف ، فيقع في الأخطاء وتنتج نتائج ضارة وسلبية .

ورد في النص رقم (١٣٣ ص ٢٧٦) ، والمنسوب إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أن : « من كثر همه سقم جسمه » وهو قول يتسق مع مُسَلمَة يؤمن بها الطب النفسي الحديث وهي أن معظم الأمراض الجسدية (سقم جسمه) يلعب فيها العامل النفسي (كثر همه) دورًا قويًا سواء في نشأتها أو استمرارها أو إثارتها أو ضعف مقاومة الفرد لمهاجمة المرض لدرجة أن بعض الأبحاث الحديثة تفيد بوجود ترابط بين السرطان والعوامل النفسية .

وقد دأبت جمعيات الطب النفسي في الدول المختلفة على أن يتضمن دليلها لتشخيص الأمراض النفسية فئة : الاضطرابات النفسفسيولوجية أو النفسجسمية Psychosomatic للإشارة إلى الاضطرابات العضوية التي يلعب فيها العامل الانفعالي دورًا أساسيًا .

* * *

الفريابي (ت ٣٠١هـ)
صفة النفاق وذم المنافقين [1]

عرض : د. أسامة سعد أبو سريع

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابي ، ولد أبو بكر الفريابي في عام (٢٠٧هـ = ٨٢٢م) وهو تركي الأصل ، نشأ في فرياب إحدى ضواحي بلخ بتركيا ، تنقل بين مصر وبغداد ، وقد تولى القضاء مدة طويلة ، عندما ذهب إلى بغداد استقبله أهلها بالطبول ؛ تقديرًا لمكانته ، وعلمه ، كان يأتي إلى مجلسه في بغداد حوالي عشرة آلاف .

من أهم كتبه : « رسالة في دلائل النبوة » ، و « فضائل القرآن » والكتاب الذي بين أيدينا الآن وهو « صفة النفاق وذم المنافقين » .

توفي أبو بكر الفريابي في عام (٣٠١هـ = ٩١٣م) ، عن واحد وتسعين عامًا .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، ويهدف إلى إيضاح خصائص المنافقين ، وتوعية المسلمين بخطرهم على الإسلام ووحدة الصف ؛ علمًا بأن الإسلام حرم قتل المنافقين على الرغم من التأكد من جحود قلب المنافق وكذبه في دعوى الإسلام ما دام ينطق بالشهادة ويحضر الصلاة أمام جمع المسلمين ، أملًا في إصلاح حاله عندما يعايش جو الإسلام السمح .

---

(١) تحقيق محمد عبد القادر عطا - (ط ٢) . بغداد : دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) . (٧٢ ص) .

ومع ذلك يوجب الإسلام علينا ضرورة الحذر من المنافقين ، ويفرض جهادهم حتى لا يفسدوا جمع المسلمين حتى إن رسولنا الكريم ﷺ حذر المسلمين من الصلاة على موتاهم أو طلب الرحمة لهم .

وبالإضافة إلى مقدمة المحقق ، والتي عرضنا لها في الفقرة السابقة تشمل رسالة الفريابي نفسها قسمين رئيسين هما :

١ - صفة المنافق .

٢ - من كان يخاف النفاق ، ويشفق منه ، ولا يأمن على نفسه .

وفيما يلي نلخص المعاني التي أوردها الفريابي في كل قسم منهما مع الدلالات النفسية التي تنطوي عليها تلك المعاني :

صفة النفاق :

يبدأ الفريابي بذكر حديث رسول الله ﷺ والذي يكشف صفات المنافق وهو : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها** » ومن ذلك يتضح بجلاء أن صفات المنافق الأساسية هي الكذب ، وعدم الالتزام بالعهود ، وخيانة الأمانة ، وهناك أحاديث أخرى تضيف إلى الصفات السابقة صفات أخرى تفضح المنافقين منها : « **وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر** » ومنها أيضًا : « **إذا غل ثَمل ، وإذا أمر عصى ، وإذا لقي جبن** » ويستشهد الفريابي بالآيات من (٧٥ - ٧٧) من سورة التوبة لإثبات كذب المنافقين ، ونقضهم للعهد ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وعلى النقيض يذكر الفريابي من الأقوال ، والأحاديث ما يبين أن الصفات المميزة للمؤمن هي صدق الحديث ، وإنجاز الوعد ، وأداء الأمانة .

ويورد الفريابي أحاديثًا وأقوالًا مأثورة تحذر من المنافق طلق اللسان ، منها : « **أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان** » .

ويعني بالمنافق عليم اللسان المنافق ، واسع المعرفة مع جهل القلب ، وسوء العمل ، ويضيف إلى صفات المنافق العليم قراءة القرآن قراءة صحيحة دون خطأ في أي حرف ، وتسخير تلك المعرفة في إضلال الناس بادعائهم العلم ، ويجسد عمر بن الخطاب ذلك

المعنى بقوله : « يهدم الإسلام ثلاث : زلة عالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وأئمة مضلون » .

ومن الأقوال المأثورة التي ذكرها الفريابي في وصف المنافق علاوة على ما سبق : « المنافق لا يهوى شيئًا إلّا ركبه » و « المنافق يعبد هواه ، لا يهوى شيئًا إلّا ركبه » وهو قول يدل أبلغ دلالة على انسياق المنافق وراء ملذاته وشهواته دون تروي ، ويضيف الفريابي إلى تلك الصفات اغتياب الآخرين ، والخوض في أعراضهم في غيابهم ، والثناء عليهم في حضرتهم ، ومنها أيضًا أن المنافق يرائي بصلاته ، ويتعمد إعلام الناس أنه يصلي ، ثم لا ييأس أو يأسف لما يفوته منها ، ويمتنع عن أداة الزكاة .

ويكشف أبو بكر الفريابي عن التناقض الذي يعايشه المنافق عندما يسوق لنا قول بلال بن سعد : « المنافق يقول بما يعرف ، ويعمل بما ينكر » وحديثًا إلى بكر بن شيبة « المنافق هو الذي يصف الإسلام ولا يعمل به » .

● ومن استعراض القسم الخاص بصفة المنافق يتبين أن له صلة واضحة بعديد من المفاهيم النفسية الحديثة ، ومن أبرزها سمات الشخصية Pesonality Traits (ص ٢٢- ٥٤) ، والقيم Values الخاصة التي يتبناها الشخص (ص ٢٢ - ٥٤) ومن بينها الصدق Truth، والأمانة Honesty ، والإخلاص Loyalty ، والصداقة Friendship ، وذلك في معرض حديث أبي بكر الفريابي عن سمات المؤمن ، ويقابلها السمات التي تميز المنافق .

ويحوي القسم دلالات تتصل بمفاهيم أخرى في مجال القدرات Abilities مثل الطلاقة اللفظية Verbal Fluencey (ص٣٥ - ٣٨) ، والقدرة على الإغراء Persuasion ، أو الإقناع To Convince (ص ٣٩ - ٤٥) ، وهي سمات يتصف بها المنافق ويستغلها في إضلال الآخرين ، بالإضافة إلى مفاهيم مرتبطة بالدافعية Motivation ، والحاجات Needs، وتتمثل في ميل المنافق إلى طلب اللذة Sensation Seeking (ص ٤٦ ، ٤٧) ، علاوة على مفاهيم مرتبطة بالتناقض المعرفي Cognitive Dissonance (ص٤٩ - ٥٠) ، وعدم الاتزان Instability (ص ٤٩ ، ٥٠) ، والتطرف Extremeness (ص ٢٧) ، وكلها سمات سلبية يظهرها المنافق في سلوكه ، ويمكن تطويعها لخدمة مفهوم القياس النفسي Psychometry ، إذا أردنا تصميم اختبارات نفسية Psychological Tests تكشف عن المنافقين .

من كان يخاف النفاق ، ويشفق منه ، ولا يأمن على نفسه :

يبين الفريابي في هذا القسم مبلغ كراهية المسلمين للنفاق ، ونفورهم منه ، وخوفهم

من أن تلتصق بهم خصلة منه تخرجهم عن دينهم ، ويعكس ذلك المعنى قول أحد السلف الصالح وهو يقسم بالله تعالى : « ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلَّا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى منافق إلَّا وهو من النفاق آمن » وأيضًا قوله : « من لم يخف النفاق فهو منافق » و « والله ما أصبح ولا أمسى مؤمن إلَّا وهو يخاف النفاق على نفسه » . ويضيف الفريابي من الأقوال المأثورة ما يوضح أن أبعد المؤمنين عن النفاق أشدهم خوفًا منه ، وأقربهم إليه من يحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم : « أبعد الناس عن النفاق أشدهم خوفًا على نفسه منه ، والذي لا يرى أنه ينجيه منه شيء ، وأقرب الناس منه الذي إذا ذكره أحد بما ليس فيه ارتاح قلبه » .

ويمضي الفريابي مشجعًا المؤمن على مواجهة المواقف التي قد تسوقه إلى النفاق وأخطرها موقف يُمدح فيه المؤمن بما ليس فيه ، وهنا ينصح المؤمن بترديد الدعاء التالي : « اللَّهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، فإنك تعلم ولا يعلمون »

ويعود الفريابي إلى الكشف عن السمات التي تميّز بين المؤمن الحق وبين المنافق فيذكر أن المؤمن حسن الظن بربه ؛ ويدفعه ظنه الحسن إلى إحسان العمل ، بخلاف المنافق الذي يكثر كلامه ويقل عمله ، ويضيف أن المنافق لا يحب المؤمن أبدًا ، وأنه يتربص بالمؤمن ليوقع به الضرر وينشر عنه الأقاويل ؛ ويشجع الفريابي المؤمن على مواجهة هذا الموقف أيضًا ذاكرًا قول أحد السلف : « إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل فيك » .

ويشير الفريابي إلى زمان يأتي وقد تزايدت أعداد المنافقين بصورة مؤسفة عندما يورد قول عبد الله بن عمرو : « ليأتين على الناس زمان يجتمعون في مساجدهم ليس فيهم مؤمن » ، كما يبين كيف يُساق المرء إلى النفاق ، وهو يسجل قولًا مأثورًا عن أبي مليكة النماري : « إن الرجل ليدخل على الإمام فما يخرج إلا مشركًا أو منافقًا ، إن أعطاه حمده ، وإن منعه خرج يذمه ويعيبه ، فإذا فعل هذا بالإمام فقد نافق أو أشرك ، وإنما يعطي ويمنع الله » .

● ويكشف القسم الثاني أيضًا عن صلة بعدد من المفاهيم النفسية أوضحها الاتجاهات Attitudes (ص ٥٥ – ٧١) كما تتمثل في الكراهية Hate التي يشعر بها المؤمن نحو النفاق وحرصه على تجنبه ، بالإضافة إلى مفاهيم مثل الدافعية Motivation (ص ٥٥ – ٧١) والانفعالات Emotions (ص ٥٥ – ٧١) وتتضح في رغبة المؤمن في تجنب النفاق والخوف Fear منه .

هذا في معرض حديث للفريابي عن كراهية النفاق ، ومن ناحية أخرى يقدِّم عددًا من الأساليب تمكن المؤمن من مقاومة النفاق ، ومفاهيمه هنا أقرب إلى الإرشاد النفسي Counseling (ص ٦٤ - ٦٦) ، وتعكس الأساليب التي ذكرها المفاهيم النفسية الآتية :

صورة الذات Self - Image (ص ٦٤) أو الاستبطان Introspection (ص ٦٤) ومركز التحكم في التدعيم Locus of Control (ص٦٤) وكلها مفاهيم تعكس ميل المؤمن إلى فهم نفسه وتأملها ورغبته في أن يستمد الرضا عن نفسه وقبوله ذاته Self - Acceptance من خلال علاقته بربه ، وليس انتظارًا لإثابات Rewards يحصل عليها من الآخرين .

* * *

زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ)
النفس والروح [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن زكريا الرازي ، أبو بكر ، فيلسوف ، من الأئمة في صناعة الطب ، ولد في « الري » عام (٢٥١هـ = ٨٦٥م) ، ومات ببغداد وقيل بالري سنة (٣١٣هـ = ٩٢٥م) ، وفي رواية أخرى ولد عام (٢٣٦ هـ = ٨٥٠م) ، وتوفي سنة (٣٢٠هـ = ٩١٠م) ، ولد وتعلم بالري ، وسافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين ؛ يسميه كتاب اللاتينية « رازيس » Rhazes أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر في صغره واشتغل بالكمياء ، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره ، فنبغ واشتهر . ظل حجة في الطب حتى القرن السابع عشر ، وتولى تدبير مارستان الري ، ثم رياسة أطباء البيمارستان المقتدى في بغداد . عمي في آخر عمره ، ومات ببغداد ، ويمكن تحديد عدد الكتب التي ألفها العلامة أبو بكر الرازي بشكل تقريبي على النحو : (٥٦) كتابًا في الطب ، (٣٣) كتابًا في العلوم الطبيعية ، (٨) كتب في المنطق ، (١٠) كتب في الرياضيات ، و (١٧) كتابًا في الكمياء . ومن مؤلفاته « الحاوي - خ » في صناعة الطب ، « الطب المنصوري - خ » ، و « الفصول في الطب » ويسمى « المرشد - ط » ، « والجدري والحصبة - ط » و « براءة الساعة » و « رسالة الكافي » ، و « الطب المملوكي » ، ومقالة في « الحصى والكلى والمثانة - ط » ... إلخ .

---

(١) ضبطه وقدم له سليمان سليم البواب . دمشق ، بيروت : منشورات دار الحكمة (١٩٨٦م) . (٩١ص) .

ويأتي كتابه « الطب الروحاني » في المرتبة الثالثة بعد كتابيه الحاوي والمنصوري وقد ألفه وهو مقيم بمدينة السلام ؛ وقد عرف غيته من التأليف بأنها إصلاح أخلاق النفس وضمنه عشرين فصلًا ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة في المتاحف البريطانية برقم (١٥٣٠) ، ورقمها في الإضافات الشرقية (٢٥٧٥٨) ونسخة في مكتبة الفاتيكان برقم (١٨٢) من المخطوطات العربية ، ونسخة في دار الكتب المصرية قسم التصوف والأخلاق الدينية برقم (٢٢٤١) .

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب ما يأتي :

١ – **في شرح مرتبة الإنسان من مراتب الموجودات** . يمكن وصف الموجودات بوجوه كثيرة . وذلك على النحو التالي :

التقسيم الأول : تقسيم المخلوقات على أربعة أقسام :

الأول : الذي له عقل وحكمة ، وليس له طبيعة ولا شهوة ، وهم الملائكة .

الثاني : الذي ليس له عقل ولا حكمة ، وله طبيعة وشهوة ، وهو سائر الحيوانات سوى الإنسان .

الثالث : الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة ، وهي الجمادات والنباتات .

الرابع : وهو الذي يكون له عقل وحكمة ، ويكون له طبيعة وشهوة ، وذلك هو الإنسان .

التقسيم الثاني : أن نقول : الموجود إما أن يكون موجودًا لا أول له ولا آخر له ، وهو الخالق تعالى وتقدس ، أو موجودًا له أول وله آخر وهو الدنيا ، أو موجودًا له أول ولا آخر له ، وهو الأرواح البشرية والدار الآخرة ، وأما الرابع وهو الذي لا أول له وله آخر ، فهذا ممتنع في الوجود ؛ لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه .

التقسيم الثالث : المخلوقات على ثلاثة أقسام : إما كاملة لا يتطرق النقصان إليها ، وهم أصحاب العالم العلوي ، أجسادهم السموات وقلوبهم الكواكب ، وأرواحهم الملائكة المقربون الطاهرون المطهرون ، وإما ناقصة لا يتطرق إليها الكمال ، وهي الحيوانات ، سيما الجن والشياطين والنبات والمعادن ، والقسم الثالث : وهم الذين يكونون تارة كاملين وتارة ناقصين ، فإن صاروا في حد الكمال ، كانوا مع الملائكة

المقربين ، مواظبين على ذكر جلال اللّٰه ، وتارة ينزلون إلى أفق البهائم ومقامي الشهوة والغضب .

● ويرتبط ما ورد في هذا الجزء بموضوع الغرائز Instincts ، والدوافع الفطرية أو الأولية Primary Motives ، كالدافع إلى الطعام ، والدافع إلى الشراب ، والدافع الجنسي وهي دوافع تميز الإنسان عن سائر الموجودات ، كما أن هناك إشارة إلى الانفعالات Emotions ، وخاصة انفعال الغضب ، كما يشير إلى استعداد الإنسان إلى تحقيق كماله الذاتي عن طريق ذكر اللّٰه تعالى والتقرب إليه ، كما أن فيه استعداد النزول إلى مستوى البهائم إذا أغفل ذكر اللّٰه وعبادته والتقرب إليه (ص ٢٥ - ٣٦) .

٢ - **في تقرير ما سلف بطريق آخر أقرب إلى التحقيق** : تنقسم الموجودات - حسب القسمة العقلية - إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : وهو الذي يؤثر ولا يتأثر ألبتة ، فهو الحق ﷻ ؛ لأنه واجب الوجود لذاته ولحقيقة هويته ، وكلما كان واجبًا لذاته ، كان واجب الوجود من جميع اعتباراته .

القسم الثاني : وهو الموجود الذي يتأثر ولا يؤثر ، فهو الهيولي (عيني الأصل أو المادة) فهيولي العالم الجسماني هو الأجزاء التي لا تتجزأ .

أما القسم الثالث : وهو الذي يؤثر ويتأثر معًا ، فهو عالم الأرواح والنفوس ؛ وذلك لأنه لما ثبت أن واجب الوجود ليس إلّا الواحد ، ثبت أنه كل ما سوى الواحد ممكن لذاته ، وكلما كان ممكنًا لذاته ، فإنه لا يوجد إلا بإيجاد غيره ، وذلك الشيء فقد قبل الأثر من ذلك الغير ، فثبت أن الأرواح قابلة للأثر من الغير ، وأما أنها مؤثرة ، فمنهم من قال لا مؤثر إلّا الواحد ؛ وذلك لأن الممكنات مشتركة في معنى الإمكان ، ومعنى الإمكان محوج إلى المؤثر .

وأما القسم الرابع : وهو الموجود الذي لا يؤثر أو لا يتأثر ألبتة ، فهذا ممتنع الوجود في العقول ؛ لأنا لما دللنا على أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن الوجود لذاته ، واجب لغيره لزم أن كل ما سوى ذلك الواحد أنه قبل الأثر عنه ، ووجد به ، فيكون عنه ، فكان هذا القسم ممتنعًا .

٣ - **في بيان مراتب الأرواح البشرية** : ويشير مضمونه إلى أنه هنلك من الأشياء ما هو محبوب لذاته ، أو مكروه لذاته ، أو محبوبًا لاشتماله على شيء آخر ، أو مكروهًا

لاشتماله على شيء آخر .

ولا يوجد شيء محبوب لذاته سوى اللذة والكمال وفي الحقيقة لا فرق بينهما ، والكمال إما أن يعزّ في الذات أو في الصفات ، أما الكمال في الذات فهو أن يكون واجبًا لذاته ، من حيث هو غير قابل للعدم والفناء بوجه ألبتة ، إلا أن تحصيل هذا الكمال محال ؛ لأن الشيء إما أن يكون واجبًا لذاته أو لا يكون ، فإن كان واجبًا لذاته ؛ كان الوجوب للذات حاصلًا ، والحاصل لا يمكن تحصيله ، وإن لم يكن واجبًا لذاته ، امتنع أن ينقلب واجبًا لذاته ، وما يمتنع وجوده لا يكون مطلوبًا ، ولما كان الحق ﷻ واجب الوجود لذاته كان محبًّا لذاته ومحبوبًا لذاته ، ولما كان من لوازم ذاته فيضان الممكنات عنه ، كانت أفعاله محبوبه ، ولهذا السبب قال : « يحبهم ويحبونه » .

وتناول هذا الجزء الحديث عن الأرواح البشرية ، فهي قابلة ، أو فعالة ، فإذا توجهت إلى العالم الإلهي كانت قابلة ، وإذا توجهت إلى العالم الهيوالاني الجسماني كانت فاعلة .

والنفوس على ثلاثة أقسام : أعلاها درجة المتوجهين إلى العالم الإلهي ، المستغرقين في تلك الأنوار الصمدية ، والمعارف الإلهية ، وهم المسمون في القرآن تارة بالسابقين ، وتارة بالمقربين ؛ والدرجة الوسطى هي النفوس التي لها التفات إلى العالمين ، فتارة تترقى إلى العالم الأعلى بالعبودية والخضوع ، وتارة تنزل إلى العالم الأسفل بسبب التدبير والتصرف ، وهم أصحاب الميمنة والمتقصدون ، والدرجة الثالثة هم المتوجهون إلى العالم الأسفل ، المتوغلون في طلب لذاته ، وهم أصحاب الشمال الظالمون .

● ويرتبط مضمون هذا الجزء - بشكل غير مباشر - بموضوع الانفعالات Emotions كالسعادة ، والحب ، والشعور باللذة ، كما يرتبط بموضوع القيادة Leadership (ص ٤٥ - ٥٢) .

٤ - في البحث عن ماهية جوهر النفس : فالنفس واحدة ، ومغايرة للبدن ، فمن ناحية العلم البديهي ، المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد إلى ذاته ، المخصوصة بقوله « أنا » . أما من ناحية الاستدلال ، والذي يدل على توحد النفس - فهناك حجج عديدة منها :

١ - إن الغضب عند بقائه ، يحدث عند محاولة دفع المنافي ، أو طلب الملائم ، مشروط بالشعور بكون الشيء ملائمًا ومنافيًا ، التي هي قوة دافعة للمنافي ، على سبيل الاختيار والقصد ؛ لأن القصد إلى الجذب تارة ، إلى الدفع أخرى ، مشروط بالشعور

بالشيء ، وثبت بالبرهان أن الإدراك والغضب والشهوة صفات ثلاث لذات واحدة .

٢ - إن الأمور الثلاثة : الفكر والغضب والشهوة صفات مختلفة لجوهر واحد .

٣ - حقيقة الحيوان أنه جسم دون نفس ، حساسة متحركة بالإرادة ، فالنفس لا يمكن أن تتحرك بالإرادة إلَّا عند حصول الداعي ، ولا معنى للداعي إلَّا الشعور بخير يرغب في تحصيله ، أو شر يرغب في دفعه ، فهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه حاسًّا بالخير والشر والمؤذي والمضر ؛ إذن فالنفس الإنسانية شيء واحد وهي المبصرة والسامعة والشامة والذائقة واللامسة ، وهي الموصوفة بالتخيل والفكر والتذكر وتدبير البدن وإصلاحه ، كما أن النفس ليست هي البدن ، ولا شيئًا من أجزائه ، والدليل على ذلك - اختلاف النفس عن البدن - أن كل ما هو سبب لحياة النفس وقوتها ، هو سبب لموت البدن وضعفه ، كما أن سعادة البدن غير سعادة النفس ، كما يختلف كل منهما عن الآخر ، فالإنسان أثناء النوم بصير ضعيف البدن قوي النفس ، فهو في النوم يطلع على ما يعجز عن الاطلاع عليه حالة اليقظة .

● ويرتبط هذا الجزء بعدد من المفاهيم والموضوعات السيكولوجية ، وخاصة موضوع الانفعالات Emotions ، ومفهوم الذات Self-Concept ، والتفكير Thinking ، والتخيل Imagination ، كما يرتبط أيضًا بشكل مباشر وواضح بسيكولوجية الإحساس والإدراك Sensation & Perception ، وكذلك بموضوع سيكولوجية الأحلام (ص٥٣- ٦٩) .

٥ - **في بيان أن اللذات العقلية أشرف وأكمل من اللذات الحسية** : فالغالب على الطبائع أنفاسها ، وإن أقوى اللذات وأكمل السعادات لذة المطعم والمنكح والمسلك ، وهذا القول يزول عند المحققين وأرباب المجاهدات ويدل عليه وجوه منها ما يأتي :

الحجة الأولى : لو كانت سعادة الإنسان معلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان الذي هو أقوى في هذا الباب ألذّ وأقوى من الإنسان .

الحجة الثانية : لو كان قضاء شهوة البطن والفرج سببًا لكمال حالة الإنسان وسعادته ، لكان الإنسان كلما أكثر اشتغالاً بقضاء الشهوات البطنية والفرجية ، كان أكمل إنسانية وأعلى درجة ، لكن التالي باطل ، فقضاء الشهوات ليس من السعادات والكمالات بل من دفع الحاجات .

الحجة الثالثة : لو كانت سعادة الإنسان مرتبطة بهذه اللذات الحسية لوجب أن يكون

الإنسان أخس الحيوانات .

الحجة الرابعة : إن هذه اللذات الحسية لا حاصل لها إلا دفع الألم ، والسعادة الحقيقية للإنسان أمر مغاير لهذه الأحوال .

الحجة الخامسة : العلم ضروري حاصل بأن بهجة الملائكة وسعادتهم أشرف من بهجة الحيوانات ، والملائكة ليس لها لذة الأكل والشرب .

الحجة السادسة : كل شيء يكون في نفسه كاملًا وسعادة ، وجب أن لا يستحي من إظهاره ، بل يجب أن يفتخر بإظهاره ، ويتبجح بفعله ، ونحن نعلم بالضرورة أن أحدًا من العقلاء لا يفتخر بكثرة الأكل ولا الشراب ولا المناكح .

● ويقترب ما ورد في هذا الجزء بالنظرية الإنسانية Human Theory المفسرة للدوافع Motives وخاصة ما أشار إليه ماسلو Maslow بارتقاء الحاجات « مدرج الحاجات » Hierarchy of Needs ، ففي أدنى المدرج توجد الحاجات الفسيولوجية الأولية (الطعام والشراب ... إلخ) ، ثم يليها الحاجة للأمن ، ثم الحاجات الاجتماعية (الحب والانتماء ، وتقدير الذات) ، ثم الحاجات العقلية والفكرية (تحقيق الذات ، والمعرفة والفهم) وتقع في أعلى المدرج ، وهي أسمى وأرقى الحاجات التي تميز الكائن البشري ، (ص٧١ - ٧٨) ، كما أن هناك إشارات لعدد من المفاهيم مثل الدافع إلى التمسك والسيطرة ، والدافع إلى الجنس ، وتعاطي المسكرات (ص ٧١ - ٧٨) .

٦ - **في شرح ما في اللذات الحسية من وجوه الذم والنقصان** : فالشيء يكون مذمومًا لذاته أو لغيره ، واللذات الحسية تشتمل على الوجهين ، أما كونها مذمومة لذاتها ، فيدل على ذلك ما يأتي :

أولًا : إن اللذات الحسية ليست في الحقيقة بلذات ، بل حاصلها يرجع إلى دفع الآلام ، فلا معنى للذة الأكل إلَّا دفع ألم الجوع ، ولا معنى للذة الملابس سوى دفع ألم الحر والبرد .

ثانيًا : إن الشيء كلما كانت الحاجة إليه أشد ، كان الالتذاذ به أقوى إذا وجد ، وبالعكس كلما كانت الحاجة إليه أقل وأضعف ، كان الالتذاذ به إذا وجد أقل .

ثالثًا : حتى إذا افترضنا أن هذه اللذات لذاتها - إلَّا أن الالتذاذ بها لا يحصل إلَّا في أول زمان حدوثها فقط ، أما بعد ذلك ، فهو حال الاستمرار والاستقرار ، حيث لا يحصل شعور ولا يحصل التذاذ (ص ٨٠) .

رابعًا : إن الإنسان إذا أشبع هذه اللذات ، فإنه لا يلتذ بعد ذلك بما يستعمله منها بل يملها ويسأم منها .

خامسًا : إن استعمال هذه اللذات ينافي معنى الإنسانية ؛ وذلك لأن الإنسان إنما يكون إنسانًا لحصول نور العقل واطلاعه على عالم الغيب والأنوار الإلهية .

سادسًا : إن انشغال الإنسان بهذه اللذات الجسدانية والطيبات الحسية ، يمنعه من عبودية اللَّه ويصده عن ذكر اللَّه .

أما الوجوه الدالة على كونها مذمومة لأمور لازمة لها ، فمنها ما يأتي :

أولًا : إنها سريعة الزوال قريبة الانقضاء .

ثانيًا : إن لذاتها غير خالصة ، بل هي ممزوجة بالآلام والحسرات ؛ وذلك لعدة وجوه منها أن الضرر منها ما هو في الماضي والحال والمستقبل ، كما أن عادة الإنسان أن كل ما كان حاصلًا له وموجود بالفعل عنده فإنه لا يلتذ به ولا يميل قلبه إليه ، بل لا يلتذ إلَّا بوجدان المفقود ، وطلب المعدوم ، ومن موجبات استيلاء الغم والحزن على الإنسان أن يعيش مختلطًا بالناس فينشأ عن ذلك النزاع ، أو يكون بعيدًا عنهم يعيش منفردًا فتنشأ الكآبة والوحشة .

ثالثًا : من الأسباب الخارجية لكون الدنيا مذمومة ، هو أن الغالب أن الإنسان الذي يكون خسيسًا في نفسه وقوته وحسبه ونسبه ، يكون راجحًا في السعادات الجسمانية على من كان شريفًا في نفسه وعقله وحسبه ونسبه ودينه .

رابعًا : تتميز اللذات الجسمانية بأن الفرد في حاجة مستمرة إلى تزايد الحد المطلوب منها لإشباع حاجته .

● ويرتبط ما جاء في هذا الجزء أيضًا بما سبق ذكره في الجزء السابق ، بما قدمه ماسلو في نظريته لارتقاء الدوافع البشرية The Development of Human Motives ، كما يرتبط بموضوع الانفعالات Emotions ، كالشعور باللذة ، والحزن ، والسعادة ، ومفهوم حد الإشباع أو الرضا Level of Satisfaction (ص ٧٩ - ٩٠) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

من لا يحضره الطبيب [(١)]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب

هذا الكتاب عبارة عن مخطوطة كتبت باليد ، تقع في ٩٨ صفحة من القطع المتوسط ، وليس للمخطوطة مقدمة أو فهرس أو أي تقسيم داخلي .

يبدأ المؤلف كتابه بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ ، ثم يذكر السبب في إخراجه لهذا الكتاب فيقول : « لما رأيت الفضلاء أطنبوا في تصانيفهم وذكروا من الأدوية والأغذية التي لا تكاد توجد إلا في خزائن الملوك ، أحببت أن أجعل مقالة وجيزة في علاج الأمراض بالأغذية والأدوية المشهورة الموجودة عند العام والخاص ؛ ليكون أحرى أن ينتفع بها أكثر الناس في حلهم ومرتحلهم ، وقد تتبعت سنة مشايخنا شكر الله سعيهم في النزول من أعلى البدن إلى أسفله ذاكرًا علة ، وعلاجًا .

ويبدأ الرازي بالرأس ، ويذكر آلامها وأولها الصداع Headache (ص ٢) ويقسمه إلى الصداع حار المصحوب بالحرارة ، والتمدد في العروق ، والحرة في الوجه ، ثم يذكر أنواع العلاج التي تصلح له وهي كثيرة ، ويمكن أن نصفها بأنها علاجات ظاهرية جسمية ، كما يصف علاجات أخرى للصداع الحار غير المصحوب بمثل هذه الأعراض ويقدِّم بدائل كثيرة لكل نوع ، كما يقدم أيضًا صفة « طلاء » للصداع الحار (نظرًا لأن الكتاب مخطوط فلا ندري أيقصد « الحار » أم « الحاد » وإن كنا نرجح الحار ؛ لأنه

---

(١) [د . م] ، [د . ن] ، [د . ت] . نسخة عن مخطوطة من المكتبة المركزية لجامعة القاهرة .

سيذكر بعد ذلك الصداع البارد) ، يؤخذ من الأفيون (ص ٧) ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الصداع البارد (الذي لا حرارة معه) ويقدم له علاجات تختلف عن سابقتها (ص ٧) .

ويعود بنا في موضوع تالٍ (ص ٨) ليحدثنا عن علاجات الصداع المزمن (ولعله يفرّق بين الصداع الحار والبارد ، كما يفرّق بين الصداع الحاد والمزمن ، وهو ما يزيل الغموض الذي أشرنا إليه آنفًا) .

وبغض النظر عن العلاجات التي يصفها الرازي للصداع فإن هذا الموضوع مما يدخل في اهتمامات علماء النفس المحدثين ، وقد تعرض الرازي في هذا السياق للأفيون كإحدى المواد المستخدمة في علاج الصداع .

ويذكر لنا بعد ذلك بعض الأوصاف الطبية (العلاجات) لعلل الدماغ إذا كان مع برودة ، وكذلك علاجات الفالج والرعشة والخدر سواء في عضو من الأعضاء أو جميع البدن ، وعلاجات أخرى للتشنج والصرع Epilepsy كما يحذر مريض الصرع من أكل بعض المأكولات (ص ١٤ ، ١٥) .

ومن الأمراض الأخرى التي يتعرض لها الرازي ، ويحاول أن يصف لها بعض العلاجات الكابوس ، والمانخوليا (وهو يقابل ما يعرف الآن بالاكتئاب سواء كان عصابيًا أو ذهانيًا) ؛ كما يذكر لنا علاجات لأمراض التوحش وحديث النفس ، ثم التفزع وحديث النفس ، والسبات ، وفساد الذكر (ص ١٦ - ٢١) .

ورغم أن الرازي لم يشرح ما يقصده بهذه الأمراض ، وإنما هو يكتفي بذكر علاجاتها فحسب ، فإننا نرى أن هذه الأمراض والأعراض Symptoms مما يدخل في باب الأمراض والاضطرابات النفسية ، وهي بذلك تدخل في اهتمامات الباحثين في علم النفس الإكلينيكي .

(فالكابوس عرض نفسي يظهر في كل الأعمار ، ويكثر في الأطفال ، وهو منتشر وغير ضار وعندما يصيب الطفل يستيقظ باكيًا ، ويتذكر الكابوس ويرويه لأهله ، ويستجيب لتهدئة الوالدين ، ثم يعود للنوم سريعًا) ؛ والتفزع (يمكن أن يكون المقابل للفزع بصفة عامة أو للفزع الليلي بصفة خاصة ، وهو ينتشر في الأطفال ويختفي بعد سن البلوغ ، ويصحو الطفل صارخًا مشدوهًا ، ويبدو عليه الرعب والفزع والخوف ولا يستجيب لأي تهدئة ، ويصاحب ذلك شحوب اللون ، والعرق الغزير ، وينسى

الطفل كل ما حدث بعد استيقاظه ، وأحيانًا يتكرر في الليلة الواحدة ، ويؤثر على صحة أفراد العائلة ، وقد يحدث الفزع الليلي بسبب أمراض عضوية كالصرع ، وصعوبة التنفس ، ونقص السكر في الدم ، وقد يظهر لدى الأطفال الذين ينغمس آباؤهم في تعاطي الخمور والمخدرات ، ثم يعودون لمنازلهم في ساعة متأخرة من الليل) .

والمالينخوليا كما قلنا هي المقابل لما يُعرف بالاكتئاب Depression (وهو يظهر إما كمرض أساسي ، وينقسم إلى اكتئاب عصابي أو تفاعلي (خفيف) واكتئاب ذهاني أو ذاتي Endogenous (شديد) وهذا الأخير قد يأتي إما منفردًا أو دوريًّا مع الهوس Mania ويسمى في هذه الحالة ذهان الهوس الاكتئابي Manic - Depressive Psyhosis، وإذا تأخر حتى سن ٤٥ في الرجال ، ٥٥ في النساء فيعرف باكتئاب سن اليأس Involutional Melancholy ، وقد يظهر الاكتئاب كعرض ثانوي لأمراض نفسية أو عقلية أخرى) .

أما حديث النفس فيمكن أن يقابل الوسواس القهري (وهو نوع من الأمراض العصابية ضئيلة الانتشار يتميز بوجود أفكار أو اندفاعات أو مخاوف أو طقوس حركية مستمرة أو دورية ، يعتقد المريض بتفاهتها ، ولا معقوليتها ، لكنه لا يستطيع التخلص منها) .

وأخيرًا فإن الحديث عن السبات (قد يعني الغيبوبة Coma أو قد يكون عرض نفسي لبعض الأمراض يأخذ شكل النوم العميق لفترات زمنية طويلة ، أما فساد الذكر (فقد يعني ما يصيب الذاكرة من اضطرابات كلية أو جزئية ، سواء كان لأسباب عضوية أو أسباب وظيفية) .

وعلى أية حال فهذه الفئة الأخيرة من الأمراض التي ذكرها الرازي ، والتي قدمنا لها بعض التعريفات والشروح المختصرة باعتبارها من الأمراض النفسية أو العقلية ، أو باعتبارها أعراضًا نوعية لأمراض نفسية وعقلية ، وظيفية أو عضوية هي من الأمراض التي تدخل في دائرة اهتمام علماء النفس الإكلينيكين إما لتشخيصها أو التعرف على أسبابها ، أو المساعدة في علاج المرضى بها (علاجًا نفسيًّا أو علاجًا سلوكيًّا Behavior Therapy) ، والمساعدة كذلك في تأهيل المرضى بعد العلاج أو في تدابير الوقاية لمن يحتمل إصابتهم بمثل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تمثل مجالًا مشتركًا بين دراسات الطب النفسي ، ودراسات علم النفس الإكلينيكي (ص ١٢ - ٢١) .

وينتقل الرازي بعد ذلك ليقدِّم لنا علاجاته للرمد ، وعلاجًا لأمراض الأذن من ثقل في السمع والدوي والطنين (وتعني علماء النفس فقط من ناحية تأثيرها في الإدراك البصري Visual Perception والإدراك السمعي Auditory باعتبار الإدراك من الموضوعات التي يعتنون بها (ص ٢١ - ٣٤) ، ثم يقدم علاجاته للأنف ، والزوائد الأنفية (ص ٣٥ ، ٣٦) ، ويزلف بعد ذلك للفم ، فيذكر حمر الفم وتشقق الشفة ، وثقل ورم اللسان ، واللثة ، وتشقق اللسان (ص ٣٥ - ٤١) ، (واهتمام علماء النفس هنا ، اهتمام غير مباشر ، فالمهتمون بدراسة إدراك الكلام Speech Perception أو اضطرابات الكلام Speech Disorders ، أو إنتاج الكلام Speech Production هم الذين يهتمون بسلامة الجهاز النطقي وهو يدخل إلى حد كبير في اهتمامات علم النفس المعنيين بسيكولوجية اللغة) .

ويستمر بعد ذلك في تناول بقية الأمراض التي تصيب أجزاء الجسم كالزكام ، والسعال ، وأمراض المعدة ، وأوجاع الكبد ، وهزال البدن ، وأمراض الأمعاء ، والعظام والمفاصل ، والبواسير ، والقولون ، وأوجاع الكلى والمثانة والحصاة في الكلى ، وأوجاع الأرحام واحتباس الحيض ، وما يعين على الحمل ، والأمراض الجلدية ، وسقوط الشعر .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الإكلينيكي .

* * *

رسائل فلسفية مضافاً إليها قطع من كتبه المفقودة [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويشتمل الكتاب على ما يأتي :

(مجموعة من الكتب والمقالات التي ألفها الطبيب والفيلسوف الإسلامي الكبير أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) .

١ - **كتاب الطب الروحاني** : وسبق عرضه مفصلًا .

٢ - **كتاب السيرة الفلسفية** : وبدأ فيه الرازي الحديث عن نظرة الناس لحياة الفيلسوف « سقراط » : بأنه كان لا يخشى الملوك ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتل ولا ينسل ولا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يشهد لهوًا ، ويقول المؤلف إن ذلك صحيح ولكنهم جهلوا منه أشياء كثيرة ، وذلك أن هذه الأمور التي ذكرها وأثروها عن سقراط كانت لديه في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ، ثم انتقل عن كثير منها حتى إنه مات عن بنات وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلَّا من اللحم ، ويشرب يسير المسكر في حياته المبكرة كان فيها شديد الإعجاب بالفلسفة ، فحرص على البُعد عن الشهوات والانشغال باللذات .

ووجه نظر الرازي في ذلك أنه من الفضل عدم الانغماس في الشهوات ، ولكن يجب الاعتدال والأخذ من كل حاجة بمقدار .

---

(١) تحقيق لجنة إحياء التراث . (ط ٥) . بيروت : دار الآفاق الجديدة (١٩٨٢م) . (٣١٦ ص) .

• ويرتبط هذا الكتاب بموضوع سيكولوجية الدوافع Psychology of Motives ، الدوافع الفطرية الأولية Primary Motives ، والدوافع الثانوية أو الاجتماعية المكتسبة Social Motives ، كما أن هناك إشارة إلى كف الدوافع وقمعها (ص ٩٧ - ١١١) .

٣ - **مقالة فيما بعد الطبيعة** : وهناك شك في نسبتها إلى الرازي ، ومن أكثر المسائل التي يبحث عنها الرازي فيها تدور حول الطبيعيات وليس فيها إلّا قليل مما يدخل فيما يعتبر علم ما بعد الطبيعة ، وفيها يقول الرازي : إن أرسطوطاليس زعم أن الطبيعة لا تحتاج إلى دليل لظهورها ، واعتراف الناس بها وإقرارهم بوجودها ، وزعم من شاهدنا من الفلاسفة أن الدليل على وجودها أفعالها وقواها المنبثة في العالم الموجبة للاتصال ؛ كذهاب النار والهواء من المركز وذهاب الماء والأرض إليه ، فيعلم أنه لولا قوى فيها أوجبت تلك الحركات وكانت مبدأ لها ، وكذلك قالوا فيما يوجد في النبات والحيوان من قوة الغذاء وقوة النمو .

فأما قولهم إنهم لم يدلوا على وجود الطبيعة لإقرار الناس بها فالشيء لا يصح لإقرار الناس به كما لا يفسد لاختلافهم فيه ، ولو كان حقًّا لإقرار من أقر به لكان فاسدًا باطلًا لامتناع من امتنع منه ، فيكون الشيء فاسدًا صحيحًا في حال وباطلًا حقًّا في حال وهذا محال ، وأما استدلالهم بالقوى التي ادعوها فيقول لهم الرازي : إن ذلك نكران منهم أن يكون الله ﷻ هو الموجب بذاته لقوى سائر الأفعال ولطبائع الأشياء .

٤ - **مقالات في أمارات الإقبال والدولة** : فمن أمارات الإقبال والدولة اتساق الأمور واطرادها ومجيئها ووقوعها على موافقة التنقل ولو في دقائق الأشياء وخسائسها فضلًا عن جلائها وعظائمها ، وكان قدماء الملوك يستدلون بما يقدم إليهم الطباخون من الأطعمة التي كانت تقع بوقوع شهواتهم على ثبات الإقبال والدولة ومن أمارات الإقبال والدولة ما يحدث من أخلاق النفس الموافقة للرياسة المعنية المقوية عليها بعلو الهمة والنبل والجود وقلة مهابة الأكفاء وفضل الرأي وإجادته ، ومن أمارات ذلك أيضًا عشق الرياسة وفرط محبته لها ، والميل إلى موافقة الخلطاء والأصحاب والأعوان والمحبة لصلاح أمورهم باستجلاب مودتهم وإقبال الخدم والأصحاب وفضل إجلالهم ومهابتهم له ، وميل النفس إلى العدل وكراهيتها الجور .

• ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership بوجه خاص ، وسيكولوجية السياسة Psychology of Politics بوجه عام (ص ١٣٦ - ١٣٨) .

٥ – **من كتاب اللذة** : للرازي مذهب مشهور في اللذة ، أوضحه في كتاب الطب الروحاني ، فاللذة ليست بشيء سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته إلى حالته التي كان عليها ، ويخطئ من يتصور اللذة على أنها بعيدة من الألم والأذى ، كما هو الحال لدى العشاق ومن كلف بشيء وأغرم به فهم يحزنون من حيث يظنون أنهم يفرحون ، ويألمون من حيث يظنون أنهم يلذون ؛ وذلك لأنهم لا ينالون من ملاذهم شيئًا إلا بعد أن يمسهم الهم والجهد ، فاللذة لدى الرازي هي دفع الألم والعودة إلى الحالة الطبيعية .

● ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية الإحساس والانفعالات Psychology of Emotions & Senstation وكالشعور بالألم والسعادة ، والحزن ، والفرح ... إلخ (ص ١٣٩ - ١٤٨) .

٦ – **من كتاب العلم الإلهي** : أما الأقسام (العناصر) الأربعة التي للجسم فما كان منها أصلب وأشد فهو الأرض التي في المركز ، وأما الماء فهو أكثر تخلخلًا منها ؛ لأنه أعلى ، والريح أكثر تخلخلًا من الماء ؛ لأنه أعلى منه ، ثم إن النار أكثر تخلخلًا من الهواء ؛ لأنه أعلى من الهواء .

ويقول محمد بن زكريا الرازي في كتابه : « شرح العلم الإلهي » : إن هذه الجواهر تحصلت هذه الصور من تركيب الهيولى المطلقة مع جوهر الخلاء . أما النار فيمتزج فيها جوهر الهيولى بجوهر الخلاء إلّا أن الخلاء فيها أكثر من الهيولى ، وأما الهواء فيقول فيه إن الخلاء فيه أقل من الهيولى ، ويقول في الماء إن الخلاء فيه أقل منه في جوهر الهواء ؛ وأما الأرض فالخلاء فيها أقل منه في جوهر الماء ، وسوف يتحدد معنى ذلك في باب الهيولي والخلاء .

٧ – **القول في القدماء الخمسة** : حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدمه خمسة أشياء منها الباري سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولى ، ثم المكان ، ثم الزمان المطلقان ، وبنى على ذلك الرازي مذهبه الذي تأصل عنه ، وفرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر ؛ بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر ، وذكر أن الخمسة في هذا الوجود اضطرارية ، فالمحسوس فيها هو الهيولى المتصورة بالتركيب ، وهي تمكّن فلابد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ؛ وبالزمان يعرف القدم والحدث والأقدم والأحدث ومعًا فلابد منه .

وأثبت الحرنانيون خمسة من القدماء : أثنان حيان فاعلان وهما الباري والنفس ، وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى ، واثنان لا حيان ولا فاعلان ولا منفعلان وهما الدهر والفضاء .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم النفس (ص ٢٠٤) ، والعقل والإدراك (ص ٢٠٦) ، والإحساس بالسعادة (ص ٢٠٦) .

٨ - **القول في الهيولى** : ذكر أصحاب الهيولى مثل الإيرانشهري ، ومحمد بن زكريا الرازي وغيرهما أن الهيولى جوهر قديم ، وأثبت الرازي خمسة قدماء أحدهما الهيولى ، والثاني الزمان ، والثالث المكان ، والرابع النفس ، والخامس الباري سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا وكبرًا ، وقال : إن الهيولى المطلق ليس سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث يكون لكل واحد من تلك الأجزاء عظم بوجوده مع الأجزاء الأخرى ، وأن الهيولى قديمة ؛ لأنه لا يجوز أن شيئًا يقوم بذات غيره - لا سيما إذا كان جسمًا - يحدث من لا شيء ؛ لأن العقل لا يقبل مثل هذا القول ، وقال : إن ما صار من أجزاء الهيولى مستجمعًا جدًّا كان منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقًا كان منه جوهر الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقًا من جوهر الماء كان من جوهر الهواء ، وما صار أكثر تفرقًا من جوهر الهواء كان منه جوهر النار .

وقال : إن ما صار من الماء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحول أرضًا ، وما صار منه أكثر تفرقًا مما عليه جوهره تحول هواء ، وكذلك ما صار من جوهر الهواء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحول ماء ، ما صار منه أكثر تفرقًا مما هو عليه تحول نارًا ، ولذلك تظهر النار عند ضرب الحجر بالحديد ؛ لأن الهواء الذي يكون بينهما يتفرق ويتمزق .

ثم تحدث بعد ذلك عن حدوث الأفلاك ، وأنها جزء من أجزاء الهيولى .

٩ - **القول في المكان والزمان** : عالج الرازي هذين الموضوعين في كتابه العلم الإلهي ؛ إذ فرق بين المكان والمطلق الذي هو الخلاء وبين المكان المضاف [1] الذي لابد له من متمكن ، وفرق بين الزمان المطلق الذي هو الدهر أو المدة ، وبين الزمان المضاف الذي يقدر بحركات الفلك ، ثم تحدث بعد ذلك عن إثبات الدليل بأن المكان غير متناهٍ ، وقول الإيرانشهري في قِدَم الهيولى والمكان ، والبحث عن ماهية الزمان ، وتتبع سائر

(١) هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي كما يذهب إليه أرسطوطاليس .

المذاهب والأقول في ذلك .

● ويرتبط هذا الجزء بشكل غير مباشر بمفهوم الزمن Time conception (ص ٢٤١) وكذلك بمفهوم المكان .

١٠ - القول في النفس والعالم : كان للرازي في كتاب العلم الإلهي وغيره من الكتب بحث في قدم النفس الكلية واشتياقها إلى الهيولى وهبوطها وتشبثها بها ، وادعى أن في هذا الاعتقاد برهانًا قاطعًا فلسفيًا على حدوث العالم إذا كان العالم ليس سوى نتيجة تعلق النفس بالهيولى وتصورها فيها ، وذكر الرازي أن العالم يصدر عن الصانع الحكيم إما بالطبع وإما بالإرادة ، وعلة تعلق النفس بالهيولى ، فالنفس بسبب جهلها افتتنت بالهيولى وتعلقت به وصنعت منه صورًا لكي تحصل منه على اللذات الجسمانية .

١١ - المناظرات بين أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي (مقتبسة من كتاب أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي) ، يرد أبو حاتم في كتاب أعلام النبوة على فيلسوف طبيب معاصر له أنكر النبوات ونقض الأديان وقال في فلسفته الإلهية بقدم الخمسة .

ويظهر أن هذا الشخص المسمى بالملحد هو « محمد بن زكريا الرازي » غير أن مقدمة الكتاب التي ذكر أبو حاتم فيها اسم خصمه قد سقطت من النسخ المخطوطة بفقدان الصفحة الأولى مما يدعو إلى الشك في نسبة الفصول المذكورة باسم الملحد إلى الرازي ، وعلى الرغم من ذلك فهناك بعض الأدلة التي تشير إلى صحة ذلك .

● وترتبط هذه المناظرات ببعض المفاهيم السيكولوجية مثل : مفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٩٦ ، ٢٩٧) ، ومفهوم الذكاء Intelligence (ص ٢٩٧ - ٢٩٩) .

* * *

الترمذي (ت ٣٢٠هـ)
رسالة مكر النفس [١]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي ولد في ترمذ ، من بلاد ما وراء النهر ، كما يتضح ذلك من نسبته قريبًا من مطلع القرن الثالث الهجري ، ولا يعرف على وجه التحقيق وقت مولده أو وفاته وإن روى بعضهم أنه عاش حتى بلغ الثمانين أو التسعين .

ويذكر الترمذي في الترجمة التي كتبها لنفسه أنه ابتدأ الدرس في الثامنة ، وأنه درس « علم الآثار » و « علم الرأي » ، فلما بلغ السابعة والعشرين اعتزم على الحج ، ومر بالعراق في طريقه طالبًا الحديث ، ولما وصل إلى مكة وقع على قلبه ، كما يقول ، « تصحيح التوبة والخروج مما دق وجل » ، وسأل الله أن « يصلحه ويزهده في الدنيا » ، ثم ألقى عليه وهو عائد إلى وطنه « حرص التحفظ للقرآن ، فبدأ ذلك في طريقه ، ولما رجع نشد شيخًا يدله على طريق التقوى ولكنه لم يهتد إليه حتى سمع « كلام أهل المعرفة » ووقع إليه « كتاب الأنطاكي » وتعلم منه شيئًا من « رياضة النفس » ، وكان في أثناء ذلك يقضي الساعات الطوال وحيدًا في الصحراء ، فكشف له عن كثير من المعاني والتجليات . .

---

(١) تحقيق وتقديم عبد الفتاح عبد الله بركة . مجلة معهد المخطوطات - س ٢ . ع ٢ - (١٩٧٤م) . (ص ١٣١ - ١٥٩) .

ويذكر الهجويري ، المتوفَّى سنة (٤٦٩هـ) في كتابه « كشف المحجوب » ، أسماء ثمانية كتب للترمذي من بينها تفسير للقرآن يقول إن الترمذي مات ولم يتمه ، كما يذكر أن الترمذي تتلمذ على شيخ من أصحاب أبي حنيفة الأقربين ، وأن أبا بكر الوراق كان تلميذًا له ، وينسب الهجويري إليه فرقة صوفية تسمى « الحكيمية » ويخصها بفصل كامل من كتابه ويقول إن مأخذ قولها في الولاية هو الترمذي .

ويروي الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » عن السلمي أن الترمذي نفي من ترمذ بسبب كتابين ألفهما هما : « ختم الولاية » و « علل الشريعة » ؛ ولأنه كان يذهب إلى أن للأولياء خاتمًا كما أن للأنبياء خاتمًا ، فقالوا : إنه فضل الولاية على النبوة واحتج بقول رسول اللَّه ﷺ : « **يغبطهم النبيون والشهداء** » ، ثم يذكر أنه ذهب إلى بلخ فأكرموه لموافقته في المذهب ، وأنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين ، وأنه عاش حتى بلغ الثمانين .

أما عن كتب الترمذي وأثره ، فإن تأثيره على الصوفية بعده عن طريق مؤلفاته أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه ، وقد درس المتأخرون كثيرًا من مؤلفات الترمذي واستفادوا منها ، وقد ذكر الأستاذ ماسينيون أن أسئلة الترمذي الخمسة والخمسين والمائة التي أوردها الترمذي في كتابه : « ختم الأولياء » قد استفاد منها ابن عربي في كتابه : « الفتوحات المكية » ، وكذلك الغزالي استفاد من : « كتاب الأكياس والمغترين » في آخر الربع الثالث من « الإحياء » .

ومن مؤلفات الترمذي المخطوطات ومنها : « أبواب مختلفة » ، « وإثبات العلل » ، « وأجوبة مسائل » ، « والاحتياطات » ، « وأدب النفس » ، « والأكياس والمغترون » ، « الأمثال » ، « أنواع العلوم » ، « بيان آداب المريدين » ، « بيان العلم » ، « وبيان الكسب» ، « بيان المعرفة والصفاء » ، « تاريخ المشايخ » ، « التوحيد » ، « الحج وأسراره» ، « وختم الأنبياء » ، « رياضة النفس » ، « شرح الصلاة » ، « طبقات الصوفية » ، « عذاب القبر » ، « العقل والهوى » ، وغير ذلك .

عرض الكتاب :

تقع الرسالة في إحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط ، بالإضافة إلى ثماني عشرة صفحة ترجمة للمؤلف وتحقيق الرسالة .

وتعد الرسالة من الرسائل القصيرة للحكيم الترمذي ، والتي وردت في ثنايا رسالة

أخرى بعنوان « الرسائل المكنونة » .

ويهدف الترمذي من هذه الرسالة إلى تحذير المريدين والسالكين على طريق الصدق من مكائد النفس وحيلها ومكرها ، وهي تصوير للمعركة التي تقوم بين المريد ونفسه ، فالنفس تزين له مسألة من المسائل على أنها نعمة من الله استحقها لجهد بذله أو طاعة قام بها ، فإذا اقتنع بكلامها ، سقط في حبائلها ، ونالت منه بغيتها وشهوتها من التمتع بشعور العزة والرفعة والجاه ، فانقطع به طريقه إلى الله ووكله إلى نفسه فهلك معها ، ويجعل المعركة بين طرفين في نفس الإنسان مكر النفس وكياسة المعرفة ، ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الصراع النفسي داخل الفرد Conflict (ص ١٣٩) .

وابتدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، ثم يحدد مكان مكر النفس وهو الكليتان وكياسة المعرفة في القلب ، ويتدرج الحكيم في الرسالة موضحًا للمريد كيف يتخلص من حيلها حيلة حيلة ، وذلك بالصبر والثبات على الطريق ، ومراقبة أحوال النفس في مكرها حتى لا تخدعه ، وحتى تيأس فتستسلم لربها .

فقد تأتيه النفس من قبل سبوغ نعمة الله عليه ، وأن ذلك علامة على علو منزلته عند الله ؛ لكن ذلك خطأ ؛ لأن سبوغ النعمة هو امتحان صعب ؛ لأنه سوف يحاسب على هذه النعم ، وكيف حصلها ، وكيف تصرف فيها ، وهل كان ذلك لوجه الله ، أو لشيء سواه ، وفي ذلك خطر عظيم ، وليست شرفًا أو جاهًا أو منزلة كما تصوره النفس لصاحبها ، وإذا ارتقى عن ذلك مرحلة وارتفعت نظرته إلى النعم ، أتته النفس فزينت له الدنيا مرة ثانية ، لا بوصفها معونة على الدين ، وعلى المريد أن يكون كيسًا منتبهًا إلى أن تحصيلها بهذا الوصف سيكون حجة عليه كيف تناولها بوصفها معونة على الدين ولا تقيم الدين ، وإذا لم يستطع أن يبلغ بكياسته هذا المعنى يلزمها بذكر الموت الذي لا تبقى معه نعمة ، ويقترب هذا الحديث أيضًا من مفهومي ضبط النفس وتأنيب الضمير في علم النفس الحديث (ص ١٤٠) .

وإذا ارتقى عن ذلك مرحلة ، وأصبح ممن جاوزوا عتبة الطريق فتبادلتهم الأحوال العلوية الإلهية ، فقد تغره نفسه بذلك ، وتزين له التمتع بهذه الأحوال التي يتمتع بها الخاصة من الأولياء ، وعلى المريد أن يواجهها بما يجب عليه في مقابل ذلك من أنواع الشكر ، وإلَّا فكيف يلقى الله غدًا مع أثقال الشكر والحياء من الله ؟ وفي هذا الحديث أيضًا نلمح إشارة إلى مفهوم « ضبط النفس » ومحاولة قمع الدوافع وأهواء النفس (ص ١٤١) .

وقد يناله من جزاء سلوكه سمعة طيبة وشهرة لدى الناس بحيث يصبح ذا جاه وقدر ومنزلة ، فتحاول نفسه أن تلهيه بذلك وتخيل إليه أن هذا هو غاية ما يصبو إليه ، وعلى المريد أن يتنبه إلى أن هذا الجاه والقدر والمنزلة أمور دنيوية ، ولا غرض له فيها ، وأن المقصود هو جاه الآخرة والقدر والمنزلة عند العرض على اللَّه يوم القيامة . (ويقترب الحديث هنا أيضًا من مفهوم « مراتب الهدف » في علم النفس التربوي) (ص ١٤٢) .

وقد تطمئن به حياته صحة وعافية واستقرارًا ، وقد ينال في دنياه دولة وسلطانًا وثروة ، فتغريه بالركون إلى ذلك ، والاسترواح به ، والتوقف عن بذل المزيد من الجهد ، فعليه أن يعرف أنه لا يمكن الاطمئنان إلى شيء دون اللَّه ولا التعويل على شيء غير اللَّه فالعافية تزول ، والدَّوْلَةُ تَدُولُ بين الخلق ، ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الدافعية Motivation أو النشاط العام General Activity المتجه إلى القيام بالأعمال الصالحة بنية الحصول على رضا اللَّه ﷻ (ص ١٤٢) .

وإذا زَينت له أمره معتمدة على أن الأمور تجري على محابه ، بعد أن ارتقى مرحلة أخرى في الطريق ، وأصبحت أموره ميسورة ، فعليه أن يرجع نفسه ويحاسبها ؛ هل تجري الأمور على محابه ؛ لأنه أرضى اللَّه خالقه ؟ ولكن كيف يمكن الاطمئنان إلى ذلك فربما يكون الأمر على سبيل الامتحان ، ويرتبط ذلك بمفهوم محاسبة النفس ومراقبتها (ص ١٤٢) .

وإذا ارتقى درجة أخرى ، وأصبح لا يقترب من المعاصي ، ويقوم بالطاعة في يسر وسهولة ، فقد تزين له أنه وصل إلى الغاية فعليه أن يذكرها بأثقال الشكر ؛ لأن الشكر على العصمة وعلى يُسر الطاعة ، أثقل من الشكر على النعم الدنيوية .

وقد يرتفع درجة أخرى فيتجاوز الطاعات إلى الاستكثار من أعمال البر ، وتجنب أعمال البغي ، فعليه أن يبين لها أن الأمر ليس بكثرة العمل وزينته ؛ بل بصحة القلب وسلامته ، وهنا إشارة إلى السيطرة على الانفعالات وقمع الدوافع (ص ١٤٣) .

وإذا ارتقى درجة وأتاه اللَّه علمًا فعليه أن يدرك أنه كلما ازداد علمًا كان عذره أقل ، ويقترب هذا الحديث من مفهوم الشعور بالمسؤولية Reponsibility (ص ١٤٣) .

وقد يرتقي بعد ذلك إلى مستوى يصبح فيه أهلًا أن يأخذه اللَّه من نفسه إلى محل ولايته ؛ فتتوارد عليه العطايا والأنوار الإلهية ، تقوية له في شأنه ، وهذه العطايا والأنوار من نصيب القلب خاصة ليستعملها في السير إلى اللَّه ، دون أن يلتفت إلى شيء سواه .

فإذا التفت إلى أعمال البر من أنواع التطوع وطاب به نفسًا ألهاه ذلك عن مطلبه وهدفه وشغله ، وتزين له النفس أعمال العطاء وأعمال البر ، ولما كان العطاء يستعمل في سير القلوب إلى الله فقط واستعمل في غير ذلك ، فقد أسرف وأعطى النفس حظًّا منه تفرح به وتطمئن له وتحقق به بعض شهواتها .

وفي هذه الحالة يحبس عنه مدد العطاء ، وهذا الحبس باب من أبواب عقوبته على التفريط في العطاء ، فإن عاد وأناب ، ورحمه الله فعليه أن يبدأ جهاد نفسه من جديد .

ويضرب الحكيم الترمذي مثلًا لهذا المريد ، يعطينا به معنى جديدًا من معاني الولاية ، فيمثله برجل دعاه أمير المؤمنين من بين الرعية ليتخذه « وليًّا » ويكون أمينًا من أمنائه وأرسل إليه نفقة الطريق في كل مراحله ، فإن أنفقها في التزين والتجميل بما يتناسب مع لقاء أمير المؤمنين قبله وولاه وخلع عليه الولاية ، وائتمنه على الخزائن ؛ أما إذا وقف هذا الرجل في الطريق يبعثر نفقة أمير المؤمنين ، ولو كان في شراء الطرف والهدايا ، فإن أمير المؤمنين يرده خاسرًا ، ويعيده كسائر الرعية عاملًا أو أجيرًا ؛ لأنه قد ثبت أنه لا يصلح للولاية أو السياسة ، ونجد في هذا معنى من معاني الولاية العامة المرتبطة روحيًّا بالمملكة الإلهية ، حيث يولي الله من يشاء من عباده ، ومن يرتضهم لهذه الولاية ، فيعطيهم سلطانًا من سلطانه يتصرفون به في مملكته كيفما يرضى ، وينفذ أحكامهم التي يصدرونها من قلوب صافية علوية ، ونفوس خلت من تأثير الهوى والشهوة ، فتعمر بهم البلاد ، ويعز الحق ، وينصر الدين ، ويكونون بعين الله يرعاهم ويؤيدهم ، ونلمح من خلال الحديث السابق إشارة إلى مفهوم « مواصلة الاتجاه » Maintaining Direction ، (ص ١٤٣ - ١٤٥) من خلال السير إلى الله على الدوام ، وكذلك نجد إشارة إلى مفهوم « إشباع الرغبات » والعقاب ، وفي مثال أمير المؤمنين نجد نوعًا من « المحاكاة للمواقف » .

وفي النهاية يشير الحكيم الترمذي إلى من نالوا مثل هذه المكانة من السلف ، وهم أئمتنا من الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعلي وعثمان ، فقد جمعوا هذا المنصب من وجوهه الدنيوية والروحية فكانوا بذلك مثلًا يحتذى ، ويبين الحكيم أيضًا أن الأمر لم يتوقف على الصحابة والخلفاء رضوان الله عليهم بل لا يزال يخلفهم طائفة منهم في كل جيل « كلهم صديقون ، حكماء علماء الله وأحباؤه ، وخلفاء الأرض ، بهم تقوم الأرض » ، وفي هذا الحديث نوع من التعلم عن طريق « العبرة » Vicarious باعتبار أحد مفاهيم نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning والامتداد بنماذج مثالية Modeling ، (ص ١٤٧) .

وهذه الرسالة القصيرة توضح لنا دقة الحكيم الترمذي في معرفة مسارب النفس البشرية ومسالكها لكي تفسد على المريد وقته وحاله ، وتحبط جهده وعمله ، وتستحوذ بحيلتها ودهائها ، على كل ما يحصله من نعم روحية ، لكي تحولها إلى مغانم دنيوية ، ولذائذ حسية ؛ ولذلك يحذر المريدين حيلها ، فيذكرها لهم بهذا الإجمال ، ويضرب الأمثلة التي تصلح للمريد في كل مرحلة من مراحل سلوكه وسيره في جهاد النفس .

ومن الواضح أن ذلك قائم في حق من يسير إلى الله عن طريق الصدق ومكابدة جهاد النفس ورياضتها في انتظار أن تخرج لهم المنة الإلهية من باب الرحمة ، بعد أن يستفرغوا منتهى طاقتهم ، ويستنفذوا غاية جهدهم .

* * *

بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١١ صفحة من القطع الصغير ، وينقسم إلى ٦ فصول ويضم بالإضافة إليها مقدمة وهي ترجمة للمؤلف ، وبعض مؤلفاته ، وما نسب إليه من كتب ، ثم فهرس الموضوعات وفهرس الأحاديث .

كتاب « بيان الفرق » وصَف سيكولوجية للقلب ، ومقاماته الأربعة الداخلة فيه ، وكل واحد في هذه المقامات مرتبط بأحد أنوار اللّٰه ؛ فالصدر أو المقام الخارجي مرتبط بنور الإسلام ، والقلب وهو من داخل الصدر مرتبط بنور الإيمان ، والفؤاد وهو المقام الثالث مرتبط بنور المعرفة ، واللب وهو آخر المقامات من داخل ، مرتبط بنور التوحيد .

وهذه المقامات الأربعة مرتبطة كذلك بمنازل العبد الأربع : المسلم ، والمؤمن ، والعارف ، والموحد ، وهي مرتبطة أيضًا بحالات النفس الأربع المذكورة في القرآن : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس الملهمة ، والنفس المطمئنة .

الفصل الأول : في مقامات القلب :

فاسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها ، واسم القلب أشبه باسم العين ، فالعين اسم يجمع ما بين الشفرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة ، وكل واحد من هذه الأشياء يرتبط بالآخر وبينهم تعاون ومنافع متصلة ، وقوام

(١) تحقيق نقولا هير . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، [د . ت] . (١١ ص) .

النور بقوامهن .

والصدر في القلب هو في المقام من القلب بمنزلة بياض العين في العين ، وهذا الصدر موضع دخول الوساوس والآفات ، والغلل والشهوات والـمُنَى والحاجات ، وهو موضع نور الإسلام ؛ أما المقام الثاني فهو القلب ، وهو داخل الصدر وهو كسواد العين داخل العين ، والقلب يهيج منه اليقينُ والعلم والنية حتى يخرج إلى الصدر ؛ فالقلب هو الأصل ، والصدر هو الفرع ، وإنما يتأكد بالأصل الفرعُ .

أما الفؤاد فهو المقام الثالث ، وهو كمثل الحَدَقَة في سواد العين ، وهذا الفؤاد موضع لمعرفة الخواطر والرؤية .

ومثل اللب في الفؤاد ؛ كمثل نور البصر في العين وهذا اللب موضع نور التوحيد ، ونور التفريد ، وهو النور الأتم والسلطان الأعظم .

وذكر المؤلف أن الإسلام إنما يقام بالنفس ؛ والنفس هي عمياء عن إدراك الحق ومشاهدته ، ولم يكلف النفس إدراك الحقائق ، والعبد أمر بالإيمان بالقلب ولم يكلف بإدراك ما آمن من جهة الكيفية ، إنما عليه الاتباع والفرار من الابتداع .

● ويرتبط هذا الفصل بعدد من المفاهيم السيكولوجية ، فقد ورد ذكر مفهوم الوساوس Obsessions (ص ٣٥) ، والحاجات Needs (ص ٣٥) ، والنية القصد Intention (ص ٣٦) ، والإدراك أو الفهم Understanding (ص ٣٩) .

الفصل الثاني : في الصدر :

ابتلي المؤمن بالنفس وأمانيها ، وأعطيت ولاية التكاليف بالدخول في الصدر . والنفس معدنها الجوف وموضع القرب ، وهيجانها من الدم وقوة النجاسة ، فيمتلئ الجوف من ظلمة دخانها وحرارة نارها ، ثم تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من اللّه إياه حتى يستعين العبد باللّه ﷻ ، فيجيبه اللّه تعالى ويصرف عنه شرها ، كما يدخل الشيطان بوسوسته في صدر العبد ، وهو آخر ولاية حد النفس .

وصدر المؤمن يضيق أحيانًا من كثرة الوسواس والغم والشغل ، وتتابع الحوائج ، وبلوغ الحوادث ، وإصابة المصائب ، ويضيق إذا سمع باطلًا ؛ لأن اللّه تعالى وسع صدره بنور الإسلام ، وأما صدر الكافر المنافق فإنه امتلأ من ظلمات الكفر والشرك والشك ، واتسع لها ، فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام .

والصدر أيضًا موضع الغلل ، والجناية ؛ لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية في

الصدر بالدخول ، وهو من جهة الابتلاء ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف : ٤٣] حتى يدخلوا الجنة بلا غل ، وقلب المؤمن محفوظ من الغل ؛ لأنه موضع الإيمان .

● ويرتبط هذا الفصل بعدد من المفاهيم السيكولوجية مثل مفهوم الرغبات والحاجات Needs & Desires ، والوسواس Obsession (ص ٤٠ - ٤٧) ، والانفعالات .

الفصل الثالث : في القلب :

يضاف العمى والبصر إلى القلب ولا يضاف إلى الصدر . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] : وكل علم تحمله النفس ويعيه الصدر فإن النفس تزداد به تكبرًا وترفعًا وتأبى قبول الحق ، وكلما ازدادت علمًا ازدادت حقدًا على الإخوان ، وتماديًا على الباطل والطغيان ، قال رسول الله ﷺ : « **إن لهذا العلم طغيانًا كطغيان المال** » ، والقلب هو مَعْدِنُ نور الإيمان ، قال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وقال : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ٧] ، فالصدر موضع يصدر إليه علم العبادة ، والقلب معدن الذي تحت علم العبادة ، وهو علم الحكمة والإشارة ، وعلم العبادة حجة على الخلق ، وعلم الإشارة محجة العبد إلى الله .

الفصل الرابع : في الفؤاد :

فالفؤاد وإن كان موضع الرؤية فإنه يرى ويعلم القلب ، وإذا اجتمع العلم والرؤية صار الغيب عند صاحبه عيانًا ، ويستيقن العبد بالعلم والمشاهدة وحقيقة رؤية الإيمان .

وهناك فرق آخر بين القلب والصدر يتمثل في أن نور الصدر له نهاية ونور القلب لا نهاية له ولا غاية ولا انقطاع وإن مات العبد ، ويسمى القلب قلبًا لسرعة تقلبه ، والإسلام كما أوضح رسول الله ﷺ علم وعمل ، والإيمان علم ومستقره القلوب .

وقد ربط الرسول ﷺ الإحسان بالرؤية ، ومَعْدِنُ الرؤية هو الفؤاد ، قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ، والفؤاد مشتق من الفائدة ؛ لأنه يرى من الله ﷻ فوائد حبه ، فيستفيد الفؤاد بالرؤية ويتلذذ القلب بالعلم .

ويذكر المؤلف أن اسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب ، ومعناهما قريب كقُرب معنى الاسمين الرحمن الرحيم ، فحافظ القلب هو الرحمن ؛ لأن القلب معدن الإيمان والمؤمن توكل بصحة إيمانه على الرحمن ، وحافظ الفؤاد هو الرحيم ، قال تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

● وهناك إشارة بهذا الفصل إلى موضوع التخاطب أو الاتصال Communication حيث يجب مراعاة مستوى ذكاء وعقول من تخاطبهم (ص ٦٧) .

الفصل الخامس : في اللب :

وهو الجبل الأعظم والمقام الأسلم وهو كالقطب لا يزول ولا يتحرك وبه قوام الدين ، والأنوار كلها راجعة إليه حافة حوله ، ولا تتم هذه الأنوار ولا ينفذ سلطانها إلَّا بصلاح اللب وقوامه ، ولا تثبت هذه الأنوار إلَّا بثبوته ، ولا توجد إلَّا بوجوده ، وهو مَعْدِنُ نور التوحيد ومشاهدة التفريد ، واللب لا يكون إلا لأهل الإيمان ، الذين هم من خاصة عباد الرحمن ، والذين أقبلوا إلى طاعة المولى ، وأعرضوا عن النفس والدنيا ، فألبسهم لباس التقوى ، وصرف عنهم أنواع البلاء ؛ فسماهم اللّٰه أولي الألباب .

ويرى الكثير من أهل الأدب واللغة أن اللب هو العقل – ولكن بينهما فرق (كما بين نور الشمس ونور السراج ، فكلاهما نور) – لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان عقلهما ونورهما ؛ بل يتفوق أحدهما على الآخر ، والعقل يعبر به عن العلم على وجه المجاز في اللغة ، ولكن أولوا الألباب هم العلماء باللّٰه ، وليس كل عاقل عالمًا باللّٰه ، وللعقل أسماء أخرى ، فهو يسمى حلمًا ، ونُهْيةً وحِجْرًا ، وحِجَى . قال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُولِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤] ، وقال : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥] .

● ويرتبط هذا الفصل من حديث علماء النفس عن معنى القدرات العقلية Mental Abilities ، ومعنى العقل والفروق الفردية في القدرات العقلية Individual Differences (ص ٧٠ – ٧٩) .

الفصل السادس : في أنوار القلب :

ويذكر فيه المؤلف أن الأنوار التي وصفها في صدر الكتاب مثل نور الإسلام ونور الإيمان ونور المعرفة ونور التوحيد ، وإن كانت أسماؤها مختلفة فهي أشكال غير أضداد ، ولكل منها فوائد خاصة به ، فنور الإسلام يتولد منه خوف ورجاء ، ونور الإيمان يتولد منه خوف ، ونور المعرفة يتولد منه خوف ورجاء ، وكذلك سائر الأحوال التي تهيج من القلب وتتولد من أنوار الباطن مثل الشكر والصبر والمحبة والحياء والصدق والوفاء وغيرها ، ونور التوحيد يتولد منه خوف الحقائق ، ورجاء الحقائق ، وهذا النوع

يرجع خوفه إلى مشاهدة الربوبية وهو أن يخاف اللّٰه تعالى ولا يخاف سواه ، ويرجوه ولا يرجو سواه (ص ٦٩ - ٨٠) .

وتحدث المؤلف عن حالات النفس كما ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فهناك النفس المطمئنة أو النفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأضاف لها المؤلف النفس المهملة ، (ص ٨٦) .

والحياة التي يفهمها العامة على وجوه : منها حياة النفس بالروح وهي حياة الدواب والبهائم ، ومنها حياة القلب من ظلمة الكفر بنور الإيمان ، ومنها حياة النفس بالعلم ، ومنها حياة العبد بنور الطاعة من ظلمة المعصية ، ومنها حياة التائب بنور التوبة من ظلمة الأضرار .

ثم تحدث عن عجز العقل عن إدراك الحقائق ، عن إدراك اللّٰه ﷻ : فالعقل حجة من اللّٰه تعالى على العبد ، وهو آلة مركبة لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية .

الصواب هو التسليم للحكم والاستسلام للرب والرجوع إلى الحق .

● وبهذا الفصل إشارة إلى مصادر الانفعالات Emotions (ص ٧٩ ، ٨٠) ، حالات النفس (ص ٨٠ - ٨٢) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

في مجال علم النفس العام .

* * *

كتاب الرياضة وأدب النفس [1]

عرض : د . معتز سيد أحمد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتكون من كتابين نوعيين هما : كتاب الرياضة ، وكتاب أدب النفس . وينهي المحقق الكتاب بتقديم فهرس للموضوعات ، وآخر للأعلام ، وثالث للمواضع ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

كتاب الرياضة :

وفيه يبدأ المؤلف بعرض أجزاء الجسم الإنساني وعمل كل جزء من هذه الأجزاء ووظيفته ، وحدد موضع الشهوة ، وموضع الفرح ، وأصل الهوى على أساس أنه من نفْس نار الشهوة . فإذا خرج ذلك النَّفَس من النار ، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح ، فأورد على النفس ، فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة ؛ هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء ، وهي ريح حارة ، فدبت في العروق فامتلأت العروق منها في أسرع من الطَّرفة ، والعروق مشتملة على جميع الجسد ، من القرن إلى القدم ، فإذا دبت في العروق ، ولذت النفس دبيبها وانْفِشَاشها في الجسد ، وامتلأت النفس لذة ، وهَشَّت إلى ذلك الشيء فتلك شهوتها ولذتها ، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد ، فصارت تلك الشهوة نهْمَة على القلب ، والنهْمَة غلبة الشهوة وغليانها ، فإذا

---

(١) عني بإخراجه أ . ج أربري ، علي حسن عبد القادر . القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، (١٩٤٧م) . (١٦٨ ص) .

غلت الشهوة غلبت على القلب ، فيصير القلب منهومًا وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه ، فتستعمله بذلك ، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن ، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر ، وجعل المعرفة في القلب ، والفهم في الفؤاد ، والعقل في الدماغ ، والحفظ والذهن في الصدر ، والحفظ قرينه ، وجعل للشهوة بابًا من مستقره إلى الصدر ، فيفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى ، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر ، فيحيط بفؤاده ، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان ، وذلك الدخان اسمه الحمق (ص ٣٨ ، ٣٩) .

ويعرض المؤلف للكِبْر في النفس ، وأنه أصل الغضب ؛ وهذه صفة ظاهر الأدمي وباطنه ، فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد ، من كل ألف واحد ، وبقي تسعمائة وتسعة وتسعون ، رفع البال عنهم ، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين ، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال ، ورفض من لم يبال به ، فخابوا عن الحظوظ ، فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم ، فاعترف له أهل الحظوظ من باله طوعًا لقوله ﷻ حين قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، واعترف من خاب عن المحظوظ ومن لم ينل من باله بقوله : ﴿ بَلَىٰ ﴾ كرهًا ، فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] . فيصير منهم فريقان : أحدهما في الجنة والآخر في النار ، ثم ردهم إلى صلب آدم ﷺ ، فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة ، فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له ، وصبغ قلبه ، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهره به ، ثم أحياه بنور الحياة ، وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء ، فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد ، ثم هداه بنوره وهو نور التوحيد ونور العقل (ص ٤٠ ، ٤١) .

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان ، فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنَّهْمَة وهو كاره للفسوق والعصيان ، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة ، ولا يقصد الفسق والعصيان ، كما قصد إبليس ، فتلك الكراهية موجودة فيه ، والشهوة غالبة عليه ، ولما كان العبد بهذه الصفة ، فقد أمر بالمجاهدة ، ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد ، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه ، وبره ولطفه بهم ، فقال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . فكل شهوة منعنا الله عنها أطلق لنا من بعضها فوضع على كل جارحة من الجوارح السبع حدًّا ، والجوارح السبع هي : اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن

والفرج (ص ٤٢ ، ٤٣) .

وأدب النفس أن يمنعها الحلال حتى لا تطمع في الحرام ، وذلك بالنسبة للجوارح السبع ، مع ملاحظة أن للقلب سلطانًا على الجوارح ، فلو خشع القلب لخشعت جوارحه ، ويخشع القلب بما يتجلى له من عظمة اللّٰه عز وجل وجلاله ، ويهيج من النفس الخوفُ والخشية والحياء منه ، فيوْجَل القلب ، فإذا خافت النفس وخشيت ، فوجل القلب واستحيا ، سكنت الجوارح ، وملك القلب جوارحه ، ووقف بها على الحدود ، فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فَوْرات الشهوات ، وحلاوتها وزينتها كالدخان والغيم ، وإذا فرح العبد بما فضله اللّٰه ﷻ على سائر العبيد ، فمَنَّ عليه بالمعرفة والعقل ، فاستنار قلبه ، وطابت نفسه ، فتعاونا على الشكر والحمد ، فاستوجب المزيد ، فقال ﷻ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، (ص ٤٥ - ٤٩) .

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها ، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم ، فلم يمكِّنوها من تلك الشهوات إلا ما لابد منه ، كهيئة المضطر ، حتى ذبلت النفس ، وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعًا حتى ذبلت واسترخت ، فكلما منعوها شهوة آتاهم اللّٰه على منعها نورًا في القلب ، فقوي القلب ، وضعفت النفس ، وحيى القلب باللّٰه جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى امتلاء القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار (ص ٥١) .

وجوارحنا السبع أمانة عندنا ؛ لأن كل جارحة ذات شهوةٍ ، ومجمع الشهوات في النفس ، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذنه اللّٰه تعالى ، وبلغ بها الحد الذي حده له ، فهو مطلق له ، وإذا تعدى إلى المحظور صار مَلُومًا ، والبداية الحقيقية لوقاية النفس هي الصوم ، فعلى المبتدئ أن يبدأ بالصوم ، فيصوم شهرين متتابعين ، توبة من اللّٰه ﷻ ، وينبغي أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى ، فإذا وصل إلى ربه ﷻ امتلأ قلبه به فرحًا وسرورًا ويقينًا .

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى أن الورع سيد العمل ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **المؤمن من أمن الناس بَوَائقه** » والورع سيد الأعمال ، من لم يكن له ورع يرده عن معصية اللّٰه ﷻ إذا خلا بها ، لم يعبأ بسائر عمله شيئًا .

كما أكد أهمية الإحسان ، وعرض لأصناف الأعمال ، وأهمية اتقاء الفرح وحسن النية ، وانتهى بتقديم وصف شامل لرياضة النفس .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب هي : الدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٣٤ - ٨٨) ، والرغبات Desires (ص ٣٤ - ٨٨) ، والانفعالات (ص ٣٤ - ٨٨) ، والفرح (ص ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٣ - ٧٦) ، والحزن Sadness ، (ص ٦٦ ، ٦٧) ، والمعرفة Knowledge (ص ٣٩) ، الغرور (ص ٤٠) ، وضبط النفس Self - control ، (ص ٤٢ - ٤٨) ، والقصد والنية Intention ، (ص ٨٢) ، والقيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص ٦٨) .

كتاب أدب النفس :

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مرددًا على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم في غيبه ، فأنبأنا في تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : ٢٢] ، ودعا سبحانه الخلق إلى التوحيد ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وبالإضافة إلى ذلك ركب الله الشهوات والهوى في الإنسان ، وجعل للشياطين فيه وساوس يجرون فيه مجرى الدم ، ويغوصون غوص النون في البحر ، وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، وجعل مستقر الإيمان واليقين في القلب .

وقد أوضح المؤلف ما لرياضة النفس من آثار إيجابية في قبول أحكام الله ﷻ ، وفي مجاهدة النفس عن الشهوات والهوى وكيفية تحقيق ذلك ، وعرض لطبيعة فرح الأنبياء وحزنهم ، وفرح المتقين ، وكيفية رياضة النفس ، فقد قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ كيف يكون ذلك ؟ قال : يسير على من يسره الله ووفقه ، فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرَّضِّ ، وهو الكسر ؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة بالشهوة ، فيحتاج إلى أن يفطمها ، فإذا فطمها عن العادة انفطمت ، فرياضة النفس هي الطريق إلى اليقين وطهارة القلب ، ورياضة النفس تمثل رياضة البازي والدابة .

كما أوضح المؤلف أن الطريق إلى الله ﷻ هو النوافل ، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ، عن رسول الله ﷺ قال : حدثني جبريل عن الله ﷻ - أنه قال : **« ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء فرائضي ، وإن عبدي ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع ، وبصره الذي به يبصر ، ويده التي بها يبطش ، ورجله التي بها يمشي ، ولسانه الذي به ينطق ، وفؤاده الذي به يعقل »** ، فما ظننا بعبد يعقل بالله ، ويسمع بالله ،

ويبصر بالله ، ويبطش بالله ، ويمشي بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة في الدنيا ، إن رياضة النفس صَقل للقلوب وتصفية لها ، وعلينا أن نحذر الغفلة عن رياضة النفس ، فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوة منها حية ، والهوى قائمًا ، فعلينا أن نجاهد النفس ، فقد قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج : ٧٨] .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب هي : ضبط النفس (ص ٩٠ - ١٥٩) ، والانفعالات (ص ٩٠ - ١٥٩) ، والرغبات (ص ٩٠ - ١٥٩) ، والفرح (ص ١٠٢ - ١٠٣) ، والنسيان (ص ١٢٠) ، والقيم الخلقية والدينية ، وتربية النفس وتهذيبها عن طريق ضبط الشهوات ومجاهدة النفس بالتقرب إلى الله تعالى بالعبادات (ص ٩٠ - ١٥٩) .

* * *

البلخي (ت ٣٢٢هـ)
مصالح الأبدان والأنفس [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [2] :

ولد أبو زيد أحمد بن سهل البلخي حوالي (٢٣٦هـ = ٨٥٠م) وكان من كبار العلماء في عصره ، ألف في الفلسفة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والطب والأدب والنحو وغيرها ما يقرب من ستين كتابًا لم يبق منها إلَّا القليل ، ومنها كتاب الأمد الأقصى في الحكمة ، ومنها كتاب بيان وجوه الحكمة في الأوامر والنواهي الشرعية وسماه كتاب الإبانة عن علل الديانة ، ومنها كتاب في الخلاف ، ومنها كتاب في السياسة ؛ إن ما وصل إلينا على قلته يعطينا انطباعًا واضحًا أن أبا زيد البلخي فيلسوف الطبيعة ، واسع المعرفة ، طريف الرأي ، موجز الأسلوب ، وقد لفت إيجازه في الأسلوب نظر الأسلاف حيث قالوا : اتفق أهل صياغة الكلام أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ وعلي بن عبيدة الريحاني وأبو زيد البلخي ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه وهو علي بن عبيدة ، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد . وقد توفي في عام (٣٢٢هـ = ٩٣٤م) .

---

(١) معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت . (١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م) .

(٢) مصدر الترجمة : ما ورد في مقدمة ناشر السلسلة فؤاد سزكين التي وردت في مطلع كتاب مصالح الأبدان والأنفس .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب طبع بالتصوير عن مخطوطة أيا صوفيا (٣٧٤١) الموجودة في مكتبة السليمانية في إستانبول ، ويحوي مقدمة الناشر ، ثم الكتاب ذاته الذي ليس له بداية واضحة وينتهي ترقيمه عند (ص ٣٦١) .

يبدأ المؤلف كتابه بحمد اللّٰه والثناء عليه ، ثم يوضح العلة من وراء تأليف هذا الكتاب وأنه قسَّمه إلى مقالتين ؛ إحداهما في تدبير مصالح الأبدان ، والأخرى في تدبير مصالح الأنفس ، ثم يبدأ بعد ذلك في بيان الأبواب التي تحتوي عليها المقالة الأولى ؛ وهي أربعة عشر بابًا ؛ الباب الأول في الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تعهد الأبدان ومنفعة ذلك وعائدته ، والباب الثاني في وصف أوائل الأشياء وبدء طبيعة الإنسان وخلقته وتركيب أعضائه ، والباب الثالث في تدبير المساكن والمياه والأهوية ، والباب الرابع في تدبير ما يقي الحر والبرد من الأكنان والملابس ، والباب الخامس في تدبير المطاعم ، والباب السادس في تدبير المشارب ، والباب السابع في تدبير المشحومات ، والباب الثامن في تدبير النوم ، والباب التاسع في تدبير الباه ، والباب العاشر في تدبير الاستحمام ، والباب الحادي عشر في تدبير الحركات الرياضية التي يُحتاج إلى استعمالها في حفظ الصحة ، والباب الثاني عشر في تدبير ما يتبع الحركات الرياضية من غمز البدن ودلكه ، والباب الثالث عشر في تدبير السماع ، والباب الرابع عشر في تدبير إعادة الصحة .

أما المقالة الثانية من كتاب مصالح الأبدان والأنفس فهي ثمانية أبواب ؛ الباب الأول في الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس ، والباب الثاني في تدبير حفظ صحة الأنفس عليها ، والباب الثالث في تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها ، والباب الرابع في ذكر الأعراض النفسانية وتقديرها ، والباب الخامس في تدبير صرف الغضب وقمعه ، والباب السادس في تدبير تسكين الخوف والفزع ، والباب السابع في تدبير دفع الخرق والخرع ، والباب الثامن في الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس .

ويبدأ المؤلف بعد هذا الإجمال في تفصيل أبواب هذه المقالة ، والباب الأول مخصص للإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس ، والإنسان مركب من بدن ونفس وصار يوجد له من قبل كل منهما صلاح وفساد وصحة ومرض وسقم وأعراض تعرض له في صحتها فتفسدها عليه ، والأعراض التي تعرض للبدن فتفسد صحته هي

مثل : الحمى والصداع وسائر الأوجاع ، والأعراض النفسانية هي مثل الغضب والغم والخوف والجزع ؛ فأما الأعراض النفسانية فإن الإنسان مدفوع في أكثر أوقاته إلى ما يتأذى به منها ؛ إذ ليس يخلو في كافة أحواله من استشعار غم أو غضب أو حزن وما أشبهها من الأعراض النفسانية . إلّا أنه ليس قدر ما يصل منها إلى كل واحد من الناس قدرًا واحدًا فإنهم مختلفون فيما يحصل إليهم من هذه الأعراض ، من أجل ذلك لا يستغني أحد من الناس عن تقديم العناية بمصالح الأنفس والاجتهاد فيما ينفى عنه ما يعتريه منها فيؤديه إلى القلب وتنغص العيش وتكون تلك الأعراض نظيرة الأمراض الجسمانية التي تعرض له فتؤلمه وتسقمه وتؤديه إلى الحالة المكروهة ، ويؤكد البلخي في هذا الباب أن إضافة تدبير مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب بل هو مما تمس الحاجة إليه ومعظم الانتفاع لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس (ص ٢٦٩ - ٢٧٥) ولأن الأعراض البدنية المؤذية تمنع قوى النفس من الفهم والمعرفة .

● ويتبين من استعراض ما قدّمه المؤلف في هذا الباب أنه يرتبط بعدد من المفاهيم والموضوعات السيكولوجية مثل موضوع الانفعالات Emotions ومنها الغضب Anger والغم (لعل المؤلف يعني بذلك القلق Anxiety أو الاكتئاب Depression) والحزن Sadness والخوف Fear ، كذلك هناك إشارة إلى بعض الأعراض التي يمكن تصنيفها تحت أعراض الأمراض النفسية سواء الحزن أو الخوف ، أو القلق ، أو الجزع Anxiety . كما يشير كذلك إلى الفروق الفردية Individual Differences في الاستعداد للمرض والإصابة به ، ويؤكد أيضًا العلاقة بين النفس والجسم وتأثير كل منهما في الآخر ، وتأثير الأمراض البدنية على الفهم Comperhension والمعرفة Knowledg .

والباب الثاني في تدبير حفظ صحة الأنفس ؛ فلنفس الإنسان صحة وسقم كما أن لبدنه صحة وسقمًا ، وصحة نفسه أن تكون قواها ساكنة ولا يهيج به شيء من الأعراض النفسانية ولا يغلب عليه كالغضب أو الفزع أو الجزع ، وتحفظ صحة النفس من وجهين أحدهما أن تصان عن الأعراض الخارجية التي هي ورود ما يرد عليها من الأشياء التي يسمعها الإنسان أو يبصرها فتقلقه وتضجره وتحرك منه قوة غضب أو فرح أو غم أو خوف ، والآخر أن تصان عن الأعراض الداخلة التي هي التفكير فيما يؤديه إلى شيء مما وصفنا من هذه الأعراض (ص ٢٧٥ - ٢٧٧) ، ويمكن أن نجد في الحديث السابق ما يتصل بالبحث في أسباب الأعراض النفسية من ناحية ، والوقاية منها Prevention من ناحية أخرى .

ويستمر المؤلف في تقديم نصائحه حيث يرى أن على الفرد ألّا يعود نفسه أن يضجر لكل صغير من الأمور التي يسمعها أو يبصرها ويسير من الحوادث التي تقع بكراهته فإذا عود نفسه احتمال الصغير وصبر النفس عليه صار ذلك عادة في احتمال ما هو أجل شأنًا وأعظم خطبًا من المهمات التي تَبْدَهُهُ والمكاره التي ترد عليه ، وعليه أيضًا أن يعرف بنية نفسه ومبلغ ما عندها من الاحتمال للأمور الملمة الواردة عليه فإن لكل إنسان مقدارًا من قوة القلب أو ضعفه وسعة الصدر أو ضيقه ، وإذا التزم الإنسان هذه النصائح طابت عيشته ، ودامت راحته ، وحصل الحظ الأوفر من سلامة نفسه وحفظ عليها صحتها واستكمل بذلك السعادة الدنيا ، ومتى خالف هذه الطريقة في مطالبه ومقاصده تنغصت عليه حياته ، وتكدرت عيشته ، واجتلب إلى نفسه الأمراض النفسانية التي تضجره وتقلقه ، (ص ٢٧٨ - ٢٨١) .

● ويذخر النص السابق بعدد من المفاهيم التي تنتمي إلى علم النفس ، وخاصة الأمراض النفسية Mental Disorders وكذلك التحمل Tolerance ، وأحداث الحياة Life Events ، والسعادة Happiness .

والباب الثالث في تدبير إعادة صحة النفس إذا فقدت إليها ؛ فحفظ سلامة النفس عليها أمر ليس يتهيأ في كل الأوقات والأحوال ، فمن غير الممكن في طبيعة الإنسان أن يحفظ قوى نفسه على سبيل السكون والهدوء حتى لا يهيج به هايج من أعراض الغضب والفزع والجزع وما أشبهها من الأعراض النفسانية وهو من دنياه في دار الهموم والأحزان ومحل نوايب ونكبات ، وتكون معالجة النفس إذا عرض لها عارض هيمان من إحدى قواها إنما يكون لشيء روحاني يجانسها ؛ وكما أن العلاج البدني إما أن يكون بشيء من داخل كالاحتماء والامتناع عما لا يجب تناوله ومد اليد إليه ، وإما أن يكون بشيء من داخل وهو فكرة يثيرها الإنسان من نفسه فيقمع بها ذلك العارض ، وإما أن يكون بشيء خارج وهو كلام يعظه به غيره (ص ٢٨١ - ٢٨٦) .

● وفي هذا الباب أيضًا عدد من المفاهيم النفسية وهي أحداث الحياة ، والعلاج النفسي Psychotherapy .

والباب الرابع في ذكر الأعراض (أو الأمراض) وتعديدها . ويرى المؤلف أن الأشياء التي تنسب إلى النفس كثيرة ؛ ومنها قوى فاضلة كالعقل والفهم والحفظ ، والأخرى مسترذلة هي أضداد لها ؛ ومنها أخلاق محمودة كالعفة والسخاء والكرم ، والأخرى

مذمومة مضادة لها ؛ ومنها أشياء عارضة تقع وترتفع سريعًا كالغضب والفزع وما أشبهها وما يضاف إلى الأنفس إنما هو الشيء الأخير أي الأعراض التي تحدث وتزول ؛ لأنها هي التي تتصل أسبابها بأسباب البدن فتقلقه وتغيره أو تؤثر فيه آثارًا كثيرة ، وذلك مثل ما يفعله الغضب الشديد في بعض الأحيان من الاختلاط والارتعاش للبدن واصفرار اللون وشبيه بذلك ما يفعله الفزع والخوف ، والغم أقوى أسباب مرض النفس ، والرسور أقوى أسباب صحتها ، ومن أعراض قوى النفس التي تتولد من الغم الغضب ، الذي قد يؤدي إلى اضطراب الحركات بما يشبه الجنون ، ومن قوى أعراض النفس الفزع ، والخوف مقدمة للفزع ، وإذا قوي ربما وقع على الإنسان منه القلق ، وربما يقع الفزع من شيء يفكر فيه ويَرُوعه تخيله في نفسه أو شيء ينظر إليه فيهوله منظره أو من شيء يسمعه كصوت شديد تأدى إلى سمعه فلا يحتمله لشدته ، ومن قوى أعراض النفس الجزع وهو عرض يعتري الإنسان من فقد محبوب من أهل أو مال أو شيء عزيز عليه ويعتريه لذلك حزن شديد ويشتد ذلك الحزن حتى يصير جزعًا ، ومن قوى أعراض النفس الوسواس الذي يعتلج في صدر الإنسان وتثير منه الخواطر الردية (ص ٢٨٧ - ٢٩٣) .

● الباب السابق في تصنيف الأمراض النفسية ، ورغم خلطه بين الأمراض والأغراض إلَّا أن هذه محاولة مبكرة في تصنيف الاضطرابات النفسية التي ذكر من بينها صراحة القلق Anxiety والوسواس Obsession ، وبشكر غير مباشر الاكتئاب Depression ، كما ذكر بعض الأعراض كالخوف والفزع والغضب ، وتعرض كذلك لأسباب هذه الأمراض ، والأمراض السكوسوماتية ، والجنون (أو بلغة الطب النفسي الحديث الفصام Schizophrenia) ومثيرات المشقة Stressors كأحداث الحياة ومنها فقد عزيز أو مال ، وأشار أيضًا إلى مفاهيم أخرى تدخل في صميم اهتمام علماء النفس المحدثين كالعقل Mind ، والفهم Comprehension ، والحفظ (أو التذكر) Remembering ، وسمات الشخصية Personality Traits سواء الإيجابية كالعفة والسخاء والكرم أو سلبية كالبخل والشح .

والباب الخامس من هذه المقالة في تدبير صرف الغضب ، وقد بدأ به المؤلف ؛ لأنه عرض كثيرًا ما يعتري الإنسان ويناله أذاه حتى ربما عرض له في أوقاته المتقاربة من أيامه بسبب معاشرته لخدمه وأتباعه وحاشيته ، وأحوج الناس إلى التحرز من فلتات الغضب والعناية برياضة نفسه ودفعه عنها الملوك ، ويحتاج المَغْنِيُّ بقمع آفة الغضب لمعاونة من خارج ولمعاونة من داخل ، والمعاونة التي هي من خارج هي الموعظة من غيره ، والمعاونة

التي يستظهر بها من داخل فهي الحيل من الفكر التي يعدها ليخطرها بباله فيتعظ بها ، وتعينه على ضبط النفس ، ومن هذه الحيل التفكير في فضيلة الحلم وموقعه من الفضائل الإنسانية (ص ٢٩٣ - ٣٠٤) .

● وينطوي الحديث هنا على إشارات سبق التعرض لها في أبواب سابقة ، تنتمي إلى دراسات علم النفس كانفعال الغضب ، وضبط النفس Self-Control ، والحيل الدفاعية Defensive Mechanismes .

والباب السادس في تسكين الخوف والفزع ، وهما من الأعراض النفسانية ينال البدن من أذاهما ويخاف عليه من ضررهما ، ومن أسباب الخوف والفزع التفكير في شيء يسمع به أو يقع بصره عليه ، كالتفكير في الهرم والفناء ، والأشياء التي يخافها الإنسان كثيرة وأجناسها مختلفة ؛ مثل : خوف ذي سلطان من العزل ، وخوف ذي مال من الفقر ، وخوف الإنسان على نفسه من حدوث حادث يتوقع نزوله بها كالتلف والألم الشديد ، فهذا هو الخوف الذي يقلق ويفزع ويغيِّر الإنسان عن هيئته ، وقد يخاف من منظر القتلى والجرحى ، ومن خبر مكروه يتوهمه ، ومن الحيل التي قد تعين على التغلب على الخوف ، والتفكير في أن توقع كثير من المكاره ربما كان أشد من وقوعه ، وأن يأخذ العبرة من أحوال غيره في المكاره التي نالت أقوامًا فاحتملوها ، وأن يستعين بقوة الأنفة ، ومحاولة العلم بالشيء المخيف (ص ٣٠٤ - ٣١٤) .

● ويمتلئ هذا الباب بعدد من المفاهيم النفسية كالخوف Fear وهو أحد الانفعالات ، وتأثير الانفعالات على الجسم ، وأحداث الحياة Life Events ، والألم Pain ، والقلق Anxiety ، والمشقة Stress ، وكذلك الحيل الإيجابية للتوافق ؛ مثل : التحكم في الأفكار المأساوية ، ومفاهيم أخرى مثل التمرين Training ، والإدراك Perception ، والفهم Comprehension ، والتمييز Discrimination .

والباب السابع في تدبير دفع الحزن والجزع ، فموقع الحزن والجزع في الأعراض النفسانية موقع جليل عظيم الشأن فيما يرجع من ضررهما على الإنسان إذا تمكنا من قلبه ، والجزع هو فرط الحزن وشدته وهو أعمل شيء في نَهْك البدن وتغيير قوى الشهوات من النفس ويفعل الحزن ضد ما يفعل السرور ، وقد يتولد من التفكير في فقد محبوب أو تَعَزُّز مطلوب ويحتال لصرفه بحيلتين إحداهما من خارج ، والأخرى من داخل ، والتي من خارج فوعظ الواعظين وتذكير المذكرين ، وأما التي من داخل فأبواب

من الفكر يَرُوضُ بها الإنسان نفسه (ص ٣١٤ - ٣٢٣) .

● ومن مفاهيم هذا الباب انفعال الحزن Sadness ، والأسى Sorrow ، والسرور Pleasure ، والدوافع Motives ، وأحداث الحياة Life Events ، والتفكير التأملي Meditation ، والعلاج النفسي Psychotherapy .

والباب الثامن في الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس . وهي من أقواها تأثيرًا في الإنسان وأكثرها إيذاءً له ، وهذا العَرض وإن كان أحد الأعراض النفسانية فإنه ليس من خالصها بل فيه شركة للأعراض البدنية ، وهذا العَرض عَرض خاص وربما سلم منه كثير من الناس ، وهذا العرض قد يوجد مرة في الإنسان من قبل الطبع وما يقع في المولد من دلالة تدل عليه وتوجد فيه مرة أخرى كالشيء العارض الذي لا يكون له به عهد ثم يحدث عليه في وقت من الأوقات غريبًا .

ويحاول البلخي أن يصف لنا سبب الوساوس وما تتولد عنه ، وهو طبيعة المرة السوداء ؛ لأنها هي التي تولد الفكر الردية ، وأحاديث النفس المؤذية ، وتهيج على الإنسان ضروب الخواطر والوساوس ، ويعرف مزاج السوداء الأصلية في الإنسان بعلامات تدل عليها ؛ وتلك العلامات هي أن تكون في خلقة جسده مُكْتَنِز العظم ، يابس العصب ، قَحِل الجلد ، غليظ الدم ، حاسي الشعر ، مُلَزَّز التركيب ، كَمِد اللون ، ويكون في أخلاقه شرس ، عبوس الوجه ، دائم الإطراق ، كثير السكوت ، بطيء الحركات ، ليس سريع الغضب إلَّا إنه إذا غضب لم يزل عنه غضبه سريعًا (ص ٣٢٣ - ٣٢٨) .

ويعود المؤلف ليؤكد أن أحاديث النفس ووساوسها عَرض ليس بمعروف السبب ، وليس بالحقيقة علة توجبه ؛ وإنما هو شيء يقع في طباع بعض الناس من قبل مولده فيوجد فيه دلالة على أن صاحبه يكون متأذيًا بفكر دويمة لا يكون لها حقيقة فتسمى هذه العلة حديث النفس ؛ وذلك لأن نفسه لا تزال تحدثه بالأشياء التي هي وساوس القلب ؛ وتلك الأحاديث والوساوس ربما وقعت في جنس ما يحب ويتمنى وربما وقعت في جنس ما يخاف ويخشى (ص ٣٢٩ - ٣٢٥) .

الحيل التي بها يندفع هذا العَرض ؛ منها أشياء يحتال بها من خارج النفس ، ومنها أشياء يحتال بها من داخل النفس ؛ فأما التي يستعان بها من خارج فأن يتجنب صاحبه الوَحدة والانفراد ؛ لأن من شأن الوَحدة أن تهيج على الإنسان الفكر وأحاديث النفس ، ومنها أن يتجنب الفراغ ، وأما الحيل التي يحتاج إلى أن يستعين بها من داخل فإعداده

فكرًا يقابل به تلك الخطرات والوساوس إذا عرضت له (ص٣٣٦ - ٣٥٩) .

● يدور هذا الباب حول موضوع أساسي من موضوعات الطب النفسي وعلم النفس الإكلينيكي وهو الوسواس القهري Obsessive - Compulsive ، أسبابه وعلاجه وأعراضه والعلاقة بين بنية الجسم وسمات الشخصية Personality Traits ، والخصال الجسمية وارتباطها بالمرض ، والانفعالات كالغضب ، والانطواء Introversion ، والحيل الإيجابية للتوافق Adjustment ، ومنها مقاومة الأفكار المأساوية هذا بالإضافة إلى مفاهيم أخرى ؛ مثل : الدوافع البيولوجية كالجوع Hunger ، والعطش Thirst أو Trust ، والجنس Sex ، والإعاقة الحسية Sensory Handicaps ، وأحلام النوم Night Dreams ، وأحلام اليقظة Day Dreams .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي العلاج النفسي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

* * *

الخرائطي (ت ٣٢٧هـ)
المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي ، السامري . والخرائطي نسبة إلى الخرائط ، والسامري نسبة إلى بلده على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا ، ويقال لها : سُر من رأى ، وحففها الناس وقالوا : سامرة .

ولا نجد في كتب التراجم التي تحدثت عن الخرائطي وصفًا لبداية حياته العلمية ، ونستطيع أن نحدِّد نسبة ولادته ، وذلك أن وفاته كانت سنة (٣٢٧هـ) وعاش ما يقارب التسعين سنة فتكون ولادته في حدود سنة (٢٣٧هـ) ، وأكثر الخرائطي من التلقي من علماء بلده (سُرَّ من رأى) ، وبغداد كالمبرد ، وصالح بن أحمد بن حنبل ، والأصمعي وإبراهيم بن جنيد وغيرهم .

ولم يكتف الخرائطي بالأخذ عن علماء بلدته وما جاورها ، وإنما انتقل إلى بلدان بعيدة كدمشق ، وقد تميز الخرائطي بصفات جليلة ، فكان محدثًا حافظًا ثبتًا ، لغويًّا متقنًا ، أديبًا مشهورًا ، وصاحب التصانيف ، ومن يبحث في مصنفاته تبدو له في معظمها أنها تجمع بين الحديث والأدب والتاريخ واللغة الشعر .

ومن تلامذته الذين أخذوا عنه محمد بن أحمد بن عثمان السلمي ، أبو العباس الكندي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن درستويه ، وأبو بكر أحمد النحوي ،

---

(١) تحقيق محمد مطيع الحافظ ، غزوة بدير . (ط ١) . دمشق : دار الفكر (١٩٨٦م) . (٣٢٦ص) .

وأبو هاشم المؤدب وغيرهم .

ومن مؤلفاته : « مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها » ، « ومساوئ الأخلاق ومذمومها » ، « واعتلال القلوب في أحاديث المحبة والمحبين » ، « وهواتف الجَنان وعجيب ما يحكى عن الكهان » ، « فضيلة الشكر لله على نعمه وما يجب من الشكر للمنعم عليه » ، « وتعاليق لابن عيسى المقدسي » ، « وقمع الحرص بالقناعة » ، « وكتاب القبور » ، « والأجواد » .

أما بالنسبة للحافظ أبي طاهر السِّلفِي (١) نسبة إلى جد جده إبراهيم الذي كان يطلق عليه سلفة ، ولد في سنة (٤٧٥هـ) بأصبهان ، في بيت علم وتقوى ، طلب الحديث وكتب الأجزاء ، وقرأ بالروايات ، وسمع القاسم بن الفضل الثقفي وطائفة من جلة العلماء ، وتصدى للتدريس وهو فتى يناهز السابعة عشر من عمره وارتحل في رمضان سنة ٤٩٣هـ في طلب الحديث ، فدخل بغداد وأخذ عن مجموعة من العلماء ، ثم زار مكة والمدينة ، وقدم الشام في سنة (٥٠٩هـ) ، وسمع من علي بن المسلم السلمي كتاب المنتقى في شهر ربيع الآخر سنة (٥١١هـ) ، وفي سنة (٥١١هـ) خرج إلى صور ، وغادرها إلى الإسكندرية ، ولم يغادرها إلَّا إلى القاهرة سنة (٥١٧هـ) ، وبقي إلى يوم الجمعة خامس عشر ربيع الآخر سنة (٥٧٦هـ) ، وقد جاوز المائة ، وكان منقطعًا للعلم زاهدًا ، وكان واسع الآفاق ، أوحد زمانه في علم الحديث والرواية ، له مؤلفات من أشهرها معجم شيوخه الأصبهانيين ، والمشيخة البغدادية ، وسؤالاته لخميس الجوزي ، والأربعين البلدانية ، ومعجم السفر ، والسواسيات ، وشروط القراءة على الشيوخ وغيرها .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط ويحتوي على مقدمة المحققين ، وترجمة المؤلف ، وتراجم رواة الكتاب ، وصفحات من مخطوطة الكتاب الأصلية ، ثم موضوعات الكتاب .

وأخيرًا المراجع ، ومجموعة الفهارس ويضم فهرس الفهارس (فهرس عام للكتاب)

---

(١) صاحب المنتقى فهو الحافظ أبو طاهر ، أحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، السلفي الأصبهاني . عُرِفَ بالحافظ السلفي نسبة .

وفهرس الآيات ، وفهرس الأحاديث ، والأقوال ، والأفعال ، وآثار موقوفة ، والأقوال المأثورة والأخبار ، وفهرس الشعر ، وفهرس أسماء الشيوخ ، وفهرس الأسانيد ، وأصحاب الأخبار ، وأخيرًا فهرس الموضوعات .

الجزء الأول : في هذا الكتاب يدور حول الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها ويدعم المؤلف وجهة نظره من خلال استعراض الآيات القرآنية ، والسنن النبوية وهو في مجمله يفيد المهتم بالتربية Education والأخلاق ، كما أن حسن الخلق قرين الصحة النفسية الجيدة (ص ٢٧) . ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر عدد من الخصال الحميدة وآثارها ، فيشير في الباب التالي عن ثواب حسن الخليقة وجسيم خطرها ، وكذلك كرم السجية وكف الأذية وجميل العشرة ، ويذكر بعض ما جاء في اصطناع المعروف من الفضل ، ومنه إغاثة الملهوف وثوابه ، ونجد لها مقابلًا في علم النفس الاجتماعي الحديث فيما يسمى بسلوك المساعدة Helping behavior (ص ٣٧، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥) .

وينتقي لنا الحافظ الأصبهاني من مكارم الأخلاق لدى أبي بكر الخرائطي من باب ما يستحب من لين الكلام ، وخفض الجناح ، وحفظ الأمانة ، وذم الخيانة وفيها أحاديث كثيرة وآيات قرآنية كريمة ، وهي صفات حسنة وجب على المؤمن التحلي بها وتعليمها لأبنائه وأحفاده (ويمكن النظر إليها باعتبارها من سمات الشخصية التي يمكن أن تكون محل دراسة ، وكذلك تشكل جانبًا من الخصال المهمة التي ينبغي البحث عنها عند اختيار الأصدقاء ، وهذان الموضوعان من الموضوعات التي تحظى بالدراسة في الوقت الحاضر (ص٤٦ - ٥٢) .

ولعل هذا الكلام ينسحب على عدد آخر من الصفات التي تحدث عنها المؤلف مثل الوفاء بالوعد وكراهية الخلف به ، وحفظ الجار وحُسن مجاورته ، وفي هذا الجانب - أعني حفظ الجوار - وضع الرسول الكريم ﷺ دستورًا أخلاقيًا راقيًا ينظم فيه العلاقة بين الجيران ، وينظم أشكال التفاعل بينهم ، وفي الحديث الشهير الذي ورد عنه أصول تربوية عظيمة الفائدة (ص ٥٩) ، وبعد ذلك يقدِّم لنا مقتطفات مما جاء في صلة الرحم والعطف عليهم والصدقة عليهم ، ويختتم الجزء الأول من كتاب (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها) ببعض ما ورد في فضيلة الحياء وجسيم خطره ، باعتبار أن الحياء من الإيمان ، وأن الإيمان هو عنوان المؤمن ودليله ، كما أن الحياء من أخلاق الأنبياء .

ويبدأ **الجزء الثاني** ببعض ما جاء في إكرام الضيف ، والإحسان إليه ، وتقديم الطعام

له ولغيره من أبناء السبيل ، ومراعاة حقوق الضيافة ، وتوفيتها ، وما يستحب من اتخاذ الفراش للضيف ، ووداعه إلى باب الدار ، وهي كلها آداب عظيمة ، وأخلاق كريمة .

وينتقل بعد ذلك إلى إكرام الشيوخ ، وتوقيرهم ، وكيف حث الإسلام على ذلك ، مما يدعو للاهتمام بكبار السن ؛ لضعفهم ، وحاجتهم للعون ، وباعتبارهم منابع للحكمة والإرشاد (ص ٧٧ - ٨٠) .

ويعود بعد ذلك ليقدِّم لنا مقتطفات من بعض الصفات الحسنة ، والأخلاق الكريمة ؛ مثل : العدل (إنصاف الرجل من نفسه) ، والعفو ، الصفح وفضله ، والسعي في الإصلاح بين الناس ، وما يعود على الفرد من جزيل الثواب ، كما يحثنا على كف الأذى عن الناس من اللسان واليد ، وما يستوجبه ذلك من حفظ اللسان ، وترك المرء الكلام فيما لا يعنيه (وهو يرسي بعض مبادئ حسن التخاطب ، وأدب الحوار ، ولعل ذلك قد يفيد المهتمين بدراسة التخاطب Communication (ص٩٢ - ٩٧) .

ومما انتقاه الحافظ الأصبهاني أيضًا : بعض ما ورد في باب ما يستحب للحليم أن يدفع عن نفسه سوء الظن ، وما يستحب للمرء التحرز من أن يساء الظن به ، وما يستحب للحليم أن لا يضع كلامه إلَّا في موضعه ، وأن يتكلم بما لا يتعذر منه ، أو يمسك عنه ؛ لأن ذلك أسلم له ، وأعود نفعًا ، ولعل التركيز على الشخص المتصف بالحلم يجعلنا نستنتج ظلالًا نفسية لهذه الأوصاف ، فالحليم يتصف برجاحة العقل ، والقدرة على ضبط النفس ، وهي جوانب تجد من الأهمية الكثير في علم النفس الحديث (ص ١٠٤- ١٠٩) ، كذلك يتحدث عن السؤدد وشريطته ، وخصائص السيد ، وهو الذي لا يغلبه غضبه ، وهو حليم تقي ، حسن الخلق ، وسخي النفس ، وهي صفات يمكن أن تشكِّل أساسًا مهمًّا لاختيار القائد أو الموجه ، ونعتقد أن لذلك مماثلًا في اهتمامات علم النفس الحديث خاصة في موضع القيادة Leadership (ص ١١٢ - ١١٦) ، وآخر ما اختتم به هذا الجزء هو ما جاء في فضيلة صدق الحديث ، وهي من خصال الخير ، ودليل على صلاح المرء ، وعادة ما تكون مقرونة بكثير من الخصال الطيبة ، ويمكن أن تضاف كذلك لسمات الشخصية ، كما تم تناولها في صفات الصديق والصداقة (ص ١١٦ ، ١١٧) .

ويبدأ **الجزء الثالث** من المنتقى من كتاب (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها) ببعض ما ورد في السخاء ، والكرم ، والبذل من الفضل ، وفيه أقوال ، وقصص كثيرة تروى عن عرب الجزيرة العربية ، وهي أيضًا من الخصال الطيبة ، التي

يجب التحلي بها ، ويختتم هذا الجزء بمقتطفات من عدة أبواب تدور حول حسن المجالسة ، وواجب حقها ، وقد كان رسول اللّه يحدث أصحابه عن أمر الآخرة ، فإذا رآهم قد كسلوا فعرف ذلك فيهم ، أخذ بهم في بعض أحاديث الدنيا ، حتى إذا نشطوا ، وأقبلو أخذ بهم في حديث الآخرة ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب ﷺ وكثير من الصحابة ، ونلمح هنا مبدأ هامًا يأخذ به الكثير من علماء النفس المحدثين ، المهتمين بدراسة التعلم ، والتذكر ، وهو تنويع مادة الحفظ ، والعمل على تبديد الكف ؛ لتحقيق أكبر قدر ممكن من التعلم (ص ١٥٠ - ١٥٢) ، كما يقدم أيضًا بعض آداب التعلم لمن هو في بدايته ، ويوصي بضرورة الإنصات ، وحسن الاستماع ، وعدم المقاطعة (ص١٥٥) ، ولعل مما يستحب في المجلس وغيره ، التواضع ، وحسن الاختيار في مجالسة من نجالس ، ونخادن ، وهي جملة دروس في اختيار الأصدقاء ، والزملاء ، وهو من الموضوعات ذات الصلة بعلم النفس الاجتماعي الحديث ، كما سلفت الإشارة (ص ١٥٦ - ١٥٩) .

ويستأنف في الجزء الرابع ما انتهى به في الجزء الثالث ، فيحدثنا عن الظروف التي تكون فيها الوحدة خير من جليس السوء ، والتي يكون فيها الجليس الصالح خير من الوحدة . ويحثنا كذلك على أداء النصيحة للإخوان ، وعدم الشح عليهم ، باعتبار أن هذا من حقهم ، وأنه يولد الحب ، والنصح واجب لكل مسلم ، كما أمر رسول اللّه ﷺ ... وتقديم النصيحة وطلبها ، تطورت وأصبح لها قواعد معروفة ، وأساليب متعددة فيما يعرف بالإرشاد Counseling (ص ١٦٧ - ١٧٠) .

ومن الواجبات التي تلقى على عاتق المرء ، أن يُحسن الاختيار لمن يشاور ، وأن لا يفعل شيئًا إلَّا عن مشاورة ، ويجب على المستشار أن يؤدي الأمانة التي اؤتمن عليها (ص ١٧١ - ١٧٤) ، ويسوق لنا الحافظ الأصبهاني في بقية هذا الجزء عدد كبير من الآداب الإسلامية الرفيعة التي تنظم التعامل بين الناس ؛ كأن يسلم المرء على أهل بيته عند دخول البيت وعند الخروج منه ، في صباحه ومسائه ، وضرورة اختيار الصحبة الحسنة عند السفر ، والمسارعة في الرجوع إلى الأهل إذا ما انقضت المهمة ، وضرورة التحبب إلى خيار الناس واستجلاب موداتهم ، والواجبات التي للصحابة والرفاق .

وعلى غرار ما ورد في الأجزاء السابقة يسير المؤلف (ومن بعده المنتقى) فيبدأ بذكر بعض الحِكَم فيما يستحب للمرء من استعمال الحزم والأخذ بالثقة ، والنظر في عواقب الأمور قبل كونها ، وهو حض على البحث والتجريب للتنبؤ بالأحداث والظواهر قبل

وقوعها ، وهو من سمات العلماء والحكماء ، وهذه الوصية تنطوي على جانب منهجي في البحث العلمي ، ونرى العلماء قد التفتوا إليها الآن (ص ٢١١ - ٢٢٠) ، ولعل من رجاحة العقل ، وشدة الذكاء أن يتعلم المرء ألَّا يُنكَب من سبب واحد نكبتين خاصة الشخص المؤمن ؛ فالمؤمن كيس فطن .

والمتبقى من هذا الجزء عبارة عن عدد من الوصايا والنصائح ذات الصيغة العملية والفوائد الكثيرة ؛ مثل ما يستحب للمرء أن يقوله إذا أوى إلى فراشه ، وإذا استيقظ من نومه ، وإذا طنت أذنه ، وإذا غشى أهله ، وعندما تعصف الريح ، وعند سماع صوت الرعد ، وعند نزول المطر ، وكذلك استخدام الرقى والعوذ (وهي من الأساليب العلاجية التي استخدمها رسول الله ﷺ والصحابة) وكانت تؤدي إلى إزالة الوحشة ، وتفريج الكروب ، والإحساس بالسكينة ، وشفاء الأمراض والآلام والأوجاع .

* * *

الفارابي (ت ٣٣٩هـ)
آراء أهل المدينة الفاضلة [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ من مدينة فاراب (في إقليم خراسان التركي) حيث وُلِدَ سنة (٢٥٩هـ = ٧٨٠م) .

دخل العراق واستوطن بغداد ، وقرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام ، واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه ،، وأربى عليهم في التحقيق ، واشتهرت تصانيفه ، وكثرت تلاميذه ، وصار أوحد زمانه ، وشرح الكتب المنطقية ، وأظهر غامضها ، ويعتبر الفارابي - فيما يذكر ابن خلكان - أكبر فلاسفة المسلمين على الإطلاق ، وأنشأ مذهبًا فلسفيًا كاملًا ، وقام في العالم العربي بالدور الذي قام به أفلوطين في العالم الغربي ، وهو الذي أخذ عنه ابن سينا ، وعدَّه أستاذًا له ، كما أخذ عنه ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب . وقد لقب بحق « المعلم الثاني » على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول .

وفي سنة (٣٣٠هـ - ٩٤١م) انتقل إلى دمشق ، ثم اتصل بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب ، فضمه إلى علماء بلاطه واصطحبه في حملته على دمشق ، حيث توفي الفارابي سنة (٣٣٩هـ = ٩٥٠م) وله من العمر ثمانون عامًا .

ويذكر القفطي قائمة بمؤلفات الفارابي ، يتضمن القسم الأكبر منها شروحًا وتعليقات

---

(١) قدم له وعلق عليه ألبير نصري نادر - (ط ٥) . بيروت : دار المشرق (١٩٨٥م) . (١٧٨ ص) .

على فلسفة أرسطو وأفلاطون وجالينوس ، تناول فيها الفارابي كتب المنطق والطبيعيات والنواميس والأخلاق وما بعد الطبيعة .

اشتهر الفارابي كشارح لأرسطو ، وقد ذكر ابن سينا أنه طالع كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو أربعين مرة ولم يفهمه حتى وقع على كتاب للفارابي في « أغراض ما بعد الطبيعة » ، فلما قرأه فتح له ما كان مغلقًا منه ، ومع ذلك فقيمة الفارابي الحقة تقوم على ما صنف من كتب أشهرها :

كتاب « الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس » ، كتاب « تحصيل السعادة » ، كتاب « السياسات المدنية » ، كتاب « الموسيقى الكبير » ، « إحصاء العلوم » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » الذي نحن بصدده ، و « رسالة في العقل » و « رسالة فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » و « عيون المسائل » و « ما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم » .

مصدر الترجمة : كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٨٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على تمهيد ، ثم ترجمة للمؤلف ، وأهم مؤلفاته ، ومكانته ، وفلسفته الفيضية ، ثم مقدمة تحليلية للدكتور ألبير نادر الذي قدم له ، وعلق عليه ، وبعد ذلك اختصار لفصول كتاب المدينة الفاضلة ، وبعد ذلك فصول الكتاب وهي سبع وثلاثون فصلًا ، ويوجد في نهاية الكتاب معجم بأهم الكلمات التي وردت في الكتاب .

ينقسم كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) إلى قسمين كبيرين : قسم فلسفي ، وقسم سياسي اجتماعي ، والقسم الأول بمثابة تمهيد للقسم الثاني ، والقسم الأول يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أجزاء فرعية سنعرض للجزأين الأول والثاني عرضًا مجملًا ، ثم نتوقف عند الجزء الثالث لصلته - في كثير من المواضع - بعلم النفس ، ثم ننتقل بعد ذلك للقسم الثاني (المدينة الفاضلة) .

الجزء الأول في القسم الأول : عن الله وصفاته ، ولم يحاول الفارابي فيه أن يقدم براهين على وجود الله ، بل يسلم بوجوده تسليمًا بديهيًّا ويسميه ﷻ « الأول » أي سبب وجود باقي الكائنات كلها ، والأول خال من كل نقص ، وهو قديم ، موجود بذاته ، لا بعلة خارجة عنه وهو غير مادي ، ليست له صورة ؛ لأن الصورة لا تقوم إلا

في المادة ، والأول لا يتحرك نحو غاية وإلّا أصبحت هذه الغاية علة له ولحركته ، والأول لا يوجد مِنْ ، ولا عن كائن سابق له ، ولا أدنى منه ، والأول واحد ، يوجد تباين بينه وبين سائر الكائنات الأخرى ووجوده خاص به فقط ، وليس بينه وبين الكائنات الأخرى أي شيء مشترك فليس له شبيه ، وليس للأول ضد ، والأول لا يمكن تحديده أو تعريفه ؛ إذ إنه في غاية البساطة وهو ليس بجسم وهو وَحدة مطلقة غير منقسم ، ولما كان الأول غير مادي فهو بجوهره عقل بالفعل ، والأول يعقل ذاته ، فهو عقل وعاقل ومعقول ؛ ولكن كل ذلك جوهر واحد غير منقسم ولا متكثر .

ولما كان الأول يعقل ذاته فهو علم ، وعلمه هو جوهره ، وهو حق لأنه موجود ، وهو حياة ، وقيمة معرفتنا للأول تتناسب ودرجة كمال الشيء الذي نعقله ، ولما كان الأول كمالًا مطلقًا ، وكانت عقولنا متصلة بالمادة ، فلا نستطيع أن نعقله على حقيقته ولا يكون ذلك إلّا إذا تحررت عقولنا من المادة تمامًا .

أما الجزء الثاني في هذا القسم عن صدور بقية الكائنات عن الأول - فوجود باقي الكائنات يتبع حتمًا وجود الأول ، وهو فيض منه ، وهذا قديم ، وهي لا تنقص شيئًا من الأول ولا تزيد إليها كمالًا . والكائنات الفائضة منه متصلة بعضها ببعض ، وصادرة بعضًا عن بعض ، فمن الأول يفيض الثاني الذي هو أيضًا جوهر لا مادي ، وعقل خالص ، يعقل ذاته ويعقل الأول ، ومن هذا التعقل المزدوج تصدر باقي العقول ، والأفلاك الثابتة والمتحركة .

والجزء الثالث في هذا القسم فهو الذي ينبغي أن نقف أمامه وقفة متأنية لنستقرأه ونتبين ما له من صلة بعلم النفس ، هذا الجزء (الذي يمثل الفصول من العشرين إلى الخامس والعشرين) خاص بالإنسان أو بقوى الإنسان على وجه التحديد ، والإنسان في جزء منه - أعني السلوك - موضوع لعلم النفس .

والفصل العشرون في أجزاء النفس الإنسانية وقواها ، ومن هذه القوى ؛ القوة التي يتغذى بها (وهي بداية للحديث عن بعض الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش وهي موضوع للدراسة في علم النفس العام) ، والقوة التي بها يحس الملموس ، والتي يحس بها الطعوم والتي يحس بها الروائح ، والتي يحس بها الأصوات ، وكذلك الألوان والمبصرات ، ويحدث مع الحواس بها نزوع إلى ما يحسه فيشتاق إليه ويكرهه ، ومن القوى أيضًا ، قوة أخرى يحفظ بها ما ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيابها وهي

القوة المتخيلة ، وبعد ذلك تحدث القوة الناطقة التي بها يمكن أن يعقل المعقولات ، وبها يميِّز بين الجميل والقبيح ، ويحوز الصناعات والعلوم ، ويدرك بها الموجودات .

ومن ثنايا الحديث في هذا الفصل نلمح تعرضه لعدد من المفاهيم والموضوعات التي تدرس في علم النفس كالحواس الخمس أو موضوع الإحساس Sensation ، والإدراك Perception ، والانفعالات Emotions كالحب والشوق والكراهية ، والذاكرة Memory التي تحفظ الأشياء والتي يسميها القوة المتخيلة ؛ وإن كان الفارابي يرى أن مركزها في القلب لا في المخ ، وكذلك التفكير أو العقل وهي كلها موضوعات درست وما زالت تدرس حتى الآن في علم النفس من عدة وجوه كارتقائها ، صياغة القوانين التي تحكم هذا الارتقاء ، وكيفية قياسها ، وتشخيص اضطراباتها وغير ذلك (ص ٨٧ - ٩٠) .

والفصل الحادي والعشرون في كيف تصير هذه القوى والأجزاء نفسًا واحدة ، ففي الإنسان تتلاقى العناصر (القابلة للكون والفساد) مع العقل وهو أسمى ملكة ، أما الجسم فالعضو الرئيس فيه هو القلب ، مركز الإحساس والمخيلة ، والشهوة أو الغريزة ، وهو مصدر الحرارة التي تتصل بباقي الأعضاء ، كما أنه مصدر الروح الحيواني الذي ينقل هذه الحرارة ، ثم يليه المخ ، وهو عضو بارد ورطب ، ووظيفته تلطيف الحرارة الحيوانية وتوزيعها على مختلف الأعضاء حسب حاجتها ؛ لذلك لم تتصل الأعصاب الحاسة والمحركة بالقلب مباشرة ، بل بالمخ وبالنخاع المتصل بالمخ ومن أجل ذلك تحتفظ الأعصاب بالرطوبة التي تضمن لها حركاتها ، ثم إن الأعصاب منسقة ورتبة بحيث يخضع بعضها لبعض ، وذلك ما يثبته تكوين الجنين ، (وهو هنا يعيد النظريات القديمة في تكوين الأجنة) .

ونجد في هذا الفصل تعرضًا لبعض الموضوعات التي يتم تناولها في إطار علم النفس الحديث ، وإن اختلف هذا التناول عما يصفه الفارابي ، فهو قد تعرض لتحديد مواضع أو مراكز بعض الوظائف الجسمية والنفسية ، فهو يرى أن الدماغ مركز الفكر والحفظ والذكر (ص٩٢) ، وهذا يلتقي مع دراسات علم النفس العصبي Neuropsychology في تحديده لمراكز الوظائف النفسية في المخ ، كما يشير أيضًا إلى أن مركز الحرارة الغريزية في القلب ، ومفهوم الغريزة شاع استخدامه في علم النفس لفترة طويلة وتم التخلي عنه نهائيًا ، واستخدام مفهوم الدوافع بدلًا منه وذلك لغموضه (ص ٩٣) ؛ كما يثير في هذا العمل قضية الفروق بين الذكور والإناث في القوى النفسية ، حيث يرى أنهما يختلفان في الانفعالات ؛ كالغضب والقسوة ، والعواطف ؛ كالرأفة والرحمة (ص ٩٩)، بينما لا يختلف الذكور عن الإناث في القوة الحاسة ، والمتخيلة ، والناطقة (ص ١٠٠) .

وبغض النظر عن هذه الاختلافات ، فإن قضية الفروق بين الجنسين مازالت محل اختبار إلى يومنا هذا وذلك بالنسبة لكثير من الوظائف والعمليات النفسية .

وفي الفصل الثاني والعشرين ، والثالث والعشرين يتحدث عن القوة الناطقة والتي يعنى بها العقل ، فالعقل البشري ملكة ؛ هي بالقوة مهيأة لتقبل آثار المعقولات ، سواء كانت معقولات مفارقة أو معقولات لأشياء مادية ما يجعلها معقولات بالفعل ، وليس في عقلنا ما يجعل هذه المعقولات معقولة بالفعل ؛ لذلك لزم وجود فاعل يجعل المعقولات بالقوة تصبح معقولات بالفعل ويجعل عقلنا يمر من حال القوة إلى حال الفعل ، هذا الفاعل هو العقل الفعَّال (وقد تناوله الفارابي بالتفصيل في رسالته في العقل التي عرضنا لها) . ويرى الفارابي أن للإنسان إرادة حرة بجانب العقل ، وظيفتها تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة ، والسعادة البشرية هي في أن تبلغ النفس درجة من الكمال تجعلها تقوم دون مادة ، فتصبح جوهرًا مفارقًا وتبقى أبدًا في هذه الحال ، ولكن مهما بلغت النفس من السمو ، فإنها تبقى أدنى من العقل الفعَّال ، والعقل - كما سبق أن ذكرنا - يمثل أحد أهم الموضوعات التي يعنى بها علماء النفس من عدة وجوه سواء من حيث ارتقاء الجانب العقلي ، أو من حيث التعرف على مكوناته (القدرات العقلية Mental Abilities) وكيفية قياسها ، وتشخيصها في حالة الاضطراب ، وكيفية تنميتها في حالة الضعف (ص ١٠١ - ١٠٧) . ويقسم الفارابي القوة الناطقة إلى نظرية وعملية ، وعلماء النفس يقسمون الذكاء Intelligence - وهو من العمليات العقلية العليا - إلى ذكاء لفظي Verbal أو أدائي Performance (ص ١٠٦) . كذلك يتحدث الفارابي عن الإحساس ، والتخيل ، والإدراك البصري وهي من المفاهيم التي تحظى باهتمام كبير في علم النفس (ص ١٠٢ ، ١٠٦) ، وأخيرًا يتحدث عن السعادة ، والسعادة أو رفاهية البشرية هي أحد مهام علماء النفس في الوقت الحاضر ، وقد بدأت بعض الدراسات عن السعادة في الظهور ومن أمثلة ذلك كتاب ميشيل أرجايل Argyle سيكولوجية السعادة Psychology of Happiness (ص ١٠٥ - ١٠٧) .

ويتعرض في الفصلين الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين - للقوة المتخيلة التي هي وسط بين الحواس والعقل ، وهي تابعة للحواس وتمد العقل والشهوة وعندما تكون الحواس والعقل في حالة سكون ، كما هو الحال أثناء النوم ، تصبح المخيلة حينئذ متحررة ، فترجع إلى الآثار الحسية فتحللها وتركبها ، وللمخيلة وظيفة أخرى خلاف حفظها للصور واسترجاعها لها ، أنها تحاكي المحسوسات والمعقولات وحتى المزاج .

والمخيلة تحاكي أيضًا المعارف الصادرة عن العقل الفعَّال أي المعقولات والمحسوسات الحاضرة والمتقبلة ، فهي تحاكيها إما في حالة النوم وإما في حالة اليقظة والحالة الأخيرة نادرة ، ولا تحدث إلّا عند القليل من ذوي المخيلة القوية ، (ويتعرض الفارابي في هذين الفصلين لعدد من المفاهيم التي تم تناولها بشكل أو بآخر في دراسات علم النفس ومنها النوم واليقظة ص ١٠٨ - ١١٤) ، وقد درست في علم النفس الاجتماعي ، وفي نظريات التعلم ، وفي علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence (ص ١٠٨) ، والدوافع والانفعالات والأحلام وهي من موضوعات علم النفس العام (ص ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦) ، كما ذكر أيضًا لفظ الجنون (ص ١١٦) ، وهو استخدام دارج لمرض عقلي له اسم علمي هو الفصام Schizophrenia وهو موضع عناية من الأطباء النفسيين وعلماء النفس الإكلينيكيين .

ونصل بذلك إلى القسم الثاني من كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة وهو القسم السياسي الاجتماعي والذي يبدأ من الفصل السادس والعشرين وحتى السابع والثلاثين ، ويرى الفارابي أن الإنسان لا يستطيع أن يبقى وأن يبلغ أفضل كمالاته إلّا في المجتمع . والمجتمعات البشرية منها ما هو كامل ومنها ما هو غير كامل ، فالكامل منها ثلاثة : العظمى (وهي المعمورة) ، والوسطى (وهي الأمة) ، والصغرى (وهي المدينة) وغير الكاملة هي القرية والمحلة والسكة والمنزل ، والمدينة الفاضلة شبيهة بالجسم الكامل التام الذي تتعاون أجزاؤه لتحقيق الحياة والمحافظة عليها ، وكما أن مختلف أجزاء الجسم الواحد مرتب بعضها لبعض وتخضع لرئيس واحد ، كذلك يجب أن تكون المدينة الفاضلة ، والرئيس هو إنسان تحققت فيه الإنسانية على أكملها ، اكتسب عقله جميع المعقولات وأصبح عقلًا بالفعل ، ومخيلة الرئيس يجب أن تكون بحيث تتقبل ما يشرقه عليها العقل الفَعَّال ، وتعبِّر عنه بلغة محسوسة ، ومثل هذا الرجل يكون رئيس المدينة والأمة والمعمورة الفاضلة ويكون متصفًا باثنتي عشر خصلة منها ما يخص الجسم وهي أن يكون تام الأعضاء يقوم كل عضو بوظيفته ، ومنها ما يخص العقل وهي أن يكون جيد الفهم ، جيد الحفظ ، ذكيًا ، حسن العبارة ، محبًا للتعلم ، ومنها ما يخص الأخلاق ، وهي أن يكون غير شره ، محبًا للصدق كبير النفس ، غير متمسك بأعراض الدنيا ، قوة العزيمة ؛ واجتماع مثل هذه الخصال في شخص واحد أمر عسير ، ولا يحدث إلا قليلًا ، وإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الخصال ، ولكن وجد اثنان ، كانا هما رئيسين ، وإذا تفرقت هذه الخصال في جماع من ستة أشخاص

كانوا هم الرؤساء بشرط أن توجد الحكمة في أحدهم .

وتضاد المدينة الفاضلة مدن غير فاضلة ، أجملها الفارابي في أربعة أقسام كبيرة وهي : المدينة الجاهلة التي لم يعرف أهلها السعادة الحقيقية ، والمدينة الفاسقة التي عرف أهلها السعادة ، ولكن جاءت أفعالهم أفعال أهل المدن الجاهلة ، والمدينة المبدَّلة هي التي كانت آراء أهلها آراء المدينة الفاضلة ولكن تبدلت فيما بعد وأصبحت آراء فاسدة ، والمدينة الضالة هي التي يعتقد أهلها آراء فاسدة في اللّٰه والعقل الفعَّال ، ويكون رئيسها ممن أوهم أنه يوحى إليه وهو ليس كذلك .

وتكون سعادة الأنفس بتأملها الحقائق الأزلية في العقل الفعَّال ، فهي سعادة عقلية محضة ، وتتصل أنْفُس كل طائفة من طبقات أهل المدن الفاضلة بعضها ببعض وتصير كنفس واحدة وكلما كثرت الأنفس المتشابهة واتصل بعضها ببعض زادت سعادتها ، وكذلك الأمر بأنفس أهل المدن الفاسقة ، كلما أتت طائفة جديدة اتحدت بمن سبقها من الأنفس وأصبحت كنفس واحدة وزاد شقاؤها .

ونجد هذا القسم يذخر بعدد كبير من المفاهيم التي درست كموضوعات في علم النفس ، أولها تأكيده أن الإنسان كائن اجتماعي ، وكأنه يرسي دعائم علم النفس الاجتماعي الذي يدرس سلوك الأفراد كما يتشكل من خلال المواقف الاجتماعية ، ومحدِّدات هذا السلوك من تعاون وتفاعل ، وتنظيم (ص ١١٧ - ١١٩) ، ويركز الحديث بعد ذلك على موضوع القيادة Leadership ، ومواصفاتها ومن يكون القائد (ص ١٢٠) . ويفصل الحديث في خصال القائد (أو رئيس المدينة الفاضلة) ومعظمها خصال ذات طبيعة نفسية ، فهو يتحدث عن جودة الفهم والتصور (أو التفكير) وجودة الحفظ لما يُرى ويُفهم ويُسمع ويُدرك (أو التذكر ، والإدراك السمعي والبصري) ، (ص ١٢٧) وأيضًا الذكاء والفطنة (ص ١٢٧) ، وطلاقة التعبير ، وحسن العبارة (أي إنتاج اللغة وفهمها وهي صلب سيكولوجية اللغة ص ١٢٨ ، ١٥٥، ١٧٢ ، ١٧٣) . ويعدد بقية خصال الشخصية أو سماتها من قبيل الصدق ، والأمانة ، والإيثار ، وحب الكرامة ، والقناعة ، والرضا ، وحب العدل (ص١٢٨ ، ١٤٠) ، ويتطرق أيضًا لموضوع الدوافع خاصة الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش ، والجنس (ص ١٣٣) ، ويعود مرة أخرى لموضوع الانفعالات ويركز على انفعال الغضب (ص ١٦٨ - ١٦٩) . ويتعرض كذلك في ثنايا الحديث لمرضى النفس (ص ١٤٠)، وبعض أعراضهم كعدم الاستبصار (ص ١٤١) ، (أي عدم الاعتراف بالمرض وإنكاره)، والاكتئاب

(الغم والحزن) كمرض من الأمراض النفسية (ص ١٤٣) ؛ بالإضافة إلى ذلك فإنه يركز على العقل وأنواعه ، والنفس وهيئاتها ، وقواها ولا تكاد تخلو صفحة من ذكر هذين المفهومين ، وهي كما نرى من الموضوعات المهمة التي درست ومازالت تدرس في علم النفس حتى يومنا هذا .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

كتاب تحصيل السعادة [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويعرض المؤلف فيه لرأيه في قيام المجتمع الإنساني الكامل ، الذي يعد غاية الإنسان ، والمحقق لسعادته ، والتي يتطلب وصوله إليها أربعة أجناس من الفضائل ، تكون على الترتيب حسب الأهمية كما يلي :

الفضائل النظرية : أي العلوم التي من خلالها نعرف طبائع الأشياء ، ومبادئ وجودها ؛ لذا يجب البدء بمعرفة « المقدمات الأولى » ، وهي فطرية ، أي حاصلة في ذهن المرء منذ ولادته ، ولكنه يستكشفها عن طريق التعلم ، والذي به يستطيع الفرد الوصول إلى علة الشيء ومعلوله بواسطة الاستدلال ؛ إما من العلة إلى المعلول ، أو من المعلول إلى العلة ؛ ولذلك يقترح الفارابي – حتى لا يضطرب ذهننا – البدء بدراسة ما هو مجرد ، أو الكميات العددية والعلاقات بينها ، والكميات الفراغية والعلاقات بينها (أي الرياضيات) والتي تعطينا المقادير والأشكال والأوضاع وجودة الترتيب وإتقان التأليف وحسن النظام ، فإذا ما علم المرء مبادئ وجود ما هو مجرد ، احتاج إلى فحص مبادئ وجود ما هو محسوس ، أي المعرفة بالعلوم الطبيعية ، أو دراسة الأجسام السماوية ، ثم الأرض والماء والهواء وما جانس ذلك من نار وبخار ، وكذلك المعادن والنباتات والحيوانات ، فإذا علم مبادئ وجود كل جنس من الأجسام المحسوسة ، بل

---

(١) قدم له وعلق عليه جعفر آل ياسين – (ط ٢) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . (١٣٣ ص) .

وكل نوع من أنواع كل جنس ، اضطره النظر في هذه المبادئ أن يطلع على مبادئ وجود أشياء ليست هي طبيعية ولا طبيعية ، واحتاج في ذلك إلى علم وسط بين علمين : علم الطبيعة - علم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) ، أي احتاج إلى علم يتعامل مع النفس ، ويطلع من أمرها وأمر العقل على مبادئ وجودهما ، وعلى الغايات والكمال الأقصى الذي لأجله خلق الإنسان ، الذي فطر على الارتباط بالآخرين واجتماعه معهم ، ففي هذا الاجتماع والمجاورة يتحقق الكمال الذي تيسره الفضائل والحسنات ، وتعوّقه النقائص والسيئات .

الفضائل الفكرية : ثم ينتقل الفارابي إلى وصف أعراض الأمم وأحوالها ، مشيرًا إلى أنها لا تدوم ، وإنما تتبدل لكن بعضها يتبدل في مدد طويلة ، ولها قوانين ، وبعضها الآخر يتبدل دائمًا ، وفي مدد صغيرة ، ولا قوانين لها ، وجميع هذه الأعراض والأحوال تخضع للفاعل من جهة ، وللإرادة من جهة أخرى ، كما لا تحيط بها العلوم النظرية ، وهنا تظهر الحاجة إلى الفضائل الفكرية التي لها القدرة على استنباط ما هو أنفع لكل من الفرد والمدينة والأمة .

الفضائل الخلقية : ولضمان هذا النفع ، ينبغي البحث عن الفضيلة الكاملة التي تضاهي قوتها قوة الفضائل كلها ، وهي الفضائل الخلقية ؛ التي تستعمل فيها أفعال الفضائل الكائنة في مدن كل أمة ، أو في أقسام كل مدينة ، أو في أجزاء كل قسم .

الصناعات العملية : وترتبط بالفضائل الخلقية صناعات عملية ، وتماثلها في التدرج ، فهناك صناعة رئيسة (كصناعة رياسة الأمة) لا تتقدمها صناعة أخرى ، وهي الصناعة التي يتطلب أداؤها استعمال أفعال الصنائع كلها ، يلي الصناعة الرئيسة صناعات أقل قوة ، كصناعة قيادة الجيش ، وكالصناعة التي ترأس صناعات اكتساب الأموال ، يلي ذلك صناعات جزئية في كل قسم من الأقسام ، ثم في كل جزء من الأجزاء .

وهناك ارتباط بين هذه الأجناس الأربعة ، فصناعة الرياسة (الصناعة الرئيسة) لا تفارق الفضيلة الخلقية الرئيسة ، التي بدورها لا تفارق الفضيلة الفكرية الرئيسة جدًّا ، التي تكون تابعة للفضيلة النظرية ، التي فطر عليها المرء ، فالملوك ملوك بالطبيعة أولًا ، ثم بالإرادة ، وكذلك الخدم ، وبالتالي تحصل كل هذه الفضائل لمن أعد لها ، ويتم ذلك بطريقين :

١ - التعليم ، أي الإقناع بالأقوال والتخيل ، ومن خلاله توجد الفضائل النظرية في الأمم .

٢ - التأديب من خلال إنهاض العزائم نحو فعل شيء ما ، ويكون هذا الإنهاض إما بالأقوال - سواء كانت إقناعية أو انفعالية - لمن يمكن أن يقوموا به طوعًا ، وإما بالانفعال للمتردين من أهل المدن الذين لا ينهضون طوعًا من تلقاء أنفسهم ، ولا بالأقوال .

ويعد الملك (رئيس الأمة) مؤدب الأمم ومعلمها ، ويستعمل في ذلك طائفتين من أهل الفضائل والصنائع : طائفة لتأديب من يؤدب طوعًا ، وأخرى لتأديب من لا يؤدب إلَّا كرهًا ، ويكون هذا الملك من خاصة الناس (فالناس فئتان : خاصة - عامة) ، أي الفئة التي أعدت لتعلم الفضائل النظرية أو العلوم ، ليس هذا فقط ، بل وتعلم أعظم هذه العلوم قوة (الفضيلة النظرية الرئيسة) أي الفلسفة .

هنا يؤكد الفارابي أن للرئيس (الملك) وللإمام وللفيلسوف معنى واحد ؛ لأن الرئيس أو الملك يأخذ بيد أمته إلى تحصيل السعادة القصوى ، ويجب أن يكون قادرًا على ذلك ، وهذا لا يتأتى إلَّا إذا تحلى بالفضائل النظرية والفكرية والخلقية الرئيسة ، وعلَّم أمته ذلك أي أن يكون فيلسوفًا .

وأخيرًا ؛ يميز الفارابي بين الفلاسفة ، فمنهم مَنْ هو حق ، ومنهم مَنْ هو باطل أو زور أو بهرج ، والصنف الأول له استعداده الذاتي لتحصيل الفضائل الرئيسة ، إذا يتمتع بالصفات التي ذكرها أفلاطون في كتابه « في السياسة » ، أما الصنف الثاني فيشرع في تعلم العلوم النظرية من غير أن يكون معدًّا بفطرته لذلك ، أو كان تابعًا لهواه وشهواته .

ويحصي الفارابي صفات الصنف الأول والذي يعتبره الفيلسوف بحق وبصدق ، وإذا كان رئيسًا أو ملكًا ، فهو الرئيس العادل بصدق .

ومن أبرز ما يلفت نظر المتخصص المعاصر في علم النفس عند قراءته لهذا الكتاب من كتب الفارابي :

١ - يقول الفارابي في (ص ٦١) : « وإن فطرة كل إنسان أن يكون مرتبطًا ، فيما ينبغي أن يسعى له ، بإنسان أو ناس غيره ، وكل إنسان من الناس بهذا الحال ، وأنه كذلك يحتاج كل إنسان فيما له أن يبلغ من هذا الكمال إلى محاورة ناس آخرين واجتماعه معهم » .

ومن الملاحظ أن الفارابي يتفق مع نتائج البحوث المعاصرة في علم النفس والتي تؤكد

ميل الأفراد إلى الانتظام في جماعات ؛ إما إرضاء لحاجتهم إلى الانتماء لآخرين يشاركونهم الاهتمامات والميول ، أو تحقيقًا لهدف لا يسهل تحقيقه إلَّا من خلال الانضمام لجماعة (ص ٦١ - ٦٢) .

٢ - يعرف الفارابي عملية التأديب - في (ص ٧٨) - بأنها : « إنهاض العزائم نحو فعل الشيء » متفقًا في ذلك مع البحوث النفسية المعاصرة التي تبرز أهمية تنمية دافعية Motivation الفرد نحو أداء الفعل ، بمعنى آخر ، إثارة نشاطه بشكل منظم وموجه لتحقيق هدف محدد .

ويرى الفارابي - في (ص٧٩) - أن ذلك يتم من خلال « الأقاويل الإقناعية والأقاويل الانفعالية » ، أي من خلال تغيير اتجاه Attitude Change الفرد المستهجن للفعل والذي يدفعه إلى رفض أدائه باتجاه آخر محبذ للفعل ويدفعه لأدائه ، ويتم هذا التغيير من خلال تخاطب (اتصال) بالمواجهة Face to Face Communication الذي يتضمن إما مناشدة منطقية (أقاويل انفعالية) Emotional Appeals وتشير إلى جاذبية المترتبات الناتجة عن تقبل ما يدعو إليه التخاطب ، Reinforcement أو التلويح بالمترتبات المؤلمة (Fear Appeals) لرفض ما يدعو إليه .

ويأتي تمييز الفارابي بين النوعين ، وبين التوقيت المناسب لاستعمال أي منهما ، وكذلك الجمهور الذي يلائمه استخدام أي منهما ، يأبى تمييزه متفقًا مع نتائج البحوث الحديثة التي تتناول الفاعلية النسبية لنوعي المناشدة (ص ٨٨ - ٩٠) .

٣ - وإذا كان الفارابي يجعل من الفيلسوف أصلح القوم لرئاستهم ولرئيس الفيلسوف - عنده - معنى واحد ، فإن صفات الفيلسوف الحق - والتي نقلها عن « أفلاطون » في : (ص ٩٥) - تعد صفات المدير الناجح ، أو القائد الفعال ، أي : الذي يأخذ بيد جماعته نحو تحقيق أهدافها ، ويتفق في ذلك مع نتائج البحوث الحديثة لموضوع القيادة والتي تبرز خصالًا لهذا القائد لا تختلف عن صفات الفيلسوف الحق التي أوردها الفارابي (ص ٩٤ - ٩٥) .

٤ - وإذا كان الفارابي يجعل من الفيلسوف أصلح القوم لرئاستهم ، وأن رئيس القوم هو معلمهم ومؤدبهم ؛ إذ يقول في : (ص ٨٠) : « والملك هو مؤدب الأمم ومعلمها » ، وإذا اعتبرنا عملية التأديب هذه هي عملية تغيير الاتجاه من خلال التخاطب ، فإن الصفات التي ذكر ضرورة توفرها في الفيلسوف الحق ، هي نفس

صفات المؤدب الذي يحسن التأديب ، أي : مصدر Source التخاطب الفعال ، وتبرز بحوث تغيير الاتجاه أن للمصدر خصالًا إذا ما اتسم بها زادت قدرته على إقناع المتلقي ، ومن أهم هذه الخصال : المصداقية Credibility أي : أن يراه المتلقي صادقًا أهلًا للثقة خبيرًا بما يقول أو يفعل ، بعيدًا عن الهوى أو الإغراء ، قادرًا على التحكم في إثابة المتلقي وعقابه ، عادلًا في فعل ذلك .

ونلاحظ أن هذه الخصال لا تتعارض مع الصفات التي ذكرها الفارابي في : (ص ٩٠) ، مما يعني اتفاقه مع بحوث علم النفس المعاصر .

* * *

رسالة العقل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في حوالي ٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، وينقسم إلى جزئين ، الأول عبارة عن رسالة في العقل باللغة الفرنسية ، والثاني الرسالة باللغة العربية مع شروح وإشارات ، واختصارات في الهوامش (ويحتل كل هامش نصف الصفحة تقريبًا) باللغة العربية ، والفرنسية ، (ولغة أجنبية أخرى) ، وفي نهاية الكتاب يوجد فهرس بالمصطلحات والأسماء التي وردت بالكتاب وبيان بالصفحات التي وردت فيها .

ويبدأ الفارابي رسالته ببعض ما ورد لدى السابقين عن معنى العقل ، فيذكر ثلاثة معاني ، ثم يعيد شرحها وتفصيلها بعد ذلك ، وأول هذه التعريفات أن العقل هو الشيء الذي به يقول الجمهور في الإنسان إنه عاقل ، والثاني أن العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون هذا مما يوجبه العقل أو ينفيه العقل .

أما الثالث فهو مجموعة المعاني التي ذكرها أرسطاليس في كتاب البرهان ، وفي المقالة السادسة من كتاب الأخلاق ، والذي ذكره في كتاب النفس ، وفي كتاب ما بعد الطبيعة .

والمقصود في المعنى الأول هو الإشارة إلى التعقل ، فالعقل يحتاج إلى دين ، والدين عند بعض الجمهور هو الفضيلة ، وبالتالي فالعاقل من كان فاضلًا جيد الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر أو يُجتنب ، ويطلق البعض على من يجيد استنباط الشر الداهية .

---

(١) ط ٢ . بيروت : دار المشرق (١٩٨٦م) . مع : نص بالإنجليزية .

ولذلك يرى بعض الناس أن الإنسان إن بلغ جودة الروية في استنباط الشرور ما بلغ ، لم يسمَّ عاقلًا .

وأما العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون في الشيء هذا مما يوجبه العقل أو ينفيه العقل أو يقبله العقل أو لا يقبله ؛ فإنما يعنون به المشهور في بادئ رأي الجميع ، فإن بادي الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمونه العقل ، وهو ما يتضح من استقراء كلامهم الذي يتخاطبون فيه وبه أو مما يكتبونه في كتبهم ويستعملون فيه هذه اللفظة . (والتخاطب أو التواصل Communication أحد الموضوعات التي تحظى الآن باهتمام واسع في علم النفس الاجتماعي ص ٨) .

أما العقل كما ورد عند أرسطو في كتابه البرهان فيعني به قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين بالمعتقدات الكلية الصادقة الضرورية بالفطرة ، وهو وسيلة النفس في تحصيل المعرفة التي هي مقدمات للعلوم النظرية ، ونلمح هنا استخدام الفارابي لكلمة النفس التي أضيفت لعلم فأصبح علم النفس ، الذي يدرس السلوك في مختلف أشكاله ، ويرى أن العقل هو السبيل إلى تحصيل المعرفة ، ومفهوم المعرفة Cognition أصبح في حد ذاته أحد الموضوعات أو التخصصات الدقيقة التي تدرس في علم النفس بما يسمى علم النفس المعرفي Cognitive Psychology بما يحويه من نظريات وأساليب (ص ٨ - ٩) .

والعقل كما تناوله أرسطو في المقالة السادسة من كتاب الأخلاق ، يريد به جزء النفس الذي يحصل فيه بالمواظبة على اعتياد شيء مما هو جنس من الأمور ، وطول تجربة شيء ما ، هذا الجزء من النفس أسماه العقل ، والقضايا التي تحصل للإنسان بهذا الوجه في ذلك الجزء من أجزاء النفس هي مبادئ المتعقل والداهي وسبيله لما يستنبط من الأمور الإرادية التي من شأنها أن تؤثر أو تتجنب ، وهذا العقل يتزايد مع الإنسان طول عمره ، وتتمكن فيه تلك القضايا (وهنا نجده يشير إلى مبدأ مهم من المبادئ التي درست في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology وهو الارتقاء العقلي والمراحل التي يمر بها وهناك نظريات كثيرة تعرضت لهذا الموضوع لعل من أشهرها نظرية بياجيه Piaget ص ١٠ - ١١) . كما يركز في هذا الجزء على عملية البرهان والتجربة كوسيلة من وسائل العقل في إدراك القضايا المختلفة (والتجريب يعتبر الآن أحد الأعمدة الرئيسة لنمو علم النفس ، ويوجد من بين تخصصات علم النفس الحديث ما يسمى بعلم النفس التجريبي Experimental Psychology ص ١١) .

والعقل الذي يذكره في كتاب النفس ، جعله على أربعة أنحاء : عقل بالقوة ، وعقل

بالفعل ، وعقل مستفاد ، وعقل فعال ؛ فالعقل الذي هو بالقوة ، هو نفس أو جزء من نفس ، أو قوة من قوى النفس ، وإذا كانت الذات التي سماها أرسطو في كتاب النفس عقلًا بالقوة ليس فيها شيء من صور الموجودات فهي عقل بالقوة ؛ فإذا حصلت فيها صور الموجودات صارت تلك الذات عقلًا بالفعل .

وهذا العقل بالفعل متى عقل المعقولات التي هي صور له من حيث هي معقولة بالفعل ؛ صار العقل الذي كنا نقول أولًا إنه العقل بالفعل هو الآن المستفاد .

إن العقل بالقوة عند الفارابي يقابل ما نسميه الآن الاستعداد الطبيعي عند الإنسان لتقبل المعقولات أو لتقبل المعرفة العقلية .

أما العقل الفعال الذي ذكره أرسطو في المقالة الثالثة من كتاب النفس هو صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلًا ، وهو بنوع ما هو عقل بالفعل قريب الشبه من العقل المستفاد الذي جعل تلك الذات التي كانت عقلًا بالقوة عقلًا بالفعل ، وجعل المعقولات التي كانت معقولات بالقوة معقولات بالفعل .

ونسبة العقل الفعال الذي بالقوة كنسبة الشمس إلى العين التي هي بصر بالقوة مادامت في ظلمة ، فإن البصر إنما يكون بصرًا بالقوة مادام في ظلمة .

ويواصل بعد ذلك شرحه وتفصيله للعقل الفعال ، فيرى أنه نوع من العقل المستفاد ، وصور الموجودات المفارقة التي فوقه هي فيه لم تزل ، ولا تزال ، إلّا أن وجودها فيه على ترتيب غير الترتيب الذي هي موجودة عليه في العقل الذي بالفعل ، وتكون الصور فيه غير منقسمة بينما هي في المادة منقسمة ، ومتى حصل العقل الفعال المستفاد يصير عند ذلك جوهر الإنسان أو الإنسان بما يتجوهر به أقرب شيء إلى العقل الفعال ، وهذه هي السعادة القصوى والحياة الآخرة وهي أن يحصل للإنسان آخر شيء يتجوهر به ، وأن يتحصل له كماله الأخير .

والظاهر أن الموضوعات التي فيها يفعل العقل الفعال هي إما أجسام ، وإما قوى في أجسام فتكون فاسدة ، وقد تبين في كتاب الكون والفساد أن الأجسام السمائية هي الأقسام الفاعلة الأول لهذه الأجسام فيها ؛ إذ إنها تعطي العقل الفعال المواد والموضوعات التي فيها يفعل .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العام وخاصة موضوع الذكاء والتفكير .

التنبيه على سبيل السعادة (1)

عرض : د . شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١١ صفحة من القطع الصغير ويتضمن الأهداف ، والمقدمة وتحوي تعريفًا عامًا بالكتاب ، وهوية الكتاب ، ومنهج التحقيق ، والمخطوطتان ، والهوامش والرموز ، ثم نص الكتاب ، وتعليقات على النص ، وثبت بدلالات فقرات النص ، وفهرس المراجع والمصادر وفهرس المصطلحات الواردة في النص .

ويتناول هذا الكتاب إيضاح الوسائل والسبل التي ينبغي أن يسلكها الإنسان حتى تتحقق له السعادة ، ويشير الفارابي في هذا إلى أن الكمال هو الغاية الأصلية التي يتشوقها الإنسان في تطلعه نحو حياة أكثر سعادة وسلامة ، فالسعادة الحقيقية هي أكثر أنواع الخير إيثارًا وتفضيلًا ، وتتصف أفعال السعادة في ضوء تطبيقاتها العملية بكونها إما أفعال محمودة ، أو أفعال مذمومة ، وهذه الأفعال تأخذ ثلاثة أنماط هي :

١ - أفعال يحتاج الإنسان فيها إلى استعمال أعضاء بدنه وآلاته كالقيام والقعود والنظر والسماع .

ويتصل هذا النمط من الأفعال بموضوع السلوك الحركي Motor Behavior (ص ٥٠) ، ومفهوم الإحساس بالإدراك الحسي والمعرفة Sensation , Perception and Cognition (ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٧٩) .

---

(١) تحقيق جعفر آل ياسين (ط ٢) . بيروت : دار المناهل ، (١٩٨٧م) . (١١ ص) .

٢ - أفعال مصدرها عوارض النفس كاللذة والغضب والشوق والفرح والخوف . وتتصل هذه المفاهيم بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٥٠) .

٣ - أفعال تخص في قيامها لعامل التمييز الذهني عند الإنسان .

ويتصل مصطلح التمييز الذهني بمفهوم الذكاء Intelligence والتفكير Thinking (ص ٥٠ - ٥٣) ، وينطوي ذلك كله تحت فرع علم النفس العام General psychology .

وهذه الأفعال - من الوجهة الأخلاقية - يمكن الحكم عليها بجودة التمييز أو رداءته وامتلاك جودة التمييز هو الغاية في مبحث التنبيه على سبيل السعادة ، ولكي ينال الإنسان السعادة لابد أن تكون الأفعال الجميلة التي يقوم بها هادفة ومتحققة بصناعة معينة ، ويقصد بتلك الصناعة الفلسفية بشقيها النظري والعملي ، بحيث يصبح لدى الإنسان القدرة على التمييز في أفعاله الاختيارية ، والتي يمتلك استعدادًا فطريًّا لها ، ولكنه يكتسب هذه القدرة على التمييز من خلال التعلم والخبرة .

ويرتبط مفهوم الاكتساب والتعلم والخبرة بسيكولوجية التعلم Learning (ص ٥٤- ٥٦) في إطار علم النفس العام .

وبتحقيق هذه القدرة يميز الإنسان بين الصواب والخطأ ، وبين الجميل والقبيح وتنقسم حال التمييز المكتسبة إلى صنفين :

الأول : ويتم التمييز به إلى جيد ورديء ، وتحدث جودة التمييز بقوة الذهن ، إما رداءته فتحدث بضعف الذهن والبلادة ، ويتصل مفهوم قوة الذهن بمصطلح الذكاء ، أما ضعف الذهن فيتصل بمفهوم الضعف أو التأخر العقلي Mental Retardation (ص٥٤) .

الثاني : وتكون أفعال وعوارض النفس ، إما جميلة وإما قبيحة ، ويسمى هذا الصنف الثاني الخلق ، وهو الذي تصدر به عن الإنسان الأفعال القبيحة والحسنة ، وتخضع الأفعال والتمييز للثوابت ، بما يجعل تمييز الإنسان واضحًا في كل شيء ، وذلك حتى يدوم فعل الجميل وجودته معًا ، وبحيث تصبح قوة الذهن مَلَكة لا يمكن زوالُها باعتبار أن قوة الذهن والخلق الجميل هما الفضيلة الإنسانية ، ولكي نحقق هذه الغاية ينبغي أن نسلك طريقين :

الأول : محاولة أن تصبح الأخلاق الجميلة ملكة لنا بحيث لا يزول الصواب إلَّا بمشقة وعسر .

الثاني : أن تكون لدينا القدرة على إدراك الصواب إدراكًا سليمًا .

والوسيلة التي يمكن أن نحقق بها الوصول إلى الطريق الأول هي وسيلة الاعتياد ، ويقصد بها تكرار الفعل مرات متعددة ولمدة طويلة وفي أوقات متقاربة حتى يتحقق الفعل الجميل وينمو .

وتتصل هذه الفكرة (الاعتياد من خلال التكرار) بسيكولوجية التعلم Learning والتدريب Training .

ولكي نصل إلى الفعل الجميل حقًّا ينبغي أن نستخدم آلة الوسط الأخلاقي ، فالأفعال متى كانت متوسطة حصل الخلق الجميل ، ويمكن للإنسان أن يقف على الوسط في الأفعال الخلقية من خلال تعرفه على زمان الفعل ومكانه ، ومن منه الفعل ، ومن إليه الفعل ، وما منه الفعل ، وما به الفعل ، وما من أجله وله الفعل ، وأن يجعل الفعل على مقدار كل واحد من هذه .

ونظرًا لاختلاف مستويات الأفعال الخلقية ، نجد أن الوسط الأخلاقي يختلف قوة وضعفًا ، سلبًا وإيجابًا حسب أفعاله وغاياتها .

وهناك أمثلة ونماذج لأفعال الوسط الأخلاقي ، ومنها مثلًا أن الشجاعة تُعرَّف على أنها خلق جميل يحصل بتوسط في الإقدام على الأشياء المفزعة والإحجام عنها ، فالزيادة في الإقدام تكسب التهور ، والنقصان في الإقدام يكسب الجبن وهو خلق قبيح .

كذلك فإن السخاء يحدث بتوسط في حفظ المال وإنفاقه ، فالزيادة في الحفظ والنقصان في الإنفاق يكسب التقتير وهو قبيح ، والزيادة في الإنفاق والنقصان في الحفظ يكسب التبذير .

وهنا أيضًا إشارة لأوساط أفعال أخرى كالعفة والظرف والهزل والمجون والتودد وغيرها .

ويتصل مفهوم « الوسط » على هذا النحو بعدد من المفاهيم في علم النفس ؛ مثل : مفهوم السواء Normality ، ومفهوم التطرف Extremeness (ص ٥٨ – ٦٦) ، والاعتدال والأخلاق Morality (ص ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦) .

ويشير الفارابي بعد ذلك إلى أن الميزان الحقيقي للحكم على الفعل الأخلاقي هو أن نحصي الأخلاق خلقًا خلقًا ، ونحصي الأفعال الكائنة عن خلق خلق ، ثم يجب أن نتأمل وننظر أي خلق نجد أنفسنا عليه ، بمعنى أن الإنسان السوي يجب أن يمتلك الآلة التي يسبر بها غور أفعاله ، فإذا وجد الفعل يتصف بالجمال واللذة وأنه غير مؤذ

اعتبره خلقًا سليمًا ، والعكس بالعكس .

وبذلك يمكن القول بأن مراقبة النفس لكل فعل تقوم به ، واختيار الوسط من الأفعال المختلفة هي عملية يتميز بها الإنسان في تطبيقاته الخلقية بموازنة دقيقة بين إفراط وتفريط ، أو نقصان وزيادة ، وتجنب الوقوع في أحد طرفي المعادلة ؛ لأن الحدين المستقطبين يتصفان معًا بالرذيلة ، بينما الفضيلة منهما وسط لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك .

كما يشير الفارابي إلى أن الوقوف على الوسط يُعدّ عملية عسيرة جدًّا ، ولا سبيل إلى تحقيق هذا الوسط إلّا التعود والممارسة ، فعندما يجد الإنسان نفسه تميل إلى جانب عودها أفعال الجانب الآخر ، ويظل يفعل ذلك حتى يبلغ الوسط أو يقاربه جدًّا ، ويرى أن وسيلة الكشف عن ذلك تتحقق من خلال النظر إلى سهولة الفعل الكائن عن النقصان ، هل يتأتى أم لا ؟ فإذا كان تَأتّي الفعل أو عدمه على السواء من السهولة أو كانا متقاربين ، علم الإنسان أنه قد وقف على الوسط ، وامتحان سهولة الفعلين تتم من خلال النظر إليهما جميعًا ، فإن كان الإنسان لا يتأذى بواحد منهما أو يلتذ بكل واحد منهما أو يلتذ بأحدهما ولا يتأذى بالآخر أو كان الأذى عنه يسيرًا جدًّا ، عندئذ يكون الفعلان في السهولة على السواء ومتقاربين .

ونظرًا لأن الوسط بين طرفين ، ومن الممكن أن يوجد في الأطراف ما هو شبيه بالوسط ؛ لذلك وجب التحرز من الوقوع في الطرف الشبيه بالوسط ؛ ومثاله : التهور فإنه شبيه بالشجاعة ، والتبذير شبيه بالسخاء ، والمجون شبيه بالظرف .

ويذهب الفارابي بعد ذلك إلى أن الناس يختلفون فيما بينهم ، فهناك من له جودة الرَّوِيَّة وقوة العزيمة ويمثل هذا الجانب الإنسان الحر ، أما من افتقر إليهما فهو البهيمي ، أو من كانت له جودة الروية فقط دون قوة العزيمة فهو الإنسان العبد بطبعه ، ويتميز الأحرار بأنهم متى أرادوا أن يسهلوا على أنفسهم فعل الجميل وترك القبيح باستعمال اللذة والأذى فإن الأخفى منها والأظهر عندهم بمنزلة واحدة .

ويمكن أن يتصل مفهوم جودة الروية وقوة العزيمة بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص ٧٠) .

وتنقسم جودة التمييز إلى صنفين ، أحدهما ينبغي أن يعلم فقط وليس شأنه أن يفعله إنسان في الوجود ؛ مثل العلم بأن الله واحد ، أما الثاني فشأنه أن يعلم ويفعل مع تلازم فيه بين العلم والعمل معًا ؛ مثل العلم بأن بر الوالدين حسن ، ويحصل الصنف الثاني

بصنائع تكسبه علم ما يعمل القوة على عمله ، ويتصف له قصده الإنساني الذي يتمثل في ثلاث شُعب هي : اللذيذ والنافع والجميل ، والنافع إما ينفع في اللذة وإما ينفع في الجميل .

والصنائع صنفان أيضًا : صنف مقصوده تحصيل الجميل ، وصنف مقصوده تحصيل النافع ، والصناعة التي مقصودها تحصيل الجميل فقط هي الفلسفة وتسمى الحكمة على الإطلاق ؛ وهذا الجميل يتفرع إلى قسمين :

أ - علم فقط وهو الفلسفة النظرية وتشمل علم التعاليم (مثل علم العدد وعلم الهندسة) وعلم الطبيعة ، وعلم ما بعد الطبيعة .

ب - علم وعمل وهو الفلسفة العملية والمدنية والسياسية .

ويتمسك الفارابي بالصنف الذي تصدر عنه الأفعال الجميلة والقدرة على أسبابها وهو ما يطلق عليه الصناعة الخُلُقية ، مشيرًا إلى أن الطريق إلى هذه الصناعة الخُلقية يمر عبر الفلسفة ، والفلسفة تحصل بجودة التمييز ، وجودة التمييز تحصل بقوة الذهن على إدراك الصواب ، ولا يتحقق الأمر الأخير بصناعة المنطق ، والتي يجب أن يسبقها صناعة النحو ، وهو ما ينبغي على دارسَ الفلسفة أي الباحث عن السعادة الحقة أن يسلكه ؛ وعندئذ يكون الإنسان قد بلغ السبيل التي ستقوده إلى السعادة المرغوبة التي من أول مراتبها تحصيل صناعة المنطق ، وآخر غاياتها بلوغ القدرة على تأمل الخير المطلق .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي Social Psychology .

* * *

ابن الأعرابي (ت ٣٤٠هـ)
الزهد وصفة الزاهدين [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم ، الإمام المحدث ، يكنى أبا سعيد ويعرف بابن الأعرابي ، نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة نيف وأربعين ومائتين ، أخذ علمه عن كثير من العلماء والشيوخ نذكر منهم الزعفراني ، والمخزمي والدقيقي والعبسي وغيرهم ، وأخذ عنه كثير من التلاميذ نذكر منهم : ابن النحاس ، وابن خفيف ، وابن المقرئ ، وابن مفرج ، الأصبهاني ، والطرسوسي ، وغيرهم .

ومن مؤلفاته « رسالة من المواعظ والفوائد » ، « وكتاب رؤية اللّه تبارك وتعالى » ، « وكتاب المعجم من الحديث » ، « وطبقات النساك وتاريخ البصرة » ، وقد كان ابن الأعرابي ثقة ، حسن الأداء ، وكثير الروايات كثير التأليف ، توفي في مكة في شهر ذي القعدة سنة (٣٤٠هـ) عن عمر يناهز أربعًا وتسعين عامًا .

مصدر هذه الترجمة : ما ورد في بداية هذا الكتاب .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٩٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويحوي تقديمًا وترجمة للمؤلف ، وإسهام المحقق ومخطوطة الكتاب ، وثلاثة فهارس أولها للآيات ، والثاني للأحاديث النبوية ، والثالث فهرس الأعلام ، وموضوع الكتاب يدور عن الزهد وهو مقسم إلى

---

(١) تحقيق مجدي فتحي السيد - (ط ١) . طنطا : مكتبة الصحابة (١٩٨٨م) . (٩٥ ص) .

أربعة موضوعات بعضها من وضع المحقق (نعني بعض العناوين) .

والموضوع الأول عن الزهد وصفة الزاهدين ويحتل بضعة أسطر يؤكد فيها على بدء الأعمال بالحمد والثناء للّه ﷺ والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم يقدم للموضوع الثاني فيذكر اختلاف أهل العلم في معنى الزهد ، ويَزْلُفُ بنا ابن الأعرابي مباشرة للحديث عما قيل عن الزهد ، ويذكر ستة وأربعين معنى أو قولًا في الزهد (وهي في الحقيقة ٤٥ قولًا فقط ؛ لأن القول السادس عشر غير موجود بالكتاب) . ومن المعاني التي ذكرها أن الزهد يكون في ترك الثمين المترف من الثياب أو الامتناع عن تناول الطعام الشهي ؛ وكذلك أن الزهد في الدنيا يكون باليقين ، واليقين بالتفكير ، والتفكير بالاعتبار ، ويرى البعض أن الزهد يكون في الرضا عن اللّه تعالى . ويحدده البعض بأنه عدم اليأس على ما فاتنا من الدنيا ، وعدم الفرح بما آتانا اللّه فيها ؛ ثم يصنف الزهد إلى ثلاثة أنواع : زهد فرض وهو الزهد في الحرام ، وزهد فضل وهو الزهد في الحلال ، وزهد سلامة وهو الزهد في الشبهات . ويحاول بعد ذلك أن يزيد أفكاره وضوحًا من خلال تقديم المتضادات . فيقول : إن الزهد في الدنيا هو الزهد في لقاء الناس ويقابله حب الدنيا ، وهو حب لقاء الناس (ولعل الحديث عن الاقتراب من الناس والاختلاط بهم ، وهو أحد المظاهر التي نبحث عنها إذا ما أردنا قياس ما نسميه بالانبساط Extraversion ، والعزلة والابتعاد عن الناس هو أيضًا أحد المظاهر المهمة في تقييمنا للطرف المقابل للانبساط هو الانطواء Introversion (ص ٢٥) .

وموضوع الانبساط - الانطواء يمثل أحد الأبعاد الأساسية للشخصية Personality كما تدرس في علم النفس الحديث ، واستمرار في هذا الاتجاه يرى أن القناعة من الرضا ؛ بمنزلة الورع من الزهد (ومفهوم الرضا من المفاهيم التي تم توظيفها في علم النفس الحديث خاصة في علم النفس الصناعي Industrial Psychology ، تحت مسمى الرضا عن العمل Job Satisfaction . وكذلك في علم النفس العام تحت مسمى (إشباع الدوافع) (ص ٢٦) .

ثم يعود ابن الأعرابي ليصنف الزهد ، فيرى أنه على ثلاثة أوجه ؛ الأول منها أن تخلص العمل للّه ، وكذلك القول فلا يراد بشيء منه الدنيا . والثاني ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح . والثالث هو الزهد في الحلال ، وهو تطوع . وفي القول التاسع والعشرين عن معاني الزهد ، نلمح في ثنايا حديثه تطرقًا لموضوع صراع الدوافع Motives Conflict (ص ٣٠) . وهو من الموضوعات التي ترسخت في علم النفس

العام حيث يتحدث الباحثون عن ثلاثة أنواع من الصراع هي : صراع الإقدام – إقدام Approach - Approach ، وصراع الإقدام – إحجام Approach - Avoidance ، وصراع الإحجام – إحجام Avoidance - Avoidance . ومن المعاني التي يذكرها ابن الأعرابي للزهد ، والتي نقلها عن بعض المحدثين الآخرين أنه مكافئ للعلم . وهنا يبين قيمة العلم ؛ وأن من يهب نفسه للعلم ؛ يزهد فيما سواه من أمور . ثم يزيد على ذلك أنه مما يميز عمل الزاهد أيضًا ترك إعمال الفكر في شيء من الدنيا (ص ٣١) ، والفكر والتفكير من الموضوعات التي درست وتدرس إلى الآن في فروع شتى من فروع علم النفس سواء من حيث أنواع التفكير أو اضطرابه لدى بعض الفئات المرضية ، كما أن إعمال الفكر أو ما يسميه البعض « التفكير المتأمل » Meditation أحد أساليب خفض الاستثارة Lowering Arousal الناتجة عن تزايد المشقة Strees ، (وجوهر هذا الأسلوب هو إطلاق العنان للفكر ليتأمل ما حوله من آيات الخالق وبالتالي يتخلص جزئيًا من القلق الناتج عن المشكلة التي يعاني منها) .

وقبل أن يختم الأقوال في الزهد يذكر لنا أن بعض الزهاد جزَّأ الدنيا أربعة أجزاء : المال والنساء والنوم والطعام ، والنظرة الفاحصة تكتشف حديثًا مبكرًا عما يدرس الآن في علم النفس الحديث تحت مسمى الدوافع والدافعية Motives & Motivation وعلى وجه الخصوص الدوافع الأولية أو الفسيولوجية (أو البيولوجية) (ص ٣٦ – ٣٨) .

وبعد ذلك ينتقل بنا إلى الموضوع الثالث وهو درجات الزهد ، ويرى أن الزهد يمكن أن يكون في الرئاسة ، والمجالسة ، والمحادثة ، والمعاشرة ، وأول الزهد يكون في الحرام ، ثم الزهد في المباح ، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول ، والفضل كل ما للإنسان غنى عنه ، وكأن الإنسان ينبغي أن يزهد في كل شيء إلَّا ما أمره اللَّه به ، ويستثنى من ذلك الأمور التي إن تركها خشي عليه الخروج إلى غيرها مثل الغذاء والنوم واللباس والنساء . (وهي ما سبق أن أشرنا إلى أنه حديث عن الدوافع الأولية) (ص ٤٠) ، ويورد بعد ذلك بعض الاختلافات في الزهد في المباح ويستدل فيما يقول بكثير من الأقوال المأثورة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والآيات القرآنية ، ويستكمل حديثه في الموضوع الرابع والأخير تحت عنوان : « التقلل من الدنيا وأخذ الكفاف » عن الزهد في الدنيا ، فيحدد حاجات ابن آدم وهي مسكن ومطعم وكساء ، وذلك من خلال الأحاديث والآيات ، ويختتم كلامه بعدد من الوصايا القيمة ؛ كالصبر على المكاره ، وترك الشهوات ، والتحذير من النظرة ؛ لأنها مقدمة لزرع الشهوة ، وإثارة

الفتنة ، ويحذر من الركون للدنيا ، وكثرة الخطايا ، وكثرة الكلام في غير ذكر اللَّه ، ويوصي بالرحمة لأهل البلاء ، ويحذر كذلك من علماء السوء ، ويلوم من تركوا العلم واستهانوا به وداسوه بأقدامهم ، وهي كما نرى درر غالية ونصائح عظيمة .

* * *

ابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو حاتم محمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمي ، وأضاف له أبو عبد اللّٰه بن أحمد بن محمد البخاري في نسبه ، فقال ابن هدية بن مرة بن سعد ابن يزيد بن مرة بن يزيد بن عبد اللّٰه بن درام بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مرة بن أُدبن بن طابخة بن إلياس بن مضر .

وهو إمام علامة فاضل متقن ، كان مكثرًا من الحديث والرحلة ، والشيوخ ، عالمًا بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره ، ومن تأمل تصانيفه تأمل منصف علم أن الرجل كان بحرًا في العلوم .

سافر ما بين الشام والإسكندرية ، وأدرك الأئمة والعلماء ، والأسانيد العالية ، وأخذ فقه الحديث والفروض على معانيه عن إمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة ، ولازمه وتتلمذ له ، وصارت تصانيفه عدة لأصحاب الحديث ، غير أنها عزيزة الوجود سمع عن الفقهاء في ثلاث وأربعين مدينة تقريبًا بين مصر والعراق وبلاد الشام ، وروي عنه أنه كان من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث ، والوعظ ، ومن عقلاء الرجال ؛ صنف فخرج له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه ، وولي القضاء بسمرقند وغيرها من المدن ، وله عدد كبير من الكتب معظمها يتألف من عدة أجزاء ؛ ومنها : الصحابة ، وكتاب

---

(١) تصحيح وتحقيق محمد حامد الفقي . القاهرة : مكتبة السنة المحمدية (١٩٨٨م) . (٢٨٩ ص) .

التابعين ، وكتاب الفصل بين النقلة ، وكتاب العلل ، علل أوهام أصحاب التواريخ ، وكتاب وصف المعَدِّل والمعَدَّل ، وكتاب وصف العلوم وأنواعها وغيرها كثير ، وتوفي البستي ليلة الجمعة لثمان ليال بقين من شوال سنة (٣٥٤هـ) ، ودفن بعد صلاة الجمعة في الصُّفة التي ابتناها بمدينة بُست بقرب داره .

استمدت هذه الترجمة : مما ورد في بداية الكتاب الحالي .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٨٩ صفحة من القطع المتوسط ، بخلاف الفهرس ، ويضم ترجمة الإمام ابن حبان ، ومسند الكتاب ، ثم مقدمة ، وبعد ذلك بقية أجزاء الكتاب ، وهو مقسم إلى موضوعات تبدأ كلها بذكر الحث على ... ولا يلتزم فيها المؤلف بالتقسيم إلى فصول أو أبواب .

والموضوع الأول في هذا الكتاب عن ذكر الحث على لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب ، ويبدأه بتبرير عدم الاستناد إلى الأحاديث النبوية الشريفة في العقل نظرًا لضعف روايتها ، ثم يتحدث عن العقل فيذكر أن به يكون الحظ ، ويؤنس الغربة ، وينفي الفاقة ، ولا مال أفضل منه ، ولا يتم دين أحد حتى يتم عقله ، ويعرفه بأنه اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ ، وإذا كان المرء في أول درجته يسمي أديبًا ، ثم أريبًا ، ثُمَّ لبيبًا ثم عاقلًا ، ويقسم العقل إلى عقل مطبوع ومسموع ، ثم يبيِّن فوائد العقل ويرى أنه دواء القلوب ، ومطية المجتهدين ، وبذر حراثة الآخرة ، وتاج المؤمن في الدنيا ، وعدته في وقوع النوائب ، ومن عدم العقل لم يزده السلطان عزًّا ، ولا المال يرفعه قدرًا ، ويذكر بعض صفات العاقل بأنه قليل الكلام ، ولا يكثر المحاورة ، ولا يسارع بالجواب إلَّا عند التثبت ، كما أنه لا يستحقر أحدًا ، ولا يخفى عليه عيب نفسه . وهو يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رفده ومحضره ، ولعدوه عدله وبره ، وغير ذلك من الصفات التي وجب التحلي بها ، وموضوع العقل والقدرات العقلية Mental Abilities يمثل أحد أهم موضوعات علم النفس الحديث (ص ١٦ - ٢٦) .

ويواصل حديثه عن العاقل ويرى أن أحد لوازمه إصلاح السرائر وهي من تقوى الله .

ولأن موضوع الكتاب عن العقلاء ؛ فيبدأ في تفصيل بعض خصالهم ومحاسنهم ، فيحدثنا في الموضوع الثاني عن الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه ، ويذكر بعض أحاديث رسولنا الكريم ﷺ التي تحث على طلب العلم ، ومنزلة العلماء ، ثم يذكرنا بعد

ذلك ما ورد في فضل العلم والتعلم من الشعر ، وأقوال الحكماء ، وما يمكن أن نستشفه من هذا الجزء ، باعتبار صلته بعلم النفس الحديث ، هو موضوع التعلم Learning على أساس أنه الطريق الذي ينبغي أن نسلكه لكي نحصل العلم (وإن كان المقصود هنا التعلم بمعناه العام) (ص ٣٣ - ٤٠) .

ومن الخصال التي يفرد لها ابن حبان البستي جزءًا في حديثه ، لزوم الصمت وحفظ اللسان ، ويتبع في بيان ذلك نفس مسلكه ، فيذكر أحاديث الرسول ﷺ وقطوفًا من الشعر وأقوال الحكماء ، ويوضح فوائد الصمت بأنه يكسب المحبة والوقار ، وأن من يحفظ لسانه يريح نفسه ، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، والصمت منام العقل ، والمنطق يقظته ، ويحذرنا من اللسان ويحدد خصاله وهي عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ويضع كل خصلة منها في موضعها : فهو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وناطق يرد به الجواب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وشافع تدرك به الحاجات ، وواصف تعرف به الأشياء ، وحاصد تذهب الضغينة ، ونازع يجذب المودة ، ومُسلٍّ يذكي القلوب ، ومُعز ترد به الأحزان . ومن هذا الحديث نستنتج بشكل غير مباشر ما يمكن أن ينتمي لعلم النفس الحديث ، فهو يعلمنا آداب الحديث أو التخاطب Communication ويذكر بعض خصال الشخصية Personality كما أن حديثه عن أن اللسان هو أداة الكلام ينتمي لسيكولوجية اللغة Psycholinguistics (ص ٤١ - ٥١) .

ويستمر بعد ذلك في ذكر الخصال الطيبة والرديئة فيحث على لزوم الصدق ويحذر من الكذب ، بما للأول من فوائد ، وللثاني من مضار ، وهو من خصال الشخصية التي تحظى بعناية علماء النفس ، ومن الخصال الأخرى التي يمكن أن ينطبق عليها ما سلف من قول ما يوصينا به من لزوم الحياء وترك القحة ، ولزوم المداراة وترك المداهنة مع الناس ، وهو هنا يقدم لنا بعض المبادئ التي تصلح كأطر لقيام التفاعل الاجتماعي السليم Social Interaction وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي أو على وجه الخصوص ديناميات الجماعة Group Dynamics (ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٠) .

وفي نفس الاتجاه - وإن بدا مناقضًا لما سبق - يحثنا على الاعتزال من الناس بصفة عامة . وهذا التناقض الذي نلمحه إنما هو تناقض ظاهري ؛ لأن اجتناب الناس يكون اتقاء للشر ، والتقرب منهم ابتغاء الخير ، وبناءً على ذلك يحدثنا في الموضع التالي مباشرة عن استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاصة ، فالإخوان هم عدة الفرد على النوائب ، وسلواه عن

الهموم والغموم ، وكأنه هنا يرشدنا إلى كيفية اختيار أصدقائنا . والحديث عن الصداقة Friendship والأصدقاء (الإخوان) يدخل تحت موضوع المهارات الاجتماعية Social Skills أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٨١ - ٩٣ ، ٩٩ - ١٠٣) .

ولعل ما قدمناه من قول يصدق عندما نجده يعول مرة أخرى ليحذر من معاداة الناس وعدم كراهيتهم . كما يعود مرة أخرى ليذكر كراهية التلون في الوداد بين المتآخين ، ويحدد شروط الصداقة والتآخي وواجباتهما وأهمها التطابق بين السر والعلن ، ويحذر من مصادقة المتلون ، أو مؤاخاة المتقلب ، وهذا الحديث امتداد للحديث في موضوع الصداقة الذي سبق ذكره (ص ١٠٣ - ١٠٧) . كما يشير أيضًا إلى أسباب الائتلاف والاختلاف ، وعلى كل فرد أن يختار أصدقاءه من بين الذين يجد بينه وبينهم تآلف وارتياح ، ثم يحثنا على زيارة الإخوان وإكرامهم باعتبارها من شيم الصالحين (ص ١١٤ - ١١٧) ، ويرتبط هذا الجزء بمفهومي الكراهية والعدوان وبمفهومي المحبة والصداقة .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن صفات الأحمق والجاهل ، وما نجنيه من مجاورته . ولذا فهو يحثنا على ترك صحبة الأحمق ، ولزوم صحبة العاقل ، وعشرة الفطين اللبيب ، ويحدد صفات الحمق وعلاماته بأنها سرعة الجواب ، وترك التثبت ، والإفراط في الضحك ، وكثرة الالتفات ، والوقيعة في الأخيار ، والاختلاط بالأشرار . وهذا الحديث يمكن أن ينتمي لعلم النفس الحديث من زاويتين : الأولى يدخل في باب العقل والقدرات العقلية كما سلفت الإشارة ، والثانية في كيفية اختيار الأصدقاء وهي تنتمي لموضوع الصداقة أيضًا (ص ١١٨ - ١٢٤) .

ويقدم لنا بعد ذلك عددًا من النواهي ، فيحذرنا من التجسس وسوء الظن ، ويحث على مجانبة الحرص للعاقل (وهو الحرص على الدنيا ؛ لأن الحرص والحيطة من الخصال الطيبة اللازمة والتي يجب التحلي بها) ، كما ينهانا عن التحاسد والبغضاء لآثارهما السيئة ولأنهما من الأخلاق المذمومة . ونحن نرى أنها من الاضطرابات النفسية ، أو هي على الأقل من مقدمات الأمراض النفسية ؛ ولذا وجب التخلص منها لنحيا حياة هادئة وصحية (ص ١٣٢) .

وفي نفس الإطار يحدثنا عن مجانبة الغضب وكراهية العجلة ؛ لأنهما من أعمال الشيطان .

والحديث عن الغضب يدخل في باب الانفعالات Emotions وهي من موضوعات علم النفس العام ، كما أن العجلة يمكن أن تماثل بشكل غير مباشر مفهوم الاندفاعية Impulsivity ، والذي يدرس كسمة من سمات الشخصية ، أو كمقابل لقطب التروي Reflectivity كخاصية للأسلوب المعرفي Cognitive Style (ص ١٣٨ - ١٤١) .

ومن الفضائل التي يعتبرها من شيم العقلاء ويحثنا عليها لزوم القناعة والرضا بما قسمه اللَّه لعباده (ومفهوم القناعة يمكن أن يقابل مفهوم الرضا Satisfaction سواء الرضا عن العمل ، أو الرزق أو الصحة ، ويعتبر مفهوم الرضا من أسس الصحة النفسية Mental Health ص ١٤٨ - ١٥٣) . كما يحثنا أيضًا على التوكل على من ضمن الأرزاق ، فالتوكل هو نظام الإيمان ، وقرين التوحيد ، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة .

ومن علامات التوكل على اللَّه والإيمان به الرضا بالشدائد والصبر عليها ، فما قدَّره اللَّه كائن ولن يفيد في دفعه الجزع . ولعل أقرب مفهوم لمعنى الصبر هو مفهوم الرضا ومفهوم الاحتمال (أو التحمل) .

كما أن مفهوم الرضا بالشدائد ينتمي إلى ما يعني به بعض علماء النفس الحديث ويطلقون عليه مثيرات المشقة Stressors كأحداث الحياة Life Events وغيرها ، وهي مما يصيب قدرة الفرد على التوافق Adjustment أو التكيف Adaptation (ص١٥٧ - ١٦٥) .

ومن الخصال التي يتعرض لها أيضًا العفو عن الجاني ، وهو خصلة طيبة ، ومن أفضل أخلاق الدين والدنيا ، وحث عليه اللَّه ﷻ في كتابه الكريم ، فقال : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ صدق اللَّه العظيم [آل عمران : ١٣٤] وهو أقرب ما يكون إلى ضبط النفس Self-Control أحد خصال أو سمات الشخصية التي تنتظم في إطار بُعد الاتزان الوجداني Emotional Stability وهو من أبعاد الشخصية الرئيسية (ص ١٦٦- ١٧٦) . ويضيف لهذه الخصلة خصالًا أخرى كتجنب الوشاة ، وقبول الاعتذار وهي من صور العفو أو ضبط النفس (ص ١٨٢) .

ويوجه ابن حبان الحديث وجهة أخرى فيتحدث عن لزوم النصيحة للمسلمين كافة وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل معًا . والنصيحة هنا يمكن أن تدخل في الإرشاد النفسي Counseling وهو من فروع علم النفس الحديث (ص ١٩٤ - ١٩٨) .

ويعود مرة أخرى لموضوع ضبط النفس فيحثنا على لزوم الحلم عند الأذى ، فالحلم

عظيم الشأن ، رفيع المكان ، محمود الأمر ، مرضي بالفعل ؛ والحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت (ص ٢٠٨ - ٢١٥) ، كما يوصينا أيضًا بالرفق في بعض الأمور وكراهية العجلة منها (أي التروي : وهو من الموضوعات التي تدرس في علم النفس الحديث كما سبق أن أشرنا / ص ٢١٥ - ٢١٨) .

ومن الوصايا التي يقدمها ، ونجد لها مقابلًا في دراسات علم النفس الحديث ، استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج ، وهو يقارب سلوك المساعدة Helping Behavior أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٢٤٦- ٢٥٢) .

ومن الموضوعات التي تطرق لها أيضًا الحث على سياسة الرياسة ، ورعاية الرعية . ويستدل على ذلك بحديث الرسول الكريم ﷺ : « **كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** » ، وهو هنا يحدِّد العلاقة بين البشر سواء كانوا رؤساء ومرؤوسين ، علماء ومتعلمين ، آباء وأبناء ، ويركز على تعاهد الرعية للملوك ، ويحدد علاقتهم بهم ، ويحدِّد تدرج السلطة أيضًا . والحديث المستفيض الذي يقدمه هنا ينتمي لعلم النفس الحديث من الزاويتين ، الأولى ما يمكن أن يدخل في إطار موضوع القيادة Leadership ، وبناء الجماعات وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي وديناميات الجماعة ، والزاوية الثانية هي موضوع التنشئة الاجتماعية Socialization وكيف يمكن الاستفادة من هذه العلاقة في تربية النشء وحُسن سياسته وتوجيهه .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس المعرفي Cognitive Psychology وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الآجري (ت ٣٦٠هـ)
أخلاق أهل القرآن [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الحافظ المحدِّث الفقيه أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد اللَّه الآجري ، و « آجري » في الأصل اسم منسوب للآجرة وهو ما يُسمى الآن بالطوب وهو نسبة إلى بلدة في العراق ، وقد ولِد الإمام الآجري في هذه القرية « الآجرة » ولم تشر المصادر التي ترجمت له إلى السنة التي ولِد فيها .

وقد بدأت دراسته في بغداد عند كبار مشايخها وحدَّث بها أولًا قبل ثلاثين وثلاثمائة ، ثم انتقل منها إلى مكة فاستوطنها ، وذكر ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ، (والمنتظم) ، وابن العماد في (الشذرات) ، وابن خلِّكان في (وفيات الأعيان) ، والسبكي في (طبقات الشافعية) ، وأن الإمام الآجري لما دخل مكة أعجبته ، فقال : اللَّهم ارزقني الإقامة سنة ، فهتف بها هاتف : بل ثلاثين سنة ، فعاش بها ثلاثين سنة .

ومن شيوخه : أبو مسلم الكجي أو الكشي إبراهيم بن عبد اللَّه (ت ٢٩٢هـ) ، وأحمد بن عمر بن موسى بن زنجويه أبو العباس القطان (ت ٣٠٤هـ) ، وأبو شعيب الحداني وخلف بن عمرو العكبري ، وأبو خليفة الفضل بن حباب ، والمفضل بن حباب الجندي أبو سعيد الحافظ (ت ٣٠٨هـ) ، وهارون بن يوسف بن زياد ، وأحمد بن حسين ابن عبد الجبار الصوفي ، وقاسم بن زكريا المطرز البغدادي (ت٣٠٥هـ) ... إلخ .

---

(١) تحقيق وإخراج محمد عمرو بن عبد اللطيف . (ط ٢) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) . (٢٠٧ ص) ، ٢٤ سم بيلوجرافية (ص ١٧٥ - ٢٠٧) .

ومن تلاميذه : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ الأصبهاني (صاحب الحلية) ، (ت ٤٠٤هـ) ، ومحمد بن الحسين بن المفضل القطان وأبو الحسن الحمامي ، وعبد الرحمن ابن عمر بن النحاس ، وعلي بن أحمد المقرئ ، ومحمد بن عمر العكبري ، وأبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران .

وقد أجمع المحدثون والمؤرخون على توثيق الإمام الآجري وشهد له غير واحد من أهل العلم بالفضل والسبق في خدمة الإسلام . وقال « السمعاني » في « الأنساب » : كان الآجري ثقة صدوقًا دينًا ، وله تصانيف كثيرة ، وترجم له الإمام ابن الجوزي في « المنتظم » و « صفة الصفوة » ، فقال : كان الآجري ثقة ، دينًا ، عالمًا مصنفًا . وترجم له الإمام الذهبي في كتبه الثلاثة « تذكرة الحفاظ » ، و « العبر في خبر من غبر » ، و « العلو للعلي الغفار » ، فقال في « التذكرة والعبر » : الإمام المحدث القدوة ، مصنف كتاب الشريعة والأربعين ، وغير ذلك إلى أن قال : وكان عالمًا عاملًا ، صاحب سنة واتباع ، وقال في « العلو » : كان الآجري أثريًا حسن التصانيف .

أما بخصوص مذهب الإمام الآجري فقد اختلف المؤرخون فيه ، فقال ابن خلِّكان في وفيات الأعيان : إنه كان شافعي المذهب ، وذهب النابلسي في مختصر طبقات الحنابلة بأن الإمام الآجري كان حنبلي المذهب .

ومن مؤلفاته : « الأربعين في الحديث » ، و « أخبار عمر بن عبد العزيز » ، و « أخلاق حملة القرآن » ، و « أحكام النساء » ، و « أخلاق العلماء » ، و « التصديق بالنظر إلى الله ﷻ وما أعد لأوليائه » ، و « الشريعة » ، و « الغرباء في المؤمنين » ، و « أدب النفوس » .

اتفق المؤرخون على وفاة الإمام الآجري في سنة ستين وثلاثمائة (٣٦٠هـ) بمكة المكرمة . وكان قد بلغ من العمر ٩٦ سنة أو نحوها .

عرض الكتاب :

بدأ المؤلف كتابه ببيان أهمية قراءة القرآن والاستماع إليه في الوعظ والإرشاد وإلى طريق الهدى والخير والاستقامة ، وذلك من خلال الاستعانة ببعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

ويمكن الاستفادة من ذلك في عمليات التوجيه والإرشاد النفسي (ص٣١ - ٤٣) .

ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن فضل حملة القرآن ليرغبوا في تلاوته والعمل به والتواضع لمن تعلموا منه أو تعلموه ، ثم تحدث عن أخلاق أهل القرآن وما ينبغي أن يتأدبوا به . وذلك على النحو الآتي :

١ - **باب فضل حملة القرآن** : وقد أوضح المؤلف ذلك من خلال ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة ؛ حيث قال رسول الله ﷺ : « **لله من الناس أهلون** » ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « **أهل القرآن هم أهل الله وخاصته** » . وقال رسول الله ﷺ : « **تعلموا هذا القرآن واتلوه فإنكم تؤجرون على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما أني لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف** » ، إن هذا النور المبين ، والشفاء النافع ، ونجاة من اتبعه ، وعصمة من تمسك به لايعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد (ص ٤٥ - ٥٧) .

وهذا ما يمكن الاستفادة منه في توجيه الآباء والقائمين على تربية الطفل وتنشئته اجتماعيًا ونفسيًا ، وبيان أهمية تعليم القرآن للأطفال منذ المراحل المبكرة من العمر .

٢ - **باب فضل من تعلم القرآن وعلمه** : حيث قال رسول الله ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » . وتعلم القرآن يدخل فيه حفظه وتجويده وإقامة حروفه وإعرابها ويدخل فيه كذلك مدارسته وتفهم معانيه وتدبر آياته ومعرفة المقاصد الأساسية التي نزل من أجلها ومعرفة أحكامه وحلاله وحرامه (ص ٦١ - ٦٨) .

٣ - **باب فضل الاجتماع في المسجد لدرس القرآن** : قال رسول الله ﷺ : « **ما تجالس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلّا حفت بهم الملائكة - وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » .

كما قال رسول الله ﷺ : « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله** ﷻ**يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** » .

ويشير ذلك إلى الحالة الانفعالية والنفسية المصاحبة لقراءة القرآن وتلاوته ؛ حيث الهدوء والسكينة ، وهو ما يمكن الاستفادة منه في علاج حالات القلق النفسي .

٤ - **باب ذكر أخلاق أهل القرآن** : فينبغي على من ختم القرآن وحفظه أن يجعل القرآن ربيعًا لقلبه ، يعمر به ما خرب من قلبه ، يتأدب بآداب القرآن ، ويتخلق بأخلاق

شريفة ، وأن يستعمل تقوى الله في السر والعلانية باستعمال الورع في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه ، بصيرًا بزمانه وفساد أهله ، فهو يحذرهم على دينه ، مقبلًا على شأنه مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره ، حافظًا للسانه مميزًا لكلامه ، إن تكلم : تكلم بعلم إذا رأى الكلام صوابًا ، وإذا سكت : سكت بعلم إذا كان السكوت صوابًا ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، يخاف من لسانه أشد مما يخاف من عدوه ، قليل الضحك إن مر بشيء مما يوافق الحق تَبسم ، يكره المزاح خوفًا من اللعب ، طيب الكلام ، لا يمدح نفسه بما فيه ، لا يغتاب أحدًا ، ولا يحتقر أحدًا ، ولا يسب أحدًا ، ولا يشمت بمعصية ، ولا يسيء الظن بأحد إلَّا لمن يستحق ، حافظًا لجميع جوارحه ، يجتهد ليسلم الناس من لسانه ويده ، يكظم غيظه ليرضي ربه ، متواضع في نفسه ، يطلب الرفعة من الله ، يقتنع بالقليل . يصحب المؤمنين بعلم ويجالسهم بعلم ، صبور على تعليم الخير ، يأنس به المتعلم ويفرح به المجالس ، ويصلي بعلم ، ويتصدق بعلم ، ويحج بعلم ، ويجاهد بعلم ، ويكتسب بعلم ، وينفق وينبسط في الأمور بعلم ، وينقبض عنها بعلم ، قد أدبه القرآن والسنة .

وقال رسول الله ﷺ : « **من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والديه تاجًا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ولو كانت فيه فما ظنكم بالذي علم بهذا** » .

ويرتبط هذا الباب بالقيم الأخلاقية Moral Values التي يجب أن يتحلى بها الإنسان بوجه عام وحافظ القرآن بوجه خاص (ص ٧٧ - ٨٦) .

كما يمكن الاستفادة منه في مجال التخاطب Communication وتغيير الاتجاهات Attitude Change ، حيث الإشارة إلى الرفق مع المتلقي (المستقبل) ، فلا يعنف المرسِل المستقبِل إذا أخطأ ولا يخجله ، وأن يصبر عليه ، وأن يَأنَس به المتعلم أو المتلقي ... إلخ (ص ٧٩) .

٥ - باب أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله ﷻ : فأما من قرأ القرآن للدنيا أو لأبناء الدنيا ؛ فإن من أخلاقه أن يكون حافظًا لحروف القرآن مضيعًا لحدوده متعظمًا في نفسه متكبرًا على غيره قد اتخذ القرآن بضاعة يتأكل به الأغنياء ويستقضي به الحوائج ويعظم أبناء الدنيا ويحقر الفقراء إن علّم الغني رفق به طمعًا في دنياه ، وإن علم الفقير زجره وعنَّفه ؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها ، إن كان حسن الصوت أحب أن يقرأ للملوك ويصلي بهم طمعًا في دنياهم وإن سأله الفقراء الصلاة بهم ثقل ذلك عليه لقلة الدنيا في أيديهم . يفخر على الناس بالقرآن ، متكبرًا كثير الكلام ، متعاظمًا في تعليمه لغيره ،

ليس للخشوع في قلبه موضع ، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه ، لا يخشع عند استماع القرآن لا يبكي ولا يحزن ولا يأخذ نفسه بالفكر فيما يتلى عليه ، لا يأخذ نفسه بالعمل بما أوجب عليه القرآن والسنة ... إلخ .

ومن كانت هذه صفاته فقد تعرض لسخط مولاه الكريم ، وصار فتنة لكل مفتون ، وقد قال الفضيل بن عياض في ذلك : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له حاجة إلى أحد من الخلق ، فحامل القرآن هو حامل راية الإسلام لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلهو مع من يلهو .

٦ - باب أخلاق المقرئ إذا جلس يقرأ ويُلقن لله ﷻ ماذا ينبغي (له) أن يتخلق به :

قال محمد بن الحسين : ينبغي لمن علمه الله كتابه أن يستعمل الأخلاق الشريفة مما يدل على فضله وصدقه ، وهو أن يتواضع في نفسه إذا جلس في مجلسه ، ولا يتعاظم في نفسه وأحب له أن يستقبل القبلة في مجلسه ، ويتواضع لمن يلقنه القرآن ويقبل عليه إقبالًا جميلًا ، وأن يعتقد الإنصاف إن كان يريد الله بتلقينه القرآن فلا ينبغي له أن يُقرب الغني ويُبعد الفقير ، أن يكون متواضعًا للفقير مقربًا لمجلسه متعطفًا عليه يتحبب إلى الله بذلك .

وقد استعان المؤلف في هذا بقوله ﷻ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : ١٨] ، أن يكون الغني والفقير في العلم سواء .

وأحب لمن يلقن إذا قرئ عليه أن يحسن الاستماع إلى من يقرأ عليه ولا يشتغل عنه بحديث ولا غيره ، فالأحرى أن ينتفع به من يقرأ عليه ، وكذلك ينتفع هو أيضًا ويتدبر ، يسمع من غيره ، وربما كان سماعه للقرآن من غيره فيه زيادة منفعة وأجر عظيم ، قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

ولعل ذلك يمكن الاستفادة منه في مجال عمليات التخاطب والاتصال بين الأشخاص (ص ١١١ - ١١٨) .

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى أنه في حالة قراءة القرآن ينبغي أن تقتصر الجلسة على شخص واحد فقط ، فهذا أنفع للجميع ، وأما التلقين فلا بأس به أن يلقن الجماعة . وينبغي لمن قرأ عليه القرآن فأخطأ عليه أو غلط أن لا يعنفه ، وأن يرفق به ، قال رسول الله ﷺ : « **علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف** » ، كما قال رسول الله ﷺ : « **يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا** » .

ويرتبط ذلك بشكل مباشر بطرق التعليم والتدريس في عمليات التربية والتعليم ، والتفاعل بين المعلم وتلاميذه .

٧ - باب ذكر أخلاق من يقرأ على المقرئ : قال محمد بن الحسين : من كان يقرأ على غيره ويتلقن فينبغي له أن يحسن الأدب في جلوسه بين يديه ويتواضع في جلوسه ، ويكون مقبلًا عليه فإن ضجر عليه احتمله ورفق به واعتقد له الهيبة والاستحياء منه ، فهناك ضرورة وأهمية لطاعة العلماء وسماع نصيحتهم .

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : « **اللَّهم لا يدركني زمان ولا أدركه لا يتبع فيه العالم ولا يستحيا فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم ألسنتهم ألسنة العرب** » .

ويرتبط هذا الباب بخصائص موقف التخاطب أو الاتصال بين المرسل والمستقبل والشروط التي يجب توافرها لنجاح التخاطب وإتمامه بدقة وكفاءة ، وخاصة بين المعلم وتلاميذه (ص ١٣٥ - ١٤٤) .

٨ - باب آداب القراء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله : قال محمد بن الحسين : أحب لمن أراد قراءة القرآن أن يتطهر وأن يستاك ذلك تعظيمًا للقرآن ، لأن يتلو كلام الرب ﷻ ؛ وذلك لأن الملائكة تدنو منه عند تلاوته للقرآن ويدنو منه الملك فإن كان متسوكًا وضع فاه على فيه فكلما قرأ آية أخذها الملك بفيه وإن لم يكن تسوك تباعد عنه .

ويفضل القراءة من المصحف ، ولا ينبغي للشخص قارئ القرآن أن يحمل المصحف إلَّا وهو طاهر ، ولا يقرأ الجنب ولا الحائض القرآن ولا آية ولا حرفًا واحدًا فإن سبح أو حمد أو كبر فلا بأس بذلك ، وأحب للقارئ أن يأخذ نفسه بسجود القرآن كلما مرَّ بسجدة سجد فيها .

وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا تسوك أحدكم ثم قام يقرأ طاف به الملك يستمع القرآن حتى يجعل فاه على فيه فلا تخرج آية من فيه إلَّا في في الملك ، وإذا قام يقرأ ولم يتسوك ، طاف به الملك ، ولم يجعل فاه على فيه** » .

ثم تناول المؤلف بعد ذلك طريقة قراءة القرآن من خلال ذكر حديث رسول اللَّه ﷺ : « **زيِّنوا القرآن بأصواتكم** » ، أي حسنوه ، وقال رسول اللَّه ﷺ في هذا : « **أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ حسبته يخشى اللَّه** » .

كما قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم**

تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منَّا » .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن عدي (ت ٣٦٤هـ)
تهذيب الأخلاق [(١)]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [(٢)] :

اسمه أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا ، ولد في تكريت سنة (٢٨٠هـ . ٨٩٤م ويحدد المحقق مولده بسنة ٨٩٣م) ، وهو سرياني ينتمي إلى طائفة اليعاقبة . انتقل إلى بغداد وهو في عمر الشباب وقرأ على الفارابي وانتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره ، وترجم عن السريانية كثيرًا إلى العربية ، وتوفي ببغداد سنة (٣٦٤هـ = ٩٧٥م) ودفن في بيعة القطيعة . وكان ملازمًا لنسخ الكتب بيده ، كتب نسختين من تفسير الطبري ، وأهداهما إلى بعض الملوك ، ونسخ كثيرًا من كتب المتكلمين ، وقال عنه أبو حيان : كان شيخًا لين العريكة ، فروقه ، مشوه الترجمة ، رديء العبارة ، ولم يكن يلوذ بالإلهيات ، كان ينبهر فيها ويضل في بساطها ، من كتبه : « شرح مقالة الإسكندر في الفرق بين الجنس والمادة » ، « ومقالة في الموجودات » ، « ومقالة أرسطو في علم ما بعد الطبيعة » ، « والرد على ما تعتقده الفرق الثلاث : اليعقوبية ، والنسطورية ، والملكية » ، « والمسائل » ، « ومقالة في أن حرارة النار ليست جوهرًا للنار » ، « ورسالة في الرد على القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ » ، « ورسالة في تحليل القياسات » ، « ورسالة فيما تحقق من اعتقاد الحكماء » . ومما ترجم عن السيريانية إلى العربية « النواميس

---

(١) بيروت : دار المشرق (١٩٨٥م) . (١٣٤ ص) . (الفلاسفة والمتكلمون العرب المسيحيون – العصر الوسيط) . يشتمل على كشاف .

(٢) الأعلام : للزركلي ، مجلد ٨ ، دار العلم للملايين بيروت .

لأفلاطون » ، « وما بعد الطبيعة » ، « والكلام على الشعر » . وله تفسير الألف الصغرى فيما بعد الطبيعيات ، نفى القول بأن الأفعال لله والاكتساب للعبد .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٤ صفحة من القطع الصغير ، ويشتمل على تمهيد ، ثم الفصل الأول وهو تقديم يحيى بن عدي وكتابه في تهذيب الأخلاق ، والفصل الثاني في جدلية قوى النفس ، ومشكلة الشر بقلم المحقق ، ثم المراجع التي استخدمها في هذا البحث ، وبعد ذلك نص كتاب تهذيب الأخلاق ويشتمل على مقدمة وخاتمة وثماني نقط أخرى ، وأخيرًا فهرس المفردات .

يقدم هذا الكتاب في جملته دروسًا ونصائح قيمة ، جامعة شاملة ؛ وإذا نظرنا له من وجهة نظر علم النفس نجد أن مضمونه يخدم محاور ثلاثة هي : التنشئة الاجتماعية وأصولها Socialization ، والتربية Education ، وسمات الشخصية Personality Traits سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر ، وتوجد - بالطبع - موضوعات فرعية يمكن استنتاجها في ثنايا الحديث ، ولم يلتزم المؤلف بتقسيم كتابه إلى أبواب أو فصول ؛ وإنما هي مجموعة من العناوين سنعرض لها حسب ترتيبها في الكتاب لنستخلص منها ما له صلة بعلم النفس .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة ، يشير فيها إلى أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالتميز والتفكير ومن تمام الإنسان وكماله أن يكون جامعًا لمكارم الأخلاق ومحاسنها ، ومنتزهًا عن مساوئها ومقابحها آخذًا في جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلًا في كل أفعاله عن طريق الرذائل . ولذا وجب على الإنسان أن يجعل مقصده اكتساب كل شيمة سليمة ، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة ، ويقدم المؤلف في الكتاب حديثًا يبيِّن فيه ما الخلق وما علته وكم أنواعه ، وأقسامه ، وما المرضي منه ، المغبوط صاحبه ، والمتخلق به ، وما المستثنى منه ، الممقوت فاعله ، والمتوسم به ، وذلك ليدل على طرق اكتساب المحمود منه والتدرب عليه (وفي هذا الاستهلال يذكر المؤلف عددًا من المفاهيم التي يشيع استخدامها في علم النفس الحديث ؛ وأولها التفكير وقد درس بأشكال مختلفة ، ثم التمييز Discrimination وهو أحد مبادئ نظريات التشريط Conditioning في مجال التعلم ، ثم الاكتساب Acquisition عندما تفرق بين المهارات والعادات وأنماط السلوك وما إذا كانت فطرية أم مكتسبة (خاصة ما دار من

جدل حول اكتساب اللغة) ويضيف لكل ذلك التدريب (أو قل التدريب) وهو أحد المبادئ الأساسية من مبادئ التعلم أيضًا ، (ص ٤٥ - ٤٦) .

١ - تعريف الأخلاق : وهذا هو الجزء التالي حسب ترتيب المؤلف ، وفيه يعرف الخُلق بأنه حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا ، وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة المذمومة كالبخل والجبن ، والتشرر ، وهذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم ، ولكن الناس يتفاضلون في ذلك (وفي هذه الفقرة أيضًا عدد من المفاهيم التي يمكن اعتبارها مفاهيم سيكولوجية وإن كان بعضها قد اندثر كالغريزة وحل محله مفاهيم أخرى كالدافع Motive ، بالإضافة إلى عدد من خصال الشخصية الجيدة والرديئة ، وكذلك يقدم مفهومًا استُخدم في نظريات التعلم هو مفهوم العادة Habit خاصة نظرية كلارك هل Hull ، ويقرر أيضًا مبدأ مهمًا من المبادئ المعروفة في تراث علم النفس هو مبدأ الفروق الفردية Individual Differences (ص ٤٧) ومن الناس من إذا نُبه إلى عيوبه ونقائصه عدل عنها ، ومنهم من إذا رغب في ذلك تعذر عليه ، ولم يطاوعه طبعه ، وهذه الطائفة تحتاج إلى أن ترشد إلى طريق التدريب ، والتعمل للعادات المحمودة ، وهناك طائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلّا بالقهر والتخويف والعقوبة إن لم يردعها الترهيب (وهنا أيضًا مفاهيم سبقت الإشارة إليها كالتدريب والعادة ، وأخرى جديدة كفكرة الإرشاد ، ومن المعروف أن الإرشاد النفسي Counselling أحد فروع علم النفس الحديث ، كما أن أسلوب التخويف أحد الأساليب التي تستخدم في دراسات تغيير الاتجاه من خلال التخاطب الجماهيري كما في دراسات تغيير الاتجاه نحو تعاطي المخدرات ، علاوة على أن العقوبة أو مبدأ العقاب والثواب من المبادئ التي وظفت في ميدان تجارب التعلم Learning ولها تطبيقات عديدة في الحياة ص ٤٨) .

٢ - العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق : العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق هي النفس ، وللنفس ثلاث قوى (وتسمى أيضًا نفوسنا) وهي : النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس الناطقة ، وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى . والنفس الشهوانية تكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ؛ كالمأكل والمشرب والمباضعة . (وهذا يقابل في علم النفس الحديث الدوافع البيولوجية أو الأولية ص ٤٩ ، ٥٠) . أما النفس الغضبية فيشترك فيها الإنسان وسائر الحيوان وهي التي يكون بها الغضب والجرأة ومحبة الغلبة وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها (وهذا يقابل بعض الانفعالات

في دراسات علم النفس العام ص ٥١ ، ٥٢) . أما النفس الناطقة فهي التي يتميز بها الإنسان عن جميع الحيوانات وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم ، وهي التي عظم بها شرف الإنسان ، وعظمت همته فأعجب بنفسه ، وهي التي بها يستحسن المحاسن ويستقبح المقابح ، وبها يمكن للإنسان أن يهذب النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ويضبطها (والنفس الناطقة والتي يمكن أن تقابل الجانب العقلي في مكوناته ؛ كالتفكير ، والتذكر ، والتمييز ، والفهم ، وهي جوانب محل الدراسة والاهتمام من علماء النفس بالإضافة إلى أن الفهم يدرس أيضًا في إطار سيكولوجية اللغة ص ٥٢ - ٥٤) .

٣ - **الأخلاق الحسنة** : ومن الأخلاق الحسنة التي وجب اتصاف جميع الناس بها العفة : وهي ضبط النفس عن الشهوات (وضبط النفس أحد سمات الشخصية الدالة على بُعد الاتزان الوجداني Emotional Stability ص ٥٤) ومنها القناعة وهي الاقتصار على ما سنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش (والرضا من المفاهيم التي تم توظيفها في علم النفس الصناعي في مجال الرضا عن العمل ص ٥٥) ، ومنها التصون وهو التحفظ من التبذل ، ومنها الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك (وهو يقابل سمة ضبط النفس التي سبقت الإشارة إليها ص ٥٥) . ومنها كذلك الوقار وهو الإمساك عن فضول الكلام ، والعبث ، وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغنى عن التحرك فيه (وهنا يُرسي أسس إدارة التخاطب بشقيه اللفظي Verbal وغير اللفظي Non - Verbal وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي ص٥٦) . ومنها الود وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة (وهو من أشكال الانفعالات موضوع عناية علم النفس العام) ، ومنها أيضًا الرحمة وهو خلق مركب من الود والجزع وهي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رحم (ص ٥٦) ، ومنها الوفاء وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويرهن به لسانه (ص ٥٦) ، ومنها أداء الأمانة وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال غيره (ص ٥٧) ، ومنها كتمان السر وهو خلق مركب من الوقار وأداء الأمانة ، ومنها التواضع وهو ترك الرياسة ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعظيم ، والزيادة في الإكرام (ص ٥٧) ، ومنها البِشر وهو إظهار السرور لمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأولاده وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء (وهذه المعاني تشير إلى موضوعين من موضوعات علم النفس هما الانفعالات ، والمهارات الاجتماعية خاصة في مجال الصداقة ص ٥٧) . ومن الأخلاق الحسنة أيضًا صدق اللهجة وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به

(والصدق فضلاً عن أنه من السمات التي يمكن أن تدرس في نطاق سمات الشخصية ، يمكن أن يدرس كقيمة Value في مجال القيم وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology ص ٥٨) . ومنها أيضًا سلامة النية أي اعتقاد الخير بجميع الناس ، والبُعد عن الخبث والغيلة والمكر والخديعة (ص ٥٨) ، ومنها السخاء وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق ، (ص ٥٨) ، ومنها الشجاعة وهي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك وثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت (ص ٥٨) ، ومنها المنافسة (وهي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه له ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلى من درجته) ، وهذا الكلام عن المنافسة Competition أو التنافس وجد عناية من الباحثين في علم النفس الاجتماعي المهتمين بالسلوك الجماعي ، أو جماعات العمل معًا وأثرها على الفرد ، وهذا الكلام يشبه - ضمنيًا على الأقل - ما قدمه علماء النفس تحت عنوان مستوى الطموح Level of Aspiration (ص ٥٩) . ومنها الصبر عند الشدائد وهو خلق مركب من الوقار والشجاعة ، ومنها أيضًا عظم الهمة وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور وطلب المراتب السامية (ص ٥٩) . وآخر هذه الأخلاق الحسنة ، العدل وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير (ص ٦٠) .

٤ - **الأخلاق الرديئة** : وهي ما ينبغي للفرد أن يجتنبه ومنها الفجور وهو الانهماك في الشهوات والاستكثار منها والتوفر على اللذات والإدمان عليها (وهو هنا يحدثنا عن الإسراف في إشباع الدوافع للحد الذي يصبح إدمانًا ، وإشباع الدوافع من موضوعات علم النفس العام ص ٦٠) ، ومنها الشره وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه ، ومنها أيضًا التبذل وهو طرح الحشمة ، وترك التحفظ والإكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف ، ومنها السفه وهو ضد الحلم ويعني سرعة الغضب ، والطيش من يسير الأمور، والمبادرة في البطش والإيقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة (وهو هنا يعني عدم القدرة على ضبط النفس ، وعدم المقدرة على السيطرة على الانفعالات وهي تعكس حالة عدم اتزان وجداني أو شكل من أشكال العصابية وهو ما درس في إطار نظريات الشخصية ص ٦٠) . ومن الأخلاق الرديئة الْخَرَق وهو كثرة الكلام ، والتحرك من غير حاجة ، وشدة الضحك ، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف ، وسرعة الجواب (وهذه الأوصاف يمكن النظر إليها سيكولوجيًا على أنها تعكس المبالغة في الانبساط ، وهو أحد أبعاد الشخصية التي حظيت

بالدراسة ، أو الاندفاعية وهي أيضًا إحدى سمات الشخصية ، أو أنه يعكس حالة مرضية أقرب ما تكون إلى المرض العقلي المعروف بالهوس Mania ص ٦١) . والعشق أيضًا من الأخلاق الرديئة ويعني إفراط الحب والسرف فيه ، (والعشق يقع في إطار دراسة الانفعالات ص ٦١) . ومنها القساوة وهو خلق مركب من البغض والشجاعة ، ويعني التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى ، ومنها الخيانة وهي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم ، ومنها إفشاء السر وهو مركب من الخرق والخيانة ويعني عدم ضبط اللسان ، وعدم اتساع الصدر لحفظ الأسرار ، ومنها الكبر وهو استعظام الإنسان نفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم (ص ٦٢) . ومنها العبوس وهو التقطيب عند اللقاء ، وقلة التبسم ، وإظهار الكراهية (وهو ما يكشف عن الانفعالات البغيضة الكامنة بالنفس ص ٦٢) ، ومنها الكذب وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به (وهو عكس الصدق الذي سبق الإشارة إليه ص ٦٣) . ومنها الخبث وهو إضمار الشر للغير وإظهار الخير له ، واستعمال الغيلة والمكر ، والخديعة في المعاملات ، ومنها الحقد وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة (ص ٦٣) .

ومنها كذلك البخل ، وهو منع العطاء مع المقدرة عليه ، والجبن وهو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عما تحذر عاقبته ، والحسد وهو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير أو الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما يملكه (ص ٦٤) ، ومنها صغر الهمة ، وهي ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الأمل عن بلوغ الغايات (وهي درجة منخفضة من مستوى الطموح الذي سبقت الإشارة إليه (ص ٦٤) .

٥ - **الأخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة** : ومنها حب الكرامة ، وهي محمودة في الأحداث والصبيان ، ومذمومة من أفاضل الناس ، ومنها حب الزينة وهو مستحسن من الملوك والعظماء والأحداث والظرفاء والمتنعمين والنساء ، مستقبح من الرهبان والزهاد ، والشيوخ وأهل العلم ، ورجال الدين . ومنها المجازاة على المدح وهو مستحسن من الملوك والرؤساء ، غير مستحسن من أصاغر الناس ، ومنها الزهد وهو مستحسن جدًا من العلماء والرهبان ورجال الدين والواعظين ، غير مستحسن من الملوك والعظماء (وفي هذه الفقرة يقدم لنا عددًا من الصفات التي تندرج تحت سمات الشخصية ، ويلفت نظرنا لمبدأ من مبادئ التعامل مع هذه السمات وهو النظر إليها على أنها تمثل متصلًا Continuum وكل فرد يقع على نقطة معينة منه فيتقرب من

هذا القطب أو ذاك ص ٦٤ - ٦٦) .

٦ - **تهذيب الأخلاق** : لا يخلو إنسان من عيب أو نقيصة ، وحقيق بالإنسان أن يسوس نفسه السياسة المستحسنة ويسلك بها الطريقة المحبوبة ، فإنه بذلك يكون محببًا إلى الناس ، مقبولًا عندهم معظمًا في نفوسهم ، مفضلًا على غيره ، موقرًا عند الرؤساء والملوك ، مقبول القول ، عريض الجاه . وصلاح الأخلاق يكون بتذليل النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية وتمييز عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من أفعالها ، وطريق التدرب لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات المستقبحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين ، ويقدم المؤلف في هذا الجزء وصفًا لعدد من الأساليب التي ينبغي اتباعها لقمع هذه الأنفس والتخلص من سيطرتها ، وهي نصائح وإرشادات لا بأس بها . ونلخصها بأن من أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلَّا بأعلى درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه ، كان حريًا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ منها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العالية . والدروس المقدمة هنا تصلح دروسًا للتربية ، والتنشئة الاجتماعية السليمة ، كما تعد من العوامل المعينة على تعديل السلوك وتغيير العادات ، وقد ذكر ابن عدي في ثنايا هذا الوصف عددًا من الموضوعات التي تدخل في إطار علم النفس منها ما عرضنا له ومنها ما لم نتعرض له من قبل ؛ مثل : مبدأ الانتقال التدريجي في تغيير الأخلاق وهو من مبادئ العلاج السلوكي (ص ٦٨) التذكر (ص ٦٩) ، وأثر المسكرات على السلوك والانفعال (ص ٧٠) ، التيقظ Vigilance (ص ٧١) ، الفكر (ص ٧٣) ، التعلم بالاقتداء Modeling (ص ٧٤) .

٧ - **الإنسان التام** : الإنسان التام هو الذي لم تفته الفضيلة ، ولم تَشْنَعْه الرذيلةُ . وقلما يصل إنسان إلى ذلك فإذا انتهى إلى ذلك كان للملائكة أقرب ، لكن الإنسان مضروب بأنواع النقص ، إلَّا أن التمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول ؛ فإنه ممكن ، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه ، كان قمينًا بأن ينتهي إلى غايته التي هو مهيأ لها ، ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها . وأوصاف الإنسان التام أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه ، متيقظًا لجميع معايبه ، متحرزًا من دخول نقص عليه ، مستعملًا لكل فضيلة ومجتهدًا في بلوغ الغاية ، عاشقًا لصورة الكمال ، مستلذًّا لمحاسن الأخلاق ، متيقظًا في الأصل ، مبغضًا لمذموم العادات ، معتنيًا بتهذيب نفسه ، غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل ، مستعظمًا اليسير من الرذائل ،

مستصغرًا للرتبة العليا ، مستحقرًا للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه . (وفي هذا الجزء من ص ٧٦ - ٨٤ يقدم لنا عددًا كبيرًا من السمات الحسنة التي وجب أن نتحلى بها ، والسيئة التي وجب علينا أن ننبذها لنصل إلى مرحلة الكمال المنشود ، كما يرسم لنا السبل التي يمكن أن نسلكها لنحقق هذه الأهداف ، وهو خلال هذا الوصف يتعرض لعدد من المفاهيم التي يمكن أن تنتمي لدراسات علم النفس وقد سبق أن ذكرناها مثل العقل والفطنة ، والانفعالات ، وإشباع الدوافع ، والتعلم ، واختيار الأصدقاء ، وسمات الشخصية وهي كثيرة ومتنوعة) .

* * *

القيرواني (ت ٣٦٩هـ)
سياسة الصبيان وتدبيرهم [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن خالد المعروف بابن الجزار ، وقد ولد ابن الجزار بالقيروان في أواخر القرن الثالث الهجري ، وينتسب لعائلة وطيدة الصلة بالثقافة والطب ، ولا توجد معرفة يقينية بتاريخ ميلاده ، ولكن هناك من يرجح أنه ولد سنة (٢٨٥هـ = ٨٩٥م) ، وهذا التاريخ ترجحه المعلومات التي احتوتها تراجمه ، وتتلمذ ابن الجزار في الطب على يد عمه ، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي ، واتفق المترجمون لابن الجزار على أنه كان حاذقًا من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم ، وتميز بحسن الفهم لها ، كما اتسم بالذكاء والمهارة ، ولذلك فإنه يعد ذا قيمة في ميدان الطب وفي ميادين أخرى ، فألف في التاريخ والأدب والفلسفة ، ومن مؤلفاته : الاعتماد في الأدوية المفردة - البغية في الأدوية المركبة - الخواص - طب المشايخ وحفظ صحتهم .

وعن أخلاق ابن الجزار ، يقال : إنه كان يتسم بالوقار والأخلاق الرفيعة ، وتوفي ابن الجزار عن عمر يناهز الثمانين عامًا ، ولم تذكر المصادر الأساسية تاريخًا محددًا لوفاته ، والمرجح أنه توفي سنة (٣٦٩هـ = ٩٨٠م) [2] .

---

(١) تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة (ط ٢) منقحة ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، (١٩٨٤م) . (١٧٤ص) .

(٢) (كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار القيرواني ، تحقيق الدكتور / محمد الحبيب الهيلة) .

عرض الكتاب :

يشتمل على ٢٢ بابًا نعرض لها على النحو التالي :

يتعرض ابن الجزار في الأبواب الستة الأولى من هذا الكتاب لتدبير الصبيان ، ويقصد بذلك حفظ صحتهم .

فيتناول في الباب الأول منها صفات المرأة التي يرجى منها الولد ، فيرى وجوب أن تكون صحيحة البدن والنفس ؛ حيث إن صحة الأم وسلامة بدنها ينشأ عنه صحة القريحة وقوة الذهن وتهذيب الخاطر .

ويرتبط مفهوم القريحة وقوة الذهن بموضوع الذكاء Intelligence والقدرات العقلية Mental Abilities (ص ٤٧) .

كما أن انتقال الصفات العقلية من الأم إلى الطفل يتضمن إشارة لدور عامل الوراثة Heridity في السلوك ، ويعد ذلك أحد مباحث علم النفس الحديث تحت موضوع : علاقة الوراثة بالسلوك (ص ٤٧) .

وينتقل ابن الجزار بعد ذلك إلى عرض أسلوب العناية بالطفل منذ لحظة الميلاد ، فيشير إلى العناية به بعد الولادة مباشرة وقطع سرته وتمليحه والتقطير في عينه وإخراج ما به من فضلات ، ثم يتحدث عن غذاء الطفل ويذكر أن أفضل غذاء له هو لبن الأم ، ويصف كيف يكون مضجعه وكيف يُغسل وينظف ، وأنه لا يجب إرضاعه بعد الحمام مباشرة ، وأن البكاء اليسير قبل الرضاعة ذو فائدة للطفل ، ويشير إلى أن أفضل وقت لتغذية الطفل بأطعمة غير لبن الأم هو الخريف حيث يعد أنسب الأوقات للبدء في إطعام الطفل بأنواع أخرى من الطعام .

وعن جلوس الطفل ، يشير ابن الجزار إلى ضرورة إجلاس الطفل إذا اشتد بدنه وصلبت أعضاؤه وقوي على الحركة ، كما يجب تدريبه على المشي تدريجيًا .

ويتصل موضوع تدريب الطفل على (الجلوس) و (المشي) بمفهوم النمو الحركي Motor (ص ٥٣) في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology وأما مفهوم التدريب فقط Training (ص ٥٣) فيتصل بسيكولوجية التعلم Learning ، وضرورة أن يكون التدريب تاليًا لعملية النضج العصبي والعضلي لدى الطفل حتى يأتي بنتيجة إيجابية ، وهو ما يتفق مع رأي المحدثين من علماء النفس ، فالسلوك محصلة لعاملي النضج والتعلم .

ويذكر ابن الجزار أن كثرة البكاء تعرض الطفل لما يسمى بالإبلمسيا (الصرع) ، ولذلك يشير إلى أهمية تنعيم الطفل بالأصوات الجميلة والحمل الرفيق والتحريك ، وألا يفزع بما يخيفه .

ويتصل بمفهوم (الإبلمسيا) وهو ما يعرف بمرض الصرع Eplipsy ، (ص ٥٤) بمجال علم النفس العصبي Neuro - Psychology ، كما يرتبط بكاء الطفل وخوفه بمفهوم الانفعالات Emotions (ص ٥٤) .

ويتناول الباب الثاني من هذا الكتاب صفات المرضعة التي تُحتاج لرضاعة الصبيان فيجب أن تكون شابة لا تتعدى سن الخامسة والثلاثين ، وأن تكون سليمة البدن ، حسنة الخلق ، وأن تختار من بيت عقل وأدب وعفة وسخاء ونجدة ، وأن يكون جسدها صالحًا للرضاعة ، وأن تكون قد ولدت مع الطفل المراد إرضاعه .

كما يتطرق في هذا الباب إلى ذكر صفات الحاضنة ، حيث يجب أن تكون فطنة ذات تجربة وتدبير وسياسة ورفق وتثبت .

ويتصل هذا الباب بموضوع تأثير البيئة الاجتماعية (ص ٥٧) Social Enviornment على الطفل ، وذلك في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology .

ويدور الباب الثالث حول خصائص لبن المرضعة من حيث كونه محمودًا أم مذمومًا فيجب أن يكون اللبن معتدلًا لا ثخينًا ولا رقيقًا ، ولا كثيرًا ولا قليلًا ، كما يجب ألا يكون متغير اللون ، وألا يسرع للحموضة ، ولا يكون في طعمه مرارة أو ملوحة ، ولا تكون له رغوة .

أما الباب الرابع فيتناول الأطعمة والأشربة التي يجب أن تتناولها المرضعة ليكون لبنها صحيحًا ، فيرى ابن الجزار أنه يلزم ألا تجوع وألا تمتلئ ، وأن تكثر من السوائل والأغذية المفيدة ، وأن تتجنب تناول الأطعمة الحريفة ، وذات الرائحة الكريهة .

وفي الباب الخامس يتعرض لسبب قلة اللبن وتغير لونه ، حيث يذكر أنه إما أن تكون المرأة بطبيعتها قليلة اللبن ، أو أن يكون ذلك بسبب قلة غذائها ، أو نتيجة لبعض الأعراض المَرَضية .

أما الباب السادس ، فيتناول كيفية العناية بالمرضع قليلة اللبن وإصلاحها ، وهنا يشير إلى عدد من الأدوية والأعشاب والخُضَر التي تفيد في علاج كل حالة على حدة .

وأما الأبواب من السابع إلى الحادي والعشرين ، فيتعرض ابن الجزار فيها للأمراض

التي تصيب الصبيان حيث يتناولها بترتيب أعضاء الجسم من الرأس إلى أسفل ، فيذكر العديد من الأمراض ودواءها ، ومنها السَّعفة والرية ، وهما مرضان جلديان يحدثان في الرأس والوجه ، كذلك مرض الدواس وهو كبر أو صغر الرأس ، وورم اليافوخ ، وانتفاخ البطن ، وداء العطاس وهو ورم في الدماغ وطبقاته ، وداء الصرع المسمى بالإبلمسيا المشار إليه آنفًا . ويتصل مفهوم الصرع بعلم النفس العصبي وعلم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology (ص ٨٧ - ٩٠) .

كما يشير كذلك إلى تشخيص وعلاج السهر لدى الأطفال والرطوبة السائلة من آذان الأطفال والحول وانتفاخ العين والوجع الناتج عن خروج الأسنان ، والقروح العارضة في أفواه الصبيان ، مثل : القلاع والسعال والقيء ، والطفيليات والديدان في أمعاء الصغار ، وورم السرة ، والحصى المتولدة في مثانات الأطفال والبثر والقروح والحكة .

أما الباب الثاني والعشرون ، فقد خصصه ابن الجزار لموضوع تأديب الأطفال ، حيث يعتقد بأهمية تأديب الأطفال منذ الصغر رغم اختلافهم في السمات الشخصية وطبائعهم المحمودة والمذمومة ؛ لأن التأديب ينقل الطفل من الطبع المذموم إلى المحمود ، إذا كان ذلك في الصغر قبل أن يعتاد الصبي الأشياء المذمومة ويصعب عليه مفارقتها ، ويرى أن العادة صِنْو للطبيعة فإن كانت الطبيعة جيدة ، وتم تعويد الطفل الأخلاق الحميدة فإن الخصال المحمودة لا تفارقه ؛ لاكتسابه إياها من جهتين .

كما يشير ابن الجزار في هذا الصدد إلى أن أسلوب التأديب يكون بالمدح والذم للبعض ، والبعض الآخر يلزم له الإرهاب والتخويف والضرب ، ويتصل هذا الحديث عن تأديب الأطفال بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization (ص١١٣ - ١١٦) في إطار علم النفس الاجتماعي ، وأهمية هذه العملية في مرحلة الطفولة ، حيث يتم بمقتضاها إكساب الطفل العادات والتقاليد والأعراف السائدة في المجتمع ، وتحتوي هذه الإشارة عن تأديب الأطفال على عدد من المفاهيم التي تنضوي تحت سيكولوجية التعلم مثل مفهوم العادة Habit (ص ١١٤ ، ١١٥) ، والمدح كأسلوب للتدعيم Reinforcement (ص١١٣ - ١١٦) لتثبيت السلوك الإيجابي المرغوب ، والذم أو الضرب كأنواع من العقاب (المعنوي أو البدني) لكف السلوك المذموم وغير المرغوب ، ومفهوم العادة والتدعيم والعقاب تندرج تحت موضوع التعلم Learning ، أما مفهوم الطبع فيتصل بسيكولوجية الشخصية Personality (ص ١١٣ - ١١٦) .

* * *

السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)

قرة العيون ومفرح القلب المحزون [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [٢] :

نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، أبو الليث ، الملقب بإمام الهدى : علامة من أئمة الحنفية ، من الزهاد المتصوفين ، له تصانيف نفسية ، منها : « تفسير القرآن » وله « تفسير صورة الحاقة » أو « عمدة العقائد » و « بستان العارفين » و « خزان الفقه » و « فضائل رمضان » ، و « المقدمة في الفقه » ، و « شرح الجامع الصغير » ، و « عيون المسائل » ، و « دقائق الأخبار في بيان أهل الجنة وأهوال النار » ، و « مختلف الرواية » ، و « شريعة الإسلام » ، و « النوازل من الفتاوى » ، و « تفسير جزء عم يتساءلون » ، و « رسالة في أصول الدين » .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على عشرة أبواب ، يبدأ المؤلف كتابه بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

ثم ينتقل إلى الباب الأول وهو في عقوبة تارك الصلاة ، مسترشدًا بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وقد حدد الرسول ﷺ للمتهاون بالصلاة خمس

---

(١) القاهرة : المطبعة الأزهرية ، (١٩٢٨م) . (١٥٦ ص) . مع مختصر تذكرة الإمام القرطبي ، عبد الوهاب الشعراني . نسخة مصورة .

(٢) الأعلام : للزركلي ، (٢٧/٨) .

عشرة عقوبة من الله ﷺ ، منها ست في الدنيا وثلاث في القبر وثلاث عند خروجه من القبر ، وهي كلها عقوبات شديدة تقشعر منها الأبدان ، وهي تدل على عظم قدر الصلاة وأهميتها كركن أساسي من أركان الإسلام ودعائمه .

كما يوضح الرسول ﷺ جزاء من يصلي الصلاة في جماعة ، خاصة صلاة الصبح (ولنا في ذلك - كعلماء نفس - فائدة عظيمة ، باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي ، يتشكل سلوكه من خلال التفاعل مع الآخرين في المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهو ما يهتم به علماء النفس الاجتماعيون ، وباعتبار أن المسجد مؤسسة اجتماعية تشارك في عملية التنشئة الاجتماعية Socialization مع بقية المؤسسات ، (ص ٥ ، ٦) .

ويستمر بعد ذلك في ذكر أحاديث الرسول ﷺ ، وما ورد من سيرته في عذاب تارك الصلاة وما يصيبه في الدنيا والآخرة من أهوال يشيب لهولها الولدان ، ثم يختتم هذا الباب بدعوة إلى تارك الصلاة كي يتوب مدعمًا كلامه ببعض الشعر .

والباب الثاني في عقوبة شارب الخمر ، ومن أحاديث رسول الله الكثيرة حديث يقول : إنه يجيء شارب الخمر يوم القيامة مسودًّا وجهه مزرقة عيناه مندلعًا لسانه على صدره يسيل بصاقة مثل الدم يعرفه الناس يوم القيامة ، فلا تسلموا عليه ولا تعودوه إذا مرض ، ولا تصلوا عليه إذا مات فإنه عند الله ﷺ كعابد الوثن ... وقال أيضًا : « **كل مسكرٍ خمر وكل خمرٍ حرام ، فمن شرب الخمر في الدنيا حرم الله عليه خمر الآخرة في الجنة** » ، ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر أحاديث أخرى للرسول ﷺ ، وبعض ما ورد عن الصحابة في عذاب شارب الخمر ، وكلها أهوال تقشعر منها الأبدان .

وإذا كان المؤلف هنا قد عُني بالخمر من باب التحريم ، وبيان عذاب شارب الخمر يوم القيامة ، فإن علماء النفس يهتمون - أيضًا - بالخمر ، غير أن اهتماماتهم تأخذ وجهة أخرى - وإن كانت تعضد الأولى - فهم يهتمون بآثار المواد النفسية المؤثرة في الأعصاب (ومن أهمها الخمر) على السلوك ، على أساس أن هذه المواد الكيميائية عندما تدخل الجسم تترك آثارها في عدد من الوظائف الفسيولوجية تنعكس بعد ذلك في السلوك الظاهر كالإدراك Perception والانتباه Attention والذاكرة Memory ، والسلوك النفسي الحركي Psychomotor Behavior ، كذلك فإن التمادي في تعاطي الكحوليات لفترات طويلة قد يؤدي إلى الإصابة بما يسمى الذهان الكحولي حيث تظهر بعض أعراض التدهور العقلي المعروفة ، والتي تظهر على مرضى الذهان من مدمني الكحوليات والعقاقير الأخرى .

والباب الثالث في هذا الكتاب هو في عقوبة الزنى ، ويحذر منه الرسول ﷺ ؛ لأن فيه ست خصال ؛ ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما الثلاث التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء من الوجه ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، أما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط اللّٰه وسوء الحساب والخلود في النار ، وهناك أحاديث في هذا المقام .

ويتبع هذا الباب الرابع وهو في عقوبة اللواط ، وهو من الأفعال المحرمة في الإسلام ، وقد قال تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] ، وقال رسول اللّٰه ﷺ : « **من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » وإذا كان الدين قد حرم اللواط ونهى عنه أشد النهي ، فإن للأطباء النفسيين ، وعلماء النفس الإكلينيكيين اهتمامًا بهذا السلوك ، باعتباره من أوجه السلوك الشاذة التي تعبِّر عن اضطراب نفسي أو انحراف سلوكي يستوجب العلاج ، باستخدام كافة الأساليب المتاحة وخاصة العلاج السلوكي Behavior Therapy كالعلاج بالتنفير Aversive Therapy .

والباب الخامس في عقوبة آكل الربا ، ويسير فيه المؤلف على نهجه في الأبواب السابقة ، فيذكر الآيات القرآنية التي تنهى عن أكل الربا وتوضيح عقاب آكلي الربا ، ثم يذكر ما رواه الرسول ﷺ من أحاديث وما شاهده ليلة الإسراء والمعراج ، والأحاديث في هذا المقام كثيرة وكلها عقوبات مغلظة ، ونواهي زاجرة لمن أراد الاعتبار . (وربما كان حرص الإسلام على تحريم الربا ، حفاظًا على العلاقات بين الناس ، وصيانة لأموالهم وحقوقهم ، وتشجيعهم على المحبة والإيثار والتكامل) .

والباب السادس في عقوبة النائحة ، وهو سلوك مذموم في الإسلام ، وقال رسول اللّٰه ﷺ : « **لعن اللّٰه النائحة والمستمعة** » ؛ وذلك لأن النياحة إنما هي بمثابة الاعتراض على حكم اللّٰه ، الذي له الأمر والنهي ، وقد أمر المسلمون بالصبر والامتثال عند المصائب والبلايا (ولعل من التكنيكات الحديثة التي شاعت في كتب علم النفس الحديث ، للتعامل مع مثيرات المشقة Stressors كوفاة شريك الحياة ، أو المرض أو غير ذلك ، ما يسمى بالتحكم في الأفكار المأساوية Catastrophizing Thoughts ومقاومتها ، ويمكن الاستفادة بتعاليم الإسلام وتوظيفها كأساليب علاجية ناجحة لمثل هذه المواقف) ، ومما ورد في هذا الباب أيضًا الحث على كظم الغيظ والتحكم في الغضب (وهو يمكن أن يقابل ضبط النفس Self-Control كإحدى سمات الشخصية أو المؤشرات الدالة على الاتزان الوجداني Emotional Stability ص ٦٥) .

وينتقل في الباب السابع للحديث عن عقوبة مانع الزكاة ، ومن المعلوم أن إيتاء الزكاة من أركان الإسلام الخمسة ، وبالتالي فالامتناع عن أدائها هدم لركن أساسي من أركان الإسلام ، وبالتالي استحق فاعل ذلك أشد العقاب .

والباب الثامن في عقوبة قاتل النفس وقاطع الرحم ، ويقول الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ، وقتل النفس إما يكون قتل نفس إنسان آخر ، أو قتل الإنسان لنفسه هو (أي الانتحار) **وفي الحالتين يجد علماء النفس – في أحيان كثيرة –** مبررًا لتناولهم لهذه الجرائم بالدراسة ، فكثيرًا ما يدعى علماء النفس للبحث عن الأسباب وراء تكرار أو ارتكاب بعض جرائم القتل ذات الطبيعة الخاصة ، كما يدرسون الانتحار باعتباره من الأعراض Symptoms المميزة لأمراض نفسية وعقلية من أشهرها الاكتئاب الذهاني Endogenous Depression .

وفي هذا الباب أيضًا فصل على غير ما جرت العادة في الأبواب السابقة ، يتحدث فيه عن ضرورة حسن قيام الرجل بزوجته وأولاده وما ملكت يمينه ، فيلزمه إطعامهم وكسوتهم وتعليمهم أمور الدين ، ويكون ذلك كله من وجه حلال ولا يحل له التفريط في شيء من ذلك بوجه من الوجوه (وهنا حض لكل رجل أن يحسن تربية أبنائه ومن يعولهم ، أو شئنا التعبير بلغة علم النفس قلنا إن هذا حث على ضرورة القيام بعملية التنشئة الاجتماعية Socialization على خير وجه وأكمل صورة .

أما الباب التاسع ، وقبل الأخير فهو عن عقوبة عاق والديه ، وعقوق الوالدين من أشد الذنوب ، وأعظم الجرائم لما فيه من استهانة بالوالدين ، وعدم الوفاء لهما ، وإنكار لأفضالهما ، ورغم كل ما قدماه ، وما لاقياه من المشقة والاحتمال ، وإذا كان لعلماء النفس أن ينفذوا لهذا الميدان ، فعليهم تناوله باعتباره يدل على اضطراب في السلوك ، واضطراب في الخلق ، ويبحثوا أسبابه ، ويدرسوا عملية التنشئة الاجتماعية ودورها في ذلك .

ونصل إلى الباب العاشر والأخير وهو في النهي عن المزامير والمغاني ، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال : « **ملعون الزامر والمستمع ، فمن سمع المطربات في الدنيا لا يسمع مطربات الجنة أبدًا** » ، لحكمة عظيمة نهى الرسول الكريم عن إتيان هذا السلوك .

العامري النيسابوري (ت ٣٨١هـ)
الأمد على الأبد [1]

عرض : د . معتز سيد عبد اللَّه

التعريف بالمؤلف [2] :

هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابوري (ت ٣٨١هـ = ٩٩١م) ، عالم بالمنطق والفلسفة اليونانية ، من أهل خراسان ، أقام بالري خمس سنين واتصل بابن العميد (الوزير الكاتب) فقرءا معًا عدة كتب ، وأقام ببغداد مدة ، وعاد إلى بلده ، له شروح على كتب أرسطو ، و « مجموعة – خ ») تشتمل على « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » و « التقرير لأوجه التقدير » ، ومن كتبه « النسك العقلي » وشرحه ، و « الإبصار والمبصر – خ » ، و « الإعلام بمناقب الإسلام – ط » ، و « السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية – ط » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من عشرين فصلًا يدور مضمونها حول تقديم بعض المعلومات والمعارف العقلية التي تساعد على معرفة الإنسان بحاله بعد موته وعقيب مفارقة روحه لجسده إلى أن يحشر في القيامة ويبعث في النشأة الآخرة ، حتى لا يُعذر العاقل في جهله ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

---

(١) تصحيح وتقديم أرون ك روش (ط ١) . بيروت : دار الكندي ، (١٩٧٩م) . (١٦٥) ، (٤٢ص) ، (٢٤ سم) .

(٢) الأعلام : للزركلي ، (١٤٨/٧) .

الفصل الأول : وفيه يوضح المؤلف أنه بالعلم والمعرفة ، سواء كانت حسية أو عقلية يمكن أن يزداد إيمان الإنسان بخالقه ﷻ ، فالعلم هو الطريق الصحيح الذي يبيِّنُ اليقين من الضلال ، والحق من الباطل ، حيث أشار المؤلف إلى مشكلة فلسفية هي أن البعض يرى أن للمدرَك الحسي حقيقة ، والبعض الآخر يرى أنه ليس له حقيقة ، وكذلك اختلفوا بالنسبة للمتصوَّر العقلي ، فبعضهم رأى أن له حقيقة ، والبعض الآخر رأى أنه ليس له حقيقة ، ويذهب المؤلف إلى أنه لكل من المدرَك الحسي والمتصوَّر العقلي حقيقة . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهومي الإدراك الحسي Perception ، (ص ٥٩- ٦١) ، والتصور العقلي (ص ٥٩ - ٦١) .

الفصل الثاني : وفيه يعرض المؤلف لأنواع التواريخ التي يتم في ضوئها التأريخ للأرض والحياة وعمر الدنيا وذلك بشكل اختلف فيه الناس ، فالمسلمون والصابئون والنصارى واليهود مجمعون على أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة على عدد الكواكب السيارة ، وزعم المجوس أن عمرها اثنا عشر ألف سنة على عدد الروج ... إلخ ، إلا أن اللّٰه تعالى قال في محكم كتابه : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] .

الفصل الثالث : وفيه يعرض المؤلف للحكمة وأهميتها ، ومن وصف بها ، ويبيِّنُ أن أول من وصف بها هو لقمان ، ثم بعد ذلك أنباذقليس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأرسطاليس ، وجالينوس ، وغيرهم .

الفصل الرابع : وفيه يعرض المؤلف لمذهب كل من أنباذقليس وسقراط وأفلاطون وارسطاليس في الحكمة .

الفصل الخامس : وفيه يوضح المؤلف أن العقل وإن صلح لتدبير عامة ما تحته من الموهومات الحسية ولإمساك كافة ما فوقه من المقولات البديهية ، فإنه ليس يصلح لهما إلا بالقوة الإلهية المستعملة عليه ، وكما أن الطبيعة محيطة بالأجسام إحاطة التدبير لها ، والعقل محيط بالنفس إحاطة الهداية لها ، كذا الأول الحق محيط بالأشياء كلها إحاطة التقدير لها ، فإذا الجسم بجبلته طائع للطبيعة ، والطبيعة بجبلتها طائعة للنفس ، والنفس بجبلتها طائعة للعقل ، والعقل بجبلته طائع للبارئ تعالى ، وبهذا يُعلم أن كل واحد من مُبدعات العالم وإن كان بالإضافة إلى خاص غرضه كاملًا له ، فإنه في جبلته مقصور ناقص الذات ، وأن الكمال المطلق للأحد الحق ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت

في هذا الفصل هي تصنيف الوظائف النفسية إلى حسية وعقلية (نطقية) ، كما تكلم المؤلف عن الوظائف الحسية فذكر القوة الشهوية والقوة الغضبية وذكر الإدراك الحسي والتخيل ، (ص ٨٧ - ٩١) .

الفصل السادس : وفيه يوضِّح المؤلف أن اللّٰه جل وعز قد شرف جوهره بنور العقل ليتعاطى به خلافته على عمارة العالم السفلي فيتدرج به إلى أن يصير زينة للعالم العلوي ؛ فإنه متى دنس جوهره واستهلك ذاته فقد خسر الدنيا والآخرة ، بل بتحقق أن اللّٰه جل جلاله أوله وآخره ، فلا ينقطع عنه ولا يَؤم سواه ، ويتبرأ ممن عدل عنه وآثر صحبة غيره عليه ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي المعتقد Belief (ص ٩٢ - ٩٥) .

الفصل السابع : وفيه يوضح المؤلف أن المتدينين والحكماء والإلهيين يتفقون على النفس متى تدنست بشهوات بدنها ، وأبطلت سلطان عقلها ، فقد استوجبت عقوبة اللّٰه عز اسمه بالآفات الحسية والآلام الطبيعية ، ثم لن تتفادى عن عقوبته إلا برفض شهواته أولًا ، ثم بالتضرع إليه تعالى في تكفير المُجتَرح من سيأته ثانيًا ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : الدوافع البيولوجية Biological Motives والدوافع الروحية ، وأن التدين يساعد الإنسان على التغلب على دوافعه وشهواته البدنية ، (ص ٩٦- ٩٩) .

الفصل الثامن : وفيه يوضح المؤلف أنه إذا استخلصت العقيدة ، واستمسكت بالعبودية ، ولازمت الابتهال إلى رب العزة ، فوفرت عليها الإلهية والمواد الملكية ، فإن الشيء النقي لن يليق إلا بالمعدن النقي ، والمعنى الأبدي لن يألف إلا الجوهر الأبدي ، وإذا كان هذا غير مشكوك فيه ، ثم أيقنا أن موت الإنسان ليس له حقيقية غير فراق النفس للقالب ، فبالأحرى أن تكون علامة كمالها في الفضيلة أن تكون مستحبة له غير مغتمة لوروده ، ومهما اغتمت له دل ذلك على نقصان ذاتها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي العلاقة بين النفس والجسم (ص ١٠٠ - ١٠٤) .

الفصل التاسع : وفيه يوضح المؤلف أن من نظر إلى الحكمة والعفة بعين الشنآن والتقلي ، ونظر إلى المال والرياسة بعين العشق والمحبة - وقد علم أن أكثر دواعي الحرب والقتال هو فرط الحرص على الرياسة والمال - فجدير أن يشقى بالجولان والحية ويُبتلى بالاضطراب واللوثة ، فيكون قد باع النعيم الأبدي بالتراب السفلي ، واستبدل المَشُوق العرض بالعز الحقيقي ، وذلك هو الخسار المبين والبوار المهين ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : التعارض (أو الصراع) بين الدوافع

البدنية والملذات الدينية على الدوافع البدنية والدنيوية ، (ص ١٠٥ - ١٠٧) .

الفصل العاشر : وفيه يوضح المؤلف أن المدركات الحسية وإن كانت مباينة للصور العقلية ، فلا مانع من أن تكون سببًا لانتباه العقل عليها ؛ إذ هي في الحقيقة تحاكيها وإن كانت أنقص منها ، وأن تكون بسببيتها بالإضافة إلى النفس قريبة الشبه في الحركة الموقظة للحيوان عن النومة - أي أنه متى استيقظ بالحركة اللاحقة من خارج ، فقد كمل لتعاطي الحركات الاختيارية من ذاته ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي الصور العقلية Mental Images ، (ص ١١٠ - ١١٢) ، والانفعالات (وبخاصة الألم واللذة) ، (ص ١١١) .

الفصل الحادي عشر : وفيه يوضح المؤلف أن الأسباب المولدة للحركات الحيوانية هي الانفعالات المتولدة من الأشكال الفلكية ، إما في القوة الشوقية بوساطة القوة الخيالية ، وإما في القوة الخيالية بوساطة القوة الشوقية ، وإما في كليهما بحسب اتحادهما - أعني إذا كانت الحركات طوعية ، ثم النفس النطقية تصير مدبرة لها ومستولية عليها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل الذات Self والإحساس ، والتخيل Imagination ، والدافعية (ص ١١٥ - ١١٧) والصور العقلية (ص ١١٦ ، ١١٧) ، والانفعالات (ص ١١٦ ، ١١٧) .

الفصل الثاني عشر : وفيه يوضح المؤلف أن الجمهور الأعظم من أرباب الملل يتواصون بالدعاء ، ويستعيذون من السحر ، وينسبون من جحد الدعاء إلى الخلاعة ، وخصوصًا من جحد بركات الأدعية الصالحة ، هذا بينما يذهب الإلهيون من الحكماء في شأن الدعاء والسحر إلى أنهما في طرفي التضاد ، فإن أحدهما يتعلق بالإخلاص الصادق لخالق البرية ، والآخر يتعلق بالاختصاص البالغ للشياطين المردة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي حديث المؤلف عن تأثير القوى النفسية والروحية في الإنسان على نفوس الناس الآخرين ، بل وعلى الأجسام (ص ١١٨ - ١٢٢) .

الفصل الثالث عشر : وفيه يعرض المؤلف لطريقة الطبيعيين في إيراد الأمثلة - لتقرير المعاني الإلهية والدلائل المختلفة التي يقدمونها في هذا الجانب للبرهنة على كلامهم .

الفصل الرابع عشر : وفيه يعرض المؤلف للعلاقة بين النفس الناطقة والروح الحسية والبدن في الحياة والموت ، فإن كان موت الحيوان في الحقيقة هو زوال الروح الحسية عن

بدنه وقد عُمل أنها متى زايلته لم تصلح لتأدية شيء من الأفعال دونه ، فبالأحرى أن يكون استحالة البدن عن طباع الحيوانية بورود الموت عليه سببًا لانطفاء الروح الحسية ، فإنها لو وجدت دون البدن لكان وجودها عبثًا ؛ إذ ليست تصلح لتأدية شيء من الأفعال دونه ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي العلاقة بين النفس والجسم (ص ١٢٧ - ١٣٠) .

الفصل الخامس عشر : إذا كان الغرض الأخص من النفس النطقية هو أن يصير الإنسان صالحًا لخلافة اللّٰه تعالى في عمارة العالم السفلي مدة من الزمان ، ثم يصير زينة للعالم العلوي على الأبد ، فبالأحرى أن تكون مجبولة على سِنْخٍ هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وكدر ذلك العالم ، وأن يكون جوهرها أول المعاني الروحانية وآخر المعاني الجسمانية ، كالمتلاحم لكلا العالمين ، وكالصالح لمجموع الكمالين ، وكالشيء القائم بذاته من وجه والقائم بغيره من وجه ، وكالفرخ المتفقئ عن البيضة ، الذي هو كمال من وجه ومستعد للكمال من وجه ، وتعرض المؤلف في هذا الفصل إلى التعارض بين الناحية البدنية والناحية الروحية في الإنسان وأن الإنسان لا يستطيع أن يسيطر على ملذاته الحسية واتجاهه نحو الناحية الروحية إلا عن طريق العبادة والتمسك بالتقوى والحكمة العقلية (ص ١٣١ - ١٣٥) .

الفصل السادس عشر : وفيه يعرض المؤلف لزبدة ما شرحه العلماء من جبلة العالم العلوي بقدر ما استقاموا في التقرير لصورة الثواب الأبدي ، ومعلوم أن هذا المأخذ منهم ليس بقادح فيما حققه القرآن من أصول المعاد .

الفصل السابع عشر : وفيه يعرض المؤلف للآراء المختلفة حول طبيعة النفس الناطقة ومن أين تتولد ، وما هو مصيرها بعد الموت ، ثم يخلص إلى أنها لو كانت تتلاشى عند الموت كما يذهب بعض أصحاب الملل ، ثم كانت الأبدان تعاد في القيامة كهيئة ما هي عليه من البنية لكان الموت المتوسط بين الحياتين عبثًا ، فإن القادر على استبقائها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي المعتقد (ص ١٤١ - ١٤٥) ، وبنية الجسم Constitution (ص ١٤١ - ١٤٥) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ١٤١ - ١٤٥) ، والإحساس Sensation (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

الفصل الثامن عشر : وفيه يوضح المؤلف أنه ليس هناك شك أن أفضل حالات النفس الناطقة بحسب قوتها العالمة هو التحري لصدق اليقين في معتقداتها ، وأفضل

حالاتها بحسب قوتها العاملة هو التحري للجميل الحقيقي في مطلوباتها ، ويعرض بعد ذلك لأشكال مختلفة من النفوس منها بهيمة الشوس (الطبع) وسبعية الشوس ، ومَلَكِية الشوس ، وهذه محاولة من المؤلف لتصنيف شخصيات الناس إلى عدة أنماط متميزة على أساس درجة قربها من اللّٰه تعالى ، وبعدها عن الانغماس في ملذات وأهواء الدنيا (ص ١٤٦ - ١٥٠) .

الفصل التاسع عشر : وفيه يعرض المؤلف للثواب والعقاب يوم القيامة ، وأوضح أنه ليس أحد ممن أقر بالصانع جل جلاله إلا وهو يقر بالثواب الأبدي ، وإنما يجحده أوساخ الدهرية ، الذين استثقلوا مثل العبادة وانسلخوا عن أهل الملة ، ولم يسندوا ضلالتهم إلى حجة ، بل سلكوا في دعواهم إلى مسلك الحيرة ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : الثواب (ص ١٥١ - ١٥٧) ، والعقاب (ص ١٥١ - ١٥٧) ، وبنية الجسم (ص ١٥١ - ١٥٧) .

الفصل العشرون : وفيه يوضح المؤلف أن الإيمان في الحقيقة هو الاعتقاد الصادق اليقيني ، ومحله من القوى التمييزية هو القوة العاقلة ، والكفر في الحقيقة هو الاعتقاد الكاذب الظني ، ومحله من القوى التمييزية هو القوة المتخيلة ، بالإضافة لذلك يفرق بين الإيمان والكفر ، والتقوى والفسوق ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : القيم الخلقية (ص ١٥٨ - ١٦٥) ، والقيم العلمية (ص ١٥٩) ، والاعتقاد (ص ١٥٨) ، والاعتقاد الخاطئ (ص ١٥٨) .

* * *

التنوخي (ت ٣٨٤هـ)
الفرج بعد الشدة [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم التنوخي ، ولد ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالبصرة ، وسمع بها من أبي العباس الأشرم وأبي بكر الصولي والحسين بن مسعود بن عثمان ، ونزل بغداد وأقام بها وحده إلى حين وفاته وكان سماعه صحيحًا ، وأول سماعه الحديث في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وكان من العلماء الحفاظ ، والشعراء المجيدين ، وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه ، ومن مؤلفاته - غير هذا الكتاب الذي بين أيدينا - كتاب نشوان المحاضرة ، وكتاب المستجاد في فعلات الأجواد . وتولى القضاء من قبل أبي السائب عتبة بن عبيد اللّه في بابل والقصر ، ثم ولاه الإمام المطيع للّه القضاء بعسكر مكرم وأيذج ورامهرمز وتقلد بعد ذلك أعمالًا كثيرة في أماكن مختلفة ، وكانت وفاته رحمه اللّه تعالى ببغداد ليلة الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة .

استمدت هذه الترجمة للمؤلف من المقدمة التي كتبها عنه الناشر نقلًا عن ابن خلكان .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في جزأين ، الأول يتكون من ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ،

---

(١) القاهرة : محمود أفندي رياض ، (١٩٠٣ ، ١٩٠٤م) . ٢مج . نسخة مصورة .

ويضم ترجمة المؤلف وفاتحة الكتاب وستة أبواب ، والثاني يتكون من ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط - أيضًا - ويضم الأبواب من السابع وحتى الرابع عشر .

يبدأ هذا الكتاب بفاتحة للمؤلف يحمد اللَّه تعالى فيها ويثني عليه ، ثم يتحدث عن كتابه ويقارنه بكتاب ابن أبي الدنيا الذي يحمل نفس الاسم ، ثم يبدأ في ذكر أبواب الكتاب .

الجزء الأول :

الباب الأول : فيما أنبأ اللَّه تعالى به في القرآن من ذكر الفرج بعد البؤس والامتحان ويذكر فيه عددًا من الآيات القرآنية التي توضح هذا المعنى ، ثم يحللها تحليلًا دقيقًا .

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال : من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد كشفها اللَّه تعالى عنه ؛ لأنه قد وعد وحكم فيهن بما جعله لمن قالهن وحكمه تعالى لا يبطل ووعده لا يخلف ، وقد ذكر ﷻ فيما قصه من أخبار الأنبياء شدائد ومحنًا استمرت على جماعة منهم ، وضروبًا جرت عليهم من البلاء فأعقبها بفرج وتخفيف ، وأول الممتحَنين آدم ﷺ ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ولوط ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وموسى بن عمران ، وكذلك الشدة التي جرت على سيدنا محمد ﷺ .

وإذا كان اللَّه ﷻ يبتلي الأنبياء والرسل بالاختبارات والشدائد لحكمة يعلمها هو ، فإن الأنبياء ذوو صفات خاصة يتفردون بها عن سائر البشر ، وهم يمثلون نماذج وجب الاقتداء بها . والبشر في كل عصر وحين ، ومهما اختلفت درجاتهم وصفاتهم عرضة لأنواع متباينة من المشقة وأنواع البلوى والاختبار ، وقد كثر حديث علماء النفس المحدثين عما يسمى بأنواع المشقة Stress والمثيرات أو الأحداث التي تثيرها Stressors ، ونتائجها على الأفراد وكيف يستجيبون لها ويتعاملون معها ، وأساليبهم في ذلك ، والآثار القريبة والبعيدة المترتبة عليها ، ولعل نظرة في تاريخ السلف الصالح على امتداد التاريخ تهوّن من وقع المشقة علينا .

والباب الثاني : فيما جاء في الآثار من ذكر الفرج بعد اللأواء ، وما يتوصل به إلى كشف الشدة والبلاء ، وقد روي عن الرسول ﷺ قوله : « **إن أفضل أعمال أمتي انتظارها فرج اللَّه** » ، **وقوله أيضًا** : « **واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا** » ، وأحاديث أخرى كثيرة ، كلها توضح طرق كشف البلاء ، ومنها حضة ﷺ المسلم على مساعدة أخيه المسلم في شدته للتغلب عليها (ونجد علماء النفس المحدثين يهتمون بما يسمونه سلوك المساعدة Helping Behavior والذي يدرس في علم

النفس الاجتماعي ص ٢٧) ، ومن طرق كشف البلاء - أيضًا - الإكثار من الاستغفار ، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ودعاء ذي النون : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، وكذلك التوجه إلى الله بالدعاء الخالص ليرفع الغمة ويزيل البلاء .

كما يحدد بعض الصالحين كعبد الله بن مسعود أن الفرَج والرَّوْح في اليقين والرضا ، والهم والحزن في الشك والغضب (وعلاوة على أنه يصف الداء والدواء ، فإنه يذكر بعض المفاهيم التي حظيت باهتمام علماء النفس المحدثين تحت موضوع الانفعالات Emotions في علم النفس العام ص ٣٩) .

وهذا الباب في جملته يحدد عدة طرق للتعامل مع المشقة ، وهي تدور في مجملها حول الرجوع إلى الله ، وطلب العون منه ، وهي طرق أغفلها كثير من المعالجين ، وإن كانت هناك محاولات في الوقت الراهن لإدخال الدين والإيمان في عملية العلاج النفسي .

والباب الثالث : فيمن بشر بالفرج فنجا من محنة بقول أو دعاء أو ابتهال ، ولكي يؤكد فعالية الأساليب التي سردها في الباب السابق لتفريج الكرب ، وكشف الشدة والبلاء - يخصص هذا الباب لذلك ، فيروي الكثير من القصص والحكايات التي حدثت له أو لغيره من الصالحين ، التي توضح كيف أنهم استعانوا بالله وبالأعمال الصالحة ، فانكشفت عنهم الغمة وزال عنهم الهم وانقلبوا فائزين .

والباب الرابع : من استطفأ غضب السلطان بصادق لفظ ، واستوقف مكروهًا بموقظ بيان ، أو وعظ .

ومن خلال منهج الحكايات ، والقصص ، الذي يعتمد عليه في هذا الكتاب ، يمكن أن نستشف بعض المفاهيم ، والاصطلاحات ، التي دخلت مجال علم النفس الحديث ، وهو استنباط من هذه الحكايات ، حيث لم تتعرض لها بشكل مباشر ، ومن هذه الاصطلاحات ، والموضوعات ، وجوب النصح ، والإخلاص فيه للحاكم (مما يقترب من موضوع الإرشاد النفسي من بعض زواياه ، وهو من موضوعات علم النفس الحديث ص ٦٦) ، وكذلك المحبة ، والود (وهو يدرس تحت موضوع الانفعالات في علم النفس ص ٦٨) .

ويتعرض - أيضًا - لما يسميه المحنة والبلوى في النفس (وبنوع من التجريد يمكن تصور بلايا النفس ، الأمراض النفسية العقلية ، التي تصيب الفرد وتدرس في علم النفس

الإكلينيكي ، وكذلك بعض الاضطرابات السلوكية ، وما يمكن أن يدخل تحت ما يسمى بصورة الذات Self-Image ص ٦٩) . وكذلك شرب الخمر ، وما تفعله في شاربها (ويدرس علماء النفس الإكلينيكيون ، وعلماء النفس الاجتماعيون ، موضوع المخدرات والمسكرات من زوايا متعددة ، منها الآثار النفسية والسلوكية ، التي يتركها التعاطي الحاد ، والتعاطي طويل المدى على المتعاطين ص ٨٠ ، ٨١) .

ومن المفاهيم التي يمكن استنتاجها أيضًا ضبط النفس Self-Control كإحدى سمات الشخصية Personality Traits الدالة على الاتزان الوجداني ، أو الانفعالي Emotional Stability ص ٨٢) .

والباب الخامس : يشبه سابقه إلى حد كبير حيث يدور حول من خرج من حبس ، أو أسر ، أو اعتقال إلى سراح وسلامة وصلاح حال ، ويضيف إلى أسلوب الحكايات الشعر وما روي فيه ، ومما ورد في ثنايا هذا الباب : حديثه عن ذهاب النوم بسبب الهموم ، وتوارد الأفكار على الذهن (وهو حديث عن الأرق Insomnia وهو أحد الأعراض التي تصيب الإنسان السوي في حالة كونه مهمومًا ، كما أنه يعتبر عرضًا مرضيًا يصحب بعض الأمراض النفسية كالقلق Anxiety ، والاكتئاب Depression ص ٩٤) .

ويتعرض كذلك للعقل والكلام ، والفرق فيهما بين الخاصة والعامة (وهنا نجد عدة موضوعات من موضوعات علم النفس ، مثل العقل وما يتصل به من ذكاء وتفكير ، وقدرات معرفية Cognitive Abilities ، والكلام كمظهر لغوي ، وما يترتب عليه ، ويرتبط به كجزء من سيكولوجية اللغة Psycholinguistics ، والعلاقة بين الفكر واللغة ، والفروق الفردية Individual Differences كمبدأ حاكم للوظائف والعمليات النفسية ص٩٦) .

والباب السادس : فيمن فارق شدة إلى رخاء بعد بشرى منام ، ولم يشب صدق تأويله كذب الأحلام ، وفي هذا الباب يستفيض في ذكر الأحلام والرؤى ، التي تحدث في المنام ، ويقص بعض ما حدث له ، ولغيره ، وكان شاهده ، أما ما روي له ، وتأويلات هذه الأحلام ، أو الرؤى ، وصدق هذه التأويلات ، وتحققها ، وموضوع الأحلام ، وتفسيرها فهي من الموضوعات التي شغلت حيزًا كبيرًا في بعض نظريات علم النفس في فترة مبكرة ، ونقصد نظرية التحليل النفسي الفرويدي ، حيث تشكل الأحلام رموزًا

مهمة في الكشف عن أغوار النفس البشرية ، وتعين في دراسة علم نفس الأعماق ، ولفرويد كتب في تفسير الأحلام ، والنظريات الأكثر حداثة في علم النفس لا تهتم بالأحلام من حيث تأويلها أو تفسيرها وتعتبرها مما يدخل في غير اهتماماتها ، وإن كان بعض علماء النفس المشتغلين بعلم النفس الفسيولوجي يهتمون بما يحدث أثناء النوم واليقظة من تغيرات عضوية فسيولوجية ، كالتغير في الموجات الكهربائية للمخ ، ودلالتها على أعراض أو تغيرها أثناء الأحلام وأشكالها في المراحل المختلفة للنوم ، كالنوم الخفيف والعميق .

الجزء الثاني :

ويبدأ هذا الجزء **بالباب السابع** ، وهو فيمن استنقذ من كرب وضيق خناق ، بإحدى حالتي عمد أو اتفاق ، وهو استكمال للأبواب السابقة ، مع اختلاف بسيط في نوع البلاء الذي يصاب به المرء ، ثم يفرج عنه ، وهو - أيضًا - مليء بحكايات ، وقصص تؤيد ما سلف ذكره من ضرورة الاستعانة بالله ، والتوكل عليه ، وطلب العون منه ، فهو الكفيل بتذليل الصعاب ، وكشف البلاء (ولم نجد في هذا الباب جديدًا يمكن أن نضيفه إلى ما سبق) .

والباب الثامن : من أشفى عليه أن يقتل ، فكان الخلاص إليه أعجل ، وفيه يذكر العفو وكظم الغيظ (وهو يقابل سمة ضبط النفس التي سبق أن أشرنا إليها في موضوع سابق ص ٤٤) ، وكذلك يذكر الغضب والهم (وهي من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام ص ٤٦) ، وهذا الباب يدور كله حول أشخاص كانوا عرضة للقتل لأسباب متعددة ، ثم عفي عنهم ونجوا من القتل بفضل الله ورحمته ، ولا يكاد يزيد عن ذلك شيئًا ، وفي ثنايا كلامه وحكاياته يذكر العشق (وهو إحدى درجات الحب كما يصنفه علماء اللغة ، والحب من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام كما سبق ص ٥٤) .

والباب التاسع : فيمن شارف على الموت بحيوان مهلك رآه ، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ونجّاه ، ويكاد هذا الباب يكون صورة طبق الأصل من الباب السابق ، وكل ما بينهما من اختلاف هو سبب الموت - الذي هو البلاء أو الاختبار الذي حل بالفرد - ففي هذا الباب سبب الهلاك هو حيوان مفترس أو ضال ، وفي الباب السابق كان بسبب حكم بالقتل وقع على الفرد من شخص أو حاكم ، (وفيما يرويه من قصص ما يقترب من الخيال الذي يملأ الأساطير والحكايات القديمة وإن كان يقصها باعتبارها

من القصص الواقعية التي حدثت بالفعل ، وإن كان القصد من ورائها لا يخفى على كل ذي فطنة ، فإنما أوردها ليحض على الاستعانة باللّٰه ، واللجوء إليه في قضاء الحوائج ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، وهي من هذه الزاوية تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله تمام الأداء) .

وينتقل إلى **الباب العاشر** وفيه يذكر نوعًا آخر من البلاء ، وهذا الباب مخصص لمن اشتد بلاؤه بمرض ناله ، فعافاه اللّٰه سبحانه بأيسر سبب وأقاله ، ونلمح هنا أنه أضاف سببًا لأسباب البلاء السابقة وهو المرض ، هو كذلك يعتمد على الروايات والحكايات .

ومن الحكايات التي يقصها : ما روي عن أبي بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق ، وكيف كان يعالج المرضى ، وكل الأمراض التي ذكرها في هذا الباب هي من عداد الأمراض الجسمية ، خاصة الأمراض المتصلة بالمعدة والجهاز الهضمي ، ولم يذكر شيئًا عما يمكن اعتباره أمراضًا نفسية مما يدخل في اهتمامات علم النفس الإكلينيكي .

وما قيل عن الأبواب السابقة ينطبق على **الباب الحادي عشر** ، فهو فيمن امتحن من لصوص بسرقة أو قطع ، فعوض عن الخلق بأكمل صنع ، وهو نوع من البلاء يضاف إلى ما سبق من أنواع البلاء والاختبار .

والباب الثاني عشر : عمن ألجأه الخوف إلى هرب واستتار ، فأُدْرِكَ بأَمْنٍ وَمُسْتَجَد نِعَمٍ ومَسَار . وبرغم أن هذا الباب نسخة مما سبقه في أسلوبه وموضوعه فإنه يختلف عن بعض الأبواب السابقة في أن موضوعه بصفة عامة وهو الخوف Fear يعتبر أحد الموضوعات التي يتم تناولها في دراسات علم النفس الحديث كأحد الانفعالات التي تدرس ضمن موضوعات علم النفس العام ، ويمكن أن يدرس من زاوية أخرى في علم النفس الفسيولوجي وهي الوقوف على التغيرات الفسيولوجية الداخلية ، المترتبة على الخوف وما يرتبط بها من مظاهر سلوكية خارجية ، ويدرس الخوف المرضي (الفوبيا Phobia) في الطب النفسي وفي علم النفس الإكلينيكي أيضًا (ص ١٠٤ - ١٤٨) ، وينطبق هذا الكلام على موضوع **الباب الثالث عشر** وهو فيمن نالته شدة في هواه ، فكشفها اللّٰه تعالى وملكه من يهواه ، والموضوع المقصود هنا هو (الحب) أو (العشق) أحد مراتبه ودرجاته ، ويدرس ضمن موضوع الانفعالات في علم النفس العام كما سلفت الإشارة (ص ١٤٨ - ١٩٠) .

ونصل إلى **الباب الرابع عشر** والأخير في هذا الكتاب ، وهو فيما اختير من مُلَح

الأشعار ، في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار ، والباب كله أبيات شعر لشعراء كثيرين تعضد المعاني السابقة التي وردت في أنواع البلايا والهموم وقد ساقها المؤلف دون شرح أو تعليق أو تحليل .

اوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال الإرشاد النفسي .

* * *

أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)
قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد [1]

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن علي بن عطية الحارثي ، أبو طالب المكي ، الزاهد ، الواعظ ، الفقيه ، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) ولكنه نشأ واشتهر بمكة ، ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال ، وروى بالإجازة عن عبد الله بن جعفر بن فارس وسمع صحيح البخاري من ابن يزيد المروزي ، وله أربعون حديثًا أخرجها لنفسه ، وكان على مذهب أبي الحسن بن سالم ، وذكره النديم في مصنف المعتزلة ، وسكن بغداد فوعظ فيها ، فحفظ عنه الناس أقوالًا هجروه من أجلها .

حدَّث عن علي بن أحمد المصيصي والمفيد وكان مجتهدًا في العبادة ، حدَّث عنه عبد العزيز الأزجي وغيره ، وقال الخطيب : ذكر في القوت أشياء منكرة في الصفات وهو أشياء مستشنعة ، وكان من أهل الجبل ونشأ بمكة ، قال لي أبو طاهر العلاف : إن أبا طالب وعظ ببغداد وخلط في كلامه وحفظ عنه أنه قال ليس على المخلوقين (أضر) من الخالق فبدعوه وهجروه فبطل وعظه . مات عام (٣٨٦هـ) .

من المؤلفات : له « قوت القلوب » : جزآن « ط » في التصوف ، « وعلم القلوب » – « خ » ، و « أربعون حديثًا » أخرجها لنفسه .

---

(١) القاهرة : مكتبة المتنبي ، [د . ت] ، (٢ ج) في (١) مجلد ، مع سراج القلوب وعلاج الذنوب / لأبي علي زين الدين المعيري ، حياة القلوب في كيفية الوصول للمحبوب / عماد الدين الأموي .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب مؤلف في التصوف من تصنيف الشيخ أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ﷺ ، يشتمل على ثمانية وأربعين فصلًا ، موزعة على جزأين .

عرض كتاب قوت القلوب وتلخيصه ، وبيان ما ورد فيه من مفاهيم سيكولوجية :

بدأ المؤلف ، كعادة كل المؤلفين المسلمين ، التقديم لكتابه بخطبة حمد اللّه فيها وأثنى عليه وصلى على سيدنا محمد بن عبد اللّه ، وذكر أن كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، يشتمل على ثمانية وأربعين فصلًا ، ثم بدأ عرض الفصول تباعًا على النحو التالي :

الجزء الأول :

الفصل الأول : أورد فيه المؤلف جميع أو معظم ما ورد في القرآن الكريم من آي الذكر الحكيم في شأن المعاملات والسعي في الأرض ورفع الهمة للإقبال على العبادة والمجاهدة ، ولم ترد فيه مفاهيم سيكولوجية يمكن استنباطها إلا أن القرآن كله هداية وطريق بل وأفضل الطرق لجلب الصحة النفسية والبدنية ، (ص ٤) .

الفصل الثاني : ذكر فيه المؤلف الآيات التي فيها أوراد الليل والنهار ، مثال ذلك : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴾ [المزمل : ٧ ، ٨] ، يمكن أن يستنبط من هذه الآيات بعض المفاهيم السيكولوجية وقوانين تكوينها مثل قانون التكرار في التعلم والاكتساب ، والتكرار يورث تكوين العادة Habit السلوكية الحميدة ، (ص ٥) .

الفصل الثالث : حاول المؤلف أن يسرد لنا ما يعمله المريد في اليوم والليلة من فرائض الأمور وفضائل الندائب أو النوادب من قبيل صلاة ركعتي الفجر ، ثم الاستغفار سبعين مرة ، ثم يسبح اللّه ويهلله مائة مرة ... إلخ ، أما من ناحية المفاهيم السيكولوجية ، فقد ورد في هذا الفصل ما يمكن استنباطه كطريقة أو كمنهج من مناهج تربية النفس الإنسانية على الطريق المستقيم ، ووصفه في نهاية هذا الفصل ، (ص ٥ ، ٦) لحال المصلي هي بالضبط سمات شخصية الإنسان الذكي الألمعي العبقري .

الفصل الرابع : أورد المؤلف ما يستحب من الذكر وقراءة الآيات المندوبة بعد التسليم من صلاة الصبح وحتى مطلع الشمس وقبل غروبها وإلى أن تغرب ، وهي مجموعة من الأدعية والأوراد ، وليس في هذا الفصل مفاهيم سيكولوجية جديدة غير ما تقدم ذكره .

الفصل الخامس : وفيه ذكر المؤلف مجموعة من الأدعية المختارة التي يستحب للمريد أن يقرأها بعد صلاة الصبح ، وكلها أوراد للمجاهدة وكبح جماح النفس الإنسانية للبُعد بها عن الرذائل ، وهذا من وجهة نظر علم النفس الحديث نوع من العلاج النفسي القائم على أساس من المنهج الروحي الإلهي ، ولكنه في حاجة عند تنفيذه لصاحب الهمة (ص ٨ ، ٩) .

الفصل السادس : حدثنا المؤلف عما ينبغي للمريد عمله وأداؤه بعد صلاة الغداة كتلاوة القرآن والذكر والتسبيح والحمد والثناء والتفكر في عظمة اللَّه ﷻ وآلائه ، وهنا نجد أسلوبًا آخر من أساليب تربية التأمل وإطالة التفكير وهنا نجد مفهومين جديدين من مفاهيم علم النفس الحديث هما : المثابرة ، وهو مواصلة الجهد والنشاط رغم وجود عقبات مختلفة ، والتفكير طويل المدى ، وهو إحدى القدرات العقلية العليا لدى الإنسان (ص ١٦ ، ١٧) .

الفصل السابع : حدثنا المؤلف عن ذكر أوراد النهار وبين أنها سبعة أوراد ، **وفي الفصل الثامن** : ذكر المؤلف أوراد الليل وهي خمسة تبدأ بعد المغرب حتى مطلع الفجر ، **وفي الفصل التاسع** أورد المؤلف صلاة الفجر وحكم ركعتيه وحكم الوتر ووقت القضاء له ، ومرة أخرى من ناحية علم النفس نقول : إن معظم مناهج الصوفية - وهذا أحد كتب التصوف - هي أساليب في رياضة النفس والمجاهدة حتى تتوفر لها الصحة النفسية ، ولكن لا يقوى ذلك إلا القليل من عباد اللَّه المخلصين (ص ٢٢) .

الفصل العاشر : شرح لمعرفة الزوال وزيادة الظل ونقصانه واختلاف ذلك في الصيف والشتاء ، وما يستنبط بطريقة غير مباشرة من هذا الفصل وهو تربية وتنمية القدرة على الاستدلال Reasoning لدى الإنسان المسلم ، ونحن أحوج ما نكون لتنمية هذه القدرات في هذا الزمان الذي نُعتنا فيه بالتخلف والتأخر (ص٢٤ ، ٢٥) .

الفصل الحادي عشر : كتاب فضل الصلاة في الأيام والليالي ، وفيه يبين المؤلف كيفية كل صلاة من صلوات النهار في كل أيام الأسبوع ، وكيفية صلاة الليل في كل يوم من أيام الأسبوع أيضًا ، ومن ناحية علم النفس ، إذا وقفنا وتأملنا حجم الثواب الذي يُعطى لمن يؤدي هذه الصلوات النافلة في أي يوم من أيام الأسبوع لعلمنا أن هذا أفضل أساليب تربية الهمة ودفع النشاط ورفع الدافعية لدى الإنسان Motivation بطريق الترغيب والإغواء ، وإذا كانت الدافعية تدخل ضمن موضوعات علم النفس

العام ، فإن الترغيب والإغواء من أساليب التخاطب في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس اللغوي Psyoholingustic (ص ٢٨ ، ٢٩) .

أما الفصلان الثاني عشر والثالث عشر : فقد أورد المؤلف فيهما فضل صلاة الوتر ، وفضل صلاة القيام بالليل عمومًا ، وما يستحب أن يقوله العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفي يقظته عند الصباح .

الفصل الرابع عشر : تحدث عن تقسيم الليل ونومه وتحدث عن أحوال القائمين والمتهجدين وأوصافهم وجزاؤهم ، وورد في هذا الفصل حديث عن الخوف والرجاء من جانب أهل قيام الليل ، وهذا يرادف أنواع من الانفعالات التي تندرج ضمن موضوعات علم النفس العام (ص ٣٥) ، وعمومًا كل هذا الكتاب إذا حللنا مضمونه بجزئيه سنجد أنواعًا من العواطف والوجدانات Emotions المتدفقة وكلها يدخل في موضوعات الانفعالات ، وهو كما سبق بيان ذلك من أهم موضوعات علم النفس العام .

الفصل الخامس عشر : حدثنا المؤلف عما يجب على العبد من أوراد للتسبيح والذكر والصلاة في اليوم والليلة ، وفضل صلاة الجماعة وذكر فضل الأوقات المرجو فيها الإجابة وذكر صلاة التسبيح وفضلها .

الفصل السادس عشر : تحدَّث المؤلف عن معاملة العبد في التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته ، وأنسب زمن (أسبوع) لختم القرآن ، ويستحب ختمه بالليل مرة وبالنهار مرة حتى تستغفر الملائكة للعبد بالليل والنهار ، وورد في هذا الفصل كلام كثير عن التأمل والتدبر والفهم والإدراك والتفكر ، وهذه كلها تندرج ضمن ما يعرف في علم النفس الحديث بالقدرات العقلية الأولية والعليا ، أو تعرف باسم القدرات المعرفية ، ورد ذلك في (ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨) .

الفصل السابع عشر : عرض المؤلف للمفصل من الكلام وفيه مدح العالمين وذم الغافلين عنه وتفسير الغريب والمشكل من القرآن باختصار الأصول الدالة على المعنى ، فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين وهو مجمل مختصر ومكرر ، فإجماله وانتصاره للبلاغة والإيجاز ومكرر وتفصيله للإفهام والتذكار ، وعرض كذلك للمختصر المحذوف ، وهو في كل ما ذكر في هذا الفصل يضع حلولًا لفهم المشكل من كلام القرآن الكريم .

أما من ناحية المفاهيم السيكولوجية في هذا الفصل ، فهو يعد بكامله فصلًا في الدلالات الرمزية والنفسية للغة ، (ص ٥٠ ، ٥١) ، وكذلك درس مفيد في دراسة

أحد أنواع التفكير وهي « التفكير المجازي بالألفاظ » Metaphor Thinking أو التفكير البلاغي (ص٥١ ، ٥٢) ، والمعنى الاصطلاحي أو الإشاري للغة والمعنى الدلالي لها ، وكلها بحوث تجري في علم النفس المعرفي وفي دراسة النفسية للغة .

الفصل الثامن عشر : فيعرض للأوصاف المكروهة للغافلين عن ذكر الله ، مثال ذلك : السهو والغفلة والعمى (عمى البصيرة) والحيرة ، وحديثه لنفسه .

وسماعه لوساوس الشيطان واتباعه الهوى وسيره خلف الظنون وعدم سيره خلف اليقين بأنواعه ، وعرض بعد ذلك لتلاوة القرآن والهدف منها ، وهو العمل به واتباع أوامره من الألف إلى الياء فهذا هو الطريق المستقيم ، وهذه كلها سمات شخصية العابد غير الغافل ، والعكس فيها بالعكس (ص ٥٨) .

الفصل التاسع عشر : وأردف فذكر نيات القارئ ونيات الجهر بالقراءة ، وفضل قراءة السر على قراءة العلانية كما تفضل صدقة السر على صدقة العلانية ، وفي هذا الفصل درس في النية والقصد Intention من الفعل أو السلوك الذي يقوم به الشخص ، ودرس في اليقين وعدم مراءاة الناس ، مما يدخل ضمن دروس وموضوعات علم النفس الاجتماعي في النية واليقين والاعتقاد (ص ٦٠ ، ٦١) .

الفصل العشرون : ذكر المؤلف ضرورة إحياء الليالي المرجو فيها الفضل وذكر مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة وهي خمس عشرة ليلة موزعة على المحرم ورجب وشعبان ورمضان وذي الحجة وليلة العيدين .

الفصل الحادي والعشرون : عرض لفضل يوم الجمعة ، وما يجب فيه من آداب ، وما ينبغي على المريد عمله ليلتها ويومها ، وبيَّن أنها فرض على أناس وتسقط على أناس هم الصبية والمملوكين والمرأة والمسافر والمريض .

الفصل الثاني والعشرون : عرض المؤلف للصيام كفريضة وفضائله ووصف الصائمين ووصف صوم الخواص وصوم العوام من الناس ، وذكر أن الصوم هو الصبر ، والصبر هو الصوم ، والصبر هنا في هذا الصدد يوازي في علم النفس المثابرة واستمرار الاجتهاد رغم الصعاب (ص ٧٣) ، وهذا يعلم النفس المجاهدة ويحثها على أمر المولى جل وعلا .

الفصل الثالث والعشرون : عرض المؤلف لطرق محاسبة النفس ومراعاة الوقت ، انطلاقًا من قول الله ﷻ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، ولقوله : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، وأفضل طرق تربية النفس

أن تعيش ما بين الخوف والرجاء ، والإقبال على الله وفعل الخيرات ، واتباع الحق ولو كان مرًا أو ترك الباطل ولو كان محببًا ، ومراجعة الأعمال التي تصدر عن النفس أولًا بأول ، وأعلاه مراقبة النفس .

وعلاقة كل ذلك بعلم النفس الحديث أن هذه الطرق تجسد المقالة الشهيرة أن الوقاية خير من العلاج أكثر من ذلك تقوية الضعفاء ورسم الطريق لهم وهؤلاء جماعة يقابلون ما يسمى في علم النفس المرضي : الجماعات الهشة التي تقع على حافة المرض النفسي High - Risk Groups (ص ٧٥ ، ٧٦) ، وتثبيت المذبذبين على الطريق السليم ، وحاول المؤلف أن يسوق عددًا من الأصول والقواعد التي تعد أساسًا لعلم الصحة النفسية ، (ص ٧٦ وما بعدها) .

الفصل الرابع والعشرين : أوقفنا المؤلف على ماهية الورد وعرفه بأنه اسم لوقت من ليل أو نهار يرد على العبد مكررًا فيقطعه في قربة إلى الله ويورد فيه محبوبًا يرد عليه في الآخرة ، والقرابة اسم لأحد معنيين أمر فرض عليه أو فضل ندب إليه وقد يكون الورد من الصلاة أو الذكر أو القرآن .. إلخ ، والهدف من الورد المكرر هو التقرب إلى الله والثبات على المبدأ وعدم سقوط النفس رقيقة للعادة السيئة ، فهدف العبادة النهائي هو تخليص الإنسان من رق العادات السيئة ومن عبودية البدع والاستقامة على الطريقة المثلى .

الفصل الخامس والعشرون : ذكر المؤلف تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين ، وبيَّن أن سبب النقصان أو الخلل في السلوك الإنساني سببه الغفلة (ص ٨٤) ، والغفلة تنشأ من اضطرابات النفس (آفات النفس) ، وفضلًا عن أن النفس مجبولة على الحركة رغم أنها أمرت بالاستقلال والسكون عن الهوى .

وعلاج ذلك صرف الهمة إلى ما يرضي الله ، والمفروض أن يخالف الإنسان كل ما تشتهيه النفس ، وهذا كلام يرادف ما ورد في علم النفس من أن النفس مجموعة من القوى والوظائف الحيوية التي تحرك الإنسان ، فإذا وافقت حركة النفس معايير المجتمع وأخلاقياته كان سلوكها حسنًا ، وإذا حدث العكس ، حدث نوع من الصراع على مستويات عديدة ، بين الفرد وذاته أو بينه وبين الآخرين (العلاقات الشخصية المتبادلة) ، أو بينه وبين المجتمع بأسره ، ثم أورد المؤلف أنواعًا وأخلاطًا وسمات تتصف بها هذه الأنفس المختلفة وهذا يرادف حديثنا عن سمات الشخصية الإنسانية سواء كانت سمات حسنة أو سيئة ، وذكر المؤلف (ص ٨٧ ، ٨٨) أن علاج النفس من كل شرورها

ووساوسها هو تقوى الله وهي مخافته في السر والعلن .

الفصل السادس والعشرون : حدثنا المؤلف فيه عن المراقبة ، فمن كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة ، وخير الأمور مراقبة الله في السر والعلن ، وطريق المراقبة هو ذكر الله الدائم وحساب النفس على ما فات ، وكل ما ذكره المؤلف في هذا الفصل يدور حول إنشاء طريقة أو منهج يحفظ للنفس استقرارها وعدم وقوعها في المعاصي والزلل .

ومن ناحية المفاهيم السيكولوجية حديث المؤلف عن شهوات النفس الذي يرادف حديثنا عن الدوافع والوجدانات والعواطف والمشاعر الإنسانية التي قد تكون حسنة وقد تكون سيئة (ص ٨٩ ، ٩٠) .

الفصل السابع والعشرون : وبيَّن فيه المؤلف الكيفية التي يمكن للشخص أن يكون بها عارفًا بالله أو مريدًا ، وعلة ذلك تنحصر في تنازله عن هذه الشهوات الثلاث : حب الدرهم ، وطلب الرياسة ، وطاعة النساء ، وذكر بعض العلماء أن الذي يقطع العبادة ، قلة الصدق في الإرادة والجهل بالطريق ونطق علماء السوء بالهوى ، فإذا ما فعل أي شخص عكس ذلك ، واستقام على الأوراد التي أثرت عن النبي ﷺ ، لأمكنه أن يكون عارفًا بالله ، وكان من الطبيعي بعد أن بين لنا المؤلف صفات العارف بالله وكيف يكون مريدًا ، أن يسوق لنا الكيفية التي تكون عليها مراقبة المقربين لله ومقامات المقربين ، وهذا ما دار حوله **الفصل الثامن والعشرون** .

واليقين كما سبق بيان ذلك هو في علم النفس رسوخ العقائد Beliefs أو الاعتقادات ، وهي مجموعة القيم التي تصبح معايير أخلاقية يسلك الفرد وفقًا لها (ص ١٠٠ - ١٠٥) ، ودرجات اليقين ومستوياته وأنواعه ، هي تدريج متصل من القيم والاعتقادات الفردية وصولًا إلى الاعتقادات المركبة .

ووفقًا لقوة اليقين والاعتقاد في الله ﷻ ، تكون مقامات المقربين وتمييزهم عن أهل الغفلة المبعدين ، وهذا جوهر **الفصل التاسع والعشرين** فهو يبين ما لهم من درجات عُلا ، في مقابل أهل الفكر الذين لهم الدركات السفلى من جهنم ، وما ورد في هذا الباب من كلام يدور حول غل الكافرين وغيرتهم من المؤمنين في الجنة وغير ذلك من وجدانات ؛ ليندرج تحت موضوع الانفعالات في علم النفس العام (ص ١١١ ، ١١٢) .

على أن المؤلف حينما أراد أن يتحدث عن خواطر أهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر ، خلط بين مفهوم النفس والعقل والقلب ، فالنفس أعم من كل ذلك فهي

تضم الجوانب المزاجية والبيولوجية والعقلية أو المعرفية ، فقد يستنير العقل وبنوره يستنير الوجدان ، وقد يظلم العقل لانسياقه خلف الوجدان ، فنظرة علم النفس الحديث ترى أن القلب هنا مقصود به العقل والجهاز العصبي المركزي عمومًا ؛ لأنه تصريف كل شؤون النفس بإعطاء الأوامر واستقبال التنبيهات (ص ١١٣) ، وهذا ما ورد في الفصل الثلاثين .

كذلك الحديث الذي ورد عن الحواس الخاصة بالجسم يرادف موضوع الحواس والإحساس في علم النفس العام ، أما الحديث عن الروح (ص ١١٤) فلا علاقة لعلم النفس به من قريب أو من بعيد ؛ لأنها أمر غيبي لا يعرف حقيقتها إلا اللَّه .

أما الحديث عن علاقة النفس بالعقل فهو حديث عن العلاوة بين حاجات النفس ودوافعها وبين العقل وتأثره بذلك ، (ص ١٢٢) ، فإذا قاد العقل النفس أشبع حاجاتها بالطرق المشروعة المقبولة اجتماعيًا وأخلاقيًا ، وإذا حدث العكس تلوث العقل وخضع لكل رغباتها ، وهذا أمر يلخصه السؤال الآتي : إلى أي مدى تكون للجوانب العقلية بطانة مزاجية وجدانية ، وهل تتغلب الجوانب العقلية على الجوانب الوجدانية ، أم العكس ؟ وكل ذلك يهيئ المناخ الذي يأتي السلوك الإنساني نتاجًا له فإما أن ينشرح العقل بفعل المنكرات والشهوات (إذا ما خضع لحاجات النفس) ، وإما أن يقودها بحيث يأتي سلوكها قويمًا .

ونتيجة لما سبق إذا تحكم العقل كانت النتيجة التوصل إلى معارف وعلوم لا حدود لها ويصبح الإنسان فاضلًا وعالمًا ، ولذلك كان من الطبيعي أن يأتي الفصل التالي :

الفصل الحادي والثلاثون : متحدثًا عن العلم وأوصاف العلماء وفضل علم المعرفة على سائر العلوم وأردف متحدثًا عن الفروق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وعلم الظاهر وعلم الباطن ، وكل هذا مبني على الأساس السابق ، حركة النفس ووسوستها أم حركة العقل وضبطه لنزعات النفس ، وانتهى من ذلك إلى أن العلم النافع ، هو العلم الذي يوصل إلى المعرفة باللَّه ، وهو علم التوحيد .

ويؤدي معرفة التوحيد واليقين باللَّه إلى التوكل عليه وهذا هو موضوع الفصل الثالث والثلاثين ، وأول الجزء الثاني من كتاب قوت القلوب .

الجزء الثاني :

من كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، للشيخ أبي طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي ، وفي مقام التوكل ذكر

المؤلف أحوالًا وعلاقات عديدة بين التوكل وبين أحوال المتوكلين ، وبينه وبين الأخذ بالأسباب التي خلقها الله ، وبينه وبين التكسب والتصرف في المعايش ، وبينه وبين الادخار ، وبين التداوي وتركه للمتوكل ، فإذا تركه المتوكل كان زاهدًا ، وهنا حاول المؤلف أن يشبه التوكل بالزهد .

بعد ذلك بيَّن أن المسلم يمكن أن يكتم الأمراض ويصبر على ذلك ، ويمكن أن يظهرها إذا لم يستطع الصبر لكن ينبغي ألا يجزع ، وبين فضل التارك للتكسب ، وبين حكم المتوكل إذا كان ذا بيت ، وذكر أحكام مقام الرضا عن الله والرضا عن الرزق ، وذكر أحكام المحبة ووصف أهلها ، وفي باب مطول حدثنا عن مخاوف المحبين ومقاماتهم في الخوف (ص ٥٨ - ٨٣) ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن الخوف وتعلمه خوف إرادي .

والفرق بين الخوف الإرادي والخوف المرضي ، أن الأول يتعلمه المرء ويتدرب عليه ولا يسبب له سوى مزيد من اليقين واستقرار النفس ، أما الجزء الثاني فهو من وجهة نظر علم النفس الحديث نوع من الرهاب بحيث يخاف الإنسان من أمور ليست موضوعًا للخوف مثل القطط والفئران والأماكن الواسعة ، ولهذا يسمى مخاوف مرضية Phobias وهي من الأمراض النفسية (ص ٥٨ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٣) .

وفي الفصل الثالث والثلاثين : ذكر المؤلف دعائم الإسلام الخمس التي بني عليها ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وهنا بين المؤلف شهادة الرسول ﷺ وصفتها وذكر فضائل هذه الشهادة ، ثم بين فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموحدين ، والفرق بينهم وبين ضعاف الهمة في صرف هممهم لإحراز مقتضياته .

وفي الصفحات من (ص ٩٠ - ١٢٢) ، نجد أنفسنا أمام أحد كتب الفقه الذي يشرح الركن الثاني ثم الثالث والرابع والخامس التي بُني عليها الإسلام ، فنجده يتحدث عن مسائل مهمة لا يستقيم الدين والإسلام إلا منها فرائض الاستنجاء حتى تصح الصلاة، وفرائض الوضوء ، وفرائض الطهارة وسنن الوضوء ، وفضائل الطهارة ، وصفة الغسل من الجنابة ، ثم تحدث بعد ذلك عن فرائض الصلاة قبل الدخول فيها ، مثل استقبال القبلة والنية والإقامة ... إلخ ، وتحدَّث عن سنة الصلاة وأحكام الصلاة في الفهم والإدراك ، وهيئات الصلاة وآدابها ، وفضائل الصلاة وأداء هذه الفضائل بكل ما لها من آداب ، والحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقفين ، وهنا يجب أن نشير إلى أن ما ذكر من فضائل وآداب للصلاة (ص ٩٣) وما بعدها ما هو إلا حديثنا في علم النفس الحديث عن إستراتيجيات

التدعيم والثواب والعقاب التي ترد في طرق التعلم والاكتساب .

وفي باب الصلاة تحدث المؤلف عما يجول بخاطر المصلي ، وأحكام الخواطر في الصلاة ، الصدقة وآداب العطاء ، وفي كتاب الزكاة حدثنا عن فرائض الزكاة ، والفرق بينهما وبين الصدقات وذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء ، وعن علاقة هذه الآداب بمفاهيم علم النفس الحديث ، لوجدنا أن مفهوم الآداب يرادف المعايير التي تقوم عليها عملية التنشئة الاجتماعية Socialization في علم النفس الاجتماعي ، وهي العملية النفسية التي بمقتضاها يتحول الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن نفسي (ص ٩٩) اجتماعي متحضر .

وفي كتاب الصوم ، حدثنا عن فقه فضائل الصوم ووصف الصائمين وأحوالهم وفي كتاب الحج ، ذكر فرائض الحج وفضائله وآدابه وهيئاته وفضائل الحجاج وطريق ومنهج السلف في ذلك ، ثم تحدث عن فضائل البيت الحرام وما جاء فيه ، وعرض في النهاية لمن كره المقام بمكة بلد اللّٰه الحرام ، وبهذا اكتملت أركان الإسلام الذي سرعان ما يرقى باليقين والأداء الدائم الملتزم إلى درجة الإيمان ؛ ولذا كان من المشروع والمنطقي أن يحدثنا في الفصل التالي عن الإسلام والإيمان .

الفصل الخامس والثلاثون : ورد فيه تفصيل الإسلام والإيمان وعقود السنة واعتقاد القلوب وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر وذكر دعائم الإسلام وأركان الإيمان واتصال الإيمان والإسلام ، وشرح لنا معاملة القلب من العلم الظاهر ، وتحدث بعد ذلك عن مباني الإسلام وأركان الإيمان ، وإذا كنا قد تحدثنا مسبقًا عن مباني الإسلام وأركانه الخمس ، فإن الإيمان ينصرف إلى أسماء اللّٰه وصفاته وكتبه وأنبيائه ورسله والملائكة والشياطين والجنة والنار والبعث بعد الموت ، والقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره .

وفي نظر علم النفس الإرشادي Counseling psychology هذه أركان الإرشاد النفسي والصحة النفسية (ص ١٢٨ ، ١٢٩) ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن علاقة الإسلام بالإيمان وانتهى إلى أنها علاقة عضوية لا تنفصم عراها أبدًا ، والفرق بينهما فرق في الدرجة ، درجة اليقين ، وليس فرق في النوع أو الكيف وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن ، وتحدث بعد ذلك عن أوجه التفضيل لبيان ما نقل عن المحدثين ، وبين درجات الاستثناء في الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف في ذلك ، وانتهى إلى صحابة رسول اللّٰه ﷺ الذين تعلّموا في مدرسة النبوة خير من يُنقل عنهم ويؤخذ منهم

الإسلام والإيمان ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يكون حديث المؤلف بعد ذلك منصبًا على فضائل الصحابة .

الفصل السادس والثلاثون : جاء موضحًا فضائل أهل السنة والجماعة والطريقة ، وبيَّن لنا طرق السلف من الأئمة ، فالسنة هي من أسماء الطريق وهو اسم الطريق الأقوم ، ومن فضائلها التقلل من الدنيا في كل شيء والقناعة من اللّٰه تعالى بأدنى شيء والتواضع للّٰه بكل شيء ، وورد في هذا الفصل (ص ١٤٠) حديث عن شهوات النفس والعادات ، وهذا يرادف حديثنا في علم النفس العام عن مفاهيم الحاجات والرغبات في نظرية الدافعية والدوافع ، وتكوين العادات في نظرية التعلم والاكتساب .

وإذا كان هذا الفصل قد تحدث عن خصال المسلم وواجباته نحو أخيه المسلم فإن **الفصل السابع والثلاثين** قد تناول عرضها للكبائر التي تحبط الأعمال وتُوبقِ العمال وبين أن اللّٰه اشترط لتكفير الصغائر من السيئات اجتناب الكبائر الموبقات وهي الشرك باللّٰه والسحر والقتل والزنى ورمي المحصنات واليمين الغموس وشهادة الزور والربا وأكل مال اليتيم بالباطل وعقوق الوالدين والسرقة والفرار من الزحف وفعل قوم لوط .. ، ولابد للمؤمن من توبة ، وتحدث هذا الفصل عن عرى الإيمان وجمل الشريعة ، وتحدث عن سنن الجسد وما يجب على المرء من أداء للنوافل كزكاة لأعضاء الجسد .

الفصل الثامن والثلاثون : شرح لنا الإخلاص والنيات والأمر بتحسينها في تصريف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها في الأفعال ، وبيَّن أنه لابد لكل عمل أو قول أو فعل نية ؛ لأن ذلك سيسأل عنه العبد في الآخرة أمام اللّٰه فإن كانت النية للّٰه وضعت في ميزان الحسنات وإن كانت لإشباع هوى وضعت في ميزان سيئاته ، ولا يتوفر الإخلاص إلا بنية صادقة خالصة لوجه اللّٰه .

والنية والقصد تحدثنا عنهما مسبقًا من حيث علاقة ذلك بعلم النفس الحديث .

الفصل التاسع والثلاثون : وعرض المؤلف فيه لترتيب الأقوات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات ، أما الأقوات فقد كان بعض السلف ينقص منها حتى يرد النفس إلى أقل قوامها ، فمن أراد هذا الطريق فينقص في أكله ربع سبع رغيف فيكون تاركًا رغيفًا في كل الشهر برياضة وتمهل فلا يؤثر النقصان عليه شيئًا حتى تقف النفس على الأكل في ثلث بطنها وهو ثلث أكله المعتاد ، وهذا طريق المريدين ، وهناك طريق آخر يتبعه العلماء وهو طريق زيادة الأوقات فيؤخر أكله وقتًا بعد وقت حتى ينتهي إلى أكثر طاقة

النفس لحمل الجوع فلا يضعف الجسم عن الغرض أو خشية اضطرابات العقل ، فمن أراد هذا الطريق أخرَّ فطره كل ليلة إلى نصف ربع الليل حتى يكون قد طوى ليلة في نصف شهر (ص ١٦٤) ، وهذا طريق من أراد تأخير أكله السبع والعشر وخمس عشرة يومًا إلى الأربعين ؛ لأنه يعمل في تجويعه على مزيد الأيام ولا يعمل في نقصان الطعام حتى لا يؤثر ذلك نقصًا في عقله ولا ضعفًا عن أداء الفرائض إذا كان على صحة قصد وحسن نية وصدق عقل .

ومادمنا نتحدث عن تأخير الطعام والإقلال منه ، فكان لابد أن يتحدث **الفصل الأربعون** عن الأطعمة وسنن تناول الطعام وما ينبغي أن يجتمع من الأطعمة على مائدة واحدة ، وما يشتمل على الطعام من الكراهة والاستحباب ، ولقد أفاض المؤلف في ذلك وجمع كل آداب الخاصة بتناول الطعام ، وما يستحب للمرء أن يفعله إذا كان ضيفًا أو إذا كان مضيفًا ، وآداب تقديم الطعام والإقبال عليه والرفع عنه والبدء بالفاكهة ، ثم الطعام واللحوم بالذات وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وذكر في الأثر أن تناول الطعام مع الإخوان له ثلاث فضائل : طيلة الجلسة فإن ساعة الطعام لا تحسب من العمر وتصلي الملائكة على الفرد ما دامت مائدته منصوبة وموضوعة بين يديه حتى ترفع ، والنفقة على الإخوان إذا أنفقها عليهم صاحبهم لا يحاسبه الله عليها يوم القيامة ؛ لأنه يستحي من ذلك (ص ١٨١ ، ١٨٢) .

والدرس المستفاد هنا بطريق غير مباشر هو حض الإسلام على الجماعة في كل أمر حتى في الأكل ، وهذا ما يوافق دروس علم النفس وموضوعاته في علم ديناميات الجماعة البشرية Group Dynamics وعلم النفس الاجتماعي وهو العلم الذي يدرس سلوك الأفراد كما يتشكل من خلال المواقف والتنبيهات الاجتماعية (ص ١٨١ ، ١٨٢).

الفصل الحادي والأربعون : فقد أفرده المؤلف لشرح فرائض الفقر وفضائله ونعت عموم الفقراء وخصوصهم ، وتفصيل قبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه ، فالفقراء أولياء الله إذا كانوا راضين عن أحوالهم .

الفصل الثاني والأربعون : تحدث عن المقاصد في الأسفار وأحكام المسافر وربط السفر بالعبادة والإيمان بالله ، فقال : إذا سنح للمريد سفر فليسافر فالأرض أرض الله وسكانها ، فإذا وجد رزقًا فليربح منه وليغتنم فهذه تجارة الآخرة ، وعليه أن ينظر حين السفر في آلاء الله وآياته حتى يزداد إيمانًا ، وفصل الخطاب في السفر (ص ٢٠٧) ، ومن لم يكن

له في سفره حال يشغله وهم يجمعه ووقت يحسبه ومأوى يظله ومسكن يؤنسه وزاد من باطنه وعلم من عالمه فإن الحضر أرفق به لحاله وأصلح لقلبه وأسكن لنفسه من السفر ؛ لأنه يكون في السفر مشتت السر مفرق الهم تارة بوجود معلوم يخاف عليه ومرة بفقد معتاد يحن إليه ، ومرة باستشراف إلى خلق يطمع فيه ، فمرة يضعف قلبه مع العدم وتارة يقوى بالاستطلاع إلى البشر ومرة يفزع بفقد ما عنده ، والسفر يجمع هَمَّ الأقوياء ويشتت قلوب الضعفاء ويذهب أحوال أهل الابتداء ، ثم إن من لم يصلح قلبه ولم يستقم حاله في الحضر فإنه لا يصلح حاله ولا يستقيم قلبه في السفر .

وجملة القول : إن السفر عمل من الأعمال يحتاج إلى نية وإخلاص فمنه فرض وهو ما هرب به من معصية ، ومنه فضل وهو ما طلب به طاعة ومنه مباح وهو ما ضرب به في تجارة ومنه معصية وهو ما سعى به في الفساد .

الفصل الثالث والأربعون : حديث مطول عن وصف الإمامة والمأموم وهنا إذا كان المريد إمامًا لقومه فعليه شروط لابد أن يؤديها ، لابد أن يكون مجتنبًا للكبائر والفسوق والعصيان وغير مصر على الصغائر قارئًا لكتاب اللّه ﷻ أو لما يحسن منه بغير لحن ولا إحالة معنى ، عالمًا بفرائض الصلاة وسننها وما يفسدها وما يوجب سجود السهو وما لا يوجبه منها ، وإن حدثت عليه حادثة في الصلاة لابد أن يخرج منها فورًا ويستخلف غيره من المأمومين .

الفصل الرابع والأربعون : وعقده المؤلف لدراسة الأخوة في اللّه تبارك وتعالى والصحبة والمحبة للإخوان فيه وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين ، وقد كانت المؤاخاة في اللّه تعالى والصحبة لأجله والمحبة له في الحضر والسفر طرائق للعاملين في كل طريق فريق لما في ذلك من الفضل ، ولما جاء فيه من الأمر والندب إذ كان الحب في اللّه ﷻ من أوثق عرى الإيمان وكانت الصحبة والألفة لأجله والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين ، وقد كثرت الأخبار في تفضيل أحسن أسباب المتقين ، وقد كثرت الأخبار في تفضيل ذلك والحث عليه ، والدرس المستفاد من هذا الفصل وعلاقة ذلك بالمفاهيم السيكولوجية أنه وضع لنا كثيرًا من الأسس التي ترادف ما وضعه علم النفس الحديث من معايير وأسس تحكم بناء الجماعة من ناحية وتحكم العلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد من ناحية أخرى ، وكلاهما يدرس في علم ديناميات الجماعة الذي سبق الحديث عنه (ص ٢١٥ وما بعدها) .

الفصل الخامس والأربعون : تحدث فيه المؤلف عن الزواج وأحكامه ومختصر أحكام النساء في ذلك ، فالنكاح فرض مع الحاجة وسنة على الكفاية ، ومن أهم فوائد الزواج التي وعد اللَّه بها عباده أن يغنيه ويكفيه الضياع والشتات وفقد المنزل والأثاث ، ومن أهداف الزواج العفة والعصمة والتقرب إلى اللَّه بذلك ، وإذا قلنا في الدين طريقان : طريق الأقوياء وهو أهل النكاح والصبر على أحكامه وعلى معاشرة النساء ، وطريق آخر للأقوياء بالصبر عنهن ووجود العصمة منهن والتفرغ للآخرة ، وكفى بها شغلًا ، وطريق آخر من وجود الوسوسة وخوف العنت لقوة الطبع وضعف الحال بوجود الاختلاط فيبدأ بالنكاح طلبًا للاستقامة والصلاح ، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد ، والحمد للَّه وحده .

الفصل السادس والأربعون : أوقفه المؤلف على ذكر أحكام وآداب دخول الحمام ، فالزواج وقضاء الحاجة تقتضي دخولنا الحمام ، فقد حرم رسول اللَّه ﷺ دخول النساء الحمام وحرمه على الرجال إلا بمئزر ، فإن دخلت المرأة الحمام ضرورة من علة أو حيض أو نفاس أو في شتاء فلا بأس ، وقد دخلت عائشة رضي الله عنها من سقم كان بها . ولكن لا بد أن ينهى الرجل زوجته وأهله عن دخول الحمام ؛ فإن لم يقبلن لم يحل له أن يعطيهن أجرة الحمام أن يليها للخدمة ذمية ، فقد نهى عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما عن ذلك ، وأكره للرجل أن يعطي امرأته أجرة الحمام فيكون معينًا لها على الإثم فإن نهاها فخالفته كان الإثم عليها .

الفصل السابع والأربعون : حدثنا فيه عن سبب المعاش والرزق ، وما يجب على التاجر من شروط العلم وشكر النعمة ، وفي هذا الفصل حث على السعي لكسب الرزق تعففًا عن المسألة وسعيًا على العيال ، وتعطفًا على الجار والمسكين والفقير والأرملة .

الفصل الثامن والأربعون : وهو الفصل الأخير ، فقد عقده المؤلف كما لو كان كتابًا في الفقه ؛ إذ شرح فيه تفصيل الحلال من الحرام وما بينهما من الشبهات ، وبيَّن كذلك فضل الحلال وذم الشبهة وتمثيل ذلك بصور مختلفة ، وتعريف ذلك للعقول والأفهام ، ولم يرد فيه ولا في سابقه مفاهيم سيكولوجية يمكن استنباطها غير التي سبق اشتقاقها .

أما عن فائدة هذا الكتاب من وجهة نظر السيكولوجيين ، أنه كتاب هداية للنفس وصقل لها ومساعدتها على الاتزان ، وهو منهج للطريق القويم ، ولكن له من الأسس ما يجعلنا نرشحه كتابًا في الإرشاد النفسي والتربوي ، وكتابًا في تعلم العادات الحسنة الجديدة ، وهو كتاب يقي من وقوع الإنسان فريسة للمرض النفسي .

* * *

البُستي (ت ٣٨٨هـ)
العزلة [١]

عرض د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

الإمام العلامة المفيد المحدث الرحال أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم خطاب البُستي الخطابي صاحب التصانيف ، سمع أبا سعيد بن الأعرابي بمكة ، وإسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد وأبا بكر بن داسة بالبصرة ، وأبا العباس الأصم وطبقته بنيسابور ، روى عنه الحكام وأبو حامد الإسفرايني وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوي وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي وأبو عمرو محمد بن عبد الله الرزجاهي وأبو ذر عبد بن أحمد الهروي اللغوي وأبو الحسين عبد الغفار الفارس ، وخلق سواهم .

وهم أبو منصور الثعالبي في اليتيمة حيث سماه أحمد بن محمد أقام مدة بنيسابور يصنف فعمل غريب الحديث وكتاب معالم السنن وكتاب شرح الأسماء الحسنى وكتاب العزلة - والذي نعرض له الآن - وكتاب الغنية عن الكلام وأهله وغير ذلك ، وكان ثقة ثبتًا من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمر ببغداد ، والفقه عن أبي علي بن أبي هريرة والقفال ، وله شِعر جيد . توفي الخطابي ببست في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

عرض الكتاب :

ويتضمن سبعة عشر بابًا نعرض لها على النحو التالي :

(١) خرج أحاديثه : عبد الغفار سليمان البنداري . بيروت : دار الكتب العلمية ، [د . ت] . (١١٩ص) .

١ - باب : في حكاية ما احتج به من أنكر العزلة : ويتضمن بعض الأحاديث والآيات التي تحث على الجماعة وتنفر من الفرقة بين المسلمين ، وقد قسمت العزلة إلى فرقتين ، الأولى : عزلة أو فرقة الآراء والأديان ، والثانية : عزلة الأشخاص والأبدان ، فالأولى محظورة في العقول محرمة في قضايا الأصول وتؤدي إلى الآراء المتناقضة وظهور طوائف شتى وأديان متباينة ، والثانية حكمها أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة ، بمعنى أنه إذا كانت مصلحة الفرد مرتبطة بمن حوله واعتزال الناس تضرر بوَحدته ، أما إذا كانت نفسه مستقلة فله الاختيار في اعتزال الناس ومفارقتهم إذا كان في مجانبتهم سلامة ، وفي التباعد عنهم راحة ، ولكن لا يجب هدم الحقوق الواجبة لهؤلاء الناس (كإفشاء السلام) والعادات المستحسنة فيما بينهم ؛ لأنها مستثناة من العزلة .

يقترب ذلك من مجال ديناميات الجماعة Group Dynamics إحدى فروع علم النفس الاجتماعي ، ويعنى أساسًا بالدراسة النفسية لسلوك الجماعات الصغيرة ، حول حياة الجماعة ، والعلاقات بين الأفراد داخل الجماعة الواحدة . كما يرتبط مضمون هذا الباب من حديث علماء النفس عن دوافع الأفراد لتكوين الجماعات الصغيرة سواء في نطاق الأسرة أو الفصل الدراسي أو محل العمل أو في اللعب والترفيه ... إلخ .

فالفرد ينضم إلى الجماعة لعدة أهداف بعضها داخلي (كإشباع حاجات معينة) ، وبعضها خارجي (فقد ينضم الفرد لجماعة معينة اعتقادًا منه في إمكانية عمل علاقات اجتماعية مستغلًا عضويته في تلك الجماعة) .

٢ - باب : ما جاء في العزلة : وذكر فيه عزلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وموسى عليه الصلاة والسلام ، وأصحاب الكهف ، وكذلك عزلة سيدنا محمد ﷺ لقومه لما جفوه وآذوه فأمر أصحابه بالاعتزال في شعب أبي طالب والهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، والعزلة هي سنة الأنبياء وعصمة الأولياء عند حدوث الفتنة في أي زمان فإذا لم يستطع أن يعيش إلا بمعاصي الله ﷻ وجبت العزلة ، كما حدث عند حدوث الفتنة بين علي ﷺ ومعاوية ، وقد ذكر فيها أحاديث كثيرة .

● ويقترب مضمون هذا الباب من تماسك الجماعة Group Cohesiveness ودرجة جاذبيتها ، فقد ذكر الباحثون في مجال ديناميات الجماعة أنه من العوامل المؤدية إلى نقص جاذبية الجماعة ، اكتساب الجماعة لخصائص كريهة وغير سارة ، كما تبيَّن أن من

يفضلون العزلة يخشون الجماعة نتيجة لنقص الثقة بالنفس .

٣ – باب : **في ذكر أسباب تسهل على المرء العزلة** : وتفطمه عن صحبة كثير من ذوي الخلطة ، ففي العزلة لا تجد أعوانًا على الغيبة ، وتسلم من آفة الرياء والنفاق ، وفيها السلامة من آفة النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها والتطلع إلى مباهجها ، كما أنها بها السلامة من الطمع ، والتطلع إلى ملك الدنيا الزائل ، وفيها الدفاع عن النفس – أيضًا – إذا كان من حولك كلهم أشرارًا ، وفيها السلامة من ذل الهوان ، كما أنها تستر الفاقة وتكشف جلباب التجمل ، بمعنى أنك لا تظهر عورة في جسمك قد تشمت عدوك فيه ، كما أنها تعين على العلم والرأي الرزين واستنباط الحكمة ، كما أن فيها السلامة من حتمية الضيف أو الصديق الثقيل ، وهو ما يسمى بالعمر الأصغر .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع أو مفهوم جاذبية الجماعة Group Attraction ومدى ما يتحقق له من مكسب وخسارة نتيجة الانضمام إلى الجماعة ، فالفرد – كما أوضح الباحثون في ديناميات الجماعة – يحاول الابتعاد والتخلص من عضويته في الجماعة إذا أصبحت محصلة الجاذبية أقل من صفر ، ولكنه يتخلى فعلًا عن الجماعة إذا زادت القوى التي تبعده عن الجماعة عن مجموع القوى الجاذبة ، وبوجه عام يشير مضمون هذا الباب إلى مزايا العزلة Isolation مقابل التفاعل مع الجماعة وتكوين الصداقات .

٤ – باب : **في خفة الظهر ، وقلة العيال والأهل** ، وفيه مدح لقليل المال وخفيف العيال ؛ لأنه إذا اعتزل الناس فلا ينشغل بما تركه وراءه من مال أو عيال ؛ ولأن كثير المال يمكن أن يفتن به ، ومن ليس له مال يكون في حاجة إلى الناس ، أما كثير العيال والأهل فإنه يكون مشغولًا بالكسب لهم .

● ويشير ذلك إلى اهتمامات الأفراد Interest ، كمؤشر يعكس قيمهم Values ، فالشخص كثير المال يتبنى القيمة الاقتصادية بدرجة كبيرة ، أما من ليس له مال ، أو ماله قليل فإنه يتبنى قيمًا أخرى كالصداقة Friendship والتفاعل مع الآخرين وكأن اهتمامات الفرد تؤدي به إلى احتضان قيم ودوافع دون غيرها .

٥ – باب : **في ترك الاستكثار من الأصدقاء وما يستحب من قلة الالتقاء** ، ويتضمن عددًا من الأحاديث التي تشير إلى الإقلال من صحبة الناس ؛ لأن كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه ، والرجل صلب الدين لا يصاحب إلَّا الأتقياء ، وهم قلة .

كما أنه به إشارة إلى الإقلال من الالتقاء بالأصدقاء حيث ذكر أن بعض الأصدقاء لا يلتقون إلا مرة كل سنة ؛ لأن تقارب القلوب لا يغيره تباعد الأجسام .

● ويرتبط ذلك بموضوع الصداقة Friendship وشروط اختيار الأصدقاء ، وعددهم ، فكلما قلَّت صداقات الفرد وانحصرت في عدد محدود كانت أفضل وأكثر تفاعلًا ، وأصبح الشخص قادرًا على اختيارهم بأفضل ما يمكن ، بحيث تتوفر فيهم الصفات والقيم الإيجابية .

٦ – **باب : في ترك ما لا يعني ، ورفض الاشتغال بما لا يجدي** ، ويشير إلى أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وعدم الكلام في ما لا يعنيه والصمت عن الأمور والقضايا التي لا تهمه وترك الغيبة وعدم المجادلة سواء مع الحليم أو السفيه ؛ لأنها ليست من الدين . أيضًا يجب عدم الاشتغال بما لا يعود عليك بفائدة ، كما أن من صفات المسلم الحق الشورى (الاستشارة) ولكن عليه أن يستشير من لا يتدخل في أموره فيما بعد .

٧ – **باب : في التحذير من قرناء السوء وحسن اختيار الجليس والصاحب** ، وينبهنا إلى أن نختار الأصدقاء والأخلاء من المسلمين ذوي الأخلاق الحميدة التي دعا إليها الإسلام ، ومصاحبة من تستفيد من فضائله وعلمه وأدبه ، فإن لم تجد فالوحدة خير من جليس السوء ؛ لأنه سوف يصيب من يصاحبه بالرذائل ويحط من هيبته ومنزلته عند الناس .

● ويقترب ذلك من الشروط التي يجب توافرها في الأصدقاء ، والقيم أو الفضائل الأخلاقية Moral Values التي يجب أن يتصفوا بها (كالصدق ، والأمانة ، والتدين ، والعلم ، والعقل ، والحكمة ... إلخ) ، وذلك كما يرى الكثير من علماء النفس ، وخاصة أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory ، والذين يؤكدون التعلم واكتساب أنماط ومظاهر السلوك من خلال وجود النموذج Model والتعلم بالعبرة ، Vicarious Learning أو المشاهدة لسلوك وتصرفات الآخرين .

٨ – **باب : في اختلاف طبقات الناس** ، فالناس أصناف وطبقات وبينهم تفاوت في الطباع والأخلاق ، فمنهم الخير والفاضل ، ومنهم الرديء والناقص والخبيث ، مثلهم مثل المعادن ، والمحن تكشف عن أسرارهم وبواطن أمورهم ، وقد شبه الناس في صفاتهم بالأنعام ، وقد أخبر الحق تبارك وتعالى عن وجود المماثلة بين الناس والدواب والطيور ، وهذه المماثلة تكمن في الطباع والأخلاق وليس من جهة الخلقة والصورة .

● ويقترب ذلك في علم النفس من مفهوم الفروق الفردية Individual Diffrences في الطباع والخصال بين الأشخاص باختلاف العمر وسمات الشخصية والإطار الحضاري وغير ذلك من العوامل الفسيولوجية والبيولوجية والاجتماعية والنفسية، وكذلك من ارتقاء السلوك البشري Development of Human Behaviour عن السلوك الحيواني في جوانب وصفات تميز الإنسان عن الحيوان (في الطباع والأخلاق) .

٩ - **باب : في ذكر أخلاق العامة ، وما يوجد فيهم من قلة الاستفاضة** ، وفيه ذكر أن الشر في الناس طبيعة ، وحب الخلاف والمجادلة عندهم عادة ؛ ولذلك يؤذون من لا يؤذيهم ويظلمون من لا يظلمهم ويخالفون من ينصحهم ، والإنسان يسلم من ذلك كله إذا مات فقط .

● ويرتبط ذلك بمفهوم الغريزة Instinct ، غريزة الشر والعدوان في النفس البشرية ، وهو مفهوم أكدت عليه بعض النظريات المفسرة لسيكولوجية الشخصية مثل ماكدوجل وفرويد .

١٠ - **باب : في التحذير من عوام الناس والتحرز منهم بسوء الظن وقلة الثقة بهم ، وترك الاستنامة إليهم** ، وفيه تحذير أو نصيحة في معاملة الناس بأن نسيء الظن بهم ولا نثق بهم تمام الثقة سواء في معاملتهم أو في كلامهم ، فقد قال عمر بن الخطاب ﷺ : « احترسوا من الناس بسوء الظن » .

● ويرتبط هذا الباب بكيفية التخاطب والتفاعل مع الآخرين Communication and Interaction فلكي يكون مصدر Source التخاطب جيدًا يجب أن يتسم بعدد من الصفات التي تكسبه مصداقية ، كالنزاهة والموضوعية والخبرة ، وغير ذلك .

١١ - **باب : في فساد الزمان وأهله** ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حثالة كحثالة الشعير** » ، وحثالة الشعير رذالته وما لا فائدة فيه ، وهي تعبير عن فساد الزمان وأهله ، وقد قل الناس وبقي من إذا استنصرتهم خذلوك ، وإن كنت رفيعًا حقروك ، وإن كنت عالمًا ضللوك ، فالناس طبقات : منهم السفيه الذي يجاهر بالشتم ، ومنهم من يشجو أخاه بغمز العين ، ومنهم من لا يعاجل بالسوء ولا يؤاخذ بالذنب ... إلخ .

● ويقترب ذلك من حديث بعض الباحثين عن موضوع التغير الاجتماعي Social Change والذي يصاحبه تدهور وانهيار في القيم الأخلاقية مع اختلاف العصور والأزمنة .

١٢ - باب : فيمن يتمنى الموت ، وآثر المرض والعمى على لقاء الناس ، ويشير إلى أن بعض الناس يتمنى الموت والعمى خوفًا من رؤية الآخرين من الإخوة والأصدقاء وقد هلكوا وتغير حالهم نحو الأسوأ .

١٣ - باب : في ترك الاعتداد بعوام الناس ، وقلة الاكتراث بهم والتحاشي لهم ، فيجب عدم الاهتمام بما يقوله الناس عنك وألا تغتر بكلام العوام وثنائهم ومدحهم لك وألا تثق بعهودهم وإخائهم .

١٤ - باب : في فساد الخاصة ، وما جاء في علماء السوء وذكر آفاتهم ، قال رسول اللّه ﷺ : « **إن آفة العلم ذهاب أهله ، وانتحال الجهال وترؤسهم على الناس باسمه** » ، وحذر الناس أن يقتدوا بمن كان من أهل هذه الصفة ، وأخبر أنهم ضلال مضلون ، وأنذر به ﷺ في حديث آخر . وقد صُنف طلاب العلم إلى ثلاث : صنف تعلموه للمراء والجهل ، وصنف تعلموه للاستطالة والانتهازية ، وصنف تعلموه للتفقه والعقل .

● ويقترب هذا الباب من مفهوم الاقتداء Modeling في مجال علم النفس الاجتماعي وخاصة لدى أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي ، كما يرتبط - أيضًا - بموضوع القيادة Leadership ، فهناك إشارة لضرورة أن يكون القائد والرئيس من العلماء الذين يعملون بعلمهم .

١٥ - باب : في آفات القراء ، وفيه تحذير من القراء الذين لا علم لهم ؛ لأنهم إن لم يرضوا عنك دبروا لك المكيدة والمؤامرة ، فهم يتميزون بسوء الخلق والجهل الذي يحملهم على الإعجاب بأنفسهم ، وظواهرهم تدعو الجهال من العامة إلى تعظيمهم والتعصب لهم ، ولكن هم والعلم على تضاد وخلاف ، وقد يتمكّن الشيطان منهم فيفعلون عملًا خاطئًا وهم يظنون أنهم على صواب ، لذلك فالعزلة تنفع العلماء العقلاء ، وهي من أضر الأضرار على الجهال .

١٦ - باب : في فساد الأئمة ، حذر الرسول ﷺ من إمارة السفهاء الذين لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته ، ووعد من يصدقهم بألا يشفع له يوم القيامة ، ومن لا يصدقهم فأولئك أصحابه . فأفضل الجهاد عند رسول اللّه ﷺ كلمة عدل عند سلطان ظالم ، فهناك تحذير من صحبة السلاطين ومجاراتهم في أهوائهم ، ونصيحة بالبعد عن مجالستهم .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم المجاراة أو المسايرة Conformity في علم النفس

الاجتماعي ، وكذلك مفهوم القيمة الأخلاقية كالصدق والأمانة (ص١٠٦ - ١١٠) .

١٧ - باب : في لزوم القصد ، في حالتي العزلة والخلطة . عاب الرسول ﷺ الإفراط في عبادة الخالق ﷻ ، والحمل على النفس مما يؤدي إلى قتلها ولكن يجب الدخول في الدين برفق ، فالإغراق في كل شيء مذموم وخير الأمور أوسطها .

● ويرتبط هذا الباب بشكل غير مباشر بظاهرة التطرف الديني والاتجاهات الدينية كموضوع يقع في دائرة اهتمام علم النفس الاجتماعي .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

إخوان الصفا (القرن الرابع)
رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف
د . معتز سيد عبد اللَّه
د . عبد اللطيف خليفة

التعريف بالمؤلفين :

تألفت جماعة إخوان الصفا في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) وكان موطنها البصرة ، ولها فرع في بغداد ، ولم يُعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك ، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام ، فقد ذكرت أسماؤهم وكأنها لم تذكر ، لجهل أخبارهم وأحوالهم ، فقيل إن أحدهم هو أبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي ، والآخر أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، ثم أبو أحمد المهرجاني، ويسميه المستشرق دي بور محمد بن أحمد النهرجوري ، فأبو الحسن العوفي ، فزيد بن رفاعة ، ويؤخذ من كلام لأبي حيان التوحيدي أثبته أحمد ذكي باشا في مقدمته لرسائل الإخوان ، أن زيد بن رفاعة كان متهمًا بمذهبه .

وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعِشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان اللَّه وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دُنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة

(١) بيروت ، دار صادر ، ٤ ج في ٤ مج .

الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية ، والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وتتألف جماعة الإخوان من أربع مراتب :

١ – مَن يملكون صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور . ولا يقل عمر العضو فيها عن خمسة عشر عامًا ؛ ويُسمَّوْن بالأبرار والرحماء ، وينتمون إلى طبقة أرباب الصنائع .

٢ – مَن يملكون الشفقة والرحمة على الإخوان . وأعضاؤها من عمر ثلاثين فما فوق ؛ ويُسمَّون بالأخيار الفضلاء . وطبقتهم ذوو السياسات .

٣ – مَن يملكون القدرة على دفع العناد والخلاف بالرفق واللطف المؤدّي إلى إصلاحه . ويمثل هؤلاء القوة الناموسية الواردة بعد بلوغ الإنسان الأربعين من العمر ، ويُسمَّون بالفضلاء الكرام ، وهم الملوك والسلاطين .

٤ – المرتبة الأعلى هي التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانًا . وهي قوة الملكية الواردة بعد بلوغ الخمسين من العمر ، وهي الممهّدة للصعود إلى ملكوت السماء ؛ وإليها ينتمي الأنبياء .

فمن النظر إلى هذه المراتب الأربع نرى بُعد أنظار الإخوان في بث دعوتهم في مختلف الطبقات لتعميم آرائهم وعقائدهم ؛ واعتمدوا في المرتبة الأولى على الشبان خصوصًا لسلامة صدورهم وشدة اندفاعهم في تأييد ما تستمال إليه قلوبهم ، مع ما هم عليه من مزية الارتياض بالطاعة وقبول العلم والإرشاد ، ونجدهم في رسائلهم يبعثون مندوبين من قبلهم إلى أشخاص من ذوي الرئاسة والجاه والمال ، ويوصونهم أن يتلطفوا في دعوتهم واستمالتهم إلى مذهبهم ليكونوا لهم سندًا تشتد به قواهم ، لما نالهم من الاضطهاد وسوء القالة ، فاستتروا تقية من السلطان ورجال الدين ؛ لئلا يتعرضوا لأخطار تؤذيهم ، فإنهم وإن كانوا من أهل الدعوات الباطنية ، ولهم قرابة بالقرامطة أو الإسماعيلية – فلقد خالفوهم في عقيدة الخروج على أولي الأمر ، والاستنصار بالفتك والترويع والاستيلاء على البلدان لبلوغ غايتهم ، وأحمدوا الإخلاد إلى السكينة ، وانتظار الوقت الملائم للثورة والعصيان . وتداعوا إلى العمل الصالح في تثقيف العقول والنفوس بمذهب يجمع بين الفلسفة والدين موفقًا بينهما من طريق المحبة وصفاء الأخوة فيزول ما علق بالشريعة من الجهالات والضلالات ، ويحصل الكمال للإنسان .

وكان عصرهم ، بحياتيه السياسية والفكرية ، يساعدهم على بث آرائهم في المجتمع الإسلامي ، فإن ضعف الدولة العباسية شجع العلويين على طلب الاستقلال وموالاة الثورات والفتن ، فظهر دعاتهم في المغرب والعراق واستولوا على النواحي القاصية ،

وأسسوا لهم ممالك فيها ، فكان منهم الأدارسة في المغرب الأقصى ، والعبيديون أو الفاطميون بالقيروان ، ثم بمصر ، والقرامطة بالبحرين ، والدواعي بطبرستان ، ثم فيها من بعدهم الديلم والأطروش ، وانبسط سلطان البويهيين على فارس والعراق ، وسلطان الحمدانيين على سورية الشمالية يضم إليه الجزية ما بين دجلة والفرات ، إلى العاصي في حماة وحمص ، فخروج العلويين المتواصل مكّن لهم في كثير من الولايات فسيطروا واستقلوا حتى غلبوا العباسيين على أمرهم في بغداد وصار الأمر لبني بُويه . ورافقتهم في ثوراتهم وفتنهم الدعوات الباطنية تنتشر في الأمصار داعية للرضا من أبناء علي ، أو مبشرة الناس بظهور المهدي ليطهر الأرض من الجور والفساد ، حتى باتت الخواطر على تنظُّر دائم لرسول تبعثه السماء ، ولخارجي مغامر يملك الأُرض ويحتل مكان مالك آخر .

والواقع أن ادعاءات الإخوان وراءها أسرار إذا انكشفت ظهرت حقائقها ، فإنها مدعاة للشك في إسلامهم ، فكلامهم على يسوع أنه عن ميمنة عرش الرب قد قرب مثواه كما يقرب ابن الأب ، ينطبق على العقيدة المسيحية لا على العقيدة الإسلامية ، ثم ما ذكروا بعده من أسماء يونانية وفارسية ، يكتنفها النور السماوي ، يدخل بهم إلى هيكل الوثنية ، ويحمل المسلمين على اتهامهم ، وإساءة الظن بهم ، وجاء تكتمهم في اجتماعاتهم مساعدًا على الريبة بهم .

ويرجع الإخوان مصادر علومهم إلى أربعة كتب : أولها المصنفة على ألسنة الحكماء من الرياضيات والطبيعيات ، وثانيها الكتب المنزلة ؛ كالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من صحف الأنبياء ، وثالثها الكتب الطبيعية وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها ... إلخ ، ورابعها الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة ، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام ... إلخ .

مصدر الترجمة : المجلد الأول من رسائل إخوان الصفا للمحقق بطرس البستاني ، بيروت : دار صادر .

عرض الرسائل :

قدم إخوان الصفا رسائلهم في أربعة أقسام أساسية هي القسم الرياضي ، والقسم الطبيعي ، وقسم النفسانيات والعقليات ، وقسم الآراء والديانات ، وقد قدمت هذه الأقسام من خلال أربعة مجلدات نعرض لتفاصيلها على النحو التالي :

المجلد الأول : القسم الرياضي :

ويقع المجلد في ٤٦٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على أربع عشرة رسالة في العدد ، وفي الموسوعة بجو مطريا في الهندسة وبيان ماهيتها ، والموسوعة بالأسطر ، ونوميا في علم النجوم وتركيب الأفلاك ، وفي الجغرافيا ، وفي الموسيقى ، وفي النسبة العددية والهندسية في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ، وفي الصنائع العلمية والغرض منها ، وفي الصنائع العملية والغرض منها ، وفي بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ، ونكت من آداب الأنبياء وزبد من أخلاق الحكماء ، وفي إيساغوجي ، وفي المتوالات العشر التي هي قاطيغورياس ، وفي معنى بارامانياس ، وفي معنى أنولوطيقا الأولى والثانية ، وفيما يلي نعرض للرسائل الثلاث التالية لما تشتمل عليه من بعض الدلالات النفسية :

رسالة في الصنائع العلمية والغرض منها : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، الأول في مثنوية الإنسان ، وفيه يوضح المؤلفون أنه لما كان الإنسان هو جملةً مجموعةً من جسد جسماني ونفس روحانية ، وهما جوهران مُتباينان في الصفات متضادان في الأحوال ، ومشتركان في الأفعال العارضة والصفات الزائلة ، صار الإنسان من أجل جسده الجسماني مريدًا للبقاء في الدنيا ، متمنيًا للخلود فيها ، ومن أجل نفسه الروحانية صار طالبًا للدار الآخرة ، متمنيًا للبلوغ إليها ، وهكذا أكثر أمور الإنسان وتصرف أحواله مثنوية متضادة ؛ كالحياة والممات ، والنوم واليقظة ، والعلم والجهالة ، والتذكر والغفلة ، والعقل والحماقة ، والمرض والصحة ، والفجور والعفة ، والبخل والسخاء ، والجبن والشجاعة ، والألم واللذة ، وهو متردد بين الصداقة والعداوة ، والفقر والغنى ، والشبيبة والهرم ، والخوف والرجاء ، والصدق والكذب ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والقبح والحسن ، وما شاكلها من الأخلاق والأفعال المتضادة المتباينة التي تظهر من الإنسان الذي هو جملةٌ مجموعةٌ من جسد جسماني ونفس روحانية . والمفاهيم السابقة تعبِّر عن مجموعة من سمات الشخصية يبرز خلالها مفهوم البعد أو المتصل ، كما أنها تشير إلى التكامل بين مفهومي النفس والجسم (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

وتلا ذلك الفصل الثاني في الصفات المختصة بالجسد والنفس ، وفيه أوضح المؤلفون أن الصفات المختصة بالجسد بمجرده هي أن الجسد جوهر جسماني طبيعي ذو طعم ولون ورائحة وثقل وخفة وسكون ولين وخشونة وصلابة ورخاوة وقوة ، وهو متكون من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان المتولدة من الغذاء الكائن من الأركان

الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض ذوات الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهو منفسد (أعني الجسد) ومتغير ومستحيل وراجع إلى هذه الأركان الأربعة بعد الموت الذي هو مفارقة النفس الجسد وتركها استعماله ، وأما الصفات المختصة بالنفس بمجردها فهي أنها جوهرة روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علَّامة بالقوة ، فعَّالة بالطبع ، قابلة بالطبع ، قابلة للتعاليم ، فعالة في الأجسام ، ومستعملة لها ، ومتممة لأجسام الحيوانية والنباتية إلى وقت معلوم ، ثم إنها تاركة لهذه الأجسام ومفارقة لها ، وراجعة إلى عُنصُرها ومعدنها ومبدئها كما كانت ، إما بربح وغبطة أو ندامة وحُزن وخُسران ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم أنماط الشخصية Personality Types ، ومفهوم العلاقة بين النفس والجسم (ص ٢٦٠) .

وتلا ذلك فصل في مثنوية الإنسان ومثنوية الأعمال ، وفيه يبيِّن المؤلفون أن قُنْيَة الإنسان نوعان : جسمانية كالمال ومتاع الدنيا ، وروحانية ، كالعلم والدين ، وذلك أن العلم قُنْيَة للنفس ، كما أن المال قنية للجسد .

وتلا ذلك فصل في العلم والمعلوم والتعلم والتعليم وأوجه السؤال ، وفيه يبيِّن المؤلفون أن العلم هو صورة المعلوم من نفس العالم ، وضده الجهل وهو عَجم تلك الصورة من النفس ، وأن أنفُس العلماء علَّامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة ، وأن التعلم والتعليم ليسا شيئًا سوى إخراج ما في القوة (يعني الإمكان) إلى الفعل ، (يعني الوجود) ، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي تعليمًا ، وإن نُسِب إلى المتعلم سمي تعلمًا . ويعد ذلك إشارة إلى مفهوم التعلم Learning (ص ٢٦٢) .

وتلا ذلك فصل في أجناس العلوم ، وأخيرًا أنهى المؤلفون الرسالة بفصل في العلوم الإلهية ، وهي خمسة أولها : معرفة الباري ، والثاني : علم الروحانيات ، والثالث : علم النفسانيات ، وهي معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية ، والرابع : علم السياسة وهي خمسة أنواع ، أولها : السياسة النبوية وهي معرفة كيفية وضع النواميس المَرضية والسنن الزكية بالأقاويل الفصيحة ، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة ، والآراء السخيفة ... إلخ ، والثاني السياسة الملوكية وهي معرفة حفظ الشريعة على الأمة ، وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والثالث : السياسة العامة التي هي الرياسة على الجماعات ، ويرتبط هذا الجزء السابق بمفهومي سيكولوجية السياسة Psychology of Politics (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) ومفهوم القيادة Leadership (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) ، والنوع الرابع هو السياسة الخاصة التي هي معرفة

كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته ، ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه ... إلخ ، وأخيرًا السياسة الذاتية وهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه ، وتفقد أفعاله ، وأقاويله في حالة شهواته وغضبه ورضاه ، والنظر في جميع أموره ، ويرتبط ذلك بمفهوم الوعي بالذات Self - Awareness (ص ٢٧٤) ، أما النوع الأخير من أنواع العلوم الإلهية فهو علم المعاد .

رسالة في الصنائع العملية والغرض منها : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، أحدها في الصورة والهيولى والأداة ، والثاني في أن موضع الصناع نوعان ، والثالث في الحاجة إلى الآلات والأدوات ، والرابع في أن النار من الأدوات المفيدة في الصناعة ، والخامس في مراتب الصناعات ، وفيه إشارة صريحة إلى مفهوم العائلات أو الفصائل المهنية في علم النفس الصناعي (ص ٢٨٦ ، ٢٨٧) ، والسادس في شرف الصنائع ، وفيه يوضح المؤلفون أن أكثر الصنائع أهلها متفاوتون في منافعها كاختلافهم في الملبوسات والمأكولات والمشروبات ، وهو ما يعد إشارة إلى مفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٨٨) .

وتلا ذلك الفصل السابع وهو في قابلية الإنسان الصنعة ، فقبول الصبيان تعلم الصنائع يختلف بحسب طباعهم المختلفة ، واختلاف طباعهم بحسب مواليدهم ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القابلية للتعلم (ص ٢٩٠ - ٢٩٢) .

وتلا ذلك الفصل الثامن وهو في الغرض من الملك ، وأخيرًا الفصل التاسع وهو في أن الجسم لا يتحرك من ذاته ، وفيه إشارة إلى مفهوم القدوة أو النموذج الاجتماعي Social model في التعلم ، حيث أوضح المؤلفون أن كل صانع من البشر لا بد له من أستاذ يتعلم منه صنعته أو علمه وذلك الأستاذ من أستاذ له قبلُ ، هكذا حتى ينتهي إلى واحد ليس عِلْمه من أحد من البشر ... إلخ (ص ٢٩٤) .

رسالة في بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ونكت من آداب الأنبياء وزبد من أخلاق الحكماء : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، يبدأها المؤلفون بفصل في قابلية الإنسان جميع الأخلاق ، ثم فصل في وجوه اختلاف الأخلاق ، فأخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه ، أحدها : من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها ، والثاني : من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها ، والثالث : من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأساتيذهم ومن يربيهم ويؤدبهم ، والرابع : من

جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم ، ومساقط نطفهم ، وهي الأصل وبقايا فروع عليهم .

وتلا ذلك فصل في اختلاف الأخلاق من جهة الأخلاط ، وفصل في خلق آدم ﷺ ، كما وجد في بعض كتب بني إسرائيل ، وفصل في تأثير طبيعة البلدان في الأخلاط فاختلاف البلدان في العديد من الخصائص يؤدي إلى اختلاف أمزجة الأخلاط ، واختلاف أمزجة الأخلاط يؤدي إلى اختلاف إخلاف أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياستهم ، لا يشبه بعضهم بعضًا ، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التي تقدم ذكرها لا يشاركها فيها غيرها ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بموضوع الدراسات الثقافية المقارنة . Cross - Cultural Studies والفروق الثقافية بين مختلف البلدان في مختلف المتغيرات النفسية والاجتماعية (ص ٣٠٢ - ٣٠٥) .

وتلا ذلك فصل في ماهية الأخلاق ، والشيء المهم في هذا الفصل هو الحديث عن مطلب في التربية ، فالعادات الجارية بالمداومة فيها ، تقوي الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها ، والدرس لها ، والمذاكرة فيها ، يقوي الحذق بها والرسوخ فيها ، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا ، والمثال في ذلك أن كثيرًا من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح ، وتربوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، وهكذا - أيضًا - كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين ، وتربوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، إن لم يكن في كل الخلق ففي بعض ، وعلى هذا القياس تجري سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر ، إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الإخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم ، وهذا الجزء على علاقة وثيقة بمفهوم التنشئة الاجتماعية (ص ٣٠٧) .

وتلا ذلك فصل في أن من الناس من يكون اعتقاده تابعًا لأخلاقه ، ومنهم من تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده ، وذلك أن من يكون مطبوعًا على طبيعة مِريخية فإنه تميل نفسه إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها التعصب والجدال والخصومات أكثر ، وهكذا - أيضًا - من يكون مطبوعًا على طبيعة مشترية ، فإنه تكون نفسه مائلة إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها الزهد والورع واللين أكثر ، وعلى هذا القياس توجد آراء الناس ومذاهبهم تابعة لأخلاقهم . وأما الذي تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد

رأيًا أو ذهب مذهبًا وتصوره وتحقق به ، صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نُصرة مذهبه ، وتحقيق اعتقاده في جميع مُتصرفاته ، فيصير ذلك خلقًا له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه له .

ويرتبط هذا الجزء بمفهوم التنشئة الاجتماعية (ص ٣٠٧ ، ٣٠٨) ومفهوم المعتقد Belief (ص ٣٠٧ - ٣١٠) ، ومفهوم الأخلاق Morality (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، ومفهوم الرأي Opinion (ص ٣٠٧) .

وتلا ذلك فصل في مراتب الأنفس ، وهي ثلاثة أنواع ، فمنها مرتبة الأنفس الإنسانية ، ومنها ما هي فوقها ، ومنها ما هي دونها ، وبعد ذلك أوضح المؤلفون بأن من الأخلاق والقوى ما هي منسوبة إلى النفس النباتية الشهوانية ، ومنها ما هي منسوبة إلى الحيوانية الغضبية ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الإنسانية الناطقة ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس العاقلة الحكيمة ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الناموسية الملكية ، فأما المنسوبة إلى النفس الشهوانية من الخصال والقوى التي تخصها ، فأولها شهوة الغذاء ، وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشهيات والرغبة فيها ، والحرص في طلبها ، واحتمال المشقة والذل من أجلها ، والفرح والسرور بوجدانها ، والراحة واللذة في تناولها ، والملل والشبع عند الاستكفاء منها ، والنفور من الضار منها والبغض له ، وأما المنسوبة إلى النفس الحيوانية المختصة بها من الخصال المركوزة في الجبلة زيادة على ما تقدم فهي شهوة الجماع ، وشهوة الانتقام ، وشهوة الرياسة ، ولها - أيضًا - الهياكل اللحمية ، والأعضاء المختلفة للأغراض العجيبة ... إلخ ، وأما المنسوبة إلى النفس الناطقة المختصة بها زيادة على ما تقدم ذكره ، فهي شهوة العلوم والمعارف والتبحُّر والاستكثار منها ، وشهوة الصنائع والأعمال والحذق فيها والافتخار بها ، وشهوة العز والرفعة والترقي في غايات نهايتها ، والشوق إليها والرغبة فيها ، والحرص في طلبها ، واحتمال الذل والمشقة من أجلها ، والفرح والسرور من وجدانها ، واللذة والراحة عند الوصول إليها ، والغم والحزن من فقدانها .

ويرتبط هذا الجزء بمفهومي الدوافع Motives وبخاصة الدوافع البيولوجية ، والانفعالات Emotions (ص ٣١٣ - ٣١٥) .

وتلا ذلك فصل في اختلاف مناهج النفوس ، فقد أعطيت النفس الناطقة من نعم اللّٰه تعالى وخُصت به من إحسانه ، من بين نفوس سائر الحيوانات ، وأعينت به على البلوغ

إلى أقصى مدى غاياتها ، وأيدت للوصول إلى تمام نهايتها ، هذا الهيكل العجيب البنية ، المحكم الصورة ، المتقن الصنعة الذي قد عجزت الحكماء عن كنه معرفته ، وتركيب بنيته من غرائب الصنعة مما قد وصف طرفًا منه في كتاب منافع الأعضاء وكتاب التشريح من كيفية انتصاب قامته من بين سائر الحيوانات ، وما خص به - أيضًا - من فصاحة لسانه وغرائب لغاته وفنون أقاويله وحسن بيانه من بين سائرها ، وما خص به - أيضًا - من طريق شكل يديه ، وما يتأتى له بهما من الصنائع المحكمة والأعمال المتقنة من بين سائرها ، وما خص به - أيضًا - من طرائف أدوات حواسه وغرائب طرقات إدراكها للمحسوسات ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception ، (ص ٣١٥) .

ومما خُصت به - أيضًا - النفس الناطقة الإنسانية من نعم اللّٰه تعالى وإحسانه العقل الغريزي وكثرة أعوانه وجنوده وخصاله المحمودة ، وهو ما يرتبط بمفهوم التفكير Thought ومفهوم العقل Mind (ص ٣١٦) .

وتلا ذلك فصل في ترتيب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة ، وفصل في مراتب الناس في الأخلاق حسب الأعمال ، وهذا الفصل يرتبط بمفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٣٢١ - ٣٢٣) .

وتلا ذلك فصل في السعادة أربعة أقسام ، فالناس ينقسمون في سعادة الدنيا والآخرة وشقائها أربعة أقسام : فمنهم سعداء في الدنيا والآخرة جميعًا ، ومنهم أشقياء فيها جميعًا ، ومنهم أشقياء في الدنيا سعداء في الآخرة ، ومنهم سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة .

فأما سعداء أبناء الدنيا وأشقياء أبناء الآخرة فهم الذين وفُر حظهم من متاعها ومكنوا منها وارتقوا فيها ، فتمتعوا وتلذذوا وتفاخروا وتكاثروا ، ولم يتعظوا بزواجر الناموس ، ولم ينقادوا له ولم يأتمروا لأمره ، وتعدوا حدوده ، وتجاوزوا المقدار ، وطغوا وبغوا وأسرفوا .

فأما السعداء في الدنيا والآخرة جميعًا فهم الذين وفر حظهم في الدنيا من المال والمتاع والصحة ، ومكنوا فيها ، فاقتصروا منها على البُلغة ورضوا بالقليل ، وقنعوا به ، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرة لأنفسهم .

وأما أشقياء الدنيا وسعداء الآخرة فهم الذين طالت أعمارهم فيها ، وكثرت مصائبهم في تصاريف أيامها ، واشتدت عنايتهم في طلبها ، وفنيت أبدانهم في خدمة أهلها ، وكثرت همومهم من أجلها ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها ، وائتمروا بأوامر الناموس ، ولم يتعدوا حدوده .

وأما أشقياء الدنيا والآخرة فهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا ولم يتمكنوا منها وشقوا في طلبها ، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان مُتعبة ونفوس مهمومة ، ولم ينالوا خيرًا ، ثم لم يأتمروا بأوامر الناموس ، ولم ينقادوا لأحكامه ، وتجاوزوا حدوده ، ولم يتعظوا بزواجره ، ولم يعملوا في عمارة بنيانه ولا في حفظ أركانه ، فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعًا . ويرتبط الجزء السابق بمفهوم السعادة Happiness كأحد أشكال الانفعالات الأولية (ص ٣٣١ ، ٣٣٢) .

ويتبين مما سبق أنه لا يخلو أحد من الناس من أن يكون داخلًا في أحد تلك الأقسام الأربعة ، وبالتالي نذكر أن أخلاق أبناء الدنيا وطباعهم تختلف عن أخلاق أبناء الآخرة وسجاياهم ، وهو ما يرتبط بمفهومي القيم الخلقية Moarl Values (ص٣٣٢ - ٣٣٨) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٣٣٢ - ٣٣٨) .

وتلا ذلك فصل في طلب العلم ، فاللّٰه تعالى فرض على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها ، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتركونها ، ولكن ليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد ، ولا أقرب له إلى ربه - بعد الإقرار به ، والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه - من العلم وطلبه وتعليمه ، وهو ما يرتبط ارتباطًا مباشرًا بمفهوم العلمية Scientific Values (ص ٣٤٦ ، ٣٤٧) .

ويحتاج طالب العلم إلى سبع خصال ، أولها السؤال والصمت ، ثم الاستماع ، ثم التفكر ، ثم العمل به ، ثم طلب الصدق من نفسه ، ثم كثرة الذكر أنه من نعيم اللّٰه ، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه ، كما أن العلم يكسب صاحبه ثماني خصال محمودة أولها الشرف وإن كان في الدنيا ، والعز وإن كان حقيرًا ، والقرب وإن كان بعيدًا ، والقدر وإن كان ناقصًا ، والجود وإن كان بخيلًا ، والحياء وإن كان صلفًا ، والمهابة وإن كان وضيعًا ، والسلامة وإن كان سقيمًا وهي مجموعة من الخصال لها علاقة بسمات الشخصية Personality Traits (ص ٣٤٨) .

كما أن للعلماء ، مع كثرة فضائل العلم ، آفات وعيوبًا وأخلاقًا رديئة تحتاج أن تتجنبها وتحذرها ، فمنها الكبر والعُجب والافتخار ، ومن آفات العلماء الخوض في المشكلات والترخيص في الشبهات ، وترك العمل بموجبات العلم ، ومن آفات العلماء - أيضًا - كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها .

كما أن هناك خصالًا ثلاثًا من أخلاق الشياطين ، هي كبر إبليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل ، وهي خصال من أمهات المعاصي وأصول الشرور ، ولها أخوات مُشكلات لها ، وفروع أغصان ومتفننات منها ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم العجب بالذات والتكبر (ص ٣٥١ - ٣٥٥) ، ومفهوم الحسد (ص ٣٥١ - ٣٥٥) .

وتلا ذلك فصل في الحرص والزهد ودرجات الناس ، ويرتبط مضمونه ارتباطًا مباشرًا بمفهوم الفروق الفردية (ص ٣٥٦ - ٣٥٨) ، ثم فصل في آفات الشبع وكثرة الأكل وخصال الزهاد ، ثم فصل في بيان علامات أولياء الله ﷻ وعباده الصالحين ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بسمات الشخصية (ص ٣٦٢ - ٣٦٤) ، ثم فصل فيما حكاه ولي من أولياء الله عن كيفية معرفة مكايد الشيطان ومحاربته معهم ومخالفته جنود إبليس أجمعين ، ثم تلا ذلك فصل في حكاية أخرى .

وتلا ذلك فصل في فضل التوبة والاستغفار والدعاء ، فالله ﷻ لم يذكر ذنوب أنبيائه وخطاياهم في القرآن شنعة عليهم ، ولا تقبيحًا لآثارهم ، ولا لسوء الثناء عليهم، ولكن ليكون للباقين قدوة بهم في التوبة والندامة والرجوع عن الذنوب والاستغفار لله ﷻ ، والإنابه إليه ، كما أمر الله بقوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [النور : ٣١] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وعلى ذلك يمثل الاستغفار والدعاء والتقرب إلى الله أحد أشكال العلاج النفسي الديني (ص ٣٧٣ - ٣٨٤) .

وأنهى المؤلفون هذه الرسالة بفصل في حسن التكليف وفصل آخر في أن الرغبة في الدنيا مع طلب الآخرة لا يجتمعان ، وفصل في عظات مختلفة .

المجلد الثاني من رسائل إخوان الصفا في الجسمانيات الطبيعية :

يقع هذا المجلد في ٤٨٦ صفحة من القطع المتوسط ويبدأ بالرسالة الخامسة عشرة وينتهي بالرسالة السادسة والعشرين من رسائل إخوان الصفا ، وهي : الرسالة الأولى : في بيان الهيولي والصورة والحركة والزمان والمكان وما فيها من المعاني إذا أضيف بعضها إلى بعض . والرسالة الثانية : الموسومة بالسماء والعالم في إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق . والرسالة الثالثة : في بيان الكون والفساد . والرابعة : في الآثار العلوية . والخامسة : في بيان تكوين المعادن . والسادسة : في ماهية الطبيعة . والسابعة : في أجناس النبات . والثامنة : في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها . والتاسعة : في تركيب الجسد . والعاشرة : في الحاسد والمحسود . والرسالة الحادية عشرة : في مسقط النطفة .

والرسالة الثانية عشرة والأخيرة في هذا المجلد : في قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير .

ومن بين هذه الرسائل انتقينا الرسالة العاشرة التي تقع في الصفحات من (٣٩٦- ٤١٦) وهي في الحاسد والمحسود في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق .

إن علم الإنسان بالمعلوم يكون من ثلاثة طرق : أحدها طريق الحواس الخمس الذي هو أول الطرق ، ويكون جمهور علم الإنسان ، ويكون معرفته بها من أول الصبا ، ويشترك الناس كلهم فيها وتشاركهم الحيوانات . والثاني طريق العقل الذي ينفصل به الإنسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ . والثالث طريق البرهان الذي ينفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس (ص٣٩٦ ، ٣٩٧) .

والحواس هي آلات جسدية وهي خمس : العين ، والأذن ، واللسان ، والأنف ، واليد ؛ وأما القوى الحساسة فهي قوًى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد ، وأما المحسوسات فالأشياء المدركة بالحواس والمدركة بالحواس هي أعراض حالة في الأجسام الطبيعية مؤثرة في الحواس مغيرة لكيفية مزاجها ، والحس هو تغييرات مزاج الحواس عن مباشرة المحسوس لها ، والإحساس هو شعور القوى الحساسة لتغييرات كيفية أمزجة الحواس (ص ٤٠١) ، والحديث هنا يمس عددًا من الموضوعات والمفاهيم السيكولوجية ، ومنها الإحساس Sensation باعتباره مقدمة للإدراك الحسي Sensory Perception ، والبلوغ Puberty والتنبيهات الحسية Sensory Stimulus .

ويلي ذلك فصل في كيفية إدراك القوة اللامسة للحرارة والبرودة ، ويوضح المؤلفون أن مزاج بدن الحيوان في دائم الأوقات يكون على قدر ما من الحرارات والبرودات ، فإذا لاقاه جسم آخر فلا يخلو من أن يكون ذلك الجسم أشد حرارة من البدن أو أشد برودة منه أو مساويًا له في ذلك ، فإن كان أشد حرارة منه ، زاد سخونةً ما عند ملاقاته إياه ، وإن كان أبرد منه زاد برودة ما ، فتحس القوة اللامسة بذلك التغيير والاستحالة ، فتؤدي خبرها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، وإن كان مساويًا لمزاج البدن في الحرارة والبرودة جميعًا فلا يغير منه شيئًا ولا يؤثر فيه ولا تحس القوى بشيء (ص ٤٠٣) ، والحديث هنا يتصل بإحدى الحواس وهي حاسة اللمس Touch ، وبه إشارة إلى دراسة لموضوع Localization الوظائف النفسية والجسمية في المخ وهو موضوع عناية علماء النفس العصبي Neuropsychology وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

ويلي ذلك فصل في كيفية إدراك الذائقة لمحسوساتها التي هي الطعوم ، وهي تسعة

أنواع : أولها : الحلاوة الملائمة لمزاج اللسان ، والثاني : المرارة المنافرة لمزاج اللسان ، والثالث : الملوحة ، والرابع : الدسومة ، والخامس : الحموضة ، والسادس : الحرافة ، والسابع : العفوصة ، والثامن : العذوبة ، والتاسع : القبوضة ، وإدراكها هو أن تتصل رطوبة هذه الطعوم برطوبة اللسان فتمتزجان فيتغير مزاج اللسان بحسب ذلك الطعم إن كان حلوًا فحلوًا ، وإن كان مرًّا فمرًّا وغير ذلك ، وأما كيفية إدراك القوة الشامة لمحسوساتها التي هي الروائح وهي نوعان : طيب ومنتن - فهو أن الأجسام ذوات الروائح يتحلل منها في دائم الأوقات بخارات لطيفة تمتزج مع الهواء مزجًا روحانيًا ، ويصير الهواء مثلها في الكيفية ، إن كان طيبًا فطيبًا وإن كان منتنًا فمنتنًا (ص ٤٠٥ - ٤٠٦) ، ويتطرق الحديث هنا إلى حاستين أخريين هما التذوق والشم وكيفية الإدراك لهما .

ويضيف المؤلفون بعد ذلك فصلًا في إدراك القوة السامعة ، ومحسوسات القوة السامعة هي الأصوات ، والأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية ، وهي نوعان : طبيعية وآلية ، والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية ، وغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات غير الناطقة ، والمنطقية هي أصوات الناس وهي نوعان : دالة وغير دالة ، وغير الدالة كالضحك والبكاء ، أو كل صوت لاهجاء له ، والدالة هي كالكلام والأقاويل التي لها هجاء ، (ص ٤٠٧) .

ويتعلق الحديث هنا بواحد من الموضوعات المهمة في دراسات علم النفس وهو الإدراك السمعي Auditory Perception ، وله تضمينات - أيضًا - في بعض دراسات سيكولوجية اللغة Psycholinguistics كاكتساب الأصوات وارتقائها إنتاجًا وفهمًا .

وعلى غرار الفصول السابقة نضيف فصلًا في إدراك القوة الباصرة لمحسوساتها وهي عشرة أنواع ، أولاها الأنوار والظُّلَم والألوان والسطوح والأجسام أنفسها وأشكالها وأبعادها وحركاتها وسكونها وأوضاعها (ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) ، ويتصل هذا الحديث - أيضًا - بالإدراك البصري Visual Perception .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك إلى فصل في كيفية وصل آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ ، فيوضحون أنه ينتشر من مقدم الدماغ عصبيات لطيفة لينة تتصل بأصول الحواس وتتفرق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت ، فإذا باشرت كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفيتها وصل ذلك التغيير في تلك الأعصاب التي في مقدم الدماغ والتي منشؤها من

هناك كلها ، فتجتمع آثار المحسوسات كلها عند القوة المتخيلة ، التي تدفعها إلى القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى في معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار (ص٤١١) ، ونجد هنا – كما سبقت الإشارة – فصلاً مبكرًا في تقسيم الوظائف والقدرات العقلية Mental Abilities ودراسة لموضعها في الدماغ Localization وهو من بين اهتمامات علم النفس العصبي Neuropsychology وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

ويلي ذلك فصل في ماهية اللذة والألم والتعب والراحة وكيفية إدراك الحواس ، فكل محسوس يخرج المزاج من الاعتدال ، فإن الحاسة تكرهه وتتألم منه ، وكل محسوس يرد المزاج إلى الاعتدال فإن الحاسة تحبه وتتلذذ به ، والراحة هي العقاب على الصحة والاعتدال ، والتعب هو التردد بين الألم واللذة ، (ص ٤١٣) .

وهنا عدد آخر من المفاهيم المستخدمة في علم النفس كالألم Pain ، والراحة Relief ، والتعب Fatigue ، واللذة أو المتعة Pleasure .

المجلد الثالث : الجسمانيات الطبيعيات والنفسانيات العقليات :

ويقع في ٥٤٤ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على بقية رسائل المجلد الثاني والخاصة بالجسمانيات الطبيعيات بدءًا من الرسالة الثالثة عشرة وحتى الرسالة السابعة عشرة ، وكذلك الرسائل الخاصة بجزء النفسانيات العقليات وعددها عشر رسائل ، وأخيرًا يشتمل المجلد على الرسالة الأولى من القسم الرابع والخاص بالعلوم الناموسية الإلهية والشرعية ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

الجسمانيات الطبيعيات : وفيه عرض المؤلفون لبقية رسائل الجزء الثاني (الجسمانيات الطبيعيات) وهي الرسالة الثالثة عشرة في كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية ، والرسالة الرابعة عشرة في خاصية اللذات وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما ، والرسالة السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات ، وفيما يلي نعرض للرسالة السادسة عشرة لما لها من أهمية ودلالة نفسية .

رسالة في خاصية اللذات وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما : بدأ المؤلفون الرسالة ببيان أن اللذة والألم نوعان : جسمانية وروحانية ، وهكذا حُكم أخواتها ، فأما اللذات الجسمانية فهي الراحة التي تُحس بها النفوس الحيوانية عند زوال الآلام ، وأما الآلام التي تُحس بها النفوس الحيوانية عند خروج المزاج عن الاعتدال من الأمر الطبيعي إلى أحد

الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب ، فهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله تعالى ، ولكن نذكر منها طرفًا لتعلم ماهية الآلام واللذة وكيفية حدوثهما ، وبعد ذلك إشارة صريحة لمفهومي اللذة والألم (ص ٥٢ ، ٥٣) .

ومن ذلك ماهية لذة الأكل والشرب ، وهو ما يرتبط بدافعي الجوع والعطش كشكلين من أشكال الدوافع البيولوجية ، وكذلك لذة الجماع ، وهو ما يرتبط بالدافع الجنسي كدافع بيولوجي أيضًا (ص ٥٣ ، ٥٤) ، وكذلك اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند السكون والهدوء والنوم ، وهو ما يرتبط بدافع التعب والحاجة للراحة (ص ٥٤) .

والحيوانات في دائم الأوقات تتفرج وتستريح تارة من ألم الحرارة إلى ضده ، وتارة من ضده إليه ، وإن اللذات الجسمانية إنما هي من خروج الألم ، فهو خروج من الاعتدال إلى أحد الطرفين إما إلى زيادة أو إلى نقصان ، أو من حر إلى برد ، أو من برد إلى حر ، أو من حركة إلى سكون ، أو من سكون إلى حركة ، أو من جوع وعطش إلى شبع وري ، أو من شبع وري إلى جوع وعطش ، وعلى ذلك المثال والقياس يوجد حُكم سائر اللذات والآلام ، ويرتبط ذلك بإحدى خصائص الدافعية وهي الطابع الدوري Cyclic Character وبدورة كاملة تبدأ بالحاجة الشديدة إلى إشباع الدوافع ، ثم الإشباع وخفض التوتر ، ثم الحاجة مرة أخرى (ص ٥٤ - ٥٦) .

وتلا ذلك فصل في ما العلة في وصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر ماهية الألم واللذة وكيفيتهما ، وفيه يبين المؤلفون أن اللذات والآلام التي تحفظ أجسادها من التلف ، وتحثها على صيانتها نوعان : جسماني وروحاني ، فاللذات الجسمانية التي تجدها النفس عند الخروج من الألم ، والآلام التي تُحسها النفس عند خروج مزاج الأجساد عن الاعتدال الطبيعي إلى حد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب هي كثيرة لا يحصى عددها ، مثال ذلك : الجوع أحد الآلام التي تحس به النفس عند خلو المعدة من الطعام ، وذلك أن الحرارة الغريزية التي تنضح الطعام في المعدة إذا لم تجد هناك طعامًا تكون مشتغلة ، فإذا اشتغلت في جرم المعدة فنيت رطوبتها المعدة هناك لمصالحها ، فإذا فنيت تلك الرطوبة انفسد جرم المعدة ، فإذا أحست النفس بالآلام انتهض الجسد في طلب القوت ليزيل عنه الفساد وعن ذاتها الألم ، فإذا وصل ذلك إلى المعدة رجعت تلك النار عن جرم الجسد ، واشتغلت عن ذلك الطعام ، وسكن الالتهاب عن جرم المعدة ، فتجد النفس لذلك راحة ، فتسمى تلك الراحة لذة ، والأمر نفسه

بالنسبة للعطش وغيره ، ويرتبط ذلك بمفهوم إشباع الدوافع (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وبمفهوم الطابع الدوري للدوافع (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وبمفهوم الدوافع البيولوجية عمومًا (ص ٥٩ ، ٦٠) .

وأعقب ذلك فصل في كيفية وجدان اللذة والألم معًا في وقت واحد ، فالإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عدة وجوه ، مثال ذلك : العاشق يرى معشوقه وهو على خيانة ، فتسره رؤيته له ويلتذ بها ، وتغمه خيانته له وتؤلمه ، ويعد ذلك إشارة إلى مفهوم اللذة والألم (ص ٦٦) .

واللذات أربعة أنواع : شهوانية طبيعية ، وحيوانية حسية ، وإنسانية فكرية ، وملكية روحانية ، فاللذات الشهوانية الطبيعية هي التي تجدها النفس عند تناول الغذاء من الطعام والشراب وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات ، وأما اللذات الحيوانية أيضًا فهي نوعان : إحداهما ما تجدها النفس عند الالتئام ، وهي لذة الجماع ، والأخرى ما تجدها عند الانتقام وهي شهوة تهيج عند الغضب ، واللذات الحيوانية الحسية مشتركة بين الإنسان والحيوان دون النبات . واللذات الفكرية هي ما تجدها النفس من اللذة عند تصورها معاني المعلومات ، ومعرفتها بحقائق الموجودات ، وهي مشتركة بين الإنسان والملائكة دون الحيوان ، أما الملكية الروحانية فهي ما تجده النفس من الراحة واللذة بعد مفارقتها الجسد التي هي الروح والريحان ، وهي مختصة بالنفوس المفارقة للأجسام الناجية من بحر الهيولي ، ويرتبط هذا الجزء بمفهومي اللذة والدوافع البيولوجية (ص ٦٨- ٩٦) .

وتلا ذلك فصل في أن من الآراء والاعتقادات ما هو مؤلم لنفوس معتقديها ومُؤْذٍ لها ، ومثلها ما هو مفرح ومسر وملذ لها (ص ٧١ - ٧٨) يرتبط هذا الجزء بمفهوم الانفعالات Emotions (ص٧١ - ٧٨) ، ومفهومي اللذة والألم (ص٧١ - ٧٨) .

وتلا ذلك فصلان في كيفية وصول الآلام إلى النفوس الشريرة بعد مفارقة أجسادها ، وكيف تكون من جنود إبليس وحزب الشياطين ، وفي ماهية الشياطين وجنود إبليس أجمعين ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الوساوس Obsessions (ص ٧٩ - ٨٣) .

رسالة في العقل والمعقول : إن العقل اسم مشترك يقال على معنيين : أحدهما ما تشير به الفلاسفة إلى أنه أول موجود اخترعه الباري جل وعز ، وهو جوهر بسيط روحاني محيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية ، والمعنى الآخر ما يشير به جمهور الناس إلى أنه

قوة من قوى النفس الإنسانية التي فعلها التفكر والروية والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها .

ولما كان العقل الذي نحن في ذكره قوة من قوى النفس الإنسانية هو - أيضًا - قوة من قوى النفس الكلية ، والنفس الكلية هي فيض من العقل الكلي الذي هو أول فيض فاض من الباري جل وعز ، وهي كلها تسمى موجودات أولية ، احتجنا أن نذكر أولًا أقسام الموجودات وما معنى الموجود ، ومعنى الوجود والعدم ، وطرق العلم بها ، فلفظة الموجود مشتقة من وجد يجد وجدانًا فهو واجد ، وذاك موجود ، فالموجود يقتضي الواجد ؛ لأنهما من جنس المضاف .

وإن كل واجد من البشر شيئًا - إذا وجدنا شيئًا - فإن وجدانه له لا يخلو من إحدى الطرق الثلاث : إما بإحدى القوى الحساسة ، وإما بإحدى القوى العقلية التي هي الفكرة والروية والتمييز والفهم والوهم الصادق والذهن الصافي ، وإما بطريق البرهان الضروري .

وأما معنى العدم فهو ما يقابل كل نوع من هذه الطرق الثلاث : فيقال معدوم من درك الحس له ، ومعدوم من تصور العقل ، ومعدوم من إقامة البرهان عليه ، وأما علم الباري جل ثناؤه بالأشياء فليس من هذه الطرق الثلاث ، بل أشرف وأعلى من هذه كلها .

كما أن الموجودات كلها نوعان : جسماني وروحاني ، فالجسماني ما يدرك بالحواس ، والروحاني ما يدرك بالعقل ويتصور بالفكر ، فأما الجسماني فهو على ثلاثة أنواع : منها الأجرام الفلكية ، ومنها الأركان الطبيعية ، ومنها المولدات الكائنة ، والروحاني - أيضًا - على ثلاثة أنواع : منها الهيولي الأولي الذي هو جوهر بسيط ، منفعل ، معقول ، قابل لكل صورة ، والثاني : النفس التي هي جوهرة بسيطة ، فعالة ، علامة ، والثالث : العقل الذي هو جوهر بسيط ، مدرك حقائق الأشياء ، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم العقل Mind والتفكير Thought ومفهوم الإحساس Sensation (ص ٢٣١- ٢٣٧) .

وللنفس الإنسانية قوًى كثيرة لا يحصي عددها إلا اللّه جل ثناؤه ، وإن لها بكل قوة في عضو من أعضاء الجسد فعلًا خلاف عضو آخر ، وإن نسبة القوى الحساسة إلى النفس فيما يأتون به إليها من أخبار محسوساتها كنسبة أصحاب الأخبار للملك قد ولى

كل واحد منهم ناحية من ممتلكاته ليأتوه بالأخير من تلك النواحي ، كما أن لها خمس قوًى أخرى نسبتهن إليها كنسبة الندماء إلى الملك ، وهي القوة المفكرة ، والقوة المتخيلة ، والقوة الحافظة ، والقوة الناطقة ، والقوة الصانعة .

وإن القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ من بين هذه القوى ، كالملك ، وسائرها لها كالجنود والأعوان والخدم والرعية ، يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات ، وما يظهرون من الصنائع والأعمال ، وإن موضعها من بين مواضع سائر القوى في أشرف عضو من الجسد وأخص مكان منه ، وإن أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوى ، وإن القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، نسبتها إلى القوة المفكرة بما تجمع إليها من أخبار المحسوسات ، كنسبة صاحب الخريطة إلى الملك ، ونسبة القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ ، ونسبتها إلى المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك ؛ ونسبة القوة الناطقة التي مجراها على اللسان إلى المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان إلى الملك ، ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدان والأصابع إلى المفكرة كنسبة الوزير المعين له في تدبير مملكته ، والمساعد له في سياسته لرعيته ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم وظائف المخ وتمركز الوظائف العقلية فيه (ص ٢٤١ ، ٢٤٢) .

كما أنه إذا أوصلت القوة المتخيلة رسوم المحسوسات إلى القوة المفكرة ، بعد تناولها من القوى الحساسة ، وغابت المحسوسات من مشاهدة الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم المصورة فيها كالهيولي ، وهي فيها كالصورة ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الإحساس Sensation ، ووصول المعلومات إلى المخ عن طريق الحواس ، وكذلك مفهوم التذكر ، وبخاصة الذاكرة البصرية Visual Memory (ص ٢٤٣) .

رسالة في ماهية العشق : يرى بعض الحكماء أن للعشق مساوئَ ، وزعموا أنه رذيلة ، ويرى البعض الآخر أن العشق فضيلة نفسانية ، ومدحه وذكر محاسن أهله ، وزعم البعض أنه مرض نفساني ، ومنهم من قال إنه جنون إلهي .

ومن الحكماء من زعم أن العشق هو إفراط المحبة وشدة الميل إلى نوع من الموجودات دون سائر الأنواع ، وإلى شخص دون سائر الأشخاص ، وكثير من الحكماء والأطباء يسمون هذه الحالة ماليخوليا ، ومن الحكماء من قال إن العشق هو هوًى غالب في النفس نحو طبع مُشاكل في الجسد ، أو نحو صورة مماثلة في الجنس .

وتضمنت هذه الرسالة - أيضًا - الحديث عن أنواع النفوس وأنواع معشوقاتها وعلل تلك وأسبابها ، فالنفوس ثلاثة أنواع : النباتية والشهوانية والغضبية أو الحيوانية ، وتكلم المؤلف عن الاتحاد بأنه هو خاصية الأمور الروحانية والأحوال النفسانية ، ثم تحدث عن مبدأ العشق ومراحله المختلفة ، فأوله نظرة أو التفات نحو شخص من الأشخاص ، ثم ينمو ذلك على مرّ الأيام حيث القرب من ذلك الشخص ، ثم الخلوة والمجاورة ، ثم الدخول في ثوب واحد ، والالتزام بجميع الجوارح أكثر ما يمكن .

ومن شأن النفس أن تتبع مزاج البدن في إظهار أفعالها وأخلاقها . ثم عرض المؤلف بعد ذلك لماهية علة فنون المعشوقات ، وقد يظن البعض أن العشق لا يكون إلا للأشياء الحسنة فحسب ، ولكن الأمر ليس كما ظنوا ، والعلة في ذلك هي الاتفاقات التي بين العاشق والمعشوق ، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلا اللّه ﷻ .

كما تضمنت الرسالة الإشارة إلى أنواع من المحبة ، كمحبة النساء للرجال ، وأن الغرض منها بقاء النسل ، وحفظ الصورة في الهيولي بالجنس والنوع ، كما أن هناك أنواعًا من المحبوبات كمحبة الحيوانات الازدواج والنكاح والسفاد ، لما فيه من بقاء النسل، ومحبة الأمهات والآباء للأولاد ، ومحبة الرؤساء للرياسات ، ومحبة التجار لتجاراتهم ، ومحبة البر والإحسان ، وذكر المؤلف مراتب النفوس وما يليق بها من المعشوقات ، فلا تجد نفسًا تحب وتعشق وتشتاق إلا لأبناء جنسها ، وأن الغرض الأقصى من وجود العشق هو تنبيه النفوس من نوم الغفلة ، ورياضته لها ، وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن النفوس الناقصة بأنها قصيرة الهمم ، لا تحب إلا زينة الحياة الدنيا ولا تتمنى إلا الخلود فيها ؛ لأنها لا تعرف غيرها ، ولا تتصور سواها ، وذُكر - أيضًا - في هذه الرسالة أن اللّه هو المعشوق الأول ، وأن كل الموجودات إليه تشتاق ، وإليه يرجع الأمر كله .

ويرتبط ما جاء في رسالة العشق بعدد من الموضوعات السيكولوجية ، وهي موضوع الانفعالات Emotions ، وخاصة انفعال الحب ، ومستويات الانفعالات وفوائدها ومضارها ، وموضوع العلاقات بين الجنسين ، والدوافع وخاصة الدافع الجنسي Sexual Motive (ص ٢٦٩ - ٢٨٦) .

المجلد الرابع : من رسائل إخوان الصفا في العلوم الناموسية الإلهية والشرعية الدينية :

يقع هذا المجلد في ٤٦٩ صفحة من القطع المتوسط ويضم الرسائل من الثالثة والأربعين

إلى الثانية والخمسين من رسائل إخوان الصفا ، والرسالة الثانية (يبدأ بها هذا المجلد) في ماهية الطريق إلى الله ﷻ ، والثالثة في بيان اعتقاد إخوان الصفا ومذهب الربانيين ، والرابعة في كيفية معاشرة إخوان الصفا وتعاون بعضهم مع البعض وصدق الشفقة والمودة في الدين والدنيا جميعًا ، والخامسة في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين ، والسادسة في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذاهب الربانيين والإلهيين ، والسابعة في كيفية الدعوة إلى الله ، والرسالة الثامنة في كيفية أحوال الروحانيين ، والتاسعة في كيفية أنواع السياسات وكميتها ، والعاشرة في كيفية نقد العالم بأسره ، والرسالة الحادية عشرة والأخيرة في هذا المجلد في ماهية السحر والعزائم والعين .

وسوف ننتقي منها ما له صلة بموضوعات علم النفس .

الرسالة الثانية في ماهية الطريق إلى الله ﷻ : تبدأ هذه الرسالة بمقدمة قصيرة في حمد الله والثناء عليه ، ويليها الفصل الأول وهو في الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ، ويبيِّن المؤلفون أن من الناس أقوامًا استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة ، لذلك ينبغي للمذكر لهم أن يكون طبيبًا رفيقًا يحسن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار بآيات الكتب الإلهية وما في أيديهم من أخبار أنبيائهم ، فإن ذلك كله إشارات للنفس بتذكرها ما قد غفلت عنه من أمر معادها ومعاشها ، وقد وجب على الحكماء ، إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين وكشف الأسرار للمريدين أن يروضوهم أولًا ، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب كيما تصفو نفوسهم وتطهر أخلاقهم (ص ٥ – ١٣) .

ويرتبط الحديث في الجزء السابق – بصفة عامة – بموضوعين في علم النفس ، وهما : القيم الأخلاقية Moral Values والتخاطب Communication في علم النفس الاجتماعي .

الرسالة الخامسة : وتقع هذه الرسالة بين صفحتي (٦١ و ١٢٣) من المجلد الرابع ، وهي مقسمة إلى فصول بعضها بعنوان وبعضها من غير عنوان ، ويبدأونها بحمد الله والثناء عليه ، ثم يوضحون سبب وضعهم للتفرقة بين العلم والإيمان ، ويلي ذلك فصل يؤكد أن نعم الله على الخلق كثيرة لا تحصى وما يخص الإنسان منها نوعان : أحدهما من خارج الجسد كالمال والقرين والولد ومتاع الدنيا ، والآخر داخلي ، فهو نوعان : أحدهما في الجسد كالصحة وحسن الصورة وكمال البنية والقوة والجلد ، والآخر في النفس وهو نوعان : أحدهما حُسن الخلق والآخر ذكاء النفس وصفاء جوهرها (ص ٦٢ ، ٦٣) ،

ويرتبط هذا الكلام – أيضًا – بالقيم الأخلاقية Moral values في علم النفس الاجتماعي .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك إلى فصل في ماهية الإيمان موضحين أن الإيمان خصلة تجمع الخيرات كلها ، وفضائل الملائكة ، والإيمان يقال على نوعين : ظاهر وباطن ، والإيمان الظاهر هو الإقرار باللسان بخمسة أشياء ، أحدها : هو الإقرار بأن للعالم صانعًا واحدًا حيًا قادرًا حكيمًا ، وهو خالق الخلق كلهم ، ومدبرهم لا شريك له ، والثاني : هو الإقرار بأن له ملائكة صفوة اللَّه من خلقه ، والثالث : الإقرار بأنه قد اصطفى طائفة من بني آدام ، والرابع : الإقرار بأن هذه الأشياء التي جاءت بها الأنبياء مأخوذة معانيها من الملائكة إلهامًا ووحيًا ، والخامس : الإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة .

وأما الإيمان الذي هو باطن فهو إضمار القلوب باليقين على تحقيق هذه الأشياء المقر بها اللسان (ص ٦٧ ، ٦٨) ، ويعتبر الإيمان من المفاهيم التي تشيع في دراسة المعتقدات Believes في علم النفس الاجتماعي .

ويلي ذلك فصل في ماهية التوكل ، وهو إحدى شرائط الإيمان وخصال المؤمنين ، كما أمر اللَّه ﷻ بالتوكل ، فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] ، والتوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها ، والناس كلهم متوكلون ، ولكن أكثر توكلهم على غير اللَّه ، من ذلك توكل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات ، والأغنياء متوكلون على ذخائرهم وأموالهم .

ولكن الحرص والرغبة في الزيادة يحثانهم على الطلب (ص ٦٨ ، ٦٩) وتبرز هنا عدة مفاهيم ترتبط بدراسات علم النفس ، مثل الحاجة Need والرغبة Desire ، وأمثلة للدوافع الأولية كالجوع Hunger والعطش Thirst والطاعة Obedience .

ويأتي بعد ذلك فصل في ماهية الإخلاص ، وهو من شرائط الإيمان أيضًا وخصال المؤمنين الإخلاص في العمل والدعاء ، كإخلاص الوالدين في تربية الأولاد دون انتظار الأجر ، وهناك أمثلة كثيرة لذلك ، ومنها كل ما يصيب الناس من الجهد والبلاء فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى اللَّه ، مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب الأخيار (ص ٧٠ ، ٧١) ، ويمكن الخروج من هذا الفصل بعدد من المفاهيم ذات الدلالات النفسية مثل الإخلاص ، وينتمي إلى موضوع القيم Values والتنشئة Socialization ، ومثيرات المشقة Stressores كأحداث الحياة Life Events .

وهناك - أيضًا - فصل في ماهية الصبر ، فالصبر - أيضًا - أحدث شرائط الإيمان وخصال المؤمنين ، وكما قيل : « الصبر رأس الإيمان » والناس أكثرهم يصبرون في الشدائد ، ولكن لا يكون صبرهم بالله ولا لله ، ويخفى على كثير من الناس ما في الشدائد من ضروب المصلحة لهم فلا يصبرون (ص٧٢ ، ٧٣) ويرتبط هذا الحديث بمفهوم التحمل Tolerance والمثابرة Persistence في علم النفس .

ويضيف المؤلفون لذلك - أيضًا - فصلًا في الخوف ، ويرون أن الخوف ينبغي أن يكون من الله فقط (ص ٧٥) والخوف Fear واحد من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام ، ويناقش المؤلفون - أيضًا - التشابه في الألفاظ وما يثيره ذلك من مشكلات ؛ ولذلك ينبغي إذا سمع شخص لفظة محتملة للمعاني ألا يحكم عليها حكمًا دون أن يتبين بعقله كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة ، لعله يفهم الغرض منها ، (ص ٧٨) وهذا الحديث يرتبط بشكل غير مباشر باهتمامات بعض علماء النفس المحدثين لسيكولوجية اللغة Psycholinguistics .

إن الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسماني في أحسن الصور ومن نفس روحانية من أفضل النفوس ، وأعلى رتبة ينالها الإنسان بجسده وأشرف رتبة يبلغها ببدنه هي سرير الملك والسلطان على أجساد أبناء جنسه والقهر والغلبة بالقوة العصبية (ص ٨٣) وهنا إشارة إلى الجانب الانفعالي Emotional في الإنسان ، ويدرس في علم النفس العام ، وكذلك إشارة إلى العلاقة بين النفس والجسد .

ويناقش المؤلفون - بعد ذلك - بشيء من الاستفاضة المنام والرؤيا وما يحدث فيها ، ويدللون بها على وجود النفس وشرف جوهرها (ص ٨٧ - ١٠٢) والأحلام Dreams كانت موضعًا لاهتمام علماء النفس في مرحلة معينة من تاريخ علم النفس ، كذلك يتعرض في ثنايا حديثه عن الرؤيا والأحلام للوساوس وحديث النفس ، والوسواس مرض عصبي يلقى عناية من علماء النفس الإكلينيكيين ، والأطباء النفسيين .

ويذكر المؤلفون قصة رجل من المنهمكين في الشهوات وطلب اللذات كان أكولًا شريبًا ، فمن كثرة ما كان يأكل ويجامع حرقت معدته وضعفت قوته الهاضمة واسترخت آلته من كثرة الجماع ، وكان ممكنًا من شهواته ولكن آلات الجسد وأدوات الفعل لم تكن تواتيه ، ولا قوة النفس الشهوانية تطاوعه في ترك الطلب ؛ لأن الشهوات ضارة عادة لها لكثرة الدراية فيه ، وجبلة مركوزة فيها (ص ١١٤) ونجد هنا إشارة إلى

الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش والجنس Sex وضرورة السيطرة عليها والاعتدال في إشباعها .

الرسالة التاسعة في كيفية أنواع السياسات وكميتها : وبها عدة فصول ، منها فصل في السياسة النفسانية وفيها يخاطب المؤلفون الإنسان قائلين فيكون أخلاقك رضية وعاداتك جميلة ، وأفعالك مستقيمة ، تؤدي الأمانة إلى أهلها كائنًا من كان ، وتحسن مجاورة جارك ، وتصفي مودة صديقك وتخلص المحبة لمحبك (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) وفي هذا الحديث إشارة إلى عدد من موضوعات علم النفس وهي القيم الأخلاقية Moral Values ، وسمات الشخصية الإيجابية Positive Personality Traits ، والمحبة Liking ، والمودة Intimacy .

وهناك فصل آخر في سياسة الأصحاب ، وسياسة الأصحاب لا تكون إلّا بعد المعرفة بهم والاطلاع عليهم ومعرفة أحوالهم وألّا يخفي من أهم صغيرة ولا كبيرة . ويعدد المؤلفون عددًا من الصفات التي ينبغي أن نتعامل بها مع الأصدقاء كاللين والأنس والكرم والانبساط (ص ٢٦٠) ويرتبط هذا بموضوع الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي .

* * *

أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ)
المقابسات [1]

عرض : د . طريف شوقي

التعريف بالمؤلف [2] :

هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي ، وهو من أصل فارسي ولد في بغداد سنة (٣١٢هـ) ، ونشأ بها ، ويقال : إن لقبه « التوحيدي » نسبة إلى التمر الذي كان أبوه يتاجر فيه في بغداد ، ويقال نسبة إلى توحيد الدين حيث كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وهو فيلسوف ، متصوف ، معتزلي ، وصفه ياقوت بأنه : « شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق المتكلمين ومتكلم المحققين وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه واسع الدراية والرواية » .

جمع بين الثقافة اليونانية والثقافة العربية ، وبرز في كل علوم عصره ، وهي النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام والمنطق والحديث والتفسير .

وقد سلك في كل مؤلفاته مسلك الجاحظ في مزج الأدب بالحكمة ، والتصوف بالفلسفة مع الاعتماد على الأسلوب القصصي في سرد الأحاديث والحوادث التاريخية ومحاولة التأثير في العقل والوجدان من خلال المسامرة والتحاور .

ومن مؤلفاته نذكر : « الإمتاع والمؤانسة » ، « البصائر والذخائر » ، « الصداقة

---

(١) تحقيق وشرح حسن السندوبي ، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى (١٩٢٩م) . (٣٩٩ ص) .

(٢) مصدر الترجمة : كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي .

والصديق » ، « المقابسات » ، « مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد » ، « الإشارات الإلهية » ، « المحاضرات والمناظرات » ، « تقريظ الجاحظ » ، « الرد على ابن جني في شعر المتنبي » ، « رياض العارفين » ، « في أخبار الصوفية » ، « الحنين إلى الأوطان » ، « الرسالة البغدادية » ، « الرسالة الصوفية » ، « في ثمرات العلوم » ... ومؤلفات أخرى .

اختلف الرواة في الحكم على مدى صلاح دينه ، فوصفه ابن الجوزي بأنه من أشر زنادقة الإسلام ، ووصفه آخرون ومنهم ابن النجار بأنه كان صحيح العقيدة .

وقد يرجع ذلك الاختلاف إلى تاريخ حياة أبي حيان ، فقد صاحب الوزيرين أبا الفضل ابن العميد ، والصاحب ابن عباد فترة ولم يرضياه فكتب كتابه « مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد » وفيه تحامل عليهما وعَدَّد نقائصهما مما أثار عليه غضب الوزيرين ، وساق عليه الصاحب ابن عباد من تصدوا له ورموه بالإساءة والزندقة ، ثم وُشي به إلى الوزير المهلبي فطلبه فاستتر منه أبو حيان ومات في استتاره ، ويُقال إنه بعد أن ساءت معيشته شعر أن كتبه لم تنفعه وضلت من يعرض قدرها فجمعها وأحرقها ولم يصل إلينا إلَّا ما أنقذ من الحريق .

لا تُعلم سنة وفاته على وجه التحديد ، ومن الروايات التي ذكرت أنها سنة (٣٨٠هـ) ، (٤٠٠هـ) ، أو (٤٠٣هـ) عن نيف وثمانين عامًا ، ويقال : إنه جاوز التسعين .

عرض الكتاب :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقابسات (١٠٦ مقابسة) ، وهذه المقابسات عبارة عن مقتطفات من مناظرات ومحاورات جرت في موضوعات شتى بين طائفة من العلماء والحكماء ومجالسيهم ، تحوي مجموعة من محاسن الكلام ودرر الحكم والأمثال ، ونقدم فيما يلي موجزًا لتلك المقابسات وما يمكن أن نستخلصه منها من عبر وأحكام ، ويلاحظ أن الغالبية العظمى منها تتناول موضوعات ذات طابع فلسفي وهي على النحو التالي :

١ – المقابسة الأولى : في تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية . وفيها يقول أبو سليمان المنطقي : « اعلم أنك لا تصل إلى سعادة نفسك وكمال حقيقتك وتصفية ذاتك ، إلَّا بتنقيتها من درن بدنك ، وصفائها من كدر جملتك ، وصرفها عن جملة هواك ، وفطامها من ارتضاع شهوتك ، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتك » ، (ص ١١٩) .

٢ – **المقابسة الثانية : وفيها يدور الحديث حول فوائد العلوم** : كالنحو ، والفقه ، والشعر ، والحساب ، والطب الذي يُعَرف بأنه يقصد بالطب استدامة الصحة مادامت الصحة موجودة (علم الصحة وخاصة الطب الوقائي) Hygiene وصرف العلة إذا كانت العلة عارضة (الطب العلاجي) ، (ص ١٢٠) ، وعلم النجوم الذي قيل عنه لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة ؟ وليس علم من العلوم كذلك ؟ وتدور المحاورة بين المؤيدين والمعارضين لهذا القول ، ويسوق كل فريق الحجج المدعمة لرأيه .

وفي ثنايا هذه المحاورة يشير أبو حيان لرأي قيل في ما يطلق عليه في علم النفس التنبؤ من السلوك الحالي بالسلوك المستقبلي ، والاستدلال من السمات على السلوك : Traits and Prediction of Behavior اللاحق حين يقول : « فلو وقف رجل له من الحزم نصيب من الفطنة قسط على هذا الملك العظيم ، وعلى المُلك الجسيم ، وسدد فكره ، وحدد همه ، وصرف ذهنه ، وتصفح حالًا حالًا ، وحسب شيئًا شيئًا ، وقدَّر أمرًا أمرًا ، وتأمل بابًا بابًا ، وتخلل شيئًا شيئًا ، لأمكنه أن يعلم ما يتم له هذا النظر ، وييسره هذا القياس ، ويصدره هذا الحدس ، ويقع عليه هذا الإمكان ، لما سيعلمه هذا الملك غدًا ، أو يسديه بعد غد ، وما يتقدم به إلى شهر ، وما يكاد يكون منه إلى سنة أو سنتين ؛ لأنه على الأحوال مَليا ، ويجلوها جلوًا ، ويقايس بينها قياسًا ، ويلتقط من الناس لفظًا لفظًا ، ولحظًا لحظًا ، ويقول في بعضها : يترك كذا وكذا ، ويفعل كذا وكذا ، وإنما جرأ هذه الجرأة على الحكم والبت ؛ لأنه قد ملك لحظ الملك ولفظه ، حركته وسكونه ، وتعريضه وتصريحه ، وجده وهزله ، وسجيته وتجعده ، ووجومه ونشاطه ، وانقباضه وانبساطه ، وغضبه ومرضاته ، ونادره ومعتاده » ، (ص ١٣٠) .

٣ – **المقابسة الثالثة** : وتدور حول موضوع مهم وهو قابلية الأخلاق والعادات والسلوك للتغيير ، وكيف أن هذه القابلية نسبية بمعنى وجود سلوكيات يسهل تعديلها ، وأخرى تستعصي على هذا التعديل (تفاوت السلوك في القابلية للتعديل) Variance of Behavior in Modifiability ويوضح هذا المعنى بقوله : « قطب هذه المذاكرة في الأخلاق ، على أن تهذيبها وتطهيرها وردها إلى مقارها ، وتسويتها وتعديلها من الصعب المتعسر ، والممتنع المتعذر ، لكنها مع هذا كله ممكنة من نفسها في أشياء خاصة ، وفي مواضع معلومة ، بعض الإماكن وضامنة الاستحالة فيها بعض الضمان ، فعلى هذا لا ينبغي أن يطمع في إصلاحها كل الطمع ، ولا يقطع الرجاء عن إصلاح الممكن منها كل القطع » ، (ص ١٤٠) .

وتتسق هذه النظرة مع التصورات الحديثة في مجال تعديل السلوك ، والقائلة بأن بعض السلوكيات ، والقيم ، والاتجاهات تكون أسهل نسبيًا ، وأكثر قابلية للتغيير من الأخرى ؛ كمثل أن الآراء أكثر قابلية للتغيير من الاتجاهات ، والقيم أقل قابلية للتغيير من الاتجاهات ، وداخل الفئة الواحدة من الاتجاهات ثمة اتجاهات أكثر قابلية للتغيير من أخرى وهكذا .

٤ – **المقابسة الرابعة** : ومحورها الناموسي الإلهي وفوائده الدنيوية للمجتمعات والأفراد .

٥ – **المقابسة الخامسة** : في أهمية علم التنجيم ، ومواطن تفضيل بعض البشر على بعض .

٦ – **المقابسة السادسة** : في علة تفاوت وقع الألفاظ في السمع ، والمعاني في النفس ، ويجيب أبو بكر القومسي عن هذا السؤال بطريقة فلسفية تتفق مع ثقافته حيث كان كما وصفه أبو حيان كبير الطبقة في الفلسفة .

٧ – **المقابسة السابعة** : وفيها يتحدث أبو سليمان المنطقي عن السر وضرورة ظهوره يومًا ما .

٨ – **المقابسة الثامنة** : وفيها كلام لأبي القاسم الأنطاكي المهندس المحاسب في مسألة أن الأسباب التي هي مادة الحياة في وزن الأسباب التي هي علة الموت .

٩ – **المقابسة التاسعة** : ويناقش فيها عيسى بن الوزير مسألة التعصب للتخصص ، وعلة ولوع كل ذي علم بعلمه ، ودعواه أن ليس في الدنيا أشرف من علمه .

١٠ – **المقابسة العاشرة** : وتدور حول فعل اللّٰه البارئ ، هل هو ضرورة أو اختيار ؟

ويجيب أبو سليمان المنطقي : « أنه قد صح البرهان أن فعل اللّٰه تقدس وعلا ليس باضطرار ، وليس باختيار أيضًا ، فلم يبق بعد هذا إلَّا أنه على نحو عال شريف يضيق عنه الاسم مشارًا إليه ، والرسم مدلولًا عليه » ، (ص١٤٩ ، ١٥٠) .

١١ – **من المقابسة الحادية عشرة إلى العشرين** : تدور المقابسات العشرة التالية حول موضوعات متنوعة تتراوح بين دور الطبيعة (العوامل الوراثية والفيزيقية) في تخالف الناس على المذاهب ، والمقالات ، والآراء ، والنِّحَل ؛ حيث يقول أبو سليمان : « إن للخواطر والألفاظ والآراء والمقالات نسبة قوية ، وعلاقة شديدة ، ورباطًا متينًا إلى المزاج والطبيعة والهواء وإلى العناصر بالجملة » ، (ص١٥١) ، (١١) [1] .

---

(١) يشير الرقم داخل القوسين على السطر إلى رقم المقابسة .

ويرتبط ذلك بموضوع أثر كل من الوراثة والبيئة في السلوك وهو من الموضوعات التي اهتم بدراستها علم النفس الحديث ، وكيف أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من توقيع القديم ؟ ويجيب أبو إسحاق الصابي مُعزيًا ذلك للدافعية بقوله : « كل مبتدئ شيئًا فقوة البدء فيه تفضي به إلى غاية ذلك الشيء » (١٢) ، ومناقشة قضية العلة والمعلول وأيهما يأتي أولًا (١٣) . ومسألة كيف أن مبدأ الجوهر (الصورة والمادة) ، ومبدأ الحركة (النقطة والوحدة) ، ومبدأ الكيف (السكون والحركة) ، (١٤) . ومسألة الكيفية والكيف (١٥) ، وكيف أن الارتجال أيسر من التسميع (١٦) . وكيف أن الحق لا يصير حقًّا بكثرة معقديه ، ولا يستحيل باطلًا بقلة منتحليه ، وكذلك الباطل (١٧) ، وفي التفرقة بين النفس والبدن (١٨) ، وأثر الغناء في النفس ، (١٩) ، والنظر في حال النفس بعد الموت وكيف أن النفس التي هي عنصر مغاير للحس لا تخضع لقوانين الحس (٢٠) .

١٢ - من المقابسة الحادية والعشرين حتى الثلاثين : تدور المحاورات في هذه المقابسات حول الموازنة بين النفس والأصل (الحسب) ، (٢١) . وتجري مناقشة حول العلاقة بين المنطق ، والنحو ، وكيف أن النحو منطق عربي ، والمنطق نحو عقلي ، وأن الأول يعنى بالمعاني ، والثاني بالألفاظ ، ويقدم أبو سليمان تعريفًا لكليهما : « فالنحو يرتب اللفظ ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية ، والمنطق يرتب المعنى ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعترف به من غير عادة سابقة ، والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل ، والشهادة في النحو مأخوذة من العرف » ، (ص١٧١) ، (٢٢) . والفرق بين ظرف الزمان وظرف المكان (٢٣) ، وفي تعريف الطبيعة عند أهل النحو واللغة ومرادفاتها (٢٤) وأقسام معارف الناس (٢٥) ، وأهمية الفلسفة ومكانتها (٢٦) . وكيف أن الإنسان لا يكون إنسانًا إلَّا بالنفس (٢٧) . والفرق بين المعقول والمحسوس (٢٨) . ومناقشة قضية التوحيد من منظور فلسفي حيث يبين أبو سليمان المنطقي كيف أن الفاعل الأول هو علة المحسوسات والمعلولات (٢٩) . وفي ضرورة تنزيه اللّٰه عن الصفات البشرية وعدم جواز نسبتها إليه (٣٠) .

١٣ - من المقابسة الحادية والثلاثين حتى الأربعين : وتجري تلك المقابسات حول قضايا تتصل بالبعث وكيف أن مثل هذه الأمور تجري تبعًا لمشيئة (٣١) . وفي علة امتناع الرؤيا في المنام (٣٢) . وعن الحركة والسكون ، وفي هذا السياق يشير أبو محمد العروضي إلى كيفية حركة العالم (الأرض) حين يقول : « لو كان متحركًا الحركة المعروفة لقلق

ومال وتهافت ، ولو كان ساكنًا لبقي ذلك على حال ، ولكنه متحرك حركة استدارة فلذلك ما يظن به السكون ، وساكن سكون قابل للفيض ، فلذلك يظن به الحركة » ، (ص ١٩٢) ، (٣٣) . وقضية الموجود بالحس والموجود بالعقل ، (٣٤) . وعن عجيب أحوال أهل الجنة ، وكيف لا يملون النعيم والأكل ، ذلك لأنهم يدركون هذا من جهة العقل (٣٥) . وبعض الأدلة العقلية على أن اللّٰه البارئ مصدر الأشياء ومنبعها (٣٦) . وبعض أقوال لأرسطو في النفس وعواقب الانجراف وراء أهوائها وشهواتها (٣٧) . وفي الحسن والقبيح ، وموقف العقل إزاءهما (٣٨) . ولماذا يفعل الإنسان ما يندم عليه (٣٩) . وعن قيمة العلم وكيف أنه حياة الحي في حياته ، والجهل موت الحي في حياته (٤٠) .

١٤ – من المقابسة الحادية والأربعين حتى الخمسين : من بين الموضوعات التي تم التطرق إليها في هاتيك المقابسات : قيمة العلماء وقدرهم حيث يقول العامري : « إن المغمض من أرباب الحكمة يدرك بفكره ما لا يدركه المُحدق ببصره من غيرهم » ، (ص٢٠٢) ، (٤١) . وفي معرفة اللّٰه ، وكيف أنها كما يقول أبو الخير : « ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس » ، (ص ٥ – ٢) ، (٤٢) . وأوجه الشبه بين الطبيب والمنجم (٤٣) . وآراء الفلاسفة في مفهوم الممكن ، والفرق بينه وبين مفاهيم مُثل الواجب ، والممتنع ، (٤٤) . وحول مسائل المبدأ الأول ، والأصل ، والعلة ، (٤٥) . وعن أقسام الموجود ، وعن العقل ، والشهوات ، وكيف أن الإنسان تقوده شهواته – في الغالب – حتى إن بعض الإلهيين يقول : « الإحسان من الإنسان زلّة ، والجميل منه فلتة ، والعدل منه غريب ، والعفة فيه عرض ضعيف » ، (ص ٢١٧) ، (٤٦) . ويرتبط هذا بمفهوم ضبط النفس Self-Control والتغلب على شهواتها كما يرتبط مفهوم الصراع النفسي Conflict بين شهوات النفس ومقاومة الجانب الخيِّر والعاقل في الإنسان لها ، وعن العقل وعلو مكانته (٤٧) . وفي الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة ، ويظهر فيها مدى انحياز أبو سليمان المنطقي إلى معسكر الفلسفة (٤٨) . وعن مظاهر الحركة في الموجودات وكيف أنها واحدة ، ولكن بصورة مختلفة ، فالحركة كما يقول يحيى بن عدي : « في النار لهب ، وفي الهواء ريح ، وفي الماء موج ، وفي الأرض زلزلة ، وفي العين طرف ، وفي الحاجب اختلاج ، وفي اللسان منطق ، وفي النفس بحث ، وفي القلب فكر ، وفي الإنسان استمالة ، وفي الروح تشوق » ، (ص٢٢٥) (٤٩) . وعن

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ، (٥٠) .

١٥ – من المقابسة الحادية والخمسين حتى الستين : وتدور حول أمور متباينة ؛ مثل : الجحود والجهل (٥١) ، والأفلاك والقمر (٥٢) ، وإن اختلاف الأجوبة في المسائل العلمية يرجع إلى اختلاف زاوية النظر (٥٣) . وفضائل العقل (٥٤) ، وعن الروية والبديهة وكيف لا يجتمعان في إنسان واحد (٥٥) ، وعن مراتب الإضافة (٥٦) ، والحظوظ والأرزاق وكيف أن الله يقسمها وفق نظام معين (٥٧) . وعن الجبر والاختيار (٥٨) ، والحس والنفس (٥٩) ، والنثر والنظم وأيهما أشد أثرًا في النفس ، (٦٠) .

١٦ – من المقابسة الحادية والستين حتى السبعين : من المسائل التي تتطرق إليها تلك المقابسات : كيف أن النفس قابلة للفضائل والرذائل (٦١) ، وتحوي تعريفات للطبيعة ، والعقل وهو « رقيق يحفظ ، وشاهد يؤدي ، وثقة يُؤمَن فمن استشاره منتصحًا أصاب ، ومن أضرب عنه مغترًا طاح وخرج عن إصابة الحق » (ص ٢٤٨) ، والعلم الذي هو « ثمرة العقل ، والعقل سلم إلى الله » (ص ٢٥٠) ، والفلسفة (٦٢) . والتوحيد وعمق مسائله واستغلاقها على بعض النفوس (٦٣) ، وإن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة (٦٤) . ونوادر مفيدة في الفلسفة ؛ مثل قوله : « إنما تظهر النار من الحجر بالقدح ، وإنما تستبان النجابة من الإنسان بالتعليم » (ص ٢٩٠) ، (٦٥) . وعن العالم العامل ، والعالم غير العامل ، والجاهل (٦٦) . وأقوال بعض الفلاسفة في الألوان والحركة (٦٧) . وعن الوسط وكيف أن فيه الطرفان كالماء الفاتر الذي يوجد فيه الحرارة والبرودة (٦٨) . وعن الموقف من بعض التُّـرَّهات الشائعة (٦٩) ، وعن الفرق بين المعرفة والعلم .

١٧ – من المقابسة الحادية والسبعين إلى الثمانين : وتتناول موضوعات مثل الضحك « قوة ناشئة بين قوتي النطق والحيوانية » (ص ٢٧٤) ، (٧١) . وحديث النفس في أمور مثل الموت ، وأحوال الرسول ﷺ ، والله (٧٢) . وحقيقة الدهر (٧٣) . والفرق بين الوحدة والنقطة (٧٤) ، والفرق بين الفعل والعمل (٧٥) . والعلاقة بين النفس والبدن (٧٦) ، (والعلاقة بين النفس والجسم ، وتأثير كل منهما في الآخر من الموضوعات التي شغلت بعض الباحثين في علم النفس وفي الطب النفسي) . والعقل والحس (٧٧) ، والسلب والإيجاب (٧٨) ، وتعريف الطبيعة (٧٩) ، والمادة والصورة (٨٠) .

١٨ - من المقابسة الحادية والثمانين حتى التسعين : وفيها تدور المحاورات حول موضوعات متعددة مثل الخير ، (٨١) . وتعريف الواحد (٨٢) . وأقسام معاني العقل (٨٣) ، والخلاء (الفراغ) ، ومدى أهميته لحركة الأجسام فيه (٨٤) . والفرق بين الكلي والكل (٨٥) ، وتعريف الجوهر وأقسامه (٨٦) . ومناظرة منامية بين أبي سليمان وبين ابن العميد في أقسام الموجودات (٨٧) ، وفي ماهية البلاغة والخطابة (٨٨) . وكلمات في الزهد ذات طابع فلسفي (٨٩) ، وحكم فلسفية من كلام أبي الحسن العامري ؛ مثل : « انحلال النفس يكون على أربعة أوجه : أولها الكسل ، ثم الغباوة ، ثم القحة ، ثم الانتهاك ، وعلاجه استشعار التقوى ، والمحافظة على العبادات ، والاتفاق في سبل الأنفس » (ص٣٠٤) ، (٩٠) . وفي هذا الكلام إشارة إلى ما يصيب الإنسان من اضطرابات نفسية بسبب خضوعه للذاته وميوله ، أو بسبب عدم تمسكه بالقيم الخلقية والدينية ، ويشير المؤلف إلى علاج هذه الاضطرابات وهذا الانحلال عن طريق العبادات والتقوى والتماسك بالقيم الدينية .

١٩ - من المقابسة الحادية والتسعين حتى السادسة بعد المائة : وفيها ينقل تعريفات لبعض المفاهيم المهمة ؛ مثل : الشعر ، والغناء ، والنغم ، والجدل ، والكون ، والفساد ، والحقيقة ، والشر ، والذكاء : Intelligence « سرعة الانقداح نحو المعارف » ، (ص ٣١١) ، والتخيل : Imagination « حصول صور المحسوسات بعد مفارقتها وزوالها عن الحس » ، والإدراك : Perception « تصور نفس المدرِك بصورة المدرَك » . والحفظ : Retention « ثبات صورة المعقولات والمحسوسات في النفس » ، (ص ٣١٢) . ويشير المؤلف إلى علاج هذه الاضطرابات وهذا الانحلال عن طريق العبادات والتقوى والتمسك بالقيم الدينية (ويرتبط هذا الكلام بما يدرس في علم النفس الحديث تحت مفاهيم الإدراك الحسي والتخيل والذاكرة ، والعمليات المعرفية بصفة عامة) . والجوهر ، والهيولى والعلة الأولى ، والحركة والسكون (٩١) ، وأن الندرة هي سبب شرف العلم ، والمعرفة ، والفضائل (٩٢) . وفي القول بقدم العالم ، وحدوثه (٩٣) . وبعض الوصايا التي يجب على العبد أن يجتهد في القيام بها ، والعمل بموجبها لصلاح أمره في الدنيا ، والآخرة (٩٤) ، وكلام لبعض الصوفية لم يَرُق لأبي سليمان فجاء بخير منه (٩٥) ، وكلمات في الحكمة منقولة عن المشايخ في مجالات شتى كالهندسة حيث يقولون فيها : « التعليم الهندسي صناعة من الصناعات العقلية والأسية ، ويقع بحثها على المقادير والأبعاد (الطول ، العرض ، والعمق) والأشكال والزوايا ، وما يقع تحت كل

مقدار ويُعد من الزوايا الخطية والسطحية والجسمية » (ص٣٢٨) ، (٩٦) . وفي عيون من كلام الأوائل المنقولة بالترجمة ، ومنه كلام لأرسطو ونورفوريوس (٩٧) . وضرورة البعث ، والحساب (٩٨) ، وإن المتضادات في هذا العالم مرجعها إلى أصل واحد (٩٩) . وتفسير قولهم إن فلان ملء العين ، والنفس (١٠٠) . وإن العلم أحسن خصلة يحسن الإنسان فيها إلى نفسه (١٠١) . والفرق بين النوم واليقظة (١٠٢) ، والاتصال بين العلة والمعلول ، وأنواع العلل (١٠٣) . وقضية الحركة والسكون كإحدى القضايا التي يستمد منها بعض أدلة التوحيد (١٠٤) . وفي تفسير كيف أن النوم شبيه بالموت (١٠٥) ، وفي تعريف الصديق حيث يعرف أرسطو الصديق بأنه : «آخر هو أنت » (ص ٣٥٩) ، وحقيقة الصداقة ، والفرق بين الصداقة والألفة ، وتعريف العشق ، والمحبة ، والمروءة ، والروح ، والحكمة ، والسعادة ، (١٠٦) . ويرتبط موضوع العشق والمحبة والسعادة بموضوع الانفعالات في علم النفس الحديث .

* * *

ثلاث رسائل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

الرسائل :

تقع المجموعة من الرسائل في ٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، وتضم ثلاث رسائل هي : السقيفة (ص ٥ - ٢٦) ، ورسالة في علم الكتابة (ص ٢٩ - ٤٨) ، ورسالة الحياة (ص ٥١ - ٨٠) ، ويسبق هذه المجموعة من الرسائل مقدمة المحقق ، وبيان بالرموز المستعملة في طبع هذه المجموعة وصورة خطية من رسالة السقيفة ، ورسالة الحياة ، ويلي الرسائل مجموعة فهارس منها فهرس الأعلام ، وفهرس الأمم والفرق والجماعات ، وفهرس الأمكنة والبلدان ، وفهرس أسماء الكتب الواردة في الرسائل ، والمصادر المعتمدة في نشر رسائل التوحيدي .

أول هذه الرسائل رسالة السقيفة وهي تمثل جانبًا من النضال بين السنة والشيعة في عصر بني بويه ذلك العصر الذي اشتدت فيه المنازعات المذهبية والسياسية والفكرية واشترك فيها الناس على اختلاف عقائدهم وأعراقهم وتفاوت حظوظهم من العلم والمعرفة .

ولم يفت التوحيدي أن يُسهم في هذه الحركة فألف هذه الرسالة تحت تأثير عاملين : الأول : الحوادث الدامية التي وقعت في زمنه بين السنة والروافض ، والثاني : العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين التوحيدي من جهة وابن العميد والصاحب ابن عباد

---

(١) تحقيق إبراهيم الكيلاني . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية (١٩٥١م) . (٨٨ ص) . المحتويات : رسالة السقيفة ، رسالة في علم الكتابة ، رسالة الحياة .

من جهة أخرى ، وهذان الوزيران كانا من أكابر الشيعة في زمانهما ، ولا ريب في أن التوحيدي قصد في تأليف رسالته إغاظتهما والانتقام منهما ؛ لأنهما أساءا إليه وحرماه رغدهما .

ويبدأ أبو حيان في شرح الظروف والملابسات التي جرى فيها حديث السقيفة والذي يدور حول رسالة أبي بكر الصديق ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم جواب علي له ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة ، وكيف تدل الرسالة على علم ، وحلم وفصاحة ، وفقاهة ، ودهاء ، ودين من كتبها . ويتعرض أبو حيان لعدد من المفاهيم المهمة التي أصبحت من الموضوعات المهمة في دراسات علم النفس الحديث وتدور حول العقل والذكاء (ص ٦ ، ٧) .

وفي موضع آخر يتعرض لحديث أبي بكر إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ويعدد فيه خصائصه ومزاياه ، وعلاقاته الطيبة بالناس ، وهي صفات وخصائص تصلح لأن تكون صفات قائد محنك وقد درس علماء النفس خِصال القائد ، وموضوع القيادة في علم النفس الاجتماعي كما درسوا أيضًا التفاعل الاجتماعي وحبذا لو أنهم اهتدوا بهذه الصفات (ص ٨ ، ٩) . كما يحمله رسالة لعلي بن أبي طالب يعلمه فيها بعض الآداب في المعاملة ، ويوصيه بالنصح ويحدد له شروطه ؛ وقياسًا على ذلك يمكن الاستفادة منه في تقديم الإرشاد والنصح للذين يعانون من مشكلات سوء التوافق وهي من بين اهتمامات علماء النفس في الوقت الحاضر (ص ٨) . كما يشير إليه بالتحرز من وسوسة الشيطان . والوسواس كمرض - أيًا كان سببه ومصدره - من الأعراض والأمراض التي يُعنى بها علماء النفس الإكلينيكيون (ص ٩) وورد أيضًا في الرسالة التي حملها له إلى علي ابن أبي طالب الشروط الأساسية للصداقة وموضوع الصداقة أيضًا من موضوعات علم النفس الاجتماعي التي تدرس في باب المهارات الاجتماعية Social Skills (ص ١٠) . ويستحثه أيضًا على أن يفصح عما يعترك بداخله من مشاعر وآراء ، ويتعجب من سبب سكوته ، ويقول له : أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ! وهنا نجد متضمنات سيكولوجية لغوية ، فالشخص الذي امتلك لغته وتمكّن منها ، لكنه لا يستطيع التعبير بكفاءة نقول : إن هناك تفاوتًا - لديه - بين الكفاءة Competence والأداء Performance وهي من المصطلحات اللغوية التي تناولها علماء نفس اللغة بالدراسة في الوقت الراهن (ص ١٠) .

وفي وصف بليغ يحدد أبو بكر عددًا من المشكلات والأزمات التي تحيط بالمسلمين

(وكأنه يتحدث عما يسميه علماء النفس في الوقت الراهن مثيرات المشقة Stressors ص ١١) .

وفي رسالة من عمر بن الخطاب ﷺ لعلي أيضًا يتعرض للقرابة من رسول الله ﷺ ويميز بين القُرْبَة (المنزلة) والقاربة ويتعرض للروح والنفس (وهي من المسائل التي شغلت بعض المفكرين في فترات مبكرة للتمييز بينهما، غير أنها لم تعد ذات بال الآن) ؛ كما يوضح فضل الجماعة والانخراط فيها وقد درست الجماعة ؛ تكونها ، وقواعد تكوينها ، ونظم القيادة فيها ، في ديناميات الجماعة Group Dynamics ، وأيضًا في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٠) .

وفي رد على هاتين الرسالتين ، يتعرض للحزن والشجن : وهو من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام (ص ٢٢) . كما يذكر مفهوم الحاجات Needs ويربطه بالنفس : وهو من المفاهيم التي يتناولها علماء النفس ، خاصة عند التعرض لمفهوم الدوافع Motives (ص ٢٢) ، وكذلك يقابل بين مفهومي « البله » ، و « الفطنة » ، وقد شاع في دراسات علم النفس - لفترة طويلة - استخدام أوصاف كيفية لوصف القدرات العقلية أو الذكاء ، وإن كان علماء النفس قد تخلوا عن هذه الأوصاف الكيفية ، وتحولوا إلى الأوصاف الكمية (ص ٢٥) .

أما الرسالة الثانية : فهي في علم الكتابة ونرى أنها بعيدة عن الموضوع الذي نحن بصدده هنا .

والرسالة الثالثة ، فهي رسالة الحياة : ويبدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم يُتبع ذلك بمقدمة عامة ، ثم يورد قولًا لسقراط يحث على معرفة مواقع النطق والصمت ، وهي - أي المعرفة - نتاج للفكر الصحيح ؛ وهذا الكلام له تضمينات سيكولوجية مباشرة ، فبالنسبة لمعرفة مواقع النطق والصمت تدل من ناحية على إجادة في التخاطب Communication ، وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي ، ومن موضوعات سيكولوجية اللغة ، ومن ناحية أخرى يربط بين المعرفة والتفكير وهو ما يدخل مباشرة في ما يسمى الآن بعلم النفس المعرفي Cognitive Psychology ، كما يدخل في اهتمامات علماء النفس الإكلينيكيين المعنيين باضطرابات الوظائف المعرفية Cognitive Abnormalities (ص ٥٣) .

وبعد ذلك يصنف الحياة إلى عشرة أصناف ، الأول يقال له : حياة الحس والحركة . والصنف الثاني يقال له : حياة العلم والبصيرة ، والصنف الثالث يقال له : حياة العمل

والكدح ، والصنف الرابع يقال له : حياة الخُلق والسجية ، والصنف الخامس يقال له : حياة التدين والسكينة ، والصنف السادس يقال له : حياة الكمال الأول ، والصنف السابع يقال له : حياة الظن والتوهم ، ويقال له أيضًا حياة الذكر ، والصنف الثامن يقال له : حياة الكمال الثاني وهي حب العافية ، والصنف التاسع حياة الملائكة ، والعاشر ما يقال له إن الله ﷻ حي .

وإذا نظرنا إلى الحياة الأولى نجد أنها حياة الإنسان التي بها يحيى ويتحرك ويلد وينعم ويشتكي ويتألم وهذه مشتركة بين الإنسان والحيوان ؛ والملاحظ هنا أن عناصر هذه الحياة مما يدخل في دراسات علم النفس ، فدراسة الإحساس Sensation والحواس وسلامتها أو اضطرابها ، ومراكزها ، وكذلك دراسة السلوك الحركي Motor أو النفسي Psychomotor في سوائه يدرس في علم النفس العام ، كما يدرس اضطرابه في علم النفس الإكلينيكي ، كما يدرس الألم Pain وما يترتب عليه والعوامل التي تسهم فيه في علم النفس الطبي Medical Psychology ، وكذلك إشباع الدوافع Motives خاصة الدوافع الأولية المتصلة بحفظ الحياة وبقاء النوع ، في علم النفس العام (ص ٥٥) .

أما الحياة الثانية فهي حياة العلم والمعرفة والفهم والدراية والحفظ والروية والحكمة والبحث والاستنباط والمسألة والجواب وهذه الحياة تستفاد بالتأييد الإلهي والاختيار البشري ، مع النية الحسنة ، والسعي الدائم ، والمحبة النفسية ، واللطافة الروحية ، والرقة المزاجية ؛ وتذخر هذه الحياة - كما قدمها التوحيدي - بالمضامين السيكولوجية فالعلم بمعنى تحصيله المعرفة ، والمعرفة Cognition والفهم Comperhension أو Understanding وكذلك الدراية ، والحفظ كجزء من الذاكرة والروية كسمة للأسلوب المعرفي أو الأداء بصفة عامة والحكمة والبحث والاستنباط كدلائل على التفكير ، والمسألة والجواب كأسس للمنهج العلمي ، كلها من الموضوعات الأصلية في دراسات علم النفس الحديث (ص ٥٦) .

وأما الحياة الثالثة فهي حياة العمل الصالح بالرفع والوضع والأخذ والعطاء والعِشرة والصداقة والوداعة والرعاية وحسن العهد وصدق الوعد ، وهذه الحياة إذا انضمت إلى الحياتين الأوليين كمّلت الإنسان وزادت في قيمته ، وعلّت من درجته ، وأفادته شرفًا أبديًا وعزًّا سرمديًا ، وألبسته جلباب البقاء ، وسلكته إلى كنف السعادة ، وخلطته بزمرة الملائكة . وكما في أنواع الحياة السابقة ، نجد بعض المفاهيم والموضوعات التي لها مقابل في دراسات علم النفس الحديث ؛ مثل بعض سمات الشخصية الجيدة أو ما يدرس في الشخصية Personality ، وكذلك موضوع الصداقة Friendship وهو من موضوعات

علم النفس الاجتماعي حيث يدرس تحت باب أوسع هو باب المهارات الاجتماعية Social skills (ص ٥٧) .

وإذا كانت الحياة الرابعة هي حياة الديانة والسكينة ، فإن الحياة الخامسة هي حياة الأخلاق ، التي من هذبها ، ومن تهذب بها ، ونفى خبيثها ، وتحلى بطيبها ، هنأ عيشه وعيش من يعايشه ، وصفيت سريرته من الكدر ، وبر سعيه في كل ما حلا وأمر ، والخُلق تابع للخَلق بالمضارعة اللفظية وهو يتقسم بين ما يزول بالرياضة كل الزوال ، أو يقل بعض الإقلال ، وبين ما يكون صورة للنفس لا يطمع في البراءة منه والطهارة عنه ؛ ونجد في الحديث عن الأخلاق ما يدخل تحت عباءة علم النفس من ناحيتين : الأولى : في موضوع التربية أو التنشئة الاجتماعية Socialization أو القيم Values وهما من موضوعات علم النفس الاجتماعي . والثانية : ما يدخل في باب سمات الشخصية ، كما أن ما أحاط بهذا الحديث يدل بشكل غير مباشر على بعض أساليب الراحة النفسية ، أو علاج التغيرات المزاجية Mood swigns (ص ٥٧ ، ٥٨) .

والحياة السابعة هي حياة الظن والتوهم ، أي ما يغلب على الإنسان من الذكر والصيت والشهرة بأي وجه كان ، كما طلب الثناء والخلد في كل وجه ، وحلم به في كل نعاس وتمناه في كل انتباه ، وكل أحد يتوهم نوعًا غير نوع صاحبه بقدر مزاجه ونقصه وزيادته وعقله ورأيه ، وبديهته ورويته ؛ ونظرة فاحصة لهذا الكلام نجده يحتوي على موضوعات تدخل ضمن موضوعات علم النفس ؛ فطلب الشهرة والصيت من قبيل الدوافع المكتسبة التي تدرس في علم النفس العام ، والأخلاق تدرس في علم النفس الفسيولوجي ، وأحلام اليقظة إحدى حيل التوافق التي تدرس في علم النفس العام ، والفروق الفردية في السمات المزاجية ، والقدرات العقلية من المبادئ الأساسية التي تراعى عند دراسة هذه الموضوعات (ص ٥٨ ، ٥٩) ، كما يتعرض أيضًا للحس والعقل ، والعلاقة بينهما (ص ٦٠ ، ٦١) .

ويحدد في ذلك سُبل الوصول للحياة الثامنة أو الحياة العاقبة (التي تنال بعد الموت) ، وهي الاجتهاد والسعي والكدح والدوب والاعتماد والتجمل والتكلف والقيام والقعود والعبادة والزهادة والتعب والمشقة والقلق والسؤال والجواب والاستعانة ، ونلمح هنا بعض المفاهيم السيكولوجية كالتعب ، والمشقة Stress والقلق Anxiety (ص ٦١) .

أوجه الاستفادة من الرسائل في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسائل في علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

البصائر والذخائر [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٠٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على تصدير بقلم أحمد أمين ، ثم نماذج من مخطوطة الكتاب الأصلية ، ثم الكتاب مجملًا دون تقسيم ، ثم مجموعة الفهارس وتضم فهرس الأعلام ، وفهرس القبائل والأمم والعشائر والأرهاط والطوائف ، وفهرس الأماكن ، وفهرس الاستدراكات ، وفهرس الأشعار ، وفهرس أنصاف الأبيات ، وفهرس أيام العرب ، وفهرس الأمثال ، وفهرس الكتب .

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الكتاب ، نود أن نشير إلى أن هذا الكتاب يمثل وَحدة واحدة ، من أوله لآخره ، حيث لم يضع المؤلف عناوين رئيسية أو فرعية تعين على تنظيم عرضه . وسوف نبحث في طياته عما له علاقة بعلم النفس .

ويبدأ المؤلف كتابه بمقدمة ، تحوي دعاء وابتهالًا للَّه ﷻ أن يوفقه في مهمته ويشير إلى الكتب التي طالعها ككتب الجاحظ ، وكتاب النوادر لمحمد بن زياد الأعرابي ، وكتاب الكامل لأبي العباس الثمالي ، وكتاب العيون لابن قتيبة وغيرها . وقبل هذا وذاك كتاب اللَّه ﷻ وسنة نبيه ﷺ ، ثم يعتمد بعد ذلك على حجة العقل .

وبعد هذه المقدمة يبدأ وصاياه ، مستمدًا أولاها من حديث للرسول الكريم ﷺ يبينٌ

---

(١) حققه وعلق عليه أحمد أمين ، السيد صقر . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٣م) . نسخة مصورة

منزلة العقل وفوائده ، ويطالب الحفاظ عليه ؛ وموضوع العقل من موضوعات علم النفس ويدرس تحت مسميات عدة كالتفكير Thinking ، والذكاء Intelligence ، والقدرات العقلية Mental Abilitics ، والوظائف المعرفية Cognitive Functions (ص ١٣) .

وفي موضع آخر نستشف من حديث رسول الله ﷺ بعض المعاني التي يمكن أن نجد لها مقابلًا في علم النفس الحديث ؛ مثل : بعض سمات الشخصية كالإخلاص ، والقصد ، والعدل ، والعفو ، وبعض الانفعالات كالغضب ، وضرورة التفكر (أو التفكير) والاعتبار (ص ٢٧) .

ومن الوصايا التي وردت بالكتاب وإن لم تكن تنتمي لعلم النفس على وجه الخصوص ، وصية الحث على تعلم العلم ، وإتقانه (ص ٤٠) .

ومن قول بعض الفلاسفة ، نجد تعرضًا لمفهوم النفس ، وذكر لأجزائها ، وخاصة العقل باعتباره أشرفها ، والحديث عن النفس - بغض النظر عن المقصود بها في هذا المقام والعقل مما يدخل في صميم علمنا الحديث (ص ٤١) .

ومن خلال ما روي عن ابن سيرين في تفسير الأحلام ، يمكن القول بأنها بداية سبقت محاولات فرويد في تفسير الأحلام ؛ والتي تمثل حجر الزاوية في نظرية فرويد وكتاباته في ذلك ؛ وإن كانت مدارس كثيرة من مدارس علم النفس الحديث لا تعطي لتفسير الأحلام الوزن الذي أعطاه لها فرويد وأتباعه (ص ٤٦ ، ٤٩) .

ويسوق أبو حيان التوحيدي في ثنايا كتابه بعضًا مما قاله بعض اليونانيين ؛ فقد قال بعضهم : « مقدم الرأس للفكرة ، ومؤخر الرأس للذكر ، والدليل على ذلك التفكر والتذكر ؛ لأن المتفكر يطأطئ رأسه ، والمتذكر يرفع رأسه » وبرغم سذاجة هذا الاستدلال ، فإن هذا القول تعرض لبعض قضايا علم النفس الحديث ، فالتفكير والتذكر في موضوعات علم النفس العام General Psychology أو - كما يحب البعض - علم النفس المعرفي Cognitive Psychology ، أما البحث عن تموضع Localization لهذه القدرات في الدماغ مما يبحث في علم النفس الفسيولوجي Physiolocial Psychology وعلم النفس العصبي (ص ٥٥) .

ومن كلام عمر بن عبد العزيز ، عن كيفية اختيار الولاة ، نلمح حديثًا غير مباشر في موضوع القيادة وخصائص القائد . وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٦٣) .

ويتعرض المؤلف كذلك لقيمة الصدق وفضلها ؛ وهي من الصفات التي درست تحت موضوع القيم Values في علم النفس الاجتماعي ، كما درست باعتبارها من سمات الشخصية النوعية .

ويقول إسحاق الموصلي : « أول العشق النظر ، وأول الحريق الشرر » ، والعشق إحدى درجات الحب ، والحب درس كأحد أنواع الانفعالات Emotions في علم النفس العام ، كما أن النظر يمكن أن يدخل في باب الإشارات الاجتماعية Social signals أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٧٤) .

وينقل لنا كذلك وصايا بعض الحكماء في كيفية انتقاء الصديق ؛ وموضوع الصداقة Friendship من الموضوعات التي درست في علم النفس الاجتماعي تحت مسمى المهارات الاجتماعية Social skills (ص ٨٩) ، ومن خلال بعض الروايات الأخرى ينقل لنا صورة لبعض الأمراض والاضطرابات - أعني الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders وهي نوع من الانحراف له متضمنات نفسية ، ويرد في كتب الطب النفسي ، ويهتم به المختصون في علم النفس الإكلينيكي ، والمعالجون السلوكيون Behavior Therapistes ، (ص ٩٠) ، وإن كان هو قد أطلق على هذه الاضطرابات لفظ الجنون ، ثم يعود مرة أخرى لموضوع الصداقة والأصدقاء الذي سبق أن أشرنا له (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

ومن كلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يذكر قوله : « من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف ، والتنفيس عن المكروب » . وقد تحورت هذه المعاني وأصبحت تدرس في علم النفس الاجتماعي الحديث تحت مسمى سلوك المساعدة Helping Behavior (ص ١١١) .

ويتعرض أبو حيان التوحيدي للحديث في الفرق بين النفس والروح ؛ لكنه يتركه جانبًا ولا يخوض فيه ، لأنه صعب شاق (ص ١١٦ ، ١١٧) .

ويسوق لنا من كلام أبي حامد القاضي شيخ أصحاب الشافعي ، كلامًا بليغًا موجزًا ربط فيه بين الثواب والعقاب وبين الفعل ، ومبدأ الثواب والعقاب من المبادئ التي درست في علاقتها بالتعلم Learning (ص ١٤٣) كما تعرض للعقل (ص ١٤٣ ، ١٤٤) .

وينقل لنا عن معاوية بعض أقواله التي تحدد الخصال التي ينبغي أن يتخلى عنها الملك (أو القائد) فلا توجد فيه وهي الكذب ، والبخل ، والحسد ، والجبن ، وهي من خصال الشخصية السلبية ، والتي تؤخذ في الحسبان عند دراسة الصداقة ، ويوجد في

تراث علم النفس الحديث مقاييس تحمل اسم الصداقة لها عدة أغراض (ص ١٧١) . ويتصل بهذا الكلام ما ذكره أيضًا عن عبد الملك بن مروان فيما كتبه للحجاج (ص ١٧٤) .

ويذكر كذلك في موضع آخر بعض كلام النحويين الذي يحمل في طياته فائدة لا تنكر للمهتمين بدراسة سيكولوجية اللغة Psycholinguistics (ص ١٧٥) .

* * *

الصداقة والصديق [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٤٧٥ صفحة من القطع المتوسط ويضم مقدمة الناشر ، ثم الكتاب نفسه دون تفسير أو تصنيف .

يذكر أبو حيان في مستهل كتابه ؛ أنه أقدم على كتابته بعد أن سمع الناس منه في بغداد كلامًا عن الصداقة والمؤاخاة والألفة والمساعدة والنصيحة إلى غير ذلك من خصال الصداقة ، وخشي أن يتفرق كلامه ويضيع ، ودعاه بعض الناس إلى جمعه وإثباته حفاظًا عليه ، ورغبة في أن يفيد منه الناس لما فيه صالح دنياهم وآخرتهم .

ويبدأ أبو حيان مبينًا أن دوام الصداقة والمساعدة ، وتبادل الثقة يؤدي إلى التشابه في الاختيار والغايات رغم تعارض أعمال وتبعات الصديقين في الحياة ، علاوة على هذا يؤدي الحب بين الصديقين إلى امتصاص الغضب بينهما ، وسهولة التفاهم حتى يكفهما التعبير عن العتاب بلمحة أو إشارة أو كناية لا يفهمها غيرهما .

وهنا نجد أنه يتحدث عن التأثيرات بعيدة المدى أو طويلة المدى للصداقة ، فقد ذكر أبو حيان أن دوام الصداقة يؤدي إلى أعلى درجات الموافقة واتفاق الغايات والاختيارات بين الصديقين ، وهي أفكار على صلة واضحة بمفاهيم نفسية منها التشابه Similarity والتقمص أو التوحد Identification (ص ٢ - ٣) .

---

(١) شرح وتعليق علي متولي صلاح . القاهرة : المطبعة النموذجية (١٩٧٢م) . (٤٧٥ ص) .

ويذكر في موضع آخر أن الصداقة لا يمكن أن تجتمع مع الرهبة ؛ ولذا لا يمكن مصادقة الملوك ، فأساس الصداقة الرغبة وليس الرهبة ، كما لا تجتمع الصداقة مع الطمع وعلى هذا لا يمكن مصادقة التجار لفرط حرصهم على طلب المال ، كذلك لا تصلح صداقة قليل الذمة لسوء خلقه ولؤم طباعه ، وفي المقابل ينصح بصداقة أهل الدين ؛ لحرصهم على التقوى ومراعاة الآخرين ، ويمكن مصادقة أهل العلم إذا نبذوا الحسد والتنافس والشك والخصومة ولو أنها صداقة قليلة الحدوث .

ونجد هنا حديثًا عن التجاذب بين الأشخاص Inter - Personal Attractivenss وهي السمات التي يتمتع بها أحد الأشخاص والتي تُرغِّب الآخرين في بدء صداقة معه ؛ ومن هذه السمات التي ذكرها أبو حيان الصدق Truth ، وحسن الخلق Moral ، والتواضع Modesty ، والكرم Generosity ، والتشابه Similarity (ص ٥ ، ٦) .

ويورد أبو حيان أقوالًا توضح أهمية الصداقة في حياة الفرد منها : « أن الغريب من لم يكن له حبيب » وأيضًا قول أحدهم : « إذا مات لي صديق سقط لي عضو » ، وأقوالًا أخرى تفصح عن خوف الأصدقاء من عدم اللقاء ، وحرصهم على التجاور حتى إن بعضهم عبر عن رغبته في أن يشتري دارًا بجوار دار صديقه حتى يلقاه كل وقت ، كما عبر عن فرط الثقة بين الصديقين كما اتضحت من قول أحد الأصدقاء لصديقه : « إذا كان إخوان الثقة كثير فأنت أولهم ، وإن كانوا قليلًا فأنت أوثقهم ، وإن كانوا واحدًا فأنت هو » .

ويمكن لهذا الحديث أن يدخل تحت وظائف الصداقة : وهي المتغيرات التي تحدد أهمية الصداقة من خلال التأثير النفسي الذي تحدثه الصداقة ، وقد ذكر أبو حيان من تلك الوظائف الشعور بالارتياح النفسي ، واستبعاد الشعور بالوحدة كما أنها تمهد فرصًا للحصول على التأييد والمساعدة بكافة أشكالها المادية والمعنوية (ص ١٢) .

ويمضي أبو حيان مبينًا أهمية التدقيق في اختيار الصديق ؛ فيروي قصة يحيى بن زياد الحارثي الذي أرسل إلى عبد الله بن المقفع يطلب صداقته فيرد عليه ابن المقفع بما معناه أن الصداقة رق وعبودية ، وأنه يكره أن يسلم نفسه لشخص قبل أن يتأكد من حسن خصاله (ص ٢١) .

وفي مجال حسن معاملة الصديق يذكر قصة رسول الله ﷺ ، وهو يأكل التمر مع جليس له ، وكان الرسول ﷺ إذا رأى تمرة رديئة (حشفة) عزلها فقال جليسه : « يا رسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها » فرد عليه الرسول : « **لا أرضى لجليسي إلّا ما أرضاه**

لنفسي » (ص ٢) .

ويعرض أبو حيان بعد ذلك لخصال الصديق المخلص ؛ فيذكر أنه الصديق الذي يحرص على نفع صديقه ، وأن شر الأصدقاء هو من يرمي إلى مصلحة شخصية من الصداقة عملًا بالقول الآتي : « خير إخوانك المعين لك على دهرك ، وشرهم من هو لك لسوق يوم » (ص ٢٣) . ويذكر أيضًا « صديق لا تنفعك حياته لا يضرك موته » ويسترسل أبو حيان في وصف الشخص القادر على الحفاظ على الصداقة ؛ بأنه من يعاشر أهل الرأي والفضيلة ، ويعامل الناس بخلق حسن ، ويقتصد بغير بخل .

ويضيف أبو حيان أقوالًا أخرى تُفصِّل حق الصديق على صديقه ؛ ومنها القيام بأعبائه في غيابه ، وحفظه ومعاونته عند حضوره ، وملاطفته إذا جفى ، ومكافأته إذا وُفق في عمل ، والحديث عنه الحديث الطيب مع الأصدقاء الآخرين ، ودفع الظلم عنه والابتهاج لرؤيته والحفاظ على سره .

ويعكس هذا الحديث مهارات الصداقة Skills of Friendship وتتضمن التصرفات والأساليب التي يُدرب عليها الشخص حتى يتمكن من الدخول في علاقة صداقة عندما يكون راغبًا في بدء صداقة بالإضافة إلى مهارات مواصلة الصداقة ، وقد ذكر أبو حيان من تلك المهارات إظهار الاهتمام بالآخرين ويتجلى في صور مختلفة ؛ مثل : المشاركة الوجدانية ، والسؤال عن الصديق ، وتقديم المساعدة أو ما نسميه بالتدعيم ، ويشمل أشكال الإثابة Reward التي يقدمها الشخص المدعم إلى الطرف الآخر الذي يرغب في التأثير فيه ؛ ومن المدعمات التي وردت في الكتاب : التعبير عن الحب Love ، والتقدير والاحترام Respect والمال ، والخدمات ، والمعلومات ، وكلها مدعمات قائمة في إطار النظريات الحديثة في مجال التدعيم الاجتماعي (ص ٢٧ ، ٥٤ ، ١٢٩) .

ومن الأقوال التي ذكرها أبو حيان يتبين أن الصداقة قد تسمو على القرابة وهنا يستشهد بإجابة ابن المقفع على سؤال وجه إليه وهو : الصديق أحب إليك أم القريب ؟ فأجاب : القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا .

ويمضي أبو حيان ويتناول آداب التعامل مع الصديق فيحث على الصدق ، ويحذر من المكر كما يوصي بطاعة الصديق ، ومعاملته باللين ، والثقة فيه ، وعدم تصديق ما يُقال عنه وإلى معاتبته إذا وقع خلاف معه بدلًا من قطع الصلة به نهائيًا .

ويحث أبو حيان على تجنب صديق السوء ويبرر ذلك بأن تصرفه مع صديقه يوجب

نبذه ويذكر من تصرفات أصدقاء السوء ما يلي :

إذا عمل الإنسان عملًا قالوا إنه يريد التظاهر والتفاخر أمام الناس ، وإذا قصر عن العمل قالوا لقد وقع في الإثم ، وإذا بكى قالوا إنه فضح نفسه ، وإذا ضحك قالوا إنه أحمق ، وإذا نطق قالوا إنه متكلف ومدعي ، وإن سكت قالوا إنه عاجز عن النطق ، وإذا تواضع قالوا لقد افتقر وضعف ، وإذا أنفق قالوا لقد أسرف ، وإن اقتصد في حاله قالوا لقد بخل ، ثم يقدم دليلًا آخر ورد في كليلة ودمنة عن قيمة الصداقة الطيبة ومغبة صداقة السوء وهو : « صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على التبن حملت تِبنًا ، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا » . علاوة على هذا تختلف الصداقة الطيبة عن الصداقة السيئة في سرعة الاتصال والانقطاع على النحو التالي : « المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها ، سريع اتصالها كآنية الذهب بطيئة الانكسار هينة الإعادة ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بعيد اتصالها كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء ولا جبر لها » .

وهذا الجزء من الكتاب – وأجزاء أخرى – تحوي معلومات قيمة عن أساليب التمييز بين الصديق الحسن وصديق السوء (ص ٤١ – ٤٢ ، ١٠٩ – ١١٢) مع تفرقة مستفيضة بين مكونات الصداقة ، ومكونات العشق (ص ١١٣ – ١١٤ ، ١٢٩ – ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٧١) .

ويعود أبو حيان فيتناول حق الصديق على صديقه كما يراها أبو بكر ﷺ في قوله : « حق الجليس إذا دنا أن يُرحب به ، وإذا جلس أن يُوسع له ، وإذا حدث أن يقبل عليه ، وإذا عثر (أي ذل وسقط) أن يُقال (أي يصفح عنه) ، وإذا أنقص أن يُنال (أي الإحسان إليه إذا ضاق رزقه) وإذا جهل أن يُعلم » ، ويضيف إليها علي بن الهيثم : « كتمان حديث الخلوة والمواساة عند الشدة » .

وهنا يمكننا أن نتحدث عن مكونات الصداقة – كما وردت لدى أبي حيان والتي نقصد بها تحليل السلوك الذي يكوّن مفهوم الصداقة ، ومن المكونات التي ذكرها أبو حيان : كرم العهد ، بذل المال ، الوفاء ، المودة ، رعاية الغيب ، كظم الغيظ ، الحلم ، تجنب الأخلاق ، تقديم المعونة ، طلاقة الوجه ، لطف اللسان ، الصبر على الضراء (ص ١٢٩) .

وفي مجال تعريف الصديق يذكر أبو حيان تعريف أرسطو : « الصديق إنسان هو

أنت إلَّا إنه بالشخص غيرك » ، وفي تفسير التعريف يوضح أبو حيان أنه يتضمن الوصول إلى أقصى درجات الموافقة بين الصديقين ، عندما تصير عادة كل منهما إلى عادة واحدة وتتحول الإرادتان إلى إرادة واحدة ويستشهد هنا ببيت من الشعر :

إن يشأ شئت وإن شئت يشأ روحه روحي ، وروحي روحه

ويضيف أن أغلب الناس لا يصلون في صداقاتهم إلى تلك الدرجة من الموافقة ؛ لأنهم لم يجربوا الصداقة الحقيقية ، بل يمكن وصف أغلب علاقاتهم بأنها مجرد تعارف أساسه تشابه المنشأ أو الصناعة أو النسب أو الجوار في السكن ؛ كما أن صِلَاتهم يشوبها الحسد والتنافس والتعادي الذي يجهض الصداقة .

ونجد هنا عودة للحديث عن التأثيرات طويلة المدى للصداقة (ص ٦٦ ، ٦٧) كما تحدث عن الظروف الميسرة لبدء صداقة ، وهي العوامل التي تزيد من خلالها فرص عقد الصداقات وبخلاف سمات الشخصية ، وهي متغيرات ميسرة بمعنى أنها تسهل عقد الصداقة ؛ وإن كانت بذاتها غير كافية لبدء صداقة وتسمى أيضًا بالمتغيرات الثانوية ، ومن المتغيرات التي ذكرها أبو حيان القرابة Kinship والجوار أي التقارب المكاني Proximity وتشابه المهنة أو البلد (ص ٦٧) .

ثم يتعرض بعد ذلك لطرق اختبار الصديق فيذكر أن الأصدقاء يُعرفون بالشدائد ؛ وذلك لأن كل الناس أصدقاء للشخص وقت الرخاء ، ويذكر أيضًا أن الصديق هو « الذي صرت إليه في حاجة ووجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها منه » . ويضيف – علاوة على ذلك – أن الصديق السيئ هو الذي يحتاج في معاملته دائمًا إلى الملاينة كما تحتاج أن تذكِّره بأن يدعو لك في سره (أي أنه لا يدعو لصديقه من تلقاء نفسه) ، وهو أيضًا من يضطر صديقه إلى الاعتذار له عن كل صغيرة وكبيرة لبُعده عن التسامح ، وهنا يبين أن العتاب ضروري بين الصديقين ولكن بدرجة معتدلة ، فالإسراف فيه يُعد إلحاحًا ، أما صرف النظر عنه فيعد استهانة وتجاهلًا للصديق .

وفي مجال التمييز بين الأصدقاء يذكر أن من الأصدقاء من لا يحسنون التعبير عن حبهم لأصدقائهم ولكنهم يحسنون العمل ، وفي المقابل هناك أصدقاء يحسنون التعبير بألسنتهم ويبالغون في المجاملة ؛ ولكنهم يبخلون ويحجمون عن العطاء إذا سئلوا ، وهنا يذكر هذا القول الطريف ملخصًا خبرة أحد المخضرمين مع أصدقائه : « أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرًا أو شهرين فإذا لقيه لم يزده على : كيف أنت

وكيف الحال ، ولو سأله شطر ماله لأعطاه ، ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت ولو سأله حبه من ماله لمنعه » وهنا يورد قولًا طريفًا يصف الصداقة التي تخلو من البذل بأنها : « أخوة هذا الزمان ؛ مثل : مرقة الطباخ من السوق طيبة الريح لا طعم لها » .

أما عن معنى كلمة صديق فيذكر أن لفظ « صديق » أُخذ من الصدق وهو خلاف الكذب ، أو من الصدق حيث يقال : رمح صَدْق أي صلب وعلى الوجهين يكون الصديق صادقًا (أي غير كاذب) إذا تحدث ، ويكون صَدقًا (أي صلبًا ، جادًا) إذا عمل .

وينتقل أبو حيان بعد ذلك إلى المقارنة بين العشق والصداقة ؛ فيبين أن الصداقة تتسم بالعقل والمروءة ، والبُعد عن الشهوة والغرض ، كما تتميز بالتوقير والرشاد والبُعد عن الجهل والغرور الذي يتصف به صغار السن ، أما العشق فيقوم على الولع وشدة الشغف والتهيم والشجن والحزن ، وكلها أعراض أقرب إلى المرض ولا يدخل فيها العقل ، كما تمنع الشخص من الإفادة من التجارب وتتعارض مع مكارم الأخلاق ؛ ولذا فإن العشاق في أشد الحاجة إلى الزجر والوعظ حتى يرجعوا إلى الاعتدال ، أما مقومات الصداقة فهي كرم العهد ، وبذل المال ، والوفاء ، ورعاية الغيب ، وكظم الغيظ ، والحلم ، وتجنب الخلاف ، وتقديم المعونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، والاستئناس ، والصبر على الضراء ، والمشاركة في البأساء ، والعشق وإن توفرت فيه بعض تلك المقومات إلَّا أنها ليست من شروطه أو أساسياته ، وبينما تقوم الصداقة على التشابه وتلاقي الأخلاق لا نلمح تشابهًا بين العشاق . ويضيف أبو حيان أن الأُنس بالصديق أقوى من الأنس بالعشيق ؛ لأن الصديق يصلح لكل الأحوال في الجد والهزل وللقليل والكثير ، دون عزول ولا طاعن أو مُعيب ، وهو متعة للعقل والروح معًا ، أما العشيق فإنه متعة للعين ولكنها متعة محفوفة بالشك والريب علاوة على هذا يؤدي التعلق بالمعشوق إلى إثارة الشجن والحزن ، وفي نهاية الأمر لا تدوم العلاقة بين العاشق والمعشوق في معظم الأحيان .

ومرة أخرى يتكرر الحديث عن مكونات الصداقة (١٢٩) كما يفرق أبو حيان بين مكونات الصداقة ، ومكونات العشق (ص ١٤١ ، ١٧١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الاجتماعي .

الإشارات الإلهية [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يتناول الكتاب في مجمله محاورات بين الكاتب إلى نفسه ، وبين الكاتب والخالق ﷻ ، ويتناول ذلك في عبارات قوية ، والكتاب مزيج رائع من المشاعر والأفكار المتناقضة لشخص تتصارع أفكاره وأمنياته مع سلوكه الفعلي ويبدو أن ذلك هو سر اغترابه واضطرابه .

يصف الدكتور عبد الرحمن بدوي « أبا حيان التوحيدي » بأنه وجودي وهي نظرة متوقعة من أستاذ للفلسفة .

ويبدو أن منظور علم النفس يختلف عن منظور الفلسفة ، فما يطلق عليه د . عبد الرحمن بدوي على أنه إشارات وجودية ، تصلح نفسها مادة بحث في موضوع الاغتراب Alienation .

هناك إشارات وعبارات كثيرة تؤيد مشاعر أبي حيان التوحيدي بالاغتراب ، يبدو أنه أول من سطر بوضوح عبارات الاغتراب بشاعرية ، فيقول : « ليس الغريب من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب ، يا هذا ! الغريب من غربت شمس جمانه ، واغترب عن حبيبه وعذاله ، وأغرب في أقواله وأفعاله ... الغريب من إن حضر كان غائبًا .. هذا الغريب لم يتزحزح عن مسقط

---

(١) حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي . القاهرة ، جامعة فؤاد الأول (١٩٥٠م) ، (ج ١) في (٤١٠ص) . (دراسات إسلامية ، ١٢) .

رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه ، وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه .. الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ! » .

تتردد بين جنبات الكتاب محاورات ناصحة للنفس ومحاورات أخرى تدينها وتستنكرها ، وتتردد أيضًا محاورات نصح وإنارة للقارئ ، وهناك نوع ثالث يبتهل فيها الكاتب لله وتمثل المحور الرئيسي للعمل .

ومن محاورات الكاتب الفاضحة للنفس رسالته المرقمة بـ (كط) التي يقول فيها : « ظاهرك أعبث من باطنك ، وباطنك أخبث من ظاهرك ، وإشارتك أغبر من عبارتك ، وعبارتك أفسد من إشارتك ، وكلك مستغيث من بعضك ، وبعضك هارب من كلك » .

ثم هو يحاول رد نفسه إلى صواب الإيمان من بعد غربة (ص ٣٨٠) . « حتى متى إلى الشيطان سكونك ، وإلى الدنيا وعمارتها ركونك ، وعلى حطامها وسقامها جنونك ، أما تعتبر بمن مضى من أسلافك » .

ثم يبتهل إلى اللّه في عبارات أخرى (ص ٣٩٢) وكأنه ملاك طاهر ، « حرام على قلب استنار بنور اللّه أن يفكر في غير عظمة اللّه ، حرام على لسان تعود ذكر اللّه أن يذكر غير اللّه ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا للّه أن تُدنس بشيء من مخالفة اللّه » ، ونلاحظ هنا كيف جمع الكاتب من تناقضات بين طلب المغفرة لكثرة الذنوب والادعاء بالطهر من أدناس الدنيا .

وإشارات أبي حيان التوحيدي عن الاغتراب ، رغم أهميتها البالغة إلّا أن إشارته عن النفس كانت بالغة الأهمية والتحديد إلى حد محاولته وضع ما يشبه التعريف الإجرائي Operational Definition .

ويذكر أبو حيان التوحيدي (ص ٣٩٥) أن النفس ذات قوى ثلاث هي :

١ - الناطقة مسكنها الدماغ .

٢ - الغضبية مسكنها القلب .

٣ - الشهوية مسكنها الكبد .

أولًا : **النفس الناطقة** : للنفس الناطقة ثلاث وظائف هي :

١ - التخيل والإحاطة بالأشياء المبصرة والمسموعة على ما هي عليه وهو المقدَّم منه (يتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : التخيل ، والانتباه ، والإدراك البصري والسمعي) .

٢ - التمييز لهذه الأشياء ومعرفة حقها من باطلها ، وصحيحها من سقيمها ، وحسنها من قبيحها ، وممكنها من مستحيلها وهو الوسط (ويتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : التجريد والاستنباط والاستنتاج والتقويم والتفاضل) .

٣ - الحفظ لما وقع عليه التمييز (ويتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : الذاكرة ، ومعالجة المعلومات Information Processing) .

فكأن الأوسط هو الأشرف ؛ إذ منزلته منزلة الحاكم الذي ترفع إليه الرفائع وتصدر عنه القضايا ، ومنزلة المقدم منزلة الشاهد الصادق الذي ينتهي إليه ما يرى ويسمع .

ومنزلة المؤخر منزلة الخازن الحافظ يستودعه علم ما ميزها وحصله ، فمتى احتاج إلى شيء منه استدعاه من خزانته ، فهذه حال النفس الناطقة .

ثانيًا : النفس الغضبية : منها تكون الأنفة من العار ، والأناة من الضيم ، وطلب الاقتصاص من الظلم ، والانتقام عند الغضب .

ثالثًا : النفس الشهوية : فيها يكون حب المطاعم والمشارب واللذات ، ويشرح أبو حيان التوحيدي المكونات الثلاثة بقوله : إن مثال الناطقة مثال الملك المستولي ، وأفضل أحواله أن يكون عادلًا سائسًا مهيبًا مطاعًا قويًا في غير غلظة ورؤفًا في مهابة .

ومثال الغضبية ؛ مثال جنده الذين يسدون ثغوره ويدفعون أعداءه ، ويقومون رعيته ، وينفذون أمره ، وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب في نفسها ، سليمة الانقياد والطاعة لسلطانها المستخدم لها .

ومثال الشهوية ؛ مثال رعيته الذين يجب أن تكون عريكتهم لينة مواتية ، ورهبتهم منه ومن جنده تامة مستحكمة .

ويذكر التوحيدي أن الشهوية والغضبية يجذبان النفس الناطقة إلى الخلط ، وأنها – أي النفس الناطقة – لا تسلم من معارضتهما إلّا بالصرامة ، ويجب أن تكون النفسان الشهوانية والغضبية كلاهما تحت طاعة الناطقة وسلطانها لتجريهما مجرى المركوب .

* * *

الإمتاع والمؤانسة [1]

عرض : د . معتز سيد عبد اللّٰه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء ، تتناول مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة ؛ حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد اللّٰه العارض في أربعين ليلة ، وقد قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدوّن في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبته ، وكان الوزير يقترح أولًا موضوعًا حسبما اتفق وينتظر الإجابة ، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكارًا ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤالًا يأتي في أثناء الإجابة عند ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالبًا أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبًا « مُلحة الوداع » . وفيما يلي نعرض لمضمون ما دار في كل ليلة من الليالي الأربعين على النحو التالي :

الجزء الأول :

ويقع في ٢٢٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد اللّٰه العارض في ست عشرة ليلة ، نعرض لها كما يلي :

---

(١) صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين ، أحمد الزين . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د . ت] . ٣ج في مج .

الليلة الأولى : رحب الوزير في بدايتها بالمؤلف وأوضح له مطالبه فيما سيسأل فيه وأهمها الصراحة والفصاحة والصدق ، وأثنى أبو حيان على الوزير حُسن خلقه وتواضعه من أجل العلم والمعرفة ، فقد قال بعض السلف الصالح : « ما تعاظم أحد على من دونه إلَّا بقدر ما تصاغر لمن فوقه » ، وبعد ذلك بدأ الوزير في توجيه أسئلة عديدة لأبي حيان ، فسأله عن الفرق بين الحادث والمُحْدث والحديث ، فكان من الجواب أن الحادث ما يُلحظ نفسه (والمُحْدَث ما يلحظ) مع تعلُق بالذي كان محدثًا ، والحديث كالمتوسط بينهما مع تعلق بالزمان ومن كان منه ، وههنا شيء آخر ، وهو الـحَدَثان والحِدثان ، فأما الأول فكأنه لما هو مضارع للحادث ، وأما الحِدثان فكأنه اسم للزمان فقط ، ثم سأل الوزير عن الفرق بين حَدُث وحَدث ، فأجاب المؤلف بأنه لا فرق بينهما إلَّا من جهة أن حَدُث تابع لقَدُم ؛ لأنه يقال : أخَذَه ما قُدم وما حَدُث ، فإذا قيل لإنسان : حدث يا هذا ، فكأنه قيل له : صل شيئًا بالزمان يكون به الحال ، لا تقدُّم له من قبل .

الليلة الثانية : فيها طلب الوزير من أبي حيان أن يذكر أهم خصال مجموعة من العلماء ؛ هم : أبو سليمان المنطقي ، وأبو زرعة ، وابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسي ، ومسكويه ، ونظيف ، ويحيى بن عدي ، وعيسى بن علي .

الليلة الثالثة : فيها واصل المؤلف الحديث عن مجموعة أخرى من العلماء والفنانين والوزراء ، منهم : ابن بقية ، وابن جبلة الكاتب ، وابن برموية ، وابن الناظر أبو منصور وأخوه ، وأبو سليمان وبندار المغني ، وغزال الرقص ، وابن الطاهر ، وابن شاهويه ، وبهرام وغيرهم .

الليلة الرابعة : أجاب المؤلف عن مجموعة من الأسئلة النوعية عن مدى رضاه عن أبي الوفا ، وعن هروب نصر غلام خواشاذه ، وعن السبب في امتناعه من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل ، وعن مدى علمه بابن عباد ، ثم طلب الوزير بعد ذلك أن ينسخ له الرسالة من المسودة التي كتبها عن ابن عباد وابن العميد ، وفي هذا الجزء أشار إلى أن بعض الحكماء قال : إن للنفس أمراضًا كأمراض البدن ، إلَّا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضر ؛ كفضل النفس على البدن في الخير ، وهو ما يمثل إشارة صريحة إلى مفهوم المرض النفسي (ص ٦٣) .

الليلة الخامسة : طلب الوزير في البداية إتمام ما بدأ المؤلف فيه في الليلة السابقة ، فتحدث عن أبي إسحاق وأهم خصاله ، ثم أوضح أنه كان في زمان هؤلاء العلماء

والفلاسفة السابق الإشارة إليهم من يلحق بهم ، ويدخل في زمرتهم ؛ مثل أبي طالب الجراحي من آل علي بن عيسى وأبي الحسن الفلكي .

الليلة السادسة : أجاب المؤلف عن تساؤل مؤداه : هل يفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ، وبدأ إجابته بتوضيح أن الأمم عند العلماء أربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند ، وأن ثلاثًا من هؤلاء عجم ، ومن ثَم صعب أن يقال : العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة ، مع جوامع ما لها ، وتفاريق ما عندها ، ثم عرض المؤلف بعد ذلك كلام ابن المقفع ، وهو أصيل في الفُرس عريق في العجم ، مفضل بين أهل الفضل ، وذلك في تحديده لصفات ، ومميزات كل أمة من الأمم الأربع ، وكذلك آراء بعض العلماء الآخرين في نفس الموضوع ؛ مثل : الجيهاني ، والقاضي أبو حامد المَروذي ، وأبي الحسن الأنصاري وغيرهم ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم الشخصية القومية National Personality (ص ٧٠ - ٩٦) .

الليلة السابعة : ذكر المؤلف أنه كان يتناقش مع ابن عبيد حول كلامه أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالـمُلك ، والسلطان إليه أحوج ، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا الكتابة الأولى جد ، والأخرى هزل ، وأن التشادُق والتفيهُق والكذب والخداع فيها أكثر ؟ وليس كذلك الحساب والتحصيل والاستدراك والتفصيل ، ثم عرض المؤلف بعد ذلك لفضل كل من البلاغة والحساب في تنمية الفكر وتهذيب العقل ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيم العلمية (ص ٩٦ - ١٠٤) .

الليلة الثامنة : عرض المؤلف لرسالة وهبُ بن يعيش الرقي اليهودي ، التي كتبها إلى الملك السعيد سنة سبعين بعد الثلاثمائة ، وتقرب بها ، ونفعته بالمسألة والتفقد له ، فإنه شديد الفقر ، ظاهر الخصاصة ، لاصق بالدقعاء ، وللذي قاله وادعاه ، وقصد وانتحاه ، وجه واضح وحجة .

الليلة التاسعة : أوضح المؤلف فيها أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ؛ وذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان ، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صفو ومُصاصًا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلق وخُلقان وأكثر وظهر ذلك عليه وبطن أيضًا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف ، كالكمون الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الذئب ، والتحرز الذي في طباع الجاموس من

بنات الليل ، والحذر الذي في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثلًا بصاحب المقدمة .... إلخ .

الليلة العاشرة : قرأ المؤلف فيها نوادر الحيوان ، وغرائب ما سمعه ووجده حتى يكون تذكرة وفائدة .

الليلة الحادية عشرة : واصل المؤلف فيها الحديث السابق عن نوادر الحيوان وغرائبه .

الليلة الثانية عشرة : بدأ الوزير الحديث متعجبًا لما سمعه في الليلتين السابقتين ، وقال : ما أوسع رحمة اللّٰه ، وما أكثر جُند اللّٰه ، وما أغرب صنع اللّٰه ، ثم طلب من المؤلف أن يجري كلام في النفس ، وتم الاتفاق على أن يكون ذلك في الليلة التالية ؛ نظرًا لأن النعسة قد حدثت في العين .

الليلة الثالثة عشرة : وتحدث فيها المؤلف عن النفس ، وأشار إلى قول بعض الفلاسفة : « إذا تصفحنا أمر النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن ؛ لأن الإنسان إذا تصور بالعقل شيئًا فإنه لا يتصوره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف ، فإن الجزء الذي فيه التنفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوره بالعقل ، فيظن الظان منّا أن النفس لا تفعل بالبدن ؛ لأن هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسمية » ، (ص ١٩٨) .

وقد تعرف النفس أيضًا الآن من الزمان والوَحدة واليقظة ، وليس لأحد أن يقول : إن النفس تعرف هذه الأشياء بحس من الإحساس ، ففعل النفس إذن يفارق البدن ، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال : للنفس أفعال تخصها خلو البدن ؛ مثل : التصور بالعقل ، وكل ما له فعل يخصه دون البدن فإنه لا يفسد بفساد البدن عند المفارقة ، وقال أيضًا : النفس لا تموت ؛ لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن ؛ إذ كان يدبر البدن ويرأسه .

واللّٰه ﷻ المدبر لجميع الأشياء ، والرئيس لها ، والبدن أشبهُ شيء بالشيء الميت من النفس إذا كان البدن إنما يحيا بالنفس ، وقال أيضًا : النفس قابلة للأضداد فهي جوهر فالفائدة أن النفس جوهر ، وقال : النفس ليست بهيولى ، فلو كانت هيولى لكانت قابلة للعظيم ، فليست النفس إذًا بهيولى ، وقال : ليست النفس بجسم ؛ لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفس ، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم ، ولا هيولى ؛ لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعظم ، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العلاقة بين النفس

والجسم (ص١٩٨ – ٢٠٣) .

وأوضح المؤلف بعد ذلك أن الناس أصناف في عقولهم : فصنف عقولهم مغمورة بشهواتهم ، فهم لا يبصرون بها إلَّا حظوظهم المعجَّلة ، فلذلك يكدون في طلبها ونيلها ، ويستعينون بكل وُسْع وطاقة على الظفر . وصنف عقولهم منتبهة ، لكنها مخلوطة بسُبات فهم يحرصون على الخير واكتسابه ، ويخطئون كثيرًا . وصنف عقولهم ذكية ملتهبة ، لكنها عَمِية عن الآجلة ، فهي تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسمعة الربانية ، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تَثْلُجْ صدورهم بالعلم . وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند اللّٰه تعالى باللطف الخفي والاصطفاء السني ، والاجتباء الزكي ، وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة ، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العقل Mind (ص ٢٠٤ – ٢٠٥) ، ومفهوم الفروق الفردية (ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

الليلة الرابعة عشرة : أجاب المؤلف خلالها عن سؤال مؤداه : ما السكينة ؟ وأوضح أن السكائن كثيرة : طبيعية ، ونفسية ، وعقلية ، وإلهية ؛ ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة ، ومقادير متفاوتة ومتباعدة ، والسكينة الطبيعية اعتدال المزاج بتصالح الاسطقساة ، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار ، ويكون للعقل فيها أثر باد ، وهو زينة الرواء المقبول . والسكينة النفسية مماثلة الروية للبديهة ، ومواطأة البديهة للروية ، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة ، تحدث بها لصاحبها سمت ظاهر ورنو دائم وإطراق لا وجوم معه ، وغيبة لا غفلة معها ، وشهامة لا طيش فيها . والسكينة العقلية حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة ، ومعنى هذا : أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه ، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات . والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد ؛ لأنها كالحلم في الانتباه وكالإشارة في الحلم ، وليست حلمًا ولا انتباهًا في الحقيقة ، ويرتبط الحديث السابق بمفهوم اعتدال المزاج (ص ٢٠٦ ، ٢٠٧) .

الليلة الخامسة عشرة : دار فيها الحديث عن الممكن والواجب ، والعقل ، وذكر المؤلف : أن العقل لا غناء له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسيلان والتطول ؛ كما أن الحس لا ينفذ في الأمور التي لا تطور لها بالحيلولة والتطور ؛ ولذلك عرفت الحكمة في الكائنات الفاشيات ، وخفيت العِلل والأسباب في بدوها وخُفْيتها وتبددها وتآلفها ، لكن هذا الفرق والخفاء مسلمان للقدرة المستعلية والمشيئة النافذة ، وهو

ما يرتبط بمفهوم العقل Mind (ص ٢١٩ - ٢٢٠) .

الليلة السادسة عشرة : عرض المؤلف فيها لمضمون كتاب العامري : « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » .

الجزء الثاني :

ويقع في ٢٠٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد الله العارض في عدة ليالٍ ، تكملة لما بدأه في الجزء الأول من هذا الكتاب وذلك على النحو التالي :

الليلة السابعة عشرة : وبدأ الحديث فيها عن الفرق بين تَفعال وتِفعال ، ثم عرض لمكان الدين من الفلسفة والفرق بينهما ، وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل ، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل ، أو بمعنى آخر النبي والفيلسوف ، وعرض لرأي البخاري والمقدسي وغيرهما في هذا الشأن ، وعرض بعد ذلك لمفاهيم البصيرة ، الحكمة ، والتجربة وغيرهما ، وعرض لحقيقة الكيمياء ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي : الفروق الفردية Individual Differences وخاصة في التفكير (ص ١٠) ، والعقل Mind (ص ١٠ ، ١٩) ، والقيمة العلمية (ص ١٩- ٢٠) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٣٤) ، والنفس (ص ٤١) ، والإحساس Sensation (ص ٤١ - ٤٢) ، والانفعالات Emotions (ص ٤٧) .

الليلة الثامنة عشرة : وفيها عرض المؤلف لبعض الأقوال والأشعار الهزلية بناء على رغبة الوزير .

الليلة التاسعة عشرة : كتب المؤلف فيها أشياء كان يسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مرّ الأيام في السفر والحضَر ، وفيها قرع للحِس ، وتنبيه للعقل ، وإمتاع للروح ، ومعونة على استفادة اليقظة ، وانتفاع في المقامات المختلفة ، وتمثل للتجارب المخلفة ، وامتثال للأحوال المستأنفة ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمفهوم الإرشاد النفسي Counselling (ص ٦١ - ٦٢) .

الليلة العشرون : عرض المؤلف في هذه الليلة لمجموعة من الأحاديث الفصيحة المفيدة .

الليلة الحادية والعشرون : أجاب المؤلف عن أحد الأسئلة بخصوص المُغني إذا راسله آخر ولم يجب أن يكون ألذ وأطيب ، وأحلى وأعذب ؟ ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي الإحساس (ص ٨٢ - ٨٣) ، والعقل Mind (ص ٨٣)

والانفعالات (ص٨٣) .

الليلة الثانية والعشرون : وعرض المؤلف في هذه الليلة لبعض كلام أبي الحسن العامري . ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي : البساطة - التركيب Simplicity - Complexity كأحد الأساليب المعرفية (ص ٨٤ - ٨٦) ، والعقل Mind (ص ٨٤ - ٨٦) ، والعاقل (ص ٩٠) ، والعادة Habit (ص٩٠ - ٩١) ، والإحساس (ص ٨٤ - ٨٥) ، والمعنى (ص ٨٦) ، وبناء الجسم Constitution (ص ٨٧) ، والرغبة Desire (ص ٩١) .

الليلة الثالثة والعشرون : وعرض المؤلف في هذه الليلة لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية منها التسامح Tolerance (ص ٩٤) ، والغيرية Altruism (ص ٩٦) .

الليلة الرابعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن الحيوان ، وعن الفرق بين الروح والنفس ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمفهوم المعنى الدلالي (ص ١٠٥- ١١١) ، ومفهوم النفس ، (ص ١١٣ - ١١٥) ، والقيمة العلمية ، (ص ١٢٣ ، ١٢٤) .

الليلة الخامسة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في مراتب النظم والنثر ، وإلى أي حد ينتهيان ، وعلى أي شكر يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة ، وأولى بالبراعة ، ومبررات تفضيل النظم على النثر ، ودلائل تفضيل النثر على النظم .

الليلة السادسة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن أمثلة للكلمات القصار التي أومأ فيها الشيخ ابن المراغي .

الليلة السابعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في كُنه الاتفاق وحقيقته ، وذلك على أساس أنه مما يَحارُ العقل فيه ، ويَزِل حزم الحازم معه .

الليلة الثامنة والعشرون : واصل المؤلف في هذه الليلة الحديث السابق .

الليلة التاسعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في تفسيره قول الله ﷻ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد : ٣] . ويرتبط مضمون هذا الحديث بمفهوم العقل Mind (ص ١٩٠ - ١٩١) ، ومفهوم الحس (ص ١٩٠ - ١٩١) ، والشك (ص ١٩١) .

الليلة الثلاثون : أجاب المؤلف في هذه الليلة عن تساؤل حول : سراويل يذكر أم يؤنث ، ويصرف أم لا ؟

الليلة الحادية والثلاثون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم ... إلخ ، ويرتبط مضمون هذا الحديث بمفهوم العقل Mind (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) ، ومفهوم اضطراب التفكير (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) .

الجزء الثالث :

ويقع في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد اللّٰه العارض في عدة ليال ، وذلك تكملة لما بدأه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وذلك على النحو التالي :

بقية الليلة الحادية والثلاثين : وتحدث المؤلف في هذا الجزء عن أمر المطعمين والطاعمين ، الذين يشهون عند المائدة ، والذين يعبثُون ويجمعون ويطرقون ، والذين يصخبون ويغلطون ، ويضجرون ويغتاظون .

الليلة الثانية والثلاثون : وواصل المؤلف حديثه السابق ، مستشهدًا بالعديد من الأحاديث والأشعار التي دارت حول هذا النوع من الفنون (إعداد الطعام) .

الليلة الثالثة والثلاثون : وعاد المؤلف في هذا الجزء إلى ما سبق تناوله من حديث المماحلة ، بعد أن طلب منه الوزير الاستزادة فكتب له بعض الوريقات وقرأها عليه .

الليلة الرابعة والثلاثون : قال الوزير في بعض الليالي : قد واللّٰه ضاق صدري بالغيظ لما يبلغُني عن العامة من خوضها في حديثنا ، وذكرها أمورنا ، وتتبعها لأسرارنا وتنقيرها عن مكنون أحوالنا ، وكتوم شأننا ، وما أدري ما أصنع بها ، وإني لأهم في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنة وأيد وأرجل وتنكيل شديد ، لعل ذلك يطرح الهيبة ، ويحسم هذه الأمور ، ويقطع هذه العادة ، أو يحل هذه المشكلة ، ورد المؤلف على ذلك بأن لديه جوابين : أحدهما ما سمع من الشيخ أبي سليمان ؛ وهو من تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ، ومحبة هذه الدولة ، والشفقة عليها من كل هبة ودية ، والآخر مما سمعه من شيخ صوفي ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان ، ولكن الجملة نهشناء ، وفيها بعض الغلظة ؛ وذلك لأن الحق مُر ، ومن توخى الحق احتمل مرارته ، وبعد ذلك عرض المؤلف لتفاصيل هذين الجوابين ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيادة Leadership (ص ٨٦ - ٩٦) .

الليلة الخامسة والثلاثون : وأجاب المؤلف في هذا الجزء عن التساؤل الخاص بالفرق بين الإرادة والاختيار ؟ فكان من الجواب أن كل مُراد مختار ، وليس كل مختار مرادًا ؛ لأن الإنسان يختار شرب الدواء الكريه ، وضرب الولد النجيب وهو لا يريد ، ويختار طرح متاعه في البحر (إذا ألجئ) وهو لا يريد ، وهما وإن كانا انفعالين ؛ فأحدهما - وهو الاختيار - لا يحدث إلَّا من جولان وتنقير وتمييز ، والآخر - وهو الإرادة - يفجأ ويبغت وربما حمل على طلب المراد بالكره الشديد ، وفي عرض الاختيار سعة للتمكن ، وليس ذلك في عُرض الإرادة . وعرض كذلك للفرق بين المحبة والشهوة ، وماهية النفس ، والإنسان ، والطبيعة ، والعقل والمعاد ، والفرق بين الأنفس ... إلخ ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي الإرادة (النزوع) ، (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والرغبة Desire (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والانفعالات (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والنفس (ص ١٠٦ - ١١٥) ، والعقل Mind (ص ١١٥ - ١٢٢) .

الليلة السادسة والثلاثون : أجاب المؤلف في هذا الجزء عن تساؤل مؤداه : كيف تقول عند مُهَل الشهر شيئًا آخر من لفظه قائلًا : حكى العالم : عن هُلوك الشهر ومستهله (وَهله) وإهلاله واستهلاله .

الليلة السابعة والثلاثون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن بعض المعاني الأخلاقية ؛ منها أحاديث الشجعان ، وأخبار الكرام ، وفرق بين مجموعة من المفاهيم ، وحددها بدقة ، ومنها الحلم الذي هو ضبط الفكر بكف الغضب ، والعدل الذي هو القسط القائم على التساوي ؛ وحكي عن جالينوس قوله : إن الناس لشدة حبهم لأنفسهم يظنون أن لهم ما يحبون ، فمن أجل ذلك وقعوا في العُجب ؛ فينبغي أن تكون محبتك لنفسك حقيقة ، ويتم ذلك لك إذا أنت صيرت نفسك على الحال التي يرى من يرى أنك عليها ، وقال : المُعجَبُ يُحب نَفسَه ؛ ولكن بالعدل ، فإن أراد أن يحبها جدًّا فيجب أن يجعلها من أهل المحبة ، ثم يحبها من بعد .

وبعد ذلك قال : إن الحسد شدة الأسى على شيء يكون لغيره ، والكآبة إفراط الحزن ؛ وإن الحزن الغم والهم والأسى والجزع ، والخور من شجرة واحدة ؛ ومن تعاطى وصف أغصان شجرة طال عليه ، ولم يحظ بطائل ، ويكفي أن نعرف شجرة التفاح من شجرة المشمش ، وشجرة الكمثرى من شجرة السفرجل ، فإن عواقب المعارف نكرات ؛ كما أن فواتح المعارف جهالات .

ثم قال : إن الشجاعة هي الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور ، ثم قال : إن من توابع الأخلاق المذمومة الغضب ، والكذب ، والجهل ، والجور ، والدناءة ؛ وإن الغضب لا يكون مذمومًا إلَّا إذا أُعمل في غير أوانه ، ثم عرف العُجب بأنه وزن النفس بأكثر من مثقالها ، وقال أيضًا : والعجب هو النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلًا ، ثم قال : إن الوفاء قضاء حق واجب ، وإيجاب حق غير واجب ، مع رقة أُنسية وحفيظة مرعية .

ثم قال : إن الرغبة حركة تكون من شهوة يرجى بها منفعة ، وقال : إن الرغبة إذا كانت نُطقية كانت مبعثة على التحلي بالفضائل ، وإذا كانت سَبعية أو بهيمية كانت ملهجة بمواقعة أضدادها من الرذائل .

وقيل : ما المهنة ؟ قال : حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه ، وقال علي ابن عيسى : المهنة صناعة ؛ ولكنها إلى الذل أقرب ، وفي الضعة أدخل ، والصناعة مهنة ؛ ولكنها ترتفع عن توابع المهنة ، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضًا ، ولكن ذل ليس من جهة حقيقة الصناعة ، ولكن من جهة العَرَضِ الذي بين الصناعة والصناعة ، والمرتبة والمَرْتبة .

وقيل : فما العادة ؟ قال : حال يأخذ بها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة يَجْرِي عليها مَجرى ما هو مألوف طبيعي ، ثم تحدث بعد ذلك عن حركة الإبداع ، والفرق بين الصورة الإلهية والصورة العقلية .

ويرتبط هذا الجزء السابق بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي : القيم الخلقية Moral Values (ص ١٢٧ - ١٢٩) ، وضبط النفس Self - Control ، والاكتئاب Depression (ص ١٣٠) ، والإعجاب بالذات Self - Admiration (ص ١٣٠) ، وقيمة العدل (ص ١٢٩ ، ١٣٠) ، والغضب Anger (ص ١٣١) ، وقيمة الصدق (ص ١٣١) ، والرغبة Desire (ص١٣٢) ، والمهنة Occupation (ص١٣٢) ، والعادة Habit (ص ١٣٢) ، والإبداع Creativity (ص ١٣٣ ، ١٣٤) ، والصور العقلية Mental Images (ص ١٣٦ - ١٤٧) .

الليلة الثامنة والثلاثون : وفيها واصل المؤلف حديثه في بعض الأمور التي شملت حديث ابن يوسف وما هو عليه من غثاءته ورثاءته ، وعيارته وحساسته ... إلخ .

الليلة التاسعة والثلاثون : قال الوزير في هذه الليلة : يعجبني الجواب الحاضر ، واللفظ النادر ، والإشارة الحلوة والحركة الرضية ، والنغمة المتوسطة ، لا نازلة إلى قعر الحلق ،

ولا طافحة على الشفة ، فكان من الجواب : اقتراح الشيء على الكمال سهل ، ولكن وجدانه على ذلك صعب ؛ لأن التمني صفو النفس الحسية ، ونيل المتمني في الفرصة المحسوة بالحيلولة . وقد قال المدائني : أحسن الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة ؛ وقال أبو سليمان شارحًا لهذا : أما حضور الجواب فليكون الظفر عند الحاجة ، وأما إيجاز اللفظ فليكون صافيًا من الحشو ، وأما بلوغ الحُجة فليكون حسمًا للمعارضة ، وقد سار الحديث خلال هذا الجزء في هذا الاتجاه .

الليلة الأربعون : قال الوزير مرة أخرى : حدثني عن اعتقادك في أبي تمام والبحتري ، فكان الجواب : إن هذا الباب مختلف فيه ، ولا سبيل إلى رفعه ، وقد سبق هذا من الناس في الفرزدق وجرير ، ومن قبلهما في زهير والنابغة ، حتى تكلم على ذلك الصدر الأول ، مع علو مراتبهم في الدين والعقل والبيان ، لكن حدثنا أبو محمد العروضي عن أبي العباس المبرد : قال : سألني عبيد الله بن سليمان عن أبي تمام والبحتري ، فقلت : أبو تمام يعلو عُلوًّا رفيعًا ، ويسقط سقوطًا قبيحًا ، والبحتري أحسن الرجلين نمطًا ، وأعذب لفظًا . ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيم الخُلقية (ص ٢٠٠) .

* * *

القابسي (ت ٤٠٣ هـ)
الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني ، والقابسي هي النسبة التي اشتهر بها في الكتب نسبة إلى مولده ببلدة قابس عام (٣٢٤هـ) ، وتوفي بمكة عام (٤٠٣هـ) .

وتتلمذ القابسي على أيدي فقهاء من الأندلس وإفريقية - كما يذكر لنا القاضي عياض - وسمع منه الكثير ، وكان إمامًا في علم الحديث ، بصيرًا بالرجال ، عارفًا بالأصلين ، دارسًا في الفقه ، ضريرًا ، زاهدًا ، وورعًا .

وذكر له ابن فرحون خمسة عشر كتابًا ، وعياض أربعة عشر ، وعبد الرحمن عشرة - واتفق المترجمون الثلاثة على تسعة كتب نذكرها كما جاءت في ترتيب المدارك للقاضي عياض وهي :

« كتاب المهد في الفقه وأحكام الديانة » ، « والمنبه للفطن عن غوائل الفتن » ، « والرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين » ، « وكتاب الاعتقادات » ، « وكتاب مناسك الحج » ، « وملخص الموطأ » ، « والرسالة الناصرية » ، « وكتاب الذكر والدعاء » .

---

(١) القاهرة : دار المعارف (١٩٦٨م) . - (دراسات في التربية) . في : التربية في الإسلام / أحمد فؤاد الأهواني .

عرض الرسالة :

تقع الرسالة في إحدى وثمانين صفحة من القطع المتوسط ، وتتكون من ثلاثة أجزاء – والرسالة ملحقة بكتاب : التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي – تأليف الدكتور / أحمد فؤاد الأهواني ، الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة – القاهرة سنة (١٩٥٥م) . (ص ٢٦٧ – ٣٤٧) .

الجزء الأول :

وتبدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، وذكر آيات من القرآن الحكيم توضح فضل العلم ومنزلته عند الله ﷻ . ويضم الجزء الأول من الرسالة الإجابة على سؤالين مهمين :

الأول : يدور حول تفسير الإيمان والإسلام والإحسان وعن الاستقامة ، ما هي وكيف صفة الصلاح ، وقدم لنا القابسي أدلة عديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تفسر هذه المفاهيم .

أما الإيمان : فهو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر .

والإسلام : أن تعبد الله لا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، أي : أن الإسلام هو عمل الجوارح بما افْتُرض عليها .

والإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك – ويعني إحسان عبادة الله في كل ما تعبد ، من الشهادة له بالألوهية وحده ، ومن كل ما أمر به من عمل بطاعته .

والاستقامة : هي القيام بما أمر الله به ، والاستقامة في الدين هي مداومة المقام فيه ، على استوائه واعتداله ، وتحدث المؤلف عن خصال تجتمع لمن يتأس برسول الله ﷺ مثل : القصد ، والتؤدة ، وحسن السَمت .

ويقترب هذا الحديث عن الاستقامة والتأسي برسول الله ﷺ بمفهوم التعلم عن طريق القدوة (ص ٢٧٥ ، ٢٧٦) .

أما عن صفة الصلاح : فهي أن نوفي بجميع ما سبق وفاءً حسنًا من الإيمان والإسلام والإحسان والاستقامة ، ودلل المؤلف على ذلك بآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية شريفة .

أما السؤال الثاني : فيدور حول ما جاء في فضائل القرآن ، ولمن تعلمه وعلمه وما يصحب به القرآن ، وعن آداب حامله ، ومن ضيعه حتى نسيه ، وما لمن علمه

ولده ، وأهل ذلك في الصغير واجب على أبيه أو على غيره ، ومن يعلم الإناث .

ويجيب القابسي بمنهجه الخاص الذي يثبت أنه اتبع منهج أصحاب الحديث ، ومنهج المالكية على وجه الخصوص ؛ وإذا لم يجد نصًا في القرآن أو حديثًا في السنة أو إجماعًا في الرأي أو قياسًا على أصل من الأصول السابقة ، فإنه يحكم في المسألة بما يرى فيه فائدة .

ثم يحدثنا عن فضل القرآن بأنه كلام الله ﷻ ، وكلام الله غير مخلوق ، ثم ثناء الله على هذا القرآن في غير موضع منه ، والاستشهاد على تعظيمه بما جاء في أوائل بعض السور القرآنية .

وأما ما لمن تعلمه وعلمه من الفضل ؛ فذكر لنا أحاديث شريفة توضح هذا المعنى مثل قوله ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .

ومن آداب حامل القرآن أن يعلمه ويعمل بما جاء فيه .

كما يحدثنا القابسي عن من تعلم القرآن ونسيه ، فهو كمن كفر بنعمة ربه – وإذا كان تشاغله عنه بعمل من أعمال السفهاء فعقابه أشد – وقد وصى الرسول ﷺ أهل القرآن بالمحافظة على استذكاره ، وأخبرهم أنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم ، ويرتبط هذا الحديث بشكل غير مباشر بموضوع « التذكر والنسيان » في علم النفس العام (ص ٢٨٤) .

وأما عن السؤال : من يقرأ القرآن : الماشي أو الراكب أو الواقف أو من في السوق أو من في الحمام ، وذلك في غير الصلاة ، فلم يستحب مالك من ذلك شيئًا ، وإنما أقره من وجه التحفيظ للمتعلمين ليقوا حفظه بدراسته ؛ أما ما كان على وجه التفوق على الآخرين ، فقال مالك : يقرأ القرآن في المساجد ، وفي الصلاة ، وعلى حالي التفرد بقراءته ، أو في السفر ، فيقرأه ماشيًا أو راكبًا في سفره ، إلّا أنه إن مر بسجدة تلاوة ، لم يقم بها وهو راكب ، ولكن ينزل فيسجدها إذا كان على طهارة .

ويرى القابسي أن من واجبات المعلم : الأخذ بقاعدة الرفق بالصبيان ، والعدالة في العقاب ، وبعدم المغالاة في الضرب – ونهى عن عقوبة الانتقام بنهي المعلم عن ضرب الصبيان وهو في ساعة غضب حتى لا يكون الضرب لراحة نفسية ، وقد أحاط القابسي عقوبة الضرب بسياج من الشروط حتى لا يخرج الضرب من الزجر والإصلاح إلى التشفي والانتقام ، وهنا نلمح إشارة مبدئية إلى أساليب العقاب ، ومحاولة ضبط النفس

أثناء الثورات الانفعالية ، وهي من مبادئ عملية التنشئة الاجتماعية التي هي لب عملية التربية الحديثة (ص ٣١٣) .

ومن واجباته أيضًا أن لا يمنعهم الطعام والشراب ، ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم ، ولا يفضل بعضهم على بعض ، وإن تفاضلوا في الجعل ، وإن كان بعضهم يكرمه بالهدايا والإرفاق ، ألّا يخلطوا بين الذكور والإناث ؛ أما عن الرذائل عند الأطفال - فيشير القابسي إلى التبايع بين الأطفال بالربا وعلى المعلم أن ينهاهم عن ذلك ، ينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده يناهز الاحتلام أو يكون له جرأة بالإضافة إلى لهو الأطفال الذي يمنعهم من التعليم .

وفي الحديث عن الرذائل نجده يقترب من موضوع الاضطرابات السلوكية لدى الأطفال في طب نفس الأطفال Child Psychiatry وعلم النفس التربوي (ص ٣١٤) .

ومن واجباته أيضًا أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضًا ، ومن واجباته ألّا ينقلهم من سورة إلى أخرى حتى يتم حفظها وإعرابها وكتابتها - ويرتبط الحديث هنا بسيكولوجية التعلم . لكل صبي لوح يكتب فيه ، وإذا أهمل الصبي أو انصرف إلى اللعب والعبث أو الهروب عاقبه المعلم بالنصح تارة ، والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ؛ إذا لم تفلح النصائح ، ويرتبط هذا الحديث أيضًا بموضوع الثواب والعقاب كأحد موضوعات التعلم في علم النفس الحديث .

كما حدثنا القابسي عن نظام التعليم في الكتاتيب : يذهب الصبي مبكرًا إلى الكتاب ، فيبدأ بحفظ القرآن ، ثم يتعلم الكتابة ، وعند الظهر يعود إلى المنزل لتناول الغذاء، ثم يرجع بعد الظهر ويظل حتى آخر النهار - وبطالة الصبيان من بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعودون صباح السبت .

وتعلم الصبي مدة دراسته التي تستمر إلى وقت البلوغ أو بعده ، القرآن والكتابة والنحو والعربية ، وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب ، وحفظ القرآن يكون على الطريقة الفردية أو الجماعية ؛ إذ يبدأ المعلم بآية يرددها الصبيان من بعده .

ويقترب هذا الحديث من مفهوم المدرسة ودورها في التربية الحديثة ، وعلم النفس التربوي Educational Psychology (ص ٣١٧) .

أما عن السجدة عند القراءة للمعلم والمتعلم ، فاستحب لهما مالك أن يسجدا في أول مرة إذا تكررت السجدة بعينها ؛ وذلك للتخفيف .

وعما ذُكر من أن القرآن في صلاة خير من القرآن في غير صلاة ، والقرآن في غير صلاة خير من الذكر ، والذكر خير من الصدقة ، فقد دلل على أن قراءة القرآن في الصلاة والدعاء بها هي زيادة فضل .

كما أوضح لنا المؤلف فضل من عَلم القرآن أو استأجر له من يعلمه .

الجزء الثاني :

ويحدثنا القابسي في الجزء الثاني من رسالته عن الآتي :

١ - أن ما قدمه في الجزء الأول ما هو إلَّا ترغيب للوالد في تعليم ولده الطفل ، الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا . وأمرنا بتعليم أبنائنا القرآن .

٢ - ثم يحدثنا في هذا المقام عما لو ظهر على أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونًا بذلك ، لجهل ونقص حاله ، ووضع عن حال أهل القناعة والرضا ، ولكن قد يخلف الآباء عن ذلك قلة ذات اليد ، فيكون معذورًا حسب ما يتبين من صحة عذره (ص ٢٩٢) .

٣ - ويوضح ضرورة تعليم الأنثى للقرآن والعلم ، وقد أقر القابسي بهذا المبدأ لهن واعترف بحقهن في التعليم - وهو يقرر ذلك في سبيل الدين ؛ لأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعًا بنص القرآن ولا تتيسر معرفة الدين إلَّا بنوع من التعليم .

٤ - أما عن أجر المعلم ، فهو ضروري في نظر القابسي ووجه الضرورة أنه لو اعتمد الناس على التطوع ، لضاع كثير من الصبيان .

٥ - كما أجاز كتابة المصاحف وبيعها حفاظًا على القرآن ؛ لأن بيع المصاحف إنما هو بيع للرقوق والخط والصنعة ، وليس بيعًا لما فيها .

٦ - كما أجاز أيضًا تعلم الفقه والشعر والنحو والحساب ، أي : حض على تعلم العلوم الدنيوية بجانب العلوم الدينية .

٧ - كما ينبغي للمعلم أن يأمر تلاميذه بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر ؛ كما يعلمهم سنن الصلاة ، والصلاة على الجنائز ، والدعاء عليها ؛ لأن في ذلك تربية خلقية .

٨ - وقد نهى القابسي عن تعليم غير المسلمين في الكتاتيب الإسلامية .

٩ - أما عن الاستذكار فقد ذكرها القابسي على ثلاث مراحل أساسية ، وهي :

الحفظ ، والوعي ، والاسترجاع ؛ ويرى أن طرق الحفظ ثلاث وهي : التكرار والميل والفهم . ويتحدث هنا بشكل مباشر عن قواعد عملية الاكتساب Acquisition والتذكر Memory لب عملية التعلم Learning في علم النفس الحديث (ص ٣٠٨ ، ٣٠٩) .

الجزء الثالث :

كما يحدثنا القابسي في الجزء الثالث من رسالته عن بعض القواعد التي يجب أن يتبعها المعلم أثناء أداء رسالته :

لا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئًا من هدية أو غير ذلك .

لا بأس أن يملي بعضهم على بعض ؛ لأن في ذلك منفعة ، وليتفقد إملاءهم .

يجب أن يعودهم على كتابة الرسائل .

لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه .

أحب للمعلم ألَّا يولي أحدًا من الصبيان الضرب ، ولا يجعل لهم عريفًا منهم ، إلَّا أن يكون الصبي الذي قد ختم القرآن .

لا يحل له أن يأمر أحدًا أن يعلم أحدًا منهم ، إلَّا أن يكون فيما يعينه منفعة للصبي في تحريمه ، أو يأذن والده في ذلك ، (ص ٣٢١) .

لا يجوز للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلَّا أن يكونوا في وقت لا يعرضهم فيه فلا بأس بأن يتحدث ، ولا يترك عمله مع الصبيان لأي سبب من الأسباب (ص٣٢١) .

وإذا غلبه النوم في وقت التعليم ، فليغالبه إن استطاع ، وإن غلب فليقم بينهم من يخلفه عليهم ، إذا كان في مثل كفايته ، بإجارة يستأجره ، أو بتطوع له إذا كان من غير الصبيان .

وإذا مرض أو كان عليه شغل فهو يستأجر لهم من يكون بينهم بمثل كفايته لهم .

ولا يحل للمعلم أن يأمر الصبيان بأن يأتوا بطعام من بيوتهم مثلًا ، ولا يقبل أن أتى به .

وشراء العصا والفلقة على المعلم ، وليس على الصبيان .

وكان بعض المسلمين يقوم بمهمته في المساجد ، ولكن عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد ، وظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد . كما أمروا المتعلمين بألَّا يمسكوا المصحف إلَّا وهم وضوء .

وعن السؤال عن ختمة القرآن - متى تجب للمعلم ؟ وعلى أي وجه تجب له .

وهي على وجهين :

١ - أن يستظهر القرآن حفظًا من أوله إلى آخره .

٢ - أن يكون الصبي استكمل قراءة القرآن في المصحف نظرًا ؛ لا يخفى عليه شيء من حروفه ، مع ما فهمه الصبي مما ينضاف إلى ذلك ، من ضبط الهجاء والشكل وحسن الخط .

ويقترب الحديث هنا من مفاهيم : التذكر ، والحفظ الآلي ، والفهم والتجويد ، وهي من مفاهيم تدخل في إطار سيكولوجية التعلم (ص ٣٢٥) .

ويرى القابسي مكافأة المعلم على وجه التكارم على حسن تعليمه للصبي .

ويسوق لنا القابسي أمثلة توضح ضرورة الرضا من جانب المتعلمين والمعلم عن مكان الكتاب ، وعن أحوال موت المعلم أو المتعلم أو موت أبيه .

كما سئل وأجاب عن الأمور التي يؤدي فيها الضرب المبرح إلى الموت ، وعن تأديب الزوج لزوجته ، وعن عقوق الولد لوالديه ، كما حدثنا عن تفسير نزول القرآن على سبعة أحرف .

* * *

النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ)
عقلاء المجانين [١]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب النيسابوري ، لا يعرف تاريخ مولده ، لكنه توفي في ذي الحجة عام (٤٠٦هـ = ١٠١٦م) ، وكان أديبًا ونحويًّا وعارفًا بالمغازي والسير ، وصنف في القراءات والآداب .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم مقدمة ، وترجمة المؤلف ، وخطبة الكتاب ، ثم موضوعاته ، وفهرس للمحتويات .

يبدأ الكتاب بمقدمة في الجنون ، وما ورد فيه في الكتاب العزيز وما احتالت به قريش على الرسول صلوات اللّه عليه من نسبته إلى الجنون لمّا دعاها إلى الحق ، شأن كل قبيلة ينسب كل عاقل للجنون عندما يخالف قولها وفعلها .

كما يعرض في المقدمة تصورات بشأن الجنون ، وطبيعة المجنون :

منها أنه الذي يخرب آخرته بدنيا غيره ، وفي ذلك على سبيل المثال إشارة إلى اضطراب سلوك المريض عقليًا وما لذلك من آثار تدمر سعادة الآخرين ممن يحيطون به أو يتعاملون معه .

---

(١) تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول . بيروت : دار الكتب العلمية ، [د . ت] . (١٥٩ص) .

وبعد تلك المقدمة يعرض الكتاب عددًا من الموضوعات - ليست بفصول ولا أبواب ، ويمكن عرضها على النحو الآتي :

١ - **أصل الجنون في اللغة** : وفيه يعرض لمعاني الجنون في اللغة العربية ، ومنه يستخلص أن الجنون هو استتار العقل ، والمجنون هو المستور العقل (ص ١٦ - ١٨) .

٢ - **أسماء المجنون في اللغة** : ومنها يذكر : الأحمق والمعتوه ، والأخرق ، والمائق ، والرقيع ، والممسوس ، والأنوك ، والبوهة ، والذول العرهاه إلى غير ذلك من المسميات التي يذخر بها تراثنا العربي (ص ١٩ - ٢٣) .

٣ - **الأمثال المضروبة في الحمق والحمقى** : ويعرض فيه لأمثلة تصف عيوب الأحمق ؛ مثل : خرقاء عيابة [1] .

ولأمثلة أخرى تشير إلى مزايا قد يتمتع بها الأخرق رغم خرقه ؛ منها : أحمق بلغ[2] ، خرقاء ذات نيقة [3] .

كما يعرض لأمثلة تضرب فيمن يشتد حمقه ويتجاوز حدوده ؛ منها : أحمق من رجله ، أحمق من ترب العقد ، أحمق من نعامة .

ومن خلال هذه الأمثلة ؛ نجد أنها تتعرض لخصائص المرضى العقليين كما تشير إلى إمكانية المريض عقليًا جمع إحدى أو بعض الخصائص الجيدة رغم حالته المرضية ، وكثيرًا ما نجد أحد المرضى العقليين بارع في الرسم أو العزف الموسيقي مثلًا (ص٢٤ ، ٢٥) .

٤ - **أسماء جنون الدواب** : (ص ٢٦) .

٥ - **ضروب المجانين** : وفيه يتعرض لفئات من المرضى العقليين ؛ منها مثلًا : المعتوه : الذي يولد مجنونًا ، والعته هو أحد فئات التأخر العقلي وهو بطبيعته عبارة عن تأخر في الارتقاء العقلي عن معدله السوي أثناء فترة الارتقاء ، التي تبدأ من الحمل هو بذلك حالة يولد بها المريض (إن سمي التأخر العقلي مرضًا) . وتلك الحالة « المعتوه » ترادف مصطلح Moron .

ومن ضروب المجانين أيضًا العاشق ؛ وهو الذي تيمه الحب فأجنه وهي إحدى حالات الانهيار نتيجة صدمة عصبية أثارتها أحداث مؤثرة ومهددة للفرد Stressful Events ؛ منها صدمة الحب أو صدمة السفر والغربة (ص ٢٧) .

---

(١) أي مع حمقها تظلم غيرها وتعيب غيرها . (٢) أي أنه مع حمقه يبلغ حاجته .

(٣) أي أنها حمقاء وهي مع ذلك تتأنق في الأمور .

ويتناول المؤلف عددًا من آثار خبرة الحب الوجداني على سلوك وشخصية المحب وتبدأ هذه الآثار من الاندفاع والتلهف إلى الذهول والجنون ؛ ولذا يوجز هذا الشعور بقول إحدى نساء العرب إن الحب داء وجنون ، وبعد ذلك يعرض الكتاب لعدد من الفصول نعرض لها على النحو الآتي :

فصل : من اعتقد بدعة وارتكب كبيرة فأدركه شؤمها فجن : يروي أخبارًا في هذا المجال تشير إلى دور ارتكاب المعصية في إثارة الشعور بالذنب Guilt Feeling وعدم الرضا عن الذات وربما تحقيرها Self-Depreciation والذي قد يزداد فيحدث أن ينفصل الإنسان عن واقعة تجنبًا لتلك الآلام التي لا يحتملها ؛ ولذا سمي المرض العقلي من هذا النوع بالفصام Schizophrenia حيث يعيش المريض في حياة ذاتية تفتقر إلى المنطق الواعي ؛ كما يعيش في حالة من الرخاء والتوافق حتى وإن كان مريضًا (ص ٢٩) .

فصل : من جن من خوف الله ﷻ : وفيه يعرض لأخبار عن أحداث من هذا النوع ، وهي تشير أيضًا إلى دور الانفعال الشديد بخبرة الخوف في إثارة الجنون لدى بعض الشخصيات التي لا تتحمل درجة عالية من المشقة Stress أو التوتر البالغ ، مما يجعله يتجه للمرض أو الجنون ؛ كمحاولة مرضية في التوافق النفسي مع تلك الخبرة غير المحتملة .

وبذلك يعرض الكتاب لعدد من الأسباب التي تحدث قبل المرض مباشرة فتؤدي إلى حدوثه ، وهي أسباب يشار إليها في مجال علم النفس الإكلينيكي ، والطب النفسي Psychiatry بالأسباب المرسبة في إثارة الاستعداد للمرض Percipitator Causes (أو ما يسمونه بالأسباب المهيئة) التي لا تكفي وحدها لإثارة هذا المرض (ص٣٠) .

ثم يعرض الكاتب لأربعة فصول متتالية عن ادعاء الجنون ؛ وهي من تجان وتحامق وهو صحيح العقل ، من تحامق لينال غنى ، من تحامق ليمضي وقتًا طيب العيش ، من تحامق لنجو من بلاء وآفة .

وتتناول هذه الفصول إمكانية ادعاء الجنون ، وعددًا من الدوافع النفعية لهذا الادعاء .

ومن دوافع التظاهر بالجنون ، الإنكار والإخفاء لحالة ما ، لا يريد الشخص إظهارها للناس ؛ ولكسب غنى أو فائدة ما ؛ منها جمع المال أو جلب عطف الآخرين ، أو ذياعة أمره للملوك والإشراف لقضاء حاجة ما ، وكذلك الرغبة في تحقيق عيشة سهلة طيبة فيها يتحرر سلوكه عن قيود العقل والمنطق ، وينعم إلى جانب ذلك بعطف الآخرين

(ص ٣٣ - ٣٧) .

فصل : ضروب الجد والعقل ، ودولة الحمق والجهل : وفيه يعرض أشعارًا عن طيب عيش الأحمق ، وبؤس اللبيب ، ثم يحذر من مصاحبة الحمقى ؛ نظرًا للضرر الناجم عن صحبتهم .

وبعد ذلك يعرض الكتاب لكثير من مشاهير عقلاء المجانين ؛ من ذاك مثلًا : أويس القرني ، وسعدون ، وبهلول ، وعليان وغيرهم ، كما يتناول للعديد من طرائفهم ، وأشعارهم ونثرهم ، وأنماط من سلوكياتهم كل حسبما يروى عنه ، فمنهم من اشتهر بالتزهد والإيمان ، أو نظم الشعر أو إبداع النصح والوصايا السديدة .

على هذا النحو يعرض الكتاب لتفاصيل هذه الشخصيات ؛ بحيث تعكس خصائصهم النفسية والسلوكية والفكرية ، باعتبارهم فئة خاصة عادة تعيش في عزلة عن الناس ؛ ولذا تجهل العامة كثيرًا عنهم ، ومن هنا كان لهذا الكتاب أهمية في إلقاء الضوء على هذه الفئة الخاصة من المجانين .

وإلى جانب ما تعرض له الكتاب عن عقلاء المجانين بكل خصائصهم الحسنة ، نجده يشير أيضًا بشكل غير مباشر إلى شذوذ العباقرة ؛ فمنهم من لا يمكنه التوافق في إقامة علاقات سوية مع الآخرين ، ويظهرون سلوكًا غريبًا يتسم بعدم الاستقرار والتوتر الزائد إلى جانب أنهم قد يهملون في الخط ، ويتسمون بعدم الدقة لعدم صبرهم في أداء التفاصيل . هذا في ضوء ما كشفت عنه دراسات شخصية المبدعين في مجال علم النفس الحديث ؛ مثل تلك المشكلات الخاصة بالتوافق النفسي الاجتماعي للعباقرة ، جعلت الناس يتهمونهم بالجنون أو بإقامة علاقات بينهم وبين الجن أو بممارسة السحر أو بغير ذلك من أسباب لا تتصل بهم مباشرة .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ، والطب النفسي Psychiatry .

* * *

القرطبي (ت ٤٠٧هـ)
الزهد [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

محمد بن يوسف بن أحمد بن معاذ الجهني الأندلسي أبو عبد الله القرطبي ، عالم بالقراءات ؛ من تصنيفه البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان - خ في بروسة وروضة خيري ، مات بمصر .

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب مقدمة المحقق ، الذي يعرض فيها للنقاط التالية :

١ - **بين يدي الكتاب** : وفيه مقارنة بين العهد النبوي والعصر الحديث ، ففي العهد النبوي انتصر أصحاب النبي ﷺ على الفرس والروم ، وصاروا سادة الدنيا ، ومع ذلك كانت الدنيا عندهم لا تساوي شيئًا ، فهي قناة توصلهم إلى جنة الله ؛ أما العصر الحديث ، فيسعى الإنسان إلى الترف والتنعم ، والانشغال بهموم الدنيا ، وهذا ليس من الإسلام في شيء ، ويتناول هذا الكتاب الزهد ليس بمعنى أن لا تملك شيئًا في الدنيا ، ولكن بمعنى أن لا يوجد شيء يسيطر علينا إلّا منهج الله تبارك وتعالى .

٢ - **الزهد بين الاتباع والابتداع** : فالزهد خلاف الرغبة ، فيقال : فلان يرغب في كذا أو فلان يزهد فيه ، والزهد في الشيء يعني بالدرجة الأُولى عدم إرادته ، وقد تزهد

---

(١) تحقيق مجدي فتحي السيد - (ط ١) . طنطا : مكتبة الصحابة (١٩٨٨م) . (٨٤ ص) - (من صفات عباد الرحمن) الكتاب هو القسم الثالث من كتاب : قصر الحرص بالزهد .

النفس في الشيء مع امتلاكها له ؛ وذلك لأنها في الحقيقة لا تريده ، ولكن ذلك لا يعني أنها تحبه أو أنها تنفر منه ، والزهد المحمود شرعًا هو ترك ما لا ينفع العبد في الآخرة . والزهد لا يعني بالضرورة أن يكون الزاهد فقيرًا أو مسكينًا ، فقد يكون الزاهد غنيًا وصاحب جاه يمتلك الكثير ، ومع ذلك يزهد فيه ؛ أما الزهد المذموم فهو الابتعاد أو الانقطاع عن الدنيا بترك الأهل والمال والأولاد فهذا ليس من الإسلام في شيء ، ولكنه اتباع الهوى .

٣ - **علامات الزهد** : هي خمس فئات : **الأولى** : أن العبد لا يفرح بشيء موجود ولا يحزن على مفقود . **الثانية** : أن يستوي لدى العبد منًّا ذامه ومادحه . **الثالثة** : أن يكون انشغاله وأنسه بالله تعالى . **والرابعة** : قصر الأمل في العيش على الدنيا . **والخامسة**: أن العبد يسخو ويجود بما لديه ، ولا يبخل على عباد الله .

٤ - **كيفية الزهد وأقسامه** : أما كيفيته ، فهو أن لا يترك الفرد الدنيا كلية ولا يقمع الشهوات بالكلية ؛ أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع ، ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ؛ أما أقسام الزهد فأربعة أقسام : **أحدهما** : فرض على كل مسلم وهو الزهد في الحرام . **الثاني** : زهد مستحب ، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات . **الثالث** : زهد الداخلين في هذا الشأن ، وهم المشمرون في السير إلى الله ، وهو نوعان : (أحدهما) الزهد في الدنيا جملة وليس المراد تخليها من اليد ؛ وإنما إخراجها من قلبه كلية ويصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء :

١ - علم العبد أنها ظل زائل .

٢ - علمه أن وراءها - أي الدنيا - دار أعظم منها قدرًا وهي دار البقاء .

٣ - معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها ؛ أما النوع الثاني الزهد في نفسك ، وهو أصعب الأقسام ، وأشقها جميعًا .

٥ - **درجات الزهد** : ثلاث درجات : **الأولى** : هو ترك ما يشتبه على العبد ، هل هو حلال أم حرام ؟ **الثانية** : الزهد في الفضول ما يفضل عن قدر الحاجة والاشتغال بما يقرب إلى الله . **الثالثة** : الزهد في الزهد ، أي احتقار ما زهد فيه .

٦ - **المؤلفات في الزهد** : وهي كثيرة العدد مما يدل على أهمية الموضوع ؛ ومنها كتاب الزهد للإمام الحافظ ، الشيخ الإمام عبد الله بن المبارك ؛ ومنها تصنيف المعافي في

السنن والزهد وغير ذلك للإمام العامل المعافي بن عمران الموصلي ... إلخ .

ونعرض فيما يلي لمضمون الكتاب :

الباب الثامن والعشرون : (في الزهد وبيانه . فالزهد في كلام العرب : هو الإضراب عن المال والجاه فهو خلاف الرغبة ، تقول : زهد في الشيء ، وعن الشيء ، يزهد زهدًا ، وزهد يزهد لغة فيه ، وفلان يتزهد أي : يتعبد ، والتزهد في الشيء وعن الشيء خلاف الترغيب ، وهناك العديد من التعريفات التي تناولت مفهوم الزهد تجتمع جميعًا حول حديث رسول الله ﷺ في قوله : « **ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا في إطاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله تعالى ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها ، أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك** » فقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما بين عظيمين : أحدهما : التوكل ، الثاني : وهو الرضا ، رضا عام وهو لا يجد غير الله ربًا ، ولا غير الإسلام دينًا ، ولا غير محمد رسولًا . ورضا خاص : هو الذي تكلم فيه أرباب القلوب ، وهو سرور القلوب عند القضاء ، وهو غاية الرضا ، فيظهر العبد التحمل عند أول مصيبة ويرضى ثواب الله عوضًا عما أخذ منه .

● ويرتبط مضمون هذا الباب في علم النفس بموضوع الدوافع Motives وإشباع الدوافع والحاجات Needs والرغبات Desires . مفهوم الزهد يقترب إلى حد كبير من حديث علماء النفس عما يسمى بقمع الدوافع والرغبات سواء الفطرية (كالدافع الجنسي) أو الاجتماعية (كالدافع إلى التملك) ، وقد فسر أصحاب التحليل النفسي ذلك بأنه يرجع إلى أحد مكونات الشخصية الرئيسية وهو الأنا الأعلى Super Ego ، حيث يعمل على كف الدوافع ذات الطابع الجنسي أو العدواني (ص ٢٩ - ٣٤) .

الباب التاسع والعشرون : (فيما يحمل على التملك من الدنيا والزهد فيها) وهو ثلاثة أشياء : قصر الأمل ، وذكر الموت ، وزيارة القبور ؛ وهي ثلاثة أمور ضرورية يوصي بها رسول الله ﷺ وصحابته على أنها السبيل إلى تذكرة الإنسان بأن الحياة زائلة وماضية ، ولا تستحق الاهتمام بها كثيرًا ؛ وإنما هي وسيلة لغاية أبعد هي الآخرة .

الباب الموفي الثلاثين : في (فضل الزهد وثمرته) ، ويتضمن مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي يتلخص مضمونها أو دلالتها في أن للزهد نتائج إيجابية كثيرة ؛ منها حب الله وحب الناس والحكمة ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **إذا رأيتم الرجل قد**

أعطي زهدًا في الدنيا ، وقلة منطق ، فاقتربوا منه ، فإنه يلقي الحكمة » .

● ويقترب هذا الفصل بشكل غير مباشر بما يشير إليه علماء النفس من سمات الشخصية السوية Normal Personality ، والصحة النفسية ، فالصراع في الحياة والانشغال بهمومها يؤدي إلى اضطراب شخصية الفرد ؛ أما الاعتدال والزهد فيها يؤدي إلى ما يمكن تسميته بالشخصية السوية المتزنة (ص ٣٩) .

الباب الحادي والثلاثون : (في أحوال من زهد في الدنيا) وهي ست : المقال ، اللباس ، المطعم ، والصبر على الفاقة والحاجة ، وترك السؤال ، الخمول ؛ فأما المقال ، فيقصد به أن يكون قوله يوافق فعله . الثانية : لباسه ، فلا يجوز أن يعظ الإنسان الناس وعليه ثياب الفساق . الثالثة : مطعمه يكون متوسطًا . الرابعة : صبره على الحاجة والفاقة ، وهي الرضا بحكم المولى . الخامسة : إذا كان عنده ما يكفيه فلا يسأل اللَّه إلَّا قوت يومه . السادسة : أن يكون خاملًا لا يعرف ؛ أي : يكون مطيعًا للَّه في السر والخفاء ، والغموض أمام الناس .

● ويقترب مضمون هذا الفصل من خصائص المصدر Source أو القدوة Model المؤثر ؛ وهو موضوع يقع في دائرة اهتمام علم النفس الاجتماعي (وخاصة نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning كما يقترب أيضًا من موضوع العلاقات بين الاتجاهات والسلوك Attitudes and Behavior) خاصة عندما تحدث المؤلف عن صفة من صفات الزاهد وهي الاتساق بين القول والفعل (ص ٤٠ - ٤٣) . كما يتعلق أيضًا بالسيطرة على الدوافع والرغبات .

الباب الثاني والثلاثون : ويتضمن الإشارة إلى زهد النبي ﷺ في عيشه ، ومطعمه ، وملبسه ، ومركبه ، فكان رسول اللَّه ﷺ في كل هذه الأمور يتسم بالزهد والتقشف ؛ لأنها ليست متاحة ؛ ولكن لأنه لا يريد الانشغال بأمور الدنيا الزائلة ، ويسعى للآخرة ، وأن يكون نموذجًا يقتدي به أهل أمته من بعده .

● ويقترب هذا الفصل من حديث علماء النفس عن مدرج الحاجات Hierarchy of Needs حيث تقع الحاجات الفسيولوجية الأولية ، الحاجة للطعام ، والشراب ، والملبس في بداية المدرج ، وكلما ارتقى الفرد ونمت شخصيته كلما انشغل بأمور أخرى أكثر أهمية مما يقع في المجال المعرفي وتحقيق الذات Self - Actualization (ص ٤٤ - ٤٧) .

الباب الثالث والثلاثون : ويتضمن الحديث عن زهد الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم

وزهد هؤلاء الصحابة والخلفاء - لم يكن على اضطرار ؛ وإنما كان ذلك منهم اخيار ، وإيثارًا للأفضل من الحال وتواضع لله ﷻ ، واقتداء بنبيهم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها** » .

الباب الرابع والثلاثون : (في فضل من أخذ المال بحقه وأنفقه في حقه) وعن فضل المال وخبثه قال علماؤنا رحمة الله عليهم - إن صاحبه إذا أنفقه في حقه ووضعه في حقه ، كان في أرفع المنازل والدرجات ، وأعلى المقامات كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] ، والآيات في مدح المال كثيرة لمن تأمل كتاب الله ؛ وذلك مما يدل على كسبه واتجاره وجمعه ، وقد قال عمرو ابن العاص : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، وقد أباح الله تعالى كسب المال ليوصل به إليه من جهاد وعَدْو وإعانة فقير ، وإطعام مسكين ، وعون مظلوم ، وإغاثة ملهوف ، ومتى صح القصد فيه فجمعه أفضل ، بلا خلاف عند العلماء .

● ويقترب ذلك من حديث علماء النفس عما يسمى بالحاجات الوسيلية Instrumental Needs والحاجات الغائية Ultimote needs فالمال هنا وسيلة لغايات أخرى أسمى وأرقى (ص ٥٧ - ٦١) .

الباب الخامس والثلاثون : في بيان قوله ﷺ : « **لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال** » ، وبيان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [طه : ١٣١] ، فكل الأمم افتتنوا ، بعضهم افتتنوا عن توحيده بعبادة الأصنام ، وقوم بالشمس فتألهوها ، وقوم بالقمر ، والنصارى افتتنوا بعيسى فقال قوم منهم هو الإله ، والمال إذا شغل عن ذكر الله ، وعن القيام بحقوقه فبئس المال ، وإذا لم يمنع عن ذلك فنعم المال ؛ كما قال رسول الله ﷺ والصحابة ﷺ .

الباب السادس والثلاثون : (في حقارة الدنيا وهوانها) : فالدنيا لا تستحق من العبد الاهتمام الزائد والانشغال المفرط بها ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي منها كافرًا شربة ماء** » ، وقد قال علماؤنا معنى هوان الدنيا على الله هو : إنه لم يجعلها مقصودة لنفسها بل جعلها طريقًا موصلًا إلى غيرها ، وإنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء ؛ وإنما جعلها دار رحلة وبلاء - فالدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « **ملعونة ما**

فيها إلَّا ذكر اللّه ، وما والاه وعالم أو متعلم » .

الباب السابع والثلاثون : (في بيان الدنيا وفيما جعل مثلًا لها) قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقال علماؤنا : في ضرب اللّه تعالى المثل في الدنيا بالماء المنزل من السماء بدائل تسع : **الأولى** : أن المطر لا يستنزل بالحيلة ، كذلك الدنيا لا تنال إلَّا بالغنيمة . **الثانية** : أنه وإن كان المطر لا يجيء إلَّا بتقدير ؛ فإنه يستنزل بالرغبة والسؤال ، كذلك الرزق يلتمس من اللّه . **الثالثة** : أن الماء إذا جاء به نفع وإذا زاد على الحاجة ضر ؛ كذلك المال إذا كان بقدر الكفاية فصاحبه في نعيم ، وإذا زاد فصاحبه في طغيان . **الرابعة** : أن الماء إذا كان جاريًا كان طيبًا ، وإذا اختزن تغير كذلك المال إذا أجراه صاحبه في مجاريه فطاب وإذا احتجبه حيث عليه وغاب . **الخامسة** : أن الماء إذا كان طاهرًا صلح للثياب والعبادات ، كذلك المال إذا كان حلالًا استقام به المعاش . **السادسة** : أن الماء إذا أثار عنه النبات وخرجت به الأشجاء لا يأمن أن تصيبه آفة من غير أسباب ، وكذلك المال . **السابعة** : قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف : ٤٥] . **الثامنة** : أن المال إذا أخذ منه العبد حاجته في المعاش ، وأرسل باقيه في الشهوات كان معدومًا في حق الدنيا هشيمًا ، صار به صاحبه ملومًا . **التاسعة** : اختلاف أحوال الزرع من حين خلقه ، كذلك المرء لا يطيب عمله إلَّا إذا راض نفسه قبل أن يرد إلى أرذل العمر وهو حال الضعف في القوة .

الباب الثامن والثلاثون : (في أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) ، فالدنيا سجن ؛ لأن المؤمن فيها مقيد بقيود التكاليف ، فلا يقدر على حركة ولا سكون إلَّا أن يفسح له الشرع ، فيفك قيده ويمكنه من الفعل أو الترك ، ثم هو في هذا السجن على غاية الخوف والوجل إذا لا يدري بما يختم له من عمل ، والكافر منفك عن تلك التكاليف ، آمن تلك المخاوف ، مقبل على لَذَّاته ، منهمك في شهواته ، يأكل ويتمتع كما تفعل الأنعام .

الباب التاسع والثلاثون : في قوله ﷺ : « من أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » فالدنيا مستطابة في ذوقها ، معجبة بمنظرها ، كالتمر المستحلى للرائي ، فابتلى اللّه بها عباده ؛ لينظر من أحسن عملًا ، أي من هو أزهد فيها ، وأترك لها على ما تقدم ، ولا سبيل للعباد إلى بعض ما زين اللّه إلَّا بقوته على ذلك .

الباب الموفي أربعين : في بيان قوله ﷺ : « **من رغب عن سنتي فليس مني** » .
ويكشف هذا الباب والأبواب السابقة أنه ليس من الزهد ترك المباحات ولا تحريم الطيبات ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾ [المؤمنون : ٥١] . وقد ضرب رسول اللّه ﷺ والصحابة ﷺ في ذلك المثل والريادة والقدوة الحسنة . ولذا يجب الاقتداء بهم ؛ لأن ذلك هو ملاك الدين . وعن أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة ؛ فلذلك كما قال أبو عبد اللّه محمد المالكي في أحكام القرآن – ثلاثة أحوال : **الأولى** : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه . **الثانية** : وإن كان مختلطًا حلالًا وظلمًا كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع عدم الأخذ ، ويجوز للمحتاج أخذه هو خلص في يده . **الثالثة** : وإن كان ما في أيديهم ظلمًا حرامًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم .

* * *

الكرماني (ت ٤١١هـ)
مجموعة رسائل الكرماني [١]

عرض : د . محمد شلبي

التعريف بالمؤلف :

كان أحمد حميد الدين الكرماني من كبار الإسماعيلية في جزيرة العراق ، واسمه كما ورد في المصادر الإسماعيلية : هو سيدنا الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني صاحب التآليف العديدة في أصول وأحكام المذهب الإسماعيلي .

وصفه الداعي إدريس عماد الدين القرشي المؤرخ الإسماعيلي ، فقال : « ... حتى ورد إلى الحضرة الشريفة النبوية الإمامية ، ووفد على الأبواب الزاكية الحاكمية باب الدعوة الذي عنده فصل الخطاب ، ولسانها الناطق بفضل الجواب ، ذو البراهين المضيئة ، حجة العراق أحمد عبد اللّٰه الملقب بحميد الدين الكرماني قدس اللّٰه روحه ورضي عنه .. مهاجرًا عن أوطانه ومحله ، وواردًا كورود الغيث إلى المرعى بعد محله ، فجلى ببيانه تلك الظلمة المدلهمة ، وأبان بواضح علمه ونور هداه فضل الأئمة ... والداعي حميد الدين أحمد بن عبد اللّٰه هو أساس الدعوة التي عليه عمادها ، وبه علا ذكرها ، واستقام منارها ، وبه استبانت المشكلات ، وانفجرت المفصلات .

يبدو أن الكرماني من أصل فارسي ومن مدينة « كرمان » تلقى علومه في المدارس الفكرية الإسماعيلية ، وتتلمذ على الفيلسوف « أبو يعقوب السجستاني » الذي قتل في

---

(١) تحقيق مصطفى غالب . (ط ١) . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (١٩٨٣م) . (٢١١ ص) . المحتويات : ثلاث عشرة رسالة منها : الدراية في معنى التوحيد والموحد . النظم في مقابلة العوالم . الموسومة بالرمزية . الموسومة بالزهرة .

تركستان سنة (٣٣٢هـ) ، ومن ثم ارتحل إلى القاهرة للتزود من العلم .

وبعد أن بلغ درجة علمية كبيرة عين حجة العراقين - فارس والعراق - فعرف منذ ذلك الحين بحجة العراقين ، وتمكن من استمالة والي الموصل المقلد بن يوسف فاعتنق الإسماعيلية وخطب للإمام العزيز الفاطمي على منبر الموصل سنة (٣٨٢هـ) .

وتشير النصوص الفاطمية إلى أن الكرماني قد استدعي إلى القاهرة سنة (٤٠٨هـ) من قبل الصادق المأمون (ختكين الضيف) داعي الدعاة عندما اشتد وطيس المعارك الدينية ، وقامت الدعوة « الدرزية » فراح يلقي المجالس ، وينشر الرسائل التي يرد فيها على الدعوة الجديدة .

ويتجلى فضل الكرماني على الفلسفة الفاطمية بما أعطاها من مرد علمي وفكري وإنتاج خصب في نواحي المعرفة الإنسانية ، ترك آثارًا غنية بالفكر والمعرفة في جميع المواضيع الفاطمية ، كما عُني العناية الفائقة في مسألة التوحيد والتجريد والتنزيه ، والنبوة والإمامة والمعاد ، وإثبات العصمة الذاتية للأنبياء والأئمة ، بما يتصل بهذه الأمور من مباحث عقلية كثيرة .

ومن مصنفاته : « راحة العقل » ، « المصابيح في إثبات الإمامة » ، « تنبيه الهادي والمستهدي » ، « الأقوال الذهبية » ، « معاصم الهدى » ، « الإصابة في تفضيل علي على الصحابة » ، « فضل الخطاب » ، « المحصول » ، « الرسالة الوضية » ، « كتاب الرياض » ، « ثلاث عشرة رسالة فلسفية توحيدية متنوعة » ، وكانت وفاة الكرماني سنة (٤١١هـ) .

عرض الكتاب :

يشتمل هذا الكتاب على ثلاث عشرة رسالة كتبها الكرماني لمواجهة التفكك والاضطراب اللذين أصابوا الدعوة الفاطمية في عهد الإمام الحاكم بأمر اللّه ، وقد دعاه « ختكين الضيف » إلى القاهرة لإنقاذ الدعوة من موجة الغلو ، وطلب منه أن يساهم في المجادلات والمناظرات ، وكل رسالة من هذه الرسائل هي إجابة عن مسألة من الأسئلة التي طرحت في المجادلات .

في الرسالة الأولى يحاول الكرماني شرح رأي الفاطميين في التوحيد إجابته عن سؤال .. ما التوحيد ؟ فاللّه تعالى هو واحد لا إله إلّا هو لا مثل له ، وأنه لا ينال بصفة من الصفات ، وأنه ليس بجسم (ص ١٩ - ٢٦) .

اهتم الكرماني في رسالته الثانية (ص ٢٧ - ٣٤) بموضوعات فلسفية تتعلق بطبيعة الأعداد ، وأن لكل عدد خاصية ، وأن لكل نوع من الموجودات عدد مخصوص محدد ، وأن الموجودات عدد مخصوص ، وأن الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه ، ولابد من مقابلة الأعداد بالموجودات ، ومطابقة هذه الموجودات على الأمور الدينية ، ومقابلة ذلك مع صنع الله ، وهو يحاول تفسير قدسية رقم ١٢ لدى الإسماعيلية ، فأقسام الفلك اثني عشر ، وشهور السنة اثني عشر ... إلخ .

ويشرح في رسالته الثالثة « الرضية عن موضوعات فلسفية » كقدم الجوهر وحدوث الصورة ، وأن الفعل لا يصح إلا بوجود مادة تقبل الفعل فهو يقسم الموجودات إلى ما هو جوهر وإلى ما هو عرض ، والجوهر ينقسم إلى ما هو جسم مثل السماء وما فيها من كواكب وإلى ما هو غير جسم مثل النفس ، وأن الجسم ينقسم إلى ما هو طبيعي وهو الذي تحركه الصورة المحركة المكانية مثل حركة الدوران ، وإلى ما هو نفساني كالقوة المحركة لليمين واليسار ، وينقسم النفساني إلى ما هو حيوان مثل الإنسان والحيوان والطيور ، وإلى ما هو نبات مثل النجم والشجر .

وينقسم الحيوان إلى الحيوانات الناطقة كالإنسان وغير الناطقة كالحيوان ، وتنقسم الناطقات إلى الملائكة والأنبياء والأئمة ، (ص ٣٥ - ٤٢) .

وتكلم الكرماني عن الفرق في حركات الأنفس الثلاث التي هي النامية والحسية ، والناطقة ... (ص ٣٨) وذكر أن النفس الناطقة تختلف عن الحسية بأنها تفعل بغير آلة ، أما الحسية فتفعل بآلة ... وأشار الكرماني إلى ظاهرة التكيف الحسي حيث قال : « ... إن الآلة الجسمانية التي بها تدرك المحسوسات تكل عن إدراك محسوساتها ما يكون في نهاية الإفراطية والتمامية من الكيفية ؛ مثل : العين إذا نظرت إلى عين الشمس التي هي النهاية في الضياء تكل عن البصر ... » (ص ٣٨) . « والتغير الجسماني بخلاف ذلك ، فإنه كلما أدرك ما هو أدق وأعظم من العلوم كانت قوته أنفذ في الإدراك ... » (ص ٣٨) . ثم تكلم الكرماني بعد ذلك عن مراحل نمو الإنسان ؛ ونفوسه الثلاث التامة والحسية والناطقة منذ تكوين النطفة حتى يكون الإنسان بعد الميلاد إلى مرحلة البلوغ ، وتمام نمو ونضج نفسه الناطقة (ص ٣٨ ، ٣٩) .

ويشرح في رسالته الرابعة : « المضيئة في الأمر والآمر والمأمور » التي كتبها لتنوير وتبصير عقول الباحثين بمناقشة قضايا فلسفية ، فالكلمة هي العلة وجدت أولاً « من المتعالي سبحانه ، ولم يكن في الوجود من المتعالي سبحانه سواها ، كانت لعلة بعينها هي

المعلول ، وصح القول بأن ذات المعلول هي ذات العلة ، وذات العلة هي ذات المعلول » (ص٤٣ - ٦٠) .

ويشرح في رسالته الخامسة : « اللازمة في صوم شهر رمضان » أسباب صوم الطائفة لشهر رمضان سنة (٤٠٠هـ) قبل رؤية الهلال بيومين ، ويذكر أن رؤية الهلال ؛ إنما هي رؤيتان ، الأولى طبيعية والثانية نفسية ، والرؤية الطبيعية هي من جهة العين لا تدرك من الأشياء إلا ما كان جسمانيًا واقعيًا تحت الحد والزمان ؛ مثل : الألوان والأشكال ، وأن الرؤية النفسانية تكون من جهة الفؤاد والعلم ، تدرك ما لا تدركه الرؤية الطبيعية ، وما تعجز عن إدراكه مما يغيب عن الأبصار .

ويذكر أن رؤية البصر قد يقع من جهتها خطأ في رؤيته الأشياء ؛ فترى الصغير كبيرًا ، والكبير صغيرًا ، وأن الرؤية النفسانية أصلح من الرؤية الطبيعية لوجود موانع طبيعية وحسية ، ويفسر الصيام المبكر في ضوء قول النبي ﷺ : « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته** » إنما يتضمن وجهتي نظر ؛ أما أن يكون الصيام من وقت رؤية الهلال أو أن يرى الهلال عيانًا والأمة صائمة (ص ٦١ - ٨٠) .

ويشرح في رسالته السادسة : « الروضة » معاني الأزل والأزلي والأزلية ؛ فإذا كان اللفظ كليًا عامًا كان ما دل عليه في ذاته كليًا وعامًا ، وإذا كان اللفظ جزئيًا كان ما دل عليه جزئيًا ، ويفند الكرماني آراء الداعي « أبو يعقوب السجستاني » في كتابه « المقاليد » وفي ذلك يقول : « إن العقل أزلي الغاية ، ليعلم كونه باقيًا على حالته غير متناه لا أزلي الأول ليعلم كونه مبدعًا ، ثم إن الأزلية تفيد من المعنى ، إلَّا أن الهاء في الأزلية الدالة على التأنيث يوجب أنه في عالم العقل مما يجمعه وإياه سمة الأزل الذي يقوم لعنصرهما ، وهما من جهته واحدة ما هو دونه في المرتبة ، وهو بالإضافة إليه كالأنثى من الذكر اللذين هما من جهة الجسمية واحد ، ومن جهة الصورة اثنان ، مثل جوهر العقل الثاني المسمى نفسًا ، الذي هو الصورة المجردة الواقعة تحت الإبداع زوجًا للعقل الأول ... ولما كان القول في الأزل والأزلي اقتناعيًا ، لزم أن تدل على العلة فيما قلناه ليصير دليلنا » ، (ص ٨١- ٩١) .

ويجيب الكرماني في رسالته السابعة : « الموسومة بالزاهرة » عن ست مسائل ، تتعلق الأولى بأن الأسامي لا تفي بالمعاني ؛ لذلك لابد من استعارة الألفاظ لمن أراد العبارة ، ويجيب بأن هذا قول محال ؛ لأن كل اسم يؤدي من المعنى في المسمى ما هو مختص به ، ولا يوجد معنى واحد عبر عنه اسمين ، بل من الأسماء ما يؤدي من المعاني المسميات

ما يوفي معناه على لفظه ، فيكون ذلك نتيجة لإيجاب معنى آخر وشيء آخر ؛ مثل قولنا : المكان فإنه اسم موف معناه لأعلى ذاته حتى يزاد عليه ، ووجب به شيء آخر وهو المتمكن ، فالمكان يصير مكانًا بالتمكن (ص ٩٢ - ١٠١) .

ويجيب الكرماني في رسالته الثامنة : « الحاوية في الليل والنهار » عن أولئك الذين سألوه عن الليل والنهار وأيهما أسبق ؟ فيقول : « إن بالنهار وضيائه يتبين كل ذي لون وصورة وشكل ، وبه يقع التمييز بين الأشياء ، والظلام يستر الأشياء ويمنع البصر ... » ، (ص ١٠٢ - ١١٢) .

ويجسد الكرماني في رسالته التاسعة : الموسومة « برسالة مباسم البشارات » حيرة الناس في مصر الفاطمية حين بدأت بدعة تأليه الحاكم بأمر اللّه فوجدهم : « تتلاعب بهم الأفكار الردية ، وتتداولهم الوساوس المردية ... فصار البعض منهم في الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض في النكص على أعقابهم تاركين عصم الدين وعراه ، والقليل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم » .

وبين إمامة الإمام الحاكم بأمر اللّه وأنه إمام وقته وزمانه فقط (ص ١١٣ - ١٢٣) .

ويرد الكرماني في رسالته العاشرة : الموسومة « بالواعظة » على أحد دعاة التأليه المسمى الحسن الفرغاني المعروف بالأحزم ، موجهًا رده على رقعته : « إني وجدت رقعتك أولًا خرساء عمياء جذماء بتراء ، بإسقاطك منها اسم اللّه ربك ورب العالمين » . ورد على أسئلته الساذجة ؛ كقوله : إن من عرف إمام زمانه حيًّا فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو إمام ، أو أن من عبد « اللّه » من المخلوقات إنما يعبد شخصًا لا روح فيه ؛ لأن اللّه له اسم ، أو هل الشريعة محدثة أم قديمة ؟ ... إلخ ، ويفند الكرماني رقع الأحزم ويحذره من نكال الدنيا والآخرة من هذه المقالات الشنيعة (ص ١٣٤ - ١٤٧) .

يرد الكرماني في رسالته الحادية عشرة : الموسومة « بالكافية » على الهاروني الحسني الزيدي الذي ادعى الإمامة ، ورد الكرماني مفندًا لأفكار الهاروني معتمدًا على القرآن والأحاديث النبوية ؛ خاصة ما يتعلق بظاهر الفرائض وبواطنها ، وأن ادعاء الباطن ضلالة تدعو إلى إهدار دمهم ، ويسر الكرماني على ذلك بقوله : « إن هذا الرجل ، والقائلين بقوله ، إنما تسرعوا إلى دفع الباطن لاشتباه الأمر عليهم في ما عندنا من معنى هذين اللفظين ؛ فالأشياء كلها على ما هي عليه في أعيانها شيئان : شيء محسوس ظاهر الذات تدركه الحواس أو شيء خفي لا يدركه البشر بالعقل والعلم ، وإذا قلنا الظاهر

فمرادنا فيه الفرائض الشرعية ، وإذا قلنا الباطن فمرادنا فيه العلم على ما ينقسم إليه من العلم بوجود الشيء وعنصره ، وبكونه من الأشياء الظاهرة ، أو الخفية ، وبمقداره ، وبصورته ، وبسبب وجوده ، وبالغرض في إيجاده الذي هو غير محسوس ولا يدرك بحواس ، بل معلوم بالخواطر ، والأوهام ، والأنفس ، والعقول ، مثل المعرفة بالتوحيد ، والرسالة ، والحشر ، والجنة ، والنار » ، (ص ١٤٨ - ١٨٢) .

الرسالة الثانية عشرة : في الرد على من أنكر العالم الروحاني ويحاول فيها الإجابة عن من سأل عن العالم الروحاني « ليس لخلفاء العالم الروحاني خفاء عنا ، لكن لعجزنا نحن عن دركه » (ص ١٨٣ - ١٨٩) .

الرسالة الثالثة عشرة : الموسومة « بخزائن الأدلة » تتضمن ثماني وعشرين خزانة ، تشمل كل خزانة نوعين من الأسلحة ، متى أراد المبارز استلامها ، أسهل عليه وجودها ، وهذه الخزائن هي براهين لقضايا دينية وفلسفية ؛ مثل إثبات المبدع نفي العلة والجوهرية والزمان والمكان والشيئية والصفة والحد والأيسية عن الله ، وإثبات أن المبدع ثابت ، وفي إثبات العقل وعالمه ، وجوهرها وفي إثبات الرسالة والوصاية والإمامة والبعث (ص ١٩٠- ٢٠٩) .

وبالكتاب إشارات نفسية عديدة ففي (ص ٦٦) إشارات عن أجهزة الحس ، وماهية الإدراك Senses & Perception ، وكذلك في (ص ٧٠ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٦) .

يذكر الكرماني (ص ٦٦) : « أن هناك إدراكًا بواسطة الحواس الخمسة ؛ كإدراكها الألوان ، والأشكال من جهة البصر ، والأصوات ، والأصوات الدالة وغير الدالة من جهة السمع ، وغير ذلك مما يتعلق إدراكه بالحواس الأخرى ، وهو الذي منه يقع استدلالها من إدراك ما لا تدركه الحواس ، وإدراك بذاتها من طريق الاستدلال الذي يقوم مما تدركه من جهة الحواس ، كإدراكها حدث العالم بعد إدراكها إياه من جهة الحواس ، ومما تدركه بذاتها من طريق الاستدلال فلا طريق للحواس إليه ... » ، ويميز الكرماني هنا بين الإدراك المباشر Perception ، وبين الإدراك غير المباشر أو ما يطلق عليه علماء النفس الاستدلال Reasoning .

ويذكر الكرماني في صفحات (٨٢ - ٨٤) بعض الإشارات في مجال علم اللغة والمعاني Semantics فهو يقول : إن الألفاظ والأسماء التي هي الأدلة ، وبين معانيها التي هو المدلول له ... فصار كل من الاسم ومعناه مثل الآخر ، وقام بشاكلتهما اتحاد الأول

بالآخر ... ثم يستطرد (ص ٨٣) أنه ليس كل اسم إذا دل على معنى أو شيء ، قلنا تناسب بينهما وتشاكل ... فاسم الكلب يطلق على حيوان معين ، ويطلق في ذات الوقت على كوكب معين ولا يعني ذلك أنهما واحد ...

ويذكر الكرماني (ص ٨٦) أن رؤية البصر Sensation قد يقع من جهتها الخطأ في رؤية الأشياء على حقائقها من أعراضها فيرى الصغير كبيرًا ، والكبير صغيرًا ، والرقيق غليظًا ، وربما لا يرى إلّا من قريب ، أو لا يرى إلّا من بعيد .

ويدخل ذلك كله باب الانتباه والإدراك Attention & Perception وهي من حقائق علم النفس .

اوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

الأقوال الذهبية [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على بابين ، نعرض لهما على النحو الآتي :

الباب الأول : ويتضمن ستة أقوال :

القول الأول : فيما جرى بين الشيخ أبي حاتم الرازي وابن زكريا المتطيب من الكلام على النبوة والإمامة ، والجواب عما أهمل أبو حاتم عنه الجواب من سؤال ابن زكريا الرازي ؛ حيث سأل محمد بن زكريا الرازي الشيخ أبا حاتم الرازي سؤالًا مؤداه : من أين أوجبتم أن اللّه اختص قومًا بالنبوة دون قوم ، وفضلهم على الناس وجعلهم أئمة لهم ، وأحوج الناس إليه ؟ ومن أين أجزتم في حكمته أن يختار لهم ذلك ، ويؤكد بينهم العداوة ويكثر المحاربات ، ويهلك بذلك الناس ؟ وأنه أجاب فقال له : فكيف يجوز عندك في حكمته أن يفعل ؟ فقال : الأولى بحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، أن يُلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم ، ولا يفضل بعضهم على البعض ؛ فلا يكون بينهم تنازع واختلاف فيهلكوا ، وذلك أحوط من أن يجعل بعضهم أئمة بعض ، فرد عليه قائلًا : لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم لاستووا في الهمم والعقول ، وتستمر المحاورة بينهم في هذا الإطار .

---

(١) تقديم وتحقيق مصطفى غالب - (ط ١) . بيروت : دار محيسو للنشر والطباعة (١٩٧٧م) . (٢٠٠ ص) .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الفروق الفردية Individual Differences في الخصال أو خصائص الشخصية والقدرات العقلية (ص ٣٧ - ٣٩) .

القول الثاني : في ذكر هذا الخطأ المستمر على محمد بن زكريا الرازي فيما وسم كتابه المنسوب إليه بالطب الروحاني ، فقد أطلق عليه الرازي هذا الاسم ليكون قرينًا للكتاب المنصوري في الطب الجسماني - إلّا أنه غير مشابه له لا في التأليف ولا في الترتيب ؛ ولذا فالمقارنة بينهما غير جائزة ، فالتسمية بالطب الروحاني خطأ كبير ، ثم إن المعلوم من صناعة الطب أنها تنقسم إلى العلم معرفة بالأعلال على أنواعها ، وبالأدوية على ترتيبها في حرارتها وبرودتها وإلى العمل استعمالاً للأدوية في دفع أعلال باطن الأجسام وظاهرها والدلالات المعينة على ذلك ، فكتاب الطب الروحاني يخلو من ذكر الأمراض النفسية وأنواع الأدوية المستخدمة في علاجها ، وهذا ما نجده في كتاب الطب الجسماني .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم المرض النفسي Mental Illness والفرق بينه وبين المرض الجسمي أو العضوي ، (ص ٣٩ - ٤١) .

القول الثالث : فيما ذكره الرازي في الفصل الأول من كتاب الطب الروحاني من فضل العقل ومدحه وبيان ما استمر عليه من الخطأ فيه وإصلاحه ، وبيان ما ينطوي فيه من إثبات النبوة ، وفيه يقول : إن اللّه ﷻ إنما أعطانا العقل وحبَانا لننال ونبلغ به المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وأنه أعظم نعم اللّه عندنا ، وأنفع الأشياء لنا ، فالعقل فضَّلنا على الحيوان ، وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا .

إلّا أن المؤلف يرد على ذلك بقوله : وإذا صح وثبت أن المَحْبُو من العقل الذي هو أعظم نعم اللّه عندنا وبه ننال خيرات الدنيا والآخرة ، لا عقولنا بل عقول الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين ، كان القول على عقولنا القائمة بالقوة بما هو صفة للعقول الكاملة المعلمة بالوحي والتأييد والاعتماد بأنها حق ، ضلالاً عن الحق في بحره غرق من غرق من القائلين بالاستدلال والمكتفين بذوات عقولهم في الاستكمال لعدولهم في الاستفادة عن الفاضل الكامل نبيًا وجيهًا ، وإذا كان القول على عقولنا بما هو صفة لعقول الأنبياء صلوات اللّه عليهم ضلالاً عن الحق ، فقد ظهر الخطأ في قول من يرى ويعتقد إن العقل المحبو لنا الذي هو أعظم نعم اللّه عندنا هو عقولنا .

● وورد في هذا الجزء إشارة لمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization وأساليب العقاب والتربية (ص ٥٤) ، وفيه إشارة إلى فضل العقل والتفكير اللذين تميز بهما الإنسان عن سائر الحيوان .

القول الرابع : فيما ذكره محمد بن زكريا الرازي في كتابه الطب الروحاني عن ذم الهوى وقمعه [١] فجعله طِبًّا روحانيًّا ، وبيان بطلان كونه كذلك .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الدوافع Motives (خاصة الدوافع الفطرية الأولية كالدافع الجنسي) وكذلك بموضوع الانفعالات Emotions كالشعور باللذة ، والسعادة .

القول الخامس : في بيان ذكر ما أورده الرازي في الفصل الثاني من كتابه الطب الروحاني ، وبيان فساد قول أفلاطون في تقسيمه للإنسان إلى ثلاث أنفس هي : النفس النامية ، والنفس الحسية ، والنفس الناطقة ، ويعترض المؤلف على هذا التقسيم وأن هناك خلافًا على ذلك ؛ ويذكر مثلًا أن هناك من الفلاسفة من يرى أن النفس بعد مفارقتها شخصها فانية ، وأن منهم من يرى أنها باقية ، وغير ذلك من الآراء ، ويستطرد المؤلف قائلًا : إن ما قدمه الرازي في كتابه يدل على قلة المعرفة بما تصدى له [٢] .

القول السادس : فيما تضمنه فصول كتاب الرازي مما جعله طِبًّا ، والكلام عليه بما يبينٌ كونه غير طب .

فالفصل الثالث : عن ذكر عوارض النفس الردية والتلطف لإصلاحها ؛ وفيه قصور في تناول الموضوع .

والفصل الرابع : عن معرفة المرء عيوب نفسه ، ويرى المؤلف أن جالينوس تكلم عن ذلك في كتابين وأن هذا الموضوع ليس بجديد .

والفصل الخامس : في العشق والألف واللذة ، ويرى المؤلف أن اللذة ليست شيئًا سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته تلك التي كان عليها ؛ وأما قولهم : إن العشق يدعو إلى النظافة واللباقة والزينة فما يصنع بجمال الجسد مع قبح النفس ، وهل يحتاج إلى الجمال الجسدي إلَّا النساء والخنث من الرجال .

والفصل السابع : تحدث عن الحسد ، وأنه يتركب من البخل والشره ؛ وأن الحاسد المطلق هو من اغتم من خير يناله غيره من حيث لا مضرة عليه ، ويسمى بليغ الحسد من

---

(١) ثم يشرح مضمون هذا الفصل ضمن كتاب الطب الروحاني « للرازي » .

(٢) ورد ذكر علاقة هذه الفصول بعلم النفس أثناء عرضنا لكتاب الطب الروحاني .

اغتم من خير يناله غيره ، وإن كان له في ذلك نفع ما ، ويرتبط ببعض المفاهيم النفسية (كالعجب والحسد والغضب) كما يشير إلى بعض أساليب العلاج النفسي ، وبخاصة عندما يتعرض لمحاولة التحكم في الغضب (ص ١١٢ - ١١٤) .

وفي الفصل الثامن : يتناول الحديث عن الغضب ، وما يترتب عليه من آثار صحية خطيرة على المرء ، وكيفية التحكم في ذلك من خلال تذكر ومعرفة الفرد للأحوال والظروف المؤدية إلى حالات الغضب .

أما الفصل التاسع : فيتناول الكذب ، **والفصل العاشر** : عن البخل ، **والفصل الحادي عشر** : عن دفع الفضل الضار من الفكر والهم ، **والثاني عشر** : عن الهم ، **والفصل الثالث عشر** : في الشره ، **والرابع عشر** : في السُّكر ، **والخامس عشر** : في الجماع ، **والسادس عشر** : في الولع والعبث ، **والسابع عشر** : في الاكتساب والاقتناء ، **والثامن عشر** : في طلب الرتب والمنازل الدنياوية ، **والتاسع عشر** : في السيرة الفاضلة ، **والعشرون** : في الخوف من الموت .

ويذكر المؤلف عددًا من الملاحظات على هذه الفصول منها ما يأتي :

أ - هناك خطأ في تسمية الرازي للنفس بأنها عقل ؛ حيث يقال على النفس عقل لا لأنها عاقلة لذاتها بل لكونها بالقوة عقلًا .

ب - أن حديثه في الكذب والغضب لا فائدة من تكراره .

ج - أما حديثه عن الفكر والهم ، فيذكر المؤلف أن ذلك حث على عمارة الجسد وهو معلق بالطب الجسماني وليس بالطب الروحاني .

أما قوله في الفصل الرابع عشر في السُّكر فهو خارج عما يكون طِبًّا روحانيًّا ؛ وكذلك الحال بالنسبة لحديثه عن الجماع ، أو الاكتساب والاقتناء والإنفاق .

الباب الثاني : في إنارة الحق المستمر فيما هو حق الطب النفساني .

ويجمع ستة أقوال ، نعرض لها على النحو الآتي :

القول الأول : في شرف صناعة الطب النفساني ؛ فالطب الروحاني مناسب في مبانيه لأمر الطب الجسماني ، فالقطبان اللذان عليهما يدوران نفس البشر وجسمه . وقد نبه الله ﷻ عباده على الأخذ في معرفة أحوال النفس بالموجود عليه حال جسمها ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة: ٦٢] ، ثم ذكر أن صناعة الطب النفساني من أشرف الصناعات وأعلاها درجة وأسماها قدرًا .

• ويرتبط هذا العلاج بالعلاج النفسي Psychotherapy وخاصة ما يسمى بالاضطرابات النفسية - الجسمية Psychosomatic disorders (ص١٢٩ - ١٣٥) .

القول الثاني : في وجود النفس التي هي العليلة والمحتاجة إلى الطبيب ، والأدوية وأحوالها في ذاتها ، وماهيتها ، وأنها حياة وحي ، وأنها ناقصة في ذاتها ، وأنها ليست بجسم ولا عرض ، وأنها قائمة بالقوة ، وأنها واحدة في ذاتها لا ثلاث كما يرى البعض .

القول الثالث : في منافسة النفس جسمها في أحوالها وما تلك المناسبة ، وأنها في وجودها من جسمها كالولد من والده ، وأنها المعلول الأخير من الموجودات الواقعة تحت الاختراع ؛ لكون جسمها معلولاً أخيرًا في الجسمانيات ، وأن وجودها عن أمور أربعة كوجود جسمها كذلك ، وأن ما لجسمها من الأمور فلها مثله على توازن لا يغادر منه شيئًا ، لا في الذات ولا في الأحوال ؛ فالتوازن والتعادل بين النفس والجسم ثابت مِصداقًا لقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة : ٦٢] .

• ويرتبط هذا الجزء بموضوع العلاقة بين النفس والجسم ، كما يرتبط هذا الجزء بموضوع اكتساب العادات Habits (ص ١٥١) ، واعتدال الصحة الجسمية والنفسية (ص ١٥٤) .

القول الرابع : فيما يحدث فيها من الأمور التي تجري منها مجرى الأعلال من جسمها ؛ فإذا كانت الأفعال والتصرفات في غاية الاعتدال كان الحادث فيها فضائل ، وإن كانت (أي النفس) ناقصة عن الاعتدال أو زائدة عليه كان الحادث فيها رذائل ، ككون ما يحدث فيها عن فعلها المسمى الشهوانية باعتدال فضائل ؛ كالقناعة وقوة الرجاء والعفة ، وبالنقصان عن الاعتدال رذائل كسقوط الشهوة والقنوط ، وبالزيادة عن الاعتدال كذلك ؛ كالشره والطمع ، وكون ما يحدث فيها عن فعلها المسمى الغضبية الحسية باعتدالها فضائل ؛ كالشجاعة التي هي بذل الوجد بحسب الإمكان وأمثالها .

• ويرتبط هذا الجزء بشكل واضح بموضوع سيكولوجية الشخصية أو سمات الشخصية Personality Traits وخاصة بعد التطرف - الاعتدال Extremeness Moderation (ص ١٥٩ - ١٦٤) ، وتوافق الشخصية وسوء توافقها .

القول الخامس : فيما يجري من النفس مجرى الأدوية في إزالة عللها ، وذكر المؤلف أن ذلك إنما يعتمد في المقام الأول على الإرشاد والتوجيه ، وذكر اللّه ﷻ واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ويتم توجيه المريض من خلال الترغيب في جنة النعيم ، والترهيب

بالعذاب ومر الجحيم .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الإرشاد والتوجيه الديني Religious Counseling وكذلك بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values وكيفية تغييرها (ص١٦٧ - ١٨٨) .

القول السادس : فيما يجري للنفس مجرى الصحة من جسمها ؛ ويتمثل ذلك في امتناع النفس عن اتباع هواها ، من خلال تقديم المواعظ والإرشادات ، والوقوف عند الأوامر والنواهي ، بالتالي يختلف ذلك عن قول ابن زكريا الرازي في تفويض الأمر إلى النفس في إصلاح ذاتها بمجردها .

● ويرتبط هذا الجزء أيضًا بموضوع التوجيه والإرشاد Counseling وأثره في تغيير اتجاهات الفرد (ص ١٩١ - ١٩٩) .

* * *

راحة العقل [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة من القطع المتوسط ، وقد حققه د . مصطفى غالب وكتب له مقدمة وافية تقع في ٩٦ صفحة .

ترتكز عقيدة الإسماعيلية على ظاهر الدين وباطنه ؛ والظاهر عندهم يتعلق بأداء فروض الدين وهي الصلاة والزكاة والطهارة والصوم والحج والجهاد والولاية .

والولاية بنظرهم أفضل هذه الدعائم ، وعدم الإقرار بها يؤدي للوقوع في المعصية وغير مقبول منه باقي فروض الدين .

وما جاء في آيات القرآن إنما هو ظاهر الدين ، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويلًا باطنًا ، يعلمه الأئمة وكبار الدعاة فقط .

وقد نزل القرآن على محمد ﷺ بلفظه ومعناه الظاهر للناس ؛ أما أسراره الباطنية فقد خص الله بها الإمام علي رضي الله عنه والأئمة من بعده .

ويتضمن الكتاب سبعة أسوار « أو فصول » ويتضمن كل سور « فصل » على سبعة مشارع « أو أقسام » ، وأكبر فصول الكتاب هو الفصل السابع والأخير .

السور الأول : ويهتم بتهيئة القارئ لما ينبغي عمله قبل قراءة الكتاب ، ولماذا رتب الكتاب على هذا النحو ، وأهمية قراءته .

---

(١) تحقيق وتقديم مصطفى غالب - (ط ٢) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . (٥٩١ ص) .

السور الثاني : يهتم بمفاهيم فلسفية بأن اللّه واحد ، وبطلان كونه ليسًا وفي بطلان كونه أيسًا ، وأنه لا يجسم في جسم وأنه لا صورة ولا مادة .

السور الثالث : يهتم بإثبات أن اللّه هو الموجود الأول ، وأن وجوده لا من ذاته ؛ وإنما هو علة تنتهي إليها الموجودات ، وأنه خارج عن عالم الأجسام ، وأنه عين الإبداع ، وأنه الموجود الأول ، الكامل والمحرك الأول لجميع المخلوقات .

السور الرابع : في كيفية الانبعاث ، وأن المنبعث الأول الذي هو العقل الثاني مسمى للقلم ، وأنه في الكمال الأول .

السور الخامس : في ماهية الطبيعة ، وأن جوهرها واحد ، بينما أفعالها كثيرة .

السور السادس : في الموجود عن الأجسام العالية والسفلية وأحوالها .

السور السابع : وهو أكبرها وأهمها وأكثرها اشتمالًا على الجوانب النفسية ، خاصة المشروع التاسع وحتى الرابع عشر .

ويستخدم الكرماني ألفاظًا عربية قديمة ؛ مثل الأيس للدلالة على الوجود والموجود ، والليس للدلالة على العدم والمعدوم .

ويبحث الكرماني في النفس البشرية (انظر بداية من المشروع التاسع : (ص٤٥١) وما بعدها) ويعتقد الكرماني أن النفس الإنسانية خالية - منذ خلقها - من المعلومات ، والصور والمعارف ؛ ككون جسمها دون ملابس ، وتحتاج النفس إلى الاكتساب والمعرفة كحاجة الجسم إلى الملابس ، وتسعد النفس بالقصور والاكتساب بما يتفق معها ، وأن النفس خالية ؛ مثل الورق الأبيض الخالي من الكتابة ، المهيأ لقبول ما يكتب عليه ، وليس لها معرفة إلَّا بما توجبه طبيعتها مما يتعلق بأمر بدنها ، والنفس تشتاق إلى علتها ، تبغي بلوغ الكمال ، والكمال في اكتساب العلوم والمعارف .

ويتساءل الكرماني عن النفس البشرية وهل للإنسان ثلاثة أنفس هي : الناطقة والحسية والنامية ؛ كما يقول الأولون (فلاسفة اليونان) وهل هذه النفوس جوهر أم عرض ؟ .

ويعتقد الكرماني أن نفس البشر نفس واحدة ، وأن تقسيم النفس إلى ماهية وحسية وناطقة إنما يعود إلى ظهور الأفعال ، فلأنه يتغذى قالوا إن له نفسًا نامية ، وبإحساسه الذي يحس به قالوا إن له نفسًا حسية ، ولتعلقه وخياله قالوا إن له نفسًا عاقلة ، ويؤكد على أن النفس واحدة ، ولكن أفعالها كثيرة (انظر : (ص ٤٨٣) ، المشروع العاشر) .

توجد إشارات قليلة في هذا المرجع للجوانب النفسية للإنسان ، ويعتقد المؤلف أن

للإنسان ثلاث أنفس هي :

١ - النفس النامية . ٢ - النفس الحسية . ٣ - النفس الناطقة .

١ - النفس الحسية : (ص ٤٦٨) النفس التي لديها إحساس وطلب للغذاء والحاجات .

٢ - النفس النامية : باستمداد الغذاء الذي هو مصدر النمو ، أوجب أن تكون النفس نامية ومتطورة .

٣ - النفس العاقلة : أي لديها القدرة على التمييز والفطنة .

٤ - النفس الغضبية : (ص ٣٨) وهو قريب من مفهوم « العصابية » أو يتصل بالانفعالات في علم النفس الحديث .

ويبدو أن مفهوم النفس الحسية قريب من مفهوم فرويد عن « الهو » Id وهي كل مايتعلق بإشباع الحاجات والغرائز .

كما أن مفهوم النفس النامية قريب من مفهوم « فرويد » عن « الأنا » Ego الذي يستفيد من الواقع ويتعامل معه .

ومفهوم « الكرماني » الثالث عن النفس العاقلة قريب من مفهوم « فرويد » عن « الأنا الأعلى » Super Ego الذي يستطيع أن يتحكم في الأنا الهو ؛ كما أن لديه القدرة على التمييز والفطنة الاجتماعية للمرغوب وغير المرغوب اجتماعيًا .

كما أن مفهوم النفس الغضبية قريب الشبه لمفهوم العصابية لدى أيزنك وكاتل .

علمًا بأن الكرماني يعتقد أن النفس العاقلة والنامية تنفصل عن الحسية بأنها تسكن القوة الغضبية ؛ وبينما الحسية تدرك الألوان واللمس بأجهزة الحس لا بذاتها .

كما يذكر « الكرماني » أن للشيخ سبع مراتب ، يعرضها في الشكل التالي (ص٤٨٢) .

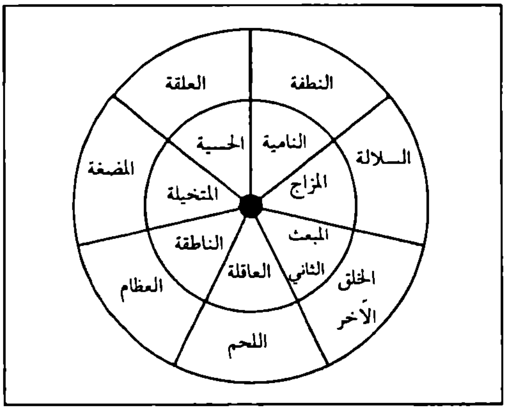

١ - السلالة ـــــــ المزاج

٢ - النطفة ـــــــ النامية

٣ - العلقة ـــــــ الحسية

٤ - المضغة ـــــــ المتخيلة

٥ - العظام ـــــــ الناطقة

٦ - اللحم ـــــــ العاقلة

٧ - الخلق الآخر ـــــــ المبعث الثاني (أو الكمال)

وهذا التصور هو تصور فريد من نوعه ؛ فإن « الكرماني » يعرض له صورة نمو تراكمي Accumulative فلا يكون إحداها إلّا بما يسبقها .

ويماثل ذلك « نظرية جان بياجيه المعرفية » في إطارها العام لا في التفاصيل .

والسور السابع والأخير أهم أجزاء الكتاب من الوجهة النفسية ، فهناك إشارات نفسية عن المعارف Cognitions (ص ٤٥١) ، ومكونات الشخصية Personality وتكاملها (ص ٤٨٣) ، وكذلك نمو الشخصية Personality Development (ص ٤٨٢) .

* * *

أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ)
طبقات الصوفية [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو الزاهد أبو عبد الرحمن محمد الحسين بن محمد بن موسى النيسابوري الصوفي الأزدي السلمي : الأزدي من جهة أبيه ، والسلمي إلى جده لأمه ، وُلد في رمضان سنة (٣٣٠هـ) ، في بيت علم وزهد ، وفي هذا البيت نشأ ، وأخذ عن أهله علوم التصنيف والحديث ، وقد عكف منذ حداثة سنه على القراءة والدرس وجمع الكتب حتى أصبح لديه منها مكتبة عظيمة ، وقد سمع لعدد كبير من شيوخ عصره - وأكثر ما عرف به السلمي مؤلفاته في التصوف - والتأليف في التصوف كان همه الأول - فلم يُعن بالتفسير والحديث إلَّا بمقدار ما يستعين بها على خدمة التصوف ، ومن تلاميذه : القشيري ، والبيهقي ، وأبو صالح المؤذن ، ومحمد بن يحيى المزكي ، وأبو عبد اللّٰه الثقفي ، وعلي بن أحمد الأخرم المؤذن ، ومحمد بن إسماعيل التفليسي ، وخلق سواهم، وتوفي السلمي سنة (٤١٢هـ) .

مؤلفاته وتصانيفه : حيث كان السلمي من أوائل مؤرخي التصوف ومصنفي الطبقات - ولكنه لم يكن مؤرخًا للتصوف ورجاله فحسب ، بل كتب أيضًا في مسائل التصوف ذاتها عددًا غير قليل من الكتب ضاع للأسف بعضها - كما أنه انفرد بوضع كتب في بعض فرق الصوفية « كرسالته في الملامتية وأصول تعاليمهم » - ويذكر الحافظ عبد العزيز أنه ألف في

---

(١) يسره ورتبه أحمد الشرباصي . القاهرة : مطابع الشعب (١٩٦٠م) . (١٢٧ ص) - (كتاب الشعب ؛ ٩٢) .

علوم التصوف ما لم يسبق إلى ترتيبه حتى بلغ فهرس تصانيفه المائة وأكثر .

ومن أبرز مؤلفاته : « كتاب طبقات الصوفية » ، « تاريخ الصوفية » ، « تفسير صوفي للقرآن يعرف بتفسير أهل الحق » ، « رسالة الملامتية » ، « رسالة غلطات الصوفية » ، « جوامع الصوفية » ، « جوامع آداب الصوفية » ، « منهج العارفين » ، « كتب السنن » ، « تاريخ أهل الصُّفَّة » ، « كتاب السماع » ، « عيوب النفس ومداولتها » ، « درجات المعاملات » ، « أدب الصحبة وحسن العشرة » ، « سلوك العارفين » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٨ صفحة من القطع الكبير ، ويحتوي على مقدمة المحقق ، ثم ترجمة المؤلف ، ونبذة عن الكتاب ، ومقدمة المؤلف ، ثم بقية موضوعات الكتاب وهي عبارة عن خمس طبقات ، بكل طبقة عدد من الشيوخ ، ثم فهرس الكتاب .

يسير المؤلف في عرضه لطبقات الصوفية على طريقة تكاد تكون ثابتة ، فهو يبدأ بذكر اسم الشيخ ولقبه ، ومحل ميلاده ومعيشته ، وتاريخ وفاته (إن وجد) ، ثم يذكر مقتطفات مختصرة من كلامه في شكل نقاط منفصلة .

الطبقة الأولى : ويتحدث فيها عن عشرين شيخًا هم : الفضيل بن عياض ، وذو النون المصري ، وإبراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، وسري السقطي ، والحارث المحاسبي ، وشقيق البلخي ، وأبو يزيد البسطامي ، وأبو سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، وحاتم الأصم ، وأحمد بن أبي الحواري ، وأحمد بن خضروية ، ويحيى بن معاذ الرازي ، وأبو حفص النيسابوري ، وحمدون القصار ، ومنصور بن عمار ، وأحمد ابن عاصم الأنطاكي ، وعبد اللَّه بن خبيق الأنطاكي ، وأبو تراب النخشبي .

وبتأمل المقتطفات التي ذكرها نجد أن بعض هؤلاء المتصوفين تعرضوا في ثنايا أقوالهم لما يمكن أن نجد له مقابلًا في دراسات علم النفس الحديث ، فإذا بدأنا بالفضيل بن عياض نجد لديه مفاهيم ؛ مثل : الرضا Satisfaction ، والإخاء (ويقابلها الصداقة Friendship) ، والغضب والود (الانفعالات Emotions) ، والعدوانية (من سمات الشخصية) ، (ص ٩) . ونجد لدى ذي النون المصري دعوة لضرورة تدبر النفس ورؤيتها ؛ أي : معرفتها (وأنه يدعو إلى قيام علم النفس) والمحبة (انفعال الحب) وعلاج السكران (علاج الإدمان) والاقتداء Modeling (من أساليب التعلم) وبعض خِصال الشخصية كالتواضع ، والصدق ، والتفكير (أو التفكر) ، (ص ١٠ - ١١) .

كما نجد عند بشر الحافي حديثًا عن الحمق والكياسة (وهي تقابل الجانب العقلي أو الذكاء) والصبر وضبط النفس والتحكم في شهواتها (ص ١٣) وهناك إشارة إلى أهمية علاج النفس من عيوبها (ص ١٤) والرضا (١٣ ، ١٤) . أما سري السقطي فقد تعرض لمفاهيم ؛ مثل : الدوافع الفسيولوجية (ص ١٥) . والنصيحة (الإرشاد) والعقل وماهيته ، وخصال الشخصية وتحمل الشدائد (أو تحمل المشقة Stress ص ١٥) وضبط النفس والسيطرة على شهواتها (ص ١٥) وشروط الصداقة وحسن الخلق وانفعالات الخوف ، والرجاء والحب والسيطرة على الغضب (ص ١٦) .

وقد تحدث المحاسبي عن الشدائد (تحمل المشقة) ، وانفعالات الخوف ، والحزن والغضب ، وكذلك عن حسن التخاطب ، والرضا (ص ١٦ ، ١٧) . ونجد عند شقيق البلخي إشارة إلى مفاهيم الخوف والحب والرضا (ص ١٧ ، ١٨) ونجد لدى أبي يزيد البسطامي كلامًا عن الشهوات (الدوافع الأولية) ، والمحبة (انفعال الحب) ، وشروط الصداقة ، والمعرفة (ص ١٩ ، ٢٠) ونجد كذلك لدى أبي سليمان الداراني مفاهيم ؛ مثل : الخوف (انفعالات) ، والشهوات (دوافع) ، والصدق (من خصال الشخصية) وتربية النفس (التنشئة الاجتماعية Socialization) والرضا (ص ٢٠ ، ٢١) . أما مفاهيم الإيثار (سلوك المساعدة Helping Behavior) والمحبة فنجدها لدى معروف الكرخي (ص ٢٢) . ونستنتج من كلام حاتم الأصم ما يدخل في تربية النفس (التنشئة) والعجلة (الاندفاعية) والتروي Reflectivity والصبر (التحمل) والحب والخوف (انفعالات) ، والكبر ، والحرص والحسد (من أمراض القلوب) والنصيحة (الإرشاد) والشهوات (الدوافع الأولية) ، (ص ٢٢ ، ٢٣) . وقد تعرض أبو حفص النيسابوري للحب (الانفعالات) والإيثار (سلوك المساعدة) والعقل (ص ٣٩) . ويذكر منصور بن عمار كلامًا في أسباب سوء التوافق وكيفية التغلب عليها ، وكذلك الرضا ، وخصال الشخصية (ص ٣٢) .

الطبقة الثانية : ومنها : أبو القاسم الجنيد ، وأبو الحسين النوري ، وأبو عثمان الحيري النيسابوري ، وأبو عبد الله بن الجلاء ، ورويم بن أحمد البغدادي ، ويوسف بن الحسن الرازي ، وشاه الكرماني ، وسمنون بن حمزة الحب ، وعمرو بن عثمان المكي ، وسهل ابن عبد الله التستري ، ومحمد بن الفضل البلخي ، ومحمد بن علي الترمذي ، وأبوبكر الوراق ، وأبو سعيد الخراز ، وعلي بن سهل الأصبهاني ، وأبو العباس بن مسروق الطوسي ، وأبو عبد الله المغري ، وأبو علي الجوزجاني ، ومحمد وأحمد

ابنا أبي الورد ، وأبو عبد الله السجزي .

ونجد لدى أبي القاسم الجنيد كلامًا في الصداقة أو الصحبة ، والرضا ، وانفعال الحب ، (ص ٣٧) . كما يتحدث أبو عثمان الحيري النيسابوري عن العداوة (العدوانية) Hostility وخصال الشخصية والعقل ، والصبر - (التحمل) والفراسة (الذكاء) وكلام في السعادة Happiness والتعلم بالاقتداء (ص ٣٩ - ٤١) . ومن مقتطفات رويم بن أحمد البغدادي نجد مفاهيم ؛ مثل : الصبر (التحمل) والرضا ، والحب والشوق .

ويركز يوسف بن الحسين الرازي على العقل ، وصفات العاقل (ص ٤٤) ، ويتكلم عن حب الناس ويشير إلى بعض سمات الشخصية ؛ مثل : الطمع ، والتواضع ، والتكبر ، كما يشير إلى تأثير الأهواء في الإدراك (ص ٤٤) .

ومن مقتطفات كلام عمرو بن عثمان المكي نجد إشارة خفية إلى الوسواس ، والتوهم وأصل المعرفة ، وخصال الشخصية من قبيل الصدق ، والاعتدال ، وكذلك كيفية التغلب على المشقة Stress ، وانفعال الحب والخوف والرضا ، وضبط النفس والسيطرة على الأهواء والشهوات (ص ٤٧ ، ٤٨) . ونجد لدى سهل بن عبد الله التستري كلامًا في الرياسة (القيادة Leadership) ، والمشقة (البلوى) Stress ، والوساوس (ص ٤٩) . وأشار محمد بن الفضل البلخي إلى ضبط النفس والسيطرة على أهوائها ، وذكر بعض سمات الشخصية الإيجابية ؛ مثل : الصدق ، والصبر ، والعلم ، والمعرفة ، وبعض سمات الشخصية السلبية ؛ مثل : الكذب والجهل (ص ٥٠) وتكلم عن مفاهيم الحب لله والخوف من الله . ومن مقتطفات كلام محمد بن علي الترمذي ما يدخل في الانفعالات (الحب) والخوف ، والعقل (ص ٥١) .

ولأبي بكر الوراق كلام في العقل ، والاقتداء ، واختيار الأصدقاء ، والتمركز حول الذات Ego - Centrism (عشق الذات) أو النرجسية (ص ٥٣) . ولدى أبي سعيد الخراز كلام في التعلم Learning ، والحب (ص ٥٤) . ونجد لدى أبي عبيد الله السجزي كلام عن بعض خصال الشخصية ، والتعلم بالاقتداء (ص ٦٠) .

الطبقة الثالثة : ومنها أبو محمد الجريري ، وأبو العباس بن عطاء الآدمي ، ومحفوظ بن محمود النيسابوري ، وطاهر المقدسي ، وأبو عمرو الدمشقي ، وأبو بكر بن حامد الترمذي ، وأبو إسحاق إبراهيم الخواص ، وعبد الله بن محمد الخراز الرازي ، وبنان بن محمد الحمال ، وأبو حمزة البغدادي البزاز ، وأبو الحسين الوراق النيسابوري ، وأبو بكر

الواسطي ، والحسين بن منصور الحلاج ، وأبو الحسين بن الصائغ الدينوري ، وممشاذ الدينوري ، وإبراهيم القصار خير النساج ، وأبو حمزة الخراساني ، وأبو عبد اللّٰه الصبيحي ، وأبو جعفر بن سنان .

ومن كلام أبي عمرو الدمشقي نجد تعرضًا لخصال الشخصية ، والمحبة (ص٦٦) . ونجد لدى أبي إسحاق إبراهيم الخواص حديثًا عن الصبر (التحمل) ، وطرق التعلم ، والاقتداء وبعض أسس الصحة النفسية (ص ٩٨) والتغلب على المشقة (أو البلوى) (ص ٦٩) . ويذكر أبو حمزة البغدادي البزاز كلامًا في الصبر ، والسخاء (سلوك المساعدة) ، وطرق التعلم (ص ٧٠) . ويتحدث أبو بكر الواسطي عن درجات الحب ، والخوف ، والرضا (ص ٧٣) . ويذكر أبو الحسين بن الصائغ الدينوري في كلامه طرق التغلب على الهموم (التغلب على المشقة) ، وشروط الصداقة والمحبة (ص ٧٥) .

الطبقة الرابعة : ومنها أبو بكر الشبلي ، وأبو محمد المرتعش النيسابوري ، وأبو علي الروذباري ، وأبو علي الثقفي ، وعبد اللّٰه بن محمد بن منازل ، وأبو الخير الأقطع التينافي ، وأبو بكر الكتاني ، وأبو يعقوب النهر جوري ، وأبو الحسن المزين ، وأبو علي ابن الكاتب ، وأبو الحسن بن بنان ، وأبو بكر بن طاهر الأبهري ، ومظفر القرمسيني ، وأبوالحسين بن هند الفارسي ، وإبراهيم بن شيبان القرمسيني ، وأبو بكر بن يزدانيار ، وأبو إسحاق إبراهيم المولد ، وأبو عبد اللّٰه بن سالم البصري ، ومحمد بن عليان النسوي ، وأبو بكر بن أبي سعدان .

ويتحدث أبو بكر الشبلي عن الفرح ، والحزن ، وضبط النفس (ص ٨٣) وذكر أبو محمد المرتعش النيسابوري الوسوسة ، والحب ، وخصال الشخصية (الإخلاص والتواضع) والتحمل (الصبر) وقوة الإدراك (ص ٨٦) . ونجد لدى أبي علي الروذباري حديثًا عن الإشارات Singals (وتستخدم الإشارات في دراسات الانتباه والإدراك ، والإشارات الاجتماعية في علم النفس الاجتماعي) والرضا ، والصبر (ص ٨٧) . ومن المفاهيم التي ذكرت في أقوال أبي علي الثقفي : الصدق ، والصداقة ، والتنشئة الاجتماعية ، والتيقظ (أو الانتباه) Vigilance or Attention وطلب النصح (الإرشاد) والاقتداء (ص ٨٩) .

ومما تعرض له أبو بكر الكتاني : الانتباه ، والدوافع (أو الشهوات) ، والمساعدة والإرشاد (النصيحة) وضبط النفس والسيطرة على أهوائها (ص ٩٢) . ولأبي يعقوب النهرجوري كلام في تعريف الصدق ، والتحكم في الدوافع والسيطرة عليها (ص ٩٢) .

وأشار أبو الحسن المزين إلى الوساوس (ص ٩٣) وأشار إلى بعض الانفعالات المذمومة مثل : العُجب بالنفس ، والغرور (ص ٩٤) . وأشار أبو علي بن الكاتب إلى الصحبة وأثر الصحبة السيئة وانفعال الخوف والحب (ص ٩٤) . وتكلم أبو بكر بن يزدانيار عن انفعال الحب ، وعن الصراع النفسي بين الهوى والعقل (ص ٩٩) .

الطبقة الخامسة : ومنها : أبو سعيد بن الأعرابي ، وأبو عمرو الزجاجي ، وجعفر بن محمد الحذي ، وأبو العباس القاسم السياري ، وأبو بكر محمد بن داود الدقي ، وأبو محمد عبد الله بن محمد الشعراني ، وأبو عمرو إسماعيل بن نجيد ، وأبو الحسن علي ابن أحمد البوشنجي ، وأبو عبد اللّه محمد بن خفيف ، وبندار بن الحسين الشيرازي ، وأبو بكر الطمستاني ، وأبو العباس أحمد بن محمد الدنيوري ، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرابازي ، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرابازي ، وأبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري ، وأبو عبد الله التروعبذي ، وأبو عبد الله الروذباري ، وأبو الحسن علي بن بندار الصيرفي ، وأبو بكر محمد بن أحمد الشبهي ، وأبو بكر محمد بن أحمد الفراء ، وأبو عبد اللّه بن أحمد المقرئ ، وأبو القاسم صفر بن أحمد المقرئ ، وأبو محمد بن عبد اللّه ابن محمد الراسبي ، وأبو عبد اللّه محمد بن عبد الخالق الدينوري .

ونجد لدى هؤلاء المتصوفين ما سبق أن ردده من قبلهم في الطبقات السابقة ؛ فها هو ذا جعفر بن محمد الخلدي يتحدث عن العقل ، والمحبة (ص ١٠٦) . ويذكر أبو العباس القاسم السياري طريق ترويض النفس أو تربية النفس ؛ ومنها الصبر على الأوامر (المثابرة) واجتناب النواهي ، وصحبة الصالحين (الاقتداء) وكذلك الوسوسة (ص ١٠٨ ، ١٠٩) . وقد ذكر بندار بن الحسين الشيرازي بعض الانفعالات كالفرح والخوف ، والمحبة (ص ١١٤) . ونجد لدى أبي محمد عبد اللّه بن محمد الراسبي كلامًا في المحبة ودرجاتها ، والبلاء (أو المشقة) ، (ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

* * *

ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ)
الفوز الأصغر [١]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ؛ أبو علي : مؤرخ بحاث ، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها ، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة ، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء ، وكان قيمًا على خزانة كتب ابن العمير ، ثم كتب لعضد الدولة ابن بويه فلقب بالخازن ، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده ، قال أبو حيان في جملة وصفه : « لطف الألفاظ ، سهل المأخذ ، مشهور المعاني ، شديد التوقي ، ضعيف الترقي ، يتطاول بهذه ، ثم يقصر ، وله مآخذ وغرائب عن الكذب – كذا – وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء » .

ألف كتبًا نافعة ؛ منها : « تجارب الأمم وتعاقب الهمم » ، « وتهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، و (طهارة النفس) ، « وآداب العرب والفرس » ، و « الفوز الأصغر (في علم النفس) » ، « وترتيب السعادات » ، « ورسالة في ماهية العدل » ، « ونديم الأحباب وجليس الأصحاب » ، « والحكمة الخالدة » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ثلاث مسائل أساسية ، يتكون كل منها من مجموعة من الفصول النوعية ، يدور مضمونها حول الطريق إلى

---

(١) تحقيق عبد الفتاح أحمد فؤاد . بنغازي : دار الكتاب الليبي (١٩٧٤م) . (١١٣ ص) .

الإيمان بالله تعالى متمثلًا في إثبات الصانع ، والنفس وأحوالها ، والنبوات ، وأنهى المحقق الكتاب بتقديم فهرس مفصل للموضوعات التي اشتمل عليها ، وتفصيل ذلك على النحو التالي :

المسألة الأولى : في إثبات الصانع : وفيها يحاول المؤلف تقديم العديد من الدلائل لإثبات وجود الله تعالى ، وذلك من خلال عشرة فصول ؛ الفصل الأول : وفيه يوضح أن المطلوب في هذا الصدد سهل جدًا من وجه وصعب جدًا من وجه آخر ، ويتناول في الفصل الثاني مدى اتفاق الأوائل على إثبات الصانع جل ذكره ، وأنه لم يمتنع أحد منهم من ذلك ، ويعرض في الفصل الرابع أن كل متحرك إنما يتحرك من محرك غيره ، وأن الأشياء غير متحركة ، ويبين في الفصل الخامس أنه واحد ، فلو كان الفاعلون أكثر من واحد ، لزم أن يكونوا مركبين وذلك أنهم اشتركوا في أنهم فاعلون ، واختلفوا في الذوات ، ولابد من أن يكون الشيء الذي به خالف أحدهم الآخر غير ما وافقه به ، فيجب أن يكون كل واحد منهم مركبًا من جوهر وفصل ، والتركيب حركة ؛ لأنه أثر ، ولابد له من مؤثر على ما بين من قبل فيجب على ذلك أن يكون للفاعل فاعل ، وهذا يمر بلا نهاية ، فبالضرورة يرتقي إلى فاعل واحد ، ويبين في الفصل السادس أنه ليس بجسم ، فقد تبينَّ أن الجسم يلزمه الكثرة والتركيب والحركة ، وكل واحد من هذه يستحيل أن يطلق على الواحد الأول ، ويبينّ في الفصل السابع أنه تعالى وتقدس أزلي ؛ فالوجود ذاتي للمبدع الأول ، وأنه واجب الوجود ، وهذا حال الأزلي . وبمعنى آخر : أن المحرك الأول ليس بمتحرك ، وكل متحرك متكون محدث ، فما ليس بمحدث فهو غير متكون ؛ لأن التكون لا يكون إلَّا بحركة ، وما لم يكن متكونًا فليس بمحدث ، فلا أول له ، فهو أزلي ، ويبين في الفصل الثامن أنه يعرف بطريق السلب دون الإيجاب ، فالبراهين المستقيمة الموجبة يحتاج فيها إلى إثبات مقدمات موجبة للمبرهن عليه ، ذاتيه له أولية ، وهي التي يوجد الشيء بوجودها ويرتفع بارتفاعها ؛ أما برهان الخلف على طريق السلف ، فإنه إنما يحتاج فيه إلى إزالة الأسباب والمعاني ، ويبينّ في الفصل التاسع أن وجود الأشياء كلها إنما هي بالله ﷻ ، وينهي الحديث عن هذه المسألة في الفصل العاشر بتوضيح أن الله تعالى أبدع الأشياء كلها لا من شيء ، فقد ظن قوم لا دربة لهم بالنظر ، أنه لا يكون شيء من الأشياء إلَّا من شيء وذلك لما رأوه أن الإنسان لا يكون إلَّا من إنسان والفرس لا يكون إلَّا من فرس حكموا أنه لا يكون شيء إلَّا من شيء ، ولجالينوس الطبيب فيه كلام ، وللإسكندر في نقضه كتاب مفرد ،

بيِّنٌ فيه أن المتكون إنما يكون لا من شيء .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي : القيم الدينية (ص ١٥ - ٣٦) ، والإيمان Faith (ص ١٥ - ٣٦) ، والاعتقاد Belief (ص ١٥ - ٣٦) ، والإدراك Perception (ص ٢٤ - ٢٧) ، والاستدلال Reasoning (ص ٢٢- ٢٤) .

المسألة الثانية : في النفس وأحوالها : وفيها يعرض المؤلف لبعض الأمور الخاصة بطبيعة النفس وأحوالها ، وذلك من خلال عشرة فصول ؛ الفصل الأول : ويبين فيه كيفية إثبات النفس ، وأنها ليست بجسم ولا عرض ؛ ويبين في الفصل الثاني : أن النفس تدرك الموجودات كلها : غائبها وحاضرها ، معقولها ومحسوسها ؛ فالنفس تدرك الأمور البسائط من المركبات ، وتدرك من المركبات أنواعها وأشخاصها ، والموجودات منقسمة إلى هذه الأشياء ، وليس يفوت النفس منها شيء ؛ ويبين في الفصل الثالث : كيفية إدراك النفس للمدركات المختلفة ، وهل ذلك منها بأجزاء كثيرة أم بأنحاء مختلفة ، أم هناك مدركات بعدد المركبات ؟ أما أنه ليس للنفس أجزاء كأجزاء الجسم ، فهو بين ما قدمناه ، وذلك أن التجزؤ والانقسام إنما يكون للجسم ؛ ويبين في الفصل الرابع الفرق بين الجهة التي تعقل بها النفس ، والجهة التي تحس بها ، والأشياء التي تشترك فيها والأشياء التي تتباين فيها ، وأن هاتين الجهتين يعمهما الانفعال ، وذلك أنهما جميعًا ينفعلان من مدركهما ؛ إذ كانا يستحيلان إلى ما أدركاه ويستكملان به ، ويخرجان إلى الفعل بعد أن كانا بالقوة ؛ لأن كل واحد منهما ، قبل أن يدرك ما يختص به ، لم يكن عقلًا ولا حسًّا إلَّا بالقوة ، فإذا أدركاه صار هذا عقلًا بالفعل ، وذلك حسًّا بالفعل ، ولذلك قلنا إن انفعالهما كمال لهما ، ويبين في الفصل الخامس أن النفس جوهر حي باق لا يقبل الموت ولا الفناء وأنها ليست الحياة بعينها ، بل تعطي الحياة كل ما توجد فيه ، ويبين في الفصل السادس اقتصاص مذاهب الحكماء والوجوه التي أثبتوها في أن النفس لا تقبل الموت ، وبوجه خاص الحجج التي ساقها أفلاطون في هذا الخصوص ، وعرض في الفصل السابع لماهية النفس والحياة التي لها ، وما تلك الحياة التي تحفظها عليها حتى تكون دائمة البقاء سرمدية ، وأوضح في الفصل الثامن أن للنفس حالًا من الكمال يسمى سعادة ، وآخر من النقصان يسمى شقاوة ، وبين في الفصل التاسع كيفية تحصيل السعادة والسبيل التي تؤدي إليها ، وأوضح في الفصل العاشر كيفية حال النفس بعد مفارقتها البدن ، وما الذي يحصل لها بعد موت الإنسان .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي مفهوم النفس Psychic (ص ٣٩ - ٧٩) ، والإدراك الحسي Perception (ص ٤١ - ٤٦) ، والانفعال (ص ٤٧ - ٥٢) ، والعقل Mind (ص ٤٧ - ٥٢) ، والسعادة (ص ٦١ - ٧٩) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٧٠ - ٧٩) .

المسألة الثالثة : في النبوات : وفيها يعرض المؤلف لطبيعة النبوات من خلال عشرة فصول ؛ يتناول في الفصل الأول مراتب موجودات العالم ، واتصال بعضها من بعض وببعض ، ويوضح في الفصل الثاني أن الإنسان عالم صغير ، وقواه متصلة ذلك الاتصال ، ويبين في الفصل الثالث كيفية ارتفاع الحواس الخمس إلى القوة المشتركة ، ومنها إلى ما فوقها بمنة اللّٰه تعالى ، ويبين في الفصل الرابع كيفية الوحي ، وأوضح في الفصل الخامس أن العقل ملك مطاع بالطبع ، وأوضح في الفصل السادس طبيعة المنام الصادق وأنه جزء من النبوة ، ويبين في الفصل السابع الفرق بين النبوة والكهانة ، وميز في الفصل الثامن بين النبي المرسل وغير المرسل ، فالنبي المرسل ؛ يتميز عن الناس بخصال كثيرة أحدها أن للمرسل من الفضائل ما لا يحتاج إلَّا فيه ، ويتميز بها عن غيره ، ولا تكون مجتمعة في سواه ، فأما النبي غير المرسل ، فإنه يلوح له من حقائق الأمور ، ويتجلى له في الأفق الذي ينتهي إليه ، ما يكون فيضًا عليه من فوق ، ولا يكون مرتقيًا إليه من أسفل بالتعليم والتدريج ، ولا يكون مأمورًا بأمر يتحمله ، ولا يبلغ من قوته ، فيما يلوح له من الأمور ، أن يتجاوز القوة الفكرية ، ويتأدى إلى الخيالية ، وما يليها . ويعرض في الفصل التاسع لأصناف الوحي ، ويوضح أن أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوى النفس ، وذلك أن الفيض الذي يأتي النفس إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها ، ويبين في الفصل العاشر الفرق بين النبي والمتنبي ؛ موضحًا أن هذا الفرق ، وإن كان بينًا جدًّا عند أهل الحكمة والنظر الصحيح ، فإنه خفي عند العوام من الناس ، ومن أشبه العوام ، ممن يدعي الخصوص .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي : النفس Psychie (ص ٨٣ - ١١٠) ، والعقل Mind (ص ٩٩ ، ١٠٠) ، وأحلام النوم والرؤيا الصادقة (ص ١٠١ - ١٠٣) ، والإحساس Sensation (ص ٩٣ - ٩٥) ، والإدراك الحسي Perception . (وهو ما يعبر عنه ابن مسكويه بالقوة المشتركة) ، والإلهام الإلهي والوحي ؛ وهما مصدر المعرفة التي تفيض على الإنسان من اللّٰه تعالى ، ولا يكتسبها الإنسان عن طريق الحواس أو التعلم (ص ٨٣ - ١٠٨) .

السعادة في فلسفة الأخلاق [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد

عرض الكتاب :

المقدمة :

تحتوي مقدمة الكتاب على بيان أهمية السعادة للفرد ، فهي مطلوبة بالنسبة له حتى لا تكون حياته ضائعة بين همٍّ وغم وخيالات وأمراض وأوجاع وبسط وقبض وعسر ويسر وفقر وغنى ، وقد وفاها حقها في الشرح (أي السعادة) الكتاب الذي نعرض له الآن - كما يقول كاتب هذه المقدمة الشيخ سيد علي الطوبجي السيوطي .

ويشير إلى أن السعادة ليست كما يتصور البعض في كنز الأموال وحشدها ، والقصور الشامخة ، والخدم والحشم ، وإنما أحسن الطرق الموصلة إلى السعادة التحلي بصفات الربوبية والتخلي عن الصفات الشيطانية والبُعد عن الهوى ، ثم أوضح كاتب المقدمة ضرورة الاهتمام بالنظافة والحفاظ على المظهر الخارجي ؛ وإن كان ذلك ليس غاية في ذاته وإنما هو من السبل التي تؤدي إلى سعادة ورفاهية الفرد ، كما أشار إلى أهمية الاقتداء برسول الله ﷺ .

ثم عرض بعد ذلك لأنواع الذات ويقول إنه : « إذا اتفق الإنسان كريم النفس التعارض بين اللذة الحسية مع الذلة والدناءة ، والألم الحسي مع العزلة فإنه يرجح الألم على اللذة

---

(١) تقديم سيد علي الطوبجي . القاهرة : سيد علي الطوبجي (١٩١٧م) . (٧٣ ص) . مع : كشف الغمة عن الصورة الإنسانية .

فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه ... » فظهر أن اللذات الباطنة متغلبة على اللذات الحسية ، وليس ذلك في العاقل فقط بل وفي العجم من الحيوانات ، ثم تحدث كاتب المقدمة بعد ذلك عن الروح والنفس وهل هما شيء أم شيئان ، حيث يرى البعض أنهما شيء واحد ، حيث يطلق كل منهما على الآخر . أخرج البزار بسند صحيح عن أبي هريرة أن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه ، والله تعالى يحب لقاءه وأن المؤمن لتصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا الحديث ظاهر في ذلك ، وقال ابن حبيب هما شيئان فالروح هي النفس المتردد في الإنسان والنفس أمر غير ذلك بها يدان ورجلان ورأس وعينان وهي التي تتلذذ وتتألم وتحزن وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يتلذذ ولا يفرح حتى تعود واحتج بقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] . وذكر البعض الآخر في التفرقة بينهما أن النفس ناسوتية والروح لاهوتية ؛ فالنفس هي الأصل في الإنسان فإذا صقلت بالرياضة وأنواع الذكر والفكر صارت روحًا تترقى إلى أن تصير سرًّا من أسرار الله ﷻ .

ثم عرض بعد ذلك لاختلاف الناس في الروح هل هي مخلوقة قبل البدن أو بعده أو معه ؟ فيرى ابن القيم مثلًا أن القول الصحيح الذي عليه الشرع والعقل إنها مخلوقة مع الأجساد وإن الملك ينفخ الروح أي يحدثه بالنفخ في الجسد إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس (ص ٢٥) .

ثم تحدث بعد ذلك عن النفس الأمارة والنفس اللوامة ؛ فالنفس الأمارة هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . أما النفس اللوامة فهي التي تنورت بقدر ما تنبهت من سِنَة الغفلة وتيقظت وبدأت بإصلاح مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية ، وكلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الأصلية الظلمانية تداركها النور التنبيهي الإلهي فأخذت تلوم نفسها وتتوب مستغفرة راجعة إلى باب الغفور الرحيم ، ولهذا نوه الله بذكرها بالإقسام في قوله : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] . والنفس المطمئنة هي التي تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية مسابقة في الترقي إلى جانب عالم القدس متنزهة عن جانب الرجس مواظبة على الطاعات ساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات ، وهي المشار إليها بقوله ﷻ :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

• أما عن علاقة هذه المقدمة بعلم النفس فتتمثل في ارتباط ما جاء بها بموضوع سيكولوجية الانفعالات Emotions خاصة الشعور بالسعادة Happiness ، واللذة أو المتعة (ص ٤ - ١٠) .

وكذلك بموضوع الاقتداء برسول الله ﷺ Modeling (ص ١٢) وارتقاء الدوافع والحاجات Needs or Motives (ص ١٤) ، ومفهوم النفس Psyche والروح (ص ٢٢ - ٢٥) . وبداية ظهور الروح في الجنين (ص ٢٥) .

وكذلك بتقسيم حالات النفس إلى النفس الأمارة ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة (ص ٣٠) .

كتاب السعادة :

يوضح فيه المؤلف السعادة الموضوعة للإنسان ما هي وكيف وما السعادة التي يشترك فيها الناس من جنسهم ؟ وما الذي يصل إليه منها المجتهدون منهم بضروب الاجتهادات ؟ وهل هي مختلفة أو متفقة ؟ وهل بعضها تحت بعض حتى نرتقي إلى واحد هو أسماها مرتبة ؟ وإن كانت مرتقية إلى واحد فما هو ؟ وهل وراءها سعادة أخرى غير منتظرة للإنسان أم تتناهى السعادة كلها إليه حتى نقف عنده وقوف المتناهي الذي لا غاية بعده ؟

وتحدث بعد ذلك عن أفعال الإنسان وتصرفاته ؛ بأن لها غاية معينة تختلف من فرد لآخر ، وهذه الغاية يسميها الفرد سعادة كمن يسعى للذة أو للثروة أو للصحة أو للغلبة أو للعلم ، وهذه هي السعادة على المستوى القريب ، أم السعادة القصوى أو البعيدة ففيها الكمال والرقي إلى المستوى الرفيع .

ويرتبط ذلك بموضوع الانفعالات وارتقاء مدرج الحاجات والدوافع مع نمو الفرد وتزايد عمره وخبراته ومعارفه (ص ٤٠ ، ٤١) .

وهناك من الأشياء ما يمكن أن نسميه سعادة على المجاز ؛ ومنها ما هو سعادة على الحقيقة ، ومنها ما هو مظنون سعادة وليس بسعادة ألبتة ، ومن هذه السعادات ما هو عام لجميع الناس ومنها ما هو خاص ، وهو الذي إليه ترتقي السعادات وهو الغرض الأخير والكمال الأقصى .

فعلى سبيل المثال بعد المأكل والمشرب وضروب الراحات من اللذات بالنسبة لكثيرين

إلَّا أن هذا ليس سعادة ولا هو كمال الإنسان وغايته الذي خلق له ولأجله ، فهي أشياء أو حاجات يشترك فيها الإنسان والحيوان .

ثم عرض المؤلف بعد ذلك لاختلاف السعادة حسب حالة الفرد ، فسعادة الفقير تظهر في الصبر والتحمل على ما ينبغي ؛ كما أن سعادة الطبيب تختلف عن سعادة الكاتب ، أو سعادة العالم ... إلخ .

وتختلف السعادة حسب حالة الفرد ؛ فالمريض يرى أن السعادة تتمثل في الصحة ، وصاحب الصحة إذا أصابه ذلك رأى أن السعادة هي الكرامة ، وقد رتب أرسطو أجناس السعادات .

ويرتبط ذلك بنسق القيم Value System الخاص بالفرد وعلاقته بالحالة النفسية والاجتماعية للفرد (ص ٤٧) فالمريض يعطي لقيمة الصحة أو الشفاء أهمية كبيرة في أعلى مدرج القيم Hierarchy of Values .

ويرتب أرسطو أجناس السعادات ؛ فسعادة في النفس ، وسعادة في البدن ، وسعادة في خارج البدن ؛ أما التي في النفس فهي العلوم والمعارف والحكمة وهي أفضلها ؛ لأنها تراد لذاتها لا لشيء آخر ، وأما التي في البدن فمثل الجمال واعتدال الصحة وصحة المزاج وهذه تراد لنفسها وقد تراد لغيرها ، وأما التي من خارج البدن ؛ فمثل الأولاد والأصدقاء وشرف النفس والكرمات .

والحكيم السعيد الكامل السعادة هو من قوي ذهنه وصح تمييزه ؛ فحصلت له حقائق الأمور في الموجودات كلها وقويت عزيمته في إنقاذ ما عَلِمه عملًا ، ثم دامت طريقته في هذين أعني العلم والعمل ، وقد تبين أن جزء النظر مقدم على جزء العمل إذا كان بجودة التمييز وقوة التمييز يدرك الصواب في كل ما يقصد معرفته ، ولما كانت المعارف صنفين أحدهما يعلم ولا يعمل ، والآخر يعلم ثم يعمل صارت الصنائع أيضًا صنفين بحسبهما وأعني بما يعلم ولا يعمل ؛ مثل : العلم بأن اللّٰه ﷻ واحد وأنه أزلي مبدع للعالم . وأما ما يعلم ويعمل ؛ فمثل السيرة الجميلة في المعاملات والبراعة في الصناعات .

ومن أراد أن تكمل إنسانيته ، ويبلغ إلى الأمر الذي إياه قصد بخلق الإنسان ليتم ذاته ويشارك الحكماء فيما آثروه وقصدوه فليحصل هاتين الصناعتين أي جزئي الحكمة النظري والعملي ليحصل له حقائق الأمور بالجزء النظري ومحاسن الأفعال بالجزء العملي .

* * *

تهذيب الأخلاق المسمى
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق [1]

عرض : إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٢٣٠ صفحة من القطع الصغير ، وهو مقسم إلى موضوعات ، يضمها فهرس وضع في آخر الكتاب .

يهتم الكتاب بمجالي علم النفس والأخلاق ؛ ففيه نجد الاهتمام بتعريف مفهوم النفس وقواها وفضائلها ، ثم مفهوم الخلق كما يعرض لعدد من الآداب العامة والخاصة والعلاقات الاجتماعية ، ثم ينتهي الكتاب بجزء يختص بعرض بعض الأمراض النفسية وعلاجها ، ولأن الكتاب يألف من عدة مقالات ، فسوف نعرض لها على التوالي :

المقالة الأولى : في النفس : يعرض الكاتب في هذا المقال خصائص النفس – مقارنة بالأجسام – من حيث إنها تقبل صور الأشياء كلها دون أن تفارقها الصورة الأولى ، وإنها تتشوق إلى العلوم ولا تنجرف وراء اللذات البدنية ، وإنها أيضًا تعرف العلوم من خلال الحواس ، وإنها تدرك المحسوسات كما تدرك أسباب الاتفاق والاختلاف فيما بينها (ص ٤ – ١٠) .

● من ذلك نجد أنه يعرف النفس من خلال قدرتها على الإدراك Perception ، والإحساس Sensation ، وكذلك القدرة على التعلم Learning Ability يضاف إلى ذلك أنه يشير إلى الأخطاء البصرية التي تتضح فيما نراه من قُرب أو بُعد ، أو في إدراك

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (١٩٥٩م) . (٢٣٠ ص) .

الأشياء الغائصة في الماء ؛ مثل تلك الأخطاء التي تتصل بمفهوم الخداع الإدراكي Illuison (ص ٨ - ٩) كما يحدد دور العقل في تصحيح هذه الإحساسات الخاطئة .

يعرض الكتاب لقوى النفس (ص ١٦) على النحو الآتي :

١ - قوة الفكر والتمييز ، وهي تشير إلى الذكاء والقدرات العقلية Mental Abilitics .

٢ - قوة الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال ، وتشير إلى الانفعال Emotion والدافعية Motivation .

٣ - قوة الشهوة واللذات الحسية وتشير إلى الدوافع الفطرية أو الفسيولوجية Innate or Physiological Motives .

ثم يعرض لعدد من الفضائل التي تتزايد بتزايد هذه القوى (ص ١٨ - ١٣٠) وهذه الفضائل هي :

١ - الحكمة : وهي تشير إلى الذكاء والقدرات العقلية Intellectual Abilities .

٢ - العفة : وتشير إلى ضبط الدوافع الأولية Primary Motives Control .

٣ - الشجاعة : وتشير إلى التوافق الاجتماعي مع الوسط المحيط Social Adustment .

٤ - السخاء أو العفة : ويشير إلى التعاون وسلوك المساعدة Helping Behavior .

٥ - العدالة : وهي فضيلة تتصل بمجال العلاقات الاجتماعية Social Relations .

يضاف إلى ذلك أن لكل فضيلة عددًا من الفضائل النوعية التي تندرج تحتها ، وهي في مجملها ذات صلة كبيرة بمجال السلوك الأخلاقي Moral Behavior .

ويعرض أيضًا الكاتب لفكرة أن الفضائل أوساط بين أطراف (ص ٢٤ - ٢٨) وهي تشير إلى فكرة البُعد Dimension أو المتصل الذي يصل بين طرفين (ص ١٩٤ - ١٩٥) . فمثلًا :

الحكمة وسط بين السفه والبله .

العفة وسط بين الشره وخمود الشهوة .

الشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

السخاء وسط بين التبذير والتقتير .

العدالة وسط بين الظلم والانظلام .

المقالة الثانية : يقدِّم الكاتب تقسيمًا ثنائيًا للخلق أي الطباع Temperament حسب نشأته على النحو التالي :

١ - إما أن يكون طبيعيًا من أصل المزاج ، أي وراثيًا Genetic .

٢ - إما أن يكون مستفادًا بالعادة أو التدريب ، أي مكتسبًا Acquired (ص ٣١ ، ٣٢) .

ثم يعرض لقضية أصل الإنسان خير أم شر بطبيعته (ص ٣٢ - ٣٦) وفي ثنايا هذا الموضوع يشير إلى مفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization ودورها في تعديل وتهذيب أخلاق الإنسان .

ثم يعرض إلى أن كمال الإنسان في اللذات المعنوية (ص ٤٣ - ٤٧) ويذم الإفراط في اللذات الحسية أي الدوافع الفطرية الأولية .

كما يعرض لقوى النفس الثلاث البهيمية والسبعية والناطقة (ص ٤٧ - ٤٩) وعلى أساسها يعرض لمقارنة بين الإنسان والحيوان ليحدد مراتب كل منها من العلو أو الدنو ، كما يحدد مدى قابلية كل منها للتأديب ، وهو ما نجده في فصل في تأديب الأحداث والصبيان ، وهو ما يتصل بمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ٥٥ - ٦٧) .

كما يعرض في ثنايا هذا العرض إلى الارتقاء المعرفي والاجتماعي للوليد إلى أن يصير صبيًا Cognitive & Social Development وهو ما يتصل بمجال ارتقاء الطفل Child Development (ص ٥٧ - ٥٨) .

كما يورد المؤلف أفكارًا عن مراتب الحيوان وفقًا لرعايتها لأولادها وقابليتها للتأديب وقدرتها على التصرف وذكائها وقدرتها على التعلم والتميز (ص ٧٠ - ٧٣) .

المقالة الثالثة : **الخير والسعادة** . وفيها يعرض لمعنى الخير والسعادة وأقسام كل منها (ص ٧٨ - ٨٠) ويلخص أن السعادة هي أحد الخيرات التامة وهي غاية في حد ذاتها وهي تمثل موضوعًا مهمًا في علم النفس Happiness وكذلك في الفلسفة والأخلاق .

ثم يعرض لخصائص الشخص السعيد (ص ٨١) وهو ما يشير إلى خصائص التوافق الشخصي والاجتماعي Personal & Social Adjustment .

المقالة الرابعة : يشير الكاتب إلى أنه بالرغم من أن السعادة تكمن في فضائل النفس (الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) فقد تظهر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل . ويعرض لخصائص ودوافع هؤلاء الأفراد ، وهو أمر يتصل بالشخصية

Personality والدافعية Motivation .

كما يعرض لفكرة الحاجة إلى المال وأحوال مكتسبيه ومنفقيه في الحلال والحرام . كما يشير إلى سبيل كسب الأموال ودوافع إنفاقها (ص ١١٢ - ١١٣) . ويتصل هذا الجانب بموضوع العمل الأجور Wages في علم النفس المهني والحاجات Needs في علم النفس العام .

وتحت عنوان مسألة عويصة أولى (ص ١٢٩ - ١٣١) يعرض الكاتب لدوافع البشر عند ارتكاب المعاصي والأخطاء ، وهو ما يتصل بدوافع السلوك غير الأخلاقي Immoral Behavior .

ثم يعرض في « مسألة عويصة ثانية » (ص ١٣٢ - ١٣٤) المقارنة بين العدالة باعتبارها مساواة والتفضل باعتباره زيادة في العدالة ، والأخير خُلق غير مذموم ، ويتصل هذا الجانب بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values .

المقالة الخامسة : التعاون والاتحاد : تختص هذه المقالة بموضوع العلاقات الاجتماعية Social Relations يشير ابن مسكويه إلى أن لكل إنسان نقصًا أو حاجة يسعى لإشباعها أو لإتمامها بالتعاون مع الآخرين ، وهو إشارة تختص بدوافع تكوين العلاقات الاجتماعية (ص ١٣٨) .

ثم يعرض لبعض أشكال العلاقات الاجتماعية وهي الصداقة (ص ١٤٠ - ١٤٣) ، والمودة والعشق والمحبة (ص ١٤٣ - ١٤٩) .

ثم يعرض للخصائص الاجتماعية والأخلاقية للشخص الخير الفاضل (ص ١٥٤ ، ١٥٥) ويليه عرض لأنواع من الأصدقاء وأهمية الأصدقاء (ص ١٥٩ - ١٦١) ، وكيفية اختيار الصديق (ص ١٦١ - ١٦٤) ، وآداب الصداقة (ص ١٦٥ - ١٧٣) .

كما يعرض في هذا الجزء رأي أرسطوطاليس في السعادة التامة (ص ١٧٣ - ١٧٧) وهو أن السعادة التامة تكمن في الفضائل والخلق الحسن وليس للراحة البدنية علاقة بأسباب السعادة .

المقالة السادسة : وتبدأ بعرض العلاقة بين الجسد والنفس في الصحة والمرض ، وهو ما يشير إلى فكرة الأمراض النفسجسمية (أو السكوسوماتية) Psychosomatic Disorders (ص ١٧٨ ، ١٧٩) .

ثم يقسّم الطب النفسي إلى نوعين يشار لهما حديثًا بالطب النفسي العلاجي

والطب النفسي الوقائي .

كما يعرض لتوجيهات من أجل تحقيق تعلم فعال ؛ منها ترييض النفس على الأمور الفكرية من الصغر والحث على الاجتهاد وفضل العلم ، وتجنب النسيان ، ويتصل هذا الموضوع بمفهومي التعلم والتربية Learning & Education (ص ١٨١ - ١٨٣) .

وتحت عنوان القناعة يحث الكاتب على ضرورة الاكتفاء بإشباع الحاجات الضرورية دون إفراط ، وهو ما يتصل بمفهوم الرضا Satisfaction والحاجات Needs (ص ١٨٦- ١٨٩) .

ثم يحث المرء على معرفة عيوب النفس (ص ١٩١ - ١٩٣) حتى لو استعان بخصم له في هذا الأمر ، ويتصل هذا الموضوع بمفهوم الوعي بالذات Self Awareness أو التقييم الذاتي Self Evaluation .

المقالة السابعة : رد الصحة على النفس : يقسم ابن مسكويه الأمراض النفسية وفقًا للتطرف الإيجابي والسلبي للفضائل الأربع على النحو التالي :

التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة .

الشره والخمود طرفان للوسط الذي هو العفة .

السفه والبله طرفان للوسط الذي هو الحكمة .

الجمود والمهانة (الظلم والانظلام) طرفان للوسط الذي هو العدالة (ص ١٩٦) .

ثم يعرض لأسباب بعض الحالات الانفعالية Emotional States كالتهور أو الغضب Anger (ص ١٩٦ - ٢٠٥) . وهو بإيجاز : العجب والافتخار ، والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم ، وأيضًا المقتنيات والجواهر النفسية ؛ فهي تثير الغضب عند فقدها أو تلفها .

ثم يعرض للمظاهرة السلوكية للغضب ؛ ومن خلالها يشير إلى ارتباط الغضب Anger بالشره Opesity .

(حيث إذا تعذر على الشره ما يشتهيه غضب) كذلك ارتباط الغضب بالبخل (فإذا فقد البخيل شيئًا غضب) . ثم يعرض لعلاقة الغضب بالعمر (فالصبيان والشيوخ أسرع غضبًا من الراشدين) (ص ٢٠٥ - ٢٠٨) .

ثم يتعرض الكاتب لموضوع الخوف وأسبابه وعلاجه (ص ٢١٠ - ٢١٢) كما

يعرض أيضًا لعلاج الخوف من الموت (ص ٢١٢ - ٢٢١) وفي هذا المقام نجد مفهومين من علم النفس :

١ - مفهوم المخاوف المرضية Phobias .

٢ - مفهوم العلاج النفسي المعرفي Psycho - Cognitive Therapy .

كما يعرض ابن مسكويه علاج الحزن (ص ٢٢١ - ٢٢٦) والذي يشير إلى مرض الاكتئاب Depression وعلاوة على ذلك يعرض لعلاجه من منظور نفسي معرفي .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام والإرشاد النفسي والخلقي والديني .

* * *

ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)
كتاب النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعة الإلهية [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته

التعريف بالمؤلف [2] :

هو أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، وقد وُلِد سنة (٣٧٥هـ) ، وكان والده من أهل « بلخ » وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور ، واشتغل بالتصوف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرمبثن » من ضياع بخارى وبجوارها قرية « أفشنة » والتي تزود منها وقطن بها وسكن ، وبعد أن وُلِد ابن سينا بها رحل والده وأسرته إلى بخارى ، وهناك بدأ ابن سينا يتعلم القرآن والآداب ، وقد حفظ القرآن كله وهو في العاشرة من عمره ، ثم تعلم الفقه على إسماعيل الزاهد ، وكان من أجود السالكين ، كما أحكم علم المنطق والطبيعي وكتاب إقليدس ، واشتغل بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهي ، ورغب بعد ذلك في علم الطب وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه .

وتوفي ابن سينا في سنة (٤٢٨هـ) وهو في الثالثة والخمسين من العمر ، وقد ألف ابن سينا العديد من الكتب والتي تعتبر مراجع أساسية في علوم النفس والطب والمنطق وغيرها ، وفيما يلي نذكر بعضًا من هذه المؤلفات :

---

(١) تقديم ماجد فخري . (ط ١) . بيروت : دار الآفاق الجديدة (١٩٨٥م) . (٣٤٤ ص) .
(٢) مراجع الترجمة : الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، تحقيق د . سليمان دنيا ، القسم الأول ، دار المعارف (١٩٦٠م) ، (ص ١٢٥ - ١٤٥) .

« المجموع » ، « الحاصل والمحصول » ، « الإنصاف » ، « البر والإثم » ، « الشفاء » ، « القانون في الطب » ، « الأرصاد الكلية » ، « النجاة » ، « الهداية » ، « الإشارات والتنبيهات » ، « المختصر الأوسط » ، « العلائي » ، « القولنج » ، « لسان العرب » ، « الأدوية القلبية » ، « الموجز » ، « بعض الحكمة المشرقية » ، « بيان ذوات الجهة » ، « المعاد » ، « المبدأ والمعاد » ، « المباحثات » .

بالإضافة إلى هذه الكتب ، هناك عدد من الرسائل لابن سينا ؛ ومنها : « القضاء والقدر » ، « الآلة الرصدية » ، « المنطق بالشعر » ، « القصائد في العظمة » ، « الحكمة في الحروف » ، « تعقب المواضع الجدلية » ، « الإشارات إلى علم المنطق » ، « حي بن يقظان » ، « الأجرام السماوية » .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسة تتناول : المنطق - الحكمة الطبيعية - الحكمة الإلهية .

ويتضمن القسم الأول منها - أي المنطق - أربعة كتب :

يتناول أولها - (من ص٤٣ إلى ص٦٧) - الألفاظ المفرد منها (سواء كان اسمًا أم فعلًا أم أداة) ، والمركب أي القضايا الحملية والشرطية بأنواعها .

يتناول ثانيها - (ص ٦٩ - ٩٥) - القياس ، الكامل منه وغير الكامل ، والاقتراني منه و الاستثنائي ، موضحًا أشكال كل قياس منها وشروط كل شكل منها ، وصوره .

ويتناول ثالثها - (ص ٩٧ - ١٢٣) - كيفية البرهان ، بادئه بالكلام عن المقدمات التي هي أساس القياس أو البرهان موضحًا أنواعها التسعة وعلاقة كل منها بالتصور والتصديق ، ثم يبين شروط البرهان وكيفية اكتساب الحد ومعناه ويبين ماهية الأجناس العشرة أو المقولات .

ويتناول رابع كتب المنطق - (ص ١٢٥ - ١٣١) - المغالطة في القياس ومواضعها .

ويتضمن القسم الثاني من « النجاة » - أي الحكمة الطبيعية - ست مقالات .

تعرف الأولى - (ص ١٣٥ - ١٤١) - منها الحكمة الطبيعية بأنها صناعة نظرية ، موضوعها الأجسام الموجودة بجواهرها وأعراضها بموادها وصورها .

وتتناول المقالة الثانية - (ص ١٤٢ - ١٧٠) - لواحق هذه الأجسام من حركة

وسكون وزمان ومكان وخلاء وتناهي ولا تناهي وتماس والتحام واتصال وتوالي ، مختتمًا هذه المقالة بكلام عن الجهات .

وتتناول المقالة الثالثة - (ص ١٧١ - ١٨٠) - القضايا الخاصة بهذه الصناعة النظرية ؛ مثل : أن العالم واحد لا يقبل العدد ، وأن لكل جسم حيزًا طبيعيًا وشكلًا طبيعيًا ، وأن الفلك يتحرك حركة مستديرة ، ثم يختتم هذه المقالة بحديث عن الأجسام المتكونة وصورها وكيفياتها والفرق بينهما .

ثم يتكلم في المقالة الرابعة - (ص ١٨١ - ١٨٩) - عن قوى الأجسام الأولى وأحيازها ، وعن التخلخل والتكاثف ويبين آثار الحرارة والبرودة على الجسم .

ويتكلم في المقالة الخامسة - (ص ١٩٠ - ١٩٥) - عن الاختلاف في طبيعية العناصر الأربعة ، وما ينتج عنه من مركبات وطبقاتها .

ويفصل في المقالة السادسة - (ص ١٩٦ - ٢٣١) - الحديث عن النفس ، منشئها وأحوالها ، وظائفها وقواها النظرية والعملية ، ويقسم النفس على أساس مستوى هذه الوظائف إلى : نباتية وحيوانية وإنسانية ، موضحًا كيفية إدراك النفس الإنسانية وتعلم العلوم واكتسابها .

ويقدم ابن سينا - (ص ١٩٦ - ٢٠٧) نموذجًا تصوريًا لوظائف النفس البيولوجية والنزوعية والمعرفية ، معتبرًا هذه الوظائف متدرجة ؛ أي أن كل مستوى من وظائف النفس يخدمه المستوى - أو المستويات - التي تسبقه ؛ فالنفس الإنسانية تخدمها النفسان الحيوانية والنباتية ، والنفس الحيوانية تخدمها النفس النباتية ، وفي كل فئة من الفئات الثلاث تخدم المستويات الوظيفية المستوى الذي يليها .... وهكذا (انظر نموذج وظائف النفس عند ابن سينا الآتي) .

وفي (ص ٢٠١) يشير إلى الإدراك الحسي باعتباره وظيفة النفس الوهمية التي يعتبرها إحدى الحواس الباطنة أو الداخلية ، ويتمثل الإدراك الحسي في « عملية إضفاء معنى للأشياء المحسوسة » إذ يقول : « المعنى هو الشيء الذي تدركه النفس من المحسوس من غير أن يدركها الحس الظاهر أولًا ؛ مثل إدراك الشاة لمعنى المضاد من الذئب ، وهو المعنى الموجب لخوفها إياه وهربها منه ، من غير أن يكون الحس يدرك ذلك ألبتة » .

وفي (ص ٢٠١) أيضًا يربط ابن سينا وظائف النفس النظرية والحيوانية بأجزاء

الدماغ ؛ فالوظائف المعرفية يقوم بها المخ ، فالحس المشترك ، أي الصور الآتية من الحواس تكون في أول التجويف المقدم من الدماغ ، والخيال أي حفظ ما جاء من الحواس فترة بعد غيبة المحسوسات ، يكون في آخر التجويف المقدم من الدماغ ؛ أما القوة المفكرة أي القدرة على التحليل والتركيب ، فتكون في أول التجويف الأوسط . وتكون القوة الوهمية ؛ أي : إدراك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات تكون في نهاية التجويف الأوسط ، والذاكرة ، أي : حفظ ما تدركه القوة الوهمية ، ففي التجويف المؤخر من الدماغ .

ويدرك ابن سينا - (ص ٢٠٥ ، ٢٠٦) - أن هناك مبدأً عامًّا يحكم أداء النفس الإنسانية لوظيفتها المعرفية ، هذا المبدأ هو « الفروق الفردية » فالأفراد يتفاوتون في قدراتهم « واعلم أن التعلم ، سواء حصل من غير المتعلم أو من نفس المتعلم متفاوت ، فأي من المتعلمين قد يكون أقرب إلى التصور ؛ لأن استعداده ... أقوى ... وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس » و « هذا التفاوت ليس منحصرًا في حد ، بل يقبل الزيادة والنقصان دائمًا ، وينتهي في طرف النقصان إلى من لا حدس له ألبتة ، فيجب أن ينتهي أيضًا في طرف الزيادة إلى من له حدس في كل المطلوبات أو أكثرها أو إلى من له حدس في أسرع وقت وأقصره » .

والعبارة السابقة تقدم مبدأً آخر يحكم التصور المعاصر لعلم النفس ، والذي في ضوئه تطور القياس النفسي ، هذا المبدأ هو البُعد Dimension ، فأية قدرة معرفية أو خصلة مزاجية ... إلخ يمكن التعبير عنها كميًّا على أساس أنها بُعد يمتد من عدم القدرة إلى القدرة الفائقة ، والأفراد يحتلون مواقع - أي درجات - مختلفة على هذا البُعد ؛ فالحدس يمتد من فقدان القدرة على الحدس إلى قدرة فائقة فيه ، كذلك الاستعداد ... إلخ

وقال ابن سينا بالفروق الفردية في القدرات العقلية ، ففي (ص ٢٠٦) يشير إلى فروق فردية في كم الحدس ، أي : عدد الحدود الوسطى التي يتوصل إليها الذهن دون قياس أو تعليم ، كما توجد في كيفه أي : سرعة الحدس عند البعض وبطئه عند آخرين . وفي نفس السياق يقدم تعريفًا للذكاء بأنه قوة الحدث أي سرعة الذهن في استنباط الحد الأوسط بذاته ، وقدرته على ذلك ، وهو بهذا التعريف يسبق علماء « الجشطلت » الذين يعتبرون الذكاء قدرة على الاستبصار Insight الذي يقترب من معنى الحدس إلى حدٍّ ما .

ويؤكد ابن سينا أن الاستعداد Aptitude شرط رئيسي للتعلم ، فلا تعلم دون استعداد له ، والتفاوت في التعلم يرجع لتفاوت في هذا الاستعداد (ص ٢٠٥) .

نموذج وظائف النفس عند ابن سينا

النفس

- نباتيـة (وظيفتها النمو)
  - غاذية (توريد الغذاء للأعضاء)
  - منمية (تزيد في جوهر الأعضاء الأصلية)
  - مولدة (تعطي المادة صورة الشيء)
- حيوانيـة (وظيفتها الإدراك والحركة)
  - محركة
    - باعثة (نزوع)
      - شهوية (إقدام)
      - غضبية (إحجام)
    - فاعلة (تحريك العضلات)
  - مدركة
    - قوى تدرك من خارج (الحواس)
    - قوى تدرج من داخل
      - [illegible]
      - [illegible]
      - [illegible]
      - حافظة
      - [illegible]
- نفس إنسانية (ناطقة) وظيفتها الاختيار والاستنباط
  - نفس عاملة (قوى عملية لاستنباط التدابير والصناعات)
  - نفس عالمة (قوى نظرية لاكتساب المعرفة)
    - عقل هيولاني (استعداد لتقبل المعرفة)
    - عقل بالملكة (يعقل الأشياء بالقياس)
    - عقل بالفعل (الصور مخزونة فيه فيعقل بلا اكتساب)
    - عقل مستفاد (حضور المعقولات فيه : كالكتابة بالنسبة للكاتب)

ويشير ابن سينا - (ص ٢٢٠) - إلى صعوبة اجتماع انفعالين معًا في النفس ، فأحدهما يتغلب على الآخر « فإن الخوف يشغل عن الجوع ، والشهوة تصد عن الغضب ، والغضب يصرف عن الخوف ، والسبب في جميع ذلك واحد ، وهو انصراف النفس بالكلية إلى أمر واحد » . وهذا المبدأ هو الذي يحكم أساليب العلاج السلوكي المعاصرة ؛ فالتدريب على الاسترخاء لعلاج الخوف والتوتر ، والانشغال بأسور ما تصرف الفرد عن تعاطي المخدرات والمسكرات ، وترسيخ مشاعر منفرة نحوها يمنع تعاطيها ... وهكذا .

ويتضمن القسم الثالث من « النجاة » - إلى الحكمة الإلهية - مقالتين :

يبدأ في الأول منها - (ص ٢٣٥ - ٢٦٠) - بإبراز الفروق بين الإلهيات والطبيعيات والرياضيات ، ثم يبيِّن معاني كل من الموجود (بجوهره وعرضه وأقسامهما) والوَحدة والمادة والصورة ، وأنواع كل منها ، منتقلًا - بعد ذلك - بالحديث عن أقسام العلل وأحوالها ، وعن معاني القوة والقدم والحدوث والكلي والتام والناقص والتقدم والتأخر والوحدة والكثرة .

ثم يتحدث - في المقالة الثانية (ص ٢٦١ - ٣١١) - عن الواجب وصفاته ، والممكن وعلته وانتهائه ليخلص إلى أن واجب الوجود مستوف لجميع شروط الكمال والوحدة ، وأن الموجودات كلها تصدر عنه عن طريق الفيض ، وأنها تأتي على الترتيب : العقول العشرة ، ثم نفوس الأفلاك ، ثم الأجرام السماوية فالكائنات الفاسدات .

ويختتم ابن سينا كلامه في الحكمة الإلهية - وكتابه « النجاة » (ص ٣٢٠ - ٣٤٣) بقول في المبدأ والمعاد وإثبات النبوة والإلهام والدعاء المستجاب ، ومنافع العبادات في الدنيا والآخرة .

* * *

أحوال النفس : رسالة في النفس وبقائها ومعادها [1]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يبدأ ابن سينا هذه الرسالة في النفس وبقائها ومعادها بفصل حول (حد النفس) حيث يقسم القوى الفعالة في الأجسام بذاتها إلى أربعة أقسام :

١ - قوله تفعل فعلها في الجسم بقصد واختيار .

٢ - قوله تفعل فعلها بالذات وعلى سبيل التسخير .

وتنقسم الأولى إلى قسمين :

١ - إما أن تكون متكثرة القصد والاختيار .

٢ - وإما أن تكون وحدانية القصد والاختيار .

كما تنقسم الثانية إلى قسمين أيضًا هما :

١ - إما أن تكون وحدانية جهة الفعل كالقوة الفاعلة لحركة النار إلى فوق .

٢ - أو تكون متكثرة الفعل كالقوة الفعالة لامتداد أعضاء الحيوان وأجزاء النبات في الجهات المختلفة والمحركة للغذاء المتشابهة فيه إلى أطراف متقابلة .

وبذلك تكون جملة القوى الفعالة في الأجسام أربعة ، وكل واحدة من هذه القوى جنس يعم أنواعًا ، ولكن لكل واحد منها في طبيعته اسم يخصه ؛ فالقوة الفاعلة

---

(١) حققه وقدم له أحمد فؤاد الأهواني . (ط ١) . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية (١٩٥٢م) . (٢٠٣ص) . نسخة مصورة .

بالتسخير فعلاً إحدى الجهة مخصوصة باسم الطبيعة ، والقوة الفاعلة بالتسخير فعلاً متكثر الجهة والنوع مخصوصة باسم النفس النباتية ، والقوة الفاعلة بالقصد والاختيار المختلف الموجب لاختلاف ما يقع عليها من الفعل مخصوصة باسم النفس الحيوانية ، كما أن القوة الفاعلة بالقصد والاختيار الأُحدي الجهة والنسبة مخصوصة باسم النفس الملكية .

ويشير ابن سينا بعد ذلك إلى أن النفس قوة بالقياس إلى فعلها وصورة بالقياس إلى المادة الممتزجة إن كانت نفسًا منطبعة في المادة ، وكمال بالقياس إلى النوع الحيواني أو الإنساني .

وينتقل ابن سينا بعد ذلك إلى تعريف القوى النفسانية ؛ حيث يشير إلى أن هذه القوى تنقسم بالقسمة الأولى إلى ثلاثة أقسام جنسية هي :

١ - النفس النباتية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد وينمو ويتغذى .

٢ - النفس الحيوانية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما هو يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة .

٣ - النفس الإنسانية : وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية .

كما يذكر ابن سينا أن هناك ثلاث قوى للنفس النباتية هي : الغاذية والمنمية والمولدة كما أن للنفس الحيوانية قوتين : محركة ومدركة .

والمحركة قسمان : إما محركة بأنها باعثة ، وإما محركة بأنها فاعلة . والمحركة على أنها باعثة هي القوة النزوعية الشوقية ولها شعبتان :

١ - قوة شهوانية : وهي قوة تبعث على تحريك يقرب به من الأشياء المتخيلة ضرورية أو نافعة طلبًا للذة .

٢ - قوة غضبية : وهي قوة تبعث على تحريك يدفع به الشيء المتخيل ضارًا أو مفسدًا طلبًا للغلبة .

وأما القوة المحركة على أنها فاعلة : فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ أو ترخيها أو تمددها طولاً فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ .

وأما القوة المدركة ؛ فتنقسم إلى قوة مدركة من خارج وهي الحواس الخمس : (البصر والسمع والشم والتذوق واللمس) . وإلى قوة مدركة من باطن ، وتنقسم إلى قوى تدرك صور المحسوسات ، وإلى قوى تدرك معاني المحسوسات .

ويتصل هذا الحديث عن قوى النفس الحيوانية بعدد من موضوعات علم النفس حيث يرتبط الحديث عن القوة الشهوانية ، والقوة الغضبية بموضوع الدوافع Motives (ص ٥٨) ، والانفعالات Emotions (ص ٥٨) . كما يتناول الحديث عن القوة المدركة موضوع الإحساس Sensation (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والإدراك Perception (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وذلك في إطار علم النفس العام ، ويتعلق الحديث عن القوة المحركة الفاعلة بموضوع الأساس الفسيولوجي للسلوك الحركي (ص ٥٨) Motor Behavior في علم النفس الفسيولوجي .

ويتحدث ابن سينا بعد ذلك عن مواضع القوى المدركة في الدماغ ؛ حيث يشير إلى أن من القوى المدركة الباطنة قوة تسمى (قوى فنطاسيا) وتقع في التجويف الأول من الدماغ ، وهي تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس ، وهي الحس المشترك (ص ٦١) .

وهناك أيضًا الخيال والقوة المصورة وهي قوة تقع أيضًا في آخر التجويف المقدم من الدماغ ، ومهمتها حفظ ما تقبله الحس المشترك من الحواس الجزئية الخمس ، وتبقى فيها بعد غيبة المحسوسات ، ثم القوة التي تسمى متخيلة بالقياس إلى النفس الحيوانية ومفكرة بالقياس إلى النفس الإنسانية ، وتقع في التجويف الأوسط من الدماغ ، وتقوم بتركيب بعض ما في الخيال مع بعض ، كما تقوم بفصل بعضه عن بعض بحسب الاختيار .

ثم القوة الوهمية وتقع في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ ، وتدرك المعاني غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية ؛ كالقوة الحاكمة بأن الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه .

ثم القوة الحافظة الذاكرة ، وتقع في التجويف المؤخر من الدماغ وتحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني الغير محسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية ؛ ونسبة القوة الحافظة إلى القوة الوهمية كنسبة القوة التي تسمى خيالًا بالقياس إلى الحس . ونسبة تلك القوة إلى المعاني كنسبة هذه القوة إلى الصور المحسوسة ، وهذه هي جملة قوى النفس الحيوانية (ص ٦٢) .

ويتضمن الحديث السابق عن القوى المدركة الباطنة ومواضعها في الدماغ إشارة لمفهوم الإدراك الحسي Perception ، والتخيل Imagination ، والذاكرة Memory . كما يتصل الحديث عن مواضع هذه القوى في الدماغ بعلم النفس العصبي Neuro Psychology (ص ٦١ - ٦٢) .

وأما النفس الناطقة الإنسانية ؛ فتنقسم قواها إلى قوة عاملة ، وقوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلًا باشتراك الاسم ؛ فالعاملة هي مبدأ حركة لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالروية ولها اعتبار بالقياس إلى قوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها ، فقياسها إلى القوة الحيوانية النزوعية أن تحدث عنها فيها هيئات تخص الإنسان يتهيأ بها لسرعة فعل وانفعال ؛ مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء .

وتتصل هذه الإشارة بمفهوم الانفعال Emotion (ص ٦٣) في علم النفس العام ، وأما قياسها إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة هو أن تستعملها في استنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاسدة واستنباط الصناعات الإنسانية ، ومن حيث قياسها إلى نفسها هو أن فيما بينها وبين العقل النظري تتولد الآراء الذائعة المشهورة كالقول بأن الكذب قبيح .

فهذه القوة العملية هي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي دونها وهي البدن وسياسته .

وأما القوة النظرية فهي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي فوقها لتنفعل وتستفيد منها وتقبل عنها ، فكأن للنفس وجهين : وجه البدن ، ووجه إلى المبادئ العالية .

ويشير ابن سينا إلى أن لفظ « القوة » له ثلاثة معانٍ ؛ منها : أن القوة هي الاستعداد المطلق الذي لا يكون قد خرج منه إلى الفعل شيء ولا أيضًا حصل ما به يخرج ؛ ومثال ذلك قوة الطفل على الكتابة ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا المعنى للقوة يتصل بمفهوم الاستعداد Aptitude (ص ٦٥) .

كما يذكر أن هذه القوى النفسانية يحكمها نظام هرمي ، وذلك من حيث إن بعضها رئيسي يسيطر على بعض آخر ويحكمه ، وأن هناك قوى خادمة لهذه القوة المسيطرة ؛ فالعقل هو الرئيس الذي تخدمه كل القوى الأخرى ، كما أن القوة النزوعية تخدمها الشهوة والغضب ، واللتان تخدمهما القوة المحركة في العضل ، وهذه القوى الحيوانية بالجملة تخدمها القوى النباتية وهكذا .

وينتقل ابن سينا بعد هذا العرض لتعريف القوى النفسانية إلى الحديث عن اختلاف أفاعيل القوى المدركة من النفس ؛ حيث يشير إلى أن الخيال أو التخيل يبرئ الصورة المنزوعة من المادة تبرئة أشد ، بمعنى أن الصورة الموجودة في الخيال يتم تجريدها من اللواحق المادية تجريدًا تامًّا ، وذلك على الرغم من أن الحس لم يجردها من المادة تجريدًا تامًّا ، كما أن الوهم يدرك أمورًا ليست مادية في طبيعتها ؛ مثل الخير والشر ، والموافق والمخالف .

ويذكر ابن سينا في هذا السياق أيضًا أن كل ما كان من القوى مدركًا فليس يدرك إلّا بآلة .

ويتعلق هذا الحديث بموضوعي الخيال والإدراك الحسي Perception (ص ٦٩ - ٧٩) .

ويتحدث بعد ذلك عن علاقة النفس بالبدن ، حيث يبيِّن كيف أن النفس تستعين بالبدن ، وكيف تستغني عنه بل يضرها .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث عن علاقة النفس بالجسم بفرع علم النفس الفسيولوجي Physio - Psychology (ص ٨٧ - ٨٩) .

ثم يقدم البراهين والدلائل على صحة استغناء النفس عن البدن ، كما يبرهن أيضًا على أن حدوث النفس مع حدوث البدن ، وأن النفس باقية ، فهي لا تموت بموت البدن ولا تفسد ألبتة ؛ لأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر متعلق به نوعًا من التعلق ، وكل متعلق بشيء نوعًا من التعلق ، فأما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ في الوجود ، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود ، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتقدم له في الوجود الذي هو قبله بالذات لا بالزمان .

ويقدم ابن سينا البرهان على صحة الفرض الأول من هذه الفروض الثلاثة ، ويدحض الفرضين الثاني والثالث ، ويخلص من هذا إلى أن النفس لا تفسد بفساد البدن .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إبطال التناسخ ، مقدمًا البرهان على ذلك ، والذي ينتهي منه إلى أن النفس الواحدة لا تتناسخها أبدان مختلفة ؛ كما يشير إلى أن جميع قوى النفس عن مبدأ واحد في البدن ، أي لنفس واحدة ، ويتحدث كذلك عن خروج العقل النظري إلى الفعل مشيرًا إلى أن الشيء لا يخرج من ذاته إلى الفعل بشيء يفيد الفعل ، وهذا الفعل الذي يفيده هو صور المعقولات .

ويتناول بعد ذلك موضوع إثبات النبوة ؛ حيث يتحدث عن طبقات النبوات المتعلقة بالقوة العقلية العملية والخيالية ، مشيرًا إلى أن الاستعدادات تختلف للقبول جميعًا في الأنفس ، وخصوصًا الاستعداد لقبول الجزئيات بالاتصال بهذه الجواهر النفسانية . فبعض الأنفس يضعف فيها ويقل هذا الاستعداد أصلًا لضعف القوة المتخيلة وترك شغله بما تورده عليه ؛ كما أن القوة المتخيلة لما فيها من الغريزة المحاكية ، والمنتقلة من شيء إلى غيره ، تترك ما أخذت وترود شبيهه أو ضده أو مناسبه ، وهنا يذكر ابن سينا أن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون .

ويتضمن هذا الحديث إشارة لمفهوم التخيل Imagination ، وأيضًا مفهوم الهلاوس البصرية Visual Hallucinations عند الإشارة إلى أن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون (ص ١١٧ - ١٢١) .

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الحدس يتصل بمفهوم الاستبصار Insight في علم النفس الحديث ، كما يتضمن الحديث عن ذكاء النفس إشارة لمفهوم الذكاء Intelligence ، ومفهوم التعلم Learning وذلك في إطار علم النفس العام (ص ١٣٢) .

ثم ينتقل ابن سينا إلى الحديث عن سعادة النفس وشقاوتها بعد الفراق ، موضحًا معنى السعادة والشقاوة والحقيقة من خلال ما أخبرت به الشريعة وصدقته النبوة ، حيث يشير إلى أن السعادة الحقيقية لا تتم إلَّا بإصلاح الجزء العملي من النفس ، كما أن لكل قوة نفسانية لذة وخيرًا يخصها ، وأذى وشرًّا يخصها ؛ ومثال ذلك : أن لذة الشهوة وخيرها أن يتأدى إليها كيفيات محسوسة ملائمة من الحواس الخمس ، ولذة الغضب الظفر ، ولذة الوهم الرجاء ، وكذلك لذة الحفظ تذكر الأمور الموافقة الماضية ، وأن أذى كل واحدة منها فيما يضادها .

وفي سياق الحديث عن سعادة النفس وشقاوتها يذكر ابن سينا أيضًا أن الخلق ملكة تصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية ، وأنه قد أمر في كتب الأخلاق بأن يستعمل التوسط بين الخلقين الضدين ، لا بأن تفعل أفعال التوسط دون أن تحصل ملكة التوسط ؛ وملكة التوسط كأنها موجودة للقوة الناطقة وللقوى الحيوانية معًا .

ويتصل هذا الحديث عن الخلق بسيكولوجية الأخلاق Morality ، ويتضمن إشارة لمفهوم التوسط والاعتدال Normality (ص ١٣٦ - ١٣٧) .

ويختم ابن سينا حديثه في هذه الرسالة عن النفس وبقائها ومعادها ، بذكر محل هذه الرسالة مشيرًا إلى أنه قد ترك الكلام في الأمور الظاهرة من علم النفس إلَّا ما لم يكن منه بد ، وأنه قد كشف الغطاء ورفع الحجاب ودل على الأسرار المخزونة في بطون الكتب والمضنون بالتصريح بها .

ويورد المحقق في هذا الكتاب أيضًا ثلاث رسائل أخرى لابن سينا ؛ حيث يذكر أنه قد أضاف هذه الرسائل الثلاث لكي تتم الفائدة نظرًا لأنها في علم النفس وهي مما يعز الحصول عليه .

وفيما يلي نعرض بإيجاز لهذه الرسائل الثلاث :

الرسالة الأولى : مبحث عن القوى النفسانية : يبدأ ابن سينا هذه الرسالة بمحاولة إثبات القوى النفسانية ، ثم يتناول تقسيم هذه القوى حيث يفصل القول في القوى إلى أقسام القوى النباتية والحيوانية والواردة في رسالة أحوال النفس السابقة ، ومشيرًا إلى الحاجة إلى كل واحدة منها ، ويتكلم عن القوى الحاسة الخارجية والداخلية وكيفية إدراكها (تشمل الحواس الداخلية الإدراك الحسي والتذكر والتخيل) . ويتحدث أيضًا عن النفس الناطقة من مرتبة بدئها إلى مرتبة كمالها مشيرًا إلى أن نوع الحيوان الناطق يتميز عن غير الناطق بقوة يتمكن بها من تصور المعقولات ، وهذه هي القوة المسماة بالنفس الناطقة (العقل الهيولاني أي العقل بالقوة) وهي موجودة في النوع الإنساني ، ثم يقيم البراهين على جوهرية النفس وغناها عن البدن .

● وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة عن القوى النفسانية لا تعدو عن كونها رسالة مفصلة لأقسام القوى النفسانية الواردة في رسالة أحوال النفس ، وبذلك فهي تتضمن الموضوعات السيكولوجية التي سبق ذكرها عند عرض رسالة أحوال النفس ، وبخاصة الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception والذاكرة Memory ، والتخيل Imagination ، والدوافع Motives ، والانفعالات Emotions ، والسلوك الحركي Motor Behavior ، ذلك في إطار علم النفس العام (ص١٥٢ - ١٦٧) .

الرسالة الثانية (١) **: في معرفة النفس الناطقة وأحوالها** : يبدأ ابن سينا هذه الرسالة بمحاولة إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن ، ويذكر أن المراد بالنفس هو ما يشير إليه أحد بقوله (أنا) ، كما يتناول في هذه الرسالة أيضًا مسألة بقاء النفس بعد بوار

---

(١) عرض هذه الرسالة تفصيلًا في تقرير منفصل .

البدن وأنها لا تفنى بفنائه ، وهو ما تحدث عنه في رسالة أحوال النفس التي عرضنا لها من قبل .

ويختم هذه الرسالة بتناول مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان ، مشيرًا إلى أن النفس الإنسانية لا تخلو عن ثلاثة أقسام هي :

١ - كاملة في العلم والعمل .

٢ - ناقصة فيهما .

٣ - كاملة في أحدهما وناقصة في الآخر ، وهذا القسم يتضمن نوعين ؛ أحدهما أن تكون كاملة العلم ناقصة في العمل ، والثاني عكس ذلك .

الرسالة الثالثة : في الكلام على النفس الناطقة : تختص هذه الرسالة بالحديث عن النفس الإنسانية الناطقة وحدها ؛ حيث يشير فيها إلى أن الإنسان مختص من بين سائر الحيوانات بقوة داركة للمعقولات تسمى تارة نفسًا ناطقة ، وتارة نفسًا مطمئنة ، وتارة نفسًا قدسية ، وتارة روحًا روحانية ، وتارة سرًّا إلهيًّا ، وتارة قلبًا حقيقيًّا وهي موجودة بكل واحد من الناس طفلًا كان أو كبيرًا ، مراهقًا أو بالغًا ، مجنونًا أو عاقلًا ، مريضًا أو سليمًا ، وتكون هذه القوة في بدء وجودها عارية من صور المعقولات ، وتسمى حينئذ بذلك الاعتبار عقلًا هيولانيًا ، ثم تحصل فيها صور المعقولات الأولية وهي معان متحققة من غير قياس وتعلم واكتساب وتسمى بداية العقول وآراء عامية وعلومًا أولية غريزية ، وهي مثل العلم بأن الكل أعظم من الجزء .

ويستطرد ابن سينا قائلًا : إن النفس الناطقة جوهر قائم بذاته غير منطبع في بدن الإنسان ولا في غيره من الأجسام ، بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها وله علاقة ببدن الإنسان مادام حيًا ، وليس تلك العلاقة كتعلق الشيء بمحله ، بل كتعلق مستعمل الآلة بالآلة ، وهو حادث مع البدن لا قبله ، وليس يفسد بفساد البدن وموته بل يبقى كما كان إلَّا أنه تحصل له حالة تسمى عندما تنقطع علاقته عن البدن ، أي بعد انقطاع العلاقة بالموت ، سعادة ولذة أو شقاوة وألما .

وسعادته بتكميل جوهره وذلك بتزكيته بالعلم بالله والعمل لله ، وتزكيته بالعمل لله هو تطهيره عن الأخلاق الرذيلة الردية ، وتحليته بالعادات الحسنة ، والأخلاق الحميدة ، وأما تزكيته بالعلم بالله فتحصيل ملكة له ، بحيث يتهيأ لإحضار المعقولات كلها متى شاء من غير افتقار إلى اكتساب ، فتكون المعقولات كلها حاصلة له بالفعل أو بالقوة

القريبة غاية القرب من الفعل ؛ فتصير النفس كمرآة تنطبع فيها صورة الأشياء كما هي عليه من غير اعوجاج .

وفي نهاية هذه الرسالة يشير ابن سينا إلى أنه قد تبين في العلوم الطبيعية أن الأخلاق والعادات تابعة لمزاج البدن ، فمن استولى البلغم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم ، ومن استولت الصفراء على مزاجه استولى عليه الغضب ، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخلق ، وأن المزاج قابل للتبديل ، ومن ثم تكون الأخلاق قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة قد تضمنت بعض المفاهيم ذات الدلالة السيكولوجية ومنها مفهوم الذكاء Intelligence (ص ١٩٥) ، وذلك عند الحديث عن القوة المدركة للمعقولات (العقل) والتي يتميز بها الإنسان ، وكذلك مفهوم الأخلاق Morality (ص ١٩٧) . وتتصل الإشارة الخاصة بالعلاقة بين المزاج وكل من الأخلاق والعادات بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality ، كما تضمنت هذه الإشارة مفهوم تعديل السلوك Behavior - Modifiacation وبذلك تنتهي الرسالة الثالثة (ص ١٩٧) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

القانون في الطب [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء من القطع الكبير ، الجزء الأول يقع في ٤٨٣ صفحة منها مقدمة مختصرة بقلم المؤلف ، ثم موضوعات الكتاب وفصوله وأخيرًا فهرس مفصل ، وكذلك يقع الجزء الثاني في ٦٥٣ صفحة ويمضي على غرار الجزء الأول ، أما الجزء الثالث فيقع في ٤٧٣ صفحة ، ويسير فيه ابن سينا بنفس الطريقة التي أخرج بها الجزأين الأول والثاني ، ويقسم ابن سينا كلامه في كل جزء إلى فنون (الفن الأول أو الثاني وهكذا) ثم إلى تعاليم ، ويقسم التعاليم إلى فصول وجمل .

والكتاب كما يدل عليه اسمه كتابه في الطب ، وهو كتاب جامع عظيم الفائدة ، ونظرًا لارتباط علم النفس ، وخاصة علم النفس الإكلينيكي بالطب ، والطب النفسي والعصبي على وجه الخصوص ، فإن هناك موضوعات كثيرة مما ذكر في هذا الكتاب ، يمكن أن يكون لها جذور ، وتم تناولها في علم النفس بشكل أو بآخر ، ونظرًا لضخامة الكتاب الذي بين أيدينا (حيث يبلغ عدد صفحات أجزائه مجتمعة ١٦٠٩ صفحة) ، والتفصيلات الشديدة في تناول موضوعاته من ناحية ، وتناوله لموضوعات تخص بني البشر بالدرجة الأولى (الذين هم موضوعات علم النفس من جهة السلوك) من ناحية أخرى ، فإننا سننتقي منه ما كان متصلًا بعلم النفس اتصالًا مباشرًا أو غير مباشر ، وبنفس الترتيب الوارد في الأجزاء الثلاثة .

---

(١) ط جديدة عن ط بولاق . بيروت : دار صادر ، [د . ب] . ٣مج .

الجزء الأول :

الفن الأول من الكتاب الأول في حد الطب وموضوعاته من الأمور الطبيعية ويشتمل على ستة تعاليم .

ونقف في هذا الفن أمام التعليم الثالث وهو في الأمزجة ويتكون من ثلاث فصول ، وما يلفت أنظارنا هنا هو كلمة « المزاج » ، والتي تم تناولها في علم النفس تحت مسمى الخصال المزاجية Temperamental Characteristics أو سمات الشخصية Personality Traits غير أن ابن سينا يتناول بهذا المفهوم تناولًا عامًا فيقارن بين المتضادات كالبرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة ، وملاءمة كل من هذه الأمزجة للأعضاء ، وملاءمتها للأمم والشعوب ويبينّ أن لكل شخص مزاج لا يشاركه فيه أحد ، ونود أن نشير إلى أن كلمة المزاج عند ابن سينا وعند الأطباء والفلاسفة القدماء بعامة ، تشير إلى معنى يختلف كل الاختلاف عن معنى كلمة المزاج التي تستخدم حديثًا ترجمة للكلمة الإنجليزية Temperament التي تعني حاسية الفرد للمواقف الانفعالية وقابليته لإظهار التغيرات في حالته النفسية . أما المزاج عند ابن سينا ، وعند الأطباء بعامة ؛ فهو كيفية حاصلة عن تفاعل القوى الأولية في الأركان الأساسية للبدن وهي : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ولذلك يمكن أن يتكلم الأطباء عن مزاج البدن بأكمله أو عن مزاج عضو معين من أعضاء البدن فإذا انحرف عضو معين عن الاعتدال والتوازن ، بأن زادت حرارته أو رطوبته أو يبوسته أو برودته ، طرأت على هذا العضو بعض الأعراض المرضية (ص ٦ - ١٠) .

ويتحدث ابن سينا في الفصول من الحادي عشر إلى الرابع عشر عن الجملة الثانية من التعليم الخامس ، عن تشريح عضو الحنجرة ، وعضو الحلقوم ، وعضل العظم اللامي ، وعضل اللسان ، والمعلومات التي يقدمها في هذه الأجزاء تهم - دون شك - مجموعة غير قليلة من علماء النفس المحدثين الذين يعنون بدراسة سيكولوجية اللغة ، خاصة الجزء الخاص بالأصوات والكلام ، باعتبار أن هذه الأجهزة من مكونات الجهاز النطقي ، وذلك كمقدمة لدراسة إنتاج الأصوات الكلامية ، ودراسة عيوب النطق والكلام ، ثم الاهتمام بكيفية تقويمها (ص ٤٣ - ٤٥) .

وفي الفصول من السابع عشر إلى العشرين يحدثنا عن تشريح عضلات الحركة في العضد والساعد ، والرسغ ، والأصابع ؛ ويفرد الجملة الثالثة للحديث عن العصب ،

وتضم ستة فصول ، والفصل الثاني على وجه الخصوص يتحدث عن تشريح العصب الدماغي ومسالكه (ص ٥٤) . وفي هذا الجزء يتكلم ابن سينا بالتفصيل عن الجهاز العصبي ويشرح الأعصاب المختلفة الصادرة من الدماغ والواردة إليه ، وكذلك الأعصاب الصادرة من النخاع الشوكي والواردة إليه ، وإذا قارنا ما يقوله ابن سينا بما يقوله علماء التشريح والفسيولوجيا في العصر الحديث لوجدنا كثيرًا من التشابه ، مما يدل على معرفة ابن سينا الدقيقة بالجهاز العصبي (ط ١) ، (ص ٥٣ - ٥٨) [١] .

وينتقل بعد ذلك إلى التعليم السادس للحديث عن القوة والأفعال ويقسم القوى إلى قوة طبيعية وهي بدورها تنقسم إلى قوى طبيعية مخدومة ، وقوى طبيعية خادمة ، ثم القوى الحيوانية ، وبعدها القوى النفسية ؛ وتنقسم إلى قوى نفسية مدركة ، وتتكون من قوة مدركة في الظاهر وهي الحواس ؛ كالسمع والإبصار والشم ، والتذوق ، واللمس وقوة مدركة في الباطن ؛ ومنها القوة المفكرة والمتخيلة والناطقة ، وكذلك القوى النفسية المحركة ، وهي التي تشنج الأوتار وترخيها فتتحرك بها الأعضاء والمفاصل وتبسطها أو تثنيها وتنفذها في العصب المتصل بالعضل ؛ وأخيرًا يتحدث عن الأفعال ويركز حديثه على طلب الطعام والإخراج (وهي بعض الدوافع الأولية التي يهتم بها علماء النفس) وكلامه في القوى النفسية والأفعال هو كلام مباشر في علم النفس ، وقد تناوله بالتفصيل في كتابه « النفس » من أجزاء كتب « الشفاء » (ص ٦٦ - ٧٢) .

وبعد أن انتهى ابن سينا من الفن الأول انتقل إلى الفن الثاني وهو في ذكر الأمراض والأسباب ، والأعراض الكلية ؛ وينقسم إلى ثلاثة تعاليم ، أولها في الأمراض : أسبابها وأنواعها وأعراضها ، والحديث في المرض عمومًا يجد حيزًا لا بأس به في دراسات علم النفس سواء في علم النفس الإكلينيكي (الأمراض النفسية والعقلية) ، أو في علم النفس الطبي Medical Psychology (بعض الأمراض الجسمية ذات المترتبات النفسية كالسرطان ، والسكر ، والربو الشعبي وغيرها) وبالتالي فإن دارسي السلوك سيجدون في هذه الفصول فوائد جمة ، ومنافع عديدة (ص ٧٣ ، ٧٤) .

كما يحدثنا في الفصول من الثاني عشر إلى الرابع عشر عن موجبات الحركة والسكون والنوم واليقظة ، والحركات النفسانية ، وهي موضوعات درست في علم النفس الحديث بأشكال مختلفة ، ويمثل حديث ابن سينا فيها إسهامات مهمة مبكرة في هذا الصدد (ص ٩٣ - ٩٥) .

---

(١) وانظر أيضًا الإدراك الحسي عند ابن سينا للدكتور / محمد عثمان نجاتي .

وفي الجملة الثامنة من هذا التعليم يتحدث عن أسباب زيادة العظم والغدد ونقصها (ص ١٠٧) ، ومن المعروف أن علم النفس الفسيولوجي (أحد الفروع الأساسية لعلم النفس الحديث) يهتم بدراسة العلاقة بين المتغيرات السيكولوجية وبين المتغيرات العضوية الفسيولوجية ؛ ومن أهم موضوعاته العلاقة بين نشاط الغدد الصماء Endocrines وبين الحالات النفسية بوجه عام ، والحالات الانفعالية بوجه خاص ، ومن الثابت علميًّا أن اضطراب الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء (كالغدة الدرقية ، أو الغدة النخامية) بالزيادة أو النقص تؤدي بدورها إلى اضطرابات نفسية وسلوكية عديدة .

ويتابع ابن سينا حديثه في الأعراض ، فيحدثنا عن بعض العوارض النفسية ، ويذكر منها الغضب ، والغم ، والفزع ؛ وهي من أنواع الانفعال التي تدرس في علم النفس العام تحت مسمى الانفعالات Emotions (ص ١٣٤) . كما يفرد جزءًا خاصًّا للحديث عن الارتقاء والتربية ؛ والارتقاء يمثل أحد فروع علم النفس الحديث هو علم النفس الارتقائي الذي يركز على الوصف الدقيق لشكل الوظائف النفسية المختلفة ، وعلى مستوى أدائها في مراحل العمر المختلفة من الولادة (أو حتى من الحمل) إلى الشيخوخة (ص ١٥٠ - ١٥٨ ، ١٧٧ - ١٧٩) هذا بالإضافة إلى الأمراض التي تظهر في مرحلة الطفولة ، وتلك التي تظهر في مرحلة الشيخوخة ، والتي يشترك في دراستها علم النفس مع علوم أخرى كالطب النفسي ، والعصبي ، وطب الأطفال وغيرها (ص ١٥٤ ، ١٧٩) . وأما موضوع التربية فيمكن أن يقابل موضوع التنشئة الاجتماعية Socialization ، وهو أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس الاجتماعي ، وهي عملية تقوم بها المؤسسات الاجتماعية المختلفة ابتداء من الأسرة (ص ٦٧٠ ، ٦٧١) كعلاج انقطاع الصوت ، وبحة الصوت وخشونته وعلاجه ، والصوت القصير ، والصوت الغليظ ، والصوت الدقيق ، والمرتعش ، والمظلم الكدر ... إلخ .

ونحن نرى أن هذه الفنون الأربعة الأخيرة مجتمعة تشكل مبحثًا هامًّا لا غنى عنه لكثير من علماء النفس ، خاصة المعنيين بدراسة سيكولوجية اللغة ، سواء من حيث إدراك الكلام أو إنتاجه بالتعرف بداية على تركيب الجهاز السمعي والنطقي ، وكيفية خروج الصوت وطبقاته ، وانتقاله في الهواء على شكل موجات ، وحتى استقبال طبلة الأذن لهذه الموجات وإعطائها معنى ، كي تؤلف مفردات وجمل اللغة ، والمرحلة الثانية هي دراسة عيوب النطق ، واضطرابات الصوت ، والخلل في الكلام ، ثم كيفية تقويمها

وعلاجها (ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧٥ - ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ - ٢٢٨) .

الجزء الثالث :

وهذا الجزء يتكون من كتابين ، أولهما يختص ببقية الأمراض التي لم تُسير في الجزأين الأول والثاني ، والكتاب الثاني في الأدوية المركبة ، والفن السادس من الكتاب الأول يدور حول السموم ؛ كالسموم المعدنية ومنها الزئبق ، والرصاص ، والزرنيخ وغيرها والسموم النباتية والسموم الحيوانية المشروبة ، الطعام الفاسد ، والسموم الناتجة عن النهش ، واللدغ ، واللسع ، وعلاج كل نوع من هذه السموم ، ولعل اهتمام علماء النفس بهذا الجانب يكون من زاويتين (ص ٢١٧ - ٢٢١) .

الأولى : أن بعض هذه الأنواع من السموم تؤدي إلى أعراض نفسية وعقلية ، فيما يسمى بالذهان العضوي Organic Psychosis : وبرغم أن هذا الموضوع يعتبر من الموضوعات التي يهتم بها الأطباء النفسيون أساسًا ، فإن علماء النفس يتناولون بعض جوانبها في إطار تناولهم للأمراض النفسية والعقلية (أو العصابية والذهانية) سواء من حيث التعرف على أسبابها ، وأعراضها ، وطرق علاجها ومآلها ، وكيفية الوقاية منها . هذا بالإضافة إلى أن العمل في مجال الأمراض النفسية يقتضي التعاون بين فريق عمل Team Work يضم الطبيب النفسي ، والأخصائي النفسي الإكلينيكي والأخصائي الاجتماعي ، والممرضة ، وبعض التخصصات الأخرى .

أما الزاوية الثانية : فإن بعض ما يدخل الجسم من مواد سُمية تؤثر فيه وتؤدي إلى ظهور أعراض سلوكية واضطراب للوظائف النفسية ، وتتضح هذه النقطة أكثر من خلال ما يتناوله ابن سينا في الكتاب الثاني ، وأعني به الأدوية (أو العقاقير Drugs) فمن المعروف أن هناك بعض العقاقير التي يتم تعاطيها تعاطيًا غير مشروع (مثل المخدرات الطبيعية Natural Narcotics ، والكحوليات والعقاقير المخلقة Synthetic Drugs) . ويسبب هذا التعاطي أعراضًا نفسية وسلوكية عديدة - وهو ما بيّنته دراسات كثيرة ، قام بها علماء النفس ، وقد سبق أن أشرنا في تناولنا للأدوية المفردة ، أن علم النفس الفسيولوجي (أحد الفروع الأساسية لعلم النفس) يهتم من بين ما يهتم بالتغيرات الفارماكولوجية الناتجة عن دخول مواد ذات خصائص كيميائية معينة ، وبين التغيرات الحركية والحسية والعقلية المصاحبة ، وبالتالي فإن معرفة هذه العقاقير ، واستخدامها

الطبي أو غير الطبي لا يخلو من فائدة لعلماء النفس ، ولذلك فهم يعتنون به من هذه الزاوية التي أشرنا إليها .

أوجه الاستفادة من الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في فرعي علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ، وعلم النفس العصبي Neuropsychology .

* * *

الشفاء : الطبيعيات : ٦ - النفس [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣١٥ صفحة من القطع الكبير ويحتوي على فهرس الكتاب ، وتصدير بقلم الدكتور إبراهيم مدكور ، وتعريف بطبعات الكتاب ونشراته بقلم الأب قنواتي وكذلك المخطوطات المستعملة في التحقيق ، ومخطوطات كتاب النفس الموجودة في العالم ، كما يضم أيضًا مقدمة الفن السادس من الطبيعيات وهو كتاب النفس وبعد ذلك المقالات الخمس (كما سيأتي في العرض) ، وفي نهاية الكتاب يوجد معجم عربي لاتيني لأهم المصطلحات الفلسفية خاصة المتصلة بعلم النفس ، وفهرس بالفرنسية وترجمة بالفرنسية للتصدير وطبعات الكتاب ، والمخطوطات المستعملة في التحقيق ومخطوطات الكتاب الموجودة في العالم .

وسوف نعرض لهذه المقالات بنفس ترتيبها :

المقالة الأولى : المقالة الأولى في هذا الكتاب تحتوي على خمسة فصول ، وهي بعنوان : « من الفن السادس من الطبيعيات » ويدور الفصل الأول حول إثبات النفس وتحديدها من حيث هي نفس ، ويرى أن ذات النفس ليس بجسم ، بل هي جزء للحيوان والنبات ، وهي صورة أو كالصورة أو كالكمال ويجوز أن يقال لنفس قوة

---

(١) تصدير ومراجعة إبراهيم بيومي مدكور ، تحقيق الأب جورج قنواتي ، سعيد زايد . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٧٥م) . (٢٦١ ، [٢٢] ص) . يشتمل على نص بالفرنسية . يشتمل على كشاف بالعربي والفرنسي .

أو صورة ، ويصح أن يقال لها كمال ، ويؤكد أن القول في تعريف النفس إنها كمال أدل على معناها ، وهو يتضمن جميع أنواع النفس من جميع الوجوه ، وبالتالي فإن تعريف النفس بأنها كمال أولي من تعريفها بأنها قوة ؛ وذلك لأن الأمور الصادرة عن النفس ، منها ما هو من باب الحركة ، ومنها ما هو من باب الإحساس والإدراك (والإحساس والإدراك من موضوعات علم النفس الحديث ، ومعظم أجزاء هذا الكتاب تدور حولها) . والنفس - كما يرى ابن سينا - كمال أول ؛ ولأن الكمال للشيء ، فالنفس كمال الشيء ، وهذا الشيء هو الجسم ، ويجب أن يؤخذ الجسم بالمعنى الجنسي لا بالمعنى المادي ، ويستمر بعد ذلك في مناقشة وجود نفس للنبات والحيوان (ص ٥-١٣) .

ويخصص ابن سينا الفصل الثاني من هذه المقالة لذكر ما قاله القدماء في النفس وجوهرها ونقضه ، وقد اختلف الأوائل في جوهر النفس اختلافًا كبيرًا ، وربما كان ذلك ؛ لأنهم اختلفوا في المسالك إليه ، فمنهم من سلك إلى علم النفس من جهة الحركة ، ومنهم من سلك إليه من جهة الإدراك ، ومنهم من جمع بين المسلكين ، ومنهم من سلك طريق الحياة دون تفصيل ، وبعد أن يستعرض ابن سينا هذه الآراء ، ينتقدها ويخلص إلى أنها كلها باطل (ص ١٤ - ٢١) . ثم ينتقل إلى الفصل الثالث وهو بعنوان « أن النفس داخلة في مقولة الجوهر » ، وفيه يوضح أن النفس واحدة ، وأن لها قوى تنبعث عنها في الأعضاء ، ويتأخر فعل بعضها ويتقدم بحسب الاستعداد والنفس جامعة لقوى الإدراك واستعمال الغذاء ، كما أنها مكملة للبدن التي هي فيه ، وحافظة على نظامه ؛ فالنفس إذًا كمال لموضوع ، ذلك الموضوع متقوم به ، وهو أيضًا مكمل النوع وصانعه ، والخلاصة أن النفس ليست من الأعراض التي لا تختلف بها الأنواع ، ولا يكون لها مدخل في تقويم الموضوع ، وهي بذلك كمال كالجوهر ولا كالعرض (ص ٢٢ - ٢٦) .

أما الفصل الرابع فيركز على توضيح أن اختلاف أفعال النفس لاختلاف قواها ؛ فالنفس لها أفعال مختلفة ، يختلف بعضها بالشدة والضعف ، وبعضها بالسرعة والبطء (ص ٢٧) ، (وخاصة السرعة أو البطء Speed or Retardation من الخصائص المحددة للأداء البشري سواء كان حركيًا أم عقليًا أم إدراكيًا ، وقد نالت اهتمامًا كبيرًا في دراسات علم النفس الحديث) ، أو قد تختلف بالنسبة إلى أمور متضادة ؛ مثل الإحساس بالأبيض والأسود ، وإدراك الحلو والمر ، وقد تختلف بالجنس (إدراك اللون ، وإدراك الطعم) ، والقوى من حيث هي قوى إنما تكون مبادئ لأفعال معينة ، ويجوز أن تكون القوة الواحدة

مبدأ لأفعال كثيرة ، وبعد ذلك يقوم ابن سينا بتقسيم أفعال النفس إلى عدة أقسام ، وأولها يتكون من ثلاثة أفعال يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذية ، والتربية والتوليد ، وثانيها : أفعال تشترك فيها الحيوانات ؛ مثل : الإحساس والتخيل والحركة الإرادية ، وثالثها : أفعال تختص بالناس ؛ مثل تصور المعقولات واستنباط الحلول ، والروية في الكائنات ، والتفرقة بين الجميل والقبيح (ص ٢٧ - ٣١) .

والفصل الخامس والأخير من هذه المقالة في تعديد قوى النفس على سبيل المثال التصنيف ، ويبدأ بتقسيم القوى النفسية إلى ثلاثة أقسام ، أحدها النفس النباتية ، والثاني النفس الحيوانية ، والثالث النفس الإنسانية ، وللنفس النباتية ثلاث قوى هي : الغاذية ، والمنمية ، والمولدة ؛ أما النفس الحيوانية فلها قوتان هي : المحركة والمدركة ، والمحركة قسمان : إما محركة بأنها باعثة على الحركة ، وإما محركة بأنها فاعلة ؛ والقوة المدركة تنقسم قسمين : قوة تدرك من خارج ، وقوة تدرك من داخل ، والمدركة من خارج هي الحواس الخمس ، أما المدركة من داخل فبعضها قوى تدرك صور المحسوسات ، وبعضها تدرك معنى المحسوسات ، ومن المدركات ما يدرك ويفعل معًا ، ومنها ما يدرك ولا يفعل ، ومنها ما يدرك إدراكًا أوليًا ، ومنها ما يدرك إدراكًا ثانويًا (وكما سبق أن أشرنا ، يحدثنا ابن سينا حديثًا مفصلًا ومتعمقًا في الإدراك ولا يكتفي بذلك ، بل يقدم تحديدًا لمواضع المدركات في المخ Localization وهي جزء مهم من علم النفس العصبي Neuropsychology في الوقت الحاضر) . أما النفس الناطقة الإنسانية فتنقسم إلى قوة عاملة وقوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلًا باشتراك الاسم أو تشابهه ، والعاملة هي مبدأ محرك للبدن ليصدر الأفعال الجزئية (أو بمفاهيم علم النفس الحديث الاستجابات Responses التي تشكل السلوك Behavior وهو موضوع علم النفس على إطلاقه) ، والقوة العالمة توجه إلى المبادئ العالية العقول بالفعل وتسمى القوة النظرية ، ويلاحظ أن هذه القوى يرأس بعضها بعضًا ، ويخدم بعضها بعضًا ، والعقل هو رئيسها جميعًا وهي تخدمه (ص ٣٢ - ٤١) .

المقالة الثانية : وتتألف أيضًا من خمسة فصول ؛ أولها في تحقيق القوى المنسوبة إلى النفس النباتية ، ويستعرض القوى الخاصة بها ويعرفها قوة تلو أخرى من جهة أفعالها وفي الفصل الثاني من هذه المقالة ، يتحدث عن تحقيق أصناف الإدراكات التي لنا ، وهنا يتحدث عن الإدراك والحس والخيال والتخيل ، والوهم ثم يقارن بينهما ، ويفرق بين إدراك الحاكم الحسي ، وإدراك الحاكم الخيالي ، وإدراك الحاكم الوهمي ، وإدراك الحاكم

العقلي ، وانتهى إلى أن الإدراك أعم من الحس (ص ٥٠ - ٥٧) ، وبعد ذلك يبدأ في تفصيل حديثه عن أنواع الحواس ؛ ففي الفصل الثالث يخصص الحديث عن الحاسة اللمسية ، وهي أول الحواس الذي يصير بها الحيوان حيوانًا ، ويشرح لنا كيف نحس ، وكيف تنتقل الإحساسات من العصب إلى اللحم ، ولعل من أهم خواص اللمس أن جميع الجلد الذي يحط بالبدن حساس باللمس ولم يفرد له جزءًا منه ، ويتميز اللمس بالمباشرة أي ضرورة الاحتكاك المباشر بالجلد ، وذلك عكس الحواس الأخرى ، (ص ٥٨- ٦٣) .

ويفرد ابن سينا الفصل الرابع لحاستي الذوق والشم ، والذوق تالٍ للَّمس ، ومنفعته في الفعل الذي به يتقوَّم البدن ، وهو تشهية الغذاء واختياره ؛ أما الشم فإنه يثير الروائح من خلال الدلك ، وهو غير متاح لغيره ، فالإنسان أبلغ حيلة في التشمم من سائر الحيوانات الأخرى ، وفي بقية الفصل يفاضل بين الروائح في كيفية الشم ، ويقارن بين دور البخار ، والدخان ، والهواء في نقل الروائح (ص ٦٤ - ٦٩) . وفي الفصل الخامس والأخير من هذه المقالة يحدثنا عن حاسة السمع حديثًا مفصلًا ، ويرى أن الكلام عن السمع يقتضي الكلام عن الصوت وماهيته فيزيد الأمر تفصيلًا ، خاصة في الكلام عن الصدى (والكلام والسمع أحد مباحث علم اللغة ، وعلم اللغة النفسي ، خاصة علم الأصوات Phonology ، والعلاقة بين إنتاج الكلام Production ، وإدراكه Perception وهو من التيارات المعاصرة في علم النفس) ، ومن الملاحظ أن السمع يدرك التضاد الذي بين الصوت الثقيل والحاد ، وبين الصوت الخافت والجهير ، والأصلب والأملس ، والمتخل والمتكالف وغير ذلك ، وكل واحدة من هذه الإحساسات تحس لذاتها لا بسبب آخر (ص ٧٠ - ٧٦) .

المقالة الثالثة : فهي في الإبصار ويتألف كذلك من ثمانية فصول ، يناقش ابن سينا في الفصل الأول الضوء والشفيف واللون ، ويتحدث عن كيفية الاتصال الواقع بين الحاس والمحسوس البصري ، كما يفرق بين الضوء ، والنور ، والشعاع ، كما يفرق بين الأجسام من حيث الشفافية ؛ وهي قسمان : أحدهما ليس من شأنه الحجب ، والثاني من شأنه الحجب (ص ٧٩ - ٨٢) . وينتقل في الفصل الثاني ليتناول مذاهب وشكوكًا في أمر النور والشعاع وفي أن النور ليس بجسم ، بل هو كيفية تحدث فيه ، ويناقش بعض الآراء في هذا الصدد ويفندها (ص ٨٣ - ٨٧) . وزلف بعد ذلك إلى الفصل الثالث ويستأنف المناقشة في تمام مناقضة المذاهب التي تعترض على أن يكون النور شيئًا غير

اللون الظاهر بالإضافة إلى كلام عن الشفاف واللامع ، ويذكر بعض الآراء فيما يتعلق بالضوء واللمعان ، وعملية الإبهار وعلاقتها بالإبصار (ص ٨٨ - ٩٤) . أما في الفصل الرابع فهو في تأمل مذاهب قيلت في الألوان وحدوثها ويستعرض فيه الآراء الخاصة بتكون الألوان كالأبيض والأسود ، ويلخص رأيه في أن الألوان موجودات ، وليس وجودها لأنها أضواء فقط ، ولا الأضواء مظاهر لها ومع ذلك فلا يمكن أن تكون كما هي بالفعل بغير الأضواء (ص ٩٥ - ١٠١) ، وفي الفصول الخامس والسادس والسابع يتناول اختلاف المذاهب في الرؤية وإبطال المذاهب الفاسدة بحسب الأمور نفسها ، أو من الأشياء التي وردت في مذاهبهم ، ويختتم هذه المقالة بالفصل الثامن وهو في أسباب رؤية الشيء الواحد كشيئين ، ويحلل هذه الأسباب ويوضحها ، ويعطي الأمثلة . (وحديثه هنا يمس موضوعًا مهمًا تناولته تجارب علم النفس في موضوع الإدراك وهو « الخداعات Illusions » كخداع أرسطو ، وخداع موللر - لير ، وغيرها من الخداعات ؛ وهي عبارة عن إدراك حسي خاطئ لا ينطبق على حقيقة الشيء المدرك إذا قيس بطريقة موضوعية ، وبعض هذه الخداعات عامة بين الأفراد جميعًا ، ويعتبرها البعض من التنظيمات الفطرية للإدراك الحسي ص ١٣٢ - ١٤١) .

المقالة الرابعة : وهي في الحواس الباطنة ، وهي مقسمة إلى أربعة فصول ، ويحتوي الفصل الأول على كلام عام عن الحواس الباطنة لدى الحيوان ؛ ويعرف فيه الحس المشترك بأنه القوة التي تنتهي إليها المحسوسات كلها ، والقوة التي تسمى الحس المشترك ، وهي مركز الحواس ، ومنها تتشعب الشعب ، وإليها تؤدي الحواس ، وهي التي تحس . ثم يقارن بين مدرك الحس ، ومدرك الوهم ، ويوضح موضعها من الدماغ ؛ أما الفصل الثاني فهو في أفعال القوة المصورة والمفكرة من هذه الحواس الباطنة ، ويتحدث عن النوم واليقظة والرؤيا الصادقة والكاذبة ، وضرب من حواس النبوة ، ثم يفصل القول في القوة المصورة التي هي الخيال ، وهي آخر ما تستقر فيه المحسوسات ، وبعد ذلك يحاول الربط بين الحلم والمزاج (ص ١٥١ - ١٦١) ، (والحديث عن النوم واليقظة وما يرتبط بهما ، يدخل في بعض الدراسات الحديثة التي تنتمي إلى علم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology ، والمزاج كذلك ينتمي إلى دراسات الشخصية أو الجانب المزاجي منها) . وبعد الحديث عن القوة المصورة والمفكرة ، يتحدث في الفصل الثالث عن أفعال القوى المتذكرة والوهمية ، وفي أن أفعال هذه القوى كلها تتم بآلات جسمية ، كما تحدث عما بين القوة المتذكرة والمفكرة ، وتحدث في حال الوهم ، وفرق

بين الذكر والتذكر ؛ فيرى أن الذكر يوجد في سائر الحيوانات ، أما التذكر فلا يوجد إلّا في الإنسان ، ويتناول بعد ذلك التعلم والتذكر ويشرحها شرحًا وافيًا وكيف يختلف الناس فيهما ، وكيف يختلفون في مظنتهم للإشارات وفهمها ، وكيف يعرض مع التذكر الغضب والحزن والغم ، ثم يفرق في النهاية بين الرجاء والتمني (ص ١٦٢ - ١٧١) . ونجد هنا دروسًا مباشرة في موضوعات معاصرة من موضوعات علم النفس وهي موضوع التذكر أو الذاكرة Memory ، وعلاقتها بالتعلم Learning بالإضافة إلى الحديث عن الإشارات Signals وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي ، كما أن حديثه عن الغضب والحزن والغم يدخل في دراسة الانفعالات وهي إحدى موضوعات علم النفس العام ، ويتحدث ابن سينا في الفصل الرابع عن أصول القوى المحركة ، والقوى المدركة وقد سبقت الإشارة إليهما (ص ١٧٢ -١٧٨) .

المقالة الخامسة : والفصل الأول فيها عن خواص الأفعال والانفعالات التي للإنسان ، وبيان قوى النظر والعمل للنفس الإنسانية ، ويخصص الحديث هنا عن قوى الإنسان ؛ باعتبار أن للإنسان خواص أفعال تصدر عن نفسه ليس موجودة لسائر الحيوانات ، ومن هذه الخواص تصدر المعاني الكلية العقلية المجردة عن المادة والتوصل إلى معرفة المجهولات تصديقًا وتصورًا من المعلومات العقلية وهذه الأحوال والأفعال المذكورة هي مما يوجد للإنسان ، ويفرق في هذا الفصل بين الاعتقاد Belief ، والاتجاه Attitude ، والرأي Opinion ، وكلها موضوعات تدخل في صميم دراسات علم النفس الاجتماعي (ص ١٨١ - ١٨٦) . وفي الفصل الثاني يحاول إثبات أن قوام النفس الناطقة غير منقطع في مادة جسمية ، ويلخص ذلك بقوله : إن الإنسان فيه شيء وجوهر ما يتلقى المعقولات بالقبول ، والجوهر الذي هو محل المعقولات ، ليس بجسم ولا قائم بجسم على أنه قوة فيه أو صورة له ، ويشتمل الفصل الثالث على مسألتين : إحداهما كيفية انتفاع النفس الإنسانية بالحواس ، والثانية إثبات حدوثها ؛ فالنفس الإنسانية تستعين بالبدن لتحصيل هذه المبادئ للتصور والتصديق ، كما أن النفس الإنسانية لم تكن قائمة مفارقة للأبدان ، ثم حصلت في الأبدان ، فالنفس الإنسانية متفقة في النوع والمعنى ؛ لذا فوجودها ليس حادثًا مع حدوث في الأبدان ، بل هو وجود منفرد ، والنفس ليست واحدة ، فهي كثيرة بالعدد ونوعها واحد ، ويحاول في الفصل الرابع أن يبرهن على أن النفس الإنسانية لا تفسد ولا تتناسخ ؛ لأنها لا تموت بموت البدن ، وهي لا تفنى مطلقًا، وقد قدم ابن سينا في الفصل الخامس رؤيته في العقل الفعال في أنفسنا ، والعقل

المنفعل عن أنفسنا ؛ فالنفس الإنسانية قد تكون عاقلة بالقوة ، ثم تصير عاقلة بالفعل ، وتصور العقل يختلف بحسب وجود الأشياء ؛ فالأشياء القوية الوجود قد يقتصر العقل عن إدراكها لسيادتها ، والأشياء الضعيفة الوجود جدًّا كالحركة والزمان قد يصعب تصورها ؛ ولذا لا يتصورها العقل . وفي الفصل السادس يتناول مراتب أفعال العقل ويرى أن أعلى مراتبها هو العقل القدسي ، ويقدم ذلك من خلال مناقشة مستفيضة للعقل والمعقولات ، وتصورها ، ويحصي في الفصل السابع المذاهب الموروثة عن القدماء في أمر النفس وأفعالها ، وهل هي واحدة أو كثير وتصحيح القول الحق فيها وهذه المذاهب مختلفة ؛ فمن الناس من يرى أن النفس ذات واحدة ، وأنها تعقل جميع الأفعال بنفسها باختلاف الآلات والوسائل ، ومنهم من زعم أن النفس عالمة بذاتها تعلم كل شيء ، وإنما تستعمل الحواس والآلات المقربة للمدركات فيها لتنبه به لما في ذاتها ، ومنهم من يقول إن النفس ليست واحدة ، بل عدة ، وإن النفس التي في البدن ما هي إلَّا مجموع أنفس ؛ نفس حساسة داركة ، ونفس غضبية ، ونفس شهوانية (ص ٢٢١- ٢٣١) .

ويختتم ابن سينا هذه المقالة ، والكتاب بالفصل الثامن في بيان الآلات التي للنفس ؛ فالقوى النفسية البدنية مطيتها الأولى جسم لطيف نافذ في المنافذ ، روحاني ، ذلك الجسم هو الروح ، وتتعلق النفس بالقلب ، ثم تفيض قوى الأفعال الأخرى من القلب إلى الأعضاء الأخرى ، ويكون الدماغ هو الذي يتم فيه مزج الروح الذي يصلح لأن يكون حاملًا لقوى الحس والحركة إلى الأعضاء مما لا يصلح معه أن تصدر عنها أفعالًا ، وبعد ذلك يعدد القوى الدماغية كالبصر والشم ، والذوق ، والسمع واللمس ، ويحدد مواضعها في الدماغ فيرى أن مركز الحس في الأمام ، ومركز الحركة في مؤخرة الدماغ (ص ٢٣٢ - ٢٣٧) ، وهو هنا يقدم فصلًا مبكرًا في علم النفس العصبي Neuro - Psychology .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العام .

* * *

النجاة : مختصر الشفاء (1)

عرض : د . معتز عبد الله

عرض الكتاب :

يتكون الجزء الثالث من كتاب النجاة « مختصر الشفاء » من مقالتين يدور مضمونهما حول الحكمة الإلهية ، وهما ما نعرض لهما على النحو التالي ذكره :

المقالة الأولى من إلهيات كتاب النجاة : وفيها يريد المؤلف أن يحصر جوامع العلم الإلهي ، فيقول : إن كل واحد من علوم الطبيعيات وعلوم الإلهيات إنما يفحص عن حال بعض الموجودات ، وكذلك سائر العلوم الجزئية وليس لشيء منها النظر في أحوال الموجود والمطلق ولواحقه ومباديه ، فظاهر أن ههنا علمًا باحثًا عن أمر الموجود المطلق ولواحقه التي له بذاته ومباديه ، ولأن الإله تعالى على ما اتفقت عليه الآراء كلها ليس مبدأ لموجود معلول دون موجود معلول آخر بل هو مبدأ للوجود المعلول على الإطلاق فلا محالة أن العلم الإلهي هو هذا العلم ، فهذا العلم يبحث عن الموجود المطلق وينتهي إلى التفصيل حيث تبتدئ منه سائر العلوم فيكون في هذا العلم بيان مبادئ سائر العلوم الجزئية .

وقد اشتملت هذه المقالة على مجموعة من الفصول التي يحاول المؤلف خلالها إثبات فروضه في هذا الجانب ، فيبدأ بفصل في مساوقة الواحد للموجود باعتبار ما ، وأنه بذلك يستحق لموضوعية هذا العلم ، ثم يعرض للأعراض الذاتية والغربية ، ويبينّ أقسام الموجود وأقسام الواحد ، ثم يتناول كيفية إثبات المادة وبيان ماهية الصورة

---

(1) القاهرة : مصطفى المكاوي ، محيي الدين صبري الكردي (١٩١٣م) . (٥١٢ص) . نسخة مصورة .

الجسمية ، ويوضح بعد ذلك أن الصورة الجسمية مقارنة للمادة في جميع الأجسام عمومًا ، وأن المادة لا تتجرد عن الصورة ، ثم يعرض لإثبات التخلخل والتكاثف ، ويعرض لترتيب الموجودات ، ويبيِّن أن الكيفيات المحسوسة أعراض لا جواهر ، وأن الوَحدة من لوازم الماهيات لا من مقوماتها ، ثم يتناول أقسام العلل وأحوالها ، ويبيِّن أن علة الحاجة إلى الواجب هي الإمكان لا الحدوث على ما يتوهمه ضعفاء المتكلمين ، ثم يعرض لمعاني القوة والاستطراد لإثبات الدائرة والرد على المتكلمين .

ويختتم المؤلف المقالة بمجموعة أخرى من الفصول التي يعرض فيها للقديم والحديث ، وأن كل حادث زماني فهو مسبوق بالمادة لا محالة ، وكيفية الحدوث الذاتي ، وأنواع الواحد والكثير .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي ترتبط بمضمون هذه المقالة هي : بنية الجسم Constitution (ص ٣٢٧ - ٣٣٠) ، ومفهومي الزمان والمكان (ص ٣٢٩ - ٣٤٠) ، والعلية Causality (ص ٣٤٣ - ٣٤٧) ، والقوة Power (ص ٣٤٩ - ٣٥٢) .

المقالة الثانية من الإلهيات : وتشتمل على مجموعة من الفصول يتناول المؤلف فيها بيان معاني الواجب ومعاني الممكن ؛ فالواجب الوجود هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال ، وأن الممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود أو موجود لم يعرض منه محال ، والواجب الوجود هو الضروري الوجود والممكن الوجود هو الذي لا ضرورة فيه بوجه أي لا في وجوده ولا في عدمه ، ثم يوضح المؤلف في الفصل التالي لذلك أن الواجب بذاته لا يجوز أن يكون واجبًا بغيره ، وأن الواجب بغيره ممكن ، فلا يجوز أن يكون شيء واحد واجب الوجود بذاته وبغيره معًا ، وأن ما لم يجب لم يوجد .

ويعرض المؤلف بعد ذلك لفصل في كمال وحدانية واجب الوجود وأن كل متلازمين في الوجود متكافئين فيه علة خارجة عنهما ، فلا يجوز أن يكون اثنان يحدث منهما واجب وجود واحد ولا أن يكون في واجب الوجود كثرة بوجه من الوجوه ولا يجوز أن يكون شيئًا اثنان ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا وكل واحد منهما واجب الوجود بذاته وبالآخر ، ويلي ذلك فصل في بساطة الواجب ، وفصل في أن الواجب تام وليس له حالة منتظرة ، وأن واجب الوجود بذاته خير محض وكمال محض ، وأن واجب الوجود بذاته حق بكل معاني الحقيقة ؛ لأن حقيقة كل شيء خصوصية وجوده الذي

يثبت له فلا حق إذا أحق من الواجب الوجود ، كما أن نوع واجب الوجود لا يقال على كثيرين ؛ إذا لا مثل له ولا ضد ، فلا يجوز أن يكون نوع واجب الوجود لغير ذاته ؛ لأن وجود نوعه له بعينه إما أن تقتضيه ذات نوعه أو لا تقتضيه ذات نوعه بل تقتضيه علة فإن كان معنى نوعه لم يوجد إلّا له وإن كان لعلة فهو معلول ناقص وليس واجب الوجود .

ويأتي بعد ذلك فصل في أنه واحد من وجوه ، وفصل آخر في البرهان على أنه لا يجوز أن يكون اثنان واجبي الوجود ، أي أن الوجود الذي يوصف به ليس هو لغيره وإن لم يكن من جنسه ونوعه ، ويلي ذلك فصل في إثبات واجب الوجود ، وفصل في أنه لا يمكن أن يكون من جنسه ونوعه ، ويلي ذلك فصل في إثبات واجب الوجود ، وفصل في أنه لا يمكن أن يكون الممكنات في الوجود بعضها علة لبعض في سبيل الدور في زمان واحد وإن كانت عددًا متناهيًا ، وفصل آخر في التجرد لإثبات واجب الوجود ، وبيان أن الحوادث تحدث بالحركة ولكن تحتاج إلى علل باقية وبيان أن الأسباب القريبة المحركة كلها متغيرة ، وفصل في إثبات انتهاء مبادئ الكائنات إلى العلل المحركة لحركة مستديرة .

ويأتي بعد ذلك فصل في أن واجب الوجود بذاته عقل وعاقل ومعقول وعاشق ومعشوق ولذيذ ومتلذذ وأن اللذة هي إدراك الخير الملائم ، وفصل آخر في أن واجب الوجود كيف يعقل الأشياء ، وفصل في تحقيق وحدانية الأول بأن علمه لا يخالف قدرته وإرادته وحياته في المفهوم بل ذلك كله واحد ولا تتجزأ لأحد هذه الصفات ذات الواحد الحق ، وفصل في صدور الأشياء عن المدبر الأول ، وفصل في إثبات دوام الحركة بقول مجمل ، ثم بعده بقول مفصل .

ويأتي بعد ذلك فصل في أنه لا يجوز تعليق أحداث العالم بمجيء وقت ، وفصل آخر في أنه يلزم على قول المخالفين أن يكون اللّه تعالى سابقًا على الزمان والحركة بزمان ، وفصل آخر في أن المخالفين يلزمهم أن يضعوا وقتًا قبل وقت بلا نهاية وزمانًا ممتدًّا في الماضي بلا نهاية وهو بيان جدلي إذا استقصى مال إلى البرهان ، وفصل في أن الفاعل القريب للحركة الأولى نفس لا عقل ، وأن حركة السماء مع أنها نفسانية كيف يقال إنها طبيعية .

ويأتي بعد ذلك فصل في أن المحرك الأول كيف يحرك وأنه محرك على سبيل

التشويق إلى الاقتضاء بأمره الأولي ، لاكتشاف تشبه بالعقل ، وفصل آخر في أن لكل فلك جزئي محركًا أولًا مفارقًا قبل نفسه يحرك على أنه معشوق ؛ فإن المحرك الأول للكل مبدأ لجميع ذلك ، وفصل آخر في إبطال رأي من ظن أن اختلاف حركات السماء لأجل ما تحت السماء ، وفصل في أن المعشوقات التي ذكرنا ليست أجسامًا ولا أنفس أجسام ، وفصل في ترتيب وجود العقول والنفوس السماوية والأجرام العلوية ، وفصل آخر على إثبات العقل المفارق ، وفصل في طريق ثالث للبرهنة على العقول المفارقة ، وفصل في كيفية تكون الإسطقسات عن العلل الأول ، وفصل في العناية وبيان دخول الشر في القضاء الإلهي ، وفصل في معاد النفس الإنسانية .

ويختتم المؤلف هذه المقالة بفصلين : أحدهما في المبدأ والمعاد بقول مجمل ، وفي الإلهيات والدعوات المستجابة والعقوبات السماوية وذكر الأحوال ، والثاني في إثبات النبوة وكيفية دعوة النبي إلى اللّٰه والمعاد

● ويرتبط مضمون المقالة السابقة بمجموع المفاهيم السيكولوجية هي : مفهوم العلية Causality (ص ٣٨٦ - ٣٩٧) ، والعقل Mind (ص ٣٩٨ - ٤٠٠) . و (ص ٤٥٦ - ٤٥٨) . واللذة (ص ٤٠٠ - ٤٠٢) ، والإدراك (ص ٤٠٠) ، والإدراك الزمني Time perception (ص ٤١٩ - ٤٢٠) والنفس (ص ٤٧٧ - ٤٩٠) ، والانفعالات (وخاصة السعادة) (ص ٤٧٨ - ٤٩٠) .

* * *

الإشارات والتنبيهات (١)

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود

عرض الكتاب :

يصف « ابن سينا » كتابه هذا بأنه « إشارات إلى مطالب هي الأمهات ، وتنبيهات على مباحث هي المهمات » (ص١١١) ، لذلك يتسم بالإيجاز الشديد ، على أساس أن كتبه الأخرى (مثل : الشفاء والحكمة المشرقية والأدوية القلبية) تتناول هذه المطالب والمباحث بالتفصيل الشديد والمطلوب ؛ لذلك يأتي تصنيفه للكتاب مختلفًا ، فالكتاب مكون من جزأين – وهناك جزء ثالث غير منشور – يختص الأول بالمنطق وهو مقسم إلى عشرة أنهاج (نهج) أي أبواب ، كل نهج مكون من عدة فصول ، ويختص الثاني بـ « الطبيعة » ومقسم إلى ثلاثة أنماط .

ويبدأ « ابن سينا » كتابه بالكلام عن المنطق لأهميته كآلة تعصم الفكر من الخطأ (ص ١١٥) ، فيبيِّنُ في نهجه الأول – المكون من ستة عشر فصلًا (ص ١١٧ – ١٨٦) – طرق النظر إلى معاني الألفاظ التي هي صور يصاغ فيها الفكر ، مبينًا العلاقة بين اللفظ والمعنى (ص ١٣٠) ، خصوصًا في ظل الاحتياج الشديد لمعرفة المعاني للألفاظ المفردة حتى يمكن التأليف بينها على أساس التصور والتصديق ، وكذلك التعلم والاكتساب بمعرفة مجهول من معلوم من خلال القياس (ص ١٣٣ – ١٣٦) ، لذلك

---

(١) تحقيق سليمان الدنيا . (ط ٣) . القاهرة : دار المعارف ، [د . ب] . ج١ في (٥١٨ ص) – (ذخائر العرب ، ٢٢) ، مع شرح لنصر الدين الطوسي . (ج ٢) نشر دار إحياء الكتب العربية .

بدأ (ص ١٣٨) بتعريف الألفاظ ، المفرد منها والمركب (ص ١٤٣) ، الجزئي منها والكلي ، (ص ١٤٩) الذاتي منها والعرضي (ص ١٥١) ، ودلالتها على المعاني .

كما يبيِّنُ نهجه الثاني - المكون من أحد عشر فصلًا تحتويها الصفحات (١٨٧ - ٢٢١) - كلًّا من الرسم والحد والجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام .

ثم ينتقل حديثه في النهج الثالث - المحتوي على عشرة فصول (ص ٢٢٢ - ٢٥٩) - إلى القضايا الخبرية التي تحتمل الصدق والكذب مبينًا أشكالها وأنواعها التي تتبع شكل العلاقة بين الموضوع والمحمول وصفاتهما .

ثم يتحدث نهجه الرابع - ويشتمل عشرة فصول من (ص ٢٦٠ - ٢٩٨) - عن كيفية تركيب القضية وشروطها . أما نهجه الخامس - (ص ٢٩٩ - ٣٤٠) - فيتحدث عن شكل التناقض بين القضايا وأسبابه وطرق عكس القضايا ، منتقلًا بعد ذلك في نهجه السادس - (ص ٣٤١ - ٣٦٤) إلى الحديث عما يصدق في القضايا ، والإشارات النفسية في هذا الجزء تتركز في النهج ، ففي (ص ٣٤٢) يتحدث ابن سينا عن المعتقدات Beliefs وأنواعها باعتبارها أحكام يصدرها العقل على الأشياء فإذا كان الحكم مطابقًا لما في الخارج فهو معتقد واجب القبول ، إذا لم يكن فهو من الوهميات أو المشهورات .

وفي (ص ٣٤٥) يتحدث عن أسباب الفروق الفردية فيقول : « فهي إما لنقصان الغريزة كما يكون للبله أو الصبيان ، أو بتدنيس الفطرة بالعقائد المضادة للأوليات كما يكون لبعض العوام والجهال » .

وفي (ص ٣٤٦) يؤكد معنى الإدراك الحسي عنده بأنه إضفاء معنى على المحسوسات ، وذلك عندما يعرِّف المشاهدات « القضايا التي إنما نستفيد التصديق بها من الحس ؛ مثل حكمنا بوجود الشمس وكونها مضيئة ، وحكمنا بكون النار حارة » .

ويؤكد في (ص ٣٦٣) أن الناس يسلكون في ضوء معلوماتهم ، فيقول : « أكثر الناس يقدمون أو يحجمون على ما يفعلونه وعما يذرونه إقدامًا وإحجامًا صادرًا عن النحو (يقصد « الميل والظن ») من حركة النفس » .

وابتداء من المنهج السابع - (ص ٣٦٥) - يفصل ابن سينا الكلام عن تركيب الحجج أو القياس - الاقتراني والاستثنائي - والاستقرار والتمثيل ، فيصنف القضايا التي تتشكل منها الحجج ، ويستطرد حديثه - في النهج التاسع - إلى أنواع البرهان وأهميته

الناتجة عن غلط في القياس لعدم شروطه السابق توضيحها على مدار هذا الجزء من « الإشارات » .

يقسم ابن سينا الجزء الثاني من الإشارات إلى ثلاثة أنماط - أو أبواب - يتناول أولها والمشتمل على اثنتي عشر مسألة أو فصل من (ص ١٣ - ١٣١) - حقيقة الأجسام ناقضًا الآراء التي سبقته حولها ، والخاصة بعدم قابلية الجسم للتجزئة ، موضحًا أن الجسم مؤلف من أجزاء ، أي أن له امتدادًا ويقبل الانقسام لكنه يدرك ككل ، ولذلك ينتقل إلى الحديث عن المقدار ، فما دام الجسم يقبل الانقسام ، فمعرفة المقادير ضرورية (ص٢٩) موضحًا أحكام هذه المقادير (ص ٩٥) وامتناع تداخلها (ص ١١١) ، وطالما هناك أجسام متعددة ومقادير مختلفة ، فهناك جهات (ص ١٢٢) ، (أمام وخلف ، شمال ويمين ...) مختلفة .

ويفصل في النمط الثاني - المكون من خمس عشرة مسألة (ص ١٣٢ - ٣٠٤) - الحديث عن هذه الجهات ، مؤكدًا أنها نسبية طبقًا لحركة الجسم ، مبرهنًا على أن للجهة وجودًا محسوسًا يعتمد على اتجاه الحركة ونهايتها ، والكلام عن الجهات وأنواع الحركات ينتهي بالكلام عن الفلك وكيفية حركة الأجسام الفلكية .

ويفرد ابن سينا أكثر من مائة وأربعين صفحة - هي مجموع صفحات النمط الثالث بمسائله الاثنتي عشر - للحديث عن النفس الإنسانية وكيفية إدراك الموجودات ، موضحًا علاقة ما يدركه الفرد بسلوكه إزاء الموضوع المدرك ، وعارضًا لنظرية في اكتساب المعرفة وارتقاء هذا الاكتساب .

وفي هذه الصفحات نرى ابن سينا علام نفسي معاصر ، لا تختلف آراؤه عن المبادئ النفسية المستدل عليها واقعيًا وتجريبيًا ، فنراه يشير إلى معنى النفس في أكثر من موضوع (الصفحات ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٤٠٥ ، ٤٤٦) ويقصد بها « الذات » وهي غير البدن وغير مزاج البدن ؛ إنما هي الحركة والإرادة التي هي انفعال وتأثير .

ومن هذا المعنى « للنفس » يطور « ابن سينا » نظرية في السلوك لا تقل في صياغتها ودقتها عن النظريات النفسية المعاصرة ؛ فالسلوك عنده - وعند علماء النفس المعاصرين - معرفي المنشأ ، أي عبارة عن معلومات تلقاها الفرد وعالجها معالجة خاصة أدت إلى إصدار ضرب سلوكي معين ، يقول « ابن سينا » ، (ص ٣٣٠) : « وإذا أحسست بشيء من

أعضائك شيئًا أو تخيلت (يقصد معلومات عن طريق الحواس أو الخيال) أو اشتهيت أو غضبت (انفعال) ألقت العلاقة التي بين النفس وبين فروعها (القوى الغضبية والشهوية ...) هيأة فيه ، حتى تفعل بالتكرار ، إذعانًا ما ، بل عادة وخلقًا يتمكنان من النفس » . يقصد أن المعرفة تؤدي إلى انفعال يترتب عليه سلوك ، إذا تكرر أصبح عادة ، ويفصل هذا المعنى عازم مجمع مذعًا ومنفعلًا عن خيال أو وهم أو عقل ، تنبعث عنه قوة غضبية دافعة للضار أو قوة شهوية حالية ، للضروري أو النافع .... فيطيع ذلك ما انبث في العضل من القوى المحركة ... أي معلومة تحدث في النفس انفعالًا يترتب عليه سلوك استجابة لأمر هو العزم أو النية ، وقد قال ذلك صراحة حينما قال : « خير النية ما ينفرج عن جناب علم » ، (انظر : الجزء الأول ص ٩٩) .

ولأهمية المعرفة والمعلومة أفرد « ابن سينا » قسمًا كبيرًا لتوضيح كيفية اكتسابها عارضًا لنظريته في تطور القوة العقلية النظرية أو العقل النظري ، وهي نظرية متكاملة عن التفكير الإنساني وعملياته المختلفة ، بادئًا بالحديث عن « الإدراك » Perception أي العملية النفسية الأولى بعد الإحساس Sensation ، فيعرفه (ص ٣٣٣) « إدراك الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلة عند المدرك شاهدها ما به يدرك » ويفصل المعنى (ص ٣٣٥) « أو تكون مثال حقيقته مرتسمًا في ذات المدرك » .

ويقسم ابن سينا المدركات إلى مراتب على أساس بعد العيانية - التجريد (ص٣٣٨ - ٣٣٩) . فمنها الحسي « الشيء قد يكون محسوسًا عندما يشاهد » ، ثم خيال ، « ثم يكون متخيلًا عند غيبته » ، ثم عقل ، « وقد يكونٍ معقولًا عندما تتصور معي الإنسان في زيد أو غيره » . وارتبط هذا التقسيم بما يقوله علماء النفس المعاصرون من أن الإدراك يتضمن عمليات حسية ورمزية وانفعالية .

ويشير « ابن سينا » إلى تأثير عدة عوامل في عملية الإدراك ؛ مثل : حركة الجسم (ص ٣٤٦) ، « أليس قد تبصر القطر النازل خطًا مستقيمًا والنقطة الدائرة بسرعة خطًا مستديرًا » ، والخبرة السابقة المتعلمة (ص ٣٥١) « فإن الحيوانات - ناطقها وغير ناطقها - تدرك من المحسوسات الجزئية معاني جزئية غير محسوسة ولا متأدية من طريق حواس ؛ مثل إدراك الشاه معنى في الذئب غير محسوس » .

ويشير « ابن سينا » إلى عمليات معرفية أخرى (ص ٣٨٩ - ٤٩١) مثل التعلم أو الاكتساب والذاكرة والنسيان ، « وأنت تعلم أن شعور القوة بما تدركه هو ارتسام

صورته فيها (إدراك) .. فإذا زالت زوالًا ما (نسيان) قد يكون عنها وعن قوة أخرى إن كانت كالخزانة لها (ذاكرة) هنا لا تعود للوهم إلَّا بتجشم كسبٍ جديد (إعادة تعلم) ، أو تزول عنها زوالًا ما ، وتنحفظ في قوة أخرى هنا قد تعود وتلوح له بمطالعة الخزانة والالتفات إليها من غير تجشم كسب جديد » .

ويقدم « ابن سينا » تصورًا للنفس الإنسانية العاقلة (أي القادرة على اكتساب المعرفة) حيث يرى أن هناك جانبين لهما :

١ - العقل العملي المختص - بالاستعانة بالعقل النظري - بفعل الأمور الإنسانية الجزئية .

٢ - العقل النظري ويختص بتكميل جوهر النفس عن طريق تلقي العلوم والحقائق ، وهذا العقل النظري متضمن قوى هي :

أ - استعداد مطلق لتقبل المعرفة ويسميه « عقلًا هيولانيًا » ويشبه بالمشكاة التي وردت في الآية الكريمة (ص ٢٤ - ٣٥) .

ب - تهيؤ لاكتساب المعرفة إما بالفكر ، أي القياس ويشبهه « بالشجرة الزيتونة » أو بالحدس ويشبهه « بالزيت » ، وهذا التهيؤ يسميه « عقلًا بالملكة » ويشبهه « بالزجاجة » .

ج - ثم يحصل لها بعد ذلك قوة وكمال ؛ فأما الكمال فإن تحصيلها المعقولات بالفعل مشاهدة متمثلة في الذهن ، ويسميه « العقل المستفاد » ويشبهه « نور على نور » وأما القوة فأن يكون لها أن تحصل المعقول المكتسب المفروغ ، ويسميه « العقل بالفعل » ويشبهه « بالمصباح » ، (ص ٣٥٦ - ٣٧٥) ، والذي يخرج من الملكة إلى الفعل التام ، ومن الهيولاني « والعقل الفعال » وهو « النار » (ص ٣٧٧) .

ويجب أن يكون هناك اتصال بين هذه المكونات حتى تكتسب النفس المعرفة بالحقائق الكونية .

وقد تتسق بعض هذه المكونات (التي أوردها ابن سينا في الصفحات ٣٦١ - ٤٠٠ من الجزء الثاني) مع عمليات نفسية أثبتتها البحوث الحديثة وقد يكون بالقياس أو التحصيل كما يرى السلوكيون ، ويظل هذا التصور لابن سينا قائمًا طالبًا إجراء المزيد من البحوث .

ويقدم ابن سينا في الصفحات (ص ٣٥٣ - ٣٥٨ من الجزء الثاني) إرهاصًا بعلاقة

المخ بالعقل ، وعلاقة مكونات أو أجزاء من المخ بعمليات عقلية ذهنية ، حيث يقسم الرأس إلى ثلاثة تجاويف : الأول يتعلق مقدمه بالحس المشترك ومؤخره بالخيال ، والأوسط هو مركز « الوهم » أو « التخيل » و « التركيب » و « التفصيل » ، أما التجويف الثالث فيختص بالذاكرة .

وأخيرًا يشير - (ص ٣٨٦) - إلى ظاهرة « الفروق الفردية » بقوله : « ألست تعلم أن الناس مراتب (في الحدس والتفكير) فمنهم غبي ، ومنهم من له فطانة إلى حدٍّ ما ... ومنهم من هو أثقف من ذلك ... وتلك الثقافة غير متشابهة في الجميع ، بل ربما قلّت وربما كثرت » .

وفي نهاية كتابه ، وكلما بدأ بالحديث عن الأجسام الفلكية ، ختم به في تكملة النمط الثالث من خلال أربع مسائل من الصفحات (٤٤٣ إلى ٤٦١) - مقارنًا بين الحركات الفلكية والحركات النفسانية الإدارية ، معتبرًا حركات الأفلاك حركات غرادية ومقسمًا الإرادة إلى إرادة حسية وأخرى عقلية .

* * *

رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها (١)

عرض : د . معتز سيد عبد الله

ثانيًا : عرض الرسالة :

تتكون رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها من ثلاثة فصول وخاتمة ، نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن :

فنقول : المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد بقوله : « أنا » وقد اختلف أهل العالم في أن المشار إليه بهذا اللفظ هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره ، أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، وكل أحد فإنما يشير إليه بقوله : « أنا » فهذا خطأ ، والقائلون بأنه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال إنه غير جسم ولا جسماني بل هو جوهر روحاني فاض على هذا القالب وأحياه واتخذه إله في اكتساب المعارف والعلوم حتى يستكمل جوهره بها ويصير عارفًا بربه عالمًا بحقائق معلوماته فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرته ويصير ملكًا من ملائكته في سعادة لا نهاية لها ، وهذا هو مذهب الحكماء الإلهيين والعلماء الربانيين ، ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهية .

وقد قدم المؤلف ثلاثة براهين على صحة هذا المذهب ، ويرتبط مضمون هذا الفصل

(١) نشرها وعلق عليها محمد ثابت أفندي . القاهرة : المعلق ، [د . ب] . (١٦ ص) . نسخة مصورة .

بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي النفس Psycle (ص ٦ - ٩) ، ومفهوم بنية الجسم Constitution ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٦ - ٩) ، والإدراك الحسي Perception (ص ٨) .

الفصل الثاني : في بقاء النفس بعد بوار البدن :

يوضح المؤلف أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن ، بل هو باقٍ لبقاء خالقه تعالى ؛ وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن ؛ لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه ، والبدن منفصل عنه تابع له ، فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده ، وإذ البدن موجود باق بعد الموت فلأن لا يُضر وجود النفس وبقاؤه كان أولى ؛ ولأن النفس من مقولة الجوهر ، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض ؛ لأنه لا يتم وجودها بموضوعها ، بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه ، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي النفس (ص ٩ ، ١٠) ، وبنية الجسم (ص ٩ ، ١٠) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٩ ، ١٠) .

الفصل الثالث : في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان :

يوضح المؤلف في هذا الفصل أن النفس الإنسانية لا تخلو من ثلاثة أقسام : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم والعمل ، وإما أن تكون ناقصة فيهما ، وإما أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر ، وهذا القسم الثالث على قسمين : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل أو بالعكس ، فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى ثلاثة كما ورد في القرآن : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة : ٧- ٩] ، ثم قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠، ١١] ، ويشير هذا الفصل إلى تفاوت النفوس في مقدار كمالها في العلم والعمل ؛ فمنها ما هو كامل في العلم والعمل ، ومنها ما هو ناقص في العلم والعمل ، ومنها ما هو ناقص في أحدهما فقط .

خاتمة الرسالة :

وذكر المؤلف فيها العوالم الثلاثة التي هي : عالم العقل ، وعالم النفس ، وعالم الجسم وترتيب الوجود من لدن الحق الأول إلى أقصى مراتب الموجودات على الترتيب

النازل من عنده تعالى ؛ ليكون الناظر في هذه الرسالة مطلعًا على مجمل من أجناس المخلوقات وشطر من أنواعها ، ويرتبط مضمون خاتمة الرسالة بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي العقل Mind (ص ١٢ - ١٦) ، والنفس (ص ١٢ - ١٦) ، وبنية الجسم (ص ١٢ - ١٦) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ١٢ - ١٦) ، وقيمة العدالة (ص ١٤ ، ١٥) ، والانفعالات ، والدافعية (ص ١٢ - ١٦) .

* * *

دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمود خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على سبع مقالات نعرض لها على النحو الآتي :

المقالة الأولى : في تعديد أنواع الخطأ : ويتحدث فيه عن الصحة وأنها تابعة لاعتدال المزاج واستواء التركيب ، وحفظ الصحة يكون بتعديل أمور واجتناب أمور ، أما تعديل الأمور فتعديل الهواء والطعام والشراب ، والحركة ، واليقظة والنوم ، وتعديل الحركة النفسانية ، وأما اجتناب ما يكسر ويقطع ويخمد ويحرق ويعفن ... إلخ .

ويرتبط ما ورد في هذا الفصل بمفهوم الصحة الجسمية والنفسية (ص ٣٢٢) والطرق إلى الوقاية وتعديل السلوك ، كما يرتبط أيضًا بمفهوم المزاج Mood والحالة الانفعالية للفرد .

ثم تحدث بعد ذلك تفصيلًا عن تعديل الهواء ، وقسمه إلى الهواء العام ، والهواء الخاص ؛ أما العام فهو الهواء المشترك ، والخاص هو الحمام ، ثم تحدث بعد ذلك عن تعديل الطعام ، والمناسب منه ، وعمليات الهضم وما إلى ذلك ، وكذلك تحدث عن تعديل الماء من حيث الطعم والرائحة ... إلخ ، ويرتبط ما ورد في هذا الجزء بمفهوم الغريزة Instinct والانفعالات Emotions والدوافع الأولية (الجماع) ، (ص ٩) . كما تحدث المؤلف عن تعديل النوم واليقظة ، ويرتبط ما ورد من حديث علماء النفس

---

(١) القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٨٨٨ . ٦٨ ورقة . مع : منافع الأغذية ودفع مضارها / لأبي بكر الرازي .

عن الظروف والعوامل الجسمية والبيئية وعلاقتها بالحالة الانفعالية (ص ١٣) .

المقالة الثانية : في الهواء المسخن للقلب : وأنه يخلخل الجلد ، ثم هو مكثف له مهيئ لعفونة المرار والرعاف والصداع والحميات الحادة قليل الضرر للأبدان التي مزاجاتها الطبيعية حادة أو مزاجاتها الخارجة عن الطبيعة باردة كثيرة الضرر لمن هو بالصدر وللاجتراس منه بالاكتنان منه والمخامر وغير ذلك ؛ وأما الأبدان الحارة اليابسة المهزولة فيعرض لهم من ذلك حمى عفونة وربما عرض لهم الدق والصداع والرعاف . وأما أصحاب الأبدان الباردة الرطبة فيعرض لهم صداع لين وضيق نفس وضعف المفاصل وتعذر الحركة ، ثم ذكر علاج ؛ مثل هذه الحالات من خلال وصفه لبعض الأساليب أو الطرق الشعبية « أو الوصفات » السائدة .

المقالة الثالثة : في الحمام (في مضار الحمام) : تتحدث عن تعديل هواء الحمام ؛ فيكون ليس شديد الحرارة ولا بارد يتعذر فيه العرق ، ويرتبط ما جاء في هذه المقالة بمفهوم المزاج Mood (ص ٣٦) .

المقالة الرابعة : (في مضار الإكثار من الطعام والامتلاء) : وتحدث فيها عن أضرار الإكثار من الطعام ؛ كإنهاك القوى الجسمية والربو والحميات والعفونة وعرق النسا ، والنقرس وأوجاع المفاصل ... إلخ ، كما تحدث أيضًا عن أضرار الإقلال من الطعام وما يترتب عليه من ضعف عام وأمراض تلحق بالإنسان .

المقالة الخامسة : في الماء والمشروبات ، وإكثار شرب المشروبات : وأنه له ثلاثة أضرار ، أحدها أنه يضعف الحرارة الغريزية في الأعضاء ، والثاني أن القوة المميزة في الكبد تضعف عن تمييز المائية عن الدم ، والثالث يسهل الطعام ويحدره قبل الوقت .

ويرتبط ما ورد في هذه المقالة بالأمراض النفسية والجسمية (أو السيكوسوماتية) Psychomatic Diseases (ص ٥٤) .

المقالة السادسة : في الحركات : فالحركات الكثيرة من مضارها الأولى التعفين ونقل المواد الرديئة إلى أعماق الأعضاء ، ومن مضارها الثانية وأمراض العصب الباردة وسقوط القوة وربما أورث الخفقان والغشى ، أما السكون الكثير فينشأ عن امتناع الأوتار عن طاعة العضل في الحركات وبلادة الحواس .

ويرتبط ذلك – بشكل غير مباشر – بموضوع الحرمان الحسي Sensory Deprivation .

المقالة السابعة : في أمر الاستفزاع فيمن أضر به الفصد : ويعالج بما عولج به من أضر

به الجماع (فيمن قصد على شرب ماء كثير) هذا يخاف عليه الاستسقاء لاندفاع الماء منحدرًا مع الدم إلى أغوار الأعضاء ، فينبغي أن يشتغل بإدراره إن كان حار المزاج .

ويرتبط ما جاء بهذه المقالة بمفهوم الأمراض العصبية (ص ٦٧) .

* * *

كتاب السياسة [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يعرض المؤلف في كتابه لأهمية السياسة على أساس أن الإنسان حيوان مدني محتاج للعيش في مجتمع من أجل قضاء حاجاته الأساسية ، وقد بدأ الكتاب بافتراض أن الناس يتفاوتون فيما بينهم في الصفات والرتب ، ثم عرض للزوم التدبر والسياسة لجميع الناس، وعرض لأقوال تبيِّن وجوب السياسة والحاجة إليها ، ثم ذكر أصناف هذه السياسة ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي ذكره :

التفاوت بين الناس في الصفات والرتب : وقد أوضح في بداية الكتاب أن هناك تفاوتًا بين الناس في الصفات والرتب ، حيث أقر أن اللَّه تعالى منَّ على جميع الناس بفضل رأفته منًّا مستأنفًا بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فنائهم ، لما يُلقى بينهم من التنافس والتحاسد ويثير من التباغي والتظالم ، فقد علم ذوو العقول أن الناس لو كانوا جميعًا ملوكًا لتفانوا عن آخرهم ، ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا عيانًا بأسرهم ، كما أنهم لو استووا في الغنى لما مَهَنَ أحدٌ لأحد ، ولا رفد حميمٌ حميمًا ، ولو استووا في الفقر لماتوا ضرًّا وهلكوا بؤسًا .

---

(١) تحقيق هشام نشابة . بيروت : دار العلم للملايين (١٩٨٨م) . ضمن كتاب : التراث التربوي في خمس مخطوطات / جمع وتحقيق هشام نشابة .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الفروق الفردية Indvidual Differences في علم النفس (ص ٢٨) .

لزوم التدبر والسياسة لجميع الناس : ويوضح ابن سينا في هذا الجزء أن أحق الناس وأولاهم بتأمل ما يجري عليه تدبير العالم من الحكمة وحسن إتقان السياسة وإحكام التدبير ، الملوك الذين جعل الله - تعالى ذكره - بأيديهم أزمة العباد ، وملّكهم تدبير البلاد ، واسترعاهم أمر البرية ، وفوض إليهم سياسة الرعية ، ثم الأمثل فالأمثل من الولاة الذين أعطوا قياد الأمم ، واستُكفوا تدبير الأمصار والكور ، ثم الذين يلونهم من أرباب النعم وسواس البطانة والخدم ، ثم الذين يلونهم من أرباب المنازل ورواض الأهل والولدان ، فإن كل واحد من هؤلاء راع لما يحوزه كنفه ويضمه رَحْله ، ويصرفه أمره ونهيه ومن تحت رِعْيته ، ويحتاج أصغرهم شأنًا ، وأخفهم ظهرًا ، وأرقهم حالاً ، وأضيقهم عَطَنًا ، وأقلهم عددًا من حسن السياسة والتدبير ، ومن كثرة التفكير والتقدير ، ومن قلة الإغفال والإهمال ، ومن الإنكار والتأنيب والتعنيف والتأديب والتعديل والتقويم ، إلى جميع ما يحتاج إليه الملك الأعظم .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم القيادة Leadership (ص ٢٨ - ٣٠) ، وسمات القائد (ص ٢٨ - ٣٠) .

أهل الإنسان : وعرض في هذا الجزء لأقوال مجملة في وجوب السياسة والحاجة إليها تمهيدًا لتناوله لسياسة الرجل مع نفسه ، ودخله وخرجه ، وأهله ، وولده ، وخدمه بالشكل التالي ذكره .

من سياسة الرجل مع نفسه : وبين هنا أن أول ما ينبغي أن يبدأ به الإنسان من أصناف السياسة سياسة نفسه ؛ إذ كانت نفسه أقرب الأشياء إليه ، وأكرمها عليه ، وأولاها بعنايته ؛ ولأنه متى أحسن سياسة نفسه لم يَعْيَ بما فوقها من سياسة المِصْر .

ومن أوائل ما يلزم من رامَ سياسة نفسِه أن يعلم أن له عقلًا هو السائس ، ونفسًا أمارة بالسوء ، كثيرة المعايب ، جمة المساوئ في طبعها ، وأصل خلقها ، هي المسوسة ، وأن يعلم أن كل من رام إصلاح فاسد لزمه أن يعرف جميع فساد ذلك الفاسد ، معرفة مستقصاة حتى لا يغادر منه شيئًا ، ثم يأخذ في إصلاحه ، وإلَّا كان ما يصلحه غير حريز ولا وثيق ، كذلك من رام سياسة نفسه ورياضتها وإصلاح فاسدها لم يجز له أن يبتدئ في ذلك حتى يعرف جميع مساوئ نفسه معرفة محيطة فإنه إن أغفل بعض تلك

المساوئ وهو يرى أنه قد عملها بالإصلاح ، كان كمن يُدْمِل ظاهر الكَلْم وباطنه مشتمل على الداء ، ولما كانت معرفة الإنسان غير موثوق بها لما في طباع الإنسان من الغباوة عن مساوئه وكثرة مسامحته نفسه عند محاسبتها ؛ ولأن عقله غير سالم من ممازجة الهوى إياه عند نظره في أحوال نفسه ، كان غير مستغن في البحث عن أحواله والفحص عن مساوئه ومحاسنه عن معونة الأخ اللبيب الواد الذي يكون منه بمنزلة المرآة فيريه حسن أحواله حسنًا وسيئها سيئًا ، وأحق الناس بذلك وأحوجهم إليه الرؤساء .

وينبغي لمن عني بتعرف مناقبه ومثاليه أن يفحص عن أخلاق الناس ، ويتفقد شيمهم وخلائقهم ، ويتبصر مناقبهم ومثالبهم ، فيقيسها بما عنده منها ، ويعلم أنه مثلهم وأنهم أمثاله فإن الناس أشباه ، بل هم سواء كأسنان المشط ، فإذا رأى المنقبة الحسنة فليعلم أن فيه مثلها ، إما ظاهرة وإما مغمورة ، فإن كانت ظاهرة فليراعيها ، وليواظب عليها حتى لا تبيد ولا تضمحل ، وإن كانت مغمورة فليثرها وليُحيها وليحافظ على استدعائها فإنها تجيب بأهون سعي وأسرع وقت ، وإذا رأى المثلبة والعادة السيئة والخلق اللئيم فليعلم أن ميلها راهن لديه ، إما باد وإما كامن ، فإن كان باديًا فليقمعه وليقهره وليُمِتْه بقلة استعماله وشدة نسيانه ، وإن كان كامنًا فليحرسه لئلا يظهر وينبغي للإنسان أن يعد لنفسه ثوابًا وعقابًا يسوسها به ، وحسُنت طاعتها وسلس انقيادها لما يسومها من قبول الفضائل وترك الرذائل .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم التربية Education (ص ٣٢ - ٣٥) ، ومفهوم الوعي بالذات Self - Awareness (ص ٣٢ - ٣٥) .

في سياسة الرجل دَخْلَه وخرجهُ : ويوضح المؤلف في هذا الجزء أنه ليس شيء أزين بالرجل من رزق واسع وافق منه استحقاقًا ، ثم ليطلب معيشته بصناعة على أعف الوجوه وأرفها وأبعدها عن الشره والحرص ، وأناها من الطمع الفاحش والمأكل الخبيث ، وليعلم أن كل فضل نيل بالمغالبة والمكابرة وبالاستكراه والمجاهدة ، وكل ربح حيز بالإثم والعار ومع سوء القالة وقبح الأحدوثة ، أو ببذل الوجه ونزف الحياء ، أو بثلم المروءة وتدنيس العرض .. زهيد وإن عظم قدره ، نزر وإن غزرت مادته ، وبيل وإن ظهرت هناءته ، وخيم وإن كان في مرآة العين مرايا ، وأن الصفو الذي لا كدر فيه والعفو الذي لا كدح معه ، وإن قل مقداره وخف وزنه ، أطيب مذاقًا وأسلس مساغًا وأنمى بركة وأزكى ريقًا .

فإذا حاز الإنسان ما اكتسبه فإن من السيرة العادلة في ذلك أن يكون بعضه مصروفًا في الصدقات والزكوات وأرباب المعروف وبعضه مستبقى مدخرًا لنوائب الدهر وأحداث الزمان .

في سياسة الرجل أهله : يوضح المؤلف أن جماع سياسة الرجل أهله بحسم وسط (كذا) ثلاثة أمور لا تدعه وهي : الهيبة الشديدة ، والكرامة التامة ، وشغل خاطرها بالمهم .

ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العلاقات الأسرية وبخاصة علاقة الرجل بزوجه (ص ٣٨ ، ٣٩) .

في سياسة الرجل ولده : إن من حق الولد على والديه إحسان تسميته ، ثم اختيار ظئره كي لا تكون حمقاء ولا ورهاء ولا ذات عاهة ، فإن اللبن يعدي كما قيل ، فإذا فطم الصبي عن الرضاع بُدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه ، فإذا اشتدت مفاصل الصبي واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعي سمعه أخذ في تعليم القرآن وصور له حروف الهجاء ولُقن معالم الدين ، وإذا فرغ الصبي من تعلم وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يُراد أن تكون صناعته موجهة لطريقه ، فإذا وغل الصبي في صناعته بعض الوغول فمن التدبير أن يعرض للكسب ، ويُحمل على التعيش منه .

ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي التنشئة الاجتماعية Socialization والعلاقات الأسرية وبخاصة علاقة الرجل بأولاده ، وتهذيب الأولاد وتوجيههم وإرشادهم (ص ٤٠ - ٤٢) .

في سياسة الرجل خدمه : طريق اتخاذ الخدم أن لا يتخذ الإنسان خادمًا إلا بعد المعرفة والاختبار له ، وإلا بعد سَبْرِهِ وامتحانه ، فينبغي أن تُعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم ، وأن تضرب عن الصور المتفاوتة والخلف المضطربة ، فإذا فرغ من ذلك فلينظر لأي أمر يصلح الخادم الذي يتخذه ، وأي صناعة ينتحل .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم العلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relationship ، (ص ٤٣ - ٤٥) .

* * *

رسائل متفرقة

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

هذه المجموعة من الرسائل ، تقع ضمن مجموعة أخرى لمفكرين آخرين كأبي شامة الشافعي والغزالي ، وابن عربي ، والرازي وغيرهم ، والمجموعة كلها تقع في كتاب ضخم ينقسم إلى قسمين عدد صفحاته ٦٣٥ صفحة من القطع الصغير تحتل مجموعة رسائل ابن سينا الصفحات من (١٨٩ - ٢٩٠) متصلة ، وتضم علم الأخلاق ، ورسالة العهد ، والقوى الإنسانية وإدراكاتها ، وأقسام العلوم العقلية ، ورسالة سر القدر ، ورسالة المبدأ والمعاد ، وبيان الجوهر بالنفيس .

عرض الرسالة الأولى : (في علم الأخلاق) : ويبدأها بضرورة استكمال المرء لقوته النظرية بالعلوم ، وتكميل قوته العملية بالفضائل التي أصولها الفقه والشجاعة والحكمة والعدالة المنسوبة إلى كل قوة من قواه ، وتجنب الرذائل فيها ، ويرى أن كل صفة من هذه الصفات تنتمي إلى قوة من القوى ؛ فالعفة إلى الشهوانية ، والشجاعة إلى الغضبية ، والحكمة إلى التمييزية ، والعدالة إليها مجموعة ، وينبثق عن كل قوة من هذه القوى أيضًا عدد من الصفات ؛ فالسخاء والقناعة راجعان ومنسوبان إلى القوة الشهوانية ، والصبر والحلم والكرم والعفو والصفح ، والتجاوز ، ورحب الباع وكتمان السر راجعة ومنسوبة إلى القوة الغضبية ، والحكمة والبيان والفطنة وإصابة الرأي ، والحزم والصدق والوفاء والود والرحمة والحياء ، وعظم الهمة وحسن العهد والتواضع راجع إلى القوة التمييزية .

ويستطرد الشيخ الرئيس ليعرف كل صفة من هذه الصفات تعريفًا محكمًا ، والكلام الذي يسوقه ابن سينا هنا يفيد فائدة مباشرة في علم النفس ، فحديثه عن القوى وتقسيمها يقابله تقسيم السلوك إلى قدرات أو وظائف نفسية بعضها عقلي Mental وبعضها مزاجي Temperamental ؛ كما أن الصفات التي ذكرها مرتبطة بكل قوة من هذه القوى هي أيضًا سمات ووظائف نفسية تنتمي إلى القدرات العقلية أو إلى سمات الشخصية فالعفة وهي الإمساك عن الشهوات وتصريفها بحسب الرأي الصحيح هو أقرب إلى السيطرة على الدوافع ، والصبر أقرب إلى ضبط النفس وكذلك الحلم ، والبيان (وهو حسن العبارة عن المعاني التي تهجس في ضميره فيحتاج إلى نقل صورها المتخيلة أو المعقولة إلى ضمير من يخاطبه) وهو أقرب إلى سيكولوجية اللغة أو التخاطب ، والفطنة أقرب إلى الذكاء ... وهي كلها مما يدرس في علم النفس الحديث (ص ١٩١ - ١٩٦) .

ويتابع ابن سينا حديثه فيبين أن كل إنسان مفطور على قوة بها يفعل الأفعال الجمية ، وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة والأخلاق كلها الجميل منها والقبيح وهي مكتسبة (وهنا نلمح الإشارة إلى التفرقة بين الوراثة والاكتساب وهي قضية يتعرض لها الدارسون في شتى موضوعات علم النفس الحديث ، كما تحمل في ثناياها الإشارة إلى قدرة الإنسان على التعلم Learning ودور العادة في ذلك التعلم ص ١٩٧) .

وفي موضع تالٍ يتعرض للعلاقة بين أخلاق أصحاب السياسات الجيدة ، وأصحاب السياسات الرديئة وبين أهل المدن (وهذا الحديث له متضمنات سيكولوجية فهو يمس موضوع القيادة Leadership ودور القائد Leader وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي أو كما يرى البعض علم النفس التنظيمي Organizational Psychology ومن ناحية أخرى يمس موضوع التعلم بالاقتداء Modeling (ص١٩٨ ، ١٩٩) أو المحاكاة .

ويلفت النظر إلى أن النفس الإنسانية لا يقتصر فعلها على إدراك المعقولات فقط ، بل تشارك البدن في أفعال أخرى يحصل بسببها لها سعادات ، وهنا يوجه الحديث مباشرة إلى أفعال النفس أو قل أنماط السلوك كالإدراك وغيره ، كما يناقش العلاقة بين النفس والبدن ، وهو كلام يدور مضمونه في فلك موضوعات نفسية يتناولها علم النفس الحديث (ص ٢٠٠ - ٢٠٣) .

عرض الرسالة الثانية : رسالة العهد : وهي رسالة مختصرة يواصل الحديث فيها عن

النفس وتزكيتها وإخراجها من القوة إلى الفعل عالمًا من عوالم العقل ، فيه الهيئة المجردة عن المادة وتحصيل كمالها من جهة العلم والحكمة ، وأن تتصف بالأخلاق الطيبة وتطلب الاستعلاء ، وتترك الغضب والشهوة ، وتحسن الفكرة وتهجر الكذب قولًا وتخيلًا ، وأن تجعل حب الخير للناس والمنفعة فضلًا إليهم ، وعشق الأخيار وحب تقويم الأشرار (وهذا الحديث أيضًا له متضمنات سيكولوجية كثيرة ، كالعقل (الذكاء والتفكير والقدرات العقلية النوعية) والانفعالات (الغضب) والدوافع ، وسمات الشخصية الجيدة ، وانتقاء الأصدقاء (ص ٢٠٠ - ٢٠٩) .

عرض الرسالة الثالثة : رسالة في القوى الإنسانية وإدراكاتها : وتحتوي على فصول أولها في أن قوى روح الإنسان تنقسم إلى قسمين ، قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالإدراك ، والعمل ثلاثة أقسام النشئي وإنساني وحيواني ، والإدراك قسمان : حيواني وإنساني ، وإذا تجاوزنا العمل النشئي والحيواني ، ووقفنا عند العمل الإنساني سنجد أن ما يميزه وجود عقل يفيده التجارب و يفيده التأديب فيؤتيه العيش بعد صحة العقل الأصيل (وهنا نعرض لأهم ما يميز العمل الإنساني وهو العقل ، والعقل من موضوعات علم النفس ، كما أن فكرة الاستفادة من التجارب ، هي مما يميز دراسات علم النفس الحديث ص ٢١٣) .

ويناقش ابن سينا أيضًا موضوعًا من أهم موضوعات علم النفس الحديث وهو الإدراك الحسي Perception ، ثم يربطه بموضوع آخر هو الذاكرة Memory أو كما يسميه هو الذكر ، ثم يفصل الحديث بعد ذلك عن الحواس الخمس ، بل يتجاوز ذلك محاولًا تحديد مواضع إدراكات الحواس في الدماغ ، ومن القوى أيضًا ما يسميه بالقوة المفكرة ، فإذا استعملها الوهم تسمى متخيلة (وهذا الحديث يصب مباشرة في بعض فروع علم النفس العام كالإدراك الحسي والتخيل والتذكر والتفكير ، كما أن البحث عن مواضع الوظائف النفسية في الدماغ ينتمي لدراسات علم النفس الفسيولوجي من جهة وعلم النفس العصبي Neuropsychology من جهة أخرى (ص ٢١٢ - ٢١٦) .

وفي فصل تال يميز بين الحس والعقل ؛ فالحس تصرفه فيما هو من عالم الخلق والعقل تصرفه فيما هو من عالم الأمر . وما هو فوق الخلق والأمر فهو محتجب عن الحس والعقل وليس حجابه غير انكشافه (ص ٢١٩) .

وفي الفصلين المتبقين يتحدث في الأول عن الملائكة وذواتها ، والثاني عن القلم

واللوائح والكتابة (ص ٢٢٠ - ٢٢٤) .

عرض الرسالة الرابعة : عن أقسام العلوم العقلية (ص٢٢٥ - ٢٤٣) : ويتناول فيها ماهية الحكمة ، وأول أقسام الحكمة ، ثم تفصيل الحكمة النظرية والحكمة العملية ، وفصل في أقسام الحكمة الطبيعي ، ثم أقسام الحكمة الفرعية الطبيعية ، ويتحدث كذلك عن الأقسام الأصلية للحكمة الرياضية ، والأقسام الفرعية للعلوم الرياضية ، والأقسام الأصلية للعلم الإلهي ، وفروع العلم الإلهي ، ويختتم هذه الرسالة بالأقسام التسعة للحكمة التي هي المنطق ، ويتحدث في القسم الأول عن أقسام الألفاظ والمعاني من حيث هي ثلاثة ومفردة ، والقسم الثاني يتبين فيه عدد المعاني المفردة الذاتية الشاملة بالعموم لجميع الموجودات من جهة ما هي تلك المعاني من غير شرط تحصلها في الوجود أو قيامها بالعقل . (والكلام هنا ينتمي بشكل غير مباشر لبعض اهتمامات علماء النفس المعنيين بسيكولوجية اللغة Psycholinguistics وهي إحدى التخصصات الحديثة في علم النفس ص ٢٤٠ ، ٢٤١) .

عرض الرسالة الخامسة : رسالة سر القدر : وهي رد على بعض السائلين عما يريده الصوفيون من قولهم : من عرف سر القدر فقد ألحد ، وأوضح في جوابه أن هذه المسألة فيها أدنى غموض ، وهي من المسائل التي لا تدور إلا مرموزة ولا تعلم إلا مكنونة لما في إظهارها من إفساد العالم . (وجل الكلام هنا يتعلق بالآخرة والحساب والثواب والعقاب ص ٢٤٥ - ٢٤٩) .

عرض الرسالة السادسة : رسالة المبدأ والمعاد : وتدور حول أربع مسائل من تصانيف الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا في أمر المعاد ، والسؤال الأول فيها من أي موضع جئنا إلى هذا العالم ؟ والثاني لأي شيء جئنا ؟ والثالث عندما نخرج من هذا العالم إلى أين مرجعنا ؟ والسؤال الرابع ما يكون حالنا بعد مفارقة الدنيا عند حصولها في البرزخ ؟ .

عرض الرسالة الأخيرة : في بيان الجوهر النفيس : ويقول فيها ابن سينا : إن هذه رسالة أَبَنْتُ فيها عن خالص رأي الأقدمين في حقائق الأجرام العلوية حسبما استخلصته من كلامهم المعرب الواصل إلينا .

ويقسمها إلى فصول ، الأول فيها حول تقسيم الأجسام إلى مركب وبسيط ، والثاني حول أصول ومبادئ أخرى لاحت للطبيعيين في مسألة البسيط والمركب ، والثالث في علاقة القوة الطبيعية أو الطبيعة بالتباسط والمركبات ، والرابع توضيح بأن الفلك ليس من

عالم الكيان وأنه موجود على سبيل الإبداع والاختراع وأنه لا ضد لصورته ، وأن طبيعته وذاتيته لا يمكن أن تتخيل ، وإن أمكن تخيل الشكل والاستنارة والإشفاف والاستمساك ولذلك ، فالفلك - في رأي الشيخ الرئيس - جوهر جسماني مستدير الشكل والحركة غير متزحزح عن موضعه الطبيعي ولا ساكن عن وضع واحد .

ثم يختتم هذه الرسالة بخاتمة مهمة جدًا - كما يقول - تبين أن العلم الحق لا يؤخذ من الحواس كما هو شأن كثير من الناس الذين انخدعوا عن الثوابت بخداع المشعر الحاس وقوة الوسواس .

* * *

الكِتَابُ في سُطُورٍ

أغفل مؤرخو علم النفس الغربيون الإشارة إلى إسهام علماء النفس المسلمين في تطور علم النفس وتقدمه ، وما وصلوا إليه من آراء ونظريات لم يسبقهم إليها أحد من العلماء قبلهم . ويرجع ذلك الإغفال إلى جهلهم بتراث المسلمين العلمي ، وبما يحتوي عليه من آراء ومفاهيم ونظريات نفسية ، ولعل مسؤولية ذلك إنما ترجع إلى عدم اهتمام علماء النفس المحدثين بدراسة تراثنا العلمي والتعريف به . وتأتي هذه الموسوعة - ذات الأجزاء الثلاثة - لتبرز الدور المهم الذي قام به علماء النفس المسلمون في تطور علم النفس وتوضح القيمة العلمية لما قدموه من آراء حول بعض موضوعات علم النفس ، فتمكن الباحثين المعاصرين من الإحاطة بموضوعات التراث العربي الإسلامي كخطوة لتأصيل هوية عربية إسلامية لعلم النفس المعاصر . وتتناول الموسوعة بالشرح والتفصيل عرض وتكشيف ٣٠٠ كتاب ومخطوط من أمهات الكتب في التراث العربي الإسلامي والمتضمنة مفاهيم ومصطلحات ونظريات وآراء نفسية . والموسوعة تسهم في ملء ثغرة كبيرة افتقدها التأريخ الموضوعي لعلم النفس وتبرز الدور العلمي للعلماء والمفكرين العرب والمسلمين في مجال الدراسات والنظريات النفسية .

Dar-Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN : 977-342-650-5

9789773426507